

نحو القلوب

الصغير والكبير

للإمام زين الإسلام عبد الكريم القشيري

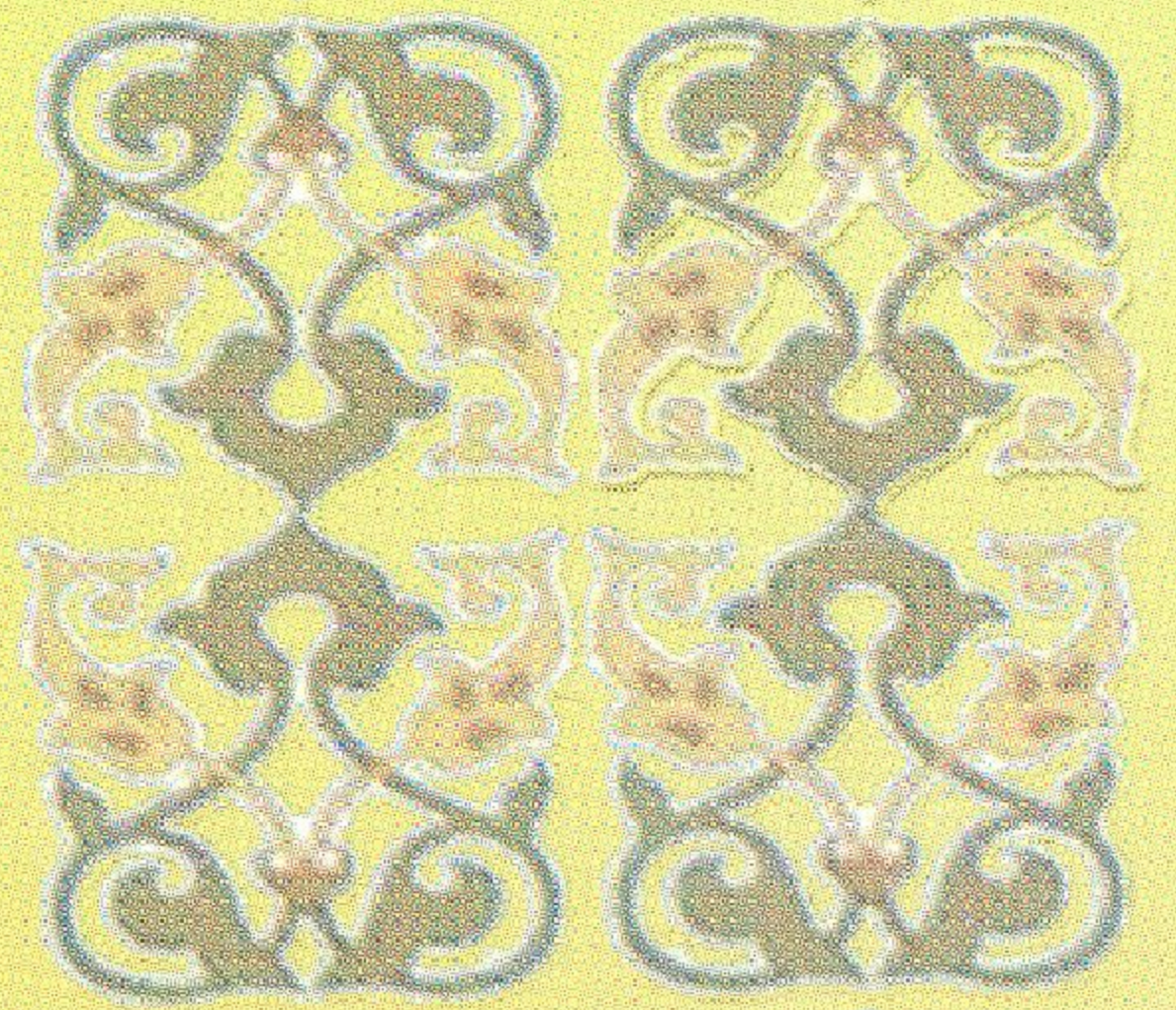
محاولة ممتعة للنظر في النحو العربي إلى أسواق الحب الإلهي ومذاقته

قدم له وحققه وعلق عليه

ركتور أحمد علم الدين الجندى

شارك في تحقيق نحو القلوب الكبير

ركتور إبراهيم بسيوف



نَحْوُ الْقُلُوبِ

القشيري ، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك
ابن طلحة النيسابوري ، ٩٨٦ - ١٠٧٢ هـ

نحو القلوب الصغير / لعبد الكريم القشيري
(زين الإسلام . مستعار)، تقديم وتحقيق وتعليق
أحمد علم الدين الجندي . - القاهرة: الهيئة
المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨.

٧٠٨ ص : ٢٤ سم .

تدمك ٨ ٣٦٦ ٤٢٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - اللغة العربية - النحو

(١) الجندي ، أحمد علم الدين (محقق ومعلق)

٢ - العنوان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٣٢١٣ / ٢٠٠٨

I.S.B.N - 978 - 977 - 420 - 366 - 8

ديوى ١، ٤١٥

إهداء ٢٠٠٨

دار الكتب و الوثائق القومية
القاهرة

نحو القلب الصغير

للإمام زين الإسلام عبد الكريم القشيري

قدم له ومققه وعلق عليه

دكتور أحمد عالم الدين الحنزي



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٨

أشرف على هذه الطبعة
سـاـوـى مصطفى

أعد الفهارس
سميرة مصطفى كمال
سمية حسنى

راجعها
أحمد حسن

الإخراج الفنى
عمر حماد على

التنفيذ
مادلين أيوب فرج

تصميم الغلاف
رشيدة رشاد

الخطوط
أوس السنوسى

مدخل

لم يغل القرآن الأقدس من لمحات صوفية^(١)، وليست التزكية في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾^(٢) إلا لمحة صوفية تتم بعلم وعمل ومتابعة.

فالتزكية تحلية بالفضائل، وتخلية عن الرذائل، ثم بالتجلية في جلال الملكوت وجماله، وكشف أعماقه وأسراره.

وكذلك كان سائر الأنبياء والرسل مثالا للصوفية، فمحمد ﷺ استمر سنوات يتردد على غار حراء متعبداً متجرداً متنسكاً حتى هبط عليه الوحي وهو في ذروة تصوفه، وعيسى عليه السلام يعتزل الناس في خلوته يتأمل مع نفسه...

وحين سئل الرسول ﷺ عن الإحسان أجاب: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وصدر الحديث يصل بك إلى مقام المشاهدة، ونهايته تمنحك مقام التقوى والمراقبة، وما دامت هذه الرؤية ملء السمع والبصر والفؤاد لم يعد يرى الإنسان ذاته إلا من خلال «الله» فتعبده وكأنك تراه! ثم تجد الهدف الأسمى يقرره الرسول ﷺ: «لى وقت مع الله لا يسعنى فيه إنس ولا جن ولا ملك ولا شيطان».

فالتصوف علم أصيل في الإسلام مستمد من الكتاب والسنة وليس بدعا في الدين. وفيه يقول الجنيد^(٣): لو علمت أن لله علما تحت أديم

(١) ففي كثير من آياته ﴿هَبَادَى﴾ البقرة: ١٨٦، إبراهيم: ٣١، و﴿عِبَادَنَا﴾ يوسف: ٢٤. ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ المائدة: ٥٤ ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ التوبة: من آية ١٠٠ ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾ المجادلة: ٢٢ ﴿فَلَا يَمَأْ تُولُوا فَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ البقرة: ١١٥.

(٢) الجمعة: ٢.

(٣) سيد هذه الطائفة وإمامهم، أصله من نهلوند ت ٢٩٧هـ. وكان الكتبة يحضرون مجلسه لألفاظه، والفقهاء لتقريره، والفلاسفة لدقة نظره ومعانيه، والمتكلمون لتحقيقه، والصوفية لإشاراته وحقائقه (الرسالة: ١٠٥).

السماء أشرف من هذا العلم الذى نتكلم فيه مع أصحابنا وإخواننا لسعيت إليه^(٤)، لأن موضوعه يدور حول النفوس والقلوب والأرواح: تصفية، وتهذيبا، وسلوكا، ومناجاة، ومشاهدة. ومن عرف نفسه عرف ربه.

فالتصوف لباب الشريعة ومنهاج الطريقة وجماع علوم الدين، وهو متصل بالله، وقائم به وله، وسمى الغزالي التصوف (العلم الأعلى الأشرف) وقد أشار الرسول ﷺ فى حديثه إلى تدرجه حيث قال: «أعوذ بعفوك من عقابك» فهذه ملاحظة الفعل. ثم قال: «وأعوذ برضاك من سخطك» وهذه ملاحظة الصفات، ثم قال: «وأعوذ بك منك» وهذه ملاحظة الذات، فلم يزل يترقى إلى القرب درجة بعد درجة، ثم عند النهاية اعترف بالعجز فقال: «لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»^(٥).

- ٢ -

وإذا كان التصوف كذلك فلا يؤخذ من الأوراق ومطالعة الكتب، وإنما يؤخذ من أهل الأنواق، والوجدان، والتحقيق، والعرفان، فلا يكون الإنسان صوفيا حتى يعلم، ولا يكون عارفا بالله حتى يعمل، ولا يكون قريبا منه حتى يصبح ذا حال إيمانى وخلق ربانى، فمبناه: علم ثم عمل ثم حال^(٦). وذلك مصداق قوله ﷺ «من عمل بما علم، رزقه الله علم ما لم يعلم، ووفقه فيما يعمل حتى يستوجب الجنة، ومن لم يعمل بما يعلم، تاه فيما يعلم، ولم يوفق فيما يعمل حتى يستوجب النار». والصوفى بهذا المعنى يتجاوز حياته ليرى (الله) فى كل شئ، فى: الزهرة والبسمة، والومضة والظلمة، والخوف والرجاء، والأرض والسماء. قال محمد بن واسع: ما رأيت شيئا إلا ورأيت الله فيه!

(٤) الرسالة القشيرية ٧٣٤ تحقيق د/ عبد الحلیم محمود

(٥) جواهر القرآن للغزالي ٢٤ ط ٢. الرحمانية بمصر.

(٦) ص ٢٣ المدخل إلى التصوف الإسلامى، السيد الفيضى. ط الدار القومية - مصر.

واستمع إلى الفطرة السليمة في ذلك يصورها لك جعفر الصادق حين جاءه رجل يسأله عن (الله). فقال له جعفر: ألم تتركب البحر؟ قال: بلى. فقال جعفر: هل هاجت بكم الريح عاصفة؟ قال: نعم. فقال جعفر: فهل خطر ببالك أن هناك من يستطيع أن ينقذك إن شاء؟ قال: نعم. قال جعفر: فذلك هو «الله»^(٧).

وهذا هو الفناء الذي صورته الحديث القدسي: «كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به».

فالإنسان يرتفع ببشريته، ويسمو حتى يتخلق بأخلاق الله.

والصوفي عندما يبحث عن الحقيقة، إنما يبحثها في إطار الشريعة، ليزيدها قوة وعمقاً، وثباتاً ونقاء، وصفاء واصطفاء، فلا دخول لحقيقة إلا من باب الشريعة، والشريعة باب الحق، والحقيقة بيت الحضرة، والشريعة أن تعبده، والحقيقة أن تشهد!

ومن هذا المقام مقام (المشاهدة) و(الكشف) بوصول النفس إلى مرتبة شهود الحق بالحق، وانكشاف العوالم والأسرار، يؤمن الصوفي إيماناً كاملاً (بالغيب) وتلك ميزة الأديان كلها عن العلوم والفلسفات والماديات: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾^(٨) فالذي لا يؤمن بالغيب يجد نفسه كافراً بالدين كله.

ومن هنا كان اتجاه (مدنيتنا المعاصرة) إلى المادة لتجد فيها الدائرة الثابتة التي تتكشف فيها الحقائق وما عدا ذلك من (الغيب)، زيف وسراب، وكان هذا أول مدخل علمي إلى الكفر يضعه أقطاب الإلحاد والفلسفات الوجودية الداعرة، والشهوات المسعورة السافرة، وذلك أن «التفسير

(٧) من مقالنا: قضايا إسلامية في مجلة (الرأي) الليبية. العدد ٤٢.

(٨) البقرة: ٢، ٣.

اللاهوتى للأحداث والواقع لا يمكن إثباته بالوسائل العلمية، والدين قام على حقيقة لا سبيل إلى مشاهدتها وفحصها علميا، فالدين باطل زائف لا حقيقة له^(٩)، والفلسفة الشيوعية ترى أن الدين خدعة تاريخية، بل ذهب أستاذ أمريكى فى طب الأعضاء إلى أن الدين كان أقسى وأسوأ خدعة فى التاريخ^(١٠) ومن أجل هذا حكموا على المؤمن بالله والغيب بأنه - فى ميزانهم - رجعى وفى منطقهم متخلف.

وكارثة هذه المبادئ والأفكار - التى تحيط بعالمنا الإسلامى وتتسلل إليه - أنها تعتبر التقدم قد جب ما قبله من مناهج الفكر، وأحل محلها المنهج العلمى، كما يرون أن تطور حركة التاريخ نسخت الإسلام نسخا نهائيا، ولا بد من الاعتماد على موقف علمى عقلانى تجاه الحياة المعاصرة، وهم يعتمدون على التاريخ، والوجود، والعقل، أما الله والروح والخلود فهى فى نظرهم غير ذات موضوع^(١١).

وتلك المبادئ التى نادى بها هؤلاء قادت قطعانا من البشر فى وادى الإلحاد حيث ألّٰهوا المادة وعبدوها، ومن المؤسف حقا أن بعضا من شبابنا فى العالم الإسلامى قد استهواهم هذا الانتماء إلى تلك الأفكار الماركسية المسمومة والاتجاهات العلمية البحتة.

ثم هل يمنحنا العلم والعقل الإيمان بالغيب وما وراءه؟ - إن بحث قضايا التصوف والأديان من خلال الإيمان بالغيب - وهو قاعدة التفكير والاعتقاد - يبدد أمامنا جحافل الظلام، ويمزق أمام أعيننا ركام الشك، ويبلغ بنا مطالع النور، ويهديننا إلى أنوار الحقيقة.

(٩) ص ٢٦ الإسلام يتحدى: تأليف: وحيد الدين خان وتعريب ظفر الإسلام خان، ومراجعة وتقديم د. / عبد الصبور شاهين.

(١٠) ص ٢٠: الإسلام يتحدى.

(١١) الإسلام وتحديات العصر: ٢٩ د. / حسن صعب بيروت ط ٢.

ومن حسن الحظ أن نفرأ من العلماء حينما تعمق فى أسرار المادة والطاقة، شردت المادة منهم وأفلتت الطاقة من أيديهم، وارتدت كثير من الملاحظات والتجارب العملية المادية إلى الروحانية، وما وراء هذا العالم، وهذا واحد من علمائهم (أينشتين) يرى أن الإنسان الذى لم يختبر وقفة من وقفات الصوفية حيال ذلك العالم، ولم يشعر نحوه بالروعة فهو حى حكمه حكم الميت»^(١٢).

وذلك عالم روسى بردييف (Berdyaeff) اختبر أزومات أوروبا كلها، وشهد أزومات القيصرية فى روسيا، كما شهد أزمة الشيوعية، ولم تزده هذه المواقف المحيرة إلا اعتصاما بالضمير الروحانى وساء ظنه بالثقافات والحضارات الغربية، لأنها تستغرق النفوس بالشواغل الدنيوية التى تتحصر فى السطوة والمال، ويبشر بصوفية وروحانية جديدة؛ لأن الصوفية فى نظره أعمق من الديانات ويجب أن تنتصر الصوفية على أباطيل الدعوات الاجتماعية المتشبهة بها، كما يجب أن تنتصر دولة الروح على دولة القيصر^(١٣).

ومعنى هذا أن مناهج البحث عن (الحقيقة) قد أفلست، حين اتخذت من المادة وحدها تجربتها وتفسيرها، وهذا يتنافى مع الإنسان والخلق والدين، فالعالم الذى نعيش فيه على شفا جرف هار مع انطلاق الماديات وسيطرة العلوم، وصرامة قبضة الإنسان فى الكون، وهذا يعنى أن العالم لن تحل مشاكله بالوقوف على علوم المادة ونظرياتها، وتفسيراتها وحتميتها، والاحتمالات الرياضية، وحقيقة الوجود، ونظريات التطور العضوى، والكشوف الحديثة، والسنن الكونية، بل إن مشكلات هذا العالم منبعها عجزه عن إشباع روحه، لا من عجزه عن إشباع جوفه.

(١٢) عقائد المفكرين فى القرن العشرين ٩٧ وما بعدها: المقاد. الناشر (الأنجلو المصرية).

(١٣) عقائد المفكرين: ١٣٥.

وقد استطاع الإسلام أن يوفق بين الروح والمادة، والدين والعلم لأنه مدنية كاملة، وذلك سر خلوده وبقائه. واستمع إلى الأستاذ بروم (Broom)^(١٤) حيث يقرر بأنه لم تقنعه مباحثه في دراسة التخفريات الفقرية طيلة خمسين سنة بأن أنواع الحياة الأخيرة قد جاءت من طريق التطور وكفى، بل أقنعتة كذلك بأن هذا التطور لم يحدث جزافاً ولا عرضاً، ولكنه حدث بهداية أو هدايات روحانية.

ومن هنا نرى أن الصوفية قد طوت هذه الأبعاد والمسافات، وصححت الانحرافات والنتوآت، ووصلت إلى النهاية من أقصر طريق حين ابتدءوا سيرهم من عالم غير عالم الشهادة، وهو عالم الوعي الروحي، على حين ضل غيرهم ضلالاً بعيداً حين اعتمدوا على تجاربهم وأجهزتهم، ومعادلاتهم ومعاملهم.

٣٠.

إن الميزان الدقيق في الإسلام هو أن نتجه بأعمالنا إلى الله، لتصبح الحياة كلها عبادة: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١٥)، فنسمو بها وتسمو بنا، ونحولها إلى طريق الحق والخير، والحب والرحمة، وبهذا ينتقل الإنسان من الأرض إلى السماء، وإلى هذا تدعو الصوفية: إلى عبادة مخلصة لله، مع عبودية صادقة له، نتقرب إليه لنيل محبته، ومعاملة للخلق بإحسان، فالتصوف الحق: عبادة وعرفان وأخلاق، وهو: التهذيب علماً، وتخلقا، وتحقيقاً. وفي ذلك أعلى مراحل الدين، وعلينا نحن المسلمين أن نعمق هذا الاتجاه الصوفي بإبراز هذا المنهج الإسلامي الروحي، وننشر أهدافه ومعالجه - بالقدوة والسلوك والتأثير، لا بالتزييف والوعظ والشعارات والمباهاة.

(١٤) عضو الجمعية الملكية الإنجليزية: ٨٨: عقائد المفكرين.

(١٥) الأنعام: ١٦٢.

وتلك هي الروحانية الصادقة - وهي سمة الإسلام - التي تؤهل الإنسان لخلافة الأرض، وتميزه عن غيره من الأدعياء.

فليس التصوف كلاما لا روح فيه، وتفهيها لا عمل معه، وليس شططا وخصاما، ولا تعصبا وجدالا، ولا خمولا وانهزاما، ولا تواكلا وهوانا.

وليس من التصوف في شيء من يرى الله من خلال هذا الكون رؤية خداع يقول (الله) ويقنع بها هتافا حرفيا، ونداء ظاهريا، لا يصل إلى روحه وكيانه، ولكن الصوفي الصادق يقولها، وما في الكون كلمة أحب إلى قلبه منها، فالعبد في حنين دائم، وشوق عريض، يراه (الجنيد) بأنه عبد ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، والحب الإلهي عند الصوفي من أكبر همومه، وهو معرفة وتمكين وتحقيق، والعبادة عند الصوفي ليست طقوساً ولا رسوماً، وإنما هي حب أولا وأخيراً. يقول أبو يزيد البسطامي «توهمت أنى أذكره (أي الله) وأعرفه، وأحبه، وأطلبه. فلما انتهيت رأيت ذكره سبق ذكرى، ومعرفته سبقت معرفتى، ومحبته أقدم من محبتى، وطلبه لى أولا حتى أطلبه»^(١٦).

والتصوف هو اليقين الذى يضيء الحياة وما بعد الحياة، ويرتفع بالإنسان إلى أعلى كفاحه، وأسمى نضاله، ليجاهد النفس، ويقتلع جذور الشر، وفوق هذا كله: إخبارات لله، وتعلق به، ومحبة له.

إنه حركة بعث....

إن أمل الصوفي أن يصبح (الله) فى حس العالم كله واقعا محسوسا، نعتة الحب، ونظامه الحكمة، وبهذا يسمو الإنسان حتى تصبح أعماله وأقواله: صلاة وتسبيحا، ويصبح الكون محرابا يلتقى فيه مع الإنسان:

(١٦) الرسالة القشيرية: ١٨٩ (التقدم العلمية ١٣٤٦ هـ مصر).

الجمادات والنباتات وعالم الطير والماء، ثم ينطلق هذا الحشد في مواكب الحياة: دعاء وعبادة ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (١٧).

واستمع إلى قول د/ تشارلس ستانيمتز «لسوف يحول علماء الدنيا معاملهم إلى معرفة الله والصلاة، وعندما يأتى هذا اليوم، سيشاهد العالم فى جيل واحد من التقدم أكثر مما شاهده فى الأجيال الأربعة السابقة» (١٨).

إن مفهوم التصوف الذى نريده لعالمنا المعاصر، ألا نرى غير الله سيداً، فلا خضوع إلا لله، ولا عبادة للأبطال والقادة، ولا عبودية للمال والاقتصاد والدولة، ولا عبودية للتقاليد والعادات.

هذا نظامنا الذى أبدعه المسلمون عزة واقتداراً.

على أننا لا ننكر أن هنا وهناك بيئات صوفية وجدت فى كل مكان وزمان مشوهة الخلق تؤمن بالمظاهر والأشكال، ولم يستقيموا على الطريقة، فضلوا وأضلوا، ويتحدث الإمام القشيري عن هذه الأوضاع المنحرفة من بعض الصوفية فى زمنه فى مفتتح رسالته: «ثم اعلموا، رحمكم الله، أن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم، ولم يبق فى زماننا هذا من هذه الطائفة إلا أثرهم، كما قيل:

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحى غير نسائها

..... مضى الشيوخ الذين كان بهم اهتداء، وقل الشباب الذين لهم بسيرتهم وسنتهم اقتداء، وزال الورع وطوى بساطه، واشتد الطمع وقوى

(١٧) الإسراء: ٤٤.

(١٨) مجلة الراى: العدد ٤٢.

رباطه. وارتحل عن القلوب حرمة^(١٩) الشريعة، فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة^(٢٠)، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام، ودانوا^(٢١) بترك الاحترام، وطرح الاحتشام، واستخفوا بأداء العبادات، واستهانوا بالصوم والصلاة، وركضوا في ميدان الفضلات، وركنوا إلى اتباع الشهوات، وقلة المبالاة بتعاطي المحظورات.. ولعل الله سبحانه يجود بلطفه في التنبيه لمن حاد عن السنة المثلى في تضييع آداب هذه الطريقة^(٢٢).

وإن كل تطرف في التصوف الإسلامي، مرده إلى أثر وافد غريب، أما الجانب المتزن فهو من عمل الإسلام.

- ٤ -

إن الصوفية تحمل وأعباء، وتضحية وابتلاء، وفتوة^(٢٣) ووفاء، وقد كان

(١٩) احترامها.

(٢٠) أقوى وسيلة يصلون بواسطتها إلى مآربهم.

(٢١) تدينوا بعدم احترام الشيوخ.

(٢٢) الرسالة ص ٢٠ فما بعدها تحقيق د. عبد الحلیم محمود وزميله. وانظر اللطائف: ٤١٢/٥.

(٢٣) وقد أشاد القرآن بخلق (الفتوة) عندما وصف أصحاب الكهف بأنهم «فَتِيَّةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى» (الكهف: ١٢) وهم فتية، لأنهم آمنوا بربهم بلا واسطة (الرسالة القشيرية ٤٧٢ تحقيق د. عبد الحلیم محمود).

وقد وصف بهذا الخلق إبراهيم عليه السلام، ففي سورة الأنبياء ٦٠ «قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ» أو ليس من الفتوة أنه كسر أصنامهم وجعلها جذاذا؟

ثم أخذت الفتوة تعبر التاريخ، وتمخر الأمد متطورة حتى اكتملت في سيدنا رسول الله ﷺ، يقول القشيري: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول «هذا الخلق (أي الفتوة) لا يكون كماله إلا لرسول الله ﷺ، فإن كل أحد في يوم القيامة يقول: نفسى نفسى، وهو - ﷺ - يقول: أمتى أمتى. (الرسالة ٤٧٢ تحقيق د. عبد الحلیم محمود).

وبهذا نجد أنفسنا أمام فتوة إسلامية تختلف عن الفتوة العربية الجاهلية، ففتوة الإسلام تسمو على فتوة الجاهلية وترتفع، وتصرع أنانيتها بالإيثار والبذل، والصدق والمروءة، وتقوم على مبدئين مهمين: الإيثار والجهاد، ولهذا يعرف الجنيد الفتوة بقوله «فضيلة تأتياها ولا ترى نفسك فيها» والفتى عندهم: من لا يدخر ولا يعتنر، وقال عنها الحارث المحاسبى «أن تتصف ولا تتنصف» الرسالة ٢٧٢. وقيل: الفتى - بطبع مولاه، ويخالف هواه، ويراقب الله ويخشاه، ويستحي منه كأنه يراه. أما جانب الجهاد، فقد رابط هؤلاء الفتيان في الثغور الإسلامية في: تركستان، وعلى الحدود بين الأناضول=

منهم في الصدر الأول فدائيو الإسلام والصناديد الذين قاموا بالفتوحات الإسلامية شرقا وغربا يَقتلون وَيُقَتَّلون، حتى جعلوا ظلام الأرض نورا، وحولوا جهلها علما، وقلبوا ظلمها عدلا، فكتائبهم موصولة بالله، وألويتهم حول راية القرآن معقودة، ومواقفهم في الثغور الإسلامية لصد غارات الأعداء والطارئين معروفة، فأعينهم ساهرة في (الرباطات)، لا تعرف للنوم طعما، ولا للراحة سبيلا، ومثلهم الأعلى سيدنا محمد رسول الله ﷺ الذي تحمل أثقل الصعاب وأشق الكفاح: «إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا» كما نشروا الفكر الإسلامي في ربوع المعمورة، فكان منه المعلمون، والأساتذة والرواد الذين حملوا مشاعل الثقافة في كل اتجاه يعلمون ويربون ويهذبون.

واليك صورا متألقة من حياتهم ومجاهداتهم، ومذاقاتهم، للاهتداء والافتداء:

● يقول الشبلي «أنا المأخوذ بجرائم الخلق» وهذا جانب من الفتوة الصوفية حيث يتحمل وحده أخطاء مجتمعه».

● وكان أكثر دعاء إبراهيم بن أدهم وهو من أبناء الملوك: «اللهم انقلني من ذل معصيتك إلى عز طاعتك».

= وبلاد ما بين النهرين، وفي إسبانيا، لصد غارات المغول والبيزنطيين والإفرنج ولم يكن (الرباط) مركزا حربيًا فعسب، بل كان دينيا أيضا، لا سيما بعد أن امتزجت الفتوة بالصوفية، ومن هنا وجدنا الفتوة تتلاقى وتتصافح مع الصوفية وذلك في كثير من: خصالها، وتعاليمها، وقوانينها (انظر: الفتوة. تأليف ابن عمار البغدادي. تحقيق د. فؤاد حسانين القاهرة ١٩٥٩) بدليل وجود مؤلف سنة ٦١٢هـ/ ١٢١٦م لأحمد بن الياس النقاش، يسمى (تحفة الوصايا) عالج فيه (الفتوة) من الجانب الصوفي، كما أن القشيري عقد بابا في رسالته الصوفية المشهورة سماه (باب الفتوة).

هذا، وقد تلقفت أوروبا في العصور الوسطى نظام الفتوة من المسلمين حين تم الاتصال بيننا وبين الإفرنج والنورمنديين والصلبيين في إسبانيا وصقلية وفلسطين حيث نقل شباب الإفرنج واستعار نظام الفتوة الإسلامية ومثلها العليا وطبقوه عندهم باسم (فروسية الإخوان) حتى صار الغرب يزهو بهذا الخلق ويدل على جميع الحضارات - وهو أصل من تراثنا وأمجادنا.

وقيل له مرة: إن اللحم قد غلا!!

فقال: أرخصوه. أى: لا تشتروه. وأنشد:

وإذا غلا شيء على تركته فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

وكان يعمل فى الحصاد، وحفظ البساتين، وينفق على أصحابه.

وقال سهل بن إبراهيم: صحبت إبراهيم بن أدهم، فمرضت، فأنفق على نفقته، فاشتريت شهوة، فباع حماره وأنفق على ثمنه.

فلما تماثلت، قلت: يا إبراهيم، أين الحمار؟ فقال: بعناه، فقلت: فعلى ماذا أركب؟ فقال: يا أخى على عنقى. فحملنى ثلاث منازل^(٢٤)!!

● وقيل لبشر بن الحارث الحافى ت ٢٢٧هـ: بأى شيء تأكل الخبز؟

فقال: أذكر العافية وأجعلها إداما. وقد استشفع الخليفة المأمون بأحمد ابن حنبل فى أن يأذن بشر بن الحارث للمأمون فى زيارته. فأبى بشر^(٢٥)!!

وقال بشر: أشد الأعمال ثلاثة:

الجود فى القلة، والورع فى الخلوة، وكلمة الحق عند من يخاف منه ويرجى.

وقيل: جاءت أخت بشر الحافى إلى أحمد بن حنبل وقالت: إنا نغزل على سطوحنا فتمر بنا مشاعل الظاهرية، ويقع الشعاع علينا، أفيجوز لنا الغزل فى شعاعها؟ فقال أحمد: من أنت؟ عافاك الله تعالى. فقالت: أخت بشر الحافى. فبكى أحمد وقال: من بيتكم يخرج الورع الصادق. لا تغزلى فى شعاعها^(٢٦).

(٢٤) الرسالة القشيرية: ٥٢/١.

(٢٥) المرجع السابق: ٧١/١.

(٢٦) الرسالة: ٢٨٦/١.

● والحارث المحاسبى ت ٢٤٢هـ ورث من أبيه سبعين ألف درهم فلم يأخذ منها شيئا قيل: لأن أباه كان يقول بالقدر^(٢٧)، فرأى من الورع ألا يأخذ من ميراثه شيئا. ويقول الفزائى: «المحاسبى خير الأمة فى علم المعاملة».

● ودخل رجل على داود بن نصر الطائى ت ١٦٦هـ، فرأى أمامه جرة ماء انبسطت عليها الشمس فقال له: ألا تحولها إلى الظل؟ فقال: حين وضعتها لم يكن شمس، وأنا أستحي أن يرانى الله أمشى لما فيه حظ نفسى^(٢٨).

● ويقول أبو زيد البسطامى ت ٢٦١هـ: «لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقى فى الهواء، فلا تفتروا به، حتى تتظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى، وحفظ الحدود، وأداء الشريعة^(٢٩)».

● وهذا أبو تراب النخشى ت ٢٤٥هـ. يقول: ما تمننت نفسى عيشيئا قط، إلا مرة واحدة: تمننت على خبزا وبيضا، وأنا فى سفرى، فعدلت عن الطريق إلى قرية، فوثب رجل وتعلق بى، وقال: كان هذا مع اللصوص، فبطحونى وضربونى سبعين خشبة. قال: فوقف علينا رجل صوفى، فصرخ وقال: ويحكم هذا أبو تراب النخشى، فخلونى واعتذروا إلى، وأدخلنى الرجل منزله، وقدم إلى خبزا وبيضا، فقلت (فى نفسى لنفسى): كلها بعد سبعين جلدة^(٣٠).

● ومن حكمه، الناس يحبون ثلاثة وليست لهم: النفس والروح، وهما لله، والمال وهو للورثة. ويطلبون اثنين ولا يجدونهما: الفرح والراحة، وهما فى الجنة.

(٢٧) كان ينكر القدر. الرسالة القشيرية: ٨٢/١.

(٢٨) المرجع السابق ٧٦/١.

(٢٩) الرسالة القشيرية: ٨٢/١.

(٣٠) الرسالة: ٩٨/١.

وكان لهؤلاء الأخيار الأبرار كراماتهم - وهم خيار خلقه «لهم ما يشاءون عند ربهم». فخبيب عليه السلام حين استشهد أصحابه، وكانوا في حرب لرسول الله ﷺ ووقع هو أسيرا، سجنه الحارث في بيته. تقول بنت الحارث هذا، لقد كنت أدخل عليه محبسه، فأجده يأكل العنب، وما بمكة كلها يومئذ ثمرة عنب واحدة، وما كان هذا إلا رزقا رزقه الله إياه.

● ومن مبادئهم:

- ١ - الصوفى: لا يكدره شيء، ويصفو به كل شيء.
- ٢ - من زاد عليك في الأخلاق زاد عليك في التصوف.
- ٣ - إذا قلت يا رب أين الطريق إليك؟ جاءك النداء: فارق نفسك وتعال.
- ٤ - أنين المذنبين أحب إلى الله من زجل المسبحين التياهين.
- ٥ - الأوقات: لأصحاب القلوب. والأحوال: لأرباب الأرواح. والأنفاس: لأهل السرائر.

● ومن تعاريفهم:

- ١ - سئل ذو النون المصرى عن العارف. فقال: كان ههنا، فذهب^(٣١) وعرفه القشيري: بأنه كائن بائن^(٣٢).
- ٢ - الوجد: المصادفة، والمواجيد: ثمرات الأوراد^(٣٣).
- ٣ - التواجد: يوجب استيعاب العبد. والوجد: يوجب استغراق العبد. والوجود: يوجب استهلاك العبد، فهو كمن شهد البحر، ثم ركب البحر، ثم غرق في البحر^(٣٤).

(٣١) الرسالة: ١/١٩٣. (٣٢) اللطائف: ٢/٢٥٣. (٣٣) الرسالة: ١/٢٠٢.
(٣٤) المرجع السابق: ١/٢٠٤. فالتواجد: بداية، والوجد: واسطة، والوجود: أعلى درجات الشهود.
اللطائف: ٦/١١٥.

٤ - الخلوة: صفة أهل الصفوة، والعزلة: من أمارات أهل الوصلة^(٣٥).

٥ - حقيقة المحبة أن تهب كلك لمن أحببت، فلا يبقى لك منك شيء^(٣٦).

تلك هي الصوفية التي أريدها، وأدعو لها^(٣٧)، وأعتز بها - عقيدة وسلوكا، قوة وعملا، أملا وعزما، تذوقًا ووجدًا، إشراقًا وفيضًا، إنها يقظة في الوجدان، والشعور والحس، وإن في غيبتها عن العالم الإسلامي يغيب عنا كل شيء، ونعيش في فراغ روحي أخلاقي رهيب، وندفع غرم الحضارات المادية الزائفة التي نعيش فيها، ولا يصيبنا من غنمها شيء، وإذا كان الأمر كذلك فهل عالجنا كل مشكلاتنا وقضايانا على أرضنا، ولم يبق منها إلا الهجوم على التصوف والصوفية ونسينا معسكرات الكفر والإلحاد، والتخريب والهدم التي تحيط بنا، من بين أيدينا ومن خلفنا، وهي مهما غيرت أشكالها وأسماءها وطقوسها - تقف للإسلام بالمرصاد، وتترىص به وبأهله الدوائر لتتهشنا أنيابها المسعورة الحاقدة، وتنوشنا أقلامها المسمومة الجائرة! «إن الاحتشام، والاحترام، والسخاء، وعظمة الأخلاق، والقيم، والمشاعر السامية، وكل ما يمكن اعتباره «نفحات إلهية» - لا يمكن الحصول عليها من طريق الإلحاد»^(٣٨).

فارفعوا أيديكم عن (رجال الله) وانظروا ما وراءكم.. إلى الخطر الداهم الذي تسلل إلى بلاد المسلمين بليل، ليبدد نورها ظلاما، وسلامها قتالا، وكبرياءها ضعة، ووحدتها فرقة.

(٣٦) الرسالة: ٢/٦١٥.

(٣٥) الرسالة: ١/٢٧١.

(٣٧) لا أريد بالدعوة إلى الصوفية أن تشمل أفراد المجتمع كله، فهذا تكليف بما لا يستطاع، وإنما أرجو أن نسمى إليها ما استطعنا، ليكون في مجتمع الإسلام نماذج وطلائع لها.

(٣٨) الإسلام يتحدى: ١٨٨ (من كلمة رئيس أكاديمية نيويورك سابقًا).

والى اللائمين، والمتغامزين، والشانئين، والمشوهين للمثل العليا التى دعت إليها الصوفية^(٣٩) الحقّة - عن جهل أو عمد - أقول لهم جميعاً ما قال الشاعر العريى:

أقلوا عليهم - لا أبا لأبيكم - من اللوم أو سدوا المكان الذى سدوا
ولا أنسى فى خاتمة هذا الكتاب أن أذكر صديقى وأخى الأستاذ
الدكتور إبراهيم بسيونى أستاذ الأدب الصوفى بجامعة عين شمس، لما له
من فضل على الكتاب وصاحبه.
وللأستاذ محمد بلحاج المدرس بجامعة الفاتح تقديرى، لما أسدى إلى
من يد، وقدم من عارفة.

والحمد لله الذى هدانا لهذا، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

طرابلس الغرب

فى ١٨ جمادى الأولى ١٣٩٦هـ الموافق ١٧ مايو ١٩٧٦م

أحمد علم الدين الجندى

(٣٩) عندما أقول: التصوف أو الصوفية - فإنما أقصد النقاء الإسلامى. فليس من التصوف إذا أولئك
الأدعياء المضللون الذين يقومون بحركات مريبة باسم الإسلام، دون أن يكون فى قلوبهم إيمان،
وفى سلوكهم صدق. فهؤلاء محتالون منافقون، والطريقة منهم براء، وقد حمل على أمثال هؤلاء
ابن خلدون فى مقدمته ص ٣٧٢.

الفصل الأول

عبد الكريم القشيري

بين مولده ووفاته

١ - حياته وعصره وأخباره:

عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد النيسابوري. الأستاذ أبو القاسم القشيري الملقب زين الإسلام. ولد رحمته الله سنة: ست وسبعين وثلاثمائة، في شهر ربيع الأول، في بلدة: أستوا^(١)، وكان سكانها من العرب الذين قدموا من خراسان. أما (نيسابور) فكانت في هذا الوقت عاصمة خراسان، وهي مركز العلماء ومهد العلوم والفنون.

نشأ القشيري يتيما، وكانت تظهر عليه النجابة في صغره، ولما شب ونما لزم عتبة باب أبي علي الدقاق، فأشار عليه أستاذه بأن يشتغل بعلوم الشريعة أولا. فخرج إلى درس أبي بكر محمد بن أبي بكر الطوسي ت ٤٠٥ هـ. وأخذ عنه الفقه، ثم انتقل بإرشاد أستاذه إلى الإمام أبي بكر بن فورك ت ٤٠٦ هـ فأخذ عنه علم الأصول وبرع فيه، ثم اختلف بعد وفاته إلى مدرسة الأستاذ أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الإسفراييني ت ٤١٨ هـ. ودرس بها، وهي مدرسة منقطعة النظر تخرج منها أئمة العلماء كأبي بكر البيهقي الحافظ ت ٤٥٨ هـ وغيره، ثم نظر بعد ذلك في كتب القاضي أبي بكر الباقلاني ت ٤٠٣ هـ. ومع ذلك كله كان لا يفارق مجالس أبي علي الدقاق.

وقد ذكر القشيري سلسلة بيعته بلسان شيخه الدقاق^(٢).

(١) بضم الهمزة وسكون السين المهملة وضم التاء المثناة من فوقها أو فتحها وبمدا واو ثم الف.

(٢) طبقات الشافعية ١٥٧/٥ ط الحلبي.

أما شيوخه: فهم كثر نذكر منهم: أبو علي الدقاق، وأبو إسحاق إبراهيم (الإسفرائيني) وأبو نعيم أحمد المهرجاني، وأبو الحسن أحمد بن محمد الخفاف، وأبو عبد الله الحسين البزار..

أما تلاميذه: فهم كثير، منهم: أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، وأبو إبراهيم إسماعيل العلوي، وأبو عبد الله الفراوي.

وعقد القشيري مجلس الإملاء في الحديث سنة سبع وثلاثين وأربعمائة، وكان يحضر مجلسه آلاف من الناس، وقد اشتغل بالتدريس في: نيسابور، وبغداد، ومرو، ونسا، كما قضى معظم وقته في التأليف والتسك، والاجتماع بالأصحاب والمريدين، ومجالس الذكر والسمع.

وكان عديم النظير في مجالس التذكير، وقد شرع في عقد هذه المجالس في حياة شيخه الدقاق وهو في الثلاثين من عمره، وكانت تعقد في المسجد المطرز.

ذكره أبو الحسن الباخري في كتابه «دمية القصر» فقال: «جامع لأنواع المحاسن، تنقاد له صعابها ذلل المراسن، فلو قرع الصخر بصوت تحذيره لذاب، ولو ربط إبليس في مجلس تذكيره لتاب، وله فصل الخطاب، في فصل المنطق المستطاب، ماهر في التكلم على مذهب الأشعري، خارج في إحاطته بالعلوم عن الحد البشري، كلماته للمستفيدين فوائد وفرائد، وأعقاب منبره للعارفين وسائد»^(٣).

هذا مجمل ما رددته المصادر^(٤) عن الإمام القشيري، ولكن بقي في

(٣) دمية القصر ١٩٤ فما بعدها، طبقات الشافعية ٢/٢٤٢ فما بعدها.

(٤) وانظر في ترجمته: تاريخ ابن الأثير ٨/١١٨ ط الاستقامة.

- البداية والنهاية لابن كثير ١٢/١٠٧ ط السعادة.

- وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/٣٧٥.

- مرآة الجنان للهاشمي ٣/٩١ فما بعدها. =

شعوري وخاطري صورة عن هذا الإمام أسجل جوانب منها من خلال قراءتي في مؤلفاته لتكتمل هذه النماذج الرفيعة، وتلك اللفتات الأسرة، وذلك العطاء المتجدد من تاريخه العطر، حياة ومماتا:

●● عري النسب، قشيري الأب، سلمى الأم، شافعي أشعري سني.

●● شيخ المشايخ وأستاذ الجماعة، ومقدم الطائفة، وإمام الأمة، أجمع أهل عصره، على أنه سيد زمانه، وقدوة وقته، وبركة المسلمين في عصره.

●● كان يقف بين رجال الإسلام في عصره بقامته الفارعة فلا يطاوله أحد.

●● وكان ثمرة لنتاج دراسة عقلية لغوية أدبية دينية واسعة واكبتها الفيوضات والإلهامات، وباركها بعد هذا كله الاصطفاء الإلهي فكان من رجال الله الذين يعدهم ويصنعهم قبل أن يختارهم.

●● لم يكن القشيري فقيها أو متكلما أو سنياً أو كاتباً أو شاعراً فحسب ولكنه كان كل هذا أو أكثر من هذا.

●● وكان جانب الريانية في القشيري مهيمنا عليه، فتجرد من عبودية الدنيا إلى عبادة الله، ومن إرادتها الجامحة إلى إرادته، ومن رغباتها الهادرة إلى رغبته، فأصبح الحضور عنده لله ولا سواه، والكلمة لله ولا سواه.

= - شذرات الذهب ٢/٢١٨ فما بعدها لابن العماد الحنبلي ط بيروت.

- دمية القصر للباخرزي ١٩٤ - ١٩٦.

- النجوم الزاهرة ٥/٩١.

- طبقات الشافعية للسبكي ٣/٢٤٣ فما بعدها ط أولى. الحسينية مصر.

- طبقات المفسرين للسيوطي ٢١/٢٢.

- مفتاح السعادة لطاش كهرى زاده ٢/١٨٨.

- كشف الظنون ٥٢٠، ٨٨٢.

●● جند قلمه وكلمته للدعوة إلى الله حتى تصل إلى ضمير الأمة المسلمة، كما جرد حياته للدفاع عن مبادئه ومثله العليا، فنصر الحق، واستقام على جادته، ودعا إليه، وتمسك به، فلم يكن سلبيا مثل غيره، بل زج بنفسه في دروب الحياة، وكثيراً ما كان يغمز أصحاب السلطان الذين لا يحسنون سياسة الرعية (لطائف الإشارات ٢٤٩/٥).

●● وكان من أعدل الصوفية مذهباً، وأصحهم منهجاً، وأقومهم مسلكاً، فلم يندفع إلى المذاهب الجامحة، والتيارات الطائشة، ولم يتجه كما اتجه غيره إلى القشور والطقوس والرسوم، يدور حولها ومن وراء ذلك باطن هواء، وضمير خواء.

●● وكانت له في معاناته إشارات خفية لطيفة تصل به إلى تصوير النفس وخلقاتها، والروح ومساراتها، وهو في هذا يخترق حجب الماديات مترقياً إلى المقامات الروحية، والفيوضات الربانية، والمكاشفات والأسرار.

●● أقام القشيري صوفيته على أصل من القرآن وركيزة من السنة، وأكبر آماله أن يتم لقاء بين الشريعة والحقيقة^(٥). فمراعاة الحقيقة عنده لا تتم إلا بمراعاة الشريعة.

●● وكان صادقاً في بدايته ووسيلته وغايته، فظهر قلبه من كل سائحة، وصفى نفسه من كل كدورة، والصادقون في الصوفية هم: الذين صدقوا في الطلب فقصدوا^(٦)، ثم صدقوا حتى وردوا، ثم صدقوا حتى شهدوا، ثم صدقوا حتى وجدوا، ثم صدقوا حتى فقدوا (اللطائف ٢٣٧/١).

(٥) اللطائف ١/٢٧٦، ١٦٦.

(٦) يشير القشيري إلى مراتب أهل الحق، وغاياتهم في كل مرحلة من مراحل معراجهم الروحي.

- كل عمل عنده للعبد مرتبط بالعبادة الإلهية لا بالمجهود الإنساني^(٧).
- على العبد أن يكون فانيا بحقوق ربه عن حظوظ نفسه، «وشتان بين عبد صباحه مفتتح بعبادته، ومساؤه مختتم بطاعته، وبين عبد صباحه مفتتح بمشاهدته، ورواحه مفتتح بعزیز قربه» (اللطائف ٥/١١١).
- العبادة الحققة هي المجردة عن الطمع، والثواب والعقاب^(٨).
- كل شيء ناطق بالوحدانية إما نطق مقالة كما في حال الإنسان وإما نطق دلالة - كما في الجمادات^(٩).
- الصوفية اجتماعيون غير منعزلين كما يظن بهم بعض الناس.
- التصوف لا يناقض العمل والحركة.
- التصوف لا يمكن أن يسود المجتمع كله، بل هو محصور في طائفة مخصوصة^(١٠) أو كما جاء في الرسالة القشيرية ص ١٢٧: «هم أهل بيت واحد لا يدخل فيهم غيرهم» ولهذا كانت لغتهم رمزية أكثر منها معجمية، فهي لغة كشف وذوق.
- العقل آلة لتصحيح الإيمان في البداية والالتجاء إليه للوصول يعد قاطعا من القواطع؛ لأن العقل يستمد أحكامه من المحسّات فلا يدرك الغيب، وإنما يجب أن يعتمد على الملكات الأعلى: كالروح والسر وسر السر في العروج نحو القمم الشواهي^(١١).
- غاية التصوف تحقيق الاتصال المباشر بالخالق الأعلى.

(٧) اللطائف ١/٦٢.

(٨) اللطائف ٥/٣٣٠.

(٩) اللطائف ٥/٢٩٠.

(١٠) اللطائف ٣/٧٣.

(١١) اللطائف ١/٤٢، ٢٧٩، ٦/١٣٤.

●● أما المحنة القاسية والفتنة التي طار شررها بين السلطان (طغرل) ووزيره وبين القشيري بخاصة والأشاعرة بعامة حتى شملت (خراسان) كلها وكثيراً من البلاد العربية، وكان القشيري وأصحابه ضحيتها حين هجم الأوباش عليه وراحوا يجرونه في الطرقات حتى قبض عليه من قبل السلطان، ولكن الشعب خلصه من جور السلطان بعد معارك ضارية تم النصر فيها للشعب على السلطان ووزيره، ولكن القشيري الصامد المؤمن غادر المشرق كله في سبيل عقيدته وترك أهله وبيته وأولاده عشر سنوات كاملة يسبح في الأرض يتعبد وينحني صلبه على أجزاء القرآن، وسوره، ويقرأ، ويدرس، ويجلس أمام مصباح نحيل خافت يؤلف ويكتب ويلتمس الهداية والفتح.

وفي أثناء قيامه بشعيرة الحج التقى بأصحابه الذين فروا من ديارهم وأخرجوا منها بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، وخطب فيهم على المنبر، وما هي إلا لحظة حتى أطرق ثم صاح «يا أهل خراسان.. بلادكم، إن (الكندري) غريمكم يقطع الآن إربا إربا، وإنى أشاهده الساعة! يقول السبكي في طبقاته: «ضبط التاريخ فكان ذلك اليوم بعينه وتلك الساعة بعينها قد أمر السلطان بأن يقطع (الكندري) إربا إربا، وأن يرسل عضو منه إلى كل مكان»^(١٢).

أقول: أما المحنة القاسية فقد صهرته في بوتقتها، وجعلت منه رجلاً صابراً محتسباً صامداً لا يلين ولا ينحرف على الرغم من قسوة النفي والتشريد، وظلمة الطفيان والتهديد.

ولهذا يقرر القشيري ضرورة السفر إن نبا بك المكان واشتد الجور، وتعرضت العقيدة للمحنة بشرط أن يصحب السفر عن المكان سفر عن النفس^(١٣).

(١٢) طبقات الشافعية للسبكي ٢/٢٧٢.

(١٣) اللطائف ٢/٣٣٦، ٥/٩، ٥٩، ٦/١٥٨.

●● أما أستاذه الروحي فهو أبو علي الدقاق، لسان وقته وإمام عصره، وقد ملك عليه الدقاق قلبه وعقله حتى توثقت بينهما الصلة الروحية فاختره لكريمته وقد وهبه الله منها ستة أبناء كلهم عبادلة وكلهم عباد ليل وأنضاء عبادة، وبناتا واحدة هي «أمة الرحيم» - واستمع معي إلى علاقة المريد بالشيخ، والتلميذ بالأستاذ يقررهما القشيري فيقول: «لم أدخل على الأستاذ أبي علي رحمه الله في وقت بدايتي إلا صائماً وكنت أغتسل قبله، وكنت أحضر باب المدرسة غير مرة فأرجع من الباب احتشاماً من أن أدخل عليه، فإذا تجاسرت مرة ودخلت، كنت إذا بلغت وسط المدرسة يصحبنى شبه خدر حتى لو غرز في إبرة مثلاً لعلني كنت لا أحس بها، ثم إذا قعدت لواقعة وقعت لي لم أحتج أن أسأله بلساني عن المسألة، فكلما كنت أجلس كان يبتدئ بشرح واقعتي، وغير مرة رأيت منه هذا عياناً»^(١٤).

●● أما أصدقائه: فمنهم: أبو عبد الرحمان السلمي وأبو المعالي الجويني.

●● وأخيراً نالت المحن والآلام والأسفار منه حتى خبا ذلك السراج عام ٤٦٥هـ بعد أن نال المرض من جسمه كذلك، ولم ينل شيئاً من قلبه ودينه فكان يؤدي الصلاة قائماً حتى آخر لحظة. ويتفق ابن كثير والسبكي على أنه «كانت له فرس يركبها قد أهديت له فلما توفي، لم تأكل علفاً حتى نفقت بعده»^(١٥). طيب الله ثراه، ويرد مثواه ومترعه، ونور ضريحه ومضجعه.

٢ - مؤلفاته وآثاره

كان من نتائج هذا الفكر الذي استكشف المعارف، واستخرج أبكار الإشارات - تحقيقاً للوعي الروحي - هذه المؤلفات:

(١٤) الرسالة: ١٢٤.

(١٥) الإمام القشيري ص ٤٢ دكتور إبراهيم بسيوني.

- ١ - التيسير فى علم التفسير: وهو أول كتبه تأليفًا، وفرغ منه قبل سنة ٤١٠هـ - مخطوط (ليدن والهند).
- ٢ - الرسالة القشيرية: وطبعت كثيرًا، وترجمت، وألفت ٤٢٧هـ.
- ٣ - التعبير فى التذكير: طبع فى القاهرة ١٩٦٨م وحققه الدكتور إبراهيم بسيونى.
- ٤ - آداب الصوفية: مفقود.
- ٥ - لطائف الإشارات: وهو تفسير صوفى على طريقة أرباب الحقائق، طبع لأول مرة بالقاهرة، دار الكاتب العربى، بتحقيق الدكتور إبراهيم بسيونى فى ستة أجزاء، وقدم له الأستاذ حسن عباس زكى.
- ٦ - كتاب الجواهر: مفقود.
- ٧ - عيون الأجوبة فى أصول الأسئلة: مفقود.
- ٨ - كتاب المناجاة: مفقود.
- ٩ - كتاب المنتهى فى نكت أولى النهى: مفقود.
- ١٠ - كتاب نحو القلوب الكبير: تذكر المصادر أنه مفقود، ويحمد الله اكتشفت أصوله المخطوطة وهى فى مكتبة طلعت تصوف ١٥٩٢ وعشرت على مخطوطات أخرى من تونس، ومن حماة بسوريا يملكها الأديب المحقق الأستاذ مصطفى الحدرى، وقد أسرع بإرساله إلى مشكوراً، وقد حققه الدكتور إبراهيم بسيونى بالاشتراك معى.
- ١١ - كتاب نحو القلوب الصغير: وهو هذا الكتاب الذى يحقق لأول مرة.

- ١٢ - كتاب أحكام السماع: ذكرت المصادر أنه مفقود، وقد نشره المعهد المركزي للأبحاث الإسلامية - باكستان. وحققه د. فير تحت عنوان: الرسائل القشيرية. وعربه الأستاذ السورتى.
- ١٣ - كتاب الأربعين حديثاً: مخطوط (ليدن).
- ١٤ - الأحاديث التي سمعها القشيري بسند متصل عن شيخه الدقاق: دار الكتب الأصفية. مخطوط.
- ١٥ - رسالة ترتيب السلوك نشرت بالمعهد المركزي (باكستان) حققها د. (فير) محمد حسن.
- ١٦ - شكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة: نشرت بالمعهد المركزي (باكستان).
- ١٧ - كتاب سير المشايخ.
- ١٨ - كتاب المعراج: حققه الدكتور على عبد القادر. ط. دار الكتب الحديثة ١٩٤٦ بالقاهرة.
- ١٩ - استضافة المرادات: إستانبول (مخطوط).
- ٢٠ - بلغة المقاصد فى التصوف.
- ٢١ - ناسخ الحديث ومنسوخه.
- ٢٢ - حياة الأرواح والدليل إلى طريق الصلاح: مخطوط (الأسكوريال).
- ٢٣ - منشور الخطاب فى مشهور الأبواب: مخطوط (الجزائر).
- ٢٤ - الفصول فى الأصول: مخطوط (القاهرة).
- ٢٥ - مجالس أبى على الدقاق.

- ٢٦ - التوحيد النبوى: مخطوط (القاهرة).
- ٢٧ - اللمع فى الاعتقاد: مخطوط (القاهرة).
- ٢٨ - شرح أسماء الله الحسنى: طبع بالقاهرة ١٩٦٩، ونشره الأستاذ أحمد عبد المنعم الحلوانى.
- ٢٩ - فتوى محررة فى ذى القعدة سنة ٤٣٦هـ، أوردها السبكى فى طبقاته ج ٣.
- ٣٠ - ديوان شعر.
- ٣١ - القصيدة الصوفية: ذكرها الحلوانى فى مقدمة كتابه (شرح أسماء الله الحسنى).
- ٣٢ - المقامات الثلاثة: له بطاقة بمكتبة جامعة القاهرة، والأصل غير موجود.
- ٣٣ - الفتوة.
- ٣٤ - الحقائق والرقائق: مخطوط. بمكتبة جستر بيتى. دبلن. أيرلنده رقم ٢٠٥٢ وتاريخ النسخ ٧٧٥هـ. ولم يذكر هذا الكتاب أحد من أصحاب التراجم والسير، ولقد طلبت تصويره لتحقيقه ونشره.
- وأرجح أن آثار القشيري التى سبقت آنفا هي أكمل آثار ظهرت له حتى الآن، لا سيما أن السبكى قد أشار إلى تأليفه فبلغت عنده ثلاثة عشر مؤلفا، وعند الدكتور على عبد القادر ثلاثة وعشرين، وعند الدكتور إبراهيم بسيونى خمسة وعشرين، وفى هدية العارفين للبغدادى ستة عشر مؤلفا.

٣ - شعر القشيري

سبق أن أشرت إلى أن للقشيري ديوانا من الشعر، ولكنه مفقود حتى الآن، ولم تشر المصادر أنه ألف ديوانا شعريا إلا إشارة واحدة وردت في مصدر معاصر^(١٦)، ولم تذكر أين يوجد هذا الديوان، ولهذا اتجهت إلى آثاره الموجودة: مطبوعة أو مصورة أو مخطوطة لأستخرج من خلالها شعره، وقد قسمت هذه المادة الشعرية التي عثرت عليها إلى ثلاثة أقسام:

أ - نوع جمعته من كتب الطبقات والتراجم والسير.

ب - ونوع جمعته من غضون تراثه ومؤلفاته.

ج - وآخر استشهد به في كتبه ومؤلفاته.

أ - شعره من خلال كتب التراجم والسير

قال رحمه الله^(١٧):

يا من تقاصر شكرى عن أياده
وكل كل لسان عن معاليه
وجوده لم يزل فردا بلا شبه
علا عن الوقت ماضيه وآتیه
لا دهر يخلقه، لا قهر يلحقه
لا كشف يظهره، لا ستر يخفيه

(١٦) الرسائل القشيرية ٢٦، تحقيق د/ فير.

(١٧) طبقات الشافعية: ترجمة القشيري ٢/٢٤٣.

لا عد يجمعه، لا ضد يمنعه
لا حد يقطعه، لا قطر يحويه
لا كون يحصره، لا عين تبصره
وليس فى الوهم معلوم يضاهيه
جلاله ازالى لا زوال له
وملكه دائم لا شىء يفنيه
وقال أيضا^(١٨):

جنبانى المجون يا صاحبيا
واتلوا سورة الصلاة عليا
قد أجبنا لزاجر العقل طوعا
وتركنا حديث سلمى وميا
ومنحنا لموجب الشرع نشرا
وشرعنا لموجب اللهو طيا
ووجدنا إلى القناعة بابا
فوضعنا على المطامع كيا
إن من يهتدى لقطع هواه
فهو فى العز حاز أوج الثريا

(١٨) المرجع السابق.

والذين ارتووا بكأس مناهم
فعلى الصدد سوف يلقون غيا
وقال أيضا^(١٩):

لا تدع خدمة الأكابر واعلم
أن فى عشرة الصغار صفارا
وابغ من فى يمينه لك يمن
وترى فى اليسار منه اليسار
وقال أيضا^(٢٠):

لو كنت ساعة بيننا ما بيننا
وشهدت كيف تكرر التوديعا
أيقنت أن من الدموع محدثا
وعلمت أن من الحديث دموعا
وقال أيضا^(٢١):

سقى الله وقتا كنت أخلو بوجهكم
وثغر الهوى فى روضة الأنس ضاحك
أقمنا زمانا والعيونُ قريرة
وأصبحت يوما والجفون سوافكُ

(١٩) طبقات الشافعية ٢/٢٤٨، شذرات الذهب ٣/٢٢٠.

(٢٠) طبقات الشافعية ج ٣ ترجمة القشيري، البداية والنهاية لابن كثير ١٢/١٠٧.

(٢١) شذرات الذهب ٣/٣٢١.

وقال أيضا (٢٢):

وإذا سقيت من المحبة مصة
ألقيت من فرط الخمار خمارى
كم تبت قصداً ثم لاح عذاره
فخلعت من ذاك العذار عذارى

وقال أيضا (٢٣):

أيها الباحث عن دين الهدى
طالباً حجة ما يعتقده
إن ما تطلبه مجتهداً
غير دين الشافعى لا تجده

وقال مرتجلاً عندما صعد المنبر، وشخص إلى السماء ضارعا، والناس
من حوله يتفرسون وجهه، وصاح: «يا أهل خراسان... بلادكم بلادكم! إن
الكندرى غريمكم يقطع الآن إربا إربا، وإنى أشاهده الساعة، ثم قال:

عميد الملك ساعدك الليالى
على ماشئت من درك المعالى
فلم يك منك شيء غير أمر
بلعن المسلمين على التوالى

(٢٢) طبقات الشافعية.

(٢٣) المرجع السابق.

فقابلك البلاء بما تلاقى

فذق ما تستحق من الوبال^(٢٤)

وقال في رمد الحبيب:

يا من تشكى رمدا مسه

لا ترفع الشكوى إلى خالقك

موجب ما مسك من عارض

أنك لم تنظر إلى عاشقك^(٢٥)

وله أيضا^(٢٦):

الأرض أوسع بقسمة

من أن يضيق بك المكان

وإذا نبا بك منزل

ويظل يلحقك الهوان

فاجعل سواها مفرسا

ومن الزمان لك الأمان

ومن غزلياته الرقيقة^(٢٧):

قالوا بثينة لا تضي بعداتها

روحي فداء عداتها ومطالها

(٢٤) دمية القصر ١٩٥. (٢٥) دمية القصر ١٩٥.

(٢٦) دمية القصر ١٩٥. (٢٧) دمية القصر ١٩٥.

إن كان نجز عداتها متأخراً

فلقد تشرفنا بنقد مقالها

وله أيضاً (٢٨):

ما خضابى بياض شعرى إلا

حذراً أن يقال شيخ خليع

يلاحظ فى المقطع الشعرى الأول الذى يتحدث فيه عن وحدانية الله وتنزيهه أن فواصله قصيرة مؤثرة قد أخذت أقصى سرعتها، وانطلق من خلالها ما يشبه الذكر والتسبيح، والتعظيم والتمجيد، للواحد الأحد، وهذا ديدن القشيري عندما يغيب عن نفسه ويستولى عليه اسم «الله» الذى لا تمسه علة، ولا تميزه عزلة، ولا تلحقه آفة، ولا تدركه مسافة. فلا معين يساعده، ولا منازع يعانده!

واستمع إليه فى تسبيحة علوية من تلك التسابيح التى أحاطت به، واستولت عليه وذلك فى مفتتح «رسالته»: «فسبحانه من عزيز لا حد يناله، ولا عد يحتاله، ولا أمد يحصره، ولا أحد ينصره، ولا ولد يشفعه، ولا عدد يجمعه، ولا مكان يمسكه، ولا زمان يدركه، ولا فهم يقدره، ولا وهم يصوره».

فهذا النص النثرى لا يقل فى تأثيره وفواصله وموسيقاه عن المقطع الشعرى السابق والذى يدور حول الفكرة نفسها.

ب - شعره من خلال آثاره وتراثه

يقول القشيري:

١ - «وعزيز من يصدق في الصداقة، فيكون في الباطن كما يرى في الظاهر، ولا يكون في الوجه كالمرآة ومن ورائك كالمقراض، وفي معناه قلت:

من لي بمن يثق الفؤاد بوده

فإذا ترحل لم يزغ عن عهده

يا بؤس نفسي من أخ لي باذل

حسن الوفاء بوعدده لا نقده

يولى الصفاء بنطقه لا خلقه

ويدس صابا في حلاوة شهبه

فلسانه يبدى جواهر عقده

وجنانه يفلى مراجل حقه

لاهم إنى لا أطبق مراسه

بك أستعيذ من الحسود وكيده

٢ - وفي قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاتَّاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (الزمر: ٢٥). «أشد العذاب ما يكون بغتة، كما أن أتم السرور ما يكون فلة، ومن الهجران والفراق ما يكون بغتة غير متوقع، وهو أنكى للفؤاد، وأشد وأوجع تأثيراً في القلب، وفي معناه قلنا:

فبت بخير والدى مطمئنة

وأصبحت يوما والزمان تقلباً

وأتى السرور وأعظمه تأثيراً ما يكون فجأة - قال قائلهم^(٢٩):

(٢٩) هذا من شواهد القشيري.

بينما خاطر المنى بالتلاقى
سابع فى فؤاده وفؤادى
جمع الله بيننا فالتقينا
هكذا صدفه بلا ميعاد

(اللطائف: ٢٧٩/٥)

٢ - ويتحدث عن انتظار اليسر من الله، وهو صفة المتوسطين فى الأحوال، الذين انحطوا عن حد الرضا، واستواء وجود السبب وفقده، وارتقوا عن حد اليأس والقنوط، وعاشوا فى أفياء الرحال يعللون بحسن المواعيد وأبدا هذه حالتهم:

إن نابك الدهر بمكروهه
فعمش^(٢٠) بتهوين تصانيفه
فمن قريب ينجلى غيمه^(٢١)
وتنقضى كل تصاريفه

(اللطائف: ١٦٩/٦ - النجوم الزاهرة: ٩١/٥)

٤ - وفى تفسير قوله تعالى: «يأيها الإنسان ما غرك بريك الكريم». «ويقال: إن المؤمن وثق بحسن إفضاله، فاغتر بطول إمهاله، فلم يرتكب الزلة لاستحلاله، ولكن طول حلمه عنه حملة على سوء خصاله، وكما قلت:

(٢٠) فقل...

(٢١) غمه.

يقول مولاي: أما تستحي
مما أرى من سوء أفعالك
فقلت^(٢٢): يا مولاي رفقا فقد
جرأني كثرة أفضالك
(اللطائف: ٢٦٥/٦)

٥ - وفي قوله تعالى: «تعرف في وجوههم نضرة النعيم».
«فأحوال المحب شهود عليه أبدا. فإن كان الوقت وقت وصال فاختياله
ودلاله، وسروره وحبوره، ونشاطه وانبساطه. وإن كان الوقت وقت غيبة
وفراق، فالشهود عليه نحوله وذبوله، وحنينه وأنينه، ودموعه، وهجوعه،
وفي معناه قلت:

يا من تغير صورتى لما بدا
لجميع ما ظنوا بنا - تحقيق^(٢٣)
وقلت:

ولما أتى الواشين أنى زرتها
جحدت حذاراً أن تشيع السرائر
فقالوا: نرى في وجهك اليوم نضرة
سرت^(٢٤) في محياك.. وهذاك ظاهر

(٢٢) في الأصل: قلت، وعدلناها: فقلت - ليستقيم الوزن.
(٢٣) ما ظهر على أسارى من أشياء حاولت كتمانها قد حقق ظنون الواشين والعاذلين،... فلا فائدة -
فالصب تفضحه عيونه! (المحقق).
(٢٤) في الأصل: كست محياك. وعدلناها إلى: سرت في محياك. ليستقيم الوزن، ولأن (سرت) هروية
من (كست) في الكتابة.

وبردك لا ذاك الذى كان قبله
به طيب نشر لم تشعه المجامر
فما كان منى من بيان أقيمه
وهيهات أن يخفى مريب مساطر
(اللطائف: ٢٧٠/٦ وما بعدها)
٦ - وعند تفسيره لقوله تعالى: «وما يتبع أكثرهم إلا ظنا». «أرباب الحقائق على بصيرة وقطع، ولا يجوز بوجه من الوجوه أن يكون أهل المعرفة به سبحانه - فيما يعود إلى صفته - على الظن. وكما قلنا:

طلع الصباح فلات حين سراج
واتى اليقين فلات حين حجاج
حصل الذى كنا نؤمل نيله
من عقد الوية وحل رتاج
والبعد قوض بالدنو خيامه
والوصل وكد سجله بعناج
قد حان عهد للسرور فحيهلا^(٣٥)
لهواجم الأحزان بالإزعاج
(اللطائف: ٩٥/٣ فما بعدها)

(٣٥) اسم فعل أمر بمعنى: عجل إليه، وحيهل: تتعدى بنفسها ويعلى وباللام والباء، وهى مركبة من (حى) بمعنى: أقبل، و(هلا) التى للحث والمجلة.

٧ - وفي تفسير قوله تعالى: «ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور».

«ليس للأحوال الدنيوية خطر في التحقيق، ولا يعد زوالها وتكدرها من جملة المحن عند أرباب التحصيل، لكن المحنة الكبرى والرزية العظمى ذبول غصن الوصال، وتكدر مشرب القوم، وأفول شوارق الأنس، ورمد بصائر أرباب الشهود.. عند ذلك تقوم قيامتهم، وهناك تسكب العبرات. ويقال: إذا نعق في ساحات هؤلاء غراب البين، ارتفع إلى السماء نواح أسرارهم بالويل. ومن جملة ما يبتون من نحيبهم ما قلت:

قولا لمن سلب الفؤاد فراقه

ولقد عهدنا أن يباح عناقه^(٢٦)

بعد الفراق.. فبالذي هو بيننا

هلا رحمت من دنا إزهاقه؟

عهدى بمن جحد الهوى أزمان

كنا بالصبابة - لا يضيق نطاقه

والآن مذ بخل الزمان بوصلنا

ضاق البسيطة حين دام فراقه

هل ترتجى من وصل عزك رجعة

تحنو على قمر يدوم محاقه

(٢٦) في الأصل: عناقه، ورجعت أن تكون: عناقه. بالنون لتتوأم مع (الفراق).

إن كان ذاك كما تروم فأخبروا

أنى له (أنى) يعود شروقه^(٢٧)

(اللطائف: ١٢٦/٣)

ج - أبيات الاستشهاد

١ - فى أول سورة براءة: «ذكر الله البراءة من المشركين قطعاً، فلم تصدر بذكر الرحمة، وقد كان بين الرسول عليه الصلاة والسلام وأولئك المشركين عهد.. فنزل الخبر من الغيب بغتة، وأتاهم الإعلام بالفرقة فجأة، فقال: «براءة من الله ورسوله».

وأنشدوا:

وكان سراج الوصل أزهر بيننا

فهبت به ريح من البين فانطفأ

(اللطائف: ٦/٣)

٢ - «كيف يكون المفلس من عرفانه، كالمخلص فى إيمانه؟ وكيف يكون المحجوب عن شهوده كالمستهلك فى وجوده؟

كيف يكون من يقول (أنا) كمن يقول: أنت؟ وأنشدوا:

وأحبابنا شتان^(٢٨): واف وناقص

ولا يستوى قط محب وباغض

(اللطائف: ١٠/٣)

(٢٧) فى الأصل: أن يعود. ورجعت: أنى يعود، لاستقامة الوزن.

(٢٨) اسم فعل ماض بمعنى: اختلف.

٣ - وفي قوله تعالى: «يبيشرهم ربهم برحمة منه ورضوان...».

«ويقال: إن القلوب مجبولة على محبة من يبشر بالخير، فأراد الحق - سبحانه - أن تكون محبة العبد له - سبحانه - على الخصوص، فتولى بشارته بعزیز خطابه من غير واسطة فقال: يبشرهم ربهم برحمة منه» وفي معناه أنشدوا:

لولا تمتع مقلتي بلقائه

لوهبتها بشري بقرب إياه

(ط: ١٦/٢).

٤ - ويقول عن المتخلفين في غزوة تبوك: «بين الله سبحانه أنه لو كانت المسافة قريبة، والأمر هين لما تخلفوا عنك، لأن من كان غير متحقق في قصده، كان غير بالغ في جهده، يعيش على حرف، فإذا رأيت المرید يتبع الرخص ويجنح إلى الكسل.. فاعلم أنه منصرف عن الطريق، متخلف عن السلوك. وأنشدوا:

وكذا الملول إذا أراد قطيعة

مل الوصال وقال: كان وكانا

ومن جد في الطلب لم يعرج في أوطان الفشل، ويواصل السير والسرى، ولا يحتشم من مقاساة الكد والعناء، وأنشدوا:

ثم قطعت الليل في مهمه

لا أسداً أخشى ولا ذيباً

يفلبنى الشوق فأطوى السرى

ولم يزل ذو الشوق مفلوبا

(ط: ٣٠/٣)

٥ - وفى قوله تعالى: «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة» «لأن النفس محل الآفات فجعل الجنة فى مقابلها، وجعل ثمن القلب أجل من الجنة، وهو ما يخص به أولياءه فى الجنة من عزيز رؤيته^(٣٩).. وأما القلب فاستأثره قهراً، والقهر فى سنة الأحباب أعز من الفضل. وفى معناه أنشدوا:

بنى الحب على القهر فلو

عدل المحبوب يوماً لسمح

ليس يستحسن فى حكم الهوى

عاشق يطلب تأليف الحجج

(ط: ٦٤/٣)

٦ - وفى قوله تعالى: «أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر...» «الخوف ترقب العقوبات مع مجارى الأنفاس.. وأعرفهم بالله أخوفهم من الله.. ووصفوا أهل المعرفة فقالوا:

مستوفزون^(*) على رجل كأنهمو

قوم^(٤٠) يريدون أن يمضوا ويرتحلوا

(ط: ٣١/٤)

(٣٩) رؤية الله أعز من الجنة، وهى مطلب القشيري أولاً.

(*) مستوفزون: رفع الرجل فى غير اطمئنان.

(٤٠) غير موجودة فى الأصل كلمة (قوم) وزدناها ليستقيم الوزن، لأنها تناسب مصطلحات الصوفية.

٧ - وفى قوله تعالى: «نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه، وأنزل التوراة والإنجيل...».

«إنا وإن أنزلنا قبلك كتبنا على المرسلين فما أخلينا كتابا من ذكرك، قال قائلهم:

وعندى لأحبابنا الفائبين

صحائف، ذكرك عنوانها

(ط: ١/٢٣١)

٨ - وفى قوله تعالى: «سنكتب ما قالوا...»

«هذه الكلمة من موجبات الحجة لأهل التقصير بأدق إشارة، يعنى أنهم وإن نسوا أحوالهم وأقوالهم فإننا ننشر لهم ما كتبنا عليهم، قال قائلهم:

صحائف عندى للعتاب طويتها

ستنشر يوما والعتاب يطول

سأصبر حتى يجمع الله بيننا

فإن نلتقى^(٤١) يوما فسوف أقول

(ط: ١/٣١٣)

٩ - يكون أجاجا - دونكم، فإذا انتهى

إليكم تلقى طيبكم فيطيب

(ط: ٣/٦٠)

(٤١) الهاء للإشباع.

١٠ - ابكى إلى الشرق إن كانت منازلكم

مما يلى الغرب خوف القيل والقال

(ط: ١٦٥/٣)

١١ - إذا ما تمنى الناس روحا وراحة

تمنيت أن أشكو إليك فتسمعا

(ط: ٢٠١/٣)

١٢ - وأنت إذا أرسلت طرفك رائداً

لقلبك يوماً - أتعبتك المناظر

(ط: ٢٧٨/٤)

١٣ - ما زلت أنزل من وداذك منزلاً

تتحير الألباب دون نزوله^(٤٢)

(ط: ١١/٤)

١٤ - والليالى إذا نأيت طوال

وأراها إذا دنوت قصار

والليل أطول وقت حين أفقدها

والليل أقصر وقت حين ألقاها

(٤٢) وفي الرسالة ١٥٢ ط أولى. الحلبى: أن سبب وفاة النورى ت ٢٩٥هـ أنه سمع هذا البيت فتواجد فهام فى الصحراء فوقع فى أجمة فصب قطعت وبقى أصولها مثل السيوف، فكان يمشى عليها ويميد البيت إلى الغداة والدم يسيل من رجله، فتورمت قدماء ومات.

يطول اليوم لا ألقاك فيه

وحول نلتقي فيه - قصير^(٤٢)

(ط: ٧٩/٥)

١٥ - ولما ادعيت الحب قالت: كذبتني

فما لي أرى الأعضاء منك كواسيا^(٤٤)

فما الحب حتى يلصق القلب بالحشا

وتذبل حتى لاتجيب المناديا

وتنحل^(٤٥) حتى لا يبقى لك الهوى

سوى مقلة تبكي بها وتناجيا^(٤٦)

١٦ - إذا انسكبت دموع في خدود

تبين من بكى ممن تباكي

(اللطائف: ٢٩٣/١، نحو القلوب الكبير ورقة ٦٥)

١٧ - ولو بيد الحبيب سقيت سما

لكان السسم من يده يطيب

(ط: ٢٣٩/٥)

(٤٣) الاستشهاد على المعنى الواحد بأكثر من شاهد يؤكد سعة اطلاع القشيري ومحفوظه من الشعر.

(٤٤) مكسوات باللحم.

(٤٥) تهزل.

(٤٦) الرسالة القشيرية: ٦١٩ - وقد نسب إلى السرى السقطي في: اللع ٣٢١.

١٨ - وإذا تذلت الرقاب تقربا

منا إليك فمعزها في ذلها

(ط: ١٩٩/٥)

١٩ - أغيب إذا شهدتك ثم أحيا

فكم أحيا لديك وكم أبيد

(ط: ٦٥/١)

٢٠ - سهر العيون لغير وجهك باطل

وبكأؤهن لغير هجرك ضائع^(٤٧)

٢١ - ومن كان في طول الهوى ذاق سلوة

فإنى من ليلى لها غير ذائق

وأكثر شيء نلته من وصالها

أمانى لم تصدق كخطفة بارق

(الرسالة: ٦١٧؛ وفيات الأعيان ٣٧٥/٢)

وكان ابن خلكان يعجب بهذين البيتين.

تعليق موجز على شعره واستشهاد به بالشعر

١ - كان الشعر ولا يزال قمة الفنون، لما امتاز به من الإيماء والرمز، فكان أهلا لأن يحمل تلك الدقائق والرقائق، والوجدان والوله والمقامات والأحوال. فاستعان القشيري به ليكشف عما يعانيه من: كتمان وإفصاح،

(٤٧) شرح أسماء الله الحسنى ٤٢ للقشيري؛ نشره أحمد الحلواني ط أولى ١٩٦٩ القاهرة.

وتشرد وذبول. وحنين وأنين، وعشق للأحزان، وتلذذ بالآلام، ويصور
خلجات القلب عند التلاقى والافتراق، والإقبال والإدبار، والرضا والدلال،
وهي في هذا أقرب إلى المتيمين والعذريين، ولهذا استعار أسماء
معشوقاتهم في شعره: كسلمى، ومى، وبثينة، وليلى، ونقلها إلى بيئته
الصوفية كما قالوا:

أسميك ليلى في نسيبي تارة
وآونة سمدى وآونة ليلى
حذارا من الواشين إن يفطنوا بها
والا، فمن لبنى فديتك من ليلى

فالحب كما ترى عند القشيري هو جوهر التصوف ورسالته، ومصدر
الإلهام والكشف. يحيل به ماديات الكون إلى أرواح مسبحة عابدة، ولقد
آثر القشيري في حبه الكتمان خوفاً من اللائمين والعاذلين لا سيما في
عشقه الإلهي الذي يتجه له بكل قلب وروحه.

٢ - وعندما يصور القشيري (الله الصمد) - وهو أنصع فكرة في المعرفة
الصوفية - تراه يميظ اللثام حتى تتكشف له الحقيقة شيئاً فشيئاً، وهمه
أن يصل إلى غاية السفر ويستشرف أفق الواصلين، وشعره عن الذات
الإلهية ينبع من منطقة فوق الوعي والإدراك.

ولا غرو فغاية الشعر عنده إلهية، وأكثر شعر القشيري الذي وصلنا من
خلال مؤلفاته يرتبط بكنف الله، ولله، وميزته فيه: الصدق والإخلاص
والصفاء.

٢ - كما أشار إلى السكر والشطح في قوله:

وإذا سقيت من المحبة مصة

القيت من فرط الخمار خمارى

حيث هيمه السكر وتيمه وغيبه، ولما أفاق تاب وأناب، ولكنه رأى الحبيب فعاد إلى سكره الذى أفناه ومحاه! والشملى يبتعد عن عالم الحس، ويعيش فى منطقة فوق عالما، ولكنه بيننا، والخمر الإلهية لا لفو فيها ولا تأثيم، لأنها من يد الحبيب، والمحبة سكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبة.

فالقشيري كان يعيش بوجدانه لا بفرائزه، فكان حاله: من مناجاة وقرب إلى طاعة وعبادة، ومن ذكر ومحبة إلى نجوى وأنس، فكان الله معبوده ومحبوبة.

٤ - وتتناثر الحكمة والموعظة فى جوانب شعره، ولم يكن مبعث ذلك إحساسه بالرحيل ودنو الأجل كغيره، وإنما كانت جزءاً من حياته التى عاشها والتجربة التى صادفها.

٥ - أما استشهاده بالشعر، فكان مصدر اختيار الشاهد عنده، ما يعانى من صوفية عارمة، فهو ينقل الشاهد من مكانه الضيق إلى الرحب الفسيح حيث المذاقات والمكاشفات والمشاهدات، ولا يختار شواهد إلا بعد تذوقها وفحصها ببصيرة كاشفة، ثم يحيطها بجو من نفسه ووجدانه، وعندئذ يصبح الشاهد فى بيئته الجديدة أشبه بطاقات النور التى تتحرك إلى غاياتها، وتتخطى الحجب والحجز، والأبعاد والآماد.

٦ - ونستطيع أن نحكم على القشيري بعد تلك الجولات الواسعة فى مؤلفاته وآثاره بأنه كان مقلاً فى الشعر^(٤٨).

٤ - أدبه

وهذا أدب القشيري، نقدم جوانب منه، لنتعرف على اتجاهاته، وما يحمل من صدق وإشارات، ومعارج وغايات:

(٤٨) مال إلى هذا رأى د/ إبراهيم بسيونى. اللطائف ٦/ ٢٧٠ (هـ).

١ - فى قوله تعالى: «قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم.. ويشف صدور قوم مؤمنين. ويذهب غيظ قلوبهم...» «وشفاء صدور المؤمنين على حسب مراتبهم فى المقام والدرجات. فمنهم من شفاء صدره فى قهر عدوه، ومنهم من شفاء صدره فى نيل مرجوه، ومنهم من شفاء صدره فى الظفر بمطلوبه، ومنهم من شفاء صدره فى لقاء محبوبه، ومنهم من شفاء صدره فى درك مقصوده، ومنهم من شفاء صدره فى البقاء بمعبوده. وكذلك ذهاب غيظ قلوبهم تختلف أسبابه، وتتويع أبوابه، وفيما ذكرنا تلويح لما تركنا.

(اللطائف: ١٢/٣)

٢ - وفى قوله تعالى: «قل أرايتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء».

«إن دامت ليالى الفترة فمن الذى يأتى بنهار التوبة غير الله؟

«وإن دامت ليالى الطلب فمن الذى يأتى بصبح الوجود غير الله؟

«وإن دامت ليالى القبض فمن الذى يأتى بصبح البسط غير الله؟

«وإن دام ليل الفراق فمن الذى يأتى بصبح الوصال غير الله؟» (٤٩).

(جل: ٧٨/٥)

٣ - وفى تفسيره لقوله جل شأنه: «والهكم إله واحد...».

«والواحد - من لا مثل يدانيه، ولا شكل يلاقيه، لا قسيم يجانسه، ولا

فديم يؤانسه، لا شريك يعاضده، ولا معين يساعده، ولا منازع يعانده.

(٤٩) الشيخ رقت أحاسيسه، ودقت مشاعره، وقويت صلته بالله واستولى عليه الاسم الأعظم، فراح فى ذكر وتسبيح ومتاف (وانظر: المحقق).

إحدى الحق صمدى العين، ديمومى البقاء، أبدى العز، أزلى الذات.
واحد فى عز سنائه، فرد فى جلال بهائه، وتر فى جبروت كبريائه، قديم
فى سلطان عزه، مجيد فى جمال ملكوته.

(اللطائف: ١/١٥٥)

٤ - وعند قوله تعالى: «قد علم كل أناس مشربهم».

«والمناهل مختلفة، والمشارب متفاوتة، وكل يرد مشربه، فمشرب عذب
فرات، ومشرب ملح أجاج، ومشرب صاف زلال، ومشرب رقيق أوشال.

وسائق كل قوم يقودهم، ورائد كل طائفة يسوقهم، فالنفوس ترد مناهل
المنى والشهوات، والقلوب ترد مشارب التقوى والطاعات، والأرواح ترد
مناهل الكشف والشاهدات. والأسرار ترد مناهل الحقائق بالاختطاف عن
الكون والمرسومات ثم عن الإحساس والصفات ثم بالاستهلاك فى حقيقة
الوجود والذات.

(اللطائف: ١/١٠٧)

٥ - وعند قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾. الذين
زينوا ظواهرهم بالمجاهدات، حسنت سرائرهم بالمشاهدات، الذين شغلوا
ظواهرهم بالوظائف أوصلنا إلى سرائرهم اللطائف، الذين قاسوا فىنا
التعب من حيث الصلوات جازيناهم بالطرب من حيث المواصلات.

(اللطائف: ٥/١٠٦)

٦ - ويقول فى معنى: «الجليل الجميل»، وهما من أسماء الله تعالى:

«واعلم أنه عز وجل يكشف القلوب مرة بوصف جلاله، ومرة بوصف
جماله، فإذا كاشفها بوصف جلاله صارت أحوالها دهشا فى دهش، وإذا

كاشفها بوصف جماله صارت أحوالها عطشا في عطش، فمن كاشفه بجلاله أفناء، ومن كاشفه بجماله أحياء، فكشف الجلال يوجب محوا وغيبة، وكشف الجمال يوجب صحوا وقرية، فالعارفون كاشفهم بجلاله فغابوا، والمحبون كاشفهم بجماله فطابوا، فمن غاب فهو مهيم، ومن طاب فهو متيم. واعلم أن العابدين شهدوا أفضاله فبذلوا نفوسهم، والعارفين شهدوا جلاله فبذلوا قلوبهم، والمحبين شهدوا جماله فبذلوا أرواحهم، فمن كان له علم اليقين شهد جلاله، ومن كان له حق اليقين شهد جماله»^(٥٠).

٧ - وعند قوله تعالى: «والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار...».

«الإشارة منه أن العبد في أوان الطلب رقيق الحال، ضعيف، مختصر الفهم.. ثم يفكر حتى تزداد بصيرته.. إنه كالقمر - يصير كاملا، ثم يتناقص، ويدنو من الشمس قليلا قليلا، وكلما ازداد من الشمس دنوا ازداد في نفسه نقصانا حتى يتلاشى، ويختفى ولا يرى.. ثم يبعد عن الشمس فلا يزال يتباعد حتى يعود بدرا - من الذي يصرفه في ذلك إلا أنه تقدير العزيز العليم؟ وشبيه الشمس عارف أبدا في ضياء معرفته، صاحب تمكين غير متلون، يشرق من برج سعادته دائما، لا يأخذه كسوف ولا يستره سحب. وشبيه القمر عبد تتلون أحواله في تنقله، فهو في حال من البسط يترقى إلى حد الوصال، ثم يرد إلى الفترة، ويقع في القبض مما كان به من صفاء الحال، فيتناقص، ويرجع إلى نقصان أمره إلى أن يرفع قلبه عن وقته، ثم يعود الحق - سبحانه - فيوقفه لرجوعه عن فترته، وإفاقته عن سكرته، فلا يزال يصفو حاله إلى أن يقرب من الوصال، ويرزق صفة

(٥٠) التحبير في التذكير ٦٢ تحقيق الدكتور إبراهيم بسيوني وانظر: شرح أسماء الله الحسنى ٢٠٠ نشره الأستاذ أحمد الحلواني ط أولى ١٩٦٩ القاهرة.

الكمال، ثم بعد ذلك يأخذ في النقصان والزوال.. كذلك حاله إلى أن يحق له بالمقسوم ارتحاله.. وأنشدوا:

كـل يـوم تـتـلـون

غـير هـذا بـك أجـمل

(اللطائف: ٢١٧/٥ فما بعدها)

وبعد هذه الجولة الخاطفة في أدب القشيري نلاحظ أنه:

١ - كان يحمل الفاظه طاقات متجددة، ويولد منها معاني كثيرة، كما كانت تسعفه في المواقف النفسية والوجدانية، وليس في لجوئه إلى المحسن اللفظي تعويض يعوض نقصا أو خللا أو ضعفا في الجانب الدلالي) انظر النص الأول.

٢ - أن القشيري في النص الثاني استولى عليه الاسم الأعظم، فرقت أحاسيسه، ودقت مشاعره فغاب في ذكر، وتسبيح وهتاف.

٣ - وفي النص الثالث يسرع الأسلوب، ويبلغ أقصى غايته، وتضممر فقراته إذ يتحدث عن «الوحدانية» فيدفع عنها الظنون والشبه، والتوهم والمعجز.

٤ - أما النص الرابع فأراد به القشيري أن يرتب الملكات الباطنة للإنسان من أسفل إلى أعلى وهي: النفس ثم القلب ثم الروح ثم السر، ثم صور الآفات التي تلحق كل ملكة، ومفرداته نشطة تزداد من درجة إلى أخرى عمقا وانطلاقا.

٥ - وفي النص الخامس طالت فقراته، لأنه يتحدث عن المجاهدين ومكانتهم، فالمقام مقام بسط لما هم فيه من نعيم دائم، وعز مقيم.

٦ - والنص السادس أشار فيه إلى المعراج الروحي ومراتبه، وخصائص كل مرتبة: فالعابدون يبذلون نفوسهم، والعارفون يبذلون قلوبهم، والمحبون يبذلون أرواحهم، وأسلوبه لا تكلف فيه، ولا يسخر جهده لتحلية اللفظ، لأن همه متجه إلى كشف مراحل النفس، ورحلتها في الطريق حيث يتم للصوفي اكتشاف أبعاد نفسه، وكانت موسيقى النص تتلون عندما ينتقل من خطوة إلى أخرى، وإذا كان النص يحمل بين يديه كشوفات ومصطلحات صوفية، فإنه يحمل على أكتافه نماذج فنية، من الأدب الرفيع المتسم بالشفافية والصدق.

٧ - أما النص السابع فيشير إلى أن القشيري اتخذ من مظاهر الطبيعة كالشمس والقمر والليل والنهار - إشارات رائعة تتصل بالجمال الصوفي: رياضة ومجاهدة وكشفاً، وهو بهذا يربط المعرفة الإنسانية في حلقات متدرجة متصاعدة.

وكان موفقاً حين عقد عن طريق التشبيه الخصيب المتألق - صلة ومودة بين عالم السماء وباطن الإنسان، وما يحمله من سلوك ومعارف، ومبادئ وقيم. كما كشف عن طريق الإشارات معاني للألفاظ - التي تتحرك في اتجاهات شتى - تفوق معانيها المعجمية، وذلك عمل فني رائع يؤكد ما بين التصوف والفن من رحم وقرابة.

الفصل الثانى

مناهج القشيري واتساع دراساته

أ - بين الإشارة والعبارة :

عرف النحو بتعريفات مختلفة فهو :

١ - العلم المستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب، الموصلة إلى معرفة أحكام أجزائه التي اختلف^(١) منها قال صاحب المقرب : فعلم أن المراد بالنحو ما يرادف قولنا (علم العربية) لا قسيم الصرف.

وجاء فى الصبان تعليقا على «لا قسيم الصرف» هذا اصطلاح القدماء. واصطلاح المتأخرين تخصيصه بفن الإعراب والبناء وجعله قسيم الصرف.

٢ - علم بأصول مستنبطة من كلام العرب يعرف بها أحكام الكلمات العربية حال أفرادها وحال تركيبها وما يتبعها^(٢).

٣ - انتحاء سمت كلام العرب فى تصرفه من إعراب وغيره : كالتثنية، والجمع، والتحقيق، والتكثير، والإضافة والنسب، والتركيب، وغير ذلك^(٣).

(١) أشمونى ١٥/١ فما بعدها.

(٢) حاشية الخضرى على ابن عقيل ١٦/١.

(٣) الخصائص ١ / ٢٤.

٤ - علم بأصول يعرف بها أحوال أواخر الكلمات العربية إعراباً وبناء^(٤).

ومن التعريفات السابقة وغيرها نرى أن النحاة يختلفون في تحديد دائرة النحو :

فمنهم من يجعلها تشمل أساليب اللغة من جميع نواحيها.

ومنهم من يقصرها على ضبط أواخر الكلمات ومعرفة بنياتها واشتقاقها.

ومنهم من يرى أن دائرة النحو يجب أن تكون أوسع من البحث في الإعراب وضبط أواخر الكلمات فتشمل الجملة من حيث أسرار الجمال التي تكمن وراء نظم كلماتها، وترتيبها الذي يقتضيه علم النحو، وأن معاني النحو تمثل العلاقات بين معاني الكلم في النفس وإليها يستند ترتيب هذه المعاني^(٥).

ولا نريد من عرض هذه التعريفات للنحو أن نناقشها أو ننتقص من قدر النحو، ولكننا نريد أن نصل من ذلك إلى أمرين :

أولهما : أن النحو بهذه التعريفات السابقة يمثل البناء الكبير وهو إذن خلاصة البحث اللغوي في جميع مستوياته.

وثانيهما : أن النحو بالمضمون السابق يدور حول (العبارة) من حيث تقديم بعض أجزائها أو تأخيرها أو تعريفه أو تنكيره أو حذفه أو ذكره أو إثباته أو نفيه أو تغير أواخر الكلمة المفردة لتغير العوامل الداخلة عليها. وفي أثناء دراستهم هذه نرى نموذجاً من الخلاف بينهم والجدل والنزاع

(٤) حاشية الصبان على الأشموس عند تعريف النحو.

(٥) انظر بلاغة أرسطو بين العرب واليونان : ٢٥٢ د. إبراهيم سلامة، الأنجلو المصرية.

الذى يتمثل فى كل خطواتهم حتى كثروا من احتمال أوجه الإعراب وتقديره وصوره من غير أن يشيروا إلى تصوير المعنى. وحسبنا هذا النموذج على سبيل المثال لا الحصر :

(أ) ما ذكره الأشمونى فى الصفة المشبهة من أن لمعمولها ثلاث حالات: الرفع على الفاعلية، والنصب على التشبيه بالمفعول به، والخفض بالإضافة. والصفة مع كل من الثلاثة : إما نكرة أو معرفة، وهذه الستة فى أحوال السببى، وهو اثنا عشر نوعاً. فتلك اثنتان وسبعون صورة^(٦). ويضم إليها ثلاث صور فتصير الصور خمسا وسبعين. والصفة إما مفردة أو مثناة أو مجموعة جمع سلامة أو تكسير مذكرة أو مؤنثة، فإذا ضربت الثمانى فى خمس وسبعين صارت ستمائة. والصفة أيضا إما مرفوعة أو منصوبة أو مجرورة فإذا ضربت الثلاث فى ستمائة صارت ألفا وثمانمائة. ومعمول الصفة إما مفرد أو مثنى أو مجموع جمع سلامة أو تكسير مذكر أو مؤنث فإذا ضربت الثمانى فى الألف وثمانمائة صارت أربعة عشر ألفا وأربعمائة، تسقط منها مائة وأربعة وأربعون من صور المعمول الضمير.. فالباقى أربعة عشر ألفا ومائتان وستة وخمسون بعضها جائر وبعضها ممتنع، فالدرس كما ترى قائم على المنهج الشكلى والجفاف العلمى من تقسيم الأنواع.

(ب) روى أن عضد الدولة أبا شجاع فناخسرو البويهى سأل الإمام أبا على الفارسى : بماذا ينصب الاسم المستثنى فى نحو قام القوم إلا زيدا؟ قال : بتقدير أستثنى زيدا، فقال له عضد الدولة - وكان فاضلا - لم قدرت «أستثنى زيدا فتصبت؟ وهلا قدرت امتنع زيد.. فرفعت! فقال له أبو على : هذا الجواب الذى ذكرته لك جواب ميدانى وإذا رجعت ذكرت لك الجواب الصحيح^(٧).

(٦) انظر حاشية الصبان على الأشمونى فى الصفة المشبهة.

(٧) نزهة الألباء فى طبقات الأدباء ص ٢١٦ ط تحقيق أبى المفضل، نهضة مصر.

وذهب البصريون إلى أن العامل الفعل المقدم بتوسط (إلا) وذلك لأن هذا الفعل وإن كان لازماً في الأصل إلا أنه قوى بـ (إلا) فتعدى إلى المستثنى.

وذهب الفراء من الكوفيين إلى أن (إلا) مركبة من (إن ولا) ثم خففت (إن) وأدغمت في (لا) فهي تنصب في الإيجاب اعتباراً بـ (إن) وترفع في النفي اعتباراً بـ (لا) ^(٨).

(ج) ومن ذلك ما رواه أبو العباس أحمد بن يحيى قال : اجتمع الكسائي والأصمعي عند الرشيد، وكانا معه يقيمان ويظعنان بظعنهما فأنشد الكسائي:

أبلغ حبيباً وخللاً في سراتهم
أن الفؤاد انطوى منهم على حزن
إلى أن قال :

أم كيف ينفع ما تعطى العلوق به
رئمان أنف إذا ما ضن باللين ^(٩)

فقال الأصمعي رئمان : بالرفع. فقال له الكسائي : اسكت ما أنت وهذا، يجوز رئمان ورئمان ورئمان!

والمعنى : وما ينفعني إذا وعدتني بلسانك؛ ثم لم تصدقه بفعلك، فمثلك كالناقة إذا نحر عنها ولدها وحشى تبنا فهي تشمه بأنفها ثم تأباه بقلبها. فكما ترى تقدير كلمات مصنوعة ليصح بها الإعراب الذي ملك عليهم أمرهم.

(٨) انظر أسرار العربية لابن الأنباري ص ٣٠١ فما بعدها.

(٩) الأشباه والنظائر ٣ / ٢٤٤.

ومن هنا آثرنا تسميتهم بـ (أهل العبارة) أو (أهل الظاهر) لأن عملهم لا يتعدى الشكل والسير حول محيط الدائرة أو قريبا منها. وهيئات أن يصلوا إلى مركز الدائرة أو نقطة النبع، وإذا كنا وجدنا على هذا الجانب (أهل العبارة) فإننا نرى على الجانب الآخر (أهل الإشارة).

والإشارة : ترجمان لما يقع في القلوب من تجليات ومشاهدات. وتلويح لما يفيض به الله على من اصطفاه من خلقه من أسرار وفيوضات. وإذا كان المصطلح لأهل النحو الظاهري (العبارة) فإن المصطلح لأهل النحو الباطني (الإشارة) ولكل وجهته. والنحو الظاهري أو نحو العبارة (لفته العقل) وتدرک بالألفاظ والكلمات، وأما النحو الباطني أو نحو (الإشارة) فلفته (القلب) وتدرک بالذوق والإلهام والفيض، ولا يمكن نقل ذلك عن طريق العبارة، ولهذا رمزوا لها وأشاروا. والعبرة عند أهل (الإشارة) بحقائق الأرواح لا بمظاهر الأشباح. يعنيهم الجوهر أكثر مما يعنيهم المظهر. وفي الخبر «من عمل بما علمه ورثه الله علم ما لم يعلم»^(١٠).

ويوضح أبو نصر السراج هذا العلم الموروث بأنه (علم الإشارة) حيث يكشف الله سبحانه وتعالى لقلوب أصفياؤه المعاني المذخورة، واللطائف والأسرار المخزونة^(١١).

وأسلوب أهل الإشارة يقوم على الإيماء والرمز وسرعة الالتقاط. كما أن كلماتهم محملة بالشحنات النفسية لتتواءم مع الموقف الذي هم عليه، ولهذا كان لهم فهم وتذوق قلبي يختلف عن لغة (العقل). ولهذا عندما نظر الرسول - ﷺ - وحوله أصحابه إلى أبي بكر قائلًا له : «أتذكر يوم لا يوم؟» فلم يفهم أصحابه - ما يريد ولكن أبا بكر أجاب بقوله «نعم». ولما سئل

(١٠) أورده أبو نعيم في حلية الأولياء عن أنس بن مالك.

(١١) اللع ١٤٧.

الصديق عن ذلك قال : إنه يوم الميثاق^(١٢). وقد يستطيع الإنسان أحيانا أن يجد تعبيرا يكشف به سر الإشارة ولغتها. خذ مثلا قول القشيري : «فأله تعالى أرشد نفوس الزاهدين إلى طريق طاعته، وقلوب العارفين إلى سبيل معرفته، وأرواح الواجدين إلى حقيقة محبته، وأسرار الموحدين إلى تطلع^(١٣) قريته» فقد استطاع الدكتور إبراهيم بسيوني أن يعرّى قشرة هذا النص حتى شف عن حقيقته فقال : «وهذا النص يشير إلى رأى القشيري في مراتب أهل الحق : زاهد ثم عارف ثم واجد ثم موحد. ويشير ثانيا إلى ملكاتهم الباطنية : نفس ثم قلب ثم روح ثم سر. ويشير ثالثا إلى غاياتهم في كل مرحلة من مراحل معراجهم الروحي : طاعة فمعرفة فمحببة فقرب^(١٤)».

ولو نظر إنسان ما إلى نص القشيري السابق ما استطاع أن يفهم شيئا غير عادي في النص لأن أسلوبه يسير، ومعناه أيسر، ولكن الصوفى له تأملات تحمله أدوارا باهظة في تعقب كل لفظة حيث يطيل التأمل فيها وفيما حملت من مذاقات وشحنات بل في تعقب كل حرف وحركة ونقطة فمن ذلك قول الشبلى ت ٣٢٤ هـ «أنا النقطة التي تحت الباء» «البسمة» ص ١٠٩ دكتور إبراهيم بسيوني.

وإذا استطاع الإنسان أن يكشف عن سر الإشارة أحيانا فإنه في كثير من الأوقات لا يستطيع ذلك. لأن الإشارة الصوفية فوق أسلوب الشفرة^(١٥) فلا تدرك باللمح والحس، وإنما تدرك بالمجاهدات والفيوضات، كما تقوم الإشارة على قفزات ونقلات روحية. وهيئات أن يدرك العقل أسرارها أو

(١٢) لطائف الإشارات ص ٧ من المقدمة للأستاذ حسن عباس زكى.

(١٣) التعبير في التذكير : تحقيق د. إبراهيم بسيوني ص ٩٥.

(١٤) التعبير، المرجع السابق.

(١٥) لعل كلمة (الشفرة) هي (الجفر) لمظا ومدلولا وهو عند الشيعة علم قائم على رموز وأرقام. انظر مقدمة ابن خلدون.

يعبر الفكر عنها إلا مكدودا لاهئاً، لأن (العبارة) ليس فى طاقتها أن تتبّع أسرار (الإشارة).

على أنه لا تعارض بين العبارة والإشارة فهما يتكاملان ويتضافران، فما قامت علوم الظاهر إلا لنصرة الشريعة والحقيقة؛ فالشريعة أن تعبد، والحقيقة أن تشهد. ومن هنا كان لدى أهل الإشارة حصيلة كبيرة من المعارف اللغوية والنحوية والإنسانية وغيرها فهم يعتمدون على العبارة أولاً. ثم يبدأون فى رحلة أخرى تقوم على الرياضات والمجاهدات والمذاقات والكشوفات التى تنال من الحق على عباده الذين اصطفاهم. فلا بد إذن من علم الظاهر قبل الانطلاق إلى علم الباطن، ولهذا فقد ألف القشيري تفسيره الكبير المعروف «بالتيسير فى التفسير» قبل عام ٤١٠ هـ. وهو نتاج الدراسة العقلية واللغوية حيث يعنى بالجانب التقليدى : من لغة ونحو وأخبار وقصص وغيرها، فلما سلك الطريق الصوفى والتقى بشيخه الدقاق ألف تفسيره المعروف «بلطائف الإشارات» ٤٢٤ هـ. وهذا التفسير الأخير نتاج الفيوضات والإلهامات والمذاقات يتتبع فيه الإشارات لا العبارات، ولا يتوقف عند حدود المفردات والألفاظ بل يذهب إلى ما وراء العبارة.

جاء فى طبقات الشعرانى ١٤٧/١ لسيدى إبراهيم الدسوقي : «للعارفين من إشارات العبارات عبارات معجمة وألسن مختلفة» فتفسيره «التيسير» يدركه العوام والمثقف العبارى، أما تفسيره «اللطائف» فلا يصل إليه إلا الخواص ولهذا قالوا : العبارات للعموم، والرموز والإشارات للخصوص. ولذلك كان علم العبارة من مقومات الثقافة العامة، وعلم الإشارة من مقومات الثقافة الخاصة. وللقشيري فهم خاص غير فهم أصحاب العبارة يتجلى : فى التفسير واللغة والفقه والنحو والأصوات والمصطلحات والتذوق وفن الرسم والكتابة. وآن لنا أن نوضح جانباً من هذه القضايا.

(ب) فى التفسير :

١ - فى قوله تعالى : «ويحذركم الله نفسه والله رعوف بالعباد» الإشارة من قوله «ويحذركم الله نفسه» للعارفين، ومن قوله «والله رعوف بالعباد» للمستأنفين. فهؤلاء أصحاب العنف والعنوة، وهؤلاء أصحاب التخفيف والسهولة. ويقال : أفناهم بقوله «ويحذركم الله نفسه» ثم أحياهم وأبقاهم بقوله «والله رعوف بالعباد».

٢ - وفى قوله جل ذكره «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم...». «تحبون الله» فرق، و«يحببكم الله» جمع. «تحبون الله» مشوب بالعلة و«يحببكم الله» بلا علة، بل هو حقيقة الوصلة. ومحبة العبد لله حالة لطيفة يجدها العبد من نفسه وتحمله تلك الحالة على موافقة أمره على الرضا دون الكراهية، وتقتضى منه تلك الحالة إثارة سبحانه - على كل شئ وعلى كل أحد. وشرط المحبة ألا يكون فيها حظ بحال، فمن لم يفن عن حظوظه بالكلية فليس له من المحبة شظية. ومحبة الحق للعبد إرادته إحسانه ولطفه به، وهى إرادة فضل مخصوص، وتكون بمعنى ثنائه سبحانه عليه ومدحه له، وتكون بمعنى فضله المخصوص معه. فعلى هذا تكون من صفات فعله. ويقال : شرط المحبة ، امتحاء كليتك عنك لاستهلاكك فى محبوبك. قال قائلهم :

وما الحب حتى تنزف العين بالبيكا

وتخرس حتى لا تجيب المناديا

وهذا فرق بين الحبيب والخليل (محمد ﷺ وإبراهيم عليه السلام). قال الخليل «فمن تبعنى فإنه منى». وقال الحبيب «فاتبعونى يحببكم الله» فإن كان متبع الخليل (منه) إفضالا فإن متابع الحبيب محبوب الحق سبحانه وكفى بذلك قرية وحالا...

ويقال فى هذه الآية : إن المحبة غير معلولة وليست باجتلاب طاعة، أو التجرد عن آفة، لأنه قال «يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم»، بين أنه يجوز أن يكون عبد له فنون كثيرة ثم يحب الله ويحبه الله.

ويقال : قال أولا : «يحببكم الله» ثم قال «ويغفر لكم ذنوبكم» والواو تقتضى الترتيب ليعلم أن المحبة سابقة على الغفران، أولاً يحبونهم ويحبونه (وبعده) يغفر لهم ويستغفرونه، فالمحبة توجب الغفران، لأن العفو يوجب المحبة. والمحبة تشير إلى صفاء الأحوال ومنه حب الأسنان وهو صفاؤها. والمحبة توجب الاعتكاف بحضرة المحبوب فى السر. والحب حرفان : حاء وباء. والإشارة من الحاء إلى الروح ومن الباء إلى البدن، فالمحب لا يدخر عن محبوبة لا قلبه ولا بدنه^(١٦).

٣ - ولم تكن بسملة السورة كيانا مستقلاً قائماً بذاته عن السورة كما فى تفسير أهل العبارة بل كانت البسملة عند القشيري فى أول كل سورة خلاصة مركزة لحديث طويل يتواكب مع النسيج العام داخل السورة وكأن بين البسملة والسورة رحماً فى المعنى وثيقة، ومسالك دقيقة. ولم يكن مرد هذا إلى معرفة القشيري باللغة والنحو، والاشتقاق والبلاغة فحسب، وإنما كان مرجعه إلى صفاء روحه، ودقة حسه، ورقة شعوره، ونقاء سريرته، وبعد تأملاته، وعمق رياضته ومجاهداته.

كما اعتمدت هذه النظرة الفذة من القشيري على أنه لا يؤمن بالتكرار فى القرآن، فحين تأتى البسملة فى أول كل سورة فإنما تأتى لمعنى جديد، ومرمى سديد يتفق مع السياق العام لمضمون ما تحتويه السورة وإليك بعض النماذج :

ففى سورة «الأنبياء» يكشف عن معنى البسملة فى أول السورة بقوله: «بسم الله» اسم عزيز من توسل إليه بطاعته تفضل عليه بجميل نعمته إن

(١٦) لطائف الإشارات للقشيري ١ / ٢٤٦ - ٢٤٨.

أطاع فضله، وإن أضاع أمهله، ثم إن آب وأقر.... ذكره، وإن عصى وعاب ستره. ثم يقول : اسم عزيز ما استنارت الظواهر إلا بآثار توفيقه، وما استضاءت السرائر إلا بأنوار تحقيقه. بتوفيقه وصل العابدون إلى مجاهدتهم، وبتحقيقه وجد العارفون كمال مشاهدتهم^(١٧)...

فالترباط وثيق بين إشارات البسملة ومشاهد السورة في الداخل حيث اختلف الناس بين مؤمن وكافر، ومصديق ومكذب حول رسالة الأنبياء.

وتراه في سورة الجن يكشف عن بسملتها بقوله : «بسم الله» اسم عزيز به أقر من أقر بربوبيته، وبه أصر من أصر على معرفته، وبه استقر من استقر من خليقته، وبه ظهر ما ظهر من مقدوراته، وبه بطن ما بطن من مخلوقاته، فمن جحد فيخذلانه وحرمانه، ومن وحد فبإحسانه وامتتانه^(١٨).

فالترباط واضح بين إطار السورة المتجسد في البسملة وبين جزئيات السورة في الداخل. لاحظ قوله «ظهر ما ظهر وبطن ما بطن» وربطه (بالجن) وبقوله في السورة : «عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا». وفي بسملة (المنافقون) يقول : «بسم الله» اسم من تحقق به صدق في أقواله، ثم صدق في أعماله، ثم صدق في أخلاقه، ثم صدق في أحواله، ثم صدق في أنفاسه.... «يقول القشيري في قوله تعالى «والحافظون لحدود الله» : هم الذين يحفظون مع الله أنفاسهم»^(١٩). ومراعاة (الأنفاس) من الأمور التي شغلت الصوفية. يقول الجنيد:

وما تنفست إلا كنت مع نفسي

تجرى بك الروح منى في مجاريها

(١٧) لطائف الإشارات ١/ ١٦٣.

(١٨) اللطائف ٦ / ٢٠٥.

(١٩) اللطائف ٣ / ٦٨.

فصدقه فى القول ألا يقول إلا عن برهان، وصدقه فى العمل ألا يكون للبدعة عليه سلطان، وصدقه فى الأخلاق ألا يلاحظ إحسانه مع الكافة بعين النقصان، وصدقه فى الأحوال أن يكون على كشف برهان، وصدقه فى الأنفاس ألا يتنفس إلا على وجود كالعيان^(٢٠). والترابط وثيق بين البسمة والمشهد العام للسورة كما ترى.

فكل بسمة فى القرآن الكريم لها معنى جديد يتواكب مع المعنى العام للسورة^(٢١).

(ج) فى الفقه :

١ - فى قوله تعالى «ويقيمون الصلاة» وأما إقامة الصلاة والقيام بأركانها وسننها، ثم الغيبة عن شهودها برؤية من يصلى له فيحفظ عليه أحكام الأمر بما يجرى عليه منه، وهو عن ملاحظتها محو، فنفسهم مستقبله القبلة وقلوبهم مستفرقة فى حقائق الوصلة.

أرأى إذا صليت يمت نحوها

بوجهى وإن كان المصلى ورائيا

أصلى فلا أدري إذا ما قضيتها

اثنتين صليت الضحا أم ثمانيا^(٢٢)

٢ - وفى قوله جل ذكره «ومما رزقناهم ينفقون» على لسان التفسير أنهم ينفقون أموالهم إما نفلا وإما فرضا على موجب تفصيل العلم. وبيان الإشارة أنهم لا يدخرون عن الله سبحانه وتعالى شيئا من ميسورهم،

(٢٠) اللطائف ٦ / ١٥٥.

(٢١) انظر ٦ / ٣٤١، ٣٣٠، ٥ / ٣٤١ وانظر سورة الحجر ويوسف وبراءة.

(٢٢) اللطائف ١ / ٦٨ فما بعدها.

فينفقون نفوسهم في آداب العبودية، وينفقون قلوبهم على دوام مشاهدة الربوبية، فإنفاق أصحاب الشريعة من حيث الأموال، وإنفاق أرباب الحقيقة من حيث الأحوال.. وأما أهل الحقائق فلو جعلوا من جميع أحوالهم «لأنفسهم ولحظوظهم لحظة قامت عليهم القيامة» (٢٣).

٣ - في قوله جل ذكره «ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً» ويقال : الاستطاعة فنون، فمستطيع بنفسه وماله وهو الصحيح السليم، ومستطيع بغيره وهو الزمن المعصوب، وثالث غفل الكثيرون عنه وهو مستطيع بربه. وهذا نعت كل مخلص مستحق فإن بلاياه لا تحملها إلا مطايانا.

ويقال : الحج هو القصد إلى من تعظمه : فقاصد بنفسه إلى زيارة البيت، وقاصد بقلبه إلى شهود رب البيت، فشتان بين حج وحج، هؤلاء تحللهم عن إحرامهم عند قضاء منسكهم وأداء فرضهم، وهؤلاء تحللهم عن إحرامهم عند شهود ربهم... فإذا بلغ منى نفى عن قلبه كل طلب ومنى، وكل شهوة وهوى، وإذا رمى الجمار رمى عن قلبه وقذف عن سره كل علاقة في الدنيا والعقبى، وإذا ذبح ذبح هواه بالكلية... وإذا حلق قطع كل علاقة بقيت له (٢٤).

٤ - يرى القشيري أن المريد لا يلجأ للرخص في العبادات، والأفضل تركها، لأنها للمستضعفين وأرباب الحوائج والأشغال من الكافة، والمريد لا حاجة له ولا شغل إلا لربه وبربه (٢٥).

(٢٣) اللطائف ١ / ٦٩.

(٢٤) اللطائف ١ / ٢٧٥ فما بعدها، وانظر نظرة القشيري : للصوم والطهور والفعل والمسح والتيمم في لطائف الإشارات ٢ / ٩٩، ١ / ١٦٥ فما بعدها.

(٢٥) انظر اللطائف ١ / ١٦٥، ٢ / ٢٦٤ وانظر التعبير في التذكير: للقشيري تحقيق الدكتور إبراهيم بسيوني ٦٦.

ويفسر القشيري قول الله تعالى : ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خَسْرٍ﴾ بأنه الرجوع إلى الرخص بعد إثارة الأشق والأولى^(٢٦).

كما يرى القشيري أن الفقير^(٢٧) إذا انحط عن درجة الحقيقة إلى رخصة الشريعة فقد فسخ عقده مع الله ونقض عهده. والقشيري في آرائه الفقهية هذه يشير إلى أن الصوفي عليه أن يستبطن ظواهر العبادات، ويكشف اللثام عن أسرارها بأن تنزه العبادة عن الأطماع والأعواض وما يراه القشيري جدير بأنه يسمى «بالفقه الصوفي»^(٢٨).

(د) في اللغة :

من خصائص القشيري أنه لا يعترف بالتكرار فكل كلمة في موقع لها معنى يختلف عن مدلولها في موقف آخر، لأن التكرار قد يكون أية ضعف في القائل :

١ - ففي قوله جل ذكره «وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين» يلتبس القشيري معنى جديدا لكلمة الاصطفاء، فالأول : اصطفاك بالكرامة والمنزلة وعلو الحالة، والثاني : اصطفاك بأن حملت بعيسى عليه السلام من غير أب^(٢٩).

٢ - يرى بعض العلماء أن لفظ «الله» مشتق من قولهم (أله) بالمكان، أي أقام به، أو من (لاه) أي علا، أو (لاه) بمعنى احتجب، أو من (الوله) وكأن اسمه يوجب الوله. والقشيري لا يرى الاشتقاق في هذا معتمدا على أن «الله» اسم الذات الذي لا يصح أن يسمى به أحد من المخلوقين. وكل اسم

(٢٦) اللطائف ٦ / ٢٢٢.

(٢٧) معنى الفقير : الصوفي المتجرد.

(٢٨) انظر نماذج منه في الرسالة : ص ١٩٨ ط الثانية (الطبي).

(٢٩) لطائف الإشارات ١ / ٢٥٤.

من أسمائه يصلح للتخلق به إلا هذا الاسم فإنه للتعلق دون التخلق. والقائلون باشتقاقه لابد لهم من مادة يشتق منها هذا الاسم، والله تتزهت ذاته لم يسبق بمادة. ومبحث الذات الإلهية عند القشيري ليس مجرد كلام نظري جدلي، كما ترى ذلك في مباحث أهل العبارة، وإنما المقصود أن نتخلق بها على سبيل المجاز في الاستعمال ونعمل بما نعلم^(٣٠). فالقشيري لا يتوقف عند حدود الاشتقاق كأهل العبارة ولكنه يلفتنا إلى الجانب السلوكي المترتب على المعرفة.

٢ - وفي قوله جل ذكره «وليعضوا وليصفحوا» يقول القشيري : العفو والصفح بمعنى، فكررهما تأكيدا، ولكنه يسرع إلى التمييز بينهما فيقول : العفو في الأفعال، والصفح في جنايات القلوب^(٣١).

٤ - كما كان القشيري لماحا في الربط بين المرادات الصوفية وبين صيغ الاشتقاق اللغوية معتمدا على الفروق الدقيقة في المادة الواحدة واستتباط دقائقها ورقائقتها. اسمعه يقول : «والصبر في حق العباد على ثلاثة أقسام: أولها : التصبر وهو تكلف الصبر ومقاساة الشدة، ثم الصبر وهو سهولة تحمل ما يستقبله من فنون القضاء وصروف البلاء، ثم بعده : الاصطبار وهو النهاية في الباب.

ويكون ذلك بأن يألف الصبر فلا يحتمل مشقة، بل يجد روحا وراحة كما قيل :

تعودت مس الصبر حتى ألفته

وأسلمني حسن العزاء إلى الصبر^(٣٢)

وفي اللطائف ٢٢١/١ في تفسيره لقوله تعالى ﴿يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا﴾ (آية ٢٠٠ من سورة آل عمران) يقول :

(٣٠) التعبير في التذكير مقدمة الناشر د. إبراهيم بسيوني.

(٣١) اللطائف ٤، ٢٧٣.

(٣٢) التعبير في التذكير ٩٥ تحقيق د. إبراهيم بسيوني وانظر الهامش.

«ويقال أول الصبر التصبر، ثم الصبر، ثم المصابرة، ثم الاصطبار، وهو نهاية». فزاد هنا (مصطلح) المصابرة. ثم يقول «اصبروا على الطاعات وعن المخالفات، وتصابروا في ترك الهوى والشهوات وقطع المنى والعلاقات، ويقال : اصبروا بنفوسكم وصابروا بقلوبكم ورابطوا بأسراركم»^(٢٣).

(هـ) في الحرف :

الحرف في ذاته لا يعطى معنى إلا إذا كان رمزا، والإشارة ليست إلا مرموزا صادرا عن رمز^(٢٤). وقد اشتد الجدل بين الإشاريين والعباريين في حروف أوائل القرآن^(*). ولا أريد أن أتعرض لهذا الجدل بينهم إذ هو مسطور في كتب التفسير في أوائل السور القرآنية، ولكن يكفي وضع المعالم الآتية :

- ١ - أن هذه الحروف علم مستور وسر محجوب استأثر الله به.
- ٢ - أن القرآن تحدى بها العرب حيث نزل بهذه الحروف التي يعرفونها.
- ٣ - أوائل السور قسم أقسم الله فيها بنفسه.

(٢٣) فرق أبو طالب المكي ت ٢٨٦م بين التصبر والصبر. فالتصبر : حمل النفس على الصبر ومجاهدتها عليه، وترغيبها فيه، وفيه تكلف وتصنع للصبر... أما الصبر فهو «التحقق بالوصف وذلك هو المقام» انظر : قوت القلوب في معاملة المحبوب ١ / ٤٠٥ ط الحلبي.

(٢٤) البسملة ٥٣ د. إبراهيم بسيوني.

(*) لا يفوتنا أن ننوه بالحدث الإسلامي الخطير الذي أثاره شاب مصري يعيش في أمريكا - وهو د. رشاد خليفة عالم الكيمياء حيث استخدم العقول الإلكترونية لأول مرة في محاولة لتفسير فواتح السور في القرآن، وقد قام بتسجيل هذا البحث في مكتبة الكونجرس تحت رقم ٢٧٢٨٦ بتاريخ ١١ إبريل سنة ١٩٧٢، وقد قام بتنفيذ الجهاز الإلكتروني برقم كل سورة وعدد آياتها، وعدد كل حرف أبجدي فيها، وأجرى متوسطات ونسب وعمليات حسابية متداخلة معقدة سجلت نتائج مذهلة يضيق المقام عن التصدي لها، ويكفي أن نشير إلى أن الباحث أثبت بما لا يدع مجالا للشك أن إعجاز القرآن الكريم ليس في الجانب الأدبي اللفوي أو غيره بقدر ما هو إعجاز حسابي يفوق طاقة الإنس والجن، ومن خطوات البحث الجريئة أن العقل الإلكتروني قام بـ ٦٣ أكتليون عملية، بمعنى بوضع ٢٧ صفرا على يمين الرقم السابق.

- ٤ - أوائل السور أسماء علمية لبعض سور القرآن المفتحة بها .
- ٥ - أوائل السور تنبيه لكى لا يفوت السامع شيئاً مما يلقى عليه .
- ٦ - عد أوائل السور على حساب الجمل، فقد روى العز بن عبد السلام أن علياً رضى الله عنه استخرج واقعة معاوية من (حم عسق) .
- والرموز الحرفية والرقمية قد لعبت دوراً خطيراً فى الدور الذى قام به العلويون ضد الأمويين ثم ضد العباسيين .
- على أن الحروف قد عولجت فى اتجاهات مختلفة أهمها :

١ - الاتجاه الصوتى ويتمثل فى دراسة الخليل وسيبويه وابن دريد وابن جنى وغيرهم، وكانت دراستهم للحروف من حيث أجراسها وصفاتها : من همس وجهر، ومن شدة ورخاوة، ومن إطباق وانفتاح، ومن استعلاء واستفال، وتقسيم الجهاز الصوتى إلى مدارج يختص كل منها بحرف أو مجموعة من الحروف، وما يعرض للصوت فى بناء الكلمة من إعلال وإبدال وحذف ونقل .

٢ - الاتجاه الترابطى : ويتمثل فى سهل بن هارون صاحب بيت الحكمة أيام المأمون، فقد ربط بين الحروف وعددها وبين عدد منازل القمر الثمانية والعشرين . كما ربط بين نصف الحروف الذى يدغم مع لام التعريف «وهى الشمسية» ونصفها الذى لا يدغم، وخلص من ذلك إلى الشبه بين منازل القمر من حيث ظهور نصفها للعيان واختفاء النصف الآخر فى وجه القمر الآخر، كما ربطوا بين العبادات من زكاة وحج، وبين الحروف والأرقام .

٣ - الاتجاه الفلسفى ويمثله ابن سينا وابن عربى فى فتوحاته حيث طبق الأول عليها فلسفته فى الخلق وأنواع العوالم والعقول . وصارت الحروف عند الثانى موجدة وخالقة لجميع الكائنات التى لانهاية لها . وقد

ربط ابن عربى بين الذوات المخلوقة حاملة لصفات الخلقية والخُلقية قائمة فى مقاماتها، وبين الحروف الملفوظة محركة بحركاتها البنيوية والإعرابية صادرة من مخارجها الصوتية المتنوعة فى قوله :

«أوجد سبحانه وتعالى الحركات والحروف والمخارج تنبيها منه سبحانه وتعالى أن الذوات تتميز بالصفات والمقامات، فجعل الحركات نظير الصفات وجعل الحروف نظير الموصوف وجعل المخارج نظير المقامات والمعارض^(٣٥)، فابن عربى يقابل بين الجانب الصوتى والجانب الكونى^(٣٦)».

٤ - الاتجاه الميثولوجى : ويمثل هذا الاتجاه للحروف وهى عندهم أمة من الأمم تسخر الطبيعة. وذكر البونى أن عوالم حرف الميم تجمد الثلج وتلقيه فى الشمس لئلا تحرق البشر، وقد استغل فيما بعد هذا الاتجاه حيث أصبح عقيدة ودينا يتخذ أصوله من قيم الحروف العددية والتصرف فى الأرقام^(٣٧).

٥ - الاتجاه الدلالى : ويتمثل فى إيجاد علاقة بين معنى الحرف وأصله، كإيجاد علاقة بين حرف (الكاف) ومعناه (المصلح للأمور) بالأصل كاف. وذلك فى قول كثير :

جواد إذا ماجئت تبفى نواله

وكاف إذا ما الحرب شُبَّ شهابها

على أن كثيرا من الحروف لانستطيع أن نجد بينها وبين معانيها أدنى علاقة، وإلا فما العلاقة بين حرف (التاء) وبين معناه وهو (البقرة التى تحلب دائما) فى قول مهلهل :

(٣٥) الفتوحات لابن عربى ١ / ١٠٥ وانظر جلال الدين الدوانى فى رسالة (الزوراء).

(٣٦) وإذا أردت مزيدا من معارف ابن عربى عن الحروف فانظر رسالة قيمة - للزميل حامد طاهر مخطوطة بمكتبة كلية دار العلوم - القاهرة.

(٣٧) انظر أماكن متفرقة من كتاب الفكر الشيعى والنزعات الصوفية حتى مطلع القرن الثانى عشر الهجرى د/ كامل الشيبى.

أبى فارس الهيجاء فى كل حومة

وجدك عبد يحلب التاء دائما

أو بين الحاء وبين معناه وهو (المرأة السليطة)^(٣٨).

هذا وقد تلاعب الشعراء بهذه الحروف وحملوها معانى عجيبه فى
الأعصار المختلفة: فالسين هو الرجل الكثير اللحم والشحم، فى قول
العتابى :

يجود على العفصة بكل من

إذا ما السين شح بما يراد

والذال هو عرف الديك فى قول الحارث اليشكرى :

به برص يلوح بحاجبيه

كذال الديك يأتلق ائتلاقا

والناقة الهزيلة تشبه حرف النون فى قول ابن الإردخل:

فلا ونسداك لم يلحق غبارى

أخو سير أعاد الحرف^(٣٩) نونا

ويشبه هذا ما جاء فى السفر الثانى من شروح سقط الزند القسم
الرابع^(٤٠) لأبى العلاء :

(٣٨) كتاب الحروف للخليل ص ١٥٨ ، ١٥٩

(٣٩) الحرف الناقة (ديوان ابن الإردخل ٢٦٦ حط بمكتبة دار العلوم) (أبو بكر الجزولى).

(٤٠) الدار القومية ص ١٦١١. شبه الناقة فى هراها وصمورها بحرف النون. تحت راء. تحت رجل
يصرب رثيها : اسم فاعل من رثيته : إذا أصبت رثته. ثم يكن بدال : أى لم يكن رهيقا بها. اسم
فاعل من (دلا) وكانه إذا سار سيرا رهيقا. والرسم : رسم دار الحبيب. والمراد بالسقط : نقط
المطر.

وحرف كنون تحت راء ولم يكن

بدال يؤم الرسم غيره النقط

٦ - الاتجاه الصوفى : ونعرض أمثلة لحرف (الألف) وحدها من بين أخواتها للاختصار فى بعض إشارات (القشيرى).

(أ) فى تفسير أول البقرة (ألم) يقول : والألف من بين سائر الحروف انفردت عن أشكالها بأنها لا تتصل بحرف فى الخط وسائر الحروف يتصل بها إلا حروف يسيرة، فينتبه العبد عند تأمل هذه الصفة إلى احتياج الخلق بجملتهم إليه، واستغنائه عن الجميع.

(ب) ويقال : يتذكر العبد المخلص من حالة الألف تقدر الحق سبحانه وتعالى عن التخصيص بالمكان فإن سائر الحروف لها محل من الحلق أو الشفة أو اللسان إلى غيره من المدارج غير الألف فإنها هويته، لا تضاف إلى محل.

(ج) ويقال : اختص كل حرف بصيغة مخصوصة وانفردت الألف باستواء القامة والتميز عن الاتصال بشيء من أضرابها من الحروف فجعل لها صدر الكتاب إشارة إلى أن من تجرد عن الاتصال بالأمثال والأشغال حظى بالرتبة العليا... وصلح للتخاطب بالحروف المنفردة على سنة الأحاباب فى ستر الحال^(٤١).

(د) وذكر القشيرى فى التعبير ص ٢٤ أن الألف من هذا الاسم يعنى «الله» إشارة إلى الوحدانية، واللام الأولى إشارة إلى محو الإشارة، واللام الثانية إلى محو المحو فى كشف الهاء.

ومعروف لدى العباريين أن الحرف فى حد ذاته لا يحمل معنى، ولكنه عند الإشاريين كالصوفية يحمل معنى كبيراً كما رأيت. وكما روى أن النفري

(٤١) اللطائف : ١ / ٦٥ - ٦٦.

نظر إلى صور الحروف بعين الصوفي فرآها كلها مرضى إلا الألف ويعنى به الله. بل يذهب بعضهم أن (الألف) ماهيتها في (النقطة)^(٤٢) لأنها هي التي أعطت للحروف معنى فالحرف إذا تجرد من النقطة لا معنى ولا مفهوم له، وبعض الحروف يحمل النقطة في جوهره كالألف والميم، وبعضها يحمل النقطة في مظهره كالباء، ولهذا كان الشبلي يقول في حالة (الجمع): «أنا النقطة التي تحت الباء»^(٤٣). ويعتبر هذا فهما جديداً للصوفية في (الكتابة) العربية، وفي معاني الحروف. كما أن لهم ذوقاً خاصاً في الوصل والقطع والهمز والشكل، والنصب والرفع وكثير مما لا يطلع عليه غيرهم، لأن الصوفية كما جاء في الرسالة «أهل بيت واحد لا يدخل فيهم غيرهم»^(٤٤)

وقد فهم القشيري من الألف - في ضوء النصوص السابقة فهما جديداً حيث نقله إلى السلوك الإنساني والعمل في التأدب والتخلق بما نعرف من أسرار هذا الحرف في الوجدان الديني وتلك وجهة يهتم بها القشيري في تألف الظاهر والباطن^(*) وتواكب الحقيقة والشرعية حتى في أشكال الكتابة والإملاء، فليست المسألة اتجاهات فلسفية أو ميتولوجية في الحروف كما رأينا ذلك عند غيره.

(٤٢) يقول الحلاج : في القرآن علم كل شيء، وعلم القرآن في الأحرف التي في أوائل السور، وعلم الأحرف في لام ألف، وعلم لام ألف في الألف، وعلم الألف في النقطة، وعلم النقطة في المعرفة الأصلية، أخبار الحلاج ٩٥ فما بعدها.
(٤٣) ألف الهمداني كتاباً في أسرار النقطة.
(٤٤) ص ١٢٧.

(*) وهذا الاتجاه حرص عليه كثير من الصوفية يقول السري السقطي في تعريف التصوف أنه : اسم لثلاثة معان. إحداها : ألا يتكلم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب أو السنة. ويقول الجنيد ٢٩٧ هـ: من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر. لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة. انظر الرسالة القشيرية ١ / ٦٥، ١٠٧ تحقيق د/ عبدالحليم محمود و د/ ابن الشريف.

على أن بعض هذه الاتجاهات في فهم الحروف قد يتداخل بعضها في بعض، فالحدود ليست حاسمة عند الصوفية، يؤكد ذلك شيخ من شيوخ القشيري الإمام (أبو بكر بن فورك) حيث يقول : «هو» حرفان هاء وواو، فالهاء تخرج من أقصى الحلق، وهو آخر المخارج، والواو تخرج من الشفة وهو أول المخارج ف «هو» إشارة إلى ابتداء كل حادث منه وانتهاء كل حادث إليه، وإليه الإشارة بقوله تعالى : «هو الأول والآخر»^(٤٥). فنص ابن فورك تداخل فيه الاتجاه (الصوتي) مع الاتجاه (الكلامى الصوفى).

(و) فى المصطلح :

يركز الصوفى همه فى عمارة الباطن، ولهذا وجدنا مصطلحات كثيرة عندهم تتصل بهذا الجانب بل يستعير الصوفى نماذج ومصطلحات من مختلف الفروع ليعبر بها عن الحقيقة بعد أن يمنح هذه المصطلحات نفساً حاراً وطاقت متجددة تنطلق فى مدارات متعددة. وقد استنبط القشيري من المصطلح وهو خلاصة الاستقراء اللفوى إشارات دقيقة تفوق المعنى القاموسى اللفوى ولفها بستر واق حتى لا تشيع فى بيئة أخرى غير بيئتهم:

بالسر إن باحوا تباح دماؤهم

وكذا دماء العاشقين تباح

معتمدين فى ذلك على سنة الأحباب فى ستر الحال، وعلى التركيز واللمح، قال شاعرهم :

قلت لها : قفى فقالت قاف

لا تحسبينا قد نسينا الإيجاف^(٤٦)

(٤٥) كتاب التعبير فى التذكير ٢٥ تحقيق د/ إبراهيم بسيونى.

(٤٦) شواهد الشافية ٤ / ٢٧١ والأغانى ١٣١/٥. قالت : قاف - أى إني واقفة أو : وقفت، فاستغنى بالحرف عن الجملة.

ولم يقل : وقفت سترًا على الرقيب، ومراعاة لقلب الحبيب، وهكذا تكثر العبارات للعموم، والرموز والإشارات للخصوص. ونظرة خاطفة في الرسالة القشيرية تريك بابا (للمصطلحات) غنيا بالألوان، والمذاقات، والمجاهدات والأحوال. وحسبها أنها تعبر عن مواقف نفسية وروحية وكشفية، كما توضح مراحل الحب والفناء، والشهود والتواجد والوجد، والوجود والغيبة والحضور، والمحو والإثبات^(٤٧).

هذا، ولما كان التصوف رحلة شاقة مشحونة بالصراع كان على المصطلح الصوفي أن يغطي مراحل هذه الرحلة المثيرة من منطقة فوق الوعي والإدراك، فيطالعك القشيري بفروق دقيقة :

١ - بين (النعمة) على لسان العلماء وهي : لذة خالصة عن الشوائب، وعند أهل الحقيقة : ما أشهدك المنعم، أو ما ذكرك بالمنعم، أو ما أوصلك إلى المنعم. أو ما لم يحجبك عن المنعم^(٤٨).

٢ - وفي اللطائف ١/ ١٢٣ عند تفسيره لقوله تعالى «ما ننسخ من آية...» يقول : فلا ننسخ من آثار العبادة شيئًا إلا وأبدلنا عنه أشياء من أنوار العبودية، ولا نسخرنا من أنوار العبودية أشياء إلا أقمنا مكانها أشياء من أقمار العبودية^(٤٩).

والنصر يفيض بمصطلحات القشيري : فالعبادة للعوام والعبودية للخواص والعبودية لخواص الخواص، وهي صفة أهل المشاهدات.

ولما كان القشيري كثيرًا ما يعتمد في مصطلحه على مظاهر الطبيعة كالليل والنهار والجبال والبحار والسحب أمكن وضع المصطلح السابق في ترتيب دقيق هكذا : آثار العبادة، أنوار العبودية، أقمار العبودية^(٥٠). وكلها

(٤٧) والقرب والبعد والإفصاح والكتمان والسر، وسر السر، والتخلق والتحقق.

(٤٨) اللطائف ١ / ٩٥.

(٤٩) اللطائف ١ / ١٢٣.

(٥٠) اللطائف ١ / ١٢٤ وانظر المحقق.

مراحل تصف حالة النفس ورحلتها في الطريق حيث يتم للصوفي اكتشاف أبعاد نفسه ومدى صلتها بالله وبخلقه فتفنى حظوظه، ويصير ظاهره مع الخلق، وباطنه مع الحق، وفي هذا المقام نسمع قول مؤمنة صادقة بعد ليل حافل بالصيام والقيام: «إن استغفارنا في حاجة إلى استغفار».

٣ - ويطالعك القشيري بمصطلح من مصطلحاته الخاصة وهو (المريد) عند تفسيره لقوله تعالى ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾ (النحل)، وعند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ (الأنعام).

فيقول عند الآية الأولى : «يقال: الحياة الطيبة للأولياء ألا تكون لهم حاجة ولا سؤال ولا أرب، ولا مطالبة. وفرق بين من له إرادة فترفع وبين من لا إرادة له فلا يريد شيئاً، الأولون قائمون بشرط العبودية والآخرين معتقون بشرط الحرية»^(٥١).

وعند الآية الثانية يشير إلى أن الإرادة عند الصوفية لها معنى اشتقاقى يختلف عنها عند علماء اللغة^(٥٢). فالمرید، على موجب الاشتقاق، من له إرادة كالعالم من له علم، لأنه من الأسماء المشتقة، ولكن المرید في عرف الصوفية من لا إرادة له، فمن لم يتجرد عن إرادته لا يكون مریداً^(٥٣).

٤ - كذلك تنوعت المصطلحات والرموز عند الصوفية، فاقتبسوا كثيراً من علوم الفلك والكيمياء والنحو والبلاغة ليعبروا بها عن أحوال باطنية، وخذ مثلاً واحداً من مصطلح البلاغة والنحو^(٥٤) :

(٥١) اللطائف ج ٣ ص ٢٢٠.

(٥٢) اللطائف ٢ / ١٧٠.

(٥٣) وانظر الرسالة القشيرية ٩٢.

(٥٤) استعمله القشيري في كتابه التحبير في التذكير ص ٤٦.

«واعلم أن الرفع والخفض في الأمور الدنياوية مجاز وفي الأمور الدينية كالأخلاق والصفات الباطنة حقيقة، فمن زكى نفسه وطهر خلاله، فهو المرفوع حقيقة، ومن دس نفسه في دنس خلاله، وأسرت شهواته وهواه فهو المخذول المخفوض حقيقة». فالقشيري يلاحظ انتقال المصطلح من المعنى اللغوي إلى الاصطلاحي ثم أخيراً إلى التصوف.

(ز) في نحو القلوب :

سبق أن تحدثنا عن نحو العبارة ونحو الإشارة. أو نحو الظاهر ونحو الباطن، وأن الأول يدرك بالعقل والثاني يدرك بالقلب، ولهذا سماه القشيري «نحو القلوب». وفكرة القشيري في مبحثه هذا جديدة مبتكرة، فهو كما سبق يواكب بين الحقيقة والشريعة، فالحقيقة ظاهر، والشريعة باطن، أي أن العبادات لها ظواهر وبواطن. ولقد أطلعنا القشيري على هذا الاتجاه في بعض تواليفه - ففي كتابه الكبير «لطائف الإشارات» تفسير لكتاب الله على مذهب أهل الباطن. وفي كتابه «المعراج» يدرس رحلة عرفانية كان الرسول ﷺ خلالها مبهوراً بالكشوفات والفيوضات، وكان طيلة الرحلة مراداً لا مريداً ومحمولاً لا متحملاً - على طريقة أهل الباطن أيضاً.

كما أنه وضع في كتابه «التحبير في التذكير» قضية كلامية، وهي دراسة الأسماء والصفات الإلهية حيث قام بنقلها من محيط علماء الكلام التقليديين إلى دوائر الصوفية - وكان ذلك على طريقة أهل الباطن أيضاً^(٥٥). فما الذي يمنع القشيري إذن من أن يعالج النحو العربي التقليدي الذي يعنى بالإعراب وما يصيب أواخر الكلمات من رفع ونصب، وجر وجزم، ومن تعريف وتنكير. وتأخير وتقديم على طريقة أهل الباطن أيضاً؟ وأن

(٥٥) الإمام القشيري : سهرته - آثاره - مذهبه في التصوف ص ٧٧ دكتور إبراهيم بسيوني.

ينقله من محيط النجاة حيث كان فيه هامدا جامدا إلى محيط الصوفية حيث يكون فيه مذاقا وحساً وشفافية، وأن يصبغ مصطلحات النحو العربى بصبغة جديدة، وفهم روحى ملون بألوان الطوالع واللوامع، والمجاهدات والمذاقات.

لقد كان القشيري الصوفى أولا متسلحا بأسلحه النحو الظاهرى قبل أن يبدأ هذا العمل عارفا بدقائقه وأسراره حتى يتسنى له أن ينقل الفكرة فى النحو الظاهرى إلى مثيلتها فى النحو الباطنى، فلم يجعل القشيري من (نحو الإشارة) ثورة كما فعل ابن مضاء مع نحو العبارة، بل على العكس مد القشيري بينهما جسرا وفتح طريقا، وجعل بينهما مودة ورحمة ونسبا وصهرا. كما استعمل القشيري مصطلحات العلوم الأخرى غير النحو ليعبر بها عن جوانب الحياة الباطنية^(٥٦).

ولم يكتف القشيري بهذا النقل بل اعتمد على مظاهر الطبيعة وأخذ منها إشارات رائعة ليوضح بها حقائق العلم الصوفى من مجاهدات وكشوفات وأحوال ومقامات، معتمدا فى ذلك على الفروق الدقيقة بين هذه الظواهر الكونية^(٥٧). ولقد قام القشيري بمثل هذا الصنيع فى النحو الظاهرى حيث التقط المصطلح النحوى عند أهل الظاهر واستكنه منه نحواً صوفيا عند أهل الباطن عن طريق إشارات تتصل اتصالا وثيقا بالمجاهدات والمقامات والكشوفات والمعارف العليا معتمدا فى ذلك على استنباط خفايا الألفاظ دون أن تحجبه قشورها الظاهرة، ومعانيها المألوفة.

وآن لنا أن نوضح ونفصل ما أجمالناه معتمدين على النصوص الأمانة الموثقة من مؤلفات القشيري أولا، ومن إشاراته وفيوضاته على قدر ما حملته طاقاتها ثانيا.

(٥٦) التعبير فى التذكير ٤٦ حيث استعمل مصطلحات البلاغة فى التصوف.

(٥٧) انظر أمثلة من لطائف الإشارات ٦ / ٢١٩، ٢٧٥، ٣٠٣.

١ - فى باب (الإعراب والبناء) يقدم القشيري إشارات مركزة يمكن أن نلمح من ثناياها : أن ما يصيب أواخر الكلمات فى الظاهر من رفع ونصب وجر وجزم يمكن أن يعترى القلب الإنسانى، - وهو يشبه الكلمة المفردة - ما يعترى الكلمة من رفع ونصب وجر وجزم أيضاً، فهناك مطابقة بين حركات الإعراب وما يصيبها من تغير بحسب العوامل فى النحو الظاهرى وبين حركات القلب وما يحدث للإنسان، إلا أن حركات النحو ظاهرية، وحركات القلب روحية فلو تصورنا حالة العبد صعوداً فكأنه وهو مرتبط بعلائق الدنيا متأثر بها يشبه الاسم المجرور الذى يؤثر فيه حرف الجر، وليست حروف الجر إلا عوامل لفظية ضامرة، فإذا انسلخ من العلاقة وتجرد منها فهو يشبه الاسم الذى تخفف من ثقل العلاقات وهى تشبه حالة (النصب) والفتحة أخف الحركات، والنصب يقابل حالة انكماش الإرادة. ووقوع العبد تحت تصرف الإرادة الإلهية. وليس له من نفسه فى نفسه شئ. وهذا أشبه بالمكملات فى النحو الظاهرى. من المضاعيل وغيرها المميززة بالنصب والتي لا تقوم بذاتها. بل هى تابعة للعمدة فى الجملة وواقعة تحت تأثيره. فإذا ما وصل إلى التحقق صار (مرفوعاً) من لدن الحق، واكتسب منزلة عالية وهى (الرفعة). وعلامة الرفع فى النحو الظاهرى وجودية، والعبد عند الصوفية له جهود ومعاناة فى طريقه إلى المقامات. وهذه الجهود تكون مستمرة ولا ينتقل من مقام لآخر إلا إذا استوفى شرائط المقام السابق، وفى كل مرحلة ينال نصيبه من لدن الحق فإذا أصيب العبد بالسأم أو الملل أو اعترضه عائق أو جذبه علاقة أصيب (بالفترة). فإن طارد دواعيها استمر وإلا أصيب (بالوقفة) ونصيبه يكون الهجر، فإذا داوم الرحلة بدون (فترة) أو (وقفة) كان نصيبه (الوصل) من لدن الحق. (والوصل) أشرف من (الوقف).

أما الوقف فى النحو الظاهرى فهو تغير مخصوص علامته السكون والسكون عدم الحركة. ولهذا أهمل أبو الأسود الدؤلى السكون ولم يعده

من الإعراب فهو سلبى والحركة إيجابية، والعلاقة وثيقة بين الوقفة في النحو الصوفى، والوقف في النحو التقايدى.

أما أن (الوصل) أشرف من (الوقف) فيقرره أحد علماء العربية حيث يقول «إن الوصل مما تجرى فيه الأشياء على أصولها، والوقف من مواضع التغير... وحالة الوصل أعلى رتبة من حال الوقف، وذلك أن الكلام إنما وضع للفائدة، والفائدة لا تجنى من الكلمة الواحدة، وإنما تجنى من الجمل ومدارج القول فلذلك كانت حالة الوصل عندهم أشرف وأقوم وأعدل من حال الوقف^(٥٨). ويبدو من اتجاؤ القشيري في فهمه لحركات الإعراب في نحو الظاهر أنه يرتب على العلم بها عملا وسلوكا في الإنسان بل حياة ومصيرا، وذلك ما نسمع صدها الآن في أحدث النظريات المعاصرة حيث ترى أن البعد الأساسى في كل عمل فنى بعد الأنوان والظلال وأبعاد اللوحة - هو الإنسان. وهذا فرق بين الصوفية وأهل الجدل والنظر من النحاة والفلاسفة، وخذ مثالا واحدا من قول ابن عربى^(٥٩):

حركات الحروف ست ومنها

أظهر الله مثلها الكلمات

هى رفع وثم نصب وخفض

حركات للأحرف المعربات

وهى ففتح وثم ضم وكسر

حركات للأحرف الثابتات

هذه حباله المعوالم فانظر

فى حياة غريبة فى موات

(٥٨) الخصائص ٢ / ٢٢١ دار الكتب.

(٥٩) لوحة ١٠٢ / ب روح القدس فى مناصحة النفس مصور عن جامعة إستانبول بجامعة الدول العربية رقم ٢٢٧ تصوف.

فأبن عري ينظر بما في الكون من تغير بحالات الإعراب - المتغيرة في تعاقبها على الكلمة كما ينظر العناصر الأولى الثابتة فيه بحركات البناء التي لا يعتورها التغير في الكلمة. وقد شبه القشيري (المعرب) في نحو الظاهر وهو المتغير بحسب العوامل بصاحب (التلوين) في اصطلاح الصوفية وهو عندهم صفة أرباب الأحوال، فما دام العبد في الطريق فهو صاحب تلوين لأنه ينتقل من حال إلى حال، فإذا وصل ثم اتصل فهو صاحب (تمكين). ودليل اتصاله أنه بالكلية عن كليته بطل^(٦٠).

وصاحب (التمكين) في التصوف يشبه (المبنى) في نحو الظاهر، وحركات البناء أصل، وحركات الإعراب فرع في نحو العبارة. لأن حركات البناء لا تزول ولا تتغير عن حالها، وحركات الإعراب تزول وتتغير، وما لا يتغير أولى بأن يكون أصلاً مما يتغير. فالمبنى أشرف من المعرب في نحو العبارة، لما سبق. وفي نحو الإشارة كذلك، لأن الثبات وعدم التغير في السراء والضراء، عند تقلب الأحوال على العارف من علامات (التمكين)، وسادات الوقت هم أهل التمكين. يقول القشيري في اللطائف^(٦١) : «فالمرید مسافر بقلبه لأنه يتلون ويرتقى من درجة إلى درجة، والعارف مقيم ومستوطن لأنه واصل متمكن، والطريق منازل ومراحل ولا تقطع تلك المنازل بالنفوس، وإنما تقطع بالقلوب، والمرید سالك والعارف واصل».

٢ - ويمضي القشيري فيرى أن (المبتدأ) متجرد عن سوابق تجعله مرتبطاً بعلاقة خارجية عن ذاته، والمبتدأ في لغة أهل الإشارة اسم «الله»، وهو قائم بذاته بفض النظر عن وجود الخبر فالاسم «هو» عند الصوفية نهاية التحقق، ولا يحتاج إلى خبر لأنه كلام تام بدون شيء آخر يتصل به، أو يضمّر لاستهلاكهم في حقائق القرب واستيلاء ذكر الحق على أسرارهم، فلا يسبق إلى قلوبهم غيره، ويكتفون به عن كل بيان^(٦٢).

(٦٢) التعبير في التذكير ٢٥.

(٦١) اللطائف ٣ / ٣١١.

(٦٠) الرسالة ص ٤١.

لكن هذا الاسم «هو» فى نحو الظاهر يحتاج إلى خبر ليتم الكلام، وبدون الخبر يظل المبتدأ عديم المعنى، لأن الخبر هو الذى يكشف عن معناه.

ثم ينظر القشيري المبتدأ المتجرد عن العوامل اللفظية بالفقير الصوفى المتجرد عن كل علاقة تصده عن الله لأنه قائم مع الله بالله، فهو (مرفوع) القدر عند الله لما ناله من تجرد وفقر وتوكل وصبر^(٦٣) وصمد وهجر، والله يحب أن يرى ثياب التجرد على الفقراء لأنها الثياب التى خلعتها عليهم بنفسه حين آثروا حقه على حظوظهم، وكذلك كان حكم المبتدأ (الرفع) فى النحو الظاهري للتجرد عن العوامل.

٢ - ويمضى بنا القشيري فى تأصيل فكرته حيث يلتمس نحواً روحياً للفعل المضارع فى رفعه ونصبه وجزمه، فإذا كان فعل الحال متجرداً عن العوامل الناصية والجازمة فأصله الرفع، وهو من العلو والارتفاع، فإذا دخل عليه ناصب أو جازم صرفه إلى غير الرفع. والأمر كذلك عند أهل الطريق؛ فإذا دخلت الشواغل والعلائق اتجاه العبد غيرت منزلته، كأن تنتصب النفس لترى أفعالها وتلاحظها وتشاهدها فتصيبها الدعوى والادعاء، وذلك عند الصوفية ديب خفى يؤثر فى التوحيد، وحديث النفس شرك عندهم، إذ العبادة يجب أن تكون خالصة حتى من الطمع فى الآخرة ثواباً وعقاباً.

وكذلك إذا اعترضت القواطع والموانع اتجاه العبد أصيب (بالفترة) ثم (الوقفة). وهى الحبس بين المقامين لعدم استيفاء حقوق المقام الذى خرج عنه، وعدم استحقاقه دخوله فى المقام الأعلى. فالوقفة عندهم لها معنى وهى نفسها السكون والجزم فى (نحو العبارة). ولما كان السكون دليل الجزم، فذلك يؤكد أنه عنصر مهم له قيمة إيجابية فى النظام اللفوى

(٦٣) اللطائف ٦ / ٢٤٧ محقق.

تجعله يقارن بالحركات، ولهذا أطلق عليه في الدراسات اللغوية الحديثة «الحركة الصفراء»^(٦٤). فإذا سلم العبد في النحو الباطني من (الملاحظة) و(الفتور) و(الوقفة) وبأدر باستشعار التحسر تداركته الرحمة ونظر الله سبحانه وتعالى إليه بقبول الرجعة (وارتفع) قدره عند العزيز الغفور «إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح (يرفعه)»، كما يرتفع في النحو الظاهري - الفعل المجرد من العوامل الناصبة والجازمة، ألا ترى أن الرفع لا يطرأ إلا على الكلمات الرئيسية في الجملة كالمبتدأ والفاعل وأشباههما فهو للعمد، كما أن النصب والجر للفضلات والمكملات.

٤ - ثم ينتقل القشيري إلى المكملات في الجملة فيتحدث عن الحال والتمييز.

ولنبداً بتعريف الحال في النحو الظاهري وهو : وصف فضلة منصوب للدلالة على هيئة، وللحال أربع صفات : أن تكون منتقلة مشتقة نكرة، وكونها نفس صاحبها في المعنى. أما تعريف التمييز فهو فضلة نكرة بمعنى (من) يبين إبهام اسم أو إبهام نسبة. ويلتمس القشيري معاني روحية لما تقدم في إشارات مركزة يستشف منها أن العبد إذا (انتصب) استقامت (أحواله)، إذ أصبح لا يرى عملاً بعين العجب فهو (منتصب) مستقيم خالص لله. والعبد كذلك لخموله، وبعده عن الشهرة (نكرة) فليس للمخلق عنده اعتبار، لأنه مستقيم في طريقه إلى الحق، فإذا قلنا في النحو الظاهري جاء القائد منتصراً - فصاحب الحال هو الفاعل، لأنه هو الذي صنع الانتصار، فهي متصلة - بهيئته، أما في النحو الإشاري فإذا قالوا (صاحب الحال) فمعناه عندهم (مرزوق الحال) لأن الحال هنا من لدن (الحق) و(الأحوال) كلها من الله فهي تأتي من عين الجود، فهي مواهب، كما أن (المقامات) تحصل ببذل المجهود فهي مكاسب، وبهذا ينكشف النقاب عن مدى الفرق والتشابه بين النحو الظاهري والإشاري في الحال،

(٦٤) د. كمال بشر - مجلة المجمع ج ٢٤.

وإذا كان التمييز في نحو الظاهر لا يكون إلا بعد تمام الكلام فكذلك في نحو الباطن، فلا يميز الله أحداً من عباده إلا بعد أن يتحلى بالعلم والفقه والفضائل من إثار وإخلاص وبذل وتضحية وهي عناصر الفتوة فإذا تحلى تمت له رتبة التمييز «ونصيبهم الله لإصلاح عباده، ويميزهم فاستخلصهم لوداده»^(٦٥).

٥ - ثم يتجه الشيخ رضي الله تعالى عنه إلى (التوابع) :

فيبدأ بالبدل وأقسامه، فالنعت، فالعطف، فالتوكيد. وحسبى من التوابع ملحظ واحد بين (البدل) الظاهري والإشاري تتضح فيها الالامح بينهما. وذلك أن بدل البعض يمكن فصله فيما إذا قلت مثلاً : أكلت التفاحة نصفها - بمعنى أنك أكلت النصف الصالح ورمت النصف الفاسد، وفي النحو الإشاري كذلك فقد تخلصوا من نفوسهم وعللهم. فبدل الله سيئاتهم حسنات.

أما بدل الاشتمال فلا يمكن فصله في نحو العبارة كما إذا قلت: أعجبني العندليب صوته، وكذلك في نحو الإشارة فهم لم يتمكنوا من التجرد والأعلال، ولا يزال عندهم واد من ثواب أو عقاب، ولم يستطيعوا أن ينفصلوا من عللهم وأن يستبدلوا بالعبادة المغرضة عبادة خالصة، فهم بين خوف ورجاء، وقبض وبسط.

ثم أخيراً يمضي بنا إلى (حروف الجر)، وهي آخر المطاف. يقول القشيري عن حروف الجر : «وهي تخفض الأسماء، فلما علم المحققون أن الأشياء بالله، ومن الله، وإلى الله، خفضوا أنفسهم تواضعاً لله فتعززوا بالإضافة إلى جانب الله، أولئك الذين اصطفاهم الله لقربه وجعلهم من حزبه»^(٦٦).

(٦٥) نحو القلوب : للإمام القشيري.

(٦٦) نحو القلوب : للإمام القشيري.

والحرف في نحو العبارة : ما جاء لمعنى في غيره^(٦٧)، والحروف متى اختصت بالأسماء عملت الجر، وإنما وجب أن تعمل الجر لأن إعراب الأسماء رفع ونصب وجر، فلما سبق الابتداء إلى الرفع في المبتدأ والفعل إلى الرفع في الفاعل وإلى النصب أيضا في المفعول، لم يبق إلا الجر فلهذا وجب أن تعمل الجر^(٦٨).

وسميت حروف الجر لأنها تجر معانى الأفعال إلى الأسماء أى تضيفها وتوصلها إليها؛ ولهذا سماها الكوفيون (حروف الإضافة).

وعلاوة الجر الكسرة وما ناب عنها في اصطلاح النحاة، فهي تحدث عملا خطيرا في الاسم على الرغم من قلة حروفها وضمورها. يؤكد هذا أن رجلا وقف على الشبلى فقال : أى صبر أشد على الصابرين؟ فقال: الصبر في الله عز وجل، فقال : لا، فقال : الصبر لله تعالى. قال : لا. قال: الصبر مع الله تعالى. قال : لا. قال : فأى شيء؟ قال : الصبر عن الله عز وجل. قال : فصرخ الشبلى صرخة كادت روحه أن تلتف^(٦٩). فحروف الجر هي التي أعطتك هذه الشحنات المملوءة بالمذاقات والمواجيد، ولهذا أنشدوا :

والصبر (عنك) فمذموم عواقبه

والصبر (في سائر) الأشياء محمود

وهاك القشيري يكشف عن حقيقة حرف الجر على طريقة أهل الإشارة حيث يقول في تفسيره «وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة.... من شهد المصائب شهد نفسه لله، وإلى الله، ومن شهد المبلى علم أن مايكون من الله فهو عبد بالله، وشتان بين من كان لله وبين من كان بالله،

(٦٧) أسرار العربية لابن الأنباري ١٢.

(٦٨) أسرار العربية ٢٥٢.

(٦٩) رسالة القشيري ٢٨٥.

الذى كان لله فصابر واقف، والذى هو بالله فساقت الاختيار والحكم إن أثبتته ثبت، وإن محاه انمحي، وإن حركه تحرك، وإن سكنه سكن، فهو عن اختياراته فان^(٧٠).

وانظر كيف يستعمل حرف الجر مرتبطا بمراتب العبادة وهو يتحدث عن تفسير آية الصوم : «من شهد الشهر صام لله، ومن شهد خالق الشهر صام بالله، فالصوم لله يوجب المثوبة، والصوم بالله يوجب القرية. الصوم لله تحقيق العبادة، والصوم بالله تصحيح الإرادة»^(٧١).

كما تظهر شفافية القشيري وتذوقه في لهجة تستقطر الدمع وتستزف الدم حيث يقول «أفمن هو (فى) روح إقبالنا (عليه) كمن هو (فى) محنة إعراضنا (عنه)، أفمن بقى (معنا) كمن بقى (عنا)»^(٧٢).

فما أشبه حروف الجر هنا بذرات نور دقيقة متتابعة في مدارات متعددة تعطى الواحدة منها الأخرى قوة دفع، وتأخذ من سابقتها دفعة منح.

وأحيانا تجد حرف الجر النحيل أقوى من الدنيا ومن فيها، وكأنه زلزال يهدر في جوانب نفسك، ذلك حين يفسر قول الله عز وجل «ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم». يقول القشيري : فأعلن التبري منهم، وأظهر الخلاف معهم، وأنصب العداوة لهم... «وكن بنا لنا متبريا عن سوانا، واثقا بنصرتنا، فإنك بنا ولنا»^(٧٣).

وأحيانا يرق حرف الجر شيئا غشيئا حتى يضم ويغرى حتى يغيب عن شاهدك، وذلك حين يفسر قوله عز وجل : «إني وجهت وجهي للذى فطر السموات والأرض». يقول القشيري «أفردت قصدى لله، وظهرت عقدى عن

(٧٠) اللطائف ١ / ١٥٢ وانظر ١٦٠، ٢٦٥.

(٧١) اللطائف ١ / ١٦٥.

(٧٢) أدب القشيري ص ٢٣٢ مخطوطة بمكتبة كلية الآداب جامعة القاهرة - د. إبراهيم بسيونى.

(٧٣) اللطائف ١ / ١٢٠ فما بعدها.

غير الله، وحفظت عهدي في الله لله. وخلصت وجدى بالله، فإني لله بالله،
بل محو في الله والله الله^(٧٤).

وإذا كان الكوفيون قد سموا حروف الجر (حروف الإضافة) فقد استغل
القشيري هذا المصطلح الكوفي واستكنه منه نحواً صوفياً ظهر في تفسيره
لقوله تعالى: «لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين» يقول:
«وأولى من تسومه الهجران والإعراض عن الكفار نفسك؛ فإنها مجبولة
على المجوسية حيث تقول «لى ومنى وبى»^(٧٥).

وواضح أن القشيري يرى في حروف الإضافة على هذا النمط شركاً
خفياً. وهذا معنى قولهم: «التوحيد إسقاط الباءات» يعنى باءات الإضافة
إلى نفسك. والتوحيد الحق لا يقتضى شعورك بما سوى الواحد. وقد سئل
بعض المشايخ: ألك رب؟ فقال: أنا عبد وليس هو مولى لى، من أنا حتى
أقول لى^(٧٦)؟

ويلاحظ على حروف الجر في (عزو الظاهر) أنها تتداخل وتشتجر
حيناً ويحل بعضها مكان بعض. أو يقع الترادف بينها حيناً آخر حتى غابت
حقيقتها وغامت. ومن ذلك على سبيل المثال لا النحصر: فقد وقع التداخل
بين (عن) وبين (الباء) في قوله تعالى «وما ينطق عن الهوى» وبين معنيين
من معانى (الباء): فهي للمصاحبة في «فسيح بحمد ربك».

ويرى بعضهم أن (الباء) للاستعانة، كما يحل بعضها مكان بعض:
ف (على) تقع للتعليل (كاللام) في «واتكبروا أنه على ما هداكم»، أو بمعنى
(فى) الظرفية مثل «ودخل المدينة على حين غفلة»، أو بمعنى (من) مثل
«الذين إذا اختلفوا على الناس يستوفون».

(٧٤) اللطائف ٢ / ١٨٠.

(٧٥) اللطائف ١ / ٣٤٥.

(٧٦) انظر التعبير في التذكير - ٢٦ تحقيق د. إبراهيم - ١٤١٥ هـ.

كما تكون أعلام بمعنى (إلى) مثل «بأن ربك أوحى لها». أو بمعنى (على) في الاستعلاء مثل «ويخرون للأذقان يبكون»، أو بمعنى (في) مثل «ياليتنى قدمت لحياتي»^(٧٧).

وإذا كان بعض النحاة يحكمون بصحة هذا كله فإن (النحو الصوفي) يرفضه؛ لأن القشيري كما رأيت من أمثلته التي تذوقت معانيها لم تكن حروف الجر عنده قاموسية كما كانت عند النحاة؛ بل كانت كائنات حية تحمل عصارة ذهنه وتفكيره في حقائق علم القلوب، وبيان سبيل السلوك :
(أ) ففي قواه تعالى ﴿وعز الذي يقبل التوبة عن عبادة﴾ (الشورى آية ٢٥).

يرى النحو التقليدي أن (عن) بمعنى (من) (مغنى اللبيب ١/ ١٣٠). ولكن الصوفي يرى أن (عن) في مكانها، والمعنى عندهم أن الحق يقبل التوبة متجاوزاً عن عباده في توبتهم لعدم خلوصها رحمة منه بهم^(٧٨). ولا تستطيع (عن) إذا كانت بمعنى (من) أن تؤدي هذا الملحظ الخفى.

(ب) واستمع إلى القشيري يقول «لا أذكرك إلا بك ولا أعرف إلا بك» ويرى الدكتور إبراهيم بسيوني في تعنيقه على الجملة السابقة أن المنهج

(٧٧) انظر مغنى اللبيب لابن هشام في هذه الحروف.

(٧٨) مذهب البصريين أن أحرف الجر لا ينوب بعضها عن بعض بقياس. كما أن أحرف الجزم وأحرف انصب كذلك، وما أوهم ذلك فهو عندهم إما مؤول تأويلاً بقبله اللفظ، كما قيل في (وَأَصْلَبَكُمْ فِي جَنُوعِ النَّخْلِ) : إن (في) ليست بمعنى (على)، ولكن شبه المصلوب لتمككه من الجذع بالحال في الشراء، وأما على نصمين لفعل معنى فعل يتعدى بذلك الحرف، كما ضمن بعضهم «شرين في قول الشاعر :

شرين بهاء البحر ثم ترفعت متى لحج خضر لهن شجج.

معنى : روين وأحسن في (وقد أحسن بر) معنى نطف، وأما على شذوذ إنابة كلمة عن أخرى، وهذا الأخير هو محمل إنابة كله عند أكثر الكوفيين وبعض المتأخرين، ولا يجعلون ذلك شاذاً، ومذهبهم أقل تعسفاً، (مغنى اللبيب عن كتب الأعريب، لابن هشام = «الباء المفردة»، فالكوفيون يتوسعون في معاني حروف الجر. ويعطونها أكثر من معنى، كما يجيزون إنابة بعضها عن بعض قياساً : وانظر شرح التصريح على التوضيح ٢/ ٧ والبيان على الأشموني ٢/ ٣١٦، وجمع الهوامع للسيوطي ٢/ ٢٩.

الصوفي يفترق عن المنهج الكلامي والفلسفي اللذين يعتمدان في الاستدلال على الخالق بالخلق، أما الصوفية فيستدلون أولاً بوجوده سبحانه على وجودهم. وعندهم أن الاستدلال بالأول الخالق على المحدث المخلوق أولى؛ ذلك لأن الحق مشهودهم.

عجيب لمن يبغى عليك شهادة

وأنت الذي أشهدته كل مشهد

يقول ابن عطاء الله السكندري في ذلك: «متى غبت حتى تكون الأكوان شاهدة عليك؟». فحرف الباء هنا أشعر بفضل الله على العبد حين يسبق إلى معاونته كي يذكره، ويبعده ويعرف به^(٧٩). فقد حملها القشيري في الفعل معاني جديدة أثرت الفكر الديني. فحرف الجر في النحو الصوفي على نحوه خطير؛ إذ يعبر عن مذاقات ومواجيد.

وإذا كان حرف الجر عند أهل العبارة يجر الاسم ويترك فيه أثراً مادياً وهو الجر فإنه عند أهل الإشارة أعمق أثراً وأوسع نشاطاً. وأرق حساً، وأشهى مذاقاً؛ فهو يجر العبد من نفسه إلى مرحلة (النصب)، ثم إلى مرحلة (الرفع)، أو نيس من أسمائه تعالى «الرافع الخافض»؟

ثم حروف الخفض (أحوال) من قبيل (الخوف) الذي يرفع بعده العبد إلى (الرجاء)، و(القبض) الذي يرفع منه إلى (البسط)، و(الحجب) الذي يرفع منه إلى (الكشف).

ثم ألا تجد معنى بعد هذا الطواف والمسير أن القشيري كان يجرد حرف الجر من غلافه وغلالته حتى يستشف معدنه، ويلمس سره، ويربطه بالحياة الروحية الصافية؟ وقد كان القشيري - نور الله مضجعه، وبرد مثواه ومترعه - يعمل نفس هذا العمل مع بدنه ونفسه وروحه!!

(٧٩) الإمام القشيري ٣٢٢ د. إبراهيم بسيوني مخطوطة بمكتبة جامعة القاهرة.

هذا، وقد كان للشيخ اتجاهات إعرابية حملت قيما إشارية في كتابه اللطائف أذكر منها على سبيل المثال^(٨٠).

١ - ما جاء في اللطائف ٢/٢٢٢ عند شرحه لقوله عز وجل «يأيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين» (الأنفال ٦٤) يقول : أحسن التأويلات : من في محل نصب، أي : ومن اتبعك من المؤمنين يكفيهم الله». على أن العربية تجيز وجها آخر تكون فيه (من) في محل رفع أي كفاك وكفاك المؤمنون (انظر الكشف)، ولكن ملحظ القشيري في الإعراب يرجع كل شيء إلى الله، فالحلق خلته، والحكم حكمه، وذلك مذهبه.

٢ - ما ورد في اللطائف ٢/١٥٤ «الحمد لله الذي خلق السموات والأرض» (الأنعام آية). ف (الذي) إشارة و«خلق السموات والأرض» عبارة، استقلت الأسرار بسماع «الذي» لتحقيقا بوجوده، ودوامها لشهوده، واحتاجت القلوب عند سماع «الذي» إلى سماع الصلة، لأن «الذي» من الأسماء الموصولة بكون القلوب تحت ستر الغيب، فقال «خلق السموات والأرض».

وانظر اللطائف في أماكن متفرقة تجد القشيري يسخر الجانب الإعرابي ليعلم مذهبه في التصوف (٧٧/٥).

وما دام حديثا في النحو عند القشيري، فهل كان القشيري يميل إلى مذهب معين فيه؟

الواضح أن القشيري كان يستعمل مصطلح البصريين في (نحو القلوب). وبجانب هذا رأيه في «نحو القلوب» يسمى (حروف الجر) (حروف الإضافة) وذلك مصطلح كوفي، وإنما سميت حروف الجر حروف

(٨٠) انظر نماذج مختلفة في المرجع السابق.

الإضافة لأنها تضيف الفعل إلى الاسم، أى توصله إليه^(٨١). كما سمي الضمير (بالكناية) وذلك فى قوله تعالى ﴿وَلَا يَحِيطُونَ بِهِ﴾^(٨٢). وفى مرة أخرى عند قوله تعالى ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٨٣). وهذا اصطلاح كوفى أيضاً^(٨٤). وإنما عبر عن الضمير بالكنى، لأنه يكنى به أى يرمز به عن الظاهر اختصاراً. لأن اللبس مأمون مع الضمير. وانفرض منه : الدلالة على المراد منه مع الاختصار، كما استعمل حرف (الصلة) وذلك عن الحديث فى قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى آية ١١). فقال «والكاف فى «ليس كمثله» صلة أى : ليس مثله^(٨٥)». وهذا مصطلح كوفى يقابله (حروف الزيادة) عند البصريين^(٨٦). والتشيرى كعادته يستعمل دقائق اللغة ورقائقها تورعا من أن ينسب (الزيادة) إلى الكتاب المقدس كما فعل غيره.

ويظهر أن الشيخ نه يميل إلى مذهب نفسه فى النحو البصرى أو الكوفى بل كان به رقيق سريع فله راقفت إلى خلافت السجاة من بصريين وكوفيين فى بشارته (النحوية) وتم يقم. ليناقتش أصحاب كل مذهب أو مدرسة ولا ليناقتش غيره من أه حجاب انمرق إلى لامية. فالشيخ كان يمر على عجل فى كل ذلك يؤكد هذا ما جاء عن القشبرى فى «نحو القلوب» «قال أهل العبارة : الاسم مشتق من السمو. أو من السمة على الخلاف»^(٨٧).

لكنه كان طويل النفس مسترسز الفكرة حين يحرك مثل هذا النص من أفقه الضيق. ومكانه الحامد إلى الرحب الفسيح. حيث السلوك والتخلق.

(٨١) التمام ٢، ١٦.

(٨٢) الطائفة ٤، ١٥١.

(٨٣) الطائفة ٥، ٣٥٢.

(٨٤) شرح النص لأن يعش ١٣، ٨٥.

(٨٥) الطائفة ٥، ٣٥٥.

(٨٦) شرح المقدس ٨، ٢٩.

(٨٧) نحو القلوب للإمام التشيرى.

والاستشفاف والتذوق، ومن هذا المطلق الأخير وحده نذر عمده، وكرس جهوده. استمع إليه يقول^(٨٨) : «الاسم مشتق من السمو والسمة، فسبيل من يذكر هذا الاسم أن يتسم بظاهره بأنواع المجاهدات، ويسمو بهمته إلى محال المشاهدات، فمن عدم سعة المعاملات على ظاهره، وفقد سمو الهمة للمواصلات بسرائره، لم يجد لطائف الذكر عند قائلته، ولا كرائم القرب في صفاء حالته».

(ز) ويظهر أن القشيري فهم من النحو ما يشمل النحو والصرف فتكلم في «نحو القلوب» على مسائل صرفية مثل:

١ - الصحيح والمعتل من الأسماء.

٢ - الاشتقاق في الاسم.

وفكرته في المسائل الصرفية كفكرته في مسائل النحو تقوم على المطابقة في أن ما يصيب الكلمة من تغيرات يحدث مثلها للعبد. فالصحيح من الأسماء عند أهل العبارة : ما سلم من حروف العلة وهي : الألف والواو والياء، وهي أصوات تقع في مهب التفسير والتبديل والحذف في النحو الظاهري. والصوفي يرى أن مجيء حرف العلة في آخر الكلمة أو في جوفها «في القلب» تنظير بأنه يجب أن يتجرد العبد من العلل في وسط الطريق ونهايته، والصوفي يرى أن النفس محل المعلولات وأوصاف الضعف البشري. والقلب محل المحمودات، وبقاء الإنسان بالعلل علامة ضعف. والعلل باقية مع العبد ما دام في حالة (التلوين) فإذا تجرد من العلل وأصبح فانيا عن حظوظه - كان في حالة (التمكين) وسلم اسمه من ألف الإلباس، وواو الوسواس، وياء اليأس وحق له الإعراب وهو البيان ثم الكشف والعيان. والعلل تلازم الإنسان حتى مرحلة السر، ولا يخلو من

(٨٨) اللطائف ١ / ٦٤.

العلل إلا عين السر أو سر السر. وهي أمانة للحق لدى الخلق كي يشاهدوه بها. ومن أجل هذه (العلل) منع الاسم من الصرف وهو (التنوين). والأصل في الاسم : أن يلحقه التنوين ليبدل على تمكنه في الاسمية. فإذا وجد في الاسم : (علتان) تدلان على الفرعية، وكانت واحدة ترجع إلى اللفظ والأخرى ترجع إلى المعنى، أو واحدة تقوم مقامها، فإن الاسم حينئذ يشبه الفعل، وشبهه بالفعل يضعف قوته، ويصبح ثقيلًا مثله، فيأخذ حكمه وهو امتناع التنوين، لأرتكابه العلل ظاهرا وباطنا، (والعلة) مرض في العبد، ونقص في (الكلمة) الممنوعة من الصرف : (فالوصف) : دعوى النفس بالظهور والغرور، والصوفي يستر نفسه. (والتأنيث) : إشارة إلى أن الطريق الصوفي شاق، فإن تهاونت فيه فأنت ضعيف (كالأنثى) لا تتحمل المجاهدات (والعدل) في نحو العبارة : اشتقاق اسم من اسم عن طريق التغيير له كاشتقاق : عمر من عامر، والمشتق فرع من المشتق منه، و(العدل) يشمل التغيير والتحويل والعدول عن الأصل. وفي نحو الإشارة : عدول عن الطريق القويم، والتنظير بينهما قائم. و(وزن الفعل) كأن تجعل لعملك قيمة ووزنا. وهذا نوع من (دعوى النفس) والإعجاب بما تفعل، والصوفي ملتزم بإسقاط التدبير وإثبات التقدير، والمعول عليه فضل الله، ولا قيمة لعمل العبد ولا (وزن نفعه)^(٨٩) بجانب فضل الله، وكل عمل للعبد مرتبط بالعناية الإلهية لا بالمجهود الإنساني، حتى أعمال الإنسان الصالحة لا تدخل الجنة^(٩٠). وليست في نظر الصوفية إلا كالخيول الراكضة فوق ثبج الماء لا حول لها ولا طول، ولا نفع فيها ولا قدرة.

ويعرض القشيري لاشتقاق (الاسم)؛ ففي النحو الظاهري نسمع خلافا بين النحويين : فيرى البصريون أنه مشتق من (السمو)، لأنه سما على

(٨٩) نحو القلوب : للإمام القشيري.

(٩٠) وصدق الرسول (ﷺ) حين قال «ما منكم من أحد ينجاه عمله قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدى الله برحمته». وقول (ﷺ) : «لن يدخل أحدكم عمله الجنة...».

مسماء، وعلا على ما تحته من معناه، أو أنه قد (سما) على الفعل والحرف^(٩١). ويرى الكوفيون أنه من (السمة) فكأنه سمة على المسمى يعرف بها.

كما نرى أنموذجا من هذا الخلاف بين رجال الفكر الدينى حيث نجد أهل السنة وهم فى اشتقاقه كالبصريين، وأما المعتزلة فهم كالكوفيين، والفرق بين المذهبين : أن أهل الاعتزال ينكرون الصفات، وأهل السنة يثبتونها. كما اشتد الجدل بينهم لأنهم نقلوا هذه المشكلة إلى الحديث عن الأسماء والصفات الإلهية، كما نرى وجها آخر لهذا الجدل بين دوائر النحاة المتمثل فى البصريين والكوفيين^(٩٢).

ولكن القشيري الصوفى أخرج قضية اشتقاق الاسم والخلاف فيه من الجانب الصرفى التقليدى والجانب الجدلى الكلامى إلى الجانب الصوفى الذى يهتم بالسلوك والتخلق، والتطبيق والعمل. ومن آداب من عرف اسما من أسمائه أن يتأدب بما يعرف، وأن يطبق على نفسه :

أولا : سلوكا بمقتضى ذلك الاسم.

وثانيا : أن يكون ذكر هذه الصفة حافزا على التشبيه بالصفات الإلهية فى حدود الطاقة الإنسانية. استمع إلى هذا المعنى من القشيري حيث يقول: «فمن قال : إنه مشتق من (السمو) فهو اسم من ذكره سمت رتبته، ومن عرفه سمت حالته، ومن صحبه سمت همته.

ومن قال : إنه من (السمة) فهو اسم من قصده وسم بسمة العبادة، ومن صحبه وسم بسمة الإرادة، ومن أحبه وسم بسمة الخواص، ومن عرفه وسم بسمة الاختصاص.

(٩١) أسرار العربية لابن الأنبارى ص ٤ ط، دمشق.

(٩٢) انظر أنموذجا من هذا الجدل فى (أسرار العربية ص ٥ لابن الإنبارى).

أو يقول : اسم من واصله (سما) عنده عن الأوهام^(٩٣) قدره (سبحانه) ومن فاصله وسم بكى الفرقة قلبه^(٩٤).

كما يعرض القشيري لتصغير الثلاثي في (نحو اللسان) بأنه : اسم ضم أوله وفتح ثانيه مع زيادة ياء ثالثة كقولك في رجل : رجل، وحجر : حجر. كذلك إذا أراد الحق تحقير العبد زاده شغلا يتوهمه الناس نعمة وفضلا ورفعة، ولكن هذه الزيادة إذلال له، ومنقصة بحاله^(٩٥).

ثم، أما بعد : فإنني أرى بعد هذه الرحلة الروحية في آثار الشيخ وشواهد أن الرجل كان موفقا في نقل مصطلح النحو العربي إلى محيط التصوف الإسلامي حيث أطلعنا من خلال ذلك على فلسفة روحية قوامها القواعد النحوية، وأنه كان رائدا في هذا العمل وذلك النقل من بيئة إلى بيئة. كما يؤكد هذا العمل مرة أخرى مدى الترابط في عالم المصطلحات، مما يساعد في المستقبل إن شاء الله على دراسة مراحل هذا الانتقال وتصوره، ويحدد أخيرا إشارات الأخذ والعطاء. والتأثير والتأثر.

(٩٣) اعلم أن ما يصوره وهمك وظنك فأنه بخلاف ذلك.

(٩٤) الطائفة ٣ / ٥.

(٩٥) نحو القنوب الكبير. للإمام القشيري. ورقة ٧٣ ميكروفيله رقم ٧٤٣٤ دار الكتب والوثائق المصرية.

الفصل الثالث

الكتاب

(١) منهج الكتاب

وبعد أن تحدثنا عن فكرة النقشيري في النحو، وكيف عالج «نحو القلوب» من خلال «النحو العربي التقليدي»، وقدم لنا فهما روحيا جديدا له، حيث جعل العلاقة بين النحويين : الإشاري والعباري، هي العلاقة نفسها التي يقوم عليها التصوف الملتزم بالكتاب والسنة وهي الربط بين الحقيقة والشرعية والباطن والظاهر^(١) : فكل حقيقة لا تؤيدها الشريعة فهي باطلة، وكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبولة : فهما وجهان لحقيقة واحدة، بمنزلة الإسلام والإيمان «والجسم والقلب، لا ينفك أحدهما من صاحبه»^(٢).

نقل النقشيري هذه الفكرة الصوفية نفسها عندما عالج النحويين : الإشاري والعباري، فقضايا النحو الظاهري عنده موصولة بقضايا النحو الباطني؛ ولذلك كان منهجه :

١ - أن يبدأ بالقضية في النحو الظاهري أولا ثم يثنى عليها بالنحو الباطني، وتلك إشارة منه إلى وجوب اتباع نحو الظاهر نظريا، واتباع نحو

(١) وجماع هذا قوله سبحانه : «ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر...» البقرة ١٧٧، وقول رسوله ﷺ : «من أصلح جوانبه أصلح الله برانيه» النهاية في غريب الحديث لابن الأثير «بر».

(٢) علم القلوب ٥٢ أبوطالب النكي.

الباطن، رياضة وحالا، وقد أصاب الغزالي كبد الحقيقة عندما وضع نحونا التقليدى بين (علوم الصدف والقشر)^(٢). ويستحيل الوصول إلى لبه ونواته، وفقه أعماقه إلا عن طريق علوم (القشر) كما يستحيل الترقى إلى عالم الأرواح إلا عن طريق عالم الأجساد.

فليست قضية النحو عند القشيري في حفظ التعريفات والقواعد، والإتمام بقضايا الرفع والنصب والجر والمفرد والجملة وأحكامها، وإنما كان نحوه بعد هذا فضا للقشرة الظاهرية حتى شف، المصطلح ورق درجة بعد درجة كلما زاد الصعود وفتح باب الازود.

٢ - وكان القشيري في استخراج (للإشارات) من النحو الظاهري - معتدلا فلم يجنح، ولم يجمع، ولذلك كان نحوه الظاهري الباطنى على صفر حجمه صافيا نقيا، فلم يهتم فى أودية الأباطيل والضلال، ودروب الخيالات والأوهام.

٣ - وإذا كان النحو العربى يدرك بالعقل، فإن نحو القلوب لا يدرك إلا بالذوق؛ ولذلك كانت لغته الرموز لا العبارات، واللطائف والإشارات. وهى وحدها: لغة الإلهامات والمجاهدات، والأحوال والكشوفات، والمواجيد والأذواق.

يقول أبو سعيد الخراز: «العبارة يعرفها العلماء، والإشارة يعرفها الحكماء، والرمز يعرفه الأولياء، واللطائف يقع عليها السادة والشيوخ»^(٤).

فالعبارات ليس فى مقدورها أن تعبر عن هذه الدقائق وتلك الرقائق، فالعبارة بالمقاصد والمعانى لا بالألفاظ والمباني :

(٢) جواهر القرآن ١٨، ٢٠ للغزالي.

(٤) علم القلوب ٧٥.

وإطراق طرف العين ليس بنافع

إذا كان طرف القلب ليس بمطرق

على أن (إشارات) القشيري حين ربطها بالنحو العربى لم تكن مفرقة فى الرمزية إلى حد الغموض والإبهام، بل يستطيع من عانى معاناته ونقى سريرته من الكدورات أن يفهمها، وأن يستبطن خفايا ألفاظها حيث يدق النحو فيها ويرق، ويلطف ويشف، فتلحظه عيون الأرواح لا عيون الأشباح، وتتلوه متبتلة فى محراب هذا الكون لا فى عرصات المعاهد وحلقات الدرس. فهو الآن فى هذه المعارج، وتلك الرحلات والكشوفات قد تحول من نحو العقول والورق، إلى نحو القلوب والحرق. على أن القارئ العادى لن يستطيع أن يصحب القشيري فى رحلته هذه، ما لم يتهيا لها، ويهيئ لها من نفسه وسلوكه وجهده وروحه، وأهل الطريق هم الذين يتاح لهم بفضل الله الفيض الذى يكشفون به سر هذا المصطلح الإشارى.

٤ - ولم يخصص القشيري (نحوه) للجانب النحوى وحده، ولكنه التفت إلى جوانب صوتية^(٥) واشتقاقية، وأشار إلى الصحيح والمعتل، وبعض مصطلحات النحو، ليجعل من هذا كله نقطة ارتكاز ينطلق منها إلى مشارف عليا، ويخلق فى مدارات للصعود وراء هذا الكون المادى المحسوس - ليشاهد عوالم الأرواح والأسرار، وهيئات أن يدرك الإنسان شيئا منها إلا بفضل الله ورعايته.

٥ - والقشيري حين ألف نحوه - لم يجعله نحواً (جمالياً) كما نادى بذلك عبدالقاهر الجرجاني، ولا نحواً (رياضياً تحويلياً*) كما تنادى به

(٥) وهذا ملحظ دقيق من القشيري ينبطه عليه علماء اللغة المحدثون حيث يقررون من الناحية المنهجية ضرورة ربط النحو بعلم الأصوات والصرف. انظر آراء : ألكسندر هيوم A.Hume و: فيرث Firth وبالمار Palmar فى كتاب علم اللغة العام القسم الثانى ص ٢٤٣ د. بشر.

(*) والنحو التحويلي - يعنى بتحديد الإمكانات التعبيرية الكامنة فى لغة من اللغات. علم اللغة ٧٧ د. حجازى.

بعض الإتجاهات الوافدة المعاصرة، ولكنه جعل نحوه (صوفيا إلهيا) يثمر الوجود، ويعمر القلوب، فكان بحق حلقة اتصال رائعة سامقة بين المخلوق والخالق^(٦). يرى الإنسان في كل جزئية من جزئياته - ربه وهيمنته على هذا الوجود كله، وكأنهما يحرك القشيري وجدان الإنسان بأن لا يقصد من أعماله في مسيرته الحياتية إلا ربه، وكل علم لا يوصل إلى تلك الغاية الشريفة فهو علم مكدود لا ثمرة له، ولا فائدة فيه، فنظرة القشيري هي في الشمول أوسع، وفي العطاء أجزل، وفي الأنفاس أطهر وأعطر، ولأنها - أخيرا - ترتبط بكنف الله - سبحانه - فهو أسنى وأرفع!!

وعلى لبنات هذا النحو الظاهري بنى القشيري فلسفة خلقية عملية ترتبط بكنف الله ومراقبته واستشعار حضوره الدائم فيستوى عنده المنع والعطاء والجفاء والوفاء، والشدة والرخاء، وتلك لعمر الحق نظرة في الشمول قلما يفطن إليها غير الصوفية.

وحسبك من رجل يجعلك - حين تستنبط خفايا هذا النحو - مهيمًا في الله ومتيما : كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك!

٦ - وأسلوب المؤلف قد بلغ فيه الإيجاز غايته، والتركيز نهايته، ويميل فيه إلى السجع، كما يساوى بين فقراته.

٧ - وهذا الكتاب يرى النور لأول مرة، ويأخذ مكانه في المكتبة العربية بعد أن ظل زمنا طويلا طوى الكتمان والنسيان، والكتاب طرفة نفيسة من طرف التفكير المبتكر في المصطلح النحوي حيث نقل المؤلف المصطلحات

(٦) إن المراقبة واستشعار الحضور الإلهي الدائم، والتقلب في الحياة تحت سمع الله وعلمه وبصره هي مفتاح الاتصال في التصوف، يقول سهل التستري «لن يتربى القلب بشيء أكثر ولا أفضل، ولا أعظم، من نظره إلى الله عز وجل، واستماعه منه، وكلامه معه» في الفلسفة والأخلاق ٢٨٥ د. كمال جعفر.

النحوية^(٧) إلى ميدان التصوف على طريقة أرباب المجاهدات والأحوال.

٨ - أما هدف الكتاب وغايته - فلهجته وسداه : عمارة الباطن، و تنمية الإيمان والتأمل، وتصوير العبودية الصادقة، وتصحيح العلاقة بين الله تعالى والإنسان، وبين الإنسان والناس، بعد أن أصبح غريباً بينهما نتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق عن أرضه ودينه. والكتاب رحلة نفسية، و خلاصة تجربة علمية روحية عاشها الإمام القشيري في حياته وعلمائها.

كما ترى القشيري يلفتنا إلى تربية السلوك والقدوة من خلال قواعد هذا النحو. وأمر هذا النحو على ما سبق صعب مستصعب، لأنه يتصل بالحق تبارك وتعالى. ويكتشف فيه المؤلف دخائل النفوس وسلوكها، والنيات ونوازعها، فلا يطيقه إلا عباد متجردون، وعباد موحدون، وصدق رسول الله - ﷺ - « لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ». وهذا هو الهدف الثاني، تثقيف اللسان واستقامته، وعصمته من الزلل والخطأ.

(٧) من الجدير بالذكر أن بعض رجال الصحافة في مصر قد استغل ألقاباً من المصطلح النحوي في نقد أخلاقيات المجتمع المعاصر، ومظاهر أمراضه ويمكن أن يسمى هذا النوع بـ « النحو الأخلاقي » وحسبى هذا المثال على سبيل الطرفة للأستاذ : أحمد رجب في باب « نصف كلمة » مما ينشره في صحيفة الأخبار ١٩٧٣/٣/٢٥ يقول :

المرفوع : تقارير الرقابة الإدارية عن واحد حرامى،
المحذوف : تقارير الرقابة الإدارية من ملف الحرامى،
المنصوب : زقة بنى همبكة للمدير فى المطار،
النصب : نصريح مزمن يقول : قريباً تختفى مشكلة انقطاع التيار،
المكسور : كالون الشونة فى شركات المطاحن،
لا النافية : حرف نفى ورفض جازم بنفى الموظف الشريف إلى آخر الدنيا،
المنوع من الصرف : حديد التسليح من غير لحاليح،
عمرو وزيد : فاعل ومفعول به فى الجملة المفيدة توجد عمرو زيدا،
المضاف والمضاف إليه : المضاف هو بون الجمعية من الموظف، لتاجر السوق السوداء، والمضاف إليه بريزة
وإذا كان للصوفية (نحو) وللأخلاقين (نحو) فليس بهجيب أن نرى للمقهاء (نحو) كذلك. فقد عثرت على عنوان كتاب باسم «نحو الفقهاء» مؤلفه : سعيد بن أحمد المينائى الأديب المتوفى ٥٣٩ هـ.

(ب) محتويات الكتاب ومقدمته

يقع هذا الكتاب في مقدمة وخمسة أبواب :

في الباب الأول: عالج أقسام الكلام. وفي الثاني : عالج الأسماء واشتقاقها، ثم عالج في الباب الثالث :موانع الصرف.

ثم ذكر في الباب الرابع : الإعراب والبناء، وفي الباب الخامس : البدل.

كما اشتمل على عشرة فصول :

في الفصل الأول : تحدث عن الصحيح والمعتل من الأسماء، وفي الثاني: تحدث عن المعارف والنكرات، وفي الثالث : أشار إلى المبتدأ والخبر. كما تحدث في الرابع : عن الزمن، وفي الخامس: عن الفاعل. والسادس : عن حروف الخفض. كما استشهد المؤلف في ثلاثة عشر موضعا بآيات من القرآن الكريم، وفي موضع واحد بحديث شريف، ثم شاهدين من الشعر اشتملت عليهما نسخة (ط) دون بقية النسخ.

وقفه ومناقشة حول الكتاب

هذا وقد جاء في كتاب مفتاح السعادة ومصباح السيادة ١٨٦/٢ فما بعدها حين ترجم للقشيري أن له «كتاب نحو القلوب الكبير» و«كتاب نحو القلوب الصغير». وفي طبقات الشافعية الكبرى للإمام السبكي ٢٤٣/٣ فما بعدها (ط أولى مصر) أن من مصنفات القشيري «كتاب نحو القلوب الكبير وكتاب نحو القلوب الصغير أيضا». وفي مقدمة كتاب المعراج للقشيري ص ٢٠ تحقيق د. علي حسن عبدالقادر يذكر أن من كتبه المفقودة «نحو القلوب الكبير». وفي مقدمة المجلد الأول من لطائف الإشارات للقشيري د. إبراهيم بسيوني يذكر أن للقشيري كتابا باسم «نحو القلوب الصغير» وآخر «نحو القلوب الكبير». كما أشار (بروكلمان) في تاريخ الأدب العربي ج ١ / ٥٧٧ من الأصل الألماني أن للقشيري كتابا باسم «نحو القلوب»

رقم ٢٨٠٥ برلين. وبعد البحث والتنقيب أصبح المعلومات السابقة على أساس :

١ - أن للقشيري «نحو القلوب الصغير ونحو القلوب الكبير» والذي قمت بتحقيقه الآن هو «نحو القلوب الصغير» معتمداً على أن «نحو القلوب الكبير» تحت يدى الآن.

٢ - أن ما رآه د. على حسن عبدالقادر من أن «نحو القلوب الكبير» مفقود، قد عثرت عليه وتحت يدى مخطوطته. ويقوم بتحقيقها د. إبراهيم بسيونى أستاذ الأدب الصوفى بجامعة العراق وعين شمس بالاشتراك معى.

٣ - أن الرقم الذى أشار إليه (بروكلمان) سابقاً على أنه يحمل «نحو القلوب» للقشيري فى دار الكتب (برلين) نوع من الخط وقع فيه (بروكلمان) بدليل أن رقم ٢٨٠٥ تحمله مخطوطة أخرى فى ألمانيا معنونة ب «فائدة جلية فى حساب ليلة القدر»^(٨).

هذا وقد ألفت كتب أخرى فى «نحو القلوب» منها :

١ - مخطوطة «نحو القلوب وما يتبعه من سيرة سيد المرسلين ووفاء خواص العلماء العاملين» لأبى عبدالله محمد بن على بن عراق، ضمن مجموع للمؤلف نفسه تحت رقم ٤٢٧ (برلين).

٢ - «نحو القلب» شرح الأجرومية تأليف الشيخ الإمام العالم قدوة المحققين على بن ميمون الحسنى ثم الإدريسى تحت رقم ٣٦٤ تصوف دار الكتب المصرية، وكتبت فى العشر الأوسط من شهر شعبان ٩١٥ هـ

وبهذا يكون البحث قد صحح معارف واكتشف حقائق.

(٨) من خطاب ورد لى من الزميل د. عرفة مصطفى بألمانيا. فله الشكر.

- بقيت كلمة أخيرة في (توثيق الكتاب) وهي :

١ - أن مصطلحات النحو العربي تتناثر في مؤلفات القشيري : كالرفع والخفض^(٩) والسكون والحركة^(١٠) والمعرفة والنكرة^(١١) وسقوط الإضافات^(١٢).

٢ - أن حديثه عن أزمنة الفعل في «نحو القلوب» نسمع صداها في لطائف الإشارات^(١٣).

٣ - أن آراءه عن اشتقاق الاسم نرى مثلها في اللطائف^(١٤).

٤ - و(المبتدا والخبر) في «نحو القلوب» ترى الفكرة نفسها في التعبير ص ٢٥.

٥ - كما ورد نص في كتاب مجهول المؤلف يسمى بـ «نحو القلوب» ضمن مجموعة خطية تحت رقم ١١٦ مجاميع بدار الكتب يقول فيه : «يقول الإمام القشيري : وفعل الحان مرفوع ما لم يدخل عليه ناصب أو جازم، فالناصب رؤية العبد نفعه، والجازم فترته عن سلوكه، فإذا سلم العبد من الملاحظة والفتور ارتفع قدره عند العزيز الففور، «إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه».

وبمقابلة هذا النص بما جاء في «نحو القلوب» للقشيري يؤكد أن النص نفسه مأخوذ من كتابنا الذي نحققه، مما يؤكد صحة نسبته إلى القشيري.

(٩) التعبير في التذكير ص ٤٦، ٤٧ وانظر لطائف الإشارات ٢٩٣/٥.

(١٠) اللطائف ١ / ٢١١، ٢٢٧، ١٣٤/٦.

(١١) ١٦٠ / ٦ لطائف، والتعبير ٢٢.

(١٢) ١٢٢ / ٤ (لطائف، والتعبير ٢٦).

(١٣) ١ / ١٧٣، ٢٩٨، ١٣٣/٦ والتعبير : ص ٥١.

(١٤) ١ / ٦٤، ٢ / ٥، ١٠٢، ٢٢٢، ٥ / ٤١٧، ١٠٠/٦.

٦ - أن الآراء الصوفية في «نحو القلوب» تتسق ومذهب القشيري المعتدل من أنه : صوفى سنى أشعري، يجمع بين الشريعة والحقيقة والعلم والعمل.

٧ - كما له آراء في (المتعلق النحوى) ربطها بمذهبه الصوفى: إذ العبد يجب أن يكون مع الله بلا علاقة أو علة. وهما : من الشواغل والقواطع، والإيمان الصادق فى تخلية القلب عن غير الله تعالى، وتحليته بذكر الله. وفى ذلك يقول القشيري عند تفسير قوله تعالى: «فاذكرونى أذكركم» (فاذكرونى) بقطع العلائق (أذكركم) بنعت الحقائق^(١٥).

- وبهذا المنهج فى التوثيق أكون قد استخرجت خصائص القشيري (نحوية كانت أو صوفية) من الكتاب المحقق ثم قارنتها بنصوص خارجية نقلت عنه، وكل هذا إمعان فى التوثيق، والوصول به إلى مرحلة عالية من الثبوت والضبط والأمانة.

(ج) مخطوطات الكتاب ورموزها

نشر هذا الكتيب لأول مرة عن النسخ الآتية :

١ - مخطوطة بمكتبة أحمد تيمور رقم ١٩٦ تصوف بدون تاريخ وتقع فى اثنتى عشرة صفحة ومسطرة كل صفحة ١٢ سطرا بكل سطر منها ٨ كلمات وفى أول صفحة من المخطوط على الجانب الأيسر من أعلى «من من من بها على مالکها أفقر العباد إلى الله تعالى صالح منصور اليافى. (ثم كلمات مشتبهات).... محمد ابن حسنى (كذا) الشابى التونسى وفقه الله. ويلاحظ عليها : تسهيل الهمزات ووضع نقطتين تحت الحرف (ي) وقد رمزت إليها بالحرف (ت).

(١٥) اللطائف : ١ / ١٤٩.

٢ - مخطوطة بمكتبة طلعت رقم ٢٤٢ مجاميع بدار الكتب المصرية ومنها : (ميكروفيلم) بدار الكتب المصرية رقم ٩٦٥٥ من ورقة ١٧ - ٢٢. وقد كتبت في ١٣١٩ هـ آخر ربيع الآخر بخط الفقير حسين رضا الوزير عفى عنه بفضله الوفير. ومتوسط سطور الصفحة ١٠ أسطر. ومتوسط كلمات السطر الواحد ثمانى كلمات، وخطها فارسي غير مضبوط بالشكل. وتقع في مجموعة أنيقة تسمى «علبة الآداب» وفيها رسالتان : إحداهما : «نحو القلوب» للامام القشيري رحمه الله تعالى، والأخرى : «رسالة في اللغة» لواحد من العلماء، وفي آخر النسخة قال الجنيد قدس سره : سألت أكثر المشايخ عن التصوف، فلم يشفنى الجواب، فرأيت النبي (ﷺ) في المنام فقلت : يا رسول الله : ما التصوف؟ فقال : التصوف ترك الدعوى وكتمان المعنى.... وقد رمزت إليها بالحرف (ط).

٣ - مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم ٢٤٤٥٥ ب مساحتها ٢٠٠ x ١٤٥ مم وتقع في ٦ صفحات بقلم معتاد بكل صفحة ٥ أسطر بكل سطر ١٢ كلمة. والعناوين بمداد أحمر، وعلى الصفحة الأولى في أعلاها : حقه محمود الجبالي الموظف بالجمعية التشريعية والمنتدب بمجلس الوزراء بدون تاريخ. ويلاحظ عليها : تسهيل الهمزات ووضع نقطتين تحت الحرف (ي) وقد رمزت إليها بالحرف (ن).

٤ - مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٢٤٤٥٣ ب مساحتها ٢٤٢ x ١٥٨ م م وتقع في ١١ صفحة وبالصفحة ١٢ سطراً بكل سطر ٨ كلمات على ورق سميك أصفر ومكتوبة بخط الرقعة بالمداد الأسود، والعناوين بالمداد الأحمر. كتبها : محمود فؤاد الجبالي السكرتير بمجلس النواب المصري والمنتدب للعمل برئاسة مجلس الوزراء في ٣ رمضان ١٣٤٤ هـ - ١٧ مارس ١٩٢٦ م. والنسخة غير مرقومة وقد رمزت إليها بالحرف (ج).

٥ - مخطوطة بمكتبة (عارف حكمت) بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام رقم ٢٦ مجاميع في ثلاث ورقات وأرشدني إلى

مكانها مشكورا الأخ الدكتور حسن عبداللطيف، وتقع ضمن سبع رسائل خطية على الترتيب الآتى فى المجموع :

- ١ - ترجمان الأشواق وشرحه وهو ديوان الشيخ محيى الدين.
- ٢ - تحفة واهب المواهب فى بيان المقامات والمراتب.
- ٣ - نحو القلوب. وهو هذا الكتيب الذى نحققه لأول مرة.
- ٤ - المذاكرة الحسية بالمحامل الحنيفية للشيخ على الكيزوانى.
- ٥ - أجوبة عن قول سيدى عمر بن الفارض : قلبى يحدثنى... إلخ. للشيخ على الكيزوانى.
- ٦ - المناظرات بين الظاهر والباطن للشيخ على الكيزوانى.
- ٧ - كشف الأسرار عن لسان حال الطيور والأزهار لابن غانم المقدسى (عبدالسلام).

وقد كتبت هذه الرسائل السبع بخط النسخ الجميل وكل صفحة مطرزة بإطار من الخطوط السوداء المذهبة، ومسطرة كل منها ٢٢ سطرا. وقد نسخ لى «نحو القلوب» هذا من المدينة المنورة بتوفيق الله : العبد الفقير الدكتور عبدالمجيد قطامش وهو يحج بيت الله الحرام ويزور قبر الرسول ﷺ وذلك يوم الثلاثاء ١٩٧٢/٢/١ م.

وقد رمزت إليها بالحرف (م).

٦ - مخطوطة يملكها الأستاذ مصطفى الحدرى من (حماء) بسوريا، وقد تفضل مشكورا فأعطانى الفروق بين نسخته وأصلنا المخطوط. وقد أشرت إليها فى المتن والتحقيق والتعليق بنجمة هكذا (*). وتقع نسخة الأستاذ الحدرى فى تسع صفحات صفار فى كل منها ١٥ سطرا وكتبت بخط واضح جميل، وفيها بعض التصحيف والتحريف. وعلى صفحة

العنوان تملك هذا نصه «دخل في ملك الفقير محمد أمين غفر الله له ولوالديه أمين ٢٢ شوال سنة ١٢٢٦ بالشراء الشرعى وليس في المخطوطة ما يدل على تاريخ نسخها وإن كان يظن الأستاذ الحدري - حفظه الله - أنها كتبت في القرن العاشر، وقد رمزت إلى هذه النسخة بالحرف (س).

(د)

قابلتني عقبات مختلفة في التحقيق، ونصوص محرفة مصحفة ملتبسة في أكثر المخطوطات :

١ - وقد حاولت جاهداً إقامة هذه النصوص بعد دراسة رواياتها، وأشرت في قسم التحقيق إلى المصحف والمحرّف والخطأ.

٢ - ولما كانت الأصول خالية من الشكل، فقد قمت بتشكيل ما يجب شكله، لا سيما الألفاظ التي يلتبس معناها.

٣ - وقمنا بوضع الأقواس، والنقط، والفواصل، وإشارات الاستفهام، والتعجب وغيرها.

٤ - ثم أفردت (ملحقاً) يشتمل على نصوص أخرى في نحو القلوب للقسيري وغيره، تليه (دراسات) قمت بها في ضوء الكتاب وثيقة الصلة بموضوعه.

- وتلك الدراسات شملت مباحث : ١ - في اللحن، ٢ - صوفية الحركات، وفيها أفضت في شرح فقرة صوفية من الكتاب لها دلالات لغوية نفسية صوتية. ٣ - بين المباني والمعاني في النحو.

وعلى الرغم من صغر هذا الكتيب إلا أنه يحمل المحقق أمورا صعبة، وأعباء مثقلة؛ لأن ظاهر النص له معنى، وإشارته لها معنى آخر، ولا يمكن الخوض في مثل هذا إلا إذا كان المحقق على علم بمصطلحات النحويين؛ العباري والإشاري، ليعقد بينهما صلات، ويجعل بينهما مودة ورحمة، وأصرة وقربى.

فإذا أضيف إلى ذلك أن (الكلمة) عند انصوفية تحمل خلجات نفسية وفيوضات إلهية، وحالات وجدانية تجعلها بعيدة الأغوار، مديدة الأبعاد عرفنا كيف يتبدد المسير، ويتشعب بنا الطريق، وتفرب اللغة وتبهم على ذلك الدرب الشائك الطويل.

وفيما يلي بعض ما تيسر من صور مخطوطات الكتاب :

المحقق

أحمد علم الدين الجندي

كتاب

نحو القلوب رحم الله
مؤلفه ومعنا
به والمتمين
اجمعين

تأليف الاستاذ ابي العباس
عبد الكريم بن هوارن القشيري
كما لو ارد في كشف الظنون
المستند

محمود الجبالي
المطبعة المطبعة
المسند بجمهورية العراق

ب
٤٤٥٠

منه لم يكتف
علامه الرفع فيه
والحال ينصب ما لير
وكتف الخفض فيه
هكذا هو النول ما
لحن اللسان مباح
واقبح اللحن عندي
رفع وخفض وصب
نوح وانس وقرب
للفتى فيه كسب
جزن وقبض وجب
فقد قال عثمان حب
واللحن بالواو ذنب
كبروتيه لم يوجب

تنت

عنوان نسخة ٢٤٤٥٥ دار الكتب المصرية (ن).

من هذه العظام المبرصية - في القبول - والمعرف -
 باب الرسول ما ركب - الاعراب والناس
 ما كان الاعراب بالمركبات الثلاثة والمعرفة كان
 عند ان الاشارة ربيع للوهم وبعيد ابد الجسم في
 طاعة الله تعالى وحصى لغوهم تراضيا لله تعالى
 وترددوا بغير حياء واد الله تعالى وسكو ضمر الي
 انه تعالى - وانفرت هو المعنى من احباب اللواتي
 والبعي ما كان مستقبعا في حاله لا يتغير وهم احباب
 البكر في الاستقامات وتكرات وكذا ذلك
 العباد منهم معزوت له نصيب مع القوم خروجه
 معزوت - ويقام في الضيق هو به موصوف -
 وهم شكله نصيب له مع القوم ولا يحفظ له سوي
 الاكل والوهم حرك المبدأ من فروع الخورده عن

علم البعير - ثم عبي البعير - ثم حتى البعير والله اعلم
 باب - مواضع الصغور موابغ الصغور
 عند اهل العنارة نفع وهي معزوتة وعمل اهل
 الاشارة اجمع ان تحب العالم بعد جمع الدنيا واحتيا
 الى اسر عليه وصرف وجوههم الله والوصف
 ان يكون قصور ان يوصف بالخبر ويعرف به
 والمنا بنبث صعد العزم والوصف بالرد ايل
 والمعزوه ان يعرف نفع الله ثم نقصد على الشكر
 والعيه ان يعمل نفعه الله بكماله على والعقد
 عدو من الطريق القويير والتركيب ان يشوب
 على ما نفع الخيد والالف الفانا والنشوت
 بون كن وورن الفعل ان بزن اعالة معنما
 انه نفع الله كامل نجعل العجب في اجتمعت عظام

وَمَا رَضِيَ ظَنُّكَ، وَنَهَمُكَ مِنْ رَضَى بِالْعَزِيمَةِ فَلَمَّا
 غَدَرَ عَهْدَ الْعَزِيمَةِ طَلَبْتَ، وَزَمَرْتَ وَأَبْجَلْتَ
 عَلَى صَدْرِكَ الشَّيْءَ لِيُظْهِرَ ضَعْفَهَا، وَرَمَرَهُ كَأَنَّهُ
 إِلَى جَنَانِ الْبُخْلِ نَحْوَ ثَمَانِيَةِ عَشْرَ مِائَةِ الْمِائَةِ نَحْوَ
 بَجْرَةِ الظُّغْيَانِ فَقَطَعْتَ أَصْلَهَا، تَوَلَّيْتُ نَحْوَ
 مِنْ أَعْلَى لَعْنَهَا، وَظَهَرَ شِفَا بَابِ لَعْنَهَا، وَتَوَلَّى
 شَفَا بَابِ دَمْنِ لَهَا، أَصْدَرَ عَلَى نَعْمِ طَلَبَهَا، إِلَى حُرْدِهِ
 عَلَى دَلَمَا، فَا بَهْرَتَ إِلَى وَبَلَمَا، وَاشْتَدَّ إِلَى لَالَمَا
 إِلَّا أَنَّهُ وَجَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَيْئًا وَهُوَ اسْتَظْلَمَ
 ظَلَمَ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّكَ أَشْهَدُ مُحَمَّدًا عَبْدًا

الْإِسْلَامُ إِنَّهُ لَا يَكُونُ فَوْقَ بَدْوٍ، كَذَلِكَ الْمَلِكُ،
 وَكَذَلِكَ صَاحِبُ الْمِلَّةِ الْوَاحِدَةِ، لَا إِسْطِلَاقَ
 بِحُكْمِ عِلْمِهِ، وَأَمَّا السُّلْطَانُ عَلَى الْمَلِكِ، وَدَمْرُ حُكْمِهِ
 فَيُؤْتِيهِ بِأَحْزَانِ الْقُوَّةِ، الْفَضْلُ .
 كِتَابُ كَوْنِ الْقُلُوبِ مِنْ كَلَامِ الْإِمَامِ الْبَرَقَانِ الْقَشِيرِيِّ
 نَعَفَ الْإِسْلَامُ بِهِ وَرَحِمَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِ
 بَسْمُ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الْبُحْرَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ وَدَعْوَةُ الْحُكْمَةِ
 الْإِسْلَامِيَّةِ . وَتَعْلَمُ أَنَّ أَدَمَ الْأَسْمَاءَ كَلَّمَتْ . وَاقْعُدْ عَلَى مَقْعَدِ
 مَنْ دَاوَرَةِ الْوُجُودِ، فَحَوْلَ شُكْلِكَ، فَتَبَيَّنَ لِبَيْتِهِ حُرُوفُهَا
 وَرَبُّهَا سَمِعَتْ وَرَبُّهُمْ فَطَمَتْ . فَتَبَيَّنَ مِنْ تَعْرِفِ الْوُجُوبِ .

الورقة ١٧ من نسخة ٢٤٢ مجاميع طلعت ٩٦٥٥ ميكرو فلم (ط)
 وبها عنوان كتاب « نحو القلوب »



عن صاحبها
بإذن
الله تعالى
صلى
الله عليه
والآله
وسلم

بمطبعة
الكتاب
بمطبعة
الكتاب

لف

كتاب
مكتبة

تتميز
١٩٦

الصفحة الأولى من نسخة ١٩٦ تيموز (ت)

مجاميع

بمجموعة اربعة

المسماة نعمة الادب لشمس الدين داود

السن، وحكم البيان، وجمعها كتابها

الفقيه جبريل الوزير عظمي

بعضه الوتر

آمير

ومنها رسالتنا آية ما يحق القلوب للامام الفخري

رحمة الله تعالى، والاعتراف في اللغة لعماد السلا

تاريخ اتمامها ١٢١٩

أخذ بهج الف

عنوان نسخة ٢٤٢ مجاميع طلعت ٩٦٥٥ ميكروفلم (ط)

كتاب نحو القلوب

للأستاذ أبي القاسم عبد الكريم^(١) بن هوازن القشيري^(٢)

المتوفى سنة ٤٦٥ هـ

(١) في (م) ساقطة.

(٢) في (م) رحمه الله تعالى، ورضى عنه وعنا بمنه وكرمه أمين.

بسم الله الرحمن الرحيم^(٢)

الحمد لله الذى أودع الحكمة أهلها، وعلم آدم الأسماء كلها وأوقفه^(٤) على المقصود، من دائرة^(٥) الوجود، فحل شكلها، فبين^(٦) لبنيه حروفها^(٧)، ووسم اسمها، ورسم فعلها^(٨)، فمنهم من شمر لوابل^(٩) القسمة وما رضى بطلها^(١٠)، ومنهم من رضى بالعزيمة فلما عقد عقد^(١١) العزيمة حلها، فزمرة أقيمت على إصلاح الشأن^(١٢) ليظهر فضلها، وزمرة تجاوزت إلى^(١٣) جنات^(١٤)، الجنان ذوات أغصان^(١٥) العصيان، من شجرة^(١٦) الطفيان، فقطعت أصلها، ثم نحت نحو من أعلاها^(١٧).

(٢) فى (ط ن ج) سقطت «البسملة» وفى (م) زيادة: «وما توفيتى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب».

(٤) فى (ج): «ولما أوقفه».

(٥) فى (ت ن م): «دايرة» ربما كانت إشارة إلى الحقيقة المحمدية التى منها صدر الوجود. وهم يرون أن رسول الله ﷺ كان له وجود سابق على وجوده المعروف ويستشهدون لذلك بقوله عليه السلام «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين». وأرجح أن هذه النظرية لم تكن شائعة فى دوائر التصوف السنى الذى كان القشيري أحد اعلامه وإن كانت شائعة عند كثير من رجال الشيعة.

(٦) فى (ج): «لبنيه» وهو تحريف.

(٧) فى (م): «حروف حروفها».

(٨) إشارة من القشيري إلى الأسماء، والأفعال والحروف فى (النحو).

(٩) الوابل: المطر الشديد، والطل: المطر الخفيف.

(١٠) فى (ط م س): «طلها» وفى (ج) «ظلمها» وهو تصحيف، لأن: الطل - بالطاء المهملة يقابل: الوابل. والقشيري يشير إلى السمع والمجاهدات.

(١١) فى (م): «عقدها» والقشيري يغمز من ينتمون إلى طريق الصوفية، ثم يفسخون عقدهم مع الله، وبهذا يتركون الإرادة إلى العادة.

(١٢) فى (ج م س): «اللسان».

(١٣) فى (ت): «فى» وسائر النسخ: «إلى».

(١٤) فى (ط ج م س): «جنان الجنان» وفى (ت) «جنات الجنان» والجميع صحيح، لأن الجنة جمعها (جنات) على لفظها، و«جنان» أيضاً.

(١٥) فى (ج م س): «فترات أغصان».

(١٦) شجرة الطفيان: كناية عن النفس ورمز لها، والصوفية يصرون على اقتلاع شرور النفس من جذورها، ولا يكتفون بتقليم الأغصان.

(١٧) أعلاها: سقاها شراب الحب. فأعلاها بعله الحب فهى تحمل المعنيين: السقيا وجرح الحب، ولعلها؟ تصل إلى المحبوب حتى تشفى على يديه: =

لعلها، تظفر^(١٨) بشفائها ولعلها، ويخاطبها شفاهاً^(١٩) ومن لها.

أحمد على نعمه كلها، وجوده على^(٢٠) دلها، فأهدت إلى ويلها^(٢١)،
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أستظل ظلها، يوم لا ظل
إلا ظلها، وأشهد أن سيدنا^(٢٢) محمداً عبده ورسوله الذى أرسله إلى جنود
الطفيان ففلها، وإلى ليوث^(٢٣) الأوثان فأذلها، صلى الله تعالى^(٢٤)

= وإذا ما السقام حل بقلبي

لم أجده غيره لسقامي طبيبياً

(١٨) فى (ت): «بشباتها، وحلها». وفى (ج): «بشتاها». وفى (ط): «فظفر بشفاها». وفى مثل هذا المعنى
يقول يحيى بن معاذ الرازى:

يقولون يحيى بن من بعد صحة

ولا يعلم المذال مما حشائيا

إذا كان داء المرء حب ملىكه

فمن غيره يرجو طبيباً مداوياً

(نشأة التصوف الإسلامى ٢٠٣ دكتور بسيونى)

(١٩) فى (ط): «وتخاطبها» وفى (ج): «وتخطبها شفاهاً ومن جلها» والصحيح ما أثبت.
وفى مثل هذا المعنى تقول رابعة:

إني جعلتك فى الفؤاد محدثي

وايسحت جسمي من اراد جلىوسى

(٢٠) فى (ط): «إلى جوده» وفى (ج): «إلى وجوده على دلها» وفى (م): «التي جود على دلها» وجميع ما
سبق تحريف وتصحيح. والصحيح ما أثبت. ويؤكد قول يحيى بن معاذ الرازى ٢٥٨هـ: «اللهم إني
أتقرب إليك، وبك أدل عليك (اللمع: ٢٢١). وقيل لذى التون المصرى: بم عرفت ربك؟ قال عرفت
ربى برى ولولا ربي ما عرفت ربي (الرسالة القشيرية ١٤٢).
ولا فمتى غاب الحق تعالى حتى يحتاج إلى دليل يدل عليه، ومتى بعد حتى تكون الآثار هي التي
توصل إليه؟

عجبت لمن يبنى عليك شهادة

وانت الذى أشهدته كل مشهد

(٢١) فى (ت): «فاهتزت» وفى (ج): «فأهدت إلى ويلها» وفى (م): «فهدت» وفى (س): «فاهتدت إلى
ويلها» وما أثبت من (ط) وهو الصحيح.

(٢٢) فى سائر النسخ: «محمداً» وما أثبت من (ت).

(٢٣) فى (ج): «يوم ليوث». وهو تحريف.

(٢٤) فى سائر النسخ: «صلى الله عليه» وما أثبت من (ط).

عليه وعلى آله وأصحابه صلاة دائمة^(٢٥) إلى يوم^(٢٦) تضع كل ذات حمل حملها، وبعد:

فإن النحو عبارة عن القصد، والناس مختلفون في المقاصد، ومفترقون^(٢٧) في المصادر والموارد^(٢٨)، فواحد تقويم لسانه مبلغ علمه، وواحد تقويم جناحه أكثر همه. فالأول صاحب عبارة، والثاني صاحب إشارة، فنقول وبالله التوفيق ونرسله التصديق.

باب أقسام الكلام

قال أهل العبارة: أقسام^(٢٩) الكلام ثلاثة: اسم وفعل وحرف، وقال أهل^(٣٠) الإشارة: الأصول ثلاثة. أقوال وأفعال وأحوال، فالأقوال: هي العلوم وهي مقدمة^(٣١) على العمل لقوله^(٣٢) ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله. فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها»^(٣٣) ثم تجب المبادرة إلى صالح الأعمال^(٣٤)، ثم تأتي الأحوال مواهب من الله تعالى^(٣٥).

(٢٥) في سائر النسخ: «دائمة» وفي (ت): «دائمة».

(٢٦) في (ج): «أن تضع».

(٢٧) في (ط م س): «ومفترقون» وفي (ت): «ومفترقون».

(٢٨) في (ط ج م): المصادر والموارد وفي (ت): «الموارد والمصادر».

(٢٩) في (م): «الكلم».

(٣٠) في (م): «أصحاب».

(٣١) في (ت): «متقدمة».

(٣٢) في (م): «لقوله ﷺ» وفي سائر النسخ: «قال النبي ﷺ».

(٣٣) انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج ١ باب.. فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم. والحديث عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله». والحديث متواتر، وأصل من أصول الإسلام: انظر:

السراج المنير شرح الجامع الصغير ١/٢٩٧.

(٣٤) (ت): «ثم تجيء المعارف إلى صاحب الأعمال وفي (س) «إصلاح الأعمال» وما أثبتته هو من سائر النسخ.

(٣٥) في (ت): «تعالى» ساقطة. وبمدها: «والله الموفق للسداد» زيادة من (ت).

باب الأسماء واشتقاقها

قال أهل (٢٦) العبارة: الاسم مشتق من السمو أو من السمة على الخلاف. وقال أهل الإشارة: اسم العبد: ما وسمه الله تعالى (٢٧) به في سابق مشيئته من شقاوة (٢٨) وسعادة، فمن قربه (٢٩) في سابق مشيئته، فقد سما قدره بين بريته.

ولما دخل (٤٠) العبيد إلى مكتب التعليل طالع آدم لوح الوجود (٤١) فقرأ «وعلم آدم الأسماء (٤٢) كلها» وطالع

(٢٦) في (ه ط): «قال أهل العبارة: ساقطة.

(٢٧) في (ت): «تعالى به» ساقطة، وفي (س): «تعالى في».

(٢٨) في (م ض ج س): «سعادة، وشقاوة».

(٢٩) في (ت): «من قربه»، والصواب ما أثبتته من سائر النسخ، يقول أبو عبد الله المغربي ٢٩٩هـ: «إنما

تصح العبودية لمن أفنى مراداته، وقام بمراد سيده، يكون اسمه ما سمي به، ونعته ما حل به، إذا

سمى باسم أجاب عن العبودية، فلا اسم له ولا رسم، لا يجيب إلا لمن يدعو بعبودية سيده:

لا تدعني إلا «بيبا عبيدها»

فإنه صدق اسمي

ولاحظ قوله سبحانه في وصف نبيه ليلة المعراج: «وكان أشرف أوقاتة في الدنيا» سبحانه الذي

أسرى عبده... الرسالة: باب العبودية.

(٤٠) «إلى» ساقطة من (ط م). ويشهر التشيخي بهذا إلى (فكرة الميثاق) وهي التي وردت في سورة

الأعراف آية ١٧٢: «وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست

بربكم قالوا بلى شهدنا... فالميثاق أخذ على الخلق، وكانت الأنفس واعية بذواتها، حاضرة بقولها،

ورعت خطاب الخالق الأعظم، وأجابت النداء طائعة وهي في مرحلة النور وقبل أن تكون أعيانا،

فالميثاق مشهد حقيقي. بل إن بعض الصوفية يتذكر هذا اللقاء الرباني، ويذكر صورته ومشهده،

وهذا سهل ابن عبد الله التستري رحمه الله يقول: «أعرف تلامذتي من يوم: «ألست بربكم»، وأعرف من

كان في ذلك الموقف عن يميني ومن كان عن شمالي... طبقات الشمراني ١٥٨/١ وانظر تفسيرات

أخرى للآية الكريمة في: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للقاضي البيضاوي وحاشية الخطيب المشهور

بالكازروني، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسي.

(٤١) لوح الوجود: الذي به أسماء الموجودات (الماديات).

(٤٢) الآية في سورة البقرة ٣١. ولعلماء العربية آراء تتصل بأصل اللغة ونشأتها ترتبط بالآية الكريمة:

فمن علماء العربية من يرى أن اللغة توقيفية، ومنهم من يرى أنها تواضع واصطلاح، ومنهم من

يرجعها إلى غريزة زود بها في الأصل جميع أفراد النوع الإنساني، وآخرون يذهبون إلى أنها صدرت

عن الأصوات الطبيعية (وإذا أردت مزيداً من التوضيح والأدلة فانظر: دلالة الألفاظ ١١ - ٢٣

للدكتور أنيس، وعلم اللغة ٨٨ فما بعدها د. وافى)، ويعيننا في هذا الموضوع أن نناقش ابن جني =

محمد ﷺ^(٤٢) وسلم لوح الشهود^(٤٤)، فقليل له بلسان الحال: نحن نطلعك^(٤٥) على كل موجود، ثم خوطب بقوله: «اقرأ باسم ربك الذي^(٤٦) خلق» فلما قرأ^(٤٧) وأدب وهذب، قيل يا محمد: قد عرفتنا بالأسماء والصفات فتعرف^(٤٨)، إلينا بالذات «اقرأ^(٤٩) وربك الأكرم» «قل الله^(٥٠) ثم

= حين علل خصوصية تعليم آدم (الأسماء) وحدها، مع أن اللغة تشمل الأفعال والحروف بقوله: «اعتمد ذلك» الله تعالى من حيث كانت الأسماء أقوى التقى الثلاثة ولابد لكل كلام يفيد من الاسم، وقد تستغنى أنجمنة المستقلة عن كل واحد من الحرف والفعل. فلما كانت الأسماء من القوة والأولوية في النفس والرتبة، على ما لا يخفاء به، جاز أن يكتفى بها مع ما هو تال لها (الخصائص ١١/١ فما بعدها) والحق أن مصطلح (الاسم) بهذا المعنى، أي: على أنه قسيه الفعل والحرف لم يظهر في هذا الوقت، إنما ظهر متأخراً زمن النحاة (غالاًسماء) في الآية ليست مصطلحاً نحوياً حتى نرى دفاع ابن جنى لها وإنها هي من (الاسم) أي العلامة سواء كانت سمة أفعال أو أسماء أو حروف. والقشيري ثم يهمل من (الأسماء) في الآية على أنها مصطلح نحوي كما فهم غيره، بدليل أنه فصلها بتونه: «فبين أيدي حروفها ووسم اسمها ورسم فعلها» هذا، ما كان القشيري سنياً أشعرياً فقد كان مع القائلين بالتوقيف في أصل اللغة، وذلك مذهب أهل السنة (المزهر للسيوطي ١٦/١، ٢٥) إلا أنه رأى بعد ذلك أنه يمكن أن تكون مواضعه وأصطلاحاً (المزهر للسيوطي ٢٤/١ ط أحياء الكتب العربية).

(٤٢) في (ط): «تعالى عليه».

(٤٤) والمراد به: الموجودات في مرحلة تدرية (قبل أن تكون أعياناً) وهي تشابه (عالم المثل) عند افلاطون.

(٤٥) في (ط): «نصل بك على ...» وفي (س): «تقريب» وفي (ح): «نظن» وفي (م): «نصف» والصواب ما أثبتته من (ت).

(٤٦) إشارة إلى الربط بين الخلق والتليم والآية ١ من سورة (العلق).

(٤٧) في (ت): «قرأ» وهو تحريف وفي (س): «قرأ»، ومن منهج القشيري: أن معرفة الأسماء والصفات الإلهية ليست معرفة كلامية فحسب، ولكن يجب أن يترتب عليها آداب وسلوك.

(٤٨) في (م): «تتعرف إلينا بالذات» وفي سائر النسخ «تتقرب»، والمعرفة أعلى درجة التحقق. وجلت الصمدية أن يستشرف منها عالم بعلمه، أو واهم بوعمه، أو عارف بمعرفته وكل ما هنالك هو شهود (الفعل) الإلهي لا (الذات) الإلهية. وفي (س) سقط بين هاتين الكلمتين: «بالذات... فلما».

(٤٩) في (ت): «واقرأ» وهو تحريف. والآية ٣ من سورة (العلق).

(٥٠) والآية ٩١ من سورة الأنعام. (الله) اسم الذات. ولقد تفرد جل جلاله بهذا الاسم دون خلقه. وسأل بعضهم لم تقول: الله الله الله، ولا تقول: لا إله إلا الله؟ فقال: نفى العيب (أي نفى عدم الأنوذية عند النطق بالنصف الأول من العبارة لا إله) حيث يستحيل العيب عيباً، ويوضح الشبلي هذا المعنى عندما وجه إليه السؤال نفسه فيقول لا أنفى له ضمناً. فصاح السائل قائلاً: أريد أعلى من ذلك؟ فقال الشبلي: أخشى أن أؤخذ في وحشة الجحد. فسال السائل: أريد أعلى من ذلك؟ فقال =

ذرهم في خوضهم يلعبون». فلما غاب عن الاسم وجد المسمى. ولما أعرض عن الفعل^(٥١) حل الحرف المعنى، أي: المعنى الذي لا يسمى.

فصل

الاسم: صحيح ومعتل. قال أهل^(٥٢) العبارة: الصحيح ما سلم من حروف العلة وهي: الألف والواو والياء، وقال أهل^(٥٣) الإشارة: من^(٥٤) سلم اسمه من ألف الإلباس، وواو^(٥٥) الوسواس وياء^(٥٦) الياس. فقد صح اسمه وحق له الإعراب وهو البيان^(٥٧) ثم الكشف والعيان، فعلم علم

= الشبلى: قل الله... (٩١ سورة الأنعام) فزقق الرجل زعقة خرجت بعدها روحه، فتعلق أولياء الرجل بالشبلى... وحملوه إلى الخليفة، فلما سئل الشبلى في ذلك قال: روح حنت فدننت، ودعيت فأجابت... فما ذنبي؟ فصاح الخليفة، خلوه... فلا ذنب له (انظر التعبير ٢٤ د. بسيوني). وهذا أبو سعيد بن أبي الخير الصوفي يمتكف في إحدى الزوايا ثلاث سنين، عندما شرع في سلوك الطريق، وقد حشا أذنيه بالقطر، وعزف عن النوم، وصار يردد دائماً: الله الله! حتى استجابت أبواب الزاوية لهذا الترديد (انظر: مذاهب التفسير الإسلامي ٢٨٤) للمستشرق أجنتس جولد تسهر ترجمة د. عبد الحنيه اتجار. على أن النداء الحبيب إلى قلوب الصوفية اسم (الله).

(٥١) وهي (س): عن الفعل في الحرف المعنى رأى». وفي (ت) «العقل» وفي سائر النسخ «الفعل» وهو الصحيح. والجملة مضطربة اضطراباً شديداً ومعناها كما نظن والله أعلم «لما فتى محمد ﷺ عن نفسه، بقى بالحق ولما غاب عن عمله (بشريته) حل الحرف المعنى (يعنى شاهد الذات). وهذا المعنى هو نفس (الفرق والجمع) عند الصوفية، وفي هذا الصدد ينقل القشيري عن شيخه الدقاق قوله (لما دخل الواسطي نيسابور سأل أصحاب أبي عثمان: بماذا كان يأمركم شيخكم؟ فقالوا: كان يأمرنا بالتزام الطاعات (ورؤية) التقصير فيها! فقال: أمركم بالمجوسية المحضة هلا أمركم (بالغيبه) عنها (برؤية) منشيها ومجريها؟ (الرسالة التشريعية ٢٢).

(٥٢) في (ط ج م س) ساقطة.

(٥٣) في (ط ج م س) ساقطة. وأثبت ما في (ت).

(٥٤) في (ط م س): «فمن».

(٥٥) في (ج) ساقطة.

(٥٦) في (م): «الاياس».

(٥٧) في (ج): «وهي».

اليقين، ثم عَيَّنَ^(٥٨) اليقين، ثم حق^(*) اليقين، والله أعلم^(٥٩).

باب موانع الصرف

موانع^(٦٠) الصرف عند أهل العبارة: تسع وهى معروفة^(٦١)، وعند أهل الإشارة (الجمع) . أن يجتنب العالم جمع^(٦٢) الدنيا واجتماع الناس عليه. (والصرف)^(٦٣) صرف وجوههم إليه. (والوصف) أن يكون قصده أن يوصف بالخير ويعرف^(٦٤) به. (والتأنيث) ضعف العزم، والرضى^(٦٥) بالردائل^(٦٦). (والمعرفة) أن يعرف نعم الله تعالى عليه ثم يقصر^(٦٧) عن الشكر.

(٥٨) فى (ط ت) ساقطة، وأثبتها من (م) ومن لطائف الإشارات ١٩٥/٦ . وكذلك الرسالة القشيرية ص

٤٤ . (والبيان) فى مذهب القشيري المرفى: مرحلة قلبية وليست عقلية، وترتيب القشيري هكذا:

(١) عقلية: ونورها البرهان أو علم اليقين.

(٢) قلبية: ونورها البيان أو عين اليقين.

(٣) كشفية: ونورها العرفان أو حق اليقين.

انظر: اللطائف ٢١٢/١ مع المحقق، ١٩٥/٦ والرسالة القشيرية ٤٤، ٨٢.

وهذا الترتيب يكشف عن الدقائق النفسية المرتبطة بكل مرحلة. والتوحيد . فى نظر القشيري . وهو أعلى درجات العرفان.

(*) فى (س) «حرف» وهو تحريف.

(٥٩) ساقطة من (ط م س).

(٦٠) فى (ط): «الموانع عند أهل العبارة» وفى (م): «موانعه عند أهل العبارة تسعة» وأثبت ما فى (س) «تسع» وهو الصحيح، لأن موانع جمع مانعة.

(٦١) ساقطة من (م).

(٦٢) فى (ت): «عند جمع» وفى (ط م): «جمع الدنيا».

(٦٣) فى (م): «والصرف صرف...» وفى سائر النسخ: «وصرف».

(٦٤) وذلك من دعوى النفس، والنفس محل العلوات، ونظرة الإنسان إلى عمله وإعطاء هذا العمل قيمة . من قبيل دعوى النفس، ويرى أبو عثمان المغربي: أن إخلاص الخواص . هو ما يجرى عليهم لا بهم. فتبدو منهم الطاعات وهم عنها بمعزل. ولا يقع لهم عليها رؤية.

(٦٥) فى (م): «والرضا».

(٦٦) فى (ط): «بالردائل».

(٦٧) فى (م): «نعمة الله تعالى عليه» وفى (ت): «ثم نقصه» وفى (ط ج) «يقصر» وهو ما أثبتته، وفى

(م): «ثم يقصر عن الشكر» ساقطة. (والمعنى) أن الجاحد لا يشكر لأنه لا يعرف، والعارف يشكر،

فإذا عرف ولم يشكر يكون مصاباً بالعلة . وهى تساوى فى النحو (الظاهرى) منع الصرف. وعوام

المتوكلين إذا أعطوا شكروا، وإذا منعوا صبروا، وخواصهم إذا أعطوا أثروا، وإذا منعوا شكروا

(اللطائف: ٢١٧/٤). وكثير من يشكر على نعم المنح، ويقل من يشكر على نعم الدفع.

(والعجمة) أن يهمل^(٦٨) نعمة الله بكتمان علمه. (والعدل) عدوله^(٦٩) عن الطريق القويم. (والتركيب) أن يشوب * عمله^(٧٠) بأفعال الجهل^(٧١) (والأنف) ألف أنا، (والنون) نون العظمة^(٧٢). (ووزن الفعل) أن يزن أعماله^(٧٣) معتقداً أن عنده^(٧٤). حاصلًا فيحصل العجب. فمتى اجتمعت علتان من هذه العلل لم ينصرف إلى القبول، وانحرف عن باب الوصول.

(٦٨) في (م): «والعجمة أن يهمل نعمة الله» ساقطة. وفي (ط ج): «أن يذكر» وفي (س): «ينكر» بدل: «أن يهمل» وما أثبتته من (ت). وفي (س): «الله عليه» بزيادة «عليه».

(٦٩) في (ت): «عدول» وفي سائر النسخ: «عدوله» وهو ما أثبتته. والعدل في نحو العبارة. علة فرعية بمعنى أن المعدول فرع عنه. والعدل: على خلاف القياس، وذلك: كمر. فهو معدول عن (عامر) اسم فاعل من الصفات، فلما قصدوا التسمية به، وجعله علماً خيف انتباس العلم بالصفة، لأن الصيغة فيهما واحدة. فعدلوا عنه إلى عمر، فاعدل: في (نحو العبارة). تغيير صفة اللفظ، وفي (نحو الإشارة) عدول عن الطريق القويم والتشابه واضع.

(*) في (س): «يشوق» وهو تحريف.

(٧٠) في (ت): «علمه».

(٧١) في (ت): «الجحد» وفي سائر النسخ: «الجهل» وهو ما أثبتته.

(٧٢) في (ت): «نون نحن» وفي (س): «والنون العظمة» وفي سائر النسخ: «يزن العظمة» وهو ما أثبتته. ويشير القشيري إلى معنى «قيق» وهو أن (الألف والنون) يعنعان الاسم من الصرف في (نحو العبارة) في مثل: عثمان وعطشان. وفي (نحو الإشارة) ألف ونون أيضاً. وهما يعنعان العبد من (الوصول) إذا قال: (أنا) وذلك نقص في التوحيد عندهم، والمفروض أن تفنى من ذاتك (أنيتك) فلا تقل: زنى وزنى، وصحة التوحيد عند الصوفية في سقوط الإضافات فلا تقل: نى. بى. منى. (اللطائف ١/ ٢٤٥، ٧٦/٢). يوضح هذا المعنى ما قرأته في مكان لا أذكره الآن من اللطائف من أن جابر بن عبد الله استأذن في اندخول على الرسول ﷺ فقال الرسول: من الطارق؟ فقال: أنا جابر، فقال الرسول ﷺ: أنا أنا. وكان الرسول استكثر تنبيهه أن يقول: أنا. ويمكن أن يقف في سبيل ذلك ما جاء على لسان الرسول الكريم حين قال: «قال: إني أنا النذير المبين» ولكن يزول هذا الشك إذا أن الرسول عندما قال ذلك كان مع الله وله وبه، فإنها عن شاهده. يقول الإمام القشيري في اللطائف ١٠/٢: كيف يكون من يقول (أنا) كمن يقول (أنت)؟ وأنشدوا:

واحببنا شتان: واف ونافق

ولا يستوى قط محب وبغض

(٧٣) في (م): «أفعاله».

(٧٤) في (ت): «أنه عند الله حاصل» وفي سائر النسخ: «أن عنده حاصلًا» وهو ما أثبتته.

«باب الإعراب»^(٧٥) والبناء»

لما كان الإعراب بالحركات الثلاث: الرفع والنصب^(٧٦) والجر. والجزم.

(٧٥) في (ج): «والبناء» وفي (ت): «والبناء».

(٧٦) في (م): «الرفع والنصب والجر» وفي باقي النسخ ساقطة.

ويمكن أن يكون التغيير الواقع على القلب بسبب العوامل الداخلة عليه من الغيب من: الهامات وواردات وخواطر يعقب بعضها بعضاً أشبه بالتغيير في أواخر الكلم اللسانية بسبب العوامل الداخلة عليه لفظاً أو تقديرًا، وهذه عوامل لسانية، وتلك عوامل قلبية. والتغيير في نحو النسان في الرفع والنصب والخفض والجزم، فالرفع طرف، والخفض طرف، والنصب واسطة بين الطرفين، وانجزم صالح للطرفين معاً، فالرفع: إشارة إلى الخاطر المحدود وهو قسمان: رحمانى وملكى، والخفض: إشارة إلى الخاطر المذموم وهو قسمان: نفسانى وشيطانى. والنصب: واسطة بين المحمود والمذموم، وما أشبهه في النحو الظاهرى بالفتحة وهى الحركة الخفيفة المستحبة عند العرب. يقول الدكتور إبراهيم بسيونى ٧٧ فى كتابه: الإمام القشيري «فالفتحة يمكن أن توصف بأنها وسط بين طرفين: الرفع والخفض، أو بين موجب وسالب، وهى بهذا التوسط يمكن أن تكون توقفاً عن الحركة، ولا أغالى إذا فسرتها على أساس ما نعرف فى الميكانيكا، من توقف الجسم عن الحركة إذا وقع تحت جذب قوتين متساويتين، ومتضادتين فى الاتجاه». والحركات الإعرابية الثلاث يقابلها ثلاث حقائق. شريعة وطريقة وحقيقة. ويروى الصوفية قول الرسول ﷺ: «الشريعة مقالى، والطريقة فعالى. والحقيقة حالى».

وقد اختلف علماء العربية فى (عوامل) الرفع والنصب والجر والجزم إلى فرق:

(أ) فبعضهم يراها عوامل فلسفية، ومن هؤلاء سيبويه حيث يقول فى (الكتاب ٢/١): «وانما ذكرت لك ثمانية مجار لا فرق بين ما يدخله ضرب من هذه الأربعة لما يحدث فيه العامل وليس شيء منها إلا وهو يزول عنه، وبين ما يبنى عليه الحرف بناء لا يزول عنه لغير شيء أحدث ذلك فيه».

فسيبويه يرى أن العامل هو أساس التفرقة بين القاب الإعراب والقاب البناء. ولا شك أنه تأثر بهذا الاتجاه من علماء الفلسفة والكلام، إذ إن الانقراض لها قوة فى إحداث الإعراب عنده، ومذهب سيبويه هو مذهب البصريين والجمهور.

(ب) وبعضهم يرى أن العامل إنما هو المتكلم نفسه لا لشيء غيره كالفعل وما حمل عليه، وعلى رأس هؤلاء ابن جنى فى كتابه الخصائص ١٠٩/١ فما بعدها. وإنما نسب العمل إلى الفعل للتقريب والتعليم تيسيراً للعلم ومساعدة للمتعلم، وذهب إلى ذلك الرضا فى شرح الكافية ٢١/١ والأستاذ إبراهيم مصطفى فى كتابه (إحياء النحو) ص ٥٠ فما بعدها.

(ج) وآخرون يرون أنها عوامل لغوية، فالخليل يرى «أن الفتحة والكسرة والضمة زوائد ومن يلحقن الحرف ليوصل إلى التكلم به» الكتاب ٢/٣١٥. كما يذهب قطرب من المتقدمين والدكتور إبراهيم أنيس من المحدثين إلى أن الحركات الإعرابية لم تكن تعيد تلك المعانى التى أشار إليها النحاة من الفاعلية والمفعولية ونحو ذلك: انظر الإيضاح للزجاجى ص ٦٩ فما بعدها، والأشبهه والنظائر للسيوطى ٨٦/١ وإنما الذى دعا إلى هذه الحركات نظام المقاطع فى الكلام، وأن =

كان مدار أهل^(٧٧) الإشارة برفع^(٧٨) همهم إلى الله تعالى، ونصب أبدانهم في طاعة الله تعالى، وخفض^(٧٩) نفوسهم تواضعاً لله تعالى^(٨٠)،

= انذى يعين الحركة هو أحد عاملين:

(١) طبيعة الصوت المحرك.

(٢) وانسجام الحركة مع ما يكتنفها من حركات أخرى (من أسرار اللغة ١٧٦ - ١٨٤ دكتور أنيس: ط الأنجلو).

(د) ويراه ابن مضاء القرطبي عوامل توفيقية حيث يقول في كتاب الرد على النحاة ص ٨٧: «وأما مذهب أهل الحق فإن هذه الأصوات (يقصد الحركات الإعرابية) إنما هي من فعل الله تعالى، ويرى بأن مذهب القائلين ب: أن الألفاظ يحدث بعضها بعضاً باطل عقلاً وشرعاً كما خطأ النحاة في قولهم بالعوامل المضمرة، لأن نسبة العمل إلى معدوم على الإطلاق محال، كما بين فساد رأى سيبويه السابق. ولقد كان ابن مضاء مدفوعاً في آرائه في العمل باتجاهات دينية وسياسية.

(هـ) وقد نقد الدكتور تمام في كتابه اللغة بين المعيارية والوصفية ص ٥١ رأى ابن جنى وغيره ممن قالوا بالتوقيف، ومال إلى أن اللغة ظاهرة اجتماعية... فإذا كان الفاعل مرفوعاً في النحو فلأن العرف ربط بين فكرتي الفاعلية والرفع دون ما سبب منطقي واضح وكان من الجائز جداً أن يكون الفاعل منصوباً والمفعول مرفوعاً لو أن المصادفة العرفية لم تجر على النحو الذي جرت عليه... فقد جاءت الحركة الإعرابية في نمطية اللغة على هذه الصورة، لأن العرف ارتضاها... والحقيقة ألا عامل.

(و) ما سبق من آراء القدماء يعتبر انعكاساً لعلم الكلام. فالجهمية: يرون أن الله هو الفاعل لكل شيء، والمعتزلة ينسبون ذلك إلى الإنسان فهو الذي يفعل ما يريد بقدراته. والأشاعرة والماتريدية: يذهبون إلى أن في العمل الإنساني الإرادة التقاء قدرات وإرادات بيد الله والإنسان دون تناف بين قدرة الله و قدرة الإنسان.

فموقف ابن مضاء ليس إلا صدى لمذهب الجهمية، وموقف جمهور النحاة صدى لمذهب المعتزلة والقدرية. أما موقف ابن جنى فهو يحاكي بتوسطه موقف متأخرى المتكلمين من أشاعرة وماتريدية: تقويم الفكر النحوي ٢٤١ د. على أبو المكارم.

أما القشيري فيرى أن الله خالق الناس وأفعالهم وأكسابهم.

(٧٧) في (م): «أهل» وفي باقي النسخ ساقطة وقد أثبت ما في (م).

(٧٨) في (ت): «يرفع للوهم» وفي سائر النسخ: «يرفع همهم إلى الله تعالى» وهو ما أثبت.

(٧٩) في (ج): «وحفظ» وسائر النسخ: «وخفض» وهو الصحيح لمناسبته للرفع والنصب.

(٨٠) في (ج س) ساقطة. وكذلك سقطت كلمة «تعالى» من وراء لفظ الجلالة أربع مرات قبلها. ولاحظ دقة القشيري في التعبير والمصطلح (خفض نفوسهم وجزم قلوبهم) لأن النفس محل المعلولات، والقلب محل المحمودات فيجب أن يكون بعيداً عن الغير والسوى. والإشارة ب (نصب أبدانهم) إلى جريان أحكام المقادير من غير أن يكون للعبد اختيار، ولا له فيما هو به إيثار. (وسكونهم) تحت جريان أحكام الحقيقة من غير إخلال شيء من آداب الشريعة. (وجزم قلوبهم) بقطع العلائق وحذف العوائق، وبتر خطرات المنى وأعناق المطالب بسيف اليأس.

وجزم قلوبهم عما دون الله تعالى، وسكونهم إلى الله تعالى. والمعرّب، هو المتغير^(٨١) من أصحاب التلوين^(٨٢)، والمبنى^(٨٣): ما كان مستقيماً في حالة^(٨٤) لا يتغير وهم أصحاب التمكين^(٨٥).

فصل

الأسماء: معارف ونكرات، وكذلك العباد منهم معروف، له نصيب مع القوم هو به معروف^(*)، ومقام في الصدق هو به موصوف، ومنهم منكر لا نصيب له مع القوم، ولا حظ له سوى الأكل والنوم.

فصل

المبتدأ: مرفوع لتجرده عن العوامل اللفظية، والفقير المتجرد مرفوع القدر، وخبره مرفوع، لانقطاعه عن العلائق^(٨٦)، وتعلقه بالحقائق، الواردة من الخالق^(٨٧).

(٨١) في (ت): «المعنى» وفي (ن): «المقبر» وفي (ج): «المقرب» وفي (م): «التمين» والجميع محرف، وما أثبتته من (ط) هو الصحيح.

(٨٢) في (ط): «التكوين» وسائر النسخ: «التلوين» وهو الصحيح الذي أثبتته، لأنه مصطلح معروف عند الصوفية وهو: صفة أرباب الأحوال، وما دام العبد في الطريق فهو صاحب تلوين، لأنه يرتقى من حال إلى حال وينتقل من وصف إلى وصف (انظر الرسالة القشيرية ص ٤١). وقد شبه القشيري «المعرّب» في نحو اللسان وهو: المتغير بحسب العوامل بصاحب (التلوين) في اصطلاح الصوفية.

(٨٣) في (ط): «والمبنى منه كان».

(٨٤) في (ط ج): «في حالة».

(٨٥) في (ن): «التملين» وفي (ج): «اليمين» وكلاهما محرف، لأن (التمكين) مصطلح صوفي وهو: صفة أهل الحقائق، وصاحب التمكين وصل ثم اتصل، ودليل اتصاله أنه بالكلية عن كليته بطل (انظر الرسالة القشيرية ص ٤١). وصاحب (التمكين) في التصوف أشبه (بالمبنى) في نحو اللسان، إذ الثبات وعدم التغير في السراء والضراء من علامات التمكين، وسادات الوقت هم أهل التمكين، قال بعض المشايخ: «انتهى سفر الطالبين إلى الظفر بنفوسهم فإذا ظفروا بنفوسهم فقد وصلوا» (الرسالة القشيرية ٤١).

(*) في (س): «معرف» وفي سائر النسخ «معروف».

(٨٦) في (ت، ط): «العلايق، بالحقائق» وبألفهمزة في (م). ويقول القشيري في اللطائف ١/١٤٩ (فأذكروني) بقطع العلائق (أذكركم) بنعت الحقائق».

(٨٧) زيادة في (م). والقشيري يرى أن (المبتدأ) متجرد عن سوابق تجميعه مرتبطاً بعلاقة خارجية عن ذاته، وفي ذلك إشارة إلى الوجود المطلق، وإيجاده للخلق من علامات (رفعه) وتقديسه، فهو الاسم المرفوع الذي برفعه رفع كل مرفوع.

فصل

الأفعال ثلاثة: ماض وحال ومستقبل، وأحوال القوم مختلفة: فمنهم من فكرته في السابقة، ومنهم من فكرته في الخاتمة، ومنهم من اشتغل بإصلاح وقته الذي هو فيه^(٨٨)، عن الفكرة في مستقبله وماضيه.

فصل

وفعل^(٨٩) الحال: مرفوع ما لم يدخل عليه ناصب أو جازم، فالناصب رؤية^(٩٠) العبد لفعله، والجازم فترته عن سلوكه، فإذا^(*) سلم العبد من الملاحظة^(٩١) والفتور، ارتفع قدره عند العزيز^(٩٢) الغفور «إليه يصعد»^(٩٣) الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه.

فصل

الفاعل مرفوع، والمفعول منصوب، فلما رأى العارف ألا فاعل^(٩٤)

(٨٨) زيادة في (ط م ج). ويرى القشيري أن الصوفي مشتغل بما هو أولى به في الحال. قائم بما هو مطالب به في الحين. فالصوفي ابن وقته. وقيل: الصوفي من لا ماض له ولا مستقبل، فهو مشغول بشهود الحق عن مراعاة جميع الأوقات. فالزمن عندهم مجرد من النسبية التي جردوا أنفسهم منها. سئل أبو يزيد: كيف أصبحت؟ قال: لا صباح ولا مساء! يشير إلى أنه غير مطلع على الأوقات، بل مستغرق في شهود الموقت، كما تلاشت أبعاد المكان عندهم أيضاً. (انظر التعبير ص ٥١، والرسالة القشيرية ٣١ واللطائف ٦/١٣٣).

(٨٩) في (ت) ساقطة والتصحيح من سائر النسخ.

(٩٠) في (ت) بدون همز.

(*) في (س): «فان».

(٩١) في (ت): «الملاحظة» وهو تحريف والصحيح ما أثبتته من سائر النسخ ومن اللطائف ٨٧/٢، ١٠٦/٢، ٨٧/٤. ويرى القشيري أن (ملاحظة) الأعمال واستكثارها من أخطر دعاوى النفس. ومثلها مصطلح (المساكنة) وهما من آفات الطريق، بل يرى أن خيانة الأحوال تكون (بالملاحظة) والإعجاب والمساكنة، ثم يقول: «واخفاها: «الملاحظة». يقول القشيري في اللطائف ٨٧/٤ عند تفسير قول الحق تبارك وتعالى: «قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً» بأنهم الذين يلاحظون أعمالهم، وما منهم بعين الاستكثار.

(٩٢) ساقطة من (ت) وموجودة في سائر النسخ.

(٩٣) في (م): «الذي إليه».

(٩٤) في (ت): «أن لا عارف» وفي سائر النسخ: «أن لا فاعل» وهو الصحيح الذي أثبتته، لأن المعرفة قابلة للنقص والزيادة.

إلا الله تعالى^(٩٥) عظم قدره، ورفع ذكره، وخضع لجلاله، وتواضع عند شهود كماله، ورأى نفسه مفعولاً فانتصب لعبادته «فإذا فرغت فانصب، وإلى ربك فارغب»^(٩٦).

فصل

الحال: وصف هيئة الفاعل والمفعول، ومن شرطه أن يكون نكرة منصوبة^(٩٧)، فالعارف^(٩٨) متوجه إلى الله تعالى^(٩٩) في إصلاح حاله، مجتهد في تكثير^(١٠٠) نفسه كي لا يُعرف^(١٠١)، فأحواله مع الله مستقيمة منتصبة^(١٠٢)، وهي بستر التورية^(١٠٣). والنكرة محتجبة «يحسبهم الجاهل أغنياء»^(١٠٤) من التعفف.

فصل

التمييز: تفسير ما أبهم^(١٠٥)، وتبيين ما لم يكن يفهم، فالقوم بالعلم

(٩٥) زيادة من (م).

(٩٦) آية ٧، ٨ من سورة (الشرح).

(٩٧) زيادة من (م).

(٩٨) يعرف القشيري (العارف) بأنه: كائن بائن، كائن مع الناس بظاهره، بائن عن جميع الخلق بسرائره. والمعرفة: تقتضي استصغار الأقدار سوى قدره، ومحو الأذكار سوى ذكره، فإن نطق نطق بالله، وإن سكت سكت به. (انظر التعبير ٢٢ وفيه يوضح القشيري منهج العارفين ودستورهم).

ولا يعرف الله سبحانه إلا من تعرف الله إليه (التعرف للكلاي ٢٧).

(٩٩) في (س): سقطت «تعالى» من وراء لفظ الجلالة.

(١٠٠) في (ط م): «تكرها» وفي (ج): «تكرها» وما أثبتته من (ت).

(١٠١) في (ج م): «حتى لا تعرف» وما أثبتته من (ت).

(١٠٢) في (ط): «منقضية» وفي (م): «منتهية» وفي س «منتهية» وما أثبتته من (ت) إذ (النصب) من علامة (الحال).

(١٠٣) في (م ط ج س): بستر «التورية». وهو الصحيح وفي بقية النسخ: «وهي تستر الرؤية».

(١٠٤) في (ت): «أغنيا» وفي سائر النسخ: «أغنيا»، والآية ٢٧٣ سورة البقرة.

(١٠٥) في (م س): «وما أنبهم».

ميزوا الحق من الباطل، وتبين^(١٠٦) لهم بالسلوك^(١٠٧) الحال^(١٠٨) من العاقل. ولا يكون التمييز إلا بعد تمام الكلام، وكذلك^(١٠٩) تفقهوا ثم اعتزلوا^(١١٠)، وأحكموا العلم ثم تميزوا، فلما تمت لهم رتبة التمييز، نصبهم الله تعالى^(١١١) لإصلاح عباده، وميزهم فاستخلصهم^(١١٢) لوداده، قال الله تعالى «ليميز^(١١٣) الله الخبيث من الطيب».

باب البدل

البدل: على أربعة أقسام، بدل الكل من الكل. وهو بدل العارفين، تركوا الكل فعوضهم الكل^(١١٤) «وجوه يومئذ^(١١٥) ناضرة، إلى ربها ناظرة» شعر:

-
- (١٠٦) في (ت): «وشب بهم» وفي سائر النسخ: «وتبين لهم» وهو الصحيح الذي أثبتته.
- (١٠٧) في (م س): «بالسكوت» وهو تحريف، والصحيح ما في سائر النسخ: «بالسلوك».
- (١٠٨) في (ت): «الحالي» بنقطة فوق الحاء، وفي سائر النسخ: «الحالي» بالحاء المهملة وهو الصحيح الذي أثبتته.
- (١٠٩) في (ت س): «ولذلك قيل تفقهوا». وفي سائر النسخ: «وكذلك تفقهوا، وهو ما أثبتته.
- (١١٠) لا يريد القشيري من العزلة: الهرب من المجتمع، والانقطاع للعبادة وترك الدنيا، وإنما يريد العزلة الروحية حيث تعزل نفسك لحاسبتها وتقويمها.
- (١١١) زيادة من (م).
- (١١٢) في (م): «فاستخلصهم وما أثبتته من سائر النسخ».
- (١١٣) ساقطة من (ج). والآية ٢٧ من سورة الأنفال.
- (١١٤) في (ت س): «لمن له الكل» وفي سائر النسخ: «فعوضهم الكل» وهو ما أثبتته وكلاهما صحيح. قال الأزهري: أجاز النحويون إدخال الألف واللام على بعض وكل، إلا الأصمعي فإنه امتنع من ذلك لأنهما معرفتان فلا تدخلهما الألف واللام، لأنهما في نية الإضافة (انظر: الخلاف في المعاجم وكتب النحو) ويمكن أن نجد أنموذجاً لمن ترك الكل فعوضه الله الكل. في (إبراهيم بن أدهم) حين خلع ثوب الإمارة ورمى به بعيداً، وبدله بأطمار سائل وغادر قصره وهجر العالم وأثر أن يأكل من عمل يده فعمل بستانها فحماً لأفراعياً، وكان يقول: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من السرور والنعيم إذا لجالدونا على ما نحن فيه من لذة العيش وقلة التمتع (الحلية ٣٧٠/٧).
- (١١٥) في (ت): «يومئذ». والآية ٢٢. ٢٣ من سورة القيامة.

قلوب العارفين لها عيون ترى ما لا يراه الناظرون^(١١٦)

وأجنحة تطير بغير ريش إلى ملكوت رب العالمينا

وبدل البعض: بدل العابدين^(١١٧)، بدلوا^(*) بالمعاصي الطاعات^(١١٨)،
وبدلوا باللذات المجاهدات «فأولئك»^(١١٩) يبدل الله سيئاتهم حسنات. وبدل
الاشتغال^(١٢٠): لقوم^(*) اشتملت أعمالهم على خوف ورجاء^(١٢١)
فأعطوا^(١٢٢) ما يرجون، وأمنوا مما يخافون «ألا إن أولياء الله لا خوف
عليهم ولا هم يحزنون»^(١٢٣).

وبدل الغلط^(١٢٤): بدل المطرودين، باعوا نصيبهم من القرب^(*) بحظوظ
عاجلة^(١٢٥) «بئس^(١٢٦) للظالمين بدلاً».

(١١٦) هذا الشعر ورد في (ط) دون بقية النسخ وهو: لميمونة السوداء (عقلاء المجانين للنيسابوري
ترجمة ميمونة). وفي الشعر تلمح أن امتلاء القلب بالمعرفة وقف على امتلائه بالحب.

(١١٧) في (م): «العارفين العابدين» وفي سائر النسخ: «العبادين» وهو الصحيح الذي أثبتته، لأن بدل
(الكل من الكل) هو: بدل العارفين. والمناداة صفة (العبادين) والمناداة نعت (الواجدين) كما أن
(المناداة) تكون على الباب، و (المناداة) تكون على بساط القلوب.

(*) في (س) سقطت كلمة «بدلوا».

(١١٨) هذه العبارة وردت مضطربة في النسخ ففي (ط): «واللذات بالمجاهدات» وفي (ج): «بالطاعات
في اللذة بالمجاهدات» وفي (م): «واللذة بالمجاهدة» وصحتها كما أراه: (بدلوا بالمعاصي الطاعات،
وبدلوا باللذات المجاهدات) لأن الباء تدخل في العربية على المتروك. انظر كتب النحو المطولة،
ومعجم الفاظ القرآن الكريم: مجمع اللغة العربية (بدل).

(١١٩) في (ت): «أوليك» وسائر النسخ: «أولئك» وهو تحريف. والآية الكريمة: «فأولئك» ٧٠ من سورة
الفرقان.

(١٢٠) في (ت): «اشتغال».

(*) في سائر النسخ: قوم وفي (س): «لقوم».

(١٢١) في (ت): «ورجا».

(١٢٢) في (ت): «فأعطوا».

(١٢٣) في (ت) الآية الكريمة خالية من الهمزات، وهي في سورة يونس آية ٦٢.

(١٢٤) بدل الغلط المعروف في النحو. لا يرد في القرآن الكريم لاستحالة الغلط على الله.

(*) في (س): «الفوت».

(١٢٥) في (ت): «عاضلة» وهو تحريف والصحيح ما أثبتته من (ط ج).

(١٢٦) في (ت): «بئس» والآية ٥٠ من سورة الكهف.

فصل

النعمة: تابع للمنعوت، والوصف تابع للموصوف، كذلك أعمال العبد لا تفارقه^(١٢٧)، وما حصل من خير أو شر^(١٢٨) فهو لاحقه.

فصل

حروف العطف تتبع^(١٢٩) الآخر الأول، وأهل الإشارة توسلوا^(١٣٠) إلى الله تعالى^(١٣١) في العطف عليهم، واللفظ بهم، ليلحقهم بأهل قربه، ويجعلهم من حزيه.

فصل^(١٣٢)

التوكيد: هو التحقيق، والقوم أكدوا إيمانهم بالتصديق، وعقدتهم مع الله بالتوثيق^(١٣٣). وشمروا في ملازمة الطريق.

(١٢٧) في (ط): «لا يفارقه».

(١٢٨) في (ج): «وشره». وكما أن النعمة في (نحو اللسان) تابع للمنعوت في رفعه ونصبه وخفضه وتعريفه وتكثيره فكذلك في (نحو الجنان) يتبع منعوته حيث يلزم مقام العبودية بالمعرفة التي لأجلها خلق، فبالمعرفة يكون تابعا لموصوفه بالتخلق بأخلاقه راضيا بمجاري الأقدار مستسما لها في حالة الخفض متلذذا بها كتلذذه بحالة الرفع، مطيعا في كل الأحوال بكل الجوارح الظاهرة والباطنة:

كيفما دارت الزجاجة درنا

يحسب الجاهلون أننا جنونا

(١٢٩) في (ط): «يتبع». وفي (ج): «هي تتبع».

(١٣٠) في (ج): «توسلوا في العطف» والعطف في (نحو الجنان) لا يتم إلا بالوسيلة وهي الرحمة الإلهية، وكذلك في (نحو اللسان) لا يتم العطف إلا بالحرف، وهي الوسيلة.

(١٣١) في (م): «تعالى» عليهم، ساقطتان.

(١٣٢) فصل التوكيد - ساقط من (م).

(١٣٣) في (ط ج س): «بالتحقيق» وأثبت ما في (ت). ويجب ملاحظة ما بين النحويين: المباري والإشاري، أو نحو القلوب ونحو العقول، أو نحو اللسان ونحو الجنان، ففي (النحو المباري) إذا قلت: جاء محمد، فقد أعطيت المخاطب معنى يعلم به مجيء محمد، وهذه درجة في العلم كافية. ولكن هناك درجة أقوى حين تقول: «نفسه أو عينه»، وكذلك في (النحو الإشاري): فالعارفون بإيمانهم بالله من حيث الشريعة. يتم ويتأكد من حيث الحقيقة بمراحل التصديق والتحقيق. فالإيمان - مرحلة شريعة، والتحقيق والتصديق حقيقة، فالحقيقة مؤكدة الشريعة، وكذلك في نحو العبارة - فالتوكيد فيما سبق قد أكد المعنى وحققه.

فصل

حروف الجر^(١٣٤): تخفض الأسماء^(١٣٥)، فلما علم المحققون أن الأشياء^(١٣٦) بالله، ومن الله، وإلى الله، خفضوا^(*) أنفسهم تراضعاً لله، فتمزروا^(١٣٧) بالإضافة^(١٣٨) إلى جانب^(١٣٩) الله تعالى^(١٤٠)، أولئك^(١٤١) الذين اصطفاهم الله^(١٤٢) لقربه^(١٤٣) وجعلهم^(*) من حزيه، نسأل الله العظيم أن يجعلنا^(١٤٤) منهم، وأن يلحقنا بهم، إنه كريم^(١٤٥) لطيف حلیم وهاب، محسن متفضل جواد رحيم تواب، وإليه المرجع والمآب.

(١٣٤) في (م): «الخفض».

(١٣٥) في (ت): «الأسماء وأثبت ما في سائر النسخ».

(١٣٦) في (ت): «الإنشاء وهو تحريف، صوابه: «الأشياء» كما في سائر النسخ».

(*) في (س): «حفظوا».

(١٣٧) في (م): «فتمزرت».

(١٣٨) التوحيد الحق - إسقاط الياءات (ياءات الإضافة) فلا تقل: منى - لى - بنى.

اللطائف ١/٢٤٥، ٤/١٢٢. وقيل لبعض المشايخ:

الك رب؟ فقال: أنا عبد! من أنا حتى أقول لى؟ انظر: اللطائف ١/٢٤٥، ٤/١٢٢، ٤/١٤١ وانظر: التعبير في التذكير: ٢٦.

والفكرة دقيقة بين (نحو الإشارة والعبارة) في الإضافة، فالمضاف إليه مخفوض كقولك (دار على) في نحو العبارة، والخفض أضعف الحركات، إذ الخفض دليل الإهانة والذلة، فتم اعتماد العبد على الإضافة، وعن طريق الإضافة تكون العلاقات، صار العبد إلى أضعف الحالات. وإذا كان الاسم مفرداً - كان له أقوى الحركات مثل: (على) في المثال السابق منه الرفع، والدليل على ذلك قوله جل شأنه: «فى بيوت أذن الله أن ترفع» وقوله: «يرفع الله الذين آمنوا منكم». وكذلك العبد - مادام مجرداً بقطع مطالبه وعلاقاته فله أقوى الحالات.

(١٣٩) في (م): «جناب» وما أثبتته من (ت ط ج).

(١٤٠) ساقطة من (ت).

(١٤١) في (ت): «إليك».

(١٤٢) ساقطة من (م).

(١٤٣) في (م س): «بقربه».

(*) في (س) «جعلهم».

(١٤٤) «أن يجعلنا منهم» ساقطة من (م). وأثبتها من سائر النسخ.

(١٤٥) في (ط): «إنه كريم وهاب، وأحمد لله وحده، وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم» وأما خاتمة (ج س) فهي: «إنه كريم وهاب، تم كتاب نحو القلوب، وصلى الله على =

تم كتاب «نحو القلوب» بحمد الله وعونه، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(ملحق)

(فى أول نسخة(ن) وردت هذه الأبيات فى الصفحة الأولى للعنوان وهى):

- | | |
|-----------------------|-------------------|
| ١. (نحو القلوب) عجيب | رفع وخفض ونصب |
| ٢. علامة الرفع فيه | روح وأنس وقرب |
| ٣. وأحرف الخفض منه | حزن وقبض وحجب |
| ٤. والنفس حرف لمعنى | إسقاطه مستحب |
| ٥. والحال ينصب ما ليد | س للفتى فيه كسب |
| ٦. هذا هو النحو لا ما | قد قال عثمان حسب |
| ٧. لحن اللسان مباح | واللحن بالقلب ذنب |
| ٨. وأقبح اللحن عندى | كبر وتيه وعجب |

= محمد نبيه وصحبه وسلم». وأما خاتمة (م) فهى: «إنه كريم وهاب. تم الكتاب المبارك بحمد الله وعونه، وحسن توفيقه، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وحسبنا الله ونعم الوكيل. لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، والحمد لله رب العالمين.

ملحق

نصوص فى نحو القلوب وتشتمل على:

نصوص للمؤلف فى غير هذا الكتاب

نصوص لأبى العباس أحمد بن عجيبة

لاحظنا أن القشيري لم يستقص في «نحو القلوب» الذي حققناه جميع قواعد النحو العربي وأبوابه التقليدية، ولكنه اقتصر فيه على بعض القواعد والأبواب دون بعض، من ذلك مثلاً أنه ترك:

علامات الأسماء والأفعال، والاسم الموصول، ونواصب المضارع وجوازمه، ونائب الفاعل والمفاعيل، والعوامل الداخلة على المبتدأ والخبر: كان وأخواتها، وإن وأخواتها، وظن وأخواتها، والمصدر والظرف والمستثنى، ولا النافية للجنس، والمنادى، والترخيم، والتعجب، والنسب، والجموع...

فجميع ما سبق وغيره لم يتناوله القشيري، ولذلك آثرنا أن نعرض نصوصاً عثرت عليها في قراءاتي تناولت الموضوع ذاته، للقشيري ولغيره، ولكنها مختلفة عما سبق في كتابه هذا الذي حققناه، وهدفنا من ذلك:

١. أن تكتمل صورة الموضوع إلى حد واضح في ذهن القارئ حيث يرى معالم الحقل الواسع الذي حرث فيه رجال العربية وأعلام الفكر الصوفي.

٢. أن تقوم دراسة مقارنة في المستقبل بين ما كتبه الإمام القشيري وبين ما كتبه غيره من الأئمة الأعلام في الموضوع ذاته. وقد اخترت نماذج لتكميل موضوعنا من مصدرين:

أحدهما: لإمام يمثل الشرق الإسلامى وهو: الإمام القشيري فى كتاب آخر له عثرت عليه وهو «الأصول فى نحو أرباب القلوب».

وثانيهما: لشيخ من شيوخ المغرب الإسلامى وهو: أبو العباس أحمد بن عجيبة^(١) فى شرحه على المقدمة الأجرومية فى علم العربية للإمام الصنهاجى. ولقد قام بتجريد هذا الشرح العلامة عبد القادر بن أحمد الكوهنى^(٢) فى كتاب سماه «منية الفقير المتجرد، وسيرة المريد المتفرد»^(٣).

ومنهجى فى عرض تلك النصوص:

أولاً: يقوم على عدم التدخل فيها، أو التعليق عليها، إلا بالقدر اليسير، لتقويم عبارة مبهمة، أو تصويب كلمة رجحها السياق. والكتابان:

أولهما: للقشيري، وما زال مخطوطاً لم ير النور^(٤) بعد.

وثانيهما: وهو كتاب: منية الفقير... طبع عام ١٢١٩هـ إلا أن الطبعة قديمة متهالكة، كما أنها نادرة كذلك، وهى لهذا أشبه بالمخطوط فى نفاسته وندرته، وفى نشر مثل هذا بعث لتراث فكرى حضارى إسلامى كاد ينسى فى زحمة التاريخ ودروبه.

(١) ١١٦٠ - ١٢٢٤هـ - ١٧٤٧ - ١٨٠٩م أحمد بن عجيبة - بن محمد المهدي بن عجيبة الحسنى الإبريسى الشاذلى الفاسى (أبو العباس).

صوفى مسر من تصانيفه:

إيقاط الهمم فى شرح الحكم لابن عطاء الله فى التصوف، البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد، شرح الأجرومية فى النحو. الفتوحات الإلهية فى شرح المباحث الأصلية «معجم المؤلفين ١٦٣/٢ عمر كحالة».

(٢) ١٢٥٢هـ / ١٨٣٧م عبد القادر بن أحمد بن أبى جبهة الكوهنى الفاسى، عالم محدث، صوفى، توفى بالمدينة، من آثاره: شرح فاتحة البخارى وخاتمته، وفهرسة تعرف بإمداد ذوى الاستعداد إلى معالم الرواية والإسناد. «معجم المؤلفين ٢٨٢/٥».

(٣) قدم إلى الزميل الدكتور حسنى زيدان هذا الكتاب مشكوراً من مكتبته الخاصة.

(٤) لهذا الكتاب أصول فى دور الكتب: بالقاهرة والإسكندرية وتونس وإيران وتركيا، وجميعها تحت يدى لتحقيق المخطوط بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور إبراهيم بسيونى أستاذ الأدب الصوفى بجامعة عين شمس.

وثانيًا . أن النصوص التي أقدمها من هذين المصدرين تسيران في منهلين متجاورين وتشمل:

١. نصوص مشتركة بينهما في موضوع واحد .

٢. نصوص تفرد بها كتاب دون آخر .

(أ) نصوص مشتركة بين الكتابين

يقول القشيري «وجوه الإعراب أربعة: الرفع والنصب والخفض والجزم، وللقلوب هذه الأقسام، فرفع القلوب قد يكون بأن ترفع قلبك عن الدنيا وهو نعت الزهاد. وقد يكون بأن ترفع قلبك عن اتباع الشهوات والمنى وهو نعت العباد وأصحاب الأوراد والاجتهاد. وقد يكون بأن ترفع قلبك عنك وتمتد أنه لا يجيء منك شيء، وهذا نعت أصحاب الانكسار، وأرباب الخضوع والافتقار. وقد يكون برفع القلب إلى الحق، وتصفيته عن شهود الخلق. وقد يكون برفع يدك عن الحرام، ثم برفع ما تضره من إثبات الأنام^(٥) ثم ترفع يدك إلى الله بسؤال الحاجات، ثم ترفع الحاجات عن أحكام الصعبة^(٦) حتى تكون بالله لله، تمحو ما سوى الله.

وأما نصب القلوب فيكون بانتصاب البدن^(٧) على بساط الوفاق، ثم بانتصاب القلب في محل الشهود بحسن الإطراق، ثم بانتصاب السر بوصف الانفراد، والتنقي عن دقائق الافتراق. وقد يكون العبد منصوبًا لجريان حكم المقادير من غير أن يكون له اختيار، ولا له فيما هو به إثارة، أو منه فيه اشتغال^(٨)، ولما يلقي به استئصال، ولما ينتظره استقبال، ولا لما

(٥) في بعض النسخ (الآثام) والصحيح كما أثبتناه.

(٦) في بعض النسخ: المحبة، والصحيح ما رأيناه. لأن الغرض تجريد التوكل والتفويض عن كل الناس وعن جميع الأصحاب.

(٧) في بعض النسخ: البدل. وهي خطأ.

(٨) في بعض النسخ بدون نقط.

يوعد به استعجال، ليس لهم فيه حظ، ولا لهم فيه نصيب، ينصبهم الحق لحقه لا لحظهم.. فهم غياث الخلق، قائمون للحق بالحق.

وأما خفض القلوب فيكون باستشعار الخجل، واستدامة الوجل، ولزوم الذل، وإيثار الخمول، وملازمة الخشوع، وإلقاء النفس في ذبائح الجهاد.

وقد يكون بخفض الجناح لكل من طالبك بشيء ليس في الشرع له نكير من غير رد ولا نزاع، ولا إبرام واستكراه.. وهكذا العارف يستقبل أعقاب الكافة مستحقراً لقدره، مستقذراً لنفسه وفعله، في عاجله وآجله.

وأما جزم القلوب، فالجزم: القطع، ويكون ذلك بحذف العلائق، وقطع العوائق، والسكون تحت جريان أحكام الحقيقة، من غير إخلال بشيء من آداب الشريعة.

ويكون جزم القلوب قطعها عن خطرات المنى، فإن الأمانى والمعانى متضادة، فيقطع أعناق المطالبات والإرادات والاختيارات^(٩) بسيوف اليأس، ثم يسكن بالله لله مع الله، فإن رجع إلى ابتغاء الرخص شهدت عليه الطريقة بالشرك والرد^(١٠). (انظر وجوه الإعراب).

* * *

ويقول الكوهنى فى تجريده عن ابن عجيبة:

«أقسام الإعراب أربعة: (رفع ونصب وخفض وجزم)، وأحوال التفير الذى يعترى الإنسان وينزل به أربعة:

(٩) فى بعض النسخ الاختبارات. والصحيح كما أثبتنا.

(١٠) ربما كانت الردة: لأن القشيري يعتبر من فسح عقده مع الله ابتغاء الرخص كالمرتد.

رفع . أى رفع القدر والعز والجاه عند الله تعالى، وعامله^(١١)؛ العلم بالله، والعمل بطاعته، وصحبة أهل العز والفناء، وهم الأولياء رضى الله تعالى عنهم.

وضده: الخفض . وهو الذل والهوان، وعامله: الجهل وارتكاب المعاصي، واتباع الهوى كما قال الشاعر:

لا تتبع النفس فى هواها إن اتبع الهوى هوان
وقال آخر:

إن الهوى لهو الهوان بعينه فإذا هويت فقد لقيت هوانا
فإذا هويت فقد تعبدك الهوى فاخضع لحبك كائنا من كانا

والنصب . نصب النفس لمجارى الأقدار، وهو مقام الرضا والتسليم، وهو حال أهل الطمأنينة من العارفين الواصلين.

والجزم . هو التصميم والعزم على السير والمجاهدة والمكابدة إلى الوصول إلى تمام المشاهدة.

فأهل الرفع والنصب . عارفون واصلون، وأهل الخفض: تالفون تائهون، وأهل الجزم: سائرون.

وقد يتلون العبد بين الرفع والخفض، فتارة يغلب نفسه فيرتفع، وتارة تغلب عليه نفسه فينخفض، وهؤلاء أهل التلويين قبل التمكين، وقد يكون التلويين بعد التمكين، وهو تلويين العارف مع المقامات، فيتلون فى كل مقام بلون، فتارة يظهر عليه الهيبة والخوف، وتارة يظهر عليه الرجاء والبسط، وتارة يظهر عليه الورع والكف، وتارة يظهر عليه الرغبة والأخذ، وتارة

(١١) يلاحظ أن الصوفية عندهم (عوامل) ولكنها غير عوامل النجاة. يقول الكوهنى: فكلما طلبهم (عامل) الخفض استدركهم (عامل) الرفع فيرفعهم فلا خفض لهم أبداً. باب الإعراب.

يظهر عليه الشوق والقلق، وتارة يظهر عليه السكون والطمأنينة، وقد يطلب العبد الرفع فينخفض وهو من سبق له الحرمان والعياذ بالله. وقد يطلب الخفض فيرتفع وهو من سبقت له العناية، فلا تضره الجناية. ربما قضى عليك بالذنب فكان سبباً للوصول، والله تعالى أعلم (انظر باب الإعراب).

* * *

ويقول القشيري:

«كان وصار... إلى آخر هذه الأفعال الفاظ ترفع الأسماء وتنصب الأخبار، تقول: كان زيد قائماً، فهذه مشبهة بأفعال، وليست بأفعال محضة.

والإشارة: أنها لما ضارعت الأفعال أجريت مجرى الأفعال الحقيقية، فكما أن الفاعل رفع والمفعول نصب، فكذلك اسم كان مرفوع وخبره منصوب، ولكن ينادى عليها أنها ليست بأفعال محضة فكذلك من تشبه يقوم يجرى مجراهم، ويحكم له في الظاهر بحكمهم، ولكنه ينادى عليه بأنه متشبه بهم وليس منهم حقاً.

قال الشاعر في هذا المعنى:

إذا انسكبت دموع في خدود تبين من بكى ممن تباكى

(انظر كان وأخواتها)

ويقول الكوهني في تجريده:

ف (كان) تشير إلى: كان الله ولا شيء معه، حيث لا شكل ولا رسم. وأمسى وأصبح وأضحى إلى تلوينها بمرور الفلك في الصباح والمساء والضحى. ويشار بظل وبات. إلى تلوينها بمرور الليل والنهار. وبصار. إلى تلوينها بالظهور والبطون، وبليس. إلى تنزيها كقوله تعالى «ليس كمثله

شيء»، وبـ «ما زال» وأخواتها إلى أنه تعالى ما زال وما يزول وما يحول عما كان عليه: فالتغير عليه تعالى محال. ويدام . إلى دوام ربوبيته أزلا وأبداً.

ومن شأن هذه الأفعال أن ترفع الاسم وتمظمه وتجلله، وهو الذى كان مبتدأ الأشياء وأصل ظهورها. ورفعها له دلالتها على تلوين الآثار، وتقلات الأطوار، فتدل بذلك على عظمة الواحد القهار. وتنصب الخبر الذى هو عبارة عن الأثر لجريان أحكام الواحد القهار (انظر باب العوامل الداخلة على المبتدأ والخبر).

* * *

يقول القشيري: المنادى على أقسام: فللمفرد المعرفة وصف، وللمضاف وصف، وللنكرة وصف، كذلك من كان من العباد مفرداً ينادى على وصف غير وصف ما ينادى وهو مضاف. وكذلك من كان بوصف النكرة، فالمفرد المعرفة من الأسماء مبنى. على الضمة . والضمّة أقوى الحركات، وكذلك من كان أبداً بنعت التفريد كان فى أعلى الحالات وأقوى الصفات.

والمنادى المضاف منصوب. وكذلك من أضيفت إليه الملائق فهو فى أضعف الحالات . كما أن النصب أضعف الحركات.

والنكرة من الأسماء خص بعلم آخر، كذلك صاحب النكرة وسم برقم آخر (انظر النداء).

* * *

ويقول الكوهنى فى تجريده:

«المنادى خمسة أنواع: المفرد العلم، والنكرة المقصودة، والنكرة غير المقصودة، والمضاف، والمشبه بالمضاف.

فأما المفرد العلم والنكرة المقصودة فيبنيان على الضم من غير تنوين نحو: يا زيد ويا رجل، والثلاثة الباقية منصوبة لا غير.

المنادى فى الأزمات والمآرب أى الشدائد والمقاصد خمسة:

المفرد العلم، وهو الحق جل جلاله، وهذا هو المقصود بالذات، والأربعة وسائل، وقد يطلق المفرد العلم على الرسول عليه الصلاة والسلام، لانفراده بالكمالات...

والنكرة المقصودة، وهى سر الولاية، فمن ظفر بها كان بابا من أبواب الله يفزع إليه فى الشدائد، وتقضى بشفاعته الحوائج، لأنه نائب عن الرسول الذى هو الحجاب الأعظم، وإنما فسرنا النكرة المقصودة هنا بسر الخصوصية، لتنكر أولاً، وتقصد ثانياً بعد التمكن منها، فيظهر صاحبها بعد الخفاء، لينتفع به العباد، وتحيا به البلاد.

والنكرة غير المقصودة هى الخصوصية التى بقيت على حال الخفاء حتى مات صاحبها، فهو كنز من كنوز الخفاء، وعروس الحضرة، لا يعرف إلا أمثاله ومن قرب منه.

والمضاف إلى أولياء الله بالتربية والخدمة، وهو الملحق بهم فى المال.

والمشبه بالمضاف: وهو من تزيا بزيتهم، وانتسب إليهم، ولم يكن له همة للظفر بسرهم، فلا شك أنه تلحقه بركاتهم وتنسحب عليه أنوارهم، كما قال القائل:

لى سادة من حيتهم أقدامهم فوق الجباه

إن لم أكن منهم فلى فى حيتهم عز وجاه

فأما المفرد العلم ويراد به الرسول عليه الصلاة والسلام، والنكرة المقصودة من بنى إبراهيم، فيبنيان على الضم على الله، والجمع بالله من

غير تنوين، أى من غير شهود الأثر بسبب غيبتهم فى شهود المؤثر فلا
يفترقون عنه ساعة

والثلاثة الباقية منصوبة للمقادير، يجرى عليهم ما كتب لهم مع السكون
تحت مجاريه، إن قريهم فبفضله، وإن فر منهم فبعده...
(انظر باب المنادى)

* * *

(ب) نصوص تفرد بها كتاب القشيري

يقول القشيري: الاسم المفرد إذا تثيته ألحقته ألفا فى حال الرفع، وياء
فى حَالِيَّ النصب والجر، ونونا بعد الألف والياء، ونون التثنية مكسورة،
وهى تسقط عند الإضافة.

والإشارة منه: أن الواحد لا تثنية له من لفظ الواحد، والاثان لا واحد له
من لفظه، فلا يقال من الواحد: واحدان، ولا من اثنين: اثن. وهذا محال فى
التقدير... كذلك الذى هو واحد فى الحقيقة^(١٢) فيستحيل أن تزول عنه
وحدانيته . تقديراً ووجوداً، والذى يصح أن يكون اثنين فمن المحال أن يصير
فرداً لا ثانى له . تقديراً، قال الله تعالى «ومن كل شىء خلقنا زوجين»^(١٣).

وما دام الواحد من الأسماء واحداً فهو بصفته فى حروفه، فإذا انضم
إليه غيره حتى يصير اثنين، وقع فى التغير، فمرة مرفوعاً بالألف، ومرة
منصوباً أو مخفوضاً بالياء . كذلك العبد ما دام بقلبه مفرداً مجرداً فهو
فى اسمى نعوته^(١٤) . فإذا حصلت علاقة المواصلات^(١٥) وقع فى التلوين
فمرة ومرة (انظر المفرد والمثنى).

(١٢) المقصود هو الله جل شأنه.

(١٣) الذاريات: ٤٩. وفى الأصل سقطت (شىء).

(١٤) فى بعض النسخ (نحواء) وأرجح أنها: نجواء.

(١٥) من آفات الطريق: العلاقات، ويجب إسقاطها لأنها نقص فى التوحيد، فلا اثنية فى التوحيد، لأن
التوحيد إسقاط السوى.

ويقول القشيري: ومن الحروف ما يدخل على الاسم المبتدأ ولا يغير معناه، ولا يوجب له تغيير الإعراب، وهي مثل: إنما وكأنما وليتما ولعلما وغيرها.

والإشارة: أن من الناس من لا تؤثر فيه الواردات بحال، فهو في حال ما دخل عليه مثله في حال تجرده عنها. دخل بعضهم على بعض المشايخ وبالقرب منه ملاء^(١٦) فتوهم هذا الداخل أنه متغير بما يجرى فرآه لا يؤثر فيه ذلك، ولا يشغله ما يجرى عما كان به من الوقت^(١٧) فقال: فديت من لا تؤثر فيه الجبال الرواسي..

فقال ذلك الشيخ: يا فلان، إنما قد جردنا عن رق الأشياء في الأزل. (انظر الحروف التي لا تؤثر على المبتدأ والخبر).

وهناك أبواب أخرى تفرد بها القشيري عن الكوهني في النحو منها: وجوه البناء، وهمزة الوصل، والإلحاق، والإدغام، والتصغير، وجموع القلة والكثرة. وحسبنا ما ذكرناه منها.

(ج) نصوص تفرد بها كتاب الكوهني وابن عجيبة

«وأما الألف فتكون علامة للرفع في تثنية الأسماء خاصة، وأما ألف الوحدة، أي التحقق بها، فتكون علامة لرفع صاحبها وكماله في تثنية الأسماء خاصة، أي في حالة التمسك بالشرعية والحقيقة فقط، فمن تحقق ولم يتشرع فقد تزندق إلا أن يكون مجذوباً، أو نقول: تكون ألف الوحدة علامة للرفع في تثنية الأشياء الدالة عليها الأسماء.

(١٦) انظر القصة في الرسالة القشيرية ص ٢٥.

(١٧) يصر القشيري على احترام الوقت، والصوفي ابن وقته.

وتثنيتهما جعلها ورؤيتها قائمة بين الضدين: بين الحس والمعنى، بين الحكمة والقدرة، بين العبودية^(١٨) والربوبية، بين الملك والمكوت، بين الأثر والمؤثر، بين الكون والمكون، بين الخلق وأنحق. فلا يكون العارف كاملاً حتى يبلغ إلى هذا المقام. فإن وقف مع الضد الأول كان محجوباً مطموس البصيرة، وفيه قال المجذوب رضى الله عنه: من نظر الكون بالكون عراه العمى فى البصيرة، ومن نظر الكون بالمكون صادف علاج السريرة، وإن وقف مع الضد الثانى كان غير صاح، فانياً غير باق. مجذوباً غير سالك، فلا يكون كاملاً، وبالله التوفيق (انظر باب معرفة علامات الإعراب).

ويقول الكوهنى فى تجريده:

«والمعرفة خمسة أشياء: الاسم المضممر نحو: أنا وأنت، والاسم العلم نحو: زيد ومكة، والاسم المبهم نحو: هذا وهذه وهؤلاء، والاسم الذى فيه الألف واللام نحو: الرجل والغلام، وما أضيف إلى واحد من هذه الأربعة...».

المعرفة بالله تظهر فى خمسة أشياء. فمن عرف الله تعالى فيها فهو عارف، ومن جهلها أو أثبتها مع الله فهو تالف.

أولها: الكنايات، نحو: أنا وأنت. فما دمت تقول: أنا أفعل، أو أنت فعلت فأنت جاهل مشرك. وإن غبت عنك وعن غيرك فأنت موحد عارف.

ثانيها: أسماء الأشخاص والأماكن. فإن عرفت الله فيها فأنت عارف، وإن أثبتها مع الله فأنت جاهل. الأكوان ثابتة بإثباته، محوأة بأحدية ذاته، ما نصبت لك العوالم لتراها، بل لتزى فيها مولاها.

(١٨) العبودية من حيث الغالب الحسى، والربوبية من حيث المطهر المعنوى، العبودية مرتبة على العس البشرى، والربوبية مرتبة على الأمر المعنوى، العبودية ظاهرة والربوبية كامنة. والضدان يجتمعان فى محل واحد مع اختلاف الجهة (منية الفقير المتجرد ص ٤٩).

الثالث: المبهمات . من الكائنات: كهذا فعل كذا، وهذه فعلت، فما دام العبد ينسب التأثير للغير، ويتوقع منه ضرراً أو نفعاً فهو جاهل بالله.

الرابع: المعرفة عند الناس بالرياسة والجاه كالحكام والقواد وغيرهما من أهل الرياسة الظاهرة، وكذلك أهل الرياسة الباطنة كالأولياء والصالحين، فمن عرف الله تعالى فيهم، ورأى أنهم متصرفون تحت قهرية الحق، يتصرفون بقدرته وإرادته، ليس بيد أحد منهم شيء، بل ولا وجود لهم مع الحق، فهو عارف، وإن أثبت لهم ضرراً أو نفعاً، ودخل قلبه منهم جزع أو خوف فهو جاهل بالله تعالى.

خامسها: ما أضيف لواحد من هؤلاء كأصحاب العشائر فهو بمنزلتهم، لا حول لهم ولا تأثير، كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان، نعم الإضافة لها تأثير في المضاف، فمن انضاف إلى أهل العز بالحق تعزز ودام عزه، ومن انضاف إلى أهل العز بالخلق أو المال مات عزه، وأعقبه الذل، ولله در القائل:

عليك بأرباب الصدور غمن غدا مضافاً لأرباب الصدور تصدرا
وإياك أن ترضى بصحبة ساقط فتتحط قدراً من علاك وتحقرا

وأرباب الصدور هم العارفون بالله الذين صدرهم الله تعالى لنفع عباده، والدعاء إليه على قدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم. والساقط: هو الجاهل بالله وبأحكامه كائننا من كان.. (انظر المعرفة والنكرة).

تعليق

١ - والمشيىرى، وإن كان قد عقد للمعرفة والنكرة باباً، لكنه أجمل الحديث عنها فلم يفصل كما فصل الكوهنى، ومثل هذا ما فعله المشيىرى فى باب العطف، حيث لم يتعرض لمعانى حروفه. أما الكوهنى فقد فصل

حروفه وبين معانيها النحوية والصوفية. كذلك تفرد الكوهني بذكر بابي التوكيد والبدل على حين لم يشر إليهما القشيري.

٢. آثرنا أن نعرض هذه النصوص أمام القارئ خالية من الموازنة والنقد ليحسها الإنسان بروحه ووجدانه حسب طاقته، فكل فرد له مقام وقدر، ومنهل ومشرب و«قد علم كل أناس مشربهم».

كما أن هذه النصوص الصوفية لا تخضع للقوانين والضوابط العامة التي يخضع لها أي نص أدبي آخر، ونحن نقدمها . كما رأيت . لأهل الأنواق والوجدان . وأصحاب الشهود والعيان .

**دراسات للمحقق
فى
ضوء الكتاب**

(١)

فى اللحن

لسان فصيح معرب فى كلامه
فيا ليتة من حسرة العرض يسلم
وما ينفع الإعراب إن لم يكن تقى
وما ضر ذا التقوى لسان معجم
فى أول نسخة (ن) المخطوطة، وردت هذه الأبيات وهى

رفع وخفض ونصب	نحو القلوب عجيب
روح وأنس وقرب	علامة الرفع فيه
حزن وقبض وحجب	وأحرف الخفض منه
إسقاطه مستحجب	(والنفس حرف لمعنى
س للفتى فيه كسب	والحال ينصب ما لـ
قد قال «عثمان» حسب	هذا هو النحو لا ما
واللحن بالقلب ذنب	لحن اللسان مباح
كبر وتيه وعجب	وأقبح اللحن عندى

التعليق باختصار على الشعر

★ الأبيات السابقة تحدد معالم النحو (الصوفى) أو نحو (الإشارة) أو نحو (الجنان). وذلك فى مقابل نحو (العبارة) أو نحو (اللسان).

★ الشعر من (المجتث) مستفعلن فاعلاتن.

★ أضفت البيت الرابع من «نحو القلوب» لمؤلف مجهول مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١١٦ مجاميع.

★ دقة من الناظم فى البيت الرابع، وذلك حين أخبر عن النفس بأنها حرف فيجب إسقاطه، لأنها محل الأوصاف المذمومة، والنفس لا تعيش إلا فى أوطان الشهوات، فتدعوك اليوم إلى ما فيه هلاكك، ثم تشهد عليك غدا بزلالتك.

★ كما أن البيتين السادس والسابع يشيران إلى ما روى عن عثمان رضى الله عنه حين فرغ من كتابة المصحف ونظر فيه فقال «قد أحسنتم وأجملتم. أرى فيه شيئاً من لحن ستقيمه العرب بالسنتها» (المصاحف لأبى داود السجستانى (٢٢)). واللحن معناه فى قول عثمان: اللغة أو القراءة! قال عمر رضى الله عنه، إنا لنرغب عن كثير من لحن أبى، يعنى لغة أبى، المرجع السابق. وقول بعض العرب «ليس هذا لحنى ولا لحن قومى» فاللحن: اللغة هنا. وكان عمر أيضاً يقول: «أبى أقرأنا، وإنا لنندع بعض لحنه، أى قراءته» فاللحن القراءة. وانظر مادة (لحن) فى (اللسان).

ولحن اللسان مباح، أما لحن القلب وهو محل العرفان والمشاهدة. فذنوب عظيم.

ولذلك كان معرفة «نحو القلب» أكد وأنفع من معرفة نحو اللسان، فعليك الاشتغال أولاً (بنحو) قلبك لتسلم من لحنه، وتصلح علمك وعملك، وبلحن القلب. تكون جاهلاً فى عملك أعمى فى بصرك، أصم فى سمعك،

أخرس في كلامك، أحمق في عقلك. فإن قدمت الاشتغال (بنحو) لسانك،
فنهوك ملحون، وفهمك معكوس، وبصرك مطموس وكلامك مخروس،
وألبيت الحق بالباطل، وكتمت ما أنزل الله تعالى من البينات والهدى، كما
أن نحو القلب . لا يكون إلا بحفظه من الأخلاق المردولة الذميمة من كبر
وتيه وعجب، فإذا انتهى الطالب من معرفة نحو انقلب . أسرع في تعلم نحو
اللسان على قواعد التراكيب العربية متجرداً في كل خطواته من الرياء
والسمعة والمباهاة والتشدد.

* والأبيات السابقة محاولة لنظم القواعد في «نحو القلوب» وهي
تناظر ما فعله علماء «نحو العقول» كابن معطى وابن مالك والسيوطي
وغيرهم.

* وقد استعملت الشواهد الشعرية المصطلحات النحوية؛ لتعبر عن
فلسفة روحية وإشارات خفية لعمارة الباطن من: طهارة القلوب، ومراعاة
الأسرار، والدخول في كل خلق سني، والخروج من كل خلق دني.

* وهذا النص الشعري شبيه بما جاء في (منهاج العارفين للإمام
الغزالي ص ٨٢ فما بعدها تحت عنوان (باب الأحكام) وقد طبع هذا
الكتاب مع مجموعة تسمى (القصور العوالي من رسائل الإمام الغزالي)
جاء فيه:

إعراب القلوب على أربعة أنواع:

رفع وفتح وخفض ووقف

فرفع القلب: في ذكر الله تعالى.

وفتح القلب: في الرضا عن الله تعالى.

وخفض القلب: في الاشتغال بغير الله تعالى.

ووقف القلب: فى الغفلة عن الله تعالى.
فعلامه الرفع ثلاثة أشياء: وجود الموافقة، وفقد المخالفة، ودوام الشوق.
وعلامه الفتح ثلاثة أشياء: التوكل، والصدق، واليقين.
وعلامه الخفض ثلاثة أشياء: العجب، والرياء، والحرص، وهو مراعاة الدنيا.
وعلامه الوقف ثلاثة أشياء: زوال حلاوة الطاعة، وعدم مرارة المعصية، والتباس الحلال.

(٢)

صوفية الحركات

أعللت علة (قال) وهي قديمة

أعيا الأطباء كلهم ابرأوها

(أبو العلاء المعري)

* * *

أثرت وضع «صوفية الحركات» عنواناً لنصين من «نحو القلوب»
للشيري.

وقبل الكشف عن سبب إثاري لهذا العنوان أعرض النصين ثم أتبعهما
بدراسة موسعة مفصلة تكشف عن سبب هذا الإيثار وذلك الاختيار.

١ . يقول الشيري: «الأفعال على أقسام: صحيح ومعتل، وكذلك أعمال
المكلفين على قسمين: صحيح ومعتل، وكما أن الصحيح من الأفعال ما سلم
من حروف العلة، فالصحيح من أفعال العباد ما سلم من صنوف العلة،
وحروف العلة ثلاثة: الواو والياء^(١) والألف، وصنوف العلة ثلاثة: الرياء،
والإعجاب والمساكنة. وبعض صنوف العلة اللف من بعض، وبعضها أجلى
من بعض^(٢). ومن الأفعال ما هو أجوف وهو الذي حشوه حرف علة، كذلك

(١) بدون همزة.

(٢) في بعض النسخ: وبعض حروف العلة أضعف وبعضها أقوى، كذلك فإن بعض صنوف علل الأفعال
اللف وبعضها أجلى.

من أفعال العباد ما هو أجوف، وهو الذى داخله ذلة. ومن الأفعال ما هو ناقص وهو الذى يعقبه آفة، فإن قبول القرب موقوف على وفاء (*) العواقب، ومن الأفعال ما هو لفيف وهو الذى اجتمع (فيه) حرفان من حروف العلة: إما مفترقين أو مقترنين، كذلك من الأفعال ما تتوالى (٢) عليه الآفات فصاحبه يعتريه الرياء، ويلحقه الإعجاب» نحو القلوب ورقة ٦٢-٦٣ تصوف طلعت رقم ١٥٩٢. ومصورة (ميكرو فيلم ٧٤٢٤).

٢. ويقول القشيري فى «نحو القلوب»: الاسم صحيح ومعتل. قال أهل العبارة: الصحيح: ما سلم من حروف العلة وهو: الألف والواو والياء، وقال أهل الإشارة: من سلم اسمه من ألف الإلباس، وواو الوسواس، وياء الياس. فقد صح اسمه وحق له الإعراب وهو البيان...».

وللكشف عن إشارة النصين لأبد من الاستعانة:

أولاً: بمصطلحات القشيري التى تتصل بآفات الطريق.

وثانياً: الاستعانة كذلك بعلماء الأصوات القدامى والمحدثين لتوضيح مكانة ما أسماء القشيري بحروف (العلة) ولم اختار هذه الأصوات بالذات دون غيرها من الأصوات الساكنة؟

- ١ -

وأقدم نصوصاً كاشفة فى الجانب الأول (الصوفى) للقشيري:

(أ) يقول القشيري فى تفسير قوله تعالى: «قل هل تنبئكم بالآخسين أعمالاً الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا»...

(*) بدون همزة.

(٢) فى الأصل: فى بوالا.

الذى ضل سعيهم هم الذين قرنوا أعمالهم (بالرياء)، ووصفوا أحوالهم (بالإعجاب)، وأبطلوا إحسانهم (بالملاحظات) أو بالمن» اللطائف ٨٧/٤.

(ب) ويقول القشيري عند تفسير قول الحق سبحانه . «إن الله لا يحب كل خوان كفور».

الخيانة أقسام: خيانة في الأموال. تفصيلها في المسائل الشرعية وخيانة في الأعمال، وخيانة في الأحوال.

فخيانة الأعمال: بالرياء والتصنع، وخيانة الأحوال: بالملاحظة والإعجاب والمساكنة، وشرها: الإعجاب ثم المساكنة، وأخفاها «الملاحظة» اللطائف ٢١٨/٤.

(ج) وفي مفتاح سورة الأحزاب: «يا أيها النبي اتق الله...» اتق الله أن تلاحظ غيراً معنا، أو تساكن شيئاً من دوننا، أو تثبت أحداً سوانا...».

(د) ويقول القشيري: «فمن علم أنه المعبود سبحانه، دون غيره أخلص في حالته، وصدق في طاعته، وصى عن الرياء أعماله، وزكى عن الإعجاب أحواله... وأما الإعجاب الذى هو رؤية المقام، واستكبار القدر والجاه، واستكثار الطاعة والفعل، فإنه سبب الحجاب، ولهذا قال الشيوخ: «من أعجب بنفسه، حُجب عن ربه» شرح أسماء الله الحسنى ٨٧.

ومن إشارات هذه النصوص الصوفية نرى:

١. أن الرياء يكون في الأعمال، وهى: جهود كسبية. والإعجاب والملاحظة والمساكنة تكون في: الأحوال وهى: مواهب فيضية.

٢. وفي نص للقشيري في اللطائف ١٦٠/٣ قرن الملاحظة بالأسرار. ومرة أخرى في اللطائف ٨٧/٤ قرن الملاحظة بالإحسان.

٢. شرّ هذه الآفات الإعجاب، ثم المساكنة، وأخفاها الملاحظة. يؤكد هذا:

أولاً: ما قاله الشيوخ: من أعجب بنفسه حجب عن ربه (شرح أسماء الله الحسنی ٨٧). والعجب يدعو إلى الكبر، وإلى نسيان الذنوب وإهمالها، كما أن المعجب يستعظم عبادته، ويمن على الله بفعلها، وإذا أعجب بها عمى عن آفاتنا، وعلة العجب كما قال الغزالي: الجهل المحض.

ثانياً: أما (المساكنة) فمن قولك: سكنت إلى فلان: استأنست به. والسكن: ما تسكن إليه النفوس من الأهل والوطن، ومنه قوله تعالى: «والله جعل لكم من بيوتكم سكناً» ٨٠ / النحل. واستقامة (الأرواح) لا تكون إلا بنفى العلاقة: أي المساكنة.

فمن عرف الله: ... لا يسكن إلى غيره، وعلامة سكون القلب إلى الله، أن يكون بما في يد الله أوثق منه بما في يده، وخطر المساكنة لغير الله. يرويه الخواص حين حدث بأعجب ما رأى في أسفاره. قال: لقيني الخضر عليه السلام فسألني الصحبة، فخشيت أن يفسد علىّ توكلّ بسكوني إليه، ففارقته (الرسالة القشيرية ٣٧٢).

ثالثاً: أما (الملاحظة): فهو أخفى هذه الآفات جميعاً، لأن استقامة (الأسرار) لا تكون إلا بنفى الملاحظة. وعلامة الحقيقة: ترك ملاحظة العمل. والذين ضل سعيهم هم الذين يلاحظون أعمالهم وما منهم بعين الاستكثار. وكان الواسطي يقول «ياكم واستحلّاء الطاعات فإنه (أي الاستحلّاء) سموم قاتلة». (الرسالة القشيرية ٤٢٤).

والصوفي الصادق هو الذي يراقب أسرارهم، ويتجاوز الحدود الفاصلة إلى المستويات العالية، وهو في كل خطوة يراقب مشاعره وأحاسيسه ويلتفت إلى ما يعكر صفو هذا الكمال والجلال. ففي الرسالة القشيرية ٦٦ «أن السري السقطي قال: منذ ثلاثين سنة أنا في الاستغفار من قولي:

الحمد لله مرة. قيل: وكيف؟ فقال: وقع ببغداد حريق، فاستقبلني رجل، فقال لي: نجا حانوتك. فقلت: الحمد لله. فمنذ ثلاثين سنة أنا نادم على ما قلت، حيث أردت لنفسى خيراً مما حصل للمسلمين». ويرى الصوفية أن من شهد في إخلاصه الإخلاص، احتاج إخلاصه إلى إخلاص.

رابعاً: أما (الرياء) فاشتقاقه من الرؤية، وأصله: طلب المنزلة في قلوب الناس بإيرائهم خصال الخير.

والرياء: أصناف كثيرة: رياء في الدين، والقول، والهيئة، والعمل، وإذا تعلق بالعباد. فهو التلبيس، والمكر، لأنه يخيل إليهم أنه مخلص لربه، وليس كذلك، وإذا تعلق بالله وهو أنه مهما قصد بعبادة الله - سبحانه - خلق الله، فهو مستهزئ بالله، ولذلك قال قتادة: إذا رأى العبد قال الله للملائكة: انظروا إليه كيف يستهزئ بي. وسأل رجل رسول الله ﷺ: فيم النجاة؟ فقال الرسول «ألا يعمل العبد بطاعة الله يريد بها الناس» وسماه الرسول: الشرك الأصغر. وفي طبقات الصوفية للمسلمي ص ١٣ قال: وسمعت الفضيل يقول: خير العمل أخفاء، وأمنعه من الشيطان أبعد من الرياء.

- ٢٠ -

نصوص فى علم الأصوات توضح مخارج ومكانة

الألف والواو والياء

أ - يقول ابن جنى : « والحروف التى اتسعت مخارجها ثلاثة: الألف ثم الياء ثم الواو، وأوسعها وألينها: الألف ، إلا أن الصوت الذى يجرى فى الألف مخالف للصوت الذى يجرى فى الياء والواو، والصوت الذى يجرى فى الياء مخالف للصوت الذى يجرى فى الألف والواو، والعلّة فى ذلك: أن تجد الفم والحلق فى ثلاثة الأحوال مختلف الأشكال.

أما الألف: فتجد الحلق والفم معا منفحتين.... وأما الياء: فتجد الأضراس معها سفلا وعلوا قد اكتنفت جنبتي اللسان وضغطته... وأما الواو: فتضم لها معظم الشفتين وتدع بينهما بعض الانفراج ليخرج فيه النفس». (سر صناعة الإعراب: ١ / ٨ فما بعدها).

ب - ثم يقول ابن جنى «اعلم أن الحركات أبعاض حروف المد واللين، وهى: الألف والواو والياء، فكما أن هذه الحروف ثلاثة، فكذلك الحركات ثلاثة، وهى الكسرة والفتحة والضمة، فالفتحة بعض الألف، والكسرة بعض الياء، والضمة بعض الواو، وقد كان متقدمو النحويين يسمّون الفتحة: الألف الصغيرة، والكسرة: الياء الصغيرة، والضمة: الواو الصغيرة، وقد كانوا فى ذلك على طريق مستقيمة» (سر صناعة الإعراب ١ / ١٩ فما بعدها ط أولى ١٩٥٤).

ج - وروى الليث عن الخليل: أن الألف والواو والياء والهمزة جوف، لأنها تخرج من الجوف ولا تقع فى مدرجة من مدارج الحلق ولا اللهاة ولا اللسان إنما هى هواء. وكان الخليل يقول: الألف والواو والياء هوائية: أى أنها فى

الهواء.... والحروف اللينة: الألف والواو والياء وهى حروف المدّ واللين، وقيل لها ذلك: لاتساع مخرجها، والمقطع إذا اتسع انتشر الصوت ولان، وإذا ضاق انضبط فيه الصوت وصلب، إلا أن الألف أشد امتدادا واستطالة، إذا كان أوسع مخرجا... وأخفاهن وأوسعهن مخرجا الألف «شرح المفصل» لابن يعيش: باب الإدغام.

* ونرى من خلال هذه النصوص وغيرها :

١ - أن مخارج الألف والواو والياء تختلف. ففى الألف يكاد اللسان يكون مستويا فى قاع الفم مع ارتفاع خفيف فى وسطه، وحركته متسعة. أما الياء فمن أدنى اللسان وهى حركة أمامية ضيقة، والواو من أقصى اللسان، وهى حركة خلفية ضيقة شفوية.

٢ - أن الحركات تنقسم إلى قصيرة وهى: الفتحة والكسرة والضمة، وطويلة وهى: الألف والياء والواو، وتسمى: حروف المدّ واللين. ولا فرق بينهما إلا أن الحركات الطويلة تساوى من حيث الكمّ والمدى حركتين قصيرتين، والحركة الطويلة أقوى من القصيرة حيث تكون عنصرا واستقرارا فى الصيغة.

٣ - أن جميع الحركات القصيرة والطويلة مجهورة، وأنها أقوى فى الوضوح السمعى من الأصوات الساكنة.

٤ - أن هذه الحركات كثيراً ما يحدث لها تغييرات طارئة من : حذف وإدغام وقلب وإبدال وإعلال.

* ومن عرض هذه النصوص نستطيع أن نربط فى نص القشيري الأول بين الرياء والإعجاب، والمساكنة والملاحظة، وبين حروف المدّ واللين وهى: الألف والواو والياء (صوتيا) (وصوفيا)، لأنه لم يربط بين هذه الآفات وبين ما أسماه حروف العلة فى هذا النص. وأرجح:

١ - أن الألف من الجانب الصوتي تناسب (المساكنة والملاحظة) في الجانب الصوفي. فالألف (أخفى) و (أوسع) مخرجا، و(الين) ^(٤) و (أشد امتدادا واستطالة). وفيما سبق، ذكرنا أن الملاحظة والمساكنة، تكون في (الأحوال)، واستقامة (الأرواح) لا تكون إلا بنفى المساكنة واستقامة (الأسرار) لا تكون إلا بنفى الملاحظة، وكلها تتصل بالدقائق (الخفية)، والرقائق غير المنظورة. وهي تشبه (خفاء) الألف، ولقد كان القراء يعدّون من الحروف الخفية الألف، بل الألف أخفى هذه الحروف (لطائف الإشارات لفنون القراءات ١ / ٢٠٠ شهاب الدين القسطلاني. تحقيق الشيخ عامر عثمان، والدكتور عبد الصبور شاهين). ثم (اتساع) الألف لتحتوى الإنسان ومَن يساكنه، و(الانفراج) في مخرجه ليسع أصحاب الأسرار، والأحوال والإحسان، كما أن (امتداد الألف واستطالته) يشبه مَن (يُساكن) غيره حيث يستأنس به، ويلين له، ويفىء إليه، فما أشبهها في الجانب الصوتي (بامتداد الألف واستطالته). فإذا أضفت إلى ذلك ما جاء عن الخليل من قوله «إن الألف اللينة أضعف الحروف المعتلة» (تهذيب اللغة ٤٤ / ١، ٥١ للأزهري تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون. ط المؤسسة المصرية العامة). وقول العكبري في إعراب القراءات الشواذ ج ١ لوحة ٤ مخطوط بدار الكتب المصرية تفسير رقم ١١٩٩ «والألف ضعيفة في غاية اللين» أدركت معنى مدى انطباق الجانب الصوتي على الجانب الصوفي، فَمَن تسكن إليه نفسك وتهواه من : مالك أو زوجك أو ولدك، تلين له وتذلّ، وتصبو إليه وتخضع، وتدنو إليه وتأنس، وتقرب إليه وتضعف. فما أشبه ذلك بوصف الخليل للألف بأنها «أضعف الحروف». والألف فيها من الضعف: الرخاوة والانفتاح، وكذلك شأن المساكن.

(٤) يلاحظ أننا نأتى بنفس المصطلحات عند القدماء من علماء الأصوات والعربية وننظر لها الصوفية عند القشيري.

كما يمكن أن نربط بين الفتحة التي هي بعض ألف المدّ واللّين في كثرة^(٥) دورانها في النسيج العربى وبين المساكنة والملاحظة وهما من آفات الطريق وأكثرها شيوعا كذلك، إذ قلما يتجرّد منهما عبداً فمنّ منّا سلم من مساكنة ماله، أو زوجه أو صاحبه؟ وفى الرسالة القشيرية ١٩٤ أن القشيري سمع من شيخه الأستاذ أبى على الدقاق رحمه الله، يقول فى معنى قوله ﷺ «إِنَّهُ لَيُفَانُ عَلَى قَلْبِي حَتَّى أَسْتَغْفِرَ اللَّهَ تَعَالَى فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً»: أنه كان ﷺ أبداً فى الترقى من أحواله، فإذا ارتقى من حاله إلى حالة أعلى مما كان فيها، فربما حصل له ملاحظة إلى ما ارتقى عنها، فكان يعدها (غِيْنًا) بالإضافة إلى ما حصل فيها، فأبداً كانت أحواله فى التزايد.

٢ - أما الواو من الجانب الصوتى فتناسب (الإعجاب) فى الجانب الصوفى.

وذلك أن الواو من أقصى اللسان وهى حركة خلفية ضيقة حيث يضيق مجرى النفس فى الفم «وإذا ضاق انضغط فيه الصوت وصلّب» كما يقول ابن يعيش فى شرح المفصل، (باب الإدغام). ويزيد ابن جنى فى «سر الصناعة» ص ٨/١ قوله «وتضمّ لها معظم الشفتين» وهى أثقل وأظهر من الكسرة والفتحة؛ لأن لها مستويين: خلفية بالنسبة للحلق، ومستديرة بالنسبة للشفتين، وقد التقى رأى علمائنا القدامى والمحدثين على أن الضمّ الذى هو بعض حركات المدّ واللّين أثقل وأقوى من الكسر والفتح (المحتسب ٢/ ٢٩٩ ط. المجلس الأعلى، الإنصاف فى مسائل الخلاف ١٤/١ ط ٤، أسرار العربية ٣١ لابن الانبارى، التصريح ٥٩/١ للشيخ خالد الأزهرى، فى اللهجات العربية ٨٥ د/ أنيس).

(٥) الفتحة : هى الحركة الخفيفة المستحبة، ويميل إليها العربى كثيرا وهى أخف الحركات (إحياء النحو: ص . ز، ٥٠، ٧٨ إبراهيم مصطفى) وقد ثبت إحصائيا أن نسبة شيوع الفتحة كبير، يجاوز ٥٠% من الحركات على حين يبلغ الكسر والضم ٢٥% من الحركات.

وقد دلت أحدث التجارب على أن نسبة ورود الفتحة التي هي بعض الألف ٤٦٠ في الألف على حين تليها الكسرة ١٨٤ في الألف، ثم الضمة ١٤٦ في الألف (الألسنية العربية ج ٢ ص ٢٩ ريمون طحان. دار الكتاب اللبناني - بيروت)، وانظر إحصاء آخر في بعض الصيغ في القرآن الكريم أكد هذه التجارب الحديثة (في اللهجات العربية ١٥٧) د/ إبراهيم أنيس ط ٢. وانظر إحصائية أخرى لثلاثة نصوص قرآنية من (البقرة ١ - ١٨) و(طه من ٢ - ٣٤) و (الروم من ٢ - ٢٠) أي من كل سورة مائتي كلمة.

وكانت النتيجة لهذه الستمئة كلمة هي: الفتحة ٥٩,٤٪، الكسرة ٢٠,٨٪، والضمة ١٩,٨٪ (العربية الفصحى ٣٦. هنري فليش. تعريب د/عبد الصبور شاهين. الكاثوليكية - بيروت).

فإذا لاحظنا هذه المعالم الصوتية وضع لنا ما يشبهها صوفيا في : صفة الإعجاب والمعجب. فالمعجب (ثقل) في نفسه، (قوى) في مظهره، لأنه متكبر مغرور، يستكبر قدره، ويستكثر طاعته، وينظر إلى غيره بعين الاحتقار والذلل. وإذا كانت الواو: خلفية في مستوى الحلق، ومستديرة في مستوى الشفتين فتلك إشارة إلى أن صفة الإعجاب تحيط بالإنسان وتملكه وتدخل عليه من كل جانب !.

والمعجب يشعر بالزيادة عن غيره ويبالغ في ذلك حتى استقر ذلك في سمته، وأصبح سجية له وخلقا، وغريزة وطبعاً. وفي الجانب النحوي الصرفي تجد طبق هذا. فكل فعل أردت التعجب به أو المدح، أو قصدت به المبالغة في معناه، أو قصدت به الزيادة أو للدلالة على أن معناه صار كالطبع والغريزة في صاحبه - حولته إلى باب فَعُل - بضم العين التي هي بعض واو المد واللين، وإن لم يكن من هذا الباب. فتقول في الفعل كتب - بفتح العين - حين تريد المبالغة في معناه، أو التعجب، أو قصدت أنه زاد على قرنائه في صفة الكتابة قلت: كَتَبَ الرجل على ! بضم عين الفعل بمعنى: ما أكتبه !.

فإذا أضفت إلى ذلك أن الضمة في العربية دائماً - علامة الإسناد، بمعنى أنها تدل على تحقيق الارتباط بين الركنين الأساسيين: المسند إليه والمسند - أيقنت أنها قوية، لأنها تقوم بدور خطير في الإسناد، وهي في قوتها تذكر بقوة هذا المعجب المتكبر!! كما ترى الدراسات الصوتية أن الواو حرف مجهور، والجهر من صفات القوة والقوة من صفات المعجب كما أن تفخيم الألف يكون بإمالة نحو الضم، والتفخيم: تغليظ الحرف في مخرجه كقراءة ورش : الصلوة والزكوة والحيوة. وقد عدّ علماء القراءات التفخيم من صفات القوة، ولهذا كتبت ألف التفخيم بالواو في القرآن كما سبق. والصلة واضحة بين الجانب الصوتي في (التفخيم) والجانب الصوفي في (الإعجاب).

٣ - أما الياء من الجانب الصوتي فيناسبها آفة (الرياء) في الجانب الصوفي. وذلك أن الياء أيسر نطقاً من الواو؛ لأن الياء تتكون بتحريك أدنى اللسان، وتحرك أدنى اللسان أيسر من تحريك أقصاه، وهو مخرج الضمة التي هي بعض واو المدّ (في اللهجات العربية ٨٥، أسرار العربية ٢١٦ ابن الأنباري). كما مالت العربية إلى الكسرة التي هي بعض ياء المدّ. كلما كان لها أن تختار بينها وبين الضمة مما يؤكد ثقل الواو. كما تميل العربية إلى قلب الواو إلى الياء وهذا دليل على خفة الياء.

ويقول ابن الأنباري: «إلا أنه لما اجتمعت الواو والياء والسابق منهما ساكن قلبوا الواو ياء، وجعلوها ياء مشددة فقالوا: طياً ولياً وشياً. والأصل فيها طَوياً وَلَوياً وشَوياً. وإنما وجب قلب الواو إلى الياء دون قلب الياء إلى الواو لأن الياء أخف من الواو فلما وجب قلب أحدهما إلى الآخر كان قلب الأثقل إلى الأخف أولى (الإنصاف ١/١٤ ط السعادة. ط ٤).

والمرائي أضعف من المعجب، لأنه يتظاهر بما ليس فيه، ويرى الناس خلاف ما هو عليه ليخدعهم به، فسبيله ملتوية، وطرقه غير مستقيمة؛ ولذا

ناسبه الياء، والياء من علامات التصغير في العربية فهي علامة ضعف، ونرى الياء - صوتيا - ضعيفة أيضاً بالاستفال والرخاوة والحروف المستقلة ضد المستعلية، وما أدق قول ابن الجزري في النشر ٢٠٢/١ حين قال: وأسفل (الحروف) المستقلة الياء. وكذلك المرائي يحسّ بحقارة نفسه، وصغر شأنه في كل أموره. كما أن كلمة (الرياء) تشتمل على حرف الياء، فهي بها أولى.

وفي الجانب الصوتي نجد الواو والياء تعتبران صوتيا حركتين متقابلتين (متنافرتين)، إذ الواو حركة خلفية، والياء أمامية، ومثل هذا التناظر تجده في الجانب الصوفي، لاحظ الواو للإعجاب، والإعجاب يتصل (بالأحوال)، والياء للمرائي، والرياء يتصل (بالأعمال). والواو يميل إلى البدوي، لأنها مظهر من مظاهر خشونة البدوية، والبدوي ميله إلى الكبر والإعجاب أشد، أما الياء فتتميل إليها المجتمعات المتحضرة، (في اللهجات العربية ٨٣ ط ٢ دكتور إبراهيم أنيس)، وانظر: اللهجات العربية في التراث ٣١٢ دكتور أحمد علم الدين الجندى. الهيئة المصرية العامة للكتاب). وفي البيئات المتحضرة يكثر الرياء والتصنع^(٦).

هذا، ولما كان المعجب يعجب بنفسه ويتعامل معها، والمرائي يرائي الناس، وهم أكثر عدداً وأوسع شمولاً، تناسب صوت الياء. يؤكد هذا ما يقرره علماء النحو من أن «باب الياء أوسع من باب الواو» (همع الهوامع ٤٧١).

ونعرض أمامك نصاً صوتياً لعالم من علماء الأصوات والعربية يقوى ما نذهب إليه هنا، وما ذهبنا إليه من قبل من:

* أن قوة الواو والضممة (صوتيا)، لتناسب قوتها قوة المعجب في تكبره وغروره، وثقله وصلفه (صوفيا).

* وأن انحطاط الياء والكسرة عن الواو والضممة (صوتيا)، لتناسب الياء حقارة المرائي وهوانه في مجتمعه، وصغر نفسه (صوفيا).

(٦) وما أكثر ما تعانيه مجتمعاتنا المتحضرة المعاصرة من هذا الداء الويل.

* وأن الألف والفتحة كانتا أعذب أخواتها وألينها وأخفاها (صوتيا) وهي في ذلك أقرب إلى صفة المساكنة وما فيها من: ضعف ولين، وخضوع وذل في الجانب (الصوفى). وإليك النص :

قال أبو الفتح ابن جنى: غلا في (قوله): غلوا، وغللا (السعر): يفلو غلاء. فصلوا بينهما في المصدر وإن اتفقا في الماضى... فلما اتفق اللفظان والمثلان في الماضى والمضارع خالفوا بين مصدريهما ليكون ذلك الخلاف بين مثاليهما أنفسهما فقالوا: غلوا وغلاء (المحتسب ٢ / ١٣٩ ط المجلس الأعلى).

نعم، وخصنوا (غلا) في (القول) بالغلو، لأن لفظ (فُعُول) أقوى من لفظ (فَعَال)، للواوين والضميتين، (وضَعُف الألف) والفتحتين، وذلك أن الغلو في (القول) أعلى وأعنى عندهم من غلاء السعر، ألا ترى إلى قول الله تعالى: «تكاد السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَانِ وَلَدًا» وقال تعالى: «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ» وأما غلاء السعر فلا يدخل النار ولا يحرم الجنة.

ثم إنهم قالوا: غَلَّتْ القدر تغلى غليانا - فلما (صغر) هذا المعنى في أنفسهم أخذوه من الياء، لأنها تتحط عن الواو والضممة إلى الياء والكسرة، (أى في المضارع: تغلى).

فإن قلت: فقد قالوا: علوت في (المكان) أعلو علوا، وعليت في (الشرف) علاء، فجعلوا الشرف دون ارتفاع النصبية. قيل: لم يجف الشرف عندهم، ولا تبشع تبشع الكفر والغلو في القول المعاقب عليه، والمنهى عنه، فلان جانبه، ونعم وعذب في أنفسهم، فبنوه على (فعل) لتقلب الواو ياء، ومصدره على (الفعل)، لعذوبته بالفتحتين والألف.

وهذه أماكن إن رفقت بها، وسأنيتها، وتأنيتها، ولم تبه عليها (لم تتفاخر ولم تتسام) وتختبطها - أولتك جانبها، وأركبتك ذروتها، وقبلتك لها

ضيّفاً، وبسطتْكَ يداً وسيفاً. وإنْ أخلّدتْ بها إلى ضدّ هذا أخلّدتْ بك إلى ضدّه، فتلافياً ورفقاً، لا مُغالاة ولا خُرْقاً (المحتسب ١٤٠/٢ ط المجلس الأعلى).

* تلك هي المذكرة التفسيرية التي توضح إشارة القشيري في النص الأول في المعتلّ من الأفعال حيث قال «وبعض صنوف العلة الّطف من بعض، وبعضها أجلى من بعض» والصحيح من أفعال العباد: ما سلم من صنوف العلة، وهي: الرياء والإعجاب والمساكنة والملاحظة، وإذا كانت عقبات الطريق وقوادحه بعضها الّطف وبعضها أخفى، فقد كشفنا عن حروف (العلة) ما كان منها الّطف وأخفى، وما كان منها أظهر وأجلى.

- ٣ -

* أما النص الثاني فقد كفانا القشيري مؤونة الكشف عن إشاراته حيث قرن كل حرف من حروف العلة، بآفته في المعتل من الأسماء فقرن الألف (باللباس)، والواو (بالوسواس) والياء (بالياس)

ولنذهب إلى المعاجم فنراها تقول:

١ - لبس عليه الأمر: اختلط، وفي أمره لبس ولُبْسَةٌ: إذا لم يكن واضحاً. والتبس عليه الأمر: اختلط واشتبه، واللبس: الشك. واللّبس: الشبهة، وأمرٌ ملبس: مشتبه.

وفي القرآن الكريم «ولا تَلْبَسُوا الحقّ بالباطل» (٤٢ البقرة).

لا تخلطوا الحقّ بالباطل لتخفوه، أو لا تستروا الحقّ بالباطل لتجعلوه معمى مشكوكاً فيه.

فالمعنى اللغوي دائر بين التخليط، والتعمية، والشك والحيرة والتدليس والشبه. فإذا اتجهت إلى الجانب الصوفي الإسلامي وجدت أن العبد عليه أن يترك أبواباً من الحلال خوفاً من الوقوع في الحرام. وهذا معنى قول

الرسول ﷺ «لا يكون العبد من المتقين حتى يدع ما لا بأس به، حذرا لما به بأس» (المسائل فى أعمال القلوب والجوارح ٢٠١).

وإذا كان اللبس هو الشبهة، فأنت منهى عنها ليطيب مطعمك ومشربك وملبسك ولا تكن كالذى يرتع حول الحمى فيوشك أن يقع فيه وفى الحديث «مَنْ ترك الشبهات استبرا لذمته ودينه وعرضه، ومن واقع الشبهات، فكأنما واقع الحرام» (المسائل فى أعمال القلوب ٢٠١). وكان مطرف بن الشخير يقول: «صلاح العمل بصلاح القلب، وصلاح القلب بصلاح النية، ومن صفا صفى له، ومن خلط خلط عليه» (علم القلوب ١٨١).

وتستطيع أن تربط صوتيًا بين الألف، وهى أخفى حروف العلة، وأضعفها، وألينها - وبين التلبس بمعنى الخفاء والشك والتعمية، كما أن ألف المد يصيبها التخليط والتلبس وعدم الوضوح والاشتباه حين تكون (مَشُوبَة) ^(٧) بالكسرة فى الإمالة، والإمالة أشكال وأنواع ودرجات، كما تكون ألف المد واللين (مختلطة) (٧) بالضممة وهى المسماة بألف التفخيم، وقد تكون الألف بين التفخيم والترقيق، والفاصل بين هذه الدرجات فى الجانب الصوتى دقيق جدا، كذلك الحرام والحلال بينها مشبّهات والصوفى يترك هذه الشبهات والآفات.

٢ - أما الوسواس : فترى المعاجم أن :

أ - الوسوسة: حديث النفس وهو ما يخطر بالبال ويهمس بالضمير، ويقال لصوت الحلى: وسواس .

ب - الوسوسة : الخطرة الرديئة .

ج - الوسواس : الشيطان الذى يوسوس لغيره.

فالمعنى اللغوى دائر بين: الكلام الخفى، وحديث النفس ، والشيطان. فإذا اتجهت إلى جانب الصوفى وحدث أن الخاطر . وهو خطاب يرد على

(٧) يلاحظ أننا نأتى بالمصطلحات الصوتية نفسها وننظر لها بالمصطلحات الصوفية عند التشهير.

الضمائر - إذا كان من المَلَك فهو الإلهام، وإذا كان من قِبَلِ النفس فهو الهاجس، وإن كان من قِبَلِ الشيطان فهو: الوسواس، وما كان من قِبَلِ الشيطان فهو يدعو إلى المعاصي، وما كان من قِبَلِ النفس فأكثره يدعو إلى اتباع شهوة، أو استشعار كبر «والشيطان طالت مقارنته للإنسان وتفقد له ولأحواله، حتى لم تخف عليه حاله، فعرف مطالبه ومذاهبه» (المسائل في أعمال القلوب ٨١). وهو مجبول على عداوتك، ومنتصب أبدا لمحاربتك يرميك بسامه، وله مع العباد عداوة عامة ومعك أيها المجتهد في العبادة عداوة خاصة، ومعه عليك أعوانٌ أشدّها عليك: نفسك وهواك وله أسباب ومداخل، وهو يراك وأنت لاتراه (منهاج العابدين ٢٢) وهو يأتيك من جميع جوانبك.

والطريق لدفعه بالمجاهدة والمخالفة والاستفراق في الذكر، وفي الحديث عن أنس «إن الشيطان واضع خرطومه على قلب ابن آدم، فإن هو ذكر الله خنس، وإن نسى الله التقم قلبه» (منهاج العابدين ٣٦)، ومن ختله وعداوته ووقوفه لك بالمرصاد، أنه عادى أبويك فأذاقهما المرارة بعد اللذة، وغرهما بفجوره، ونزع عنهما لباسهما، ولم يرجع إلى اليوم عن غيّه «إن الشيطان لكم عدوٌ فاتخذوه عدوًا».

وتستطيع بعد هذا أن تربط (صوتيا) بين الواو - وهي أثقل وأقوى من نطق الياء والألف - وبين الشيطان عدوك اللعين الجاثم على قلبك، يأتيك من وجه الإفساد إغواءً وضلالاً، ومن وجه الخير والصلاح مكرا وخداعا، كما أنها تحتاج إلى جهد عضلي أكثر، والشيطان يحتاج إلى جهد ومجاهدة، ثم لاحظ أن الواو خلفية في مستوى الحلق، ومستديرة في مستوى الشفتين، والإشارة من ذلك أن الشيطان قوى يحاول أن يوقعك في قبضته. لأنه يأتيك من جوانب متعددة من الخلف (في مستوى الحلق) (٨)

(٨) يلاحظ أننا نأتي بالمصطلحات الصوتية نفسها وننظر لها بالمصطلحات الصوفية.

والأمام (فى مستوى الشفتين) (٨) وقد استعاذ العباد بربّ الناس «مِنْ شَرِّ الوسواس، الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس».

٣ - أما : اليأس.

فهو ضيق باب الأمل والرجاء : وفتح باب القنوط والشقاء ولعلك تستطيع أن تلمح ما بين المعنى الصوفى والصوتى من رباط يظهر فى (ضيق) (٨) مخرج الياء، كما يظهر فى الجانب الصوفى من (ضيق) باب الأمل والرجاء، زد على ذلك أن التصغير فى العربية يكون بزيادة الياء، والتصغير علامة ضعف، وفى الفصيلة الهندية - الأوروبية على العموم تجد الكسرة (التي هى بنت الياء) تعبر عن صغر الحجم، والرقّة، وقصر الوقت (من أسرار اللغة ١٤٨ دكتور إبراهيم أنيس ط٤) وتلك الملامح السابقة من: تصغير، ورقّة، وصغر حَجْم تشير إلى الضعف، وهى من هذا الجانب أشبه بِمَنْ أصابه اليأس والقنوط، فتراه ضعيفاً غاية الضعف، ألم تغلق نفسه أمامه النوافذ؟ وتسدّ حوله الفُرج، وسبل الرجاء والأمل؟ وكذلك الياء ضعيفة بالاستفال والرخاوة، والاستفال ضدّ الاستعلاء، ويقول ابن الجزرى (فى النشر ٢٠٢/١): «وأسفل المستفلة الياء». ولهذا حذّر القشيري من هذه الآفات، ودعا إلى كبح جماح النفس بلجام التقوى، وسوقها على خلاف الهوى، وشنّ عليها حرباً لا هوادة فيها، يصارعها فى معركة ضارية لا تهدأ ولا تلين وكان القشيري خبيراً بآفاتها، مدرك لخلجاتها، حكيماً بأدائها، ولهذا ردد اسم هذه الآفات السابقة وهى: المساكنة والملاحظة، والإعجاب، والرياء والوسوسة... كثيراً محذراً منها ومنذراً. ولهذا قمت بإحصائية فى (رسالته) المشهورة لهذه الآفات والأمراض النفسية فأشارت (لغة الإحصاء) إلى شيوع تلك الآفات وانتشارها:

نوع المرض	عدد وروده	نوع المرض	عدد وروده
المساكنة ومشتقاتها	٢٤	الرياء ومشتقاته	١١
الوسواس ومشتقاته	١١	الملاحظة ومشتقاتها	٧
اليأس ومشتقاته	٦	الإعجاب ومشتقاته	٤

وهذا إن دلّ فإنما يدلّ على أن (النفس) محل الأوصاف المذمومة، ليست هي التي تتهمك في الشهوات، وتمتنع عن الطاعات؟ وتعتاد الشهوة والذات! وصدق رسول ﷺ حين قال في دعائه «... لا تكلني إلى نفسي طرفة عين» ولهذا كان أول قدم في القصد إلى الله الخروج عن النفس، وكسر شوكتها بالتبري عن حولها، وانسلاخها عن اختيارها.

وإذا كانت الآفات السابقة قد انتشرت وذاعت في رسالة القشيري كما رأيت في الإحصاء، فتلك إشارة منه إلى شيوعها وذيوعها في المجتمعات وبين الناس كذلك، لأنها آفات وأمراض، ومن خصائص هذه الآفات وتلك الأمراض: الانتشار والذیوع، والعدوى، والشيوع. إذا وضع هذا عرفت سر انتشار قرنائها ومثيلاتها كذلك، وهي: أصوات المدّ واللّين: الألف والواو والياء في الجانب الصوتي.

فقد جاء في كتاب «بصائر ذوی التمييز»^(٩) في لطائف الكتاب العزيز ج ١ ص ٥٦٣ فما بعدها: أن القرآن الكريم قد اشتمل على:

٤٨٨٠٠ ألفا

٢٦٥٦٥ واوا

٢٥٩٠٩ ياء

(٩) تأليف مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي بتحقيق الأستاذ محمد النجار. القاهرة ١٩٦٤.

وبمقارنتها بالأصوات الصامتة فى القرآن تعرف مدى كثرة: الألف
والواو والياء وشيوعها فى نسيج القرآن وسداه :

فالشينات ٢٢٥٣

والصادات ١٠٨١

والطاءات ٢٢٧٤

والظاءات ٨٤٩٩

ولم يقارب (الألف والواو والياء) فى الإحصاء إلا :

اللامات ٣٣٥٢٢

الميمات ٢٦١٣٥

النونات ٢٦٥٢٥

والسرّ فى هذا التقارب أن اللام والميم والنون تعدّ من الناحية الصوتية
شبيهة بأصوات المدّ واللين، ونخلص من هذا بأن شيوع الألف والواو والياء
فى النسيج العربى معناه شيوع مدلولاتها وهى: الإلباس، والوسواس،
والياس، والمساكنة، والملاحظة، والإعجاب، والرياء.

ويمكن أن نعلل لانتشار المساكنة وكثرتها فى رسالة القشيري حيث وردت
٢٤ مرة، وهو عدد لم ينله مرض آخر بأن السرّ فى ذلك: أن المساكنة من
أكثر الآفات شيوعاً فى الطريق الصوفى، فَمَنْ مِنَّا يتجرّد منها، وَمَنْ مِنَّا
يسلم من مساكنة ماله، أو ولده أو صاحبه؟

وبهذا أمكننا فى ضوء تلك الإحصاءات بين الجانبين أن نؤكد الرباط
الصوتي الصوفى ونقويه، ونزيده توثيقاً وبياناً، وإحكاماً ونظاماً.

وليس بدعاً ما عرضناه فى تلك المحاولة وأثبتناه، فقد نجد فى تراثنا
العربى اللغوى نتفا تقوى ما نذهب إليه، ففى سيبويه (٢١٨/٢) يرى فى

المصادر التي جاءت على الفعلان أنها تأتي للاضطراب والحركة نحو: الغليان والغثيان، فقابلوا بتوالي حركات المثال (يقصد البناء) توالى حركات الأفعال، كما يرى ابن جنّي في الخصائص (١٥٢/٢ فما بعدها): أن أقوى اللفظ ينبغي أن يقابل به قوة الفعل، وضرب أمثلة لمساوقة الصيغة للمعاني، فمن ذلك :

(أ) خضم وقضم: فالخضم لأكل الرطب، والقضم للصلب اليابس، وفي النهاية لابن الأثير (باب القاف مع الضاد) حديث أبي ذر رضي الله عنه: تأكلون خضمًا ونأكل قضمًا. فاختراروا الخاء لرخاوتها للرطب، والقاف لصلابتها لليابس، حذوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث.

(ب) والنضح - بالحاء غير معجمة - ما كان رشا خفيفا. والنضح - بالحاء - ما كثر حتى يبل. فجعلوا الحاء لرققتها للماء الضعيف، والحاء لغلظها لما هو أقوى منه.

(ج) ولك أن تنقل الفعل إلى باب (نصر ينصر) للمفاخرة والمبالغة، وذلك مطرد عند رجال التصريف، كما تنقل الفعل إلى باب (علم يعلم) إذا أردت الدلالة على التغير خلوا وامتلاء وجودا أو عدما، وتنقل الفعل إلى باب (كرم يكرم) إذا أردت الدلالة على الأوصاف الخلقية، والطبائع والفرائز إذا كان لها رسوخ ومكث، ويعمل الضم فيها، لانضمام الطبيعة إلى الذات عند صدور هذه الأفعال منها، كانضمام الشفتين عند خروج الضم منها (اللسان العربي مجلد ١٠ ج ١ ص ٦٩) فإذا قلت: لؤم: دلت على الكثرة والدوام والثبات وهي تمثل أعلى درجة من هذه الصفة، وتنقل الفعل إلى باب (فعل يفعل) بكسر العين فيهما إذا أردت الدلالة على التقسيم والتجزئة مثل: ورث يرث.

(د) ينفر - بالضم من النفار والاشمئزاز، وينفر - بالكسر من نفر الحجاج من عرفات (المزهر ١ / ٢٠٨).

والإنسان فى عالمه إما مؤثر وإما متؤثر، أو إما أن يقوم بالحركة بنفسه وإما تحصل له من غيره ممن يعيش معه أو من عناصر الطبيعة من: رعد ومطر ونار... (والعربى لما رأى فى عالمه أبعاداً ثلاثة بنى لفته على ثلاث حركات أيضاً :

- ١ - الفتح : وهو ما صدر عن إرادتك مثل : ضرب خرج قطع أكل..
- ٢ - الكسر : وهو ما صدر عن العالم الخارجى مثل: مرض حزن عطش سقم. فالفعل مكسور العين وقد دل على كل ما يحصل للفاعل بدون إرادة منه.
- ٣ - الضم : وهو يشير إلى التجمع والكثرة والثبات مثل : حسن كبر.. وهو يشير إلى حصول الشئ للفاعل بكثرة ودوام (اللسان العربى).

إذن الحركات قصيرها ومطولها لا يرجع عامل الاستحسان والاستخشان، أو الثقل والخفة فيها أو اختلاف الدلالة عليها إلى عوامل ظاهرية فحسب وإنما ترتبط بعوامل أخفى وأدق: صوتية عضلية فيزيائية كيميائية نفسانية، وهى التى تجعل الصيغة تؤثر حركة على أخرى. وكلما ازدادت الحركة شبيها بالمعنى كانت أدل عليه، وأشهد بالفرض منه.

ومن هنا كانت قفزتنا ولففتنا حين جعلنا رحماً وثيقة بين عالم الأصوات فى حركات المدّ واللين وبين عالم الأرواح والأسرار، حيث كنا نتعامل مع حركات المدّ: الواو والألف والياء ملاحظين أنغامها وأجراسها ورنينها وتفاعلاتها على اعتبار أنها تمثل خلية تنمو وتتطور، وترسل وتتقبل وتنسبط وتتججر. كما ظهر أن تلك الحركات عندما تختلف على الصيغة فإنها تؤلف نمطاً منسجماً يتواكب مع المعانى. وهذه المساوقة بين الحركات ومعانيها تعد نمطاً فريداً لسياسة الحروف والحركات فى العربية، وهى فى ذلك لا مثيل لها فى اللغات، حيث تمتاز بحساسية وطواعية للتعبير عما يدور فى النفس من خلجات وأفكار.

- ٤ -

ويتجلى لك من نص القشيري السابق: «مَنْ سَلِمَ اسْمُهُ مِنْ أَلْفِ الْإِلْبَاسِ وَوَاوِ الْوَسْوَاسِ، وَيَاءِ الْيَأْسِ - فَقَدْ صَحَّ اسْمُهُ، وَحَقَّ لَهُ الْإِعْرَابُ وَهُوَ الْبَيَانُ».

١ - أنه جَسَمَ هذه الآفات، وأبرزها عن طريق النغم في موازاة فقراتها وتساويها، وإلزامها حرفاً موسيقياً واحداً، وهو السين، وهو صوت رخو مهموس، فكأن القشيري (يهمس) في أذنك ليحرك خلجات نفسك، وخطرات قلبك، ودقائق مشاعرك، ورقائق أحاسيسك، فتقطع العوائق، وتمحو العلائق، وتتخلى عن الآفات والمفاسد، وتتخلى بالفضائل والمحامد، وتتفد الأوامر الإلهية في دقة وورع، فيتم لك اكتشاف أبعاد نفسك، وتتطلق من مرحلة إلى أخرى حيث انتظار الفيض، والتطلع إلى الرضى، ويكون ظاهرك مع الخلق، وباطنك مع الحق.

٢ - أن القشيري استغل أصوات اللين والمد وما سما، (حروف العلة) فحملها معانى نفسية، وجوانب أخلاقية دقيقة، وكلها غير مرغوب فيها؛ لأنها معلولة منحرفة كحروف العلة.

وإنما أثر حروف (العلة) في نصية أول الملحق؛ لأنها (عرض) أما الأصوات الساكنة فهي (الجوهر) والأصل، وحروف العلة إذن أقرب إلى العلل والآفات والأمراض: كالإعجاب والرياء، والمساكنة والملاحظة، والإلباس والوسواس واليأس. ولذا كان النحاة يصفون هذه الأصوات - نظراً لما كان يتوارد عليها من: الحذف والقلب والإعلال، والإدغام والإبدال - بالاعتلال.

٣ - أن هذه الأصوات اللينة الممدودة المعلولة - يرتبط بعضها ببعض فهي متدرجة متداخلة صوتياً؛ لأن ثلاثتها يركز على الشفتين، ضمماً وانفراجاً، وعلى اللسان صعوداً وهبوطاً، وكذلك نلمح هذا التدرج والتداخل في الآفات والأمراض النفسية، والخلقية التي تحدثنا عنها آنفاً. من ذلك:

بثر (بالفتح) وجهه: أخرج بثوراً. وبثر (بالكسر) وجهه حصلت له بثور. وبثر (بالضم) وجهه. أصبح ذا بثور. فهناك تدرج واضح في المعانى بين الصيغة الواحدة حين تقاصفت عليها الحركات والتي هي أبعاض من حروف المدّ.

ولهذا لم يستعمل القشيري الأصوات الصامتة؛ لأن كل حرف صامت لا صلة له بصاحبه، فالفاء غير القاف، والحاء غير الخاء...

٤ - وأهم خاصية لحروف المدّ واللين (المعلولة) الجهر وقوة الوضوح السمعى إذا قيسَت بالأصوات الصامتة، ولما كانت أوضح فى السمع كان الانحراف فى نطقها نابيا فى الأسماع، وكذلك تلك الآفات والأمراض فهى نابية مرفوضة، حيث إن أصحابها لم يكبحوا جماح نفوسهم، ولم يحاربوا أهواءهم وأطماعهم، واستداموا المنى والمطالبات ورتعوا فى مرايض الشهوات.

٥ - أن زيادة حروف المدّ واللين: الألف والواو والياء (علة) فى الصيغة تخرجها عن أصولها؛ ولهذا عدّوا الصيغ الآتية من ضرورات الشعر، لأنها خرجت عن الأصل، وأقبح الضرائر عندهم، الزيادة المؤدية إلى ما ليس أصلا فى كلامهم :

أ - كقول الفرزدق :

تَنَفَّى يَدَاهَا الْحَصَى فِي كُلِّ هَاجِرَةٍ نَفَى الدَّرَاهِيمُ تَنْقَادُ الصِّيَّارِيفُ

والأصل: الدراهم والصيارف (كتاب سيبويه: ١/١٠، ديوان الفرزدق ٥٧٠/٢ شرح البرقوقى. القاهرة، شرح أبيات سيبويه ٩ للنحاس. حلب ١٩٧٤).

ب - وقول ابن هرمة فى رثاء ولده :

فَأَنْتَ مِنَ الْفَوَائِلِ حِينَ تُرْمَى وَمِنْ ذَمِّ الرِّجَالِ بِمَنْتَزَاحٍ

والأصل : بمنزح

ج - وقول عنتره :

ينباع من ذفرى غضوب جَسْرَة زِيَّافَة مثلِ الفنيق المُكْدَم
والأصل: ينبع. (٢٢ ديوان عنتره: التجارية. القاهرة، الخصائص
١٢١/٣)

وكما مطلّت الكسرة والفتحة، وجدناهم يمدّون الضمة حتى تصبح واوا،
فمن مطلقها وزيادتها فى الاسم :

أ - وليلة خَامِدة خَمودا طَخِيَاء تُغْشِي الجَدَى والفرقودا
والأصل: الفرقد. (الصاحبى ١٩٣. السلفية. القاهرة).
ومن مطلقها فى الفعل :

ب - وإتنى حَوَّثما يَشَى الهوى بصرى من حيثُ ما سلكوا أدنو فأنظور
والأصل: أنظر. (خزانة الأدب ١ / ٥٨، ٣ / ٤٧٧ و ٥٤٠ بولاق، الهمع ١٥٦/٢).
ج - (لو أنَّ عمراً همَّ أن يَرْقودا)
والأصل: يرقد (الصاحبى ١٩٣).

فهذه الأسماء والأفعال لما زيدت عليها حروف المد واللين (العلة)
أخرجتها عن أصلها وألحقها بالضرائر، وليست الآفات والأمراض
النفسية والخلقية التى ذكرها القشيري من: الإعجاب، والرياء، والمساكنة،
والملاحظة، والوسواس، والإلباس، والياس، إلا عللا وزيادات وعوارض
وقوادح طارئة، تخرج العبد عن أصله؛ لأن الأصل أن يكون العبد متخلصاً
منها فى الطريق الصوفى، فإذا لحقته خرج عن أصل العبودية الصحيحة،
وكذلك عندما لحقت حروف العلة تلك الصيغ أخرجتها عن أصلها،
وانحرفت بها عن طريق العربية السديدة. وقد كان المعرى كذلك يمقت
الفضول والتزيد - فى الحروف والأناسى جميعاً - ويدعو الله أن يجنبه

ذلك فلا يجعله كالحروف الزائدة؛ لأنها - فيما يرى - فضولية غير أصيلة. «فأما واو عمرو - فأعوذ بك - ربّ الأشياء - إنما هي صورة لا جرس (لا صوت) لها ولا غناء - مشبهها لا يحسب من النسمات» (رسالة الهناء. أبو العلاء المعري. آخرها هامش).

٦ - والقشيري جرى في تقسيم حروف المد واللين مجرى النحاة مع خلاف يسير، فهو يذكر: ألف الإلباس، وواو الوسواس، وياء الياس، فيضيف الألف والواو والياء إلى الآفات التي تعترض طريق العبد في الطريق الصوفي، لكن النحاة تضيفها إلى جزئيات النحو ومسائله، وقضاياها، وأبوابه وفصوله. فيقولون:

- ألف الأصل، ألف الوصل، ألف القطع، ألف الترتم، ألف الإشباع، ألف التعجب، ألف التعريف، ألف التسوية، ألف العوض، ألف التفخيم، ألف التقرير، ألف الإيجاب، ألف التخيير. (بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ٢/٦ ط المجلس الأعلى. القاهرة ١٩٦٤). وانظر: (كتاب معاني الحروف ص ١٤٢ لأبي الحسن الرمانى بتحقيق الدكتور عبد الفتاح شلبى ط نهضة مصر).

كما يقولون :

- واو الحال، واو الاستئناف، واو القسم، واو النسق. (كتاب الأزهية في علم الحروف ٢٤٠ تأليف أبي الحسن على بن عيسى الرمانى بتحقيق عبدالمعين الملوحي. دمشق ١٩٧١). وانظر: (بصائر ذوي التمييز ٥/١٤٥ تحقيق الأستاذ الطحاوى ١٩٧٠ القاهرة).

كما يقولون أيضا :

- ياء الوقف، ياء التصغير، ياء النداء.

فتقسيم القشيري أشبه بتقسيم النحاة إلا أن القشيري يوضح بهذه

الحروف جوانب سلوكية، ويكشف بها آفاقا مرضية، والنحاة يقصدون منها جوانب: نحوية، لسانية، أسلوبية.

وأخيرا: فقد رأيت أن القشيري حَمَلَ أصوات المدّ واللين (العلة) دلالات ومعاني دقيقة، فاستشف من الحروف رموزا هي أقرب إلى وحي الأصوات، واستوحى منها دقائق المعاني ورقائقها، على أن الخلاف قد دبّ بين القدماء من علماء اليونان والعربية في الصلة بين الألفاظ ومدلولاتها، وفي مناسبة الحروف لصوت الأحداث^(١٠)، كما انعكست آراء هؤلاء على المحدثين من علماء الشرق والغرب، فمنهم مَنْ عارض هذا الربط، ومنهم من أيده، وأرى أن الألفاظ بمرور الزمن تكتسب قدرا أكبر من الرمزية، وهم لهذا يعتزون بها، وينقبون عما تتضمنه من أسرار، وينسبون لها فوق ما لها في الحقيقة والواقع (انظر دلالة الألفاظ: الفصل الثالث والرابع. دكتور أنيس ط^(٢))، ولقد كان القشيري بارعا حيث مدته قدرته بظلال من الدلالات استوحاها من تجربته العلمية، وحياته الباطنية، ورحلاته النفسية، فقد استشف من أصوات الواو والياء والألف دلالات لاتراها إلاّ نفسه، وظلالا وألوانا لا تفسرها غير ريشته. وهو بذلك أشبه بالفنان الذي يرى في الصورة ما لا يراه غيره، أو الشاعر الذي يرى أن الحركة في قصيدته ذات ألوان.

أما حديث (ابن جنّي) اللغوي عن الواو والياء والألف فهو حديث العالم الذي لايهمه فيها إلا الجانب العلمي الصوتي.

وقد يهمّ بعض العلماء من الحروف جوانب أخرى فمثلا: ابن مسرّة ٣١٩ هـ. يربط بين حروف (الألف والواو والياء) التي هي حروف العلة وبين

(١٠) انظر الخصائص لابن جنّي ١٥٢/٢ - ١٦٨/١، ٦٤ - ٦٦ «باب في امساس الألفاظ أشباه المعاني» والخصائص ٢٦٤/٣ - ٢٦٩ «باب في قوة اللفظ لقوة المعنى». والخصائص ١٤٥ / ٢ - ١٥٢ «باب في تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني».

النفس فى مراتبها الثلاث: النفس الناطقة، والنفس الحيوانية، والنفس النباتية، واستغلال الشكل الكتابى لهذه الحروف فى تأييد هذه الفكرة» الألف قائمة هكذا (أ) والياء ساجدة هكذا (ى) والواو منحنية هكذا (و).

ويضيف ابن مسرة إلى ذلك قوله «وكذلك نجد هذه القوى النفسانية الثلاث فى الخلق، وذلك أن الحيوان الذى له نفس ناطقة منتصب القامة، مثل الألف، وما له نفس حيوانية فقط فهو راعٍ منحني مثل الواو، وما له نفس نباتية فهو ساجد فى هيئته؛ لأن رأسه مما يلي الأرض فقط كالنبات كله (من مؤلفات ابن مسرة المفقودة - ص ٥٤ فصلة من مجلة كلية التربية جامعة طرابلس. للدكتور كمال جعفر).

أما المعرى فله مداعبات وملاعبات مع الألفاظ والحروف^(١١)، يصورها ويسبح فيها خياله ويتمثل حياتها، وقد يجرى حوارا بين أصواتها وحروفها، فيشبه نفسه أو غيره بها ومن ذلك قوله:

والناس - بين حياتهم ومماتهم - مثل الحروف: محركٌ ومسكنٌ

ويتفجع لفقد بصره، ويقابل بين نفسه وبين (معتل العين) فيقول:

أعلتُ علّة (قال) وهى قديمة أعيّا الأطبّة كلّهم إبراؤها

كما يرجو المعرى ربه ألا يكون معتلا كـ «واو يقوم» ولا مبدلا كـ «واو موقن» تبدل من الياء. بل يذهب المعرى إلى أكثر من ذلك، فهو يرى أن الحروف تستشعر خوف الله تعالى. (آخر رسالة الهناء (هامش) لأبى العلاء المعرى بشرح كامل كيلانى. بيروت). والصوفية وإن اتفقوا على ضرورة دراسة الحروف إلا أنهم يختلفون هدفا وغاية، ويتشعبون فى مذاهبها طرائق قدا.

(١١) من هذه المداعبات مثلا قول بعضهم: رحم الله عبدا راح يبحث عن النقط ليضعها فوق الحروف، فلما وجد النقط وعاد بها لم يجد الحروف.

وقد وقفت على أن غاية القشيري منها تتمثل في تصحيح السلوك الإنساني، وربطها بمذهبه في التخلق، فكانت بمثابة علامات ونذر في الطريق الصوفي، فمن سلم اسمه من ألف الإلباس، وواو الوسواس، وياء الياس. فقد صحَّ اسمه، لعدم تأثير الأطماع والشهوات فيه، وتخلصه من الشواغل والعوائق، ونبذه الآفات والمفاسد.

ولما كانت حروف المدّ واللين: الواو والياء والألف لها قيمة مهمة في الجانب الصوفي فقد أثرت تسميتها «صوفية الحركات» أو «أخلاقية الحركات» وهي كذلك لا تقل خطرا عنها في الجوانب: الصوتية، والصرفية، والنحوية.

فمن وظائفها في الجانب الصوتي: الجهر وقوة السمع، ومكانتها في العروض العربي حيث سجلت في موازين الشعر (اللغة العربية: معناها ومبناها ص ٧١ دكتور تمام حسان. الهيئة المصرية. القاهرة).

وفي الجانب الصرفي: نراها مناطا لتقليب صيغ الاشتقاق، وهي تمثل عنصرا أساسيا في تأليف الصيغ المتفرعة، فالصور الصرفية المأخوذة من (قَتَلَ) ما كان لها أن توجد بدون حروف المد واللين (العلة): قاتل قَتِيل، قَتول، مقتول، قتال....

وأنها تمثل عنصرا مهما في كل من: النبر في الجانب الصرفي، والتفيم في الجانب النحوي، رد على ذلك أنها تكون قمم المقاطع العربية.

وفي النهاية تشكّل علامة إعراب فرعية في أبواب: المثني، وجمع المذكر، وما ألحق بهما، والأسماء الستة.

(٣)

بين المباني والمعاني في النحو

«مَنْ وَقَفَ مَعَ حَسِّ الْمَبْنَى كَانَ مُحْجُوبًا عَنِ اللَّهِ»

«وَمَنْ وَقَفَ مَعَ حَسِّ الْمَعْنَى كَانَ عَارِفًا بِاللَّهِ»

.١.

كان الإعراب ولا يزال أصلا من أصول النحو. إلا أن الإعراب طغى عليه حتى انصرف النحو عن أصوله الأخرى إلى هذا الإعراب يفلسفه ويعلله. وعرفوا الإعراب بأنه: تغيير أواخر الكلم لاختلاف العوامل الداخلة عليها لفظا أو تقديرا، فالإعراب يتكون من عنصرين:

أولهما : العامل وهو المؤثر.

وثانيهما : الأثر.

وقد اختلف علماء العربية أمام حركات الإعراب، وهل هي دالة على المعاني أم لا؟

وأول من أشار إلى ذلك الخليل بن أحمد حين قال: إن الفتحة والكسرة والضمة زوائد وهن يلحقن الحرف ليتوصل إلى التكلم به، والبناء هو الساكن لا زيادة فيه^(١٢)، وقد اشتد الجدل بين تلاميذ الخليل، فمن قائل: بأنها دالة على المعاني من فاعلية ومفعولية وإضافية^(١٣)، ومن قائل^(١٤) بأن حركات الإعراب ليست لها بالمعنى علاقة مفهومة، فلا مدلول لها ولا معنى. وصاحب هذا الرأي: قطرب، أبو علي محمد بن المستنير ت ٢٠٦هـ.

(١٢) كتاب سيبويه ٣١٥/٢.

(١٣) الإيضاح للزجاجي ٦٩ تحقيق: مازن المبارك، دار العروبة، بلع الأدلة. لابن الأنباري ١٠٩ تحقيق: سعيد الأفغاني، دار الفكر، الأشباه والنظائر: للسيوطي ٧٦/١ فما بعدها. حيدر آباد.

(١٤) الإيضاح للزجاجي ٧٠، الأشباه والنظائر ٧٩/١.

وهو تلميذ سيبويه، ويختصر أبوالبقاء العكبرى ت ٦١٦ هـ. رأى قطرب فيقول: لم يدخل الإعراب لعله، وإنما دخل تخفيفا على اللسان^(١٥).

ويذهب أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس فى كتابه^(١٦) إلى أن تحريك أواخر الكلمات كان صفة من صفات الوصل فى الكلام شعرا ونثرا، ويستند فى ذلك إلى قواعد العربية فى الوقف، فالحركات لا تعدو أن تكون فى كثير من الأحيان لوصل الكلمات بعضها ببعض.

أما جمهور النحاة فقد أسرفوا على أنفسهم حين أغرقوا ظاهرة الإعراب فى متاهات المنطق والفلسفة، فالحركات آثار، وكل أثر لابد له من مؤثر، وليس هذا المؤثر غير (العامل)، وجعلوا للعامل أقساما وقواعد.

وكثيرا ما ينسى النحاة (المعنى) بالحرص على نظرية العامل^(١٧) حتى جعلوا الإعراب حكما لفظيا خالصا يتبع لفظ العامل وأثره^(١٨). وأصبحت كل نظرة فى أبواب النحو ومسائله وقضاياها لابد أن تطل من نافذة (العامل).

على أننا لا ننكر أن يكون الإعراب جزءا من النحو، وليس كل النحو، كما أن الإعراب وحده ليس دليل المعانى كما توهم النحاة، وكذلك العلامة الإعرابية لا تعدو أن تكون واحدة من القرائن الدالة على المعنى، فإذا بنينا المعنى النحوى عليها، وبنينا النحو كله على أساسه فقد رجحنا دون مرجح، على أن الحركة الإعرابية قد أهدرت عند أمن اللبس فى القرآن الكريم والتراث، وحين أهدرت كانت هناك قرائن أخرى تحافظ على المعنى^(١٩).

(١٥) المسائل الخلافية للعكبرى. ورقة ١٠١ خط دار الكتب المصرية رقم ٢٨.

(١٦) من أسرار اللغة ٢٠٨ ط ٣.

(١٧) من ذلك: أنهم قدروا (أدعوا أو أنادى) عبد الله. فى قول العرب: يا عبد الله. حيث رأوه منصوبا بفعل مضمر، فهم تعسفوا فى تقدير (عامل) ينصبه بناء على أن كل منصوب لابد له من ناصب، وبذلك انحرف الأسلوب على أيدى النحاة، حتى صار الداء خبرا بعد أن كان إنشاء فسار فى طريق لا يريد المتكلم، وغاب عنهم أن المتكلم لا يحذف أو يذكر أو يصل أو يفصل إلا إذا كان مرد ذلك الى حالته النفسية، وهى جزء من الأسلوب: انظر: الرد على النحاة ص ٩٠.

لكن علماء البلاغة كانوا يلاحظون مثل هذه الأساليب وغيرها ومطابقتها للمقام والحالة النفسية للمتكلم.

(١٨) أحياء نحو. إبراهيم مصطفى. فى أماكن متفرقة.

(١٩) القرائن النحوية. بحث فاز بالدرجة الأولى للمكتب الدائم للتعريب. دكتور تمام حسان.

ومن أجل هذا انحرف النحو العربى عن وظيفته، وتنكب منهج النحاة سبيل (المعانى) حتى اتسمت الدراسات النحوية بسمة الاتجاه إلى (المبانى). ولم يكن قصدها إلى (المعنى) إلا فى المنزلة الثانية من عنايتهم، فلم يهتموا كثيرا بالمعانى التركيبية، ولم يفتنوا إلى أهمية الظواهر السياقية فى تحديد المعنى النحوى، ففصلوا دراسة (المعانى) عن النحو وألحقوها داخل علم من علوم البلاغة يسمى (علم المعانى) فقطعوا أوصالها، وأى شئ يبقى للنحو إذا درست قضاياها ومسائله بمعزل عن تلك (المعانى)؟

وإحقاقا للحق لم يتنبه أحد إلى تناول هذه المعانى فى النحو غير رجلين: أولهما ابن جنى، وثانيهما عبد القاهر الجرجانى:

أما الأول (٢٠) فيرى: «أن العرب قد تحمل على ألفاظها لمعانيها حتى تفسد الإعراب لصحة المعنى».

ويقول أيضاً (٢١): «فإن أمكنك أن يكون تقدير الإعراب على سمت تفسير المعنى، فهو ما لا غاية وراءه، وإن كان تقدير الإعراب مخالفا لتفسير المعنى، تركت تفسير المعنى على ما هو عليه، وصححت طريق الإعراب».

وأما الثانى فقد رسم طريقا جديدا للبحث النحوى، حيث تجاوز أواخر الكلم وعلامات الإعراب، وبين أن للكلام (نظما) وأن رعاية هذا النظم هى السبيل إلى الإبانة والإفهام، وأنه ليس شئ من هذا النظم إلا وبيانه إلى علم النحو، يقول عبد القاهر موضحا فكرته فى كتابه دلائل الإعجاز (٢٢): «واعلم أنه ليس (النظم) إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو... فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا وخطؤه إن كان

(٢٠) المحتسب ٢١١/٢ ط المجلس الأعلى. القاهرة.

(٢١) فى كتابه الخصائص ٢٩٢ ط الهلال.

(٢٢) ٦١ ط الثانية.

خطأ إلى النظم، ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو (معنى من معاني النحو) قد أصيب به موضعه، ووضع في حقه.....»

فعبد القاهر لا يهتم بالنحو لذاته ولا لإعرابه، بل لوضعه وترتيبه من: تقديم وتأخير وتوكيد وشرط، ونفى واستفهام، وذكر وحذف، فإذا انتقلت الجملة من الاستفهام النحوي إلى التوبيخ، ومن التوبيخ إلى التعجب، ومن الإنشاء إلى الخبر وبالعكس كان ذلك هو صلب النحو، واسمه الحقيقي: علم معاني النحو. فعبد القاهر سنّ سنة في الدراسات النحوية تجاوز بها علامات الإعراب إلى ما وراءها من وضع الكلمة في الجملة، وموضع الجملة مع الجمل. ولكن هذه العلامات المضيئة من مصباح هذين العالمين قد أطفأتها جحافل الظلام بسبب انتصار الجمود الذي خيم على العقول حتى همدت، والأفكار حتى خمدت، كما أن أكثر علماء العربية آنذاك كانوا واقفين من اللغة عند ظاهر لفظها، لا يتجاوزونه ليدوقوا ما ذاق عبد القاهر من حسّ لغوي مرهف، فارتد النحو سريعا لبحث في (المباني) والقوالب التي لا روح فيها ولا حياة، ارتد لبحث عن أحوال أواخر الكلم إعرابا وبناء!! (٢٣).

وبذلك صار الإعراب وهو دليل المعاني يدرس بمعزل عن تلك (المعاني). ومن ذلك أن بعض مشايخ الإقراء أعرب لتلميذ له بيت المفصل:

لا يُبْعِدُ اللَّهَ التَّلْبُّبَ وَالْـ غارات إذ قال الخميس: نَعَمْ

فقال: نعم. حرف جواب. وليس بصحيح لأنه لم يراع المعنى. ونعم: واحد الأنعام، وهو خبر لمحذوف تقديره: هذه نَعَمْ.

(٢٣) من ذلك أن كثيرا من المؤلفات النحوية قد صنفت على حسب الآثار الإعرابية، وكان ملاك ترتيب الأبواب النحوية يرجع إلى التشابه في شكل الحركة الإعرابية وإهمال ما سواها من الظواهر المعنوية المهمة التي ينبغي أن تلاحظ آثارها في مجال التصنيف، ويكاد الترتيب المتبع في التأليف بين النحاة يلتزم: بالمقدمات النحوية العامة، ثم ذكر الأبواب النحوية مرتبة على حسب حركتها الإعرابية، المرفوعات فالمنصوبات فالمجرورات.

انظر: تقويم الفكر النحوي ١٤١. بتصرف. د/ على أبوالمكارم. دار الثقافة. بيروت.

ومن ذلك إعراب (حيث) فى قوله تعالى: «اللّٰهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ»، فالمتبادر أن (حيث) ظرفُ مكان، لأنه المعروف فى استعمالاتها، وهو فاسد فى المعنى، إذ المعنى أنه تعالى يعلم المكان المستحق للرسالة، لا أن علمه فى المكان، فهو مفعول به، لا مفعول فيه، وناصبها (يعلم) محذوفاً مدلولاً عليه بـ (أعلم). لأن أفعَلَ التفضيل لا ينصب المفعول به (مغنى اللبيب ٥٨٢/٢، ٥٣١) تحقيق محيى الدين.

وإذا لم تكن مهمة النحوى دراسة معانى الكلام إلا تبعاً، فقد انحصرت مهمته فى بيان العلاقات التى تتصل بالبنية اللغوية، ولهذا يستطيع النحوى إعراب جملة: فَعَلَ فَاعِلٍ فِعْلاً فَعِيلاً فى المفعَلِ المفاعِلِ، لأنه يجد فيها كلاماً تاماً من حيث العلاقات البنيوية، وإن كانت لا تحمل معنى. أما فى نحو (المعانى) فلا إعراب لهذه الجملة عنده لأنها لا تحمل معنى، وغاية ما يسعى إليه نحو المعانى، هى (المعانى) ذاتها، لا (المباني)، أو الجوهر لا العرض، أو المركز لا الهامش.

وإذا كان علماء النحو قد اشترطوا لصحة الإعراب معرفة المعنى، إلا أنهم لم ينظروا إلى المعانى على أنها غايات فى نفسها، بل إنها وسيلة للكشف عن العلاقة البنيوية، وليس الإعراب عندهم إلا الكشف عن تلك العلاقات البنيوية.

ولما كان الإعراب فى حقيقته فرع المعنى، كان المعنى هو الذى يوجه الإعراب. من ذلك قوله تعالى: «ولقد آتيناك سبعاً من المثانى» إن كان المراد بالمثنى القرآن. فـ (من) للتبويض، وإن كان المراد به الفاتحة فـ (من) لبيان الجنس. (الإتقان فى علوم القرآن ١٨٠/١ مصطفى الحلبي ط ٣).

فإذا جعلت الإعراب يوجه المعنى، كما إذا علقت (إلى) بـ (تكتبوه) فى قوله تعالى: «ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله» أفسدت المعنى، لاقتضائه استمرار الكتابة إلى أجل الدّين، والصحيح أنه متعلق بمحذوف حال أى: مستقرّاً فى الذمة إلى أجله. (مغنى اللبيب ٥٣٠/٢ تحقيق محيى الدين).

٢٠

وفي نحو (المباني) يُعَدُّ الإنسان لاحنا إذا خالف قواعد نحو العبارة، لأن نحو العبارة نحو (مبان)، بخلاف الصوفي فإنه لا يعدُّ لاحنا إذا خالف قواعد هذا النحو العباري، لأن نحو الإشارة نحو (معان)، كما أن للصوفي إشارات التي تعصمه من هذا الخطأ وذلك الزلل، وإن بدا أنه لحن، وقد لحنوا أبا حنيفة - وكان في الفتيا ولطف النظر واحد زمانه، وسأله رجل فقال له: ما تقول في رجل تناول صخرة فضرب بها رأس رجل فقتله. أتقيده به؟ قال: لا، ولو ضربه بأبا قُبَيْس^(٢٤)؛ لأنه كان يتكلم على مستوى نحو (المباني)، لكن لو قالها إنسان في مقام آخر، كما إذا قالها صوفي في ذروة صفائه لا يُعَدُّ لاحنا، لأنه ينطق بها من فوق مناطق عليا، وهيئات أن تصل إليها معيارية النحاة.

والعبد يفهم من (المعاني) على قدر مقامه عند الله، وليست المعاني عملا عقليا يرتكز على المهارة والذكاء، وإنما هي فضل إلهي، ولا تتاح إلا لمن أوتى حظا من صفاء البصيرة. والصوفي لا يشغله ظاهر اللفظ ومبناه، وحسنه ومغناه، بل يمرق منه إلى بواطن المعاني وما وراءها. من ذلك:

أ - أنه قرئ على الشيخ مكين الدين الأسمر رحمته الله قول القائل:

لو كان لي مُسْعِدٌ بالراح يُسْعِدُنِي لما انتظرتُ لشرب الراح إبطارا
الراح شيء عجيب أنت شاربُه فاشربْ ولو حملتْكَ الراح أوزارا
يا من يلوم على صهباء صافيةٍ كنْ في الجنان ودعني أسكن النارا

فقال أحد الحاضرين: لا تجوز قراءة هذه الأبيات، فقال الشيخ مكين الدين للقارئ: اقرأ، هذا رجل محجوب. فالشيخ لم يكتف بمعنى (المباني)

(٢٤) البيان والتبيين للجاحظ ٢ / ٢١٢ تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون.

أو بالمنطوق، أو بظاهر النص كما يقول الأصوليون، بل تخطى المعنى الحرفي، وضم إليه معنى المقام. أى ما يسمى: بروح النص، وكان الصوفية يفرقون بين المعنى المقالى، والمعنى المقامى، ويفوصون وراء المعنى الدلالى، وهذا هو معنى: المقام، وللأسف لم يستطع نحو (المبانى) أن يفهم المقال فى ضوء المقام، ولهذا كانوا يطلقون على أصحاب هذا النحو:

(أهل صناعة النحو) فهو مرتبط بطابع الصناعة، بل ذهبوا إلى ما وراء الصناعة. واستمع معى إلى أبى على الفارسى وهو يتحدث عن (نحو) على بن عيسى الرمانى، إذ يقول: لو كان النحو ما يقوله الرمانى لم يكن معنا منه شيء، ولو كان النحو ما نقوله لم يكن معه منه شيء^(٢٥). فقد تأثر النحو بروح الفلسفة، ولهذا ضاق الناس بطريقة النحاة، وطالبوا بتهذيب النحو وإصلاحه، أو تركه حتى قال القاسم بن مخيمرة^(٢٦).

«النحو أوله شغل وآخره بَقى».

ب - ومن هذا أن ثلاثة سمعوا مناديا يقول: (يا سعتري برى) ففهم كل منهم مخاطبة عن الله تعالى يخاطب بها فى سره. فسمع الأول: (اسع تر برى) وسمع الثانى: (الساعة ترى برى) وسمع الثالث: (ما أوسع برى) فالمسموع واحد، واختلفت أفهام السامعين كما قال سبحانه: «تُسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل»..

فأما الذى سمع: اسع تر برى فمرید دلّ على النهوض إلى الله بالأعمال، يستقبل الطريق بالجدّ، فقليل له: اسع إلينا بصدق المعاملة تر برنا بوجود المواصله.

وأما الثانى: فكان سالكا إلى الله طاولته الأوقات فخاف أن تفوته المواصله، فقليل له ترويجا على قلبه لما أحرقه نار الشغف: الساعة ترى برى.

(٢٥) نزّهة الألبا ٢١٠ لابن الأنبارى. ط حجر ١٢٩٤هـ.

(٢٦) صبح الأعشى ١ / ١٧١.

وأما الآخر: فعارف كشف له عن وسع الكرم فخطب من حيث أشهد
فسمع: ما أوسع يرى (٢٧) ١

فالصوفي استخرج من الكلمة دلالات وقضايا فائقة رائقة، وأخذ من
أحرفها علوماً، ومن حركاتها وسكناتها فهوماً، ولم يعول على المعنى
الحرفي، أو ظاهر النص، لأنه يعتبرهما مدعاة لقصور الفهم.

ومن الذين تحجروا على (المباني وظاهر النص) ما حدث لليهود وكانوا
يَعُولُونَ على المعنى الحرفي كثيراً: لأنهم طلاب مادة، فقد فهموا من قوله
سبحانه: «إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ» (٢٨) أن
الله قد خلق العالم في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع بعد أن تعب
من العمل الشديد المضني في الأيام الستة، ولكن القرآن سخر منهم لهذا
الفهم الحرفي المادي حيث نزل فيهم قوله سبحانه: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُفُوفٍ» (٢٩).

ومن ذلك أن اليهود أيضاً حينما سمعوا الآية: «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ
قَرْضًا حَسَنًا» (٣٠) قالوا: «إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ» (٣١) فهم لم يفهموا
(المقام) فهما حقيقياً، بل استغلوا معنى (المقال) للمراوغة، ولكن أبا
الدَّحْدَاحِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان فاهماً (للمقام والمعاني) عندما عقب بقوله: «إِنَّ اللَّهَ
كَرِيمٌ اسْتَقْرِضْ مِنَّا مَا أَعْطَانَا» (٣٢).

ولم يتنبه نحاة (المباني) إلى معنى المقام، وإنما الذي تنبّه إليه بحق هم
علماء البلاغة ورجال التفسير، والتصوف. ويذكر الدكتور تمام في كتابه

(٢٧) منية الفقير المتجرد: ص ٩.

(٢٨) الأعراف ٥٤.

(٢٩) ق ٣٨. وانظر تفسير القرطبي. المجلد ١٧ ص ٢٣ فما بعدها. دار الكتاب العربي. القاهرة ١٩٦٧ م.

(٣٠) البقرة ٢٤٥. والحديد / ١١.

(٣١) آل عمران: ١٨١.

(٣٢) اللغة العربية معناها ومبناها ٢٢٨ دكتور تمام حسان.

السابق ٢٣٩. أن أحد المستشرقين سمع أحد الدراويش فى إحدى طرقات القاهرة يصيح (مدد !) فقال المستشرق: أى نوع من المدد يريد ذلك الرجل؟ فالمستشرق هنا عرف المعنى المعجمى للكلمة، ولكن غاب عنه ما وراءها من (المقام).

ويرى الدكتور تمام: أن الوقوف على المعنى المعجمى، وعلى المستوى الوظيفى: الصوتى والصرفى والنحوى - لا يعطينا إلا معنى (المقال)، أو: المعنى الحرفى، وهو معنى فارغ من محتواه الاجتماعى والتاريخى.

ج - ومن هذا ما روى عن أبى بكر رضي الله عنه أنه طرق الباب على رسول الله ﷺ، فسأل الخادم، مَنْ الطارق؟ فقال: أبا بكر، فهنا أثر أبو بكر النصب والفتح واللفة الفصحى فى نحو (المباني) تأباها، لأن استعمالها بالواو، وتعليل ذلك: أنه استعمل (الفتح) فى هذا المقام إشارة منه أن (يفتح) له ذلك الباب، أو (نصبه) بالألف (لانتصابه) فى مقام الخلافة، وإنما أثر الفتح، لأنه أخف الحركات وألطفها، والباب المطروق أسمى الأبواب وأشرفها (٣٣).

فأبو بكر لم يلحن، لأنه وافق مقتضى عالم الحقائق فيما نطق به فى الظاهر، لكنّ نحو (المباني) المعيارى يلحنه، لأنه لم ير إلا (مباني) النحو، فهو محجوب لم يشاهد حقائق (المعاني) ودواعى الحق، ولو شاهدها أو رعاها ما خالفها.

د - وقد ينصب الصوفى المخفوض، أو ينخفض المنسوب، أو يرى الفاعل فينطق به مفعولاً. فيظنه السامع لحن أو خطأ. والحق أنه لم يلحن أنه ولم يخطئ؛ لأنه يدور مع حقائق (المعاني).

فى الحالة الأولى: نصب المخفوض لما تعطيه حقيقته من الفتح، والانتصاب للحق.

وفي الثانية: خفض المنصوب لما تعطيه حقيقته من أنه بالخفض أحق.
وفي الثالثة: جعل الفاعل مفعولاً، لأنه رأى ألا فاعل إلا الله، فهو وحده المستحق (لرفع) دون غيره، وهذا حكم الفاعل.
فحقائق (المعاني) هي التي أجرت على لسانه هذا الأسلوب المخالف لما عليه نحو (المباني).
هـ - وإليك اتجاهين مختلفين في نحو (المباني) عن نحو (المعاني).
وهما يدوران حول قضيتي (المبتدأ) و (الزمان) في النحو التالي:
أولاً: المبتدأ:

وهو عند الصوفية قائم بذاته، ولا يحتاج إلى خبر، فإذا قلت: (هو) كان حاضراً لا غائباً، وتاماً مفيداً عندهم، وفي نحو (المباني): (هو) يمثل ضميراً غائباً ناقصاً لا معنى له إلا بوجود الخبر الذي هو جزء متمم للفائدة، وبدون الخبر يظل المبتدأ عديم المعنى، بعكس الحال في نحو (المعاني).
ثانياً: الزمان:

وكذلك (الزمان) يختلف باختلاف النحويين، فالزمان في نحو المباني:
ماض وحال ومستقبل. أما عند نحاة (المعاني) وهم الصوفية فلا زمان عندهم.

أما موقف القرآن الكريم من الزمان: فكان يتحدث حيناً عن نظام الزمان البشري المؤلف كقوله سبحانه: «إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ... مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ»^(٢٤) فهو يتحدث عن أشهر السنة بما فيها الأشهر الحرم، وكقوله سبحانه: «هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عِدَّةَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ»^(٢٥). فهنا يتحدث

(٢٤) ٢٦ من التوبة.

(٢٥) يونس ٥.

عن الزمان الذى يقاس بدوران الكواكب، وحينما آخر يتحدث عن نظام الزمان الالهي، أو (اللا زمان) فهو آن أبدى، وحاضر سمرمدى يعلو فوق جميع اللحظات، ولا يخضع للتغير أو التطور كقوله سبحانه: «إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له: «كُنْ فيكون»^(٢٦). كن: فكان كل شيء، فهنا أسقط الماضى والحاضر والمستقبل بضرية واحدة بحيث لا يكون قائما سوى (اللا زمان الالهي) الذى هو جزء من الأزل^(٢٧). فأمره وفعله لا يحتاجان إلى وقت أو زمان أرضى.

والصوفى وإن كان يعيش فى زمان، إلا أنه فى لحظة إشراقه استطاع أن يلتقط الزمان الإلهي، أو (اللا زمان أو الأزل)، ولهذا قالوا فى تعريف الصوفى: «هو من لا ماضى له ولا مستقبل» فلا يشغله وقت سابق أو لاحق عما هو عليه فى الوقت، فالزمان عندهم مجرد من النسبية التى جردوا أنفسهم منها، ولأن الصوفى مستغرق فى شهود الموقت عن مراعاة جميع الأوقات، وكذلك تلاشت عنده أبعاد المكان أيضا، ومعنى هذا أنهم قد سبقوا الحضارات حين دعوا إلى التخلص من عقدتى الزمان والمكان، وتحرر النفس الإنسانية من أسرهما.

... ولكن أى الاتجاهين أجدى للنحو: المبانى أو المعانى؟ والذى أراه أن الذى يتحدث على مستوى (المبانى) لابد وأن يلتزم قواعد نحو المبانى، وهى القواعد الظاهرية، ولها سلطتها وقوانينها التى توجب وتجزى وتمنع، وقد لخصها ابن مالك النحوى فى ألفيته المشهورة بقوله:

فما أبيع أفعل ودع ما لم يبيع

والحق أن بعض قواعد وقوانين نحو (المبانى) قد ضاق بها النحاة أنفسهم، وهذا (دماذ) صاحب أبى عبدة يروى عنه أنه قرأ من النحو إلى

(٢٦) النحل : ٤٠

(٢٧) بتصرف من: الزمان د. إمام عبدالفتاح. مجلة الثقافة العربية عدد ٤ إبريل ١٩٧٦.

باب الفاء والواو، فلما استمع إلى قول الخليل وأصحابه: إن ما بعدهما ينتصب بـ (أن) مضمرة وجوبا نبا فهمه عن ذلك وكتب إلى المازنى يشكو إليه ما لقيه من عنت فى أبيات ختمها بقوله:

لقد كدت يا بكر من طول ما أفكر فى بابه أن أجن^(٣٨).

أقول: ولم لا يُجن، وهذا ابن العريف القرطبى ت ٣٦٧ قد وضع لولد أبى عامر المنصور مسألة فيها من العربية مائتا ألف وجه، واثنان وسبعون ألف وجه، وثمانية وتسعون وجها^(٣٩). وما كان أيضا من ملك النحاة ت ٥٦٨ حيث استشكل عشر مسائل وسماها: «المسائل العشر المتعبات إلى الحشر»^(٤٠).

... وإن كنت تتحدث على مستوى (المعانى) فالتزم بآداب وسلوك نحو (المعانى) من : حسن الخدمة، وحفظ الحرمة، وتعظيم النعمة، وعليك أن تكون منتصبا إلى مجارى الأقدار بالرضى، مستسلما لله فى أمره ونهيه، مستغرقا فى شهوده، غائبا فى وجوده، تقابل عز الربوبية بذل العبودية، وشعارك: ألا يراك مولاك حيث ينهاك، وألا يفتقدك حيث أمرك. فإذا أصلحت لسانك دون أن تصلح جنانك، فذلك فسق وضلال. وهذا طابع عصرنا الذى نعيشه، فمحاولاتنا فى معاهد العلم ومدارسه لإصلاح السنتنا، ونصيب القلوب من الإصلاح أقل بكثير من نصيب الألسنة. ولعل هذا ما يعنيه الرسول ﷺ بقوله: «فَسَاقِ أُمَّتِي قَرَاؤَهَا»^(٤١).

(٣٨) أخبار النحويين البصريين ٧٧ للسيرافى. نشر كرينكو. وبكر هذا هو أبو عثمان بكر المازنى شيخ نحاة البصرة فى عصره.

(٣٩) بغية الوعاة للسيوطى ٢٢٠ ط أولى. السعادة. مصر ١٣٢٦ هـ.

(٤٠) المصدر السابق: ٢٢٠.

(٤١) وقريب من هذا مقالة عيسى عليه السلام «إلى متى تصفون الطريق للمدلجين وأنتم مقيمون مع المتحيرين؟» وفى هذا المعنى يقول عمر رضى الله عنه «إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة: المنافق العليم. قالوا: وكيف يكون منافقا عليهما؟ قال: عليم اللسان، جاهل القلب والعمل».

وإن أصلحت جنانك دون أن تصلح لسانك فذلك كمال دون الكمال، وإن أصلحتهما معا فهذا كمال الكمال.

وكذلك كل جمال فنى رائع يحصل من : المبانى والمعانى معا، (ومبانى) التصوف كانت يوما ما فى الأعماق ثم دفعت إلى السطح، فهى لذلك وثيقة الصلة (بالمعانى) التى هى أساس التفكير ومستودع الإلهام، والمعانى تظهر من خلال المبانى، والأشباح تعظم بشرف الأرواح، ولون الماء لون إنائه. على أن (المبانى) وحدها لا تستطيع أن تحرث فى حقل التصوف وإلا بادت بالفشل والعقم، لأنها تعنى بالشكل والمظهر، لا اللبّاب والجوهر. وصاحب المبانى يعتمد على عقله، وصاحب المعانى يعتمد على ذوقه وكشفه، وهذا أبو على الفارسى النحوى قد كان كثيراً ما يتردد فى التوجيه النحوى بين المبانى والمعانى، أو بين النحو والذوق الأدبى، وكان يقول «قسمة الأعشى» يريد بيته المشهور:

فقال ثكل وغدر أنت بينهما فاختر وما فيهما حظاً لمختار

وكثيراً ما كان المعنى والإعراب يتجاذبان الأسلوب، فالمعنى يدعو إلى أمر، والإعراب يمنعه، من ذلك:

أ - قوله تعالى: «إنه على رجعه لقادر يوم تبلى السرائر» فالمعنى يقتضى أن يتعلق الظرف بالمصدر (رجع)، أى أنه على رجعه فى ذلك اليوم لقادر. لكن الإعراب يمنع منه لعدم جواز الفصل بين المصدر ومعموله. والقاعدة: أن يؤول الإعراب، وأن نتمسك بالمعنى ونتقبله. فنجعل العامل فعلاً مقدراً دلّ عليه المصدر تقديره: يُرْجَعُهُ.

ب - ومما يصور تشاحن المبانى والمعانى قولهم: هذا تفسير معنى، وهذا تفسير إعراب. فقد ورد فى الكافية لابن مالك: ومن الاستثناء بـ(ليس) قول النبى عليه السلام: يطبع المؤمن على كل خلق ليس الخيانة والكذب.

والتقدير الذي يقتضيه (الإعراب): ليس بعض خلقه الخيانة والكذب،
والتقدير الذي يقتضيه (المعنى): يطبع على كل خلق إلا الخيانة والكذب.
(الأشباه والنظائر للسيوطي ٢ / ١٧٦).

والفرق بينهما أن تقدير الإعراب لا بد فيه من ملاحظة الصناعة
النحوية، وتقدير المعنى لا تضره مخالفة ذلك:

ففي قوله تعالى: «وثمودا فما أبقي» يمكن أن تعرب (ثمودا) مفعولا
مقدما، وهذا يتفق والمعنى، ولكنه في صناعة النحو يمتنع؛ لأن لـ (مَا)
النافية الصدر، فلا يعمل ما بعدها فيما قبلها، ولذلك رأى النحاة أن يكون
معطوفا على (عادًا) أو ينصب مفعولا به على تقدير: وأهلك ثمودا.

ومما يؤكد قوة المعاني على المباني أن أساليب كثيرة لم تلتزم بقواعد
النحاة، ولم يجد النحاة مندوحة لقبول تلك الأساليب في نظرهم إلا
بحملها على المعاني، و(الحمل على المعنى) مصطلح يكثر دورانه في
قضايا النحو العربي، وتلك الأساليب المخالفة لم تلبث أن ثبتت أقدامها،
حتى أصبحت من سنن العرب، ويرى ابن جنى أنه أسلوب يدل على «غور
من العربية بعيد، ومذهب نازح فسيح» (الخصائص ٢ / ٤١١) ويشير ابن
الحاجب كما نقل عنه السيوطي في الأشباه والنظائر ١ / ٢١٢ إلى قوة
هذه الأساليب بقوله: إذا حمل على المعنى ضعف الحمل بعده على
اللفظ؛ لأن المعنى أقوى ويظهر (الحمل على المعنى) في نماذج نذكر
منها:

١ - ذكر الواحد والمراد به الجمع.

٢ - ذكر الجمع والمراد به ما دونه.

٣ - معاملة المثني معاملة الجمع.

٤ - تذكير المؤنث، وتأنيث المذكر.

٥ - اتصال الفعل بحرف (ليس) مما يتعدى به؛ لأنه فى معنى فعل يتعدى به.

على أن الخلاف قد دبّ بين نقاد اليونان والعرب حول الألفاظ والمعانى، فمنهم من يرى جانب المعنى، ومنهم من يرى جانب اللفظ، وآخرون يذهبون إلى مساواة الألفاظ بالمعانى^(٤٢) على أننى أرجح جانب المعانى؛ لأن المعانى أشرف من الألفاظ، والألفاظ أوضع من المعانى، ومن أجل هذا اتهم متى بن يونس ٣٢٨هـ النحاة بأنهم يبحثون عن الألفاظ^(٤٣) وعماد البلاغة عند الجاحظ: ألا تكثر الألفاظ وتقل المعانى. ويقول ابن جنى^(٤٤) فى (باب الرد على من ادعى على العرب عنايتها بالألفاظ وإغفالها المعانى): «فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها وحسنوها، وحموا حواشيها وهذبوها، وصقلوا غروبها وأرهفوها، فلا تَرِنَنَّ أن العناية إذا ذاك إنما هى بالألفاظ، بل هى عندنا خدمة منهم للمعانى وتنويه وتشريف». فإذا كانت العرب تدبج ألفاظها وتعنى بها، فذلك من أجل المعانى التى وراءها، وبمثل تلك النظرة كان ينظر عبد القاهر الجرجانى حيث كان لا يرى الجمال إلا فى المعانى وفى ذلك يقول: «فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعرا، أو يستجيد نثرا، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ فيقول: حلو رشيق، وحسن أنيق، وعذب سائغ، وخاوب رائع، فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف، وإلى ظاهر الوضع اللغوى، بل إلى أمر يقع من المرء فى فؤاده، وفضل يقتدحه العقل من زناده»^(٤٥). فمزايا الكلام التى بها يسمو ويتفاضل تأتى من حيث المعانى، وليست من حيث تسمع بأذنك، بل حين تسمع بقلبك، وتستشف بروحك.

(٤٢) انظر: الخصائص لابن جنى ١/٢٢٥، ٢١٧ ط دار الكتب المصرية، دلائل الإعجاز للجرجانى ٥١ ط الثانية. القاهرة، بلاغة أرسطو ٣٥٥ فما بعدها. د. إبراهيم سلامة. ط. الثانية.

(٤٣) بلاغة أرسطو ٣٥٥ د. إبراهيم سلامة.

(٤٤) فى الخصائص ١/ ٢١٧ ط دار الكتب المصرية.

(٤٥) أسرار البلاغة ٢، ٣ ط ١٩٢٥ م.

والمعاني هي المقاييس الحقيقية التي تقاس بها الاشياء، وكانت شهادة المعنى دائما اصدق من شهادة الحس، وفي هذا يشير الشيخ أبو مدين رحمته إلى شيء من ذلك :

فقل للذي ينهى عن الوجد أهله إذا لم تذق (معنى) شراب الهوى دعنا
إذا اهتزت الأرواح شوقا إلى اللقا تراقصت الأشباح يا جاهل (المعنى)
أما تنظر الطير المقفص يا فتى إذا ذكر الأوطان حنّ إلى المعنى
إلى أن قال:

كذلك أرواح المحبين يا فتى تهزّزها الأشواق للعالم الأسنى
أنلزمها بالصبر وهى مشوقة وهل يستطيع الصبر من شاهد (المعنى)

(منية الفقير المتجرد ص ٦١)

ولهذا كان سجن المعانى أشقّ من سجن المباني، وكان تعبير القرآن رائعا عن سجن المعانى وهو يصور واقعة الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزو مع الرسول ﷺ حيث «ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم» (التوبة ١١٨). فالأرض حولهم فضاء يمشون ويأكلون ويشربون ولكنهم فى سجن المعانى مقيدون. فلا المسلمون يكلمونهم، ولا نساؤهم تقربهم، والأرض تضيق عليهم، ونفوسهم كذلك تضيق بهم من الضجر والحرّج؛ لأنهم فى سجن بغير حدود أو سدود، سجن معنوى سجن الأنفس وقيّد الأرواح، وصدق أرسطو حين قال: علل الأفهام أشد منه علل الأجسام» فى مثل ذلك يقول المتنبى:

يهون علينا أن تضام جسومنا وتسلم أعراض لنا وعقول *

(*) ديوان المتنبى ٢ / ٢٨٦ بشرح البرقوقى.

٣٠

وكان القشيري يتوسع في بعض مصطلحات النحو، ويخلع عليها معاني أخرى جديدة حتى أضحت قواعد هذا النحو صورة لعقيدته، وتطورت هذه القواعد النحوية عنده إلى مدلولات تختلف كل الاختلاف أو بعضه عما يفهم منها نحويًا، وكان ينفذ من وراء مباني الجزئيات النحوية إلى معانيها الروحية ليرتقى منها إلى عوالم أخرى، وذلك يحتاج منه إلى قدرة على تكييف قواعد هذا النحو وهي تنتقل من مدار أرضي إلى مدار سماوي، وهذا النقل يثير الإعجاب لدقته ورقته، لأنه كان يحرك القاعدة في نحو (المباني) لتبحث وتصيح بأختها في نحو (المعاني) فتذوب فيها وتتلاشى، ثم يلفها بغلالة من قلبه وروحه فتزداد حركة وحياة، وفيضا وإشراقا، لما أحدثه فيها من مذاقات لم تكن، وأسرار لم تعهد.

* من ذلك قوله في كتابه «نحو القلوب الكبير»^(٤٦).

(أ) «الحروف التي تجزم الفعل المستقبل معلومة وهي: لم ولما وأخواتها، والتي تنصبه معلومة: أن. ولن. وكى. وإذن.

والإشارة منه: أن الفعل المضارع ما دام منفردا^(٤٧) كان له أقوى الحركات، فإذا عملت فيه العوامل تغير عن استحقاق أقوى الحركات وآل إلى الضعف.

وكذلك العبد عند تجرده^(٤٨) فهو ينعت استقلاله وقوته، فإذا عملت فيه الواردات من الرغبة والرغبة وغيرهما رد إلى الضعف، فبعد ما كان بالله مستقلا صار أسير حظ، وصريع نصيب، ثم.. بعض العوامل فيه تنصبه فتعرضه لكل قاصد، وبعض العوامل تجزمه فتقطع عنه الفوائد.

(٤٦) مخطوط بمكتبتى.

(٤٧) التجريد: وقوفك بالحق معك. والتفريد: مصطلح صوفى.

(٤٨) التجريد: إمالة السوى عن القلب والسر. والتجريد: مصطلح صوفى.

وقوله :

(ب) «جواب الأمر والنهي والدعاء والاستفهام والجحد والعرض والتمنى بالفاء منصوب، ويجزم عند حذف الفاء.

والإشار منه: لما حصلت الفاء واسطةً بين الجواب وهذه الأشياء، أخرج الجواب عن واجب استحقاقه إلى صفة أخرى، فكذلك شرط الواسطة: تُغيّر حكم المدخول عليه، فَمَنْ عاش مع الله تعالى بواسطة المعلوم تغيّر عليه حكم ما وجب له عند التفرد عن المعلوم.

أما العيش مع الله بلا علاقة فيبقى العبد على ما يجب من تحقيق الوصل في الأصل».

والقشيري في هذين النصين يستعمل عوامل النصب والجزم وفاء السببية رموزاً ليست مقصودة لذاتها، وإنما تشير إلى هجوم العلائق ووقوع العبد تحت تأثير الحظوظ، والخنوع في أوطان الجموح في الطريق الصوفي، ويصور الحياة حين تتجرد من أوشاب الضعف، وتسمو فوق دنيا الحسن. وقد وجد أن المظهر الخارجي للقواعد النحوية في هذين النصين نموذج ناقص لعالم الحقائق الكامل، فحولهما إلى مفاهيم صوفية رائعة، حتى كاد هذا النحو - الجديد الفريد - يتوغل في النفوس والأرواح جميعاً، ليحلّ المعقّد من قضايا البشر على الأرض بعد أن أفلست الحضارات الوافدة - وهي تشق غبار السنين - وناءت بكلّكلها - وهي ترزخ تحت معاول الذل والهوان - فلم تجد طريقاً، ولم تقدّم حلاً !

أليس يدعوك (نحو المعاني) إلى التحرر والتجرد عن رِق الأشياء، وإسقاط العلاقات والعائقات! والتخلص من تأثير المطالبات والإرادات، لتكون في أقوى حالاتك، وأسمى نعوتك، فتصبح عبداً واقفاً مع الله بالله، لا إشراف لأحد عليه، ولا سبيل لمخلوق إليه، قد صفى عن شهود الخلق

نفسه، وسلم من تأثير الأطماع فيه ! أما مَنْ التجأ لمخلوق فقد سقط في مهواة من الفلط، وأحاطت به وافدات المطامع والخواطر.

ثم لاحظ معي كيف ربط القشيري بين مصطلحي (التجرد) في النحو، و (التجريد والتفريد) في التصوف، وكيف لمح هذا الربط الدقيق الرقيق فأعطى الحركات ^(٤٩) ألوانا، والمذاقات أنغاما، وجعلها تدور في أفلاك مُهِيمَة مُتَّيمَة.

وتعال معي لتتَسَمَّعَ عبور جزئيات (نحو المباني) على جسور (نحو المعاني) وقد صاحبتهَا لغة الرمز وذلك حيث يقول:

(ج) «وحروف القسم تجرّ المقسم به بإضمار فعل.... وبعض هذه الحروف أكثر تعرفاً، وأعم دخولاً كالباء، وبعضها أقل: كالتاء والواو، وواسطة بين القليل والكثير. والكل حروف القسم.

والإشارة منه: الجميع من جملة الخدم، ولكنّ منهم مَنْ يدخل الدار ويتمكّن في الصدر، ومنهم مَنْ حدّه أن يحضر الباب ويقف من البعد» قد علم كل أناس مَشْرَبَهُمْ ^(٥٠).

فالقشيري جسّد لك هذه الحروف، وكأنّها تتحرك وتحسّ، فمنها السابق ومنها اللاحق، ومنها المقبول ومنها المطروح، ومنها مَنْ ينتظر، ومنها مَنْ يترقّب، ومنها مَنْ تتعثّر قدمه، ومنها مَنْ تسرع به، فحروف القسم رموز ليست مقصودة لذاتها، وإنما هي أناسيّ تتفاوت معادنها، وتختلف منازلها، فمنهم مَنْ ينادي على الباب، ومنهم مَنْ يناجي على بساط القرب، فموقف العابد أبواب الخدمة، ومربع الواجد بساط القرية، ولا يكون المحجوب عن شهوده كالمستهلك في وجوده.

(٤٩) حركات الفعل المضارع في : رفعه ونصبه وجزمه ودلالة هذه الحركات على لمحات صوفية.

(٥٠) آية ٦٠ من البقرة.

فأين (نحو المباني) من (نحو المعاني) حين يلفتك الأخير بشدة عندما (تجرّد) الفعل المضارع من النواصب والجوازم، فتذكّر (تجريد) ظاهره عن الأغراض، وباطنك عن الأعواض، وسرّك عن الملاحظات، فلا ترى غيراً، ولا تراعى خلقاً، متفرداً بالله، متجرّداً له.

أما (نحو المباني) وأصحابه، فاستمع إلى رأس أئمتهم بعد سيبويه، وهو: أبو الحسن الأخفش ت ٢١١ هـ. حين يسأله الجاحظ قائلاً: أنت أعلم الناس بالنحو، فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلّها، وما بالنّا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها، وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم؟ قال: أنا رجل لم أضع كتبى هذه لله، وليست هى من كتب الدين. ولو وضعتها هذا الوضع الذى تدعونى إليه، قلّت حاجتهم إلىّ فيها، وإنما كانت غايتهى المنالة^(٥١). فهذا رجل على رأس النحاة يشيع فى كتبه النحوية الغموض والإبهام حتى يلتمس الناس تفسيرها منه رغبة فى المال، ففرضه من علمه: كسب ماديّ، وربح دنيويّ!

ومن أجل هذا برم الناس من النحو والنحاة، وهذا أعرابى يقف على حلقة أبى زيد فظن أبو زيد أنه يريد أن يسأل فى النحو، فقال الأعرابى مرتجلاً:

لا . ولا فيه أرغب !	لست للنحو جئتكم
أبد الدهر يضرب	أنا مالى ولا مرئ
حيث ما شاء يذهب	خلّ زيدا لشأنه

وها هو نحوى كبير يعترف بالضجر والضيق، من الشوائب التى عكرت صفو النحو، وما ناله من تعصب النحاة، وتزمتهم المقيت، وتكسبهم به. ويتساءل أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب ت ٢٩١ هـ. عن عاقبة أمره ومصيره أمام الله بعد أن اشتغل بهذا النحو. قال ثعلب:

(٥١) الحيوان ١ / ٩١ للجاحظ. تحقيق: الأستاذ عبد السلام هارون.

«اشتغل أهل القرآن بالقرآن ففازوا، واشتغل أهل الفقه بالفقه ففازوا، واشتغلت أنا بزيد وعمرو فليت شعري ماذا يكون حالي في الآخرة^(٥٢) وكأني بثعلب يضيق (بنحو المباني) ويتطلع إلى نحو آخر! وهذا النحو الذي يتطلع إليه ثعلب ورفاقه هو ما نحن بسبيله في عملنا هذا.

(د) والقشيري يستغلّ جميع الإشارات والرموز التي تحمل في ثناياها مضامين المعنى وتصوره تصويرا بديعا مركزاً. وهي كثيرة، منها ما هو بصرى أو سمعى أو صوتى، وحسبنا في هذا المقام أن نشير إلى نصّ واحد به، أخذ رمزه وإيحاءه من الخط والكتابة. يقول: «ومن الحروف ما يلحق بغيره، والمقصود منه تمييز ذلك الغير مما سواه: كالواو الملحقة بعمرو في الخط، لتكون فرقا بين: عمرو، وعمر، وهذا الإلحاق لا يدوم عند الإستغناء عنه...

والإشارة منه: أن من الناس من يلحق بالطريق لأجل الغير، ثم يُطرح... وأنشدوا:

أيها المدعى سُلَيْمَى هواها لست منها ولا قلامة ظُفْرِ

إنما أنت في هواها كواو ألحقت في الهجاء ظلما بعمرو

فالقشيري يشير إلى أن زيادة الإلحاق لا تفيد معنى ولا تطرد، وإنما جيء بها في المثال الذي ذكره لتكون فارقا خطيا في حالات خاصة^(٥٣) ثم تحذف؛ لأن تلك الزيادة الملحقة يستغنى عنها، وكان المعري يدعو الله ألا يجعله كالحروف الزائدة؛ لأنها فضولية غير أصيلة وفي ذلك يقول:

(٥٢) نزهة الألباء ٢٩٨. ابن الأنباري ط ١٢٩٤هـ.

(٥٣) تزداد الواو في اسم (عمرو) إذا كان مرفوعا أو مجرورا تمييزا له عن اسم (عمر) الممنوع من الصرف، وتزداد هذه الواو بشرط: أن يكون علما، لم يضاف لضمير ولم يقع في قافية، ولم يصغر، ولا محلى بال، ولا منسوب، ولا منصوبا متونا.

«فأما واو عمرو فأعوذ بك - ربّ الأشياء - إنما هي صورة لا جرس لها ولا غناء، مشبهها لا يحسب من النسمات»^(٥٤).

ومثل الإلحاق في ذلك (همزة الوصل) فهي تلحق الأسماء والأفعال في أحوال مخصوصة^(٥٥)، وهي تثبت في ابتداء الكلام، وتسقط في الوصل، وهي كالإلحاق تلحق ما تلحق بنية الحذف عند الاستغناء عنها.

وحال كثير من الناس - كظاهرة الإلحاق وهمزة الوصل - ينتسبون للطريقة ظاهرا، ومآلهم في النهاية: السقوط والطرح؛ إذ لم يكن في نيّتهم يقين، وفي سلوكهم صدق، وفي عهودهم وفاء.

ومن خلال هذه النصوص وغيرها ترى: أن (نحو المباني) مولع بالتفصيل كما رأيت في ظاهرة الإلحاق وهمزة الوصل على سبيل المثال، و(نحو المعاني) يتّسم بالإجمال واللمح وشمولية النظرة، كما أن المعاني في نحو المباني مكشوفة، ودلالات نحو المعاني مستورة مكنونة؛ ولهذا كانت أقدر على أن تهز المشاعر، وتُهيّم الأرواح، لما فيها من ظلال وإيحاء. وهيئات أن يصل الإنسان إليها إلّا ذوقا، ولا تزور إلّا من هام بها عشقا وشوقا؛ من أجل ذلك كان لغتها الرمز، والصوفي لا يرضى السّفور أبدا، ويرى الجمال في السّتر والحجاب، أليس يتّسمّع إلى مناجاة السرائر، وما تكنّه الأرواح وترقبه الخواطر، حتى كأنّ حراما أن تتجلى معانيهم سافرة لا نقاب لها، وبادية لا حجاب دونها.

كلماتنا في الحب تقتل حُبنا إن الحروف تموت حين تقالُ

(٥٤) رسالة الهناء. آخرها. هامش).

(٥٥) تزداد همزة الوصل: ١ - سماعا: في : آل، وفي الأسماء العشرة (ابن، ابنة، ابنم، اسم، امرؤ، امرأة، است، اثتان، اثتان، ايمن.

٢- وتزداد قياسا: في المصادر التسعة وما تصرف منها من فعلى الأمر والماضي - وهي الثلاثة الخماسية (افتمال، انفعال، افعلال) والستة السداسية (استفعال، افعللال، افعلال، افموال، افعللالا، افعللالا).

واخيراً :

رأينا الكلمة في (نحو المعاني) تتميز بالصدق، كما يتميز معناها بالخلود (ونحن المعاني) هادف أبداً، لحمته وسداه: معرفة الله. وهي: غاية الغايات، ثم إعلاء ما في الوجود من حق، وتزكية ما فيه من خير، وتجلية ما وراءه من تذوق وكشف.

وسبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد ألا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك،
أستغفرك وأتوب إليك،

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الإلتقان فى علوم القرآن.
- للسيوطى، مصطفى الحلبى، ط٢. القاهرة.
- إحياء النحو.
- الأستاذ إبراهيم مصطفى. لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة
- أخبار النحويين البصريين،
- للسيرافى، نشر كرينكو.
- أسباب حدوث الحروف.
- لابن سينا. ط. السلفية. القاهرة.
- أسرار البلاغة.
- لعبد القاهر الجرجانى ١٩٢٥م.
- أسرار العربية.
- لابن الأنبارى. تحقيق: محمد بهجة البيطار. مطبوعات المجمع العلمى العربى. دمشق.
- الإسلام وتحديات العصر
- دكتور حسن صعب. بيروت. ط٢.
- الإسلام يتحدى
- وحيد الدين خان. تعريب: ظفر الإسلام خان. مراجعة وتحقيق: الدكتور عبد الصبور شاهين. بيروت.
- الأشباه والنظائر
- للسيوطى. حيدر آباد الدكن. ط ١٣١٦هـ.
- أصوات اللغة عند ابن سينا.
- أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس. مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

- الجلسة السابعة.
- الأصوات اللغوية.
- أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس. ط ٢. القاهرة.
- إعراب القراءات الشواذ.
- للعكبري. مخطوط بدار الكتب المصرية. تفسير رقم ١١٩٩.
- الأعلام.
- الزركلى.
- الألسنة العربية
- ريمون طحان. دار الكتاب اللبناني. بيروت.
- الأنساب
- للسمعاني. ليدن
- الإنصاف فى مسائل الخلاف
- لابن الأنباري. تحقيق محمد محيى الدين. ط السعادة الطبعة الرابعة. القاهرة.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل.
- القاضى البيضاوى.
- الإيضاح فى علل النحو.
- للزجاجي. تحقيق: مازن المبارك. مكتبة دار العروبة. القاهرة.
- البداية والنهاية
- لابن كثير. ط . السعادة. مصر.
- البسمة بين أهل الإشارة والعبارة
- دكتور إبراهيم بسيونى. دار الكاتب العربى. القاهرة.
- بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز.
- الفيروزآبادى. القاهرة.
- بغية الوعاة
- للسيوطى. ط أولى. مصر.

- بلاغة أرسطو.
- دكتور إبراهيم سلامة ط الثانية.
- تاريخ الأدب العربي.
- بروكلمان (الأصل الألماني).
- تاريخ بغداد
- الخطيب البغدادي. ط السعادة.
- تاريخ ابن الأثير
- طبعة الاستقامة. مصر.
- تبين كذب المفتري.
- لابن عساكر. ط ليدن.
- التعبير في التذكير
- عبد الكريم القشيري. تحقيق إبراهيم بسيوني. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر. القاهرة.
- تحقيق ديوان ابن الاردخل.
- بابكر الجازولي. مخطوط بمكتبة كلية دار العلوم.
- التصوف طريقا وتجربة ومذهبا
- دكتور محمد كمال جعفر. دار الكتب الجامعية ١٩٧٠.
- التعريفات
- للجرجاني. ط مصطفى الحلبي ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م.
- تقويم الفكر النحوي
- دكتور علي أبو المكارم. دار الثقافة. بيروت.
- تهذيب اللغة
- للأزهري. تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون. ط. المؤسسة المصرية
- جمهرة أنساب العرب.
- لابن حزم. دارالمعارف. القاهرة.

- جواهر القرآن
- لأبى حامد الفزالى. ط ٢ - ١٩٣٣
- حاشية الخضرى على شرح ابن عقيل.
- نلشيخ محمد الخضرى. ط الكستلية.
- حاشية الصبان على شرح الأشمونى
- نلشيخ الصبان ط أولى ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م.
- حلية الأولياء
- أبونعيم الأصفهانى. ط السعادة.
- الحيوان
- للجاحظ. تحقيق: الأستاذ عبد السلام هارون.
- خزانة الأدب
- للبغدادى . ط. بولاق.
- الخصائص
- لابن جنى. تحقيق (أستاذنا) الشيخ محمد النجار. ط. دار الكتب المصرية بالقاهرة.
- دائرة المعارف الإسلامية.
- (الترجمة العربية)
- دراسات فى علم اللغة. القسم الأول.
- دكتور كمال بشر. ط دار المعارف. القاهرة.
- دلائل الإعجاز
- عبد القاهر الجرجانى ط الثانية.
- دلالة الألفاظ.
- أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس. ط ٣ - ١٩٧٢. القاهرة.
- دمية القصر وعصرة أهل العصر.
- الباخرزى. ط أولى. حلب ١٣٤٨ هـ - ١٩٣٠م.

- ديوان عنتره.
- المطبعة التجارية. القاهرة.
- الرسائل القشيرية.
- تحقيق الدكتور فير. نشرة المعهد المركزى. باكستان.
- رسائل متبادلة:
- بينى وبين الدكتور عرفه مصطفى (بألمانيا الغربية).
- الرسالة القشيرية
- عبد الكريم القشيري ط ١٢٦٧هـ - ١٩٥٧م، وطبعات أخرى بتحقيق
- الدكتور عبد الحليم محمود وزميله، وغيرها.
- رسالة الهناء
- أبو العلاء المعرى. تحقيق كامل كيلانى. بيروت.
- روح القدس فى مناصحة النفس.
- لابن عربى. مصور عن جامعة أستانبول. بمعهد المخطوطات بجامعة
- الدول العربية رقم ٢٢٧ تصوف.
- سر صناعة الإعراب.
- لابن جنى. الجزء الأول. ط ١ - ١٩٥٤م تحقيق مصطفى السقا وزملائه
- ط مصطفى الحلبى. القاهرة.
- شذرات الذهب.
- لابن العماد الحنبلى. ط القاهرة وط بيروت.
- شرح أبيات سيبويه
- للنحاس المصرى. حلب ١٩٧٤م.
- شرح أسماء الله الحسنى.
- تحقيق الأستاذ الحلوانى. ط ١ - ١٩٦٩م القاهرة.
- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك.
- تحقيق محيى الدين عبد الحميد.

- شرح التصريح على التوضيح وبهامشه حاشية الشيخ يس بن زين الدين تأليف خالد الأزهرى. دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة.
- شرح الكافية.
- لمحمد بن الحسن الرضى الاسترأباذى ١٣٧٥هـ. مصر.
- شرح المفصل.
- لابن يعىش. المطبعة المنيرة. القاهرة.
- شروح سقط الزند.
- لأبى العلاء المعرى. القسم الرابع. الدار القومية ١٩٦٤م.
- شواهد الشافعية.
- شرح عبد القادر البغدادى. ط حجازى. بمصر ١٣٥٩هـ.
- الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها.
- لابن فارس. السلفية بالقاهرة - ١٩١٠م.
- صحيفة الأخبار القاهرية بتاريخ ٢٥ / ٣ / ١٩٧٣.
- طبقات الشافعية الكبرى
- الإمام السبكى. ط أولى. الحسينية. مصر، وطبعة أخرى نشرها: عيسى الحلبي.
- طبقات الصوفية
- لأبى عبد الرحمن السلمى. تحقيق نور الدين شريعة. ط ٢ - ١٩٦٩م.
- الطبقات الكبرى
- الشعرانى ١٩٣٩م.
- طبقات المفسرين
- الإمام السيوطى.
- العربية الفصحى.
- هنرى فليش. تعريب دكتور عبد الصبور شاهين. الكاثوليكية. بيروت.

- عقائد المفكرين فى القرن العشرين.
- العقاد. الأنجلو المصرية.
- علم القلوب.
- أبو طالب المكي. تحقيق: عبد القادر عطا. ط. أولى ١٩٦٤.
- علم اللغة
- دكتور على عبد الواحد وافي. القاهرة.
- علم اللغة العام. القسم الثانى.
- دكتور كمال بشر. دار المعارف. القاهرة ١٩٧٠م.
- فتح البارى بشرح صحيح البخارى.
- الفتوة.
- لابن عمار البغدادي. تحقيق: دكتور فؤاد حسنين. القاهرة ١٩٥٩م.
- فى الفلسفة والأخلاق.
- دكتور كمال جعفر. دار الكتب الجامعية . القاهرة ١٩٦٨م.
- فى اللهجات العربية.
- أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس ط الثانية.
- القرائن النحوية.
- دكتور تمام حسان. بحث نال الجائزة الأولى من مكتب التعريب بالرباط.
- القشيري «الإمام» دكتور إبراهيم بسيونى. مجمع البحوث الإسلامية ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.
- قوت القلوب فى معاملة المحبوب.
- أبو طالب المكي. ط الحلبي.
- الكتاب.
- سيبويه. ط أولى - بولاق. مصر.
- كتاب الأزهية فى علم الحروف.
- على بن محمد النحوى الهروى - تحقيق الملوحي - دمشق ١٩٧١.

- كتاب الحروف.
- الخليل بن أحمد الفراهيدي. تحقيق: الدكتور رمضان عبد التواب.
- كتاب الرد على النحاة
- لابن مضاء القرطبي. تحقيق: الدكتور شوقي ضيف. ط الفكر العربي ١٩٤٧ القاهرة.
- كتاب المصاحف
- لابن أبي داود السجستاني. صححه آرثر جفري. ط أولى. الرحمانية ١٣٥٥ هـ ١٩٣٦ م.
- كتاب معاني الحروف.
- لأبي الحسن علي بن عيسى الرمانى النحوى. تحقيق الدكتور عبدالفتاح شلبى. نهضة مصر. القاهرة.
- كشف الظنون.
- حاجى خليفة. ط أولى. دار سعادات.
- لطائف الإشارات.
- للقشيري. تحقيق: الدكتور إبراهيم بسيونى. دار الكاتب العربى للطباعة والنشر القاهرة، وتشر لأول مرة فى ستة أجزاء.
- لطائف الاشارات لفنون القراءات.
- للإمام شهاب الدين القسطلانى ج ١ تحقيق الشيخ عامر عثمان والدكتور عبد الصبور شاهين، القاهرة ١٩٧٢.
- اللغة بين المعيارية والوصفية
- لأستاذنا الدكتور تمام حسان (الأنجلو) القاهرة.
- اللغة العربية: معناها ومبناها.
- لأستاذنا دكتور تمام حسان. الهيئة المصرية بالقاهرة.
- اللمع.
- السراج. دار الكتب الحديثة. القاهرة.

- مع الأدلة.
- لابن الأنباري. تحقيق سعيد الأفغاني. دارالفكر.
- اللهجات العربية في التراث.
- دكتور أحمد علم الدين الجندى. تصوير الهيئة العامة للكتاب. مصر.
- مجلة الراى الليبية.
- مجلة مجمع اللغة العربية. القاهرة.
- المحتسب.
- ابن جنى. تحقيق أستاذنا على النجدى ناصف، والدكتور عبد الفتاح شلبى وأستاذنا المرحوم الدكتور عبد الحليم النجار. ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. القاهرة.
- مدارك التنزيل وحقائق التأويل
النسفى
- المدخل إلى التصوف الإسلامى.
- السيد الفيضى (المنوفى) ط الدار القومية. مصر.
- مذاهب التفسير الإسلامى
- المستشرق جولد تسهر. ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار. القاهرة
- مرآة الجنان
- لليافعى.
- المزهرفى علوم اللغة.
- السيوطى. ط. إحياء الكتب العربية. القاهرة.
- المسائل الخلافية.
- العكبرى. دار الكتب المصرية، مخطوط رقم ٢٨.
- المسائل فى أعمال القلوب والجوارح.
- الحارث بن أسد المحاسبى. تحقيق: عبد القادر عطا. ط ١ - ١٩٢٩م.

- معجم ألفاظ القرآن الكريم
- مجمع اللغة العربية. ط أولى. الأميرية - القاهرة.
- المعراج.
- القشيري. تحقيق: الدكتور على حسن عبد القادر. دار الكتب الحديثة. القاهرة.
- مغنى اللبيب.
- ابن هشام الأنصارى ط. مصطفى محمد ١٣٥٦هـ. وأخرى بتحقيق محيى الدين ط. المدنى القاهرة.
- مفتاح السعادة ومصباح السيادة.
- طاش كبرى زاده.
- مقدمة ابن خلدون.
- تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى.
- مقدمة لطائف الإشارات.
- حسن عباس زكى.
- من أسرار اللغة.
- استاذنا الدكتور إبراهيم أنيس. ط الأنجلو. الطبعة الرابعة وغيرها.
- من بلاغة أرسطو بين العرب واليونان.
- استاذنا الدكتور إبراهيم سلامة. الأنجلو المصرية.
- من مؤلفات ابن مسرة المفقودة.
- فصله من مجلة كلية التربية. طرابلس. تأليف الدكتور كمال جعفر.
- منهاج العابدين، ومعه الكشف والتبيين.
- أبو حامد الفزالى. ط أولى ١٩٥٤م القاهرة.
- منهاج العارفين.
- أبو حامد الفزالى (طبع مع مجموعة القصور العوالى).

- منية الفقير المتجرد.
- عبد القادر بن أحمد الكوهنى على متن الأجرومية، للإمام الصنهاجى.
ط أولى ١٢١٩. مصر.
- نحو القلوب الكبير.
- القشيرى، مخطوط رقم ١٥٩٢ تصوف بمكتبة طلعت. دار الكتب
المصرية.
- نحو القلوب.
- لمؤلف مجهول، مخطوط رقم ١١٦ مجاميع بدار الكتب المصرية.
- نزهة الألباء فى طبقات الأدباء.
- ابن الأنبارى. ط. نهضة مصر. تحقيق أبى الفضل إبراهيم.
- نشأة التصوف الإسلامى.
- دكتور إبراهيم بسيونى. دار المعارف. القاهرة.
- هدية العارفين.
- إسماعيل باشا البغدادى. إستانبول ١٩٥١م.
- همع الهوامع بشرح جمع الجوامع.
- السيوطى. ط. السعادة.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان.
- لابن خلكان. تحقيق محيى الدين عبد الحميد. مصر.

فهارس الكتاب

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث النبوية

فهرس القوافي

فهرس المصطلحات اللغوية (صوتية ، صرفية، نحوية)

فهرس المصطلحات الصوفية

فهرس المواضع والبلدان

فهرس الجماعات والطوائف والفرق

فهرس الأعلام

رقم الآية	فهرس الآيات القرآنية	الصفحة
	سورة البقرة	
٢،٢	ذلك الكتاب لا ريب فيه، هدى للمتقين، الذين	
	يؤمنون بالغيب.....	٧
٢	ومما رزقناهم ينفقون.....	٦٥
٢	ويقيمون الصلاة.....	٦٥
٢١	وعلم آدم الأسماء كلها.....	١٢٢
٤٢	ولا تلبسوا الحق بالباطل.....	١٧٢
٦٠	قد علم كل أناس مشربهم.....	٥١
١٠٦	ما ننسخ من آية.....	٧٦
١١٥	فأينما تولوا فثم وجه الله.....	٥
١٢٠	ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع	
	ملتهم.....	٨٧
١٥٢	فاذكرونى أذكركم.....	١٠٥
١٥٥	وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة.....	٨٦
١٦٢	والهكم اله واحد.....	٥٠
١٧٧	ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب،	
	ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر.....	٩٧
١٨٥	ولتكبروا الله على ما هداكم.....	٨٨
١٨٦	عبادى.....	٥
٢٤٥	من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا.....	١٩٤
٢٧٣	يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف.....	١٣١
٢٨٢	ولا تساموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله.....	١٩١

سورة آل عمران

٣	نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه
٤٤	وأنزل التوراة والإنجيل.....
٢٨	لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون
٨٨	المؤمنين.....
٦٢	ويحذركم الله نفسه، والله رءوف بالعباد.....
٣١	قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله،
٦٢	ويغفر لكم ذنوبكم.....
٤٢	وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك
٦٧	وطهرك واصطفاك على نساء العالمين.....
٩٧	ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا...
٤٤	سنكتب ما قالوا.....
١٨١	قالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء.....
٢٠٠	يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا.....
	(سورة المائدة)
٥٤	يحبهم ويحبونه.....
	(سورة الأنعام)
٩١	الحمد لله الذى خلق السموات والأرض.....
٥٢	ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى
٧٧	يريدون وجهه.....
٧٩	إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض
٨٧	حنيفا.....
٩١	قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون.....
١٢٤	الله أعلم حيث يجعل رسالته.....

١٦٢	قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين.....	١٠
	(سورة الأعراف)	
٥٤	إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام.....	١٩٤
١٧٢	وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم، قالوا: بلى شهدنا.....	١٢٢
	(سورة الأنفال)	
٢٧	ليميز الله الخبيث من الطيب.....	١٣٢
٦٤	يا أيها النبى حسبك الله ومن أتبعك من المؤمنين....	٩١
	(سورة التوبة)	
١	براءة من الله ورسوله.....	٤١
٥	فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم.....	١٢١
١٤	قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزيهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين.....	٥٠
٢١	ييشرهم ربهم برحمة منه ورضوان.....	٤٢
٢٦	إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله.....	١٩٦
١٠٠	رضى الله عنهم ورضوا عنه.....	٥
١١١	إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة.....	٤٣
١١٢	والحافظون لحدود الله.....	٦٤

١١٨	ضاققت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم
٢٠٢	أنفسهم
	(سورة يونس)
٥	هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره
١٩٦	منازل لتعلموا عدد السنين والحساب
٣٦	وما يتبع أكثرهم إلا ظنا
٦٢	ألا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون
	(سورة هود)
٩	ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه أنه
٤٠	ليئوس كفور
	(سورة يوسف)
٢٤	عبادنا
٥	
	(سورة إبراهيم)
٣٦	فمن تبعنى فإنه منى
١٩١	ولقد آتيناك سبعا من المثانى
	(سورة النحل)
٤٠	إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له
١٩٧	كن فيكون
١٦٢	والله جعل لكم من بيوتكم سكنا
٩٧	من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن
٧٧	فلنحيينه حياة طيبة
	(سورة الإسراء)
١٢٢	سبحان الذى أسرى بعبده
٤٤	تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن، وإن

من شيء إلا يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون		
تسبيحهم	١٢	
أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر	٤٢	٦٨
ويخرون للأذقان يكون	٨٩	١٠٩
(سورة الكهف)		
إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى	١٢	١٢
بئس للظالمين بدلا	١٢٢	٥٠
قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا	١٦٠ ، ١٣٠	١٠٢
وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا	١٦٠	١٠٤
(سورة طه)		
ولا يحيطون به علما	٩٢	١١٠
(سورة الأنبياء)		
قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم	١٣	٦٠
(سورة النور)		
وليعفوا وليصْفَحوا	٦٨	٢٢
فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه	١٣٥	٣٦
(سورة الفرقان)		
فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات	١١٩	٧٠
(سورة القصص)		
قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم		٧١
القيامة، من اله غير الله يأتىكم بضياء	٥٠	
(سورة العنكبوت)		
والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبلنا	٥١	٦٩

(سورة فاطر)		
٦	إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا	١٧٤
١٠	إليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح يرفعه....	١٣٠
(سورة يس)		
٤٠، ٣٩	والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم	
	لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا الليل	
٥٢	سابق النهار	
(سورة الزمر)		
٢٥	كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا	
٣٦	يشعرون	
(سورة الشورى)		
١١	ليس كمثله شيء	٩٢
٢٥	وهو الذى يقبل التوبة عن عباده	٨٩
٢٦	ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم	
٩٢	من فضله	
(سورة ق)		
٢٨	ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة	
١٩٤	أيام وما مسنا من لغوب	
(سورة الذاريات)		
٤٩	ومن كل شيء خلقنا زوجين	١٤٧
(سورة النجم)		
٢	وما ينطق عن الهوى	٨٨
٥١	وئمود فما أبقى	٢٠٠

(سورة الحديد)		
٣	هو الأول والآخر، والظاهر والباطن	٧٥
١١	من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً	١٩٤
(سورة المجادلة)		
١١	يرفع الله الذين آمنوا منكم	١٣٥
٢٢	أولئك حزب الله	٥
(سورة الجمعة)		
٢	هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم	
	آياته ويذكهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة	٥
(سورة المزمل)		
٥	أنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً	١٤
(سورة القيامة)		
٢٣، ٢٢	وجوه يومئذ ناضرة، إلى ربها ناظرة	١٣٢
(سورة الانفطار)		
٦	يأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم	٣٧
(سورة المطففين)		
٢	الذين إذا اکتالوا على الناس يستوفون	٨٨
٢٤	تعرف في وجوههم نضرة النعيم	٣٨
(سورة الطارق)		
٨	إنه على رجه لقادر	١٨٦
(سورة الفجر)		
٢٤	يا ليتنى قدمت لحياتى	٨٩
(سورة الشرح)		
٨، ٧	فإذا فرغت فانصب، وإلى ربك فارغب	١٣١

(سورة العلق)		
١٢٣	١
١٢٣	٢
(سورة الزلزلة)		
٨٩	٥
(سورة العصر)		
٦٧	٢
(سورة النصر)		
٨٨	٣
(سورة الإخلاص)		
٤٨	٢
(سورة الناس)		
	من شر الوسواس الخناس، الذي يوسوس في	٤
١٧٥	صدور الناس

فهرس الأحاديث النبوية (١)

- ١ سئل رسول الله ﷺ . عن الإحسان فأجاب:
أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك..... ٥
- ٢ وقال ﷺ: «لى وقت مع الله لا يسعنى فيه إنس ولا
جن، ولا ملك ولا شيطان» ٥
- ٣ وقال ﷺ: «أعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ
برضاك من سخطك، وأعوذ بك منك، لا أحصى
ثناء عليك أنت كما أثيت على نفسك» ٦
- ٤ وقال ﷺ: «من عمل بما علم رزقه الله علم ما لم
يعلم، ووفقه فيما يعمل حتى يستوجب الجنة، ومن
لم يعمل بما يعلم تاه فيما يعمل، ولم يوفق فيما
يعمل، حتى يستوجب النار.....» ٦
- ٥ من الحديث القدسى: « كنت سمعه الذى يسمع به،
وبصره الذى يبصر به» ٧
- ٦ «ما منكم من أحد ينجاه عمله، قالوا: ولا أنت يا
رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتفمدنى الله
برحمته» ٩٤
- ٧ وقوله ﷺ: «لن يدخل أحدكم عمله الجنة» ٩٤
- ٨ وقوله ﷺ: « من أصلح جوانيه، أصلح الله
برانيه»..... ٩٧
- ٩ وقال ﷺ: «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم
قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه» ١٠١

(١) رتبناها حسب ورودها فى الكتاب.

١٠	وقال ﷺ: «كنت نبيا وآدم بين الماء والطين»	١١٩
١١	وقال ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها»	١٢١
١٢	وقال ﷺ: «إني أنا النذير المبين»	١٢٦
١٣	ويروى الصوفية قول الرسول: «الشريعة مقالي والطريقة فعالي، والحقيقة حالي»	١٢٧
١٤	وقال ﷺ: «إنه ليغان على قلبي حتى استغفر الله تعالى في اليوم سبعين مرة»	١٦٧
١٥	وقال ﷺ: من ترك الشبهات استبرا لزمته ودينه وعرضه، ومن واقع الشبهات فكأنما واقع الحرام»	١٧٢
١٦	وقوله ﷺ: ولا يكون العبد من المتقين حتى يدع ما لا بأس به، حذرا لما به بأس»	١٧٢
١٧	وكان ﷺ يقول في دعائه: «.. لا تكني إلى نفسي طرفة عين»	١٧٦

فهرس القوافى

الصفحة	البحر	القافية
	(ء)	
١٥٩	الكامل	إبراؤها
	* * *	
١٢٢	السريع	أسمائى
١٢	الكامل	نسائها
	(ب)	
٤٤	الطويل	فيطيب
٤٦	الوافر	يطيب
٢٠٦	مجزوء الخفيف	أرغب
١٥٥ ، ١٢٦	المجثث	ونصب
٧١	الطويل	شهابها

١٢٠	الخفيف	طبيبا
٤٢	السريع	ذيبا
٣٦	الطويل	تقلبا

٤٢	الكامل	إياه
	(ت)	
٨١	الخفيف	الكلمات
	(ج)	
٣٩	الكامل	حجاج

٤٣	الرمل	لسمج

	(ح)	
٧٥	الكامل	تباح

١٨١	الوافر	بمنتزاح

١٩٧	الرجز	يبح
	(د)	
٤٧	الوافر	أبيد
٨٦	البسيط	محمود
٧٢	الوافر	يراد
١٩	الطويل	سدوا
٣٣	الرملى	يعتقده

١٨٢	الرجز	الفرقودا

١٢٠	الطويل	مشهد
٣٧	الخفيف	فؤادى

٣٦	الكامل	عهده
	(ر)	
٤٥	الخفيف	قصار
٤٦	الوافر	قصير
١٨٢	البسيط	فأنظور
٤٥	الطويل	المناطر
٣٨	الطويل	السرائر

٣٢	الخفيف	صفارا
١٩٢	البسيط	افطارا
١٥٠	الطويل	تصدرا

٣٣	الكامل	خماری
١٩٩	البسيط	مختاری
٦٨	الطويل	الصبر
٢٠٧	الخفيف	ظفر
	(س)	
١٢٠	الكامل	جلوسی
	(ض)	
١٢٦ ، ٤١	الطويل	باغض
	(ط)	
٧٣	الطويل	النقط
	(ع)	
٣٥	الخفيف	خليع
٤٧	الكامل	ضائع

٤٥	الطويل	تسمعا
٣٢	الكامل	التوديعا
	(ف)	
٤١	الطويل	انطفا

١٨١	البسيط	الصياريف
٣٧	السريع	تصانيفه

٧٥	السريع (ق)	الإيجاف

٤١	الكامل	تحقيق
٤٠	الكامل	عناقة

٧٢	الوافر	ائتلافا

٩٩	الطويل	مطرق
٤٧	الطويل	ذائق
	(ك)	
٣٢	الطويل	ضاحك

١٤٤ ، ٤٦	الوافر	تباكى

٣٤	السريع	خالقك
٣٨	السريع	أفعالك
	(ل)	
٤٤	الطويل	يطول
٢٠٢	الطويل	عقول
٢٠٨	الكامل	تقال
٤٣	البسيط	يرتحلوا

٤٥	البسيط	والقال
٣٣	الوافر	المعالى
٤٥	الكامل	نزوله

٤٧	الكامل	ذليها
٣٤	الكامل	مطالها

٥٣	مجزوء الرمل (م)	أجل
١٥٥	الطويل	ليسلم

٧٢	الطويل	دائما

١٨٢	الرجز	المكدم

١٩٠	الكامل (ن)	نعم
١٨٥	الكامل	مسكن
٣٤	مخلع البسيط	هوان
٤٤	المتقارب	عنوانها

٤٢	الكامل	وكانا
١٣٣	الوافر	الناظرون
٧٢	الوافر	نونا
١٤٣	الكامل	هوانا
٢٠٢	الطويل	دعنا
١٣٤	الخفيف	جتنا

٥٨	البسيط	حزن

١٩٨	المتدارك	أجن
٣٤	مجزوء الكامل (هـ)	المكان
٤٥	البسيط	ألقاه

١٤٦	مجزوء الرجز (ى)	الجباه
٤٦	الطويل	كواسيا
٤٦	الطويل	المناديا
٦٥	الطويل	ورائيا
١٢٠	الطويل	حشائيا
٣١	الخفيف	عليا

٣٠	البسيط	معاليه
٦٤	البسيط	مجاريا
	(الألف اللينة)	
٤٨	الطويل	ليلى
	أنصاف الأبيات	
١٨٢	مشطور السريع	لو أن عمرا هم أن يرقودا:

فهرس المصطلحات اللغوية (صوتية، صرفية، نحوية)

- الأجوف: ١٦٠،
- الإدغام: ١٤٨، ١٦٧.
- الاستعلاء: ٧٠،
- الاستفال: ٧٠، ١٧٥،
- الاستفهام: ١٩٠،
- الاسم: ١١٩، ١٢١
- الإضافة: ٥٥، ٥٧، ١٤٧
- الإطباق: ٧٠،
- الإعراب: ٥٥، ٨٠، ١٢٧، ١٨٧، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٩
- أفعل التفضيل: ١٩١،
- الإلحاق: ١٣٦، ١٤٨، ٢٠٨
- الألف وأنواعها: ١٨٣، ١٨٥،
- ألقاب الإعراب والبناء: ١٢٧
- الإنشاء: ١٩٠،
- الانفتاح: ٧٠

- البدل ٨٥، ١٣٢،
البناء ٥٥، ٨١، ١٢٧، ١٤٨،
التأنيث ٩٤، ١٢٥
التشية ٥٥
التجرد ٢٠٤
التحقير ٥٥
الترقيق ١٧٣،
التركيب ٥٥، ١٢٦،
التصغير ٩٦، ١٤٨، ١٧٠،
التضمن ٨٩
التفخيم ١٦٩، ١٧٣،
التقديم ١٩٠،
التمييز ٨٤، ١٣١
التنظيم ١٨٦
التنوين ٩٤،
التوكيد ٨٥، ١٣٤، ١٩٠
الجر ٧٨، ٨٠، ١٢٧، ١٣٥
الجزم ٧٨، ٨٠، ٨٣، ١٢٧، ١٢٩، ١٧١،
الجمع ٥٥،
جمع القلة والكثرة ١٤٨،
الجهر ٧٠، ١٨٦،

- الحال: ٨٤، ١٣٠، ١٥٥.
- الحذف: ١٩٠.
- الحرف: ١١٩، ١٢١.
- الحركات: ٨٠، ١٦٤، ١٧٩.
- الحركة: ١٨٥.
- الحركة الصفراء: ٨٤.
- حروف الجر (الإضافة) ٨٥، ٩٠، ٩١، ١٣٥.
- حروف العلة: ١٧٢، ١٨٥.
- حروف القسم: ٢٠٥.
- حروف المد: ١٦٤، ١٨٦.
- الحروف المستقلة: ١٧٠، ١٧٥.
- حروف النصب والجزم: ٢٠٣.
- الحمل على المعنى: ٢٠٠.
- الخبر: ٨٢، ١٠٢.
- الخفض: ٨١، ١٤١، ١٥٥، ١٥٧، ١٩٦.
- الذكر: ١٩٠.
- الرخاوة: ٧٠.
- الرفع: ٧٤، ٧٨، ٨٠، ٨١، ١٢٧، ١٤١، ١٥٥، ١٥٧.
- الزمن: ١٠٢، ١٩٦.
- الشدة: ٧٠.
- الشرط: ١٩٠.

- السكون: ١٨٥،
الصحيح: ٩٣، ٩٩، ١٠٢، ١٢٤، ١٥٩،
الصفة المشبهة: ٥٧
الصلة: ٩٢
الضم: ٨١، ١٧٩، ١٨٧،
الضمير: ٩١
العامل: ٥٨، ١٨٧، ١٨٨
المجمة: ١٢٦،
العدل: ٩٤، ١٢٦،
العطف: ٨٥، ١٥٠،
علة: ٩٣، ١٨٦،
علم المعانى: ١٨٩،
العوامل اللفظية: ٨٣
الفاعل: ١٠٢، ١٣٠، ١٩٦،
الفتح: ٨١، ١٥٧، ١٧٩،
الفعل: ٥٨، ١١٩، ١٢١،
الفعل المضارع: ٨٣
القطع ٧٤
الكسر ٨١، ١٧٩، ١٨٧
اللازم ٥٨
اللحن: ١٥٥، ١٥٦، ١٩٢، ١٩٥،

- اللفيف: ١٦٠
- الماضي: ١٣٠
- المباني والمعاني: ١٨٧، ١٩٦، ٢٠٨،
- المبتدأ: ٨٢، ١٠٣، ١٢٩، ١٩٦،
- المبنى: ٨٢، ١٠٣
- المبهم: ١٥٠،
- المستثنى: ٥٧،
- المستقبل: ١٣٠،
- المشتق: ٩٤.
- المعتل: ٩٣، ١٢٤، ٩٩، ١٥٩، ١٠٣، ١٥٩،
- المعرفة: ٥٧، ١٢٩، ١٣١
- المفعول: ١٣٠، ١٩٥
- المقام والمقال: ١٩٣، ١٩٤
- المقطع: ١٨٦،
- المنوع من الصرف: ٩٤، ١٢٥
- المنادى: ١٤٥،
- الموصول: ٩١
- الناقص: ١٦٠،
- النبر: ١٨٦،
- النحو الأخلاقي: ١٠٢،
- النحو الجمالي والرياضي والتحويلي: ٩٩

النسب: ٥٥

النصب: ٧٤، ٧٨، ٨١، ١٢٧، ١٤١، ١٥٥، ١٩٥،

النظم: ١٨٩،

النعته: ٨٥، ١٣٤،

النفي: ١٩٠،

النكرة: ٥٧، ٨٤، ١٢٩، ١٣١، ١٤٥،

الهمزة: ٧٤

همزة الوصل: ١٤٨، ٢٠٨

الهمس: ٧٠

وزن: ١٢٦

وزن الفعل: ٩٤، ١٢٦

الوصل: ٧٤، ٨٠، ٨١، ١٨٨

الوقف: ١٥٧، ١٥٨، ١٨٨

الواو (أنواعها) ١٨٣، ١٨٥

الياء (أنواعها) ١٨٣، ١٨٥

فهرس المصطلحات الصوفية

الإثبات: ٧٦

الأحوال: ٦٥، ٧٧، ٧٩، ٨٤، ٩٨، ١٠٢، ١٢١

الأذواق: ٩٨

أرباب الحقائق: ٣٩

أرباب الافتقار: ١٤١

الأسرار - السر - وسر السر: ٢٣، ٢٤، ٩٤، ٩٩، ١٥٧، ١٦١

أصحاب الانكسار: ١٤١

أصحاب الأوراد: ١٤١

الإعجاب: ١٦١، ١٦٩

الإعلال: ٨٥

الأعواض: ٦٧، ٢٠٦

أقمار العبودة: ٧٦

الإلهام: ٦١

الامتحاء: ٦٢

الأنفاس: ٦٥، ١٠١

أنوار العبودية: ٧٦

أهل الإشارة: ٥٩، ٩٧، ١٢١، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٥، ١٥٦،

أهل الظاهر: ٥٩، ٩٧

أهل العبارة: ٥٩، ٩٧، ١٢١، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٥، ١٥٦،

الإيثار: ١٤٢،

الباطن: ٩٧،

البسط: ٥٠، ٨٥، ٩٠

البيان: ٩٣، ١٢٤

التجرد: ٨٣، ٨٥

التجريد: ٢٠٣

التخلق: ٩٢

التفريد: ٢٠٤

التفويض: ١٤١،

التمكين: ٥٢، ٨٢، ٩٣، ١٢٩، ١٤٣،

التلوين: ٨٢، ٩٣، ١٢٩، ١٤٣،

التواجد: ١٧، ٧٦

التوحيد: ١٢٦،

التوكل: ٨٣، ١٤١،

الجفر: ٦٠

الجمع: ٧٤

الحب: ٧٦

الحجب: ١٥٥،

الحزن: ١٥٥،

الحضور: ٧٦

الحق: ١٨٠

حقائق الأرواح: ٥٩ - ١٩٩

حق اليقين: ١٢٥،

الحقيقة: ٧، ٩٨، ١٤٨

الخجل: ١٤٢،

الخلق: ١٨٠،

الخلوة: ١٨،

الخمول: ١٤٢،

الخوف: ٤٣، ٨٦، ٩٠

دائرة الوجود: ١١٩.

الدعوى: ٨٣

الذات: ١٢٣،

الذكر: ١٥٧،

الذوق: ٥٩

الرباطات: ١٤

الرجاء: ٨٥، ٩١

رجال الله: ١٨

الرخص: ٦٦

الرسوم: ٢٣

الرضا: ٦٢، ٤٨

الرقائق: ٤٧

الروح: ٩٩، ٦٠، ٥٣، ٢٤

الرياء: ١٦١،

الزاهد: ٦٠

الزمن: ١٣٠، ١٠٣

سادات الوقت: ١٢٩.

السالك: ١٩٣،

السر (سر السر): ٩٤، ٩٣، ٦٠، ٥٣، ٢٤

السفر: ٤٨

السكر: ٤٨

السلوك: ٩٢

السوى: ١٢٨

الشريعة: ١٤٨، ٩٧، ٧.

الشطح: ٤٨

الشكر: ١٢٥،

الشهود: ٧٦،

الشوق: ١٥٨،

الصبر (التصبر - المصابرة - الاصطبار) ٦٨

الصحبة: ١٤١

الصد: ٨٣

الصفات: ١٢٣

الصفح: ٦٨

الطاعة: ٦٠،

الطوالع: ٧٩

العابد: ٥٤، ٦٣، ٢٠٥

العارف: ١٧، ٥٤، ٦٠، ٦٣، ١٣١، ١٣٢، ١٤٣، ١٤٩، ١٥٠

عالم الشهادة: ١٠

العبودية: ٦٦

العزلة: ١٣٢

العشق: ٤٨

الغفو: ٦٣، ٦٨

العلائق: ١٢٩، ٢٠٤

علم اليقين: ١٢٥،

علوم القشر والصدف: ١٩٩،

العيان: ١٢٤

عين الجود: ٨٤

عين اليقين: ١٢٥،

الغيبه ٧٦، ١٢٤

الفترة: ٨٠، ٥٢، ٥٠

الفتوة: ١٣

الفرق والجمع: ٦٢، ١٢٤

الفقد: ٢٣

الفقه الصوفى: ٦٧

الفقير المتجرد: ١٢٩،

الفناء: ٧، ٤٩، ٧٦، ١٢٧، ١٤٣

الفيض: ٥٩

القبض: ٥٠، ٨٥، ٩٠، ١٥٥،

القرب: ٦١

القلب: ٥٣، ٦٠،

الكتمان: ٤٧

الكشف والمكاشفة: ٧، ٤٩، ٩٠، ٩٣، ١٢٤

اللوامع: ٧٩

لوح الشهود: ١٢٣،

لوح الوجود: ١٢٢،

الهيئة: ١٤٣

الواجد: ٦٠، ٢٠٥

- الواردات: ١٤٨،
الواصل: ٨٣،
الوجد: ١٧، ٧٦
الوجود: ٧٦،
الورع: ١٤٣،
الوقت والموقت: ١٣٠،
الوقفة: ٨٠
الوله: ٤٧
يوم الميثاق: ٦٠
المعرفة: ٦٠، ٩٧
المقام: ٨٠، ١٤٣، ١٩٤،
مقام التقوى: ٥
مقام المشاهدة: ٥، ٧
المكان: ١٣٠،
الملاحظة: ٨٤، ١٦١،
المواجيد: ١٧، ٩٨
الموحد: ٦٠
النحو الباطني والإشاري: ٥٩
النفس: ٥٣، ٦٠
النقطة: ٧٤

النعمة ٧٦

الهجر ٨٣

المادة: ١٠

المجاهدة: ١٠٢، ٥١

المحبة: ٦٢، ٦٠

المحو: ٦٥، ٤٩

محو الإشارة: ٧٣

محو المحو: ٧٣

المذاقات: ٤٩

مراعاة الأنفاس: ٦٤

المريد: ٨٢، ٧٧

المساكنة: ١٦١،

المشاهدة: ٥١، ٤٩، ٧

مظاهر الأشباح: ١٩٩، ٥٩

فهرس المواضع والبلدان

الرباط ١٤	أسبانيا ١٤
روسيا ٥	إستانبول ٢٨
صقلية ١٤	استوا ٢٠
طرابلس ١٩	الأناضول ١٣
غار حراء ٥	أوروبا ٩، ١٤
الغرب ١٤	باكستان ٢٨
فلسطين ١٤	بغداد ٢١
القاهرة ٢٩	البلاد العربية ٢٥
ليدن ٢٨	تركستان ١٣
مرو ٢١	تونس ٢٧
نسا ٢١	جامعة عين شمس ١٩
نيسابور ٢٠، ٢١، ١٢٤	الجزائر ٢٨
الهند ٢٧	حماء ٢٧، ١٠٧
اليونان ٥٤	خراسان ٢٠ - ٢٥ - ٣٣
	دبلن (ايرلنده) ٢٩

فهرس الجماعات والطوائف والفرق

الصوفية ٥، ٧، ١٤، ٧٤، ١٢٩	الأشاريون ٦٩
وتتردد فى أكثر صفحات	الأشاعرة ٢٤، ١٢٨
الكتاب ١٩٢	أصحاب الكهف ١٣ .
العباريون ٦٩	الأصوليون ١٩٣
العباسيون ٧٠	الأفرنج ١٤
العذريون ٤٨	الأمويون ٧٠
العلويون ٧٠	الأوباش ٢٤
فدائيو الإسلام ١٤	أهل الاعتزال والمعتزلة ٩٥، ١٢٨
الفرق الإسلامية ٩٢	أهل السنة ٩٥
فروسية الإخوان ١٤	البصريون ٩٤، ٩٥، ١٢٧
الفلاسفة	
القدرية ١٢٨	البيزنطيون ١٤
القيصرية ٨	الجهمية ١٢٨
الكوفيون ٨٨، ٩٢، ٩٥	ال دراويش ١٩٥
	دولة القيصر ٩
الماتريدية ١٢٨، ٥، ٨	رجال الله ١٨
الماركسية ٥، ٨	الشيوعية ٨، ٩
المتكلمون ١٢٧، ١٢٨	الصلبيون ١٤

المغول ١٤
النورمنديون ١٤

المتيمون ٤٨
المجوسية ٨٨، ١٢٤
المسلمون ١٤

فهرس الأعلام

- آدم (عليه السلام): ١١٩، ١٢٢
إبراهيم (عليه السلام): ١٢، ٦٢
بنو إبراهيم: ١٤٦
إبراهيم بن أدهم: ١٤، ١٥، ١٣٢
إبراهيم أنيس (أستاذنا الدكتور): ١٢٢، ١٢٧، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٠، ١٧٥
إبراهيم بسيوني (دكتور): ١٩، ٢٦، ٢٧، ٢٩، ٤٩، ٥٢، ٦٠، ٦٦، ٦٨
إبراهيم الدسوقي (سیدی): ٦١
إبراهيم سلامة (أستاذنا الدكتور): ٥٦
إبراهيم مصطفى (أستاذنا): ١٢٧، ١٦٧، ١٨٨
ابن الأثير ٢١
أرسطو ٥٦
الأزهرى ١٣٢
أحمد تيمور (المحقق) ١٠٥
أحمد بن حنبل (الإمام) ١٠٤
أحمد رجب (الصحفى) ١٠١
أحمد عبدالمنعم الحلوانى، ٥٢
(الأستاذ)
إسماعيل العلوى (أبو إبراهيم) ٢١

الإسفرائيني (أبو إسحاق إبراهيم ابن محمد) ٢٠، ٢١،

أبو الأسود الدؤلي ٨٠

الأصمعي ٥٩، ١٣٢

الأعشى ١٩٩

ابن الأنباري ٥٨، ١٦٩

إمام عبدالفتاح (دكتور) ١٩٧

أمة الرحيم ٢٦

أنس بن مالك ٥٩

اينشتين ٩

الباقلاني (أبو بكر) ٢٠

الباخرزي (أبو الحسن) ٢١، ٢٢

بالمار (عالم لغوي) ٩٩

برديف (عالم روسي) ٩

بثينة ٢٨، ٣٤

البرقوقي ٢٠٢

بروكلمان ١٠٢

بروم (عالم حضريات) ١٠

بشر بن الحارث الحافي ١٥

أبو بكر (رضي الله عنه) ٥٩، ١٩٥

أبي بكر حمد بن أبي بكر الطوسي ٢٠

البيهقي (أبو بكر الحافظ) ٢٠

البوني ٧١،

أبو تراب النخشي ١٦

التستري (أبو عبدالله) ١٢٢

- تشارلس ستانيمتز (دكتور) ١٢
تمام حسان (أستاذنا الدكتور) ١٢٨ ، ١٨٦ ، ١٩٤
جابر بن عبدالله ١٢٦
الجاحظ ١٩٢ ، ٢٠١
الجرجاني (عبدالقاهر) ٢٠١
ابن الجزري ١٧٥ ، ١٧٠
جعفر الصادق ٧
اجنتس جولد تسهر ١٢٤
ابن جنى ٧٠ ، ١٢٨ ، ١٦٧ ، ١٧١ ، ٢٠٠ ، ٢٠٥
الجنيد ٥ ، ١١ ، ١٣ ، ٦٤ ، ١٠٧
الجويني (أبو المعالي) ٢٦
ابن الحاجب (النحوى) ٢٠٠
الحارث اليشكرى ٧٢
حسن عباس زكى (الأستاذ) ٢٧ ، ٦٠
حسن عبداللطيف (دكتور) ١٠٧
حسين رضا ١٠٦
خالد الازهرى (الشيخ) ١٦٧ ،
خبيب (رحمته) ١٧
الخطيب البغدادي (أبو بكر أحمد بن على) ٢١ ،
ابن خلكان ٢١ ، ٤٧ ،
الخفاف (أبو الحسن أحمد بن محمد) ٢١
داود بن نصر الطائى ١٦
ابن دريد ٧٠

أبو الدحداح ١٩٤،
الدقاق (أبو على) ٢٠، ٢١، ٢٦، ٢٨، ٦١، ١٢٤، ١٦٧
الرشيد (ال خليفة) ٥٨
رشاد خليفة (الدكتور، عالم الكيمياء) ٦٩
الرضى (النحوى) ١٢٧
الرماني (على بن عيسى) ١٨٣، ١٩٣
ريمون طحان
ذو النون المصرى ١٧، ١٢٠
الزجاج ١٢٧، ١٨٧
السبكي ٢٢، ٢٥، ٢٦، ٢٩
السجستاني (أبو داود) ١٥٦
السرى السقطى ٤٦، ١٦٢
أبو سعيد الخراز ٩٨
أبو سعيد بن أبى الخير الصوفى ١٢٤
سيبويه ٧٠، ١٢٧، ١٧٧
السيرافى ١٩٨
السيوطى ٢٢، ١٢٧، ١٥٧، ٢٠٠
ابن سينا ٧٠،
سهل بن إبراهيم ١٥،
سهل بن هارون ٧٠
السورثى (الأستاذ) ٢٨
الشبلى ١٤، ٦٠، ٧٤، ٨٦، ١٢٣
طغرل (السلطان) ٢٥
الطحاوى (الأستاذ المحقق) ٨٢

- عامر عثمان (الشيخ القارئ) ١٦٦
أبو عامر المنصور ١٩٨
أبو العباس (ثعلب) ٩
العتابي (الشاعر) ٧٢
عثمان (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) ١٥٦
عبدالحليم النجار (دكتور) ١٢٤
عبدالسلام هارون ١٦٦، ١٩٢
(الأستاذ المحقق)
عبدالرحمن السلمي ٢٦،
عبدالصبور شاهين (دكتور) ٨، ١٦٩
أبو عبدالله الحسين (البزار) ٢١
أبو عبدالله الفراوي ٢١
أبو عبدالله محمد بن علي بن عراق ١٠٢
عبدالمجيد قطامش (دكتور) ١٠٧
عبدالمعين الملوحي ١٨٣
ابن عجيبه (أبو العباس أحمد) ١٤٢
ابن عريى ٧٠، ٧١
ابن العريف (القرطبي) ١٩٨
العز بن عبدالسلام ٧٠،
ابن عطاء الله السكندري ٩٠
ابن عمار البغدادي ١٤
عمر (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) ١٥٦، ١٩٨
ابن عمر ١٢٠
عمر بن الفارض ١٠٧

أبو العلاء المعري ٧٢، ١٥٩، ١٨٥،

على حسن عبدالقادر (دكتور) ٢٨، ٢٩، ١٠٤

أبو علي الفارسي ٥٧، ١٩٩

علي أبو المكارم (دكتور) ١٩٠

علي (رحمته الله) ٧٠

علي بن عقيل ٥٢

علي الأشموني ٥٦، ٥٧

علي الكيزواني ١٠٧

علي بن ميمون الحسني ١٠٣

العكبري ٦٥، ١٨٨

عيسى (عليه السلام) ٥

ابن غانم المقدسي ١٠٧

(عبدالسلام) ٩٨، ١٥٧، ١٦٢

الغزالي (الإمام) ٦، ١٦

الفراء (النحوي) ٥٨

الفرزدق ١٨١

فؤاد حسانين (دكتور) ١٤

فناخسرو البويهى (أبو شجاع) ٥٧

ابن فورك (أبو بكر) ٢٠

فير (دكتور) ٢٨ - ٣٠

فيرث (عالم لغوي حديث) ٩٩

الفيروزآبادي (مجد الدين) ١٧٦

القاسم بن مخيمرة ١٩٣

قتادة ١٦٣

القرطبي (المفسر) ١٩٤

- القسطلانى (شهاب الدين) ١٦٦
قطرب (أبو على محمد بن المستير) ١٢٧
كامل كيلانى ١٨٥
ابن كثير ٢١، ٢٦ - ٣٢
كثير (عزة) ٧١
الكسائى ٥٨
الكلاباذى ١٣١
الكوهنى (عبدالقادر بن أحمد) ١٤٠، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٨، ١٤٩
الكندرى ٢٥ - ٣٣
الكسندر هيوم ٩٩
الليث ١٦٤
المأمون (ال خليفة) ١٥، ٧٠
المازنى (أبو عثمان بكر) ١٩٨
مازن المبارك (الدكتور) ١٨٧
ابن مالك (النحوى) ١٥٧، ١٩٧، ١٩٨
متى بن يونس ٢٠١
ابن مسرة ١٨٥
مصطفى الحدرى ٢٧، ١٠٧
مصطفى الحلبي ١٩١
ابن مضاء القرطبى ٧٩، ١٢٨
مطرف بن الشخير ١٧٣
المحاسبي (الحارث) ١٣، ١٦، ١٧
محمد (رسول الله ﷺ) ٥، ١٤، ٦٢

- محمد أمين ١٠٨
محمد حسن ٢٨
محمد بن حسنى (الشابى التونسى) ١٠٥
محمد بن واسع ٦
محمود فؤاد الجبالى ١٠٦
محيى الدين (الشيخ) ١٠٧
أبو مدين (الشيخ) ٢٠٢
ابن معطى (النحوى) ١٥٧
المغربى (أبو عثمان) ١٢٤ ، ١٢٥
مكين الدين الأسمر (الشيخ) ١٩٢
المهلهل ٧١
أبو نعيم أحمد المهرجاني ٢١ ، ٥٩
النيسابورى ٢٠ ، ١٢٢
أبو نصر السراج ٥٩
النفرى ٧٣

فهرس

محتويات الكتاب الأول

الإهداء

مدخل.....	٥
-----------	---

المؤلف والكتاب

الفصل الأول

عبدالكريم القشيري بين مولده ووفاته.

١	حياته وعصره وأخباره.....	٢٠
٢	مؤلفاته وآثاره	٢٦
٣	شعره.....	٣٠
٤	آدبه.....	٤٩

الفصل الثاني

مناهج القشيري واتساع دراساته

أ	بين الإشارة والعبارة.....	٥٥
ب	في التفسير.....	٦٢
ج	في الفقه.....	٦٥
د	في اللغة.....	٦٧
هـ	في الحرف.....	٦٩
و	في المصطلح.....	٧٥
ز	في نحو القلوب.....	٧٨

الفصل الثالث

الكتاب

أ	منهج الكتاب	٩٧
ب	مقدمة الكتاب ومحتوياته.....	١٠٢
	● وقفة ومناقشة حول الكتاب.....	١٠٢
ج	مخطوطات الكتاب ورموزها.....	١٠٥
د	عقبات فى التحقيق.....	١٠٨
هـ	صفحات من مخطوطات الكتاب.....	١١١
و	تحقيق الكتاب.....	١١٧
	- باب أقسام الكلام	١٢١
	- باب الأسماء واشتقاقها	١٢٢
	- باب موانع الصرف	١٢٥
	- باب الإعراب والبناء	١٢٧
	- باب البدل	١٣٢
	ملحق نصوص فى نحو القلوب وتشتمل على:	
	- نصوص مشتركة بين الكتابين	١٤١
	- نصوص تفرد بها كتاب القشيرى	١٤٧
	- نصوص تفرد بها كتاب الكوهن وابن عجيبة	١٤٨
	دراسات للمحقق	
	فى ضوء الكتاب.....	١٥٣
١.	فى اللحن.....	١٥٥
٢.	صوفية الحركات.....	١٥٩
٣.	بين المبانى والمعانى فى النحو.....	١٨٧
	فهرس المصادر والمراجع.....	٢١٠
	فهرس الآيات القرآنية.....	٢٢٣

٢٣١ فهرس الأحاديث النبوية
٢٣٢ فهرس القوافي
٢٣٩ فهرس المصطلحات اللغوية (صوتية، صرفية، نحوية)
٢٤٥ فهرس المصطلحات الصوفية
٢٥٢ فهرس المواضع والبلدان
٢٥٤ فهرس الجماعات والطوائف والفرق
٢٥٦ فهرس الأعلام

نَحْوُ الْقُلُوبِ الْكَبِيرَا

للإمام زين الإسلام عبد الكريم القشيري

قدّم له ومحققه وعلّقه عليه

دكتور أحمد عالم الدين الحنّدي

شارك في التحقيق

دكتور إبراهيم بسيوف

مدخل

كلانا . علم الدين الجندى وأنا . ندين بالفضل الكبير لله سبحانه .
ولشيخنا وإمامنا عبدالكريم القشيري زين الإسلام في كل عصوره: فطوال
اقتربنا منه منذ عهد بعيد ونحن نفترف من أفضاله وكراماته خيراً من
بعد خير.

وحيثما أهلت ذكره الألفية فتح الله علينا بالحصول على أربع
مخطوطات . لكتاب نادر من كتبه . شهد له علماء المراجع والمصادر في
الشرق والغرب بعلو القيمة والنفاسة ، فجمعنا هذه المخطوطات من أصقاع
العالم المتباعدة، ثم بدأنا منذ سنين ذات عدد نقرأها ونعيد، ثم لنحققها، ثم
لنشرحها فتحصل في آخر الأمر كتاب يحتل في الثقافة الرفيعة شأننا
كبيراً.

ولعل أهم ما فيه هو هذه النظرة الابتكارية التي إنماز بها الشيخ، إذ
جعل النحو الظاهري بعناوينه الكبرى والصغرى وتفاصيله ثم أدق تفاصيله
مناطقاً لاستخراج كنوز ثمينة من علوم أرباب الأحوال، وإذا بنا أمام علم
ثالث جديد كل الجدة هو «نحو القلوب»، وللقشيري في هذا كتابان،
أحدهما صغير سبق لـ «علم الدين الجندى» أن أصدره، وهذا الكبير الذي
بين يدي القارئ.

ولسنا نخشى شيئاً أكثر مما يصاب القارئ للوهلة الأولى بصدمة
ثقافية تتأى به عن الكتاب ، وهذا شيء ملاحظ كثيراً في أول تعامل المرء

مع كتاب تراثى رفيع المستوى، لكنه . وهذا شئء نؤكداه تأكيداً . سيجد نفسه مع قليل من الصبر فى روضة أنيقة، بديعة الزهر حلوة الثمر.

فالقشيرى معروف فى الشرق والغرب على السواء بأنه صاحب قولة الحق المستنيرة المعتدلة، وأن أعماله تمتد لتشمل علوم الكلام والتوحيد والتفسير والحديث والتصوف والتربية والأخلاق... فضلا عن اللغة والأدب إذ هو شاعر، ومتذوق بصير.

والله وحده يعلم كم من الجهود بذلنا حتى نخفف الأحمال الباهظة لهذا الكتاب فيصبح ميسور الفهم والمنال لدى الناس وبصفة خاصة لدى الباحثين الذين يقتربون من هذه المناطق، ويعرفون وعورة الدروب المؤدية إليها... بحيث يمكن القول إنه لا غنى عنه للمتأدبين الأصلاء.

وكل الذى يسعدنا الآن أن يطل القشيرى على الناس فى حلة من حلله الرائعة، وأن يتقبل الناس هذا العمل الجليل أحسن القبول إن شاء الله. والله الموفق وعليه الاعتماد ومنه التيسير،

د. أحمد علم الدين الجندى

د. إبراهيم بسيونى

القاهرة فى رجب من عام ١٤١٤ هـ

تعريف بالكتاب وصاحبه

أولاً . الاتجاه الإشارى فى منهجه بعامة

للإمام عبدالكريم القشيري منهج فى التأليف ينماز بخصائص جمة، ولكننا نتوقف هنا عند خصيصة تهمنا ونحن نقدم هذا الكتاب: فنحن طوال عشرينا ومعايشتنا معه من خلال مصنفاته نلاحظ أنه يميل إلى استنباط الإشارة المحكمة ابتداء بالقرآن الكريم فى لطائف الإشارات ومروراً بالتحبير والمعراج والترتيب.. وغيرها.

هذا الخط الإشارى ينبنى على أن المعانى الظاهرة فى القرآن وفى العلوم العقلية والنقلية المعتمدة على اللغة والفقه والأصول والتفسير ونحوها لها معان باطنة لطيفة تخفى على الذهن العادى ولكنها تتاح للمتحققين وقبل أن نتعرف مقاصده البعيدة من هذا الاتجاه وهذه الجهود نعرض عرضاً سريعاً لبعض مصنفاته للتدليل على تعشقه لهذا المنهج من ناحية وليكون تقبله فى كتابنا الجديد الذى نقدمه الآن أمراً معتاداً . من ناحية أخرى.

فالتحبير فى التذكير . كما يتضح من عنوانه كتاب معد للاستفادة منه فى «الذكر» ، ورأى الشيخ أن أسماء الله الحسنى وصفاته هى أليق الموضوعات للذاكرين . ورأى أيضاً أن يخرج بها عن نطاقها فى علم الكلام والجدل إلى نطاق جديد . فبينما كانت قضية نفى الصفات وإثباتها موضع شد وجذب بين المعتزلة والأشاعرة، وبينما شغلت قضية صفة واحدة وهى «الكلام» حيزاً ضخماً من التاريخ الإسلامى بل قامت لأجلها فتن وفتحت سجون وعذب مفكرون إذا هى هنا على يد القشيري فى «تحبيره» قلباً

نابضاً بالحياة، منعشاً للفكر والذكر على السواء. ويتلخص منهجه فى ذلك فى خطوات ثابتة، فهو بعد أن يعالج الصفة «كالجبار» مثلاً من ناحية اللفظ حيث يصرفه إلى «جبر الكسر» أو «إلى نخلة جبارة» أى لا تنالها الأيدي أو إلى «الجبروت» والجبروت فى حق الخلق مذموم، وفى حق الله محمود.. يبدأ باتخاذ كل معنى بداية لمعارف مخصوصة تتلاءم وكل وصف، ثم يرتب على كل صنف من المعرفة سلوكيات مخصوصة أيضاً ويبدأ على النحو التالى «ومن آداب من عرف ذلك أن يفعل كذا وكذا...».

معنى هذا أن منهجه اتخذ من موضوع نظرى جاف اشتجر حوله الخلاف بداية لعلم عملى تطبيقى له جدوى، ويمكن أن يكون أساساً ركيناً فى الحياة الروحية للإنسان. فكان القضية باختصار قد خرجت من نطاق محدود إلى نطاق غير محدود بمقدار ما تتسع آفاق الذكر أمام بصر الإنسان وبصيرته.. وهو بلا شك اتجاه مبتكر استفاد منه الغزالي بعد نصف قرن وهو يضع كتاباً حول نفس الموضوع وهو «المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى» إذ اتبع المنهج ذاته وتبنى الغايات ذاتها.

وفى كتابه «المعراج» يتخذ من قصة الإسراء والمعراج إشارات عجيبة، الهدف منها إعلاء قدر المصطفى هذه المعجزة بطريق مقنع ممتع وهو يتابع كل نقلة من نقلاتها.

أما «لطائف الإشارات» فهو كما يتضح من اسمه يعتمد على استنباط الإشارة من النص القرآنى بحيث يضيف إلى تفاسيرنا التقليدية المنكبة على الاشتغال بالعبارة: نحواً وصرفاً واشتقاقاً ولغة وفقهاً وأخباراً. أشياء جديدة تغيب كثيراً عن أفهامنا. وهو فى مقدمة كتابه يعترف أن هذه ميزة لا يتمتع بها سائر الناس وأنها وقف على أصفياء الله وأوليائه: «... أودع سبحانه صدور العلماء معرفة القرآن الكريم وتأويله، وأكرمهم بعلم قصصه ونزوله، ورزقهم الإيمان بمحكمه ومتشابهه وناسخه، ووعدده ووعيدة». ثم

يستطرد مفصلاً شأن هؤلاء المرادين لهذه المهمة « .. وأكرم الأصفياء من عباده بفهم ما أودعه من لطائف أسرارهِ وأنواره لاستبصار ما ضمنه من دقيق إشاراته وخفى رموزه، بما لوح لأسرارهم من مكنونات، فوققوا . بما خصوا به من أنوار الغيب . على ما استتر عن أغيارهم، ثم نطقوا على مراتبهم وأقدارهم، والحق . سبحانه وتعالى . يلهمهم بما يكرمهم .. فهم عنه ناطقون، وعن لطائفه مخبرون، وإليه يشيرون ، وعنه يفصحون .. والحكم إليه فى جميع ما يأتون ويذرون».

ومن عجيب الأمر أن يطول النفس الإشارى عند الشيخ حتى يتمكن من تفسير القرآن الكريم كله سورة سورة وآية آية، بل أحياناً يحلل الآية الواحدة إلى كلماتها ، ويصل الأمر ذروته عند البسملة فيفسرها واحدة بعد الأخرى . وهى التى تتكرر فى مفتتح كل السور بنفس ألفاظها . تفسيراً متجدداً يليق بالجو العام لكل سورة على حدة،، والإشارات المنطلقة من كل بسملة بدورها تتجدد على نحو مذهل.

غير أن مقدرته هذه تجد تفسيراً لها فى سيرته ... كما سنرى، فقد انكب على العلوم العقلية والنقلية ما وسعه ، وثقف على أيدي كبار الشيوخ أمثال الإسفرايينى والباقلانى وابن فورك والدقاق وغيرهم من أئمة نيسابور فى أزهى عصورها كما أنه قبل ذلك وبعده أديب .. له شعر خاص وله أسلوب أدبى ممتاز، ومن هنا تذوقه للشعر خارج البيئة الصوفية والمجلوب للاستشهاد به على الموضوعات الصوفية يأخذ بدوره الطعم الإشارى المعهود، فنحس أن هذا الشعر المنقول عن المتنبى أو صريع الغواني أو العذريين قد ارتدى ثوباً جديداً حين ضم إلى الخمریات أو الغزليات الإلهية أو نحوها بحيث تعجز عن تمييزه فى السياق الإشارى. وكتابتنا هذا لا يخرج عن ذلك كما سيتضح بعد قليل ..

والسؤال الذى يطرح نفسه لماذا هذا الاهتمام بالخط الإشارى عند الشيخ فى معظم تصانيفه؟

نرجئ الجواب على هذا السؤال إلى الفقرة التالية بعد أن نضم إلى تصانيفه الإشارية هذا الكتاب الجديد .

ثانيا . الاتجاه الإشارى فى «نحو القلوب الكبير»

نعلم أن علم النحو هو العلم بالقواعد التى تضبط بها أواخر الألفاظ حتى يسلم الكلام وتتحقق الفائدة المرجوة منه فنأمن وقوع «اللسان» فى اللحن والخطأ . وهو علم وضعى شارك فيه أفذاذ من علماء المشرق والمغرب . هذا هو المفهوم السائد الذى عرفه الناس والفوه .

وجاء الشيخ .. فأراد أن يكسب له وللطريقة بل للتدين عموماً نصيراً جديداً يؤيد به حقائق تتصل «بالقلوب» لا «باللسان» وحده .

النحو علم مستقل، والتصوف بدوره علم مستقل، أما الجمع بينهما فى صعيد واحد فهو علم جديد يمكن أن نسميه:

علم النحو الصوفى أو «نحو القلوب» .

وقد بدأ الشيخ جهده فى هذا الخصوص فوضع كتاباً صغيراً خطط فيه لفكرته الأساس ، واختار نماذج قليلة لتوضيح «اكتشافه» ولكنه ما لبث أن صنف هذا الكتاب الكبير ليشمل ستين فصلاً تكاد تستغرق كل موضوعات النحو المألوفة . وخضعت كلها للإشارة وعلم الباطن .

ولكى نتصور البداية العقلية لهذا الأساس علينا أن نردد فيما بيننا وبين أنفسنا مصطلحات النحو التقليدية مع استحضار التصورات الدينية فى ذات الوقت فالاسم المبتدأ، وخبره، والفاعل، والفعل، والمفعول، والمرفوع والمنصوب والمخفوض والوقف والسكون والجزم... إلخ هذه الألفاظ ذات الدلالات المعروفة، ولسوف يحدث بالقطع . من قبيل تداعى المعانى - أن نصرف هذه الدلالات ذات الرائحة النحوية الصرفة إلى دلالات عميقة كل

العمق فى المفهوم الدينى. فليس من شك فى أننا فى الوعى أو فى اللا وعى سنحس بنوع من اللقاء المعنوى الحميم بين الله والمبتدأ، وبين الخالق والفاعل، وبين الكون والمفعول ، وبين من هو (مرفوع) فى القيمة وآخر (مخفض)، وبين من تؤثر فيه العوامل ومن لا يتأثر.. هكذا بالتداعى بين المعانى المشتركة، تمكن القشيري أن يضع أساس هذا العلم الجديد «نحو القلوب».

فإذا كانت الفكرة بسيطة فى بدايتها فهى عند رجل كالقشيري يتحالف مع الإشارة، ويؤمن بها ويعمل لها . كما أوضحنا ... الفكرة هنا تأخذ مداها البعيد، وتتسع وتصدق وتحتد وتكبر لتلد فى النهاية هذا الوليد الفاضل «نحو القلوب».

وأشهد أننا ونحن نتعامل مع هذا الكتاب لم نجد عنده من البداية إلى النهاية افتعالا أو تكلفاً، بل العكس هو الصحيح فإننا كنا نسمح لأنفسنا أحياناً أن نتابع الفكرة الكبرى للباب النحوى، ونسرب مع التفاصيل والتفاريع كما تذكره مطولات النحو فأدهش إذ أجد إمكان سريان الفكرة الإشارية إلى مستوى الأعماق البعيدة فى أغوار الموضوع.. وقد نوهنا فى الشروح بذلك ونحن شديداً الإعجاب بالرجل حتى لقد حدثنا أنفسنا كثيراً أنه يتمتع بميزة أكبر من الفطنة والذكاء ودقة النظر.. إنها نفح روحى عميق يلهمه هذه الفتوحات .. ونحن نقول لأنفسنا: إن السر فى ذلك كله أنه لا يقترب من هذا العمل إلا بيد متوضئة!

ولسنا نبالغ فيما نذهب إليه فإننا لا مصلحة لنا فى المبالغة ، بل إننا نقرب من هذا العمل العلمى ونحن مجردون من كل الأهواء الشخصية.. ولسوف يحس القارئ . إن شاء الله . بقيمة هذا الصنيع وتقديره حق قدره. يكفى للتدليل على ذلك قياس النتائج بمحصلوها النهائى، فالشيخ قد جرب الإشارة مع معظم أبواب النحو فلم يتخل إلا عن بابى «البديل»

و«التوكيد» تقريباً وفي كنف ذلك استطاع أن يلم بأطراف التجربة الصوفية كلها بأدق دقائقها . كما يتضح من المتن ومن الشروح... فماذا ننتظر من الرجل لإثبات نجاحه أكثر من ذلك؟ أليست الحقيقة واحدة مهما اختلفت المعارف؟ ومع أن الشيخ كان يكتفى وهو يورد فقرات النحو الظاهري بسطور قلائل يراها جديرة بالاهتمام لإطلاق الإشارة نحو هدف محدد يفصح عنه أو يلغز.. إلا أن هذا القدر من النحو الظاهري يكفى الآن كي نقتحم به محاولة تيسير النحو، وتخفيفه من أثقاله التي ينوء بها شبابنا فيزورون عن النحو وعما يتصل بالنحو إذ تنقبض نفوسهم من مناهجه وطرق عرضه ووسائل تطبيقه.. نتصور أنه يمكن الاستفادة من تجربة الشيخ في هذا التخليص كي نعيد تقديم هذا العلم بعد تنقيته من طول ومشقة لا جدوى منهما، ونكتفى بما يمكن أن نسميه الحد الأدنى والضروري من النحو، ذلك القدر الذي يعلق بالأذهان ولا يكون قابلاً للنسيان عبر الأزمان.. بل يظل نافعاً في أمورنا الحياتية عند التحدث وعند الخطاب وعند القراءة والكتابة.. تلك فائدة محققة من هذا الكتاب. ومع ذلك فإن هذا ليس الهدف من تأليف الكتاب.. فلم يكن في الواقع يطمح إلى زيادة كتب النحو كتاباً جديداً فهو يعلم أن مكتبة النحو متخمة.. إنما كان يهدف حسب خطه الفكري في كل مصنفاته أن يحول العلم إلى عمل، والنظرية إلى تطبيق، والمبادئ إلى سلوك.. هذا جزء أساسي في تخطيط تصنيفه.. فكيف تم له ذلك؟

استحضر الشيخ في ذهنه الجزئية التي يريد أن يتناولها في فصل «النحو» وانتقى من كل التراكمات النحوية الكثيرة ما يكفى لسلامة «اللسان» من الخطأ واللحن، وأوجز ذلك في عبارات مركزة كأنه يصوغ دستوراً ذا مواد محددة ضابطة، بلا حشو ولا استطراد. ثم صاغ لأجل أهل «القلب» . ما يناظر ذلك تماماً . شيئاً نافعاً في العلوم الصوفية من الناحيتين النظرية والعملية. وخرج من هذا التنظيم بشيء ممتع مقنع

للمريدين والسالكين والواصلين. وظل هكذا ينتقل بين الستين فصلاً من فصول النحو واضعاً نصب عينيه أن يضيف جديداً في كل فصل، بحيث يكون استجماع هذين المحصولين المتوازيين في نحو اللسان ونحو القلب ثروة ثمينة في نهاية الأمر.

وكأنى بالشيخ بعد كل هذه الجهود يريد أن يقول للمريد:

هأنت بعد هذا قد أدركت أن كل صغيرة وكبيرة في علم من العلوم العقلية التي يتحمس لها أهلها لها أصل عندك في علوم الصوفية، وبكلمات أخرى: فإن علوم الصوفية ليست بدعة.. وإنما هي مستمدة من أصول مألوفة تعارف الناس على احترامها وتقديرها.. وهكذا.. ما يصدق على النحو يصدق على الفقه التفسير والأصول والكلام.. وكل العلوم التي في خدمة الشريعة.

وبالتالى.. فإن الشريعة والحقيقة تتلاقيان، فهما وجهان لشيء واحد، فالحقيقة بيت والشريعة بابه، ولا دخول للبيت إلا من الباب، فأى تقصير فى أحدهما على حساب الآخر «فغير مأمول وغير محصول» ولو وصلت فى الكرامة حتى طرت فى الهواء أو مشيت فوق الماء فسننظر أولاً فى موقفك من الشريعة، وأى تقصير لك فيها ولو فى هيئة منها يذهب بك وبكرامتك أدراج الرياح!

ذلكم هو المقصد الأسمى والأسنى لهذا الإمام الجليل من كل منهجه الإشارى، اعتراف كامل بفكرة الظاهر والباطن، وإتاحة الفرصة أمامهما ليتبادلا النفع.. نفع العابدين والسالكين.. بل المتدينين بصفة عامة، والذائفين بخاصة. وإذا كان توضيح الأمور «الحقيقة» بواسطة علوم «الشريعة» هدفاً، وإذا كان «الحب الإلهى» هو جوهر هذه «الحقيقة»..

فكان هذا الكتاب فى الواقع إنما جاء لتصنيع فكرة هذا الحب، وبيان

أشواقه ومكابداته، وتفتيح الأبصار والبصائر أمامه كي يقوم بدوره العاطفى النبيل فى تجميل الحياة أمامنا، وتنظيم مجتمعاتنا..

وتستطيع أن تتمثل قيمة هذا الدور لو تخيلت الناس وقد أقاموا علاقاتهم الحياتية على أساس محبة الله ومحبة بعضهم بعضاً.. تلك المحبة التى تعطى للوجود طعماً، وللتحرر مذاقاً.. وبدونها تصبح الحياة أشبه بغابة موحشة تمتلئ بالصخور الرخامية الباردة وتعج بالوحوش الكاسرة!

وهكذا تحول النحو - ذلك العلم الجاف الذى يشق على الدارسين - إلى واحة وأرفة ذات مياه وظلا - ونسائم وخيرات، فيها ينتعش القلب والروح والسر، ويزدهر الجمال والجلال، وتنمو العاطفة المشبوبة صاعدة نحو «المنعم» شاكرة له مثية عليه، وعلى نعمه (ظاهرة) و (باطنة).

ثالثاً - خطتنا فى الشروح

لو ترك القارئ - فى مواجهة مع المتن وحده بدون الشروح لأخافه الإيجاز المركز والإشارة المبهمة وربما أزاحه بعيداً دون أن يعطيه قدره الحقيقى. وربما أيضاً يكون فى ذات الوقت له عذره، فالشيخ لم يكتب كتابه لأى قارئ، وإنما للمريدين، وليس لكل المريدين بل لمن لهم خبرة بحقائق علم النحو من ناحية وبقضايا علم القلوب من ناحية ثالثة وبالقدرة على تنظير هذه بتلك حتى يتم الاستمتاع والاقتناع.. ونتصور أنهم قلائل - من حيث العدد - فى كل زمان ومكان.

فإذا جئنا نحن الآن فى هذا العصر ووضعنا فى غاياتنا أن ندنو بالكتاب من أكبر عدد من الناس كي نعرفهم - وهذه مهمتنا الأساس - بالشيخ وأفضاله فإن ذلك يلقي علينا عند شرح الكتاب مهام ثقيلة.. نعتزف أننا نخوفنا من حملها فى بداية الاقتراب من هذا العمل.

لم تكن المهمة سهلة.. لأن استتباط الإشارة من العبارة أمانة علمية يلزم الوفاء بها قدر الوسع، ثم إن صياغة الشرح تحتاج إلى أسلوب واضح يتيسر للكافة فهمه. وقد تكون مهمة الشراح في الزمن القديم أسهل منها في عصرنا، لأنهم كانوا جميعاً - المؤلفون وشراحهم يعيشون في زمن واحد أو متقارب، وكانت أنماط الثقافة في عصورهم غير بعيدة عما يصدر من مصنفات، وللناس اعتياد على ذلك كله. أما نحن فهناك ما يشبه القطيعة بين تراثنا القديم وبين ثقافتنا الحاضرة.. ونزعم أن النتيجة - إن شاء الله - كانت لصالحنا، فقد أصبح ممكناً أن يوصف هذا العمل بأنه من نماذج الأعمال القديمة المعروضة في أسلوب معاصر بعيداً عن الإعنات والمشقة.. ونزعم كذلك أن خبرتنا بالشيخ خلال مصنفاته قد ربت لدينا حساً حتى بما يريد أن يقوله لا لما يقوله فقط.. فتلك أجل الثمار التي جنيناها من طول خدمتنا له.

ومع ذلك كله فيبقى الأمر من الناحية العلمية المحضة أن الشروح تنبنى على التذوق والذوق شيء ليس في الكتب، فمن حق القارئ الواعي أن يتقبل ما ذهبنا إليه، وأن يرفضه، وأن يقدم جديداً في فهمه.. وفي جميع الأحوال نحن نتقبل النتائج بصدر رحب. فيكفي أن نشغل أفهام الناس بشيخنا، وأن نجعله منطلق تفكيرنا.. فذلك حسبنا.

والعمل رمزي إشاري.. وكلاهما ملفز، وربما يدفع ذلك إلى الهيام في أودية شتى، فكان رائدنا أن نتفهم بداية الدرب في كل فصل، ثم ننطلق في حدود مرسومة دون استطراد أو إملال أو افتعال أو مخاطرة.

ونحن الذين رقمنا الفصول ووضعنا لها العناوين.. ولم يكن ذلك بالمتن، كما أننا قمنا بوضع علامات الترقيم وترتيب الأسطر بحيث تغدو مفهومة عند قراءتها الأولى.. وليس هناك شيء من ذلك في المتن أيضاً.

والكتاب يتكون من ستين فصلاً تستوعب موضوعات النحو التقليدية ماعدا التوكيد والبدل.

وليس بالضرورة . كما يرى الشيخ . أن يكون الفصل ذا أصل كبير، فقد يجد في شيء صغير (كواو عمرو) أو ألف الوصل أو دخول (ما) في كثير من أبواب النحو ملحظاً يستحق إشارة نافعة ومهمة فيفتحه.

ولاحظنا أيضاً أن الشيخ . وهو بصدد التركيز . قد تجنب المسائل التي يشتجر حولها الخلاف عادة بين النحاة، فاجتهد أن يختار على نحو انتقائي الثوابت التي لا خلاف حولها تاركاً ذلك لمن يريد أن يمخر عباب النحو في مظانه .. فالمهمة هنا مختلفة إذ إن ذلك شيء لا يعنيه.

وفي معظم الأحيان كان استخراجنا لمفهوم الإشارة محدداً بحدود العبارة، ولكننا كنا نجد أنفسنا أحياناً أمام عبارات لها صفة التعميم بحيث يمكن أن يدخل تحت العام خصوصيات كثيرة، فكنا نقدم الاحتمالات التأويلية الممكنة، ونسائر كل احتمال إلى آخر مداه.. لأن الحدس بواحد فقط غير مأمون العاقبة.

ونحاول في الشروح تقديم أنماط شتى لأسلوب العرض، فأحياناً نجد الموقف يتطلب بسطة في قضايا من علم الكلام، أو من علم النفس أو الشعر، أو القصص، أو الأسانيد عن الشيوخ.. ونحو ذلك وقد اخترنا هذا التلويح في وسائل العرض لمقتضيات الأمر من ناحية ولمحاولة التخفيف عن القارئ ودفع السأم عنه من ناحية أخرى.

ونلجأ إلى تفريعات في «نحو الظاهر» تتطلبها الإشارة كي يزداد التنظير إحكاماً، ونتجنب ذلك إذا لم تدع إليه الضرورة، وسيجد القارئ الذي يعنيه أمر النحو الظاهر فقط أننا وفيينا الكيل ولم نطفف.. إذا وازن بين كفة العبارة وكفة الإشارة.

ولم نشغل أنفسنا بقضية تحقيق انتماء الشيخ نحوياً إلى مدرسة البصرة أو الكوفة أو بغداد أو المغرب لأن ذلك ليس في حسابنا هنا، وربما تصدى لذلك باحث غيرنا، لأننا وجدنا الشيخ يهتم بالقواسم المشتركة بين

النحاة، ولا يطمح أن، يكون امتداداً للمطولات أو طرفاً في الخلافات. ولكن ذلك لم يمنع أن ننبه أحياناً إلى ما نلاحظه على منهجه، وعلى مصطلحه لأننا شعرنا أن معاشة المسائل العقائدية والمفاهيم الصوفية قد أورثه رؤية خاصة لمعنى (الفاعلية) و (الابتداء) و (الرفع والنصب والخفض والجزم والسكون) ... إلخ فالجرس اللغوي للفظة يقع في سمعه وعقله ووجدانه موقعاً متفرداً بحكم الخلفية الثقافية التي يحملها، وهكذا تحولت معطيات النحو إلى مردودات له، وتم التفاعل بين المفكر وموضوع تفكيره فكانت الثمرة ثراء البحوث النحوية بظهور تفسيرات جديدة، ربما كانت عوناً على فهم جديد لمشاكل نحو الظاهر.. وقد نبهنا إلى ذلك في شروحنا في مواضع شتى.

وقد أدت الأقواس « » و () أدواراً مهمة في الشروح، فالأولى للقرآن والحديث والأسانيد ، والثانية لما له أهمية في عملية التنظير والمقايسة. ونعتذر إذا لم يتم ذلك عند الطبع على وجه الكمال.

وأخيراً. فإنه للوهلة الأولى قد يحسب القارئ أننا قد وقعنا في ورطة التكرار في الشروح، ولكن ليس في الأمر تكرار مطلقاً، فطبيعة الموضوع تفرض أن يطل الشيء برأسه في أبواب النحو أكثر من مرة أو من مرتين.. خذ مثلاً (المرفوع) ومعناها في العبارة (والإشارة)، فهذا الاصطلاح يتكرر بلفظه في المبنى والمعرب وفي الاسم وفي المبتدأ والخبر واسم كان وخبر إن الفاعل ونائب الفاعل... فإذا كان الأصل أن (المرفوع) له الرفع لأنه ليس فضلة وأنه أساس أو عمدة أو.. أو.. فاستحق (الضم) الذي هو أثقل الحركات، لأن المهام تتلاءم مع أصحابها ... إلى آخر ذلك فإن من المتوقع أن يكرر الشيخ ذات الملاحظة في المتن وفي الإشارة . وقد تغلبنا على هذه المشكلة . خوفاً على القارئ من الملالة . فكنا نسعى إلى التماس جديد نضيفه في هذه المواقف التي تكاد تتشابه، بحيث بدا الأمر وكأنه لا تكرار، وكانت ذخيرتنا في ذلك المقتطفات التي نستجلبها من كتب الشيخ الأخرى

أو من أقوال الشيوخ أو من شعر الإنشاء والإنشاد عند الصوفية.. المهم عندنا أن نضيف جديداً يفيد ويمتّع.

رابعاً - صاحب الكتاب

هو عبدالكريم بن هوازن بن عبدالملك بن طلحة بن محمد القشيري، وكنيته أبو القاسم ولقبه زين الإسلام وشهرته القشيري وأمه سلمية. وكان ميلاده في (استوا) إحدى قرى مدينة نيسابور، وتلقى تعليمه الأول ودراساته الدينية في قريته.

وهو عربي النسب من جهة أبيه ومن جهة أمه. فهو بهذه العروبة التي تجرى في دمائه من أحسن الردود على من يتهمون التصوف بأنه نتاج عناصر أجنبية غريبة، عن العرب والعروبة.

ترك القشيري قريته استوا وذهب إلى نيسابور ليتعلم الحساب كي يشارك مع لفيف من أهل قريته في إصلاح موازين الاقتصاد بها بعد ما اختلت نتيجة ثقل الخراج المفروض عليها.

ولكنه في نيسابور غير مسار حياته للمرة الأولى، وذلك حينما وجد نفسه في بيئة علمية خصبة شددت كل اهتمامه، ودعته للانغماس فيها، والتزود بزاد العلم في المعقول والمنقول، تلقى الفقه على يدى الإمام العظيم الإسفرايينى وأصول الفقه على ابن فورك، والمذهب الشافعى على يدى أبى بكر الطوسى. وإلى جانب ذلك غشى مجالس اللغة والأدب والنحو والعروض وكتب دروسها، كما قرأ مصنفات الباقلانى.

ومعنى هذا أنه تسليح بسلاح الثقافة المألوفة في عصره عند أوثق أربابها، ومعنى هذا أيضاً أنه قبل أن يلج حومة التصوف كان معداً أحسن إعداد لفهم الشريعة والحقيقة وما يتصل بهما من معارف وضعية وهذا أيضاً من أحسن الردود على من يتهمون الصوفية وكتاب التصوف

بالجهل والشطط والبعد عن الجادة، وأنهم يأمررون تلامذتهم بكسر محابرههم!

وتلعب الصدفة وحدها لتغيير حياته للمرة الثانية..

فقد كان ذات ليلة يحضر مجلس الشيخ أبى على الدقاق الذى كان يتحدث فى «علم القلوب» ومذهب أصحاب الأحوال والمذاقات والمواجيد، والشريعة والحقيقة وما بينهما من تواصل واتصال.. إلخ وإذا بالرجل والحديث يستوليان عليه على نحو عجيب غريب. ولم يستطع بعد ذلك مفارقة هذا المجلس وصاحبه.. وهو يستمع على الدوام إلى هاتف فى أعماقه: إنك لهذا خلقت!

وحينما اقترب من الشيخ وبسط له بعض حاله، وشكا إليه أنه يعجز عن التوفيق بين مجلسه ومجالس العلوم العقلية والنقلية أشار عليه الشيخ أن يواصل إتقان هذه العلوم إلى درجة الاكتمال..

ومن هذه النصيحة نعرف عنصراً مهماً فى المذهب الصوفى للشيخ القشيري فيما بعد: هو وجوب تصحيح البداية وتكريس الإيمان بقدر الوسع من الثقافة المنقولة والمعقولة قبل الولوج إلى عالم التصوف حتى يكون البنیان سليم الأساس.

ومن هنا نعرف أيضاً . بالنسبة لكتابنا هذا - أن صاحبه جدير بحمل أمانة علم «كالنحو» ، فهو متقن له أشد الإتقان، ومتمكن من أصوله وفروعه بقدر يسمح له أن يوظفه لخدمة أرباب الحقائق على نحو مأمون.

ولم يستطع الشاب الافتراق عن الشيخ .. وبأدله الشيخ حباً بحب، وأولاه عنايته ورعايته، وأعجب بسجاياء حتى جاء وقت رضى أن يزوجه بابنته الوحيدة فاطمة التى أنجب منها القشيري ستة أبناء كلهم عبادلة وكلهم أئمة وكلهم من أرباب الأحوال كما أنجب ابنته (أمة الرحيم) أم عبدالغافر الفارسي صاحب تاريخ نيسابور الشهير.

وكان أثر الدقاق فى القشيري بعيداً جداً، وآية ذلك أن اسمه لا يغيب عنه فى مصنفاته مشفوعاً بالتقدير وبالترحم.

وكان زواجه موفقاً وحياته الأسرية مستقرة.. الأمر الذى ساعده على أن يكون مفكراً سوى المزاج، بعيداً عن التعقيدات والصراعات، واضح الرؤية، مستمسكاً بآداب وقيم حافظ عليها طوال حياته وتظهر جلية فى كل مصنفاته.

ثم يأتى التحول الثالث.. وهو هذه المرة يتمثل فى قوة غاشمة ظالمة من خارج محيطه العائلى والعلمى والاجتماعى. ذلك أن القشيري. شأن الأشاعرة جميعاً. نكبوا ذات يوم نكبة داهمة، وكان ذلك حينما نجح الوزير اللعين الكندري فى استصدار أمر من السلطان (طغول) بسبب المبتدعة فأجاز له السلطان، وإذا بالكندري يضيف اسم أبى الحسن الأشعري إلى المبتدعة، ويجرى ذلك على منابر نيسابور فى وقت واحد. وحدثت فتنة هوجاء، وهاج الناس، وشارك الجيش فى الصدام.. وتعرض القشيري وأصحابه للإهانة والضرب والتعذيب، وكان صدى هذه الفتنة لدى السلطان. حين تلقاه فاتراً، فخاب أمل الأشاعرة، ووجدوا أنه من الخير ترك الأهل والديار والنزوح إلى بعيد خارج الوطن.

وهو يشير إلى هذا الذى حدث له من بعيد فى بعض مواضع من كتابه هذا خصوصاً فى فصوله الأخيرة. وقد نوهنا بذلك فى موضعه من الشروح.

واستقر المقام بالمنفيين إلى جوار المصطفى الحبيب صلوات الله عليه وسلامه، وظلوا على هذه الحال عشر سنوات كاملة.

وجاء وقت.. اتفق فيه الجمع على أن يحسموا خلاف الرأى بينهم فى العودة أو المنفى عن طريق اختيار واحد منهم يقول كلمته وتكون هى كلمة

الجمع التى لا نقاش فيها .. وتم ذلك، وكان المختار لهذه الكلمة الحاسمة المسموعة .. القشيري .. ولا أحد غيره.

وقف القشيري يخطب فى الناس ولا يدري بماذا يشير .. وإذا به فجأة ينكشف له بفراسته على البعد أن (الكندري) قد انتهى عهد وسقط النظام كله وجاء (ألب أرسلان) .. فهتف فرحاً:

يا أهل خراسان بلادكم بلادكم إنى لأرى خصمكم يقطع الآن إربا إربا ويرسل كل عضو منه إلى ناحية بعيدة .. هيا هيا إلى خراسان!

ويقول السبكي فى طبقات الشافعية: وضبط اليوم والتاريخ والساعة وإذا بدعاء الشيخ يستجاب وتتحقق الأمانى.

وعاد القشيري إلى وطنه نيسابور وقضى السنوات الأخيرة من عمره من ٤٤٥ هـ إلى ٤٥٥ هـ فى هدوء واستقرار وتنالت مصنفاته ، وكثر تلاميذه، وعمت بركاته.

ودفن إلى جوار شيخه الدقاق فى مدينته الحبيبة نيسابور فى عام ٤٦٥ هـ رحمه الله رحمة واسعة.

خامساً - توثيق الكتاب ونسخه

أتيح وأنا أنقب عن آثار الشيخ إبان إعداد لأطروحة الدكتوراه أن أجد فى كثير من كتب الببليوجرافيا والمصادر التى تحدثت عنه أن له كتابين أحدهما باسم: نحو القلوب الصغير والآخر باسم نحو القلوب الكبير (تذكرة النوادر وكشف الظنون ومفتاح السعادة وطبقات الشافعية فضلاً عن بروكلمان) كما أشاروا إلى أن الأول صغير الحجم وتوجد منه نسخ قليلة مبعثرة فى أرجاء العالم، أما بالنسبة للثانى فهو (سفر نفيس جليل القدر غير أنه مفقود).

وتحدث مصادفة عجيبة.. إذ أعثر ضمن سلاسل المجاميع على واحدة برقم (١١٦) في دار الكتب بباب الخلق على كتيب يتألف من خمس ورقات مجهولة النسب فلا نعرف صاحبها ولا ناسخها ولكن بالقراءة المتأنية وجدنا تعويلات على الإمام القشيري وكيف أنه يرى كذا وكذا. وتدور هذه الآراء حول إخراج النحو الظاهري إلى نحو التصوف، والمقارنة بين الظواهر النحوية والمسائل القلبية. فاكثفينا من الكتاب بهذه النصوص القليلة المسندة لإبراز فكرة الشيخ في الموضوع برمته: التنظير بين النحويين وأدخلنا ذلك في حسابنا عند وصف منهجه في التأليف بعامة. وفي وقت متسع لاحق أمكن الحصول على بيانات كافية عن معظم ما يعرفه الناس عن مخطوطه «الصفير».

فهو غالباً ما يبدأ على هذا النحو:

كتاب نحو القلوب الصفير:

للأستاذ أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري المتوفى سنة ٤٦٥ هـ.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أودع الحكمة أهلها، وعلم آدم الأسماء كلها
(المتن).

نذكر ذلك هنا حتى نعاون الباحثين على التمييز بين الكتابين، كما ننوه بإشارات خفيفة عن كل مانعلم عن مخطوطات خمس للصفير حتى يزداد التيقن من توثيق الكبير.. الذي سنتحدث عنه بعد قليل.

مخطوطات «نحو القلوب الصفير»:

١. مخطوطة بمكتبة أحمد تيمور رقم ١٩٦ تصوف تقع في ١٢ صفحة،

والصفحة ١٢ سطرًا والناسخ يرد اسمه في الصفحة الأولى وهو محمد ابن حسنى الشاذلى التونسى.

٢ . مخطوطة بمكتبة طلعت رقم ٢٤٢ مجاميع بدار الكتب المصرية ومنها ميكروفيلم بدار الكتب المصرية رقم ٩٦٥٥ من ورقة ١٧ . ٢٢ وكتبت بخط حسين رضا الوزير فى آخر ربيع الآخر عام ١٢١٩ . ومتوسط سطور الصفحة ١٠ أسطر، وخطها فارسى مضبوط، وتقع فى مجموعة أنيقة تسمى (علبة الآداب) وفيها رسالتان إحداهما نحو القلوب الصغير للقشيري والأخرى رسالة فى اللغة لأحد العلماء.

٣ . مخطوطة حديثة العهد بدار الكتب المصرية برقم ٢٤٤٥٥ ب مساحتها ٢٠٠ × ١٤٥ مم مربع. وتقع فى ست صفحات بكل صفحة خمسة أسطر، وعناوينها بالمداد الأحمر، وعلى صفحاتها الأولى اسم الناسخ وهو: محمود الجبالى.

٤ . مخطوطة للناسخ السابق، على ورق سميك أصفر ومكتوبة بخط الرقعة بالمداد الأسود ومؤرخة بالثالث من رمضان ١٢٤٤ الموافق ١٧ مارس ١٩٢٦ وهى خالية من الترقيم.

٥ . مخطوطة بمكتبة (عارف حكمت) بالمدينة المنورة رقم ٢٦ مجاميع وتقع فى ثلاث ورقات ضمت سبع رسائل خطية بالنسخ الجميل ومطرزة الصفحات بإطار من الخطوط السوداء المذهبة.

وقد حقق هذا الكتاب الدكتور أحمد علم الدين الجندى . وطبع فى مدينة تونس ١٣٩٧ . ١٩٧٧ م.

مخطوطات «نحو القلوب الكبير»

تتفق جميع النسخ التى بين أيدينا على أن البداية الحققة للكتاب هى:

«النحو فى اللغة القصد إلى صواب الكلام.

يقال: نحوت نحوه أى قصدت قصده، فنحو القلب القصد إلى حميد القول... إلخ».

أما الاختلاف فيقع فيما بين البسمة وهذه البداية، وهو خلاف لا يؤثر، لأنه راجع إلى الناسخ الذى يكرم الكتاب أو صاحبه حسبما يرى، أو ربما لصاحب النسخة أو أحد قرائها.

وإليك النسخ ومصادرهما وكلمة قصيرة عن كل منهما، ولكنها كافية فى التعريف بها وتوثيقها.

١. نسخة:

برقم ١٥٩٢ تصوف مكتبة طلعت ونرمز لها بالرمز (ط) وهى ضمن مجموعة ، وتأتى تالية لكتاب بعنوان:

«شرح محاسن المجالس والرفيق المؤانس».

للشيخ الإمام ابن العريف الصوفى رحمته الله ونفع به آمين ويليه بعد ذلك كتابنا (نحو القلوب للإمام القشيري رحمته الله وتسير ديباجته على هذا النسق:

كتاب نحو القلوب . تأليف الأستاذ الإمام الأوحى، والشيخ القدوة:

جمال الإسلام أبى القاسم عبدالكريم بن هوازن بن عبدالملك بن محمد بن طلحة القشيري النيسابوري رحمته الله آمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتى

قال الأستاذ أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن القشيري رحمه الله وبه ثقتى:

النحو فى اللغة القصد إلى صواب الكلام....

٢. نسخة تركية:

وقد رمزنا إليها بالرمز (ب) إشارة إلى (بورصة) وهي قرية صغيرة تقع على مقربة من البحر الأسود في تركيا. والنسخة محفوظة بمكتبة خراججي أو غلو زاده» برقم ١٠٩.

وهي تأتي تالية لكتاب بعنوان «مفتاح التنزيل في خلاصة التأويل» لأبي الفضل محمد بن محمد بن أبي القاسم البقالى وهي خالية من التنقيط وردية الخط، ومضغوظة الحروف وبالتالي فهي عسيرة في القراءة، وفيها بعض سقوط في المتن، ولكنها أفادت فيما يمكن أن يكون في غيرها من اشتباه أو حذف، وتقع في إحدى عشرة ورقة من الحجم الكبير.

٣ - النسخة التونسية:

وقد رمزنا لها بالحرف (ت)

وهي أكثر وضوحاً من سابقتها وتبدأ على النحو التالي:

«بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم، قال الإمام المحقق الجليل أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن القشيري تغمده الله برحمته آمين:

النحو هو القصد إلى صواب الكلام....

٤. النسخة السورية:

ونرمز لها بالرمز س

وديباجتها بعد البسملة والحمدلة: قال الأستاذ الإمام زين الإسلام وناصر السنة، وناصر الأمة أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن القشيري رحمه الله رحمة واسعة:

«النحو في اللغة القصد إلى صواب الكلام»

٥ . نسخة الإسكندرية:

ونرمز لها بالرمز ك

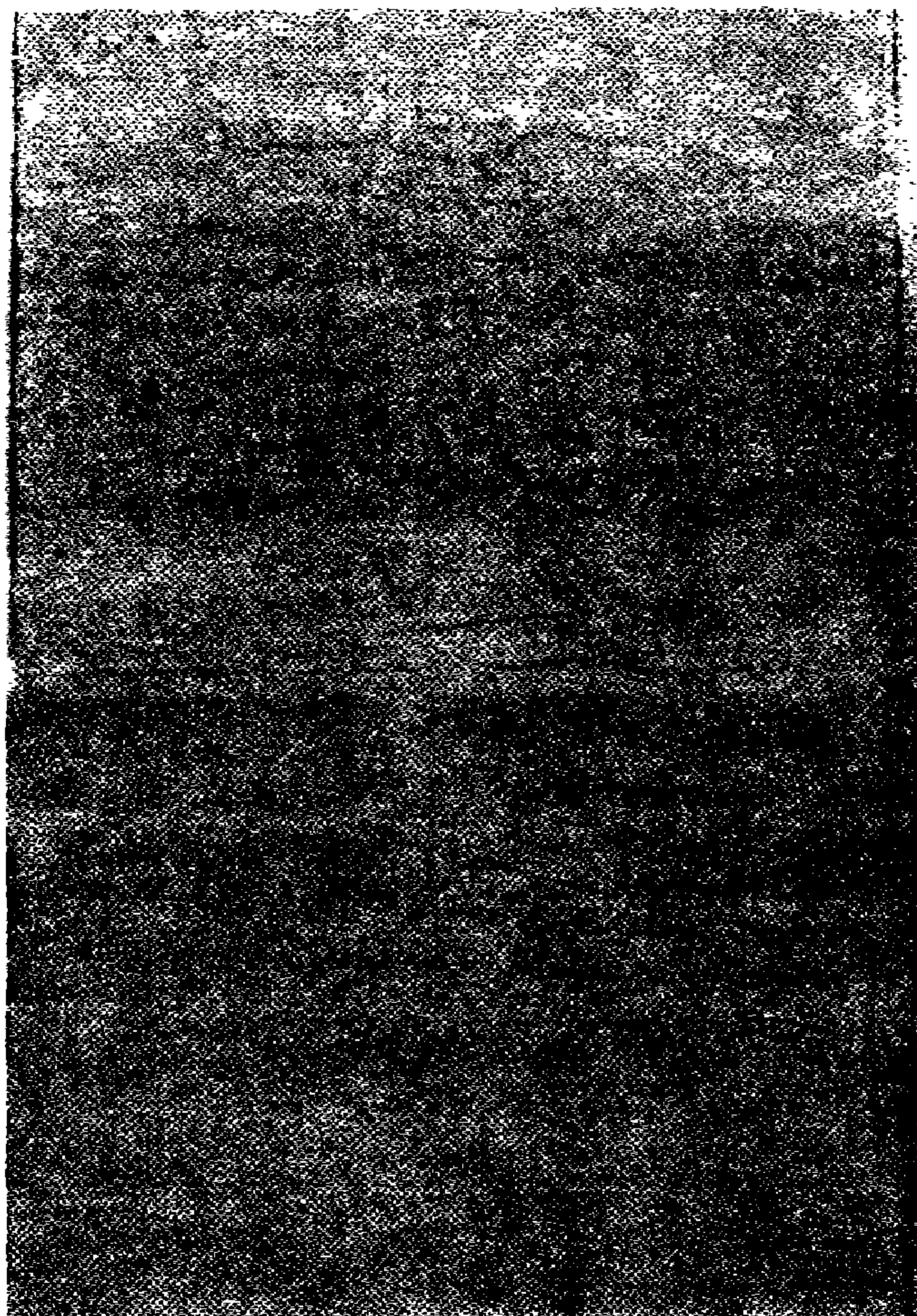
وتحمل صفحتها الأولى رقم ورود الكتاب إلى كتيبخانة الإسكندرية التابعة لمجلسها البلدى شارع محرم وهو ٧٦٣٢ والرقم المسلسل ٢١٢٩ د وعلى الصفحة ذاتها نقرأ هذه الكلمات:

«الأصول فى نحو أرباب القلوب تصنيف الإمام العالم الأستاذ أبى القاسم عبدالكريم بن هوازن القشيرى رحمته الله وأرضاه.

وتبدأ الصفحة التالية بالبسملة ثم الحمدلة ثم الصلاة على سيدنا محمد خاتم النبیین ثم: قال الأستاذ أبو القاسم عبدالكريم القشيرى رحمه الله تعالى: النحو هو القصد إلى صواب الكلام....

وهكذا يتأكد لنا توثيق الكتاب من ناحية وتمييزه عن «الصفير» من ناحية أخرى، وتتأكد لنا نسبته إلى صاحبه، وقد تضافرت النسخ بعضها مع بعض فى توضيح المتن، ونحمد الله أن كثرتها قد جنبتنا الكثير من الصعاب وحالت دون ظهور المشتبهات.

ولم نحاول أن نفرق الهوامش فى أثناء التحقيق بتعليقات طويلة حتى لا نرهق القارئ، وأحلنا ذلك على باب الشروح.



الصفحة الأولى من النسخة التركية «طلعت» تصوف رقم ١٥٩٢ ونرمز لها بحرف (ط)

لنفسه راحة الرخس الوجع وبسبب
 للهذه ترف العالمين وشملوا ته على سيدنا محمد وآله
 باسمه اوستاد انوار العبر عند الصكرهم برحمته
 الفخرى رزقه الله العزوه والبعد الى ضراب الكلام بال
 حقون ففوه اي قصود قصود ففوه الى البعد الى
 حميد العول بالعلت حميد العول بحاط الحى لمان انقل
 ونقسم ذلك الى الماداه والمناحاه والماداه متبعه القارن
 والمناحاه نصف الواحد من والماداه على اثنا والمناحاه
 على ساط العرب فوصف القناد ابواب الحريه ومنزغ الواحد
 ساط العزوه ففوه الخاتم انهم وفعل وفرت حاتمها
 ربه ففوه البعد الى البعد وانهم ففوه البعد الى البعد
 والمزوف ما يحض انهم بوجه ففوه البعد الى البعد
 ففوه البعد الى البعد ان المزوف اذا دخل على الخاتم او حبله
 ففوه البعد الى البعد او الخاتم او البعد الى البعد
 ففوه البعد الى البعد ان المزوف اذا دخل على الخاتم او حبله
 ففوه البعد الى البعد او الخاتم او البعد الى البعد

والله اعلم
بما فيه
الغيب

۱۰۰

واللهم توبع انفسنا على اوصاف يوحى لها حب
الاسم والخلق منسل ونبكون اذ نسبح في نحو الطلب
ما يكون بمنزلة غنة في مخاطبة الحق ونسئل بالاجابة
في مخاطبة القدير الذي في الخروف ثم ما طاب سمع عاونه
نطق القلب في الكلام المفضل بان انتموا واثابوا
واستأدوا قد لا وما غدا من الاقسام غير مقيد فبعد القيد
ما من لله والمعيد اما ما متبع من الحق واما مخاطبة الحق
واستأدوا ظهوره والمبدا بها مبدل على الزمان اولنا في
في الضمات او كان عما زرع في الضمات بعد حمد
المستقيم الخاوي لجميع العقاب لا بد منه فتم من انعام
المطامير الذي هو مقيد فينبغي ان الكلام منقسم الى عمر
ومعنى ما لا غرابه بغير امر الكلام لا خلاف القائل
الفاخذ حكمة او يتكلم او يحدف والسائل لم يؤخذ
اللفظة لما حركه او يتكلم او يحدف في حركه لا في اللفظ
اخر الفظة ونطق القلب اما المطامير التي فيه وتوفى الله
او قاله اذ فيها الحق منزه الخلق والاولوا منسحقه

وہم لطف خیر و برکت

والله اعلم
بما كنا
على
الهدى

[illegible]

والغير لها ما له في الارب او ما في الارب خطا او كان مما في عيني
المصوحات هذا هو القسم الثاني من اركان ايمان المسلم عليه فممن
الذين اختلفوا فيه هو بعض اصحاب الكلام وبعض اهل
وحيي فانما اتوا بهن وام تكلام باسنة والعرض من بهن قد
يذكر او يحرم والبيان في شرح اهل اللغة اما حركه وانما يكون
ما في ما عاين اعم من هو قد اتوا بوجه اخر فيما يصر به
فانما اتوا بجمع فجمع عند ذلك لا يفتقد من قولنا انما
به من ذلك على مضافا الى مفعول انما فاما ما عاين اجمع
والثاني من قولنا هو انما اتوا بهن في قوله "انما" والاصح
والاصح انما في قوله "انما" ووجه انما في قوله "انما"
في جمع وليك عن الارب وهو وجه الارب في قوله "انما"
واما في الارب والاصح انما في قوله "انما" ووجه انما في قوله "انما"
انك بعض منك في قوله "انما" والاصح انما في قوله "انما"
المصوح والاصح انما في قوله "انما" ووجه انما في قوله "انما"
عن شهود الخلق في قوله "انما" ووجه انما في قوله "انما"
من ايمان الشاه في قوله "انما" ووجه انما في قوله "انما"
من احكام الشريعة في قوله "انما" ووجه انما في قوله "انما"
نصب الغنم في قوله "انما" ووجه انما في قوله "انما"
القلب في قوله "انما" ووجه انما في قوله "انما"

مقدمة النسخة التونسية ونرمز لها بحرف (ت)

[illegible]

او كان حانة من المصنوعات لهذا القسم الحادى جميع المقالات
 قسم لاقسام الخطب الذى هو سبعة . الكلام ينقسم الى
 سبعة فاما مراتب عدداً آخر الكلام لاختلاف الغرض من التوكيد والاعتماد
 او حذف وابتناء ان يلزم آخر للفظ اسامه او سكون
 نطق القلب ينقسم الى لفظ او مضمون وقبيل الحق ايها اللفظية .
 الحلو فالاول ما لم يقبلت مقتضى عند ذلك فلا تكلف .
 اسامى هو سلك من مضمون يتجدد فيه مرارة الهط فاحله .
 واللفظ حال فرق . وجوه الامور بما بعده الزعم والادعاء
 المنخفض والجهر . والقلوب على الاقسام اربعة الغلوب
 بان ترفع قلبك عن الدنيا وهو صفة العبد وقد يكون من غير قلبه
 مراتب العلو والى وهو صفة العبد والخطاب لا يولد الاجتهاد
 وقد يكون بان ترفع قلبك منك فتعقد ذلك لا يجزئ منك .
 الخطاب لا ينكاد وز باب المنضم والامتداد وقد يكون .
 المحذوف منه من شدة الحلق وقد يكون برفع يده عن العلم .
 مراد بالانتم لم ترفع يده الى الله بواله الحالات لم ترفع .
 الحبة حتى يكون بان الله هو ما سوى الله وانما نفس القلوب .
 اليد على ايدى الرفاق الاشباب الغلب على الشبه .
 التبريد من الامور والحق من حائق الاقتراق وقد يكون .
 بالجهان حكم الشايد من غير ان يكون ملاك فيها هو .
 امتثال والمخلوق استغفار لما استغفروا استغفار العلماء .
 ليس لم سخط ولا لم منهم نصيب نصيب الحق كنه لاهية فهو يترك الحق .
 بالحق الحق وانما سخط القلوب فيكون باستغفار الجمل واستغفار الرسل .
 الله لا يخلو ولا يخلو ولا يخلو ولا يخلو ولا يخلو ولا يخلو .

القسم الأول
تحقيق الكتاب

الرمز	النسخة
ط	نسخة (طلعت)
ب	النسخة التركية (بورصة)
ت	النسخة التونسية :
ك	نسخة الإسكندرية:
س	النسخة السورية

تنبيه: يرجع إلى الفهارس طلباً لمعرفة الصفحة المطلوبة لشرح المتن عند نقطة بعينها.

ومع ذلك فإن المتن معاد في قسم الشروح تسهيلاً على القارئ.

بسم الله الرحمن الرحيم

(وبه ثقتي)^(١)

الحمد لله رب العالمين، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.
قال الأستاذ أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن القشيري - رحمه الله:

فصل [١]

النحو (فى اللغة)^(٢) هو القصد إلى صواب الكلام، يقال:

نحوت نحوه أى قصدت قصده (وهذا النوع فى العربية يسمى نحواً لأنه
القصد إلى صواب الكلام)^(٣).

فنحو القلب القصد إلى حميد القول بالقلب^(٤) وحميد القول مخاطبة الحق
بلسان القلب، وينقسم ذلك إلى:

المناداة والمناجاة، فالمناداة صفة العابدين، والمناجاة نعت الواجدين، المنادة
على الباب، والمناجاة على بساط القرب^(٥)، فموقف العابد أبواب الخدمة،
ومربع^(٦) (٠) الواجد بساط القرية^(٧).

(١) لم ترد فى بقية النسخ، ولا نستبعد وجودها فى الأصل جرياً على عادة الإمام القشيري فى إرداف
البسمة بدعاء من هذا القبيل (انظر اللطائف مثلاً حيث تتلو البسمة عبارة: رب يسر).

(٢) لم ترد فى بقية النسخ.

(٣) لم ترد فى بقية النسخ.

(٤) هكذا أيضاً فى ك و ت ولكنها فى س «(باللب) ونحن نرجح (بالقلب) لأن الشيخ فى بقية مصنفاته
يتحدث فى هذا السياق عن ذكر اللسان وذكر القلب.

(٥) فى س (الاقتراب) وهى وإن كانت تراعى الفاصلة إلا أننا أثرنا التقيد بمصطلحين للأحوال: (البعد
والقرب).

(٦) بفتح الميم وفتح الباء، فى س (مرتج) وكلاهما مقبول فى السياق.

(٧) (٠) بفتح الميم والباء. (..) بضم القاف.

فصل [٢] :

الكلام اسم، وفعل، وحرف جاء لمعنى:

وفى نحو (القلوب)^(١): الاسم هو الله^(٢) والفعل ما كان من الله،
والحرف إما^(٣) يختص بالاسم فيوجب له حكماً، أو يختص بالفعل فيقتضى
له نسبة، وكما أن الحرف^(٤) إذا دخل على اسم أوجب له إما حكم النصب
أو الخفض أو غيره، فالوصف الذى هو العلم (مثلاً) يوجب الله حكم
العالم.. وكذلك القدرة والحياة^(٥) وسائر صفات الذات.

وكما أن من الحروف ما يوجب للفعل حكم النصب^(٦) والجزم فوقوع
أفعال الحق على أوصاف يوجب له نعت الاسم^(٧) فى الخلق.

(١) وردت (القلب) فى بقية النسخ.

(٢) أردف لفظ الجلالة بـ (تعالى) فى س.

(٣) جاءت (ما) فى س و ت والصواب ما أثبتناه فى المتن.

(٤) فى س (الحروف) والسياق يقتضى الأفراد.

(٥) فى س (إلى سائر) وهى مقبولة فى السياق أيضاً.

(٦) فى س (أ و).

(٧) هكذا فى بقية النسخ ما عدا (ت) فهى (الكسب)، والصواب أن تكون (الاسم) لأن الكسب للعباد

وليس لله الذى هو (الاسم) كما قال فى مفتتح الفترة (الاسم هو الله).

فصل [٣]:

والاسم في نحو القلب ما كان مخبراً عنه في مخاطبة الحق^(١)، والفعل ما كان خبراً في مخاطبة العبد مع الحق.
والحروف رباطات تتم بها فوائد نطق القلب.

فصل [٤]:

والكلام المفيد ما كان اسماً واسماً^(٢)، أو فعلاً واسماً وما عداه من الأقسام غير مفيد.

وفي نحو^(٣) القلب مفيد وغير مفيد، فغير المفيد ما ليس لله، والمفيد ما يسمع من الحق أو يخاطب^{(٤)(٥)} به الحق، وما سواه فلفو.

ويقال^(٥): المفيد إما دل على الذات، أو أشار إلى الصفات، أو كان عبارة^(٦) عن المصنوعات.. هذا هو التقسيم الحاوي لجميع المعاني، لا يشذ عنه قسم من أقسام الخطاب الذي هو مفيد.

(١) مشطوبة في ك ثم صححها الناسخ (الحق) وهذا هو الصواب.

(٢) في ك (اسمان) وهي خطأ - كما لا يخفى.

(٣) في ك (وهي نطق) القلب.

(٤) يمكن بناء على مقدمة الفقرة في مسألة الخطاب، وبناء على ما سيأتى من توضيح في الفقرة التالية. أن نضبطها (يخاطب) بكسر الطاء وفتحها، فالعبد يخاطب الحق بالصلاة والنجوى والذكر والدعاء ونحو ذلك، والحق سبحانه يخاطب العبد بالوحى إن كان نبياً وبالكشوفات إن كان ولياً.

(٥) بفتح الطاء.

(٥) ننبه إلى أن قوله (ويقال) لا يعنى إيراداً لرأى باحث غير المصنف، وإنما هي عادة عند الشيخ حينما يرى رأياً جديداً يختلف عن الوجه الذى ذكره.

(٦) يقصد بها (تعبيراً) عن المصنوعات.

الإعراب والبناء

فصل [٥] :

الكلام ينقسم إلى معرب ومبنى، والإعراب تغير آخر الكلمة لاختلاف^(١) العامل إما بحركة أو سكون أو حذف.

والبناء أن يلزم آخر اللفظة إما حركة أو سكون.

ونطق^(٢) القلب إما بلفظ^(٣) يراعى فيه توقيف الحق، أو قالة^(٤) أذن^(٥) فيها الحق تصريح الخلق^(٥) فالأول ما تسمع بقلبك فتقف عند ذلك بلا تكلف منك^(٥)، والثاني ما تناجى به مولاك على مقتضى ما تجد فيه من إشارة البسط، فأحدهما حال جمع، والثاني حال فرق.

(١) فى ت (باختلاف) وهى مقبولة أيضاً.

(٢) فى ت (ويكون بالقلب) أى ويكون الإعراب والبناء فى نحو القلب.

(٣) فى س (نطق القلب ينقسم إما ..) وفى ك (ونطق القلب إما لفظ).

(٤) فى ك (ماله) وهى غير ذات معنى أما فى ت فهى (حالة) ونحن نؤيد قالة أو حالة على أساس أن الأذن بالقول فى حال الفرق . أى عند الرد إلى حال المبودية والتصريف حتى يستكمل العبد ما تتطلبه الشريعة منه وهو فى حال جمع الجمع . يربط القالة بالحالة.

(٥) بفتح الهمزة وكسر الذال.

(٥٠) بفتح الخاء وسكون اللام.

(٥) هذه هى الصواب، وقد استعملها القشيري فى (رسائله ولهذا فنحن نستبعد ما جاء فى ك (بلا تكلف منك) فالراء زائدة فى الخط.

فصل [٦] :

وجوه الإعراب أربعة: الرفع والنصب والخفض والجزم. وللقلوب هذه الأقسام ، فرفع القلوب قد يكون بأن ترفع قلبك عن الدنيا وهو نعت الزهاد. وقد يكون بأن ترفع قلبك عن اتباع الشهوات^(١) والمنى. وهو نعت العباد^(٢) وأصحاب الأوراد والاجتهاد.

وقد يكون بأن ترفع قلبك عنك وتعتقد أنه لا يجيء^(٣) منك شيء. وهذا نعت أصحاب الانكسار^(٤)، وأرباب الخضوع والافتقار.

وقد يكون^(٥) برفع القلب إلى الحق، وتصفيته عن شهود الخلق.

وقد يكون برفع يدك عن الحرام ثم برفع ما تضره من إثبات الأنا^(٦)م ثم ترفع يدك إلى الله بسؤال الحاجات^(٧)، ثم ترفع الحاجات عن إحكام المحبة حتى تكون بالله لله، تمحو ما سوى الله^(٨).

(١) هكذا في كل النسخ ما عدا ت فقد سقطت عبارة (وقد يكون بأن ترفع قلبك عن اتباع الشهوات).

(٢) بضم العين وتشديد الباء.

(٣) سقطت (لا) في ت والسياق يتطلبها.

(٤) في ت (الأذكار) وربما تقبلها السياق أيضاً.

(٥) وقد يكون وقد يكون) مكررة هكذا في ك ولا ضرورة لهذا التكرار.

(٦) هكذا في ك أيضاً ولكنها في س و ت (الاثام) والصواب ما أثبتناه لأن السياق يتطلب تجنب العبد تمويله في الاحتياج على الغير، والمقصود هو نفي هذه الفيرية فالتصوف حسب أحد تعريفاته: قطع العلائق والياس مما في أيدي الخلائق.

(٧) في س (الحالات) والأصوب حسب السياق ما أثبتناه.

(٨) أرجع في (احكام المحبة) إلى رسالة القشيري ص ١٥٨.

وأما نصب القلوب فيكون بانتصاب البدن^(١) على بساط الوفاق، ثم بانتصاب القلب في محل الشهود بحسن^(٢) الإطراق، ثم بانتصاب . السر بوصف الانفراد .

والتنقى^(٣) عن دقائق الافتراق .

وقد يكون العبد منصوباً لجريان^(٤) حكم المقادير من غير أن يكون^(٥) له اختيار، ولا له فيما هو به إيثار^(٦)، أو منه فيه اشتغال^(٧)، ولما يلقي به استئصال ، ولما ينتظره استقبال، ولا لما يوعد^(٨) به استعجال .

ليس لهؤلاء فيهم حظ ولا نصيب، ينصبهم الحق لحقه لا لحظهم فهم غياث^(٩) . الخلق، قائمون للحق بالحق .

وأما خفض القلوب فيكون باستشعار الخجل، واستدامة الوجل، ولزوم الذل^(٩) وإيثار الخمول، وملازمة الخشوع، وإلقاء النفس في ذبائح الجهاد .

وقد يكون بخفض الجناح . لكل من طالبك^(١٠) بشيء ليس في الشرع له نكر^(١١) من غير رد ولا نزاع^(١١)، ولا إبرام لا استكراه .

(١) هكذا في بقية النسخ ولكنها في س (البدل) هي خطأ من الناسخ .

(٢) هكذا في ط و س ولكنها في ت و ك (لحسن) .

(٣) جاءت في س بدون نقط على التاء والنون، وهي بتشديد القاف وكسرها .

(٤) في ط (يجريان) وهي مقبولة في السياق أيضاً .

(٥) في س يوجد بياض بعد يكون .. إلى (ولا له) .

(٦) بدون نقط في ك .

(٧) بدون نقط في ك .

(٨) وهي في س و ت (يدعو) وقد آثرنا ((يوعد) حسب تذوقنا الخاص للسياق . وهي بفتح العين .

(٩) بكسر الفين .

(٩) سقطت (الذل) في ط و وردت في بقية النسخ .

(١٠) جاء بعدها في ط (أو يدوسك بقدميه) .

(١١) جاء بعدها في ط (ولا استشعار بعار) .

(..) بضم النون وسكون الكاف .

وهكذا^(١) العارف يستقل^(٢) أعقاب^(٣) الكافة مستحقرا لقدره^(٤) مستقذراً لنفسه وفعله في عاجله وآجله.

وأما جزم القلوب، فالجزم القطع، ويكون بحذف العلائق، والسكون تحت جريان أحكام^(٥) الحقيقة من غير إخلال بشيء. من آداب الشريعة.

ويكون جزم القلوب قطعها عن خطرات المني^(٦)، فإن الأمانى، والمعانى متضادة^(٦) فيقطع أعناق المطالبات والإرادات والاختيارات^(٧) بسيوف اليأس، ثم يسكن بالله لله مع الله، فإن رجع إلى ابتغاء^(٨) الرخص شهدت عليه الطريقة بالشرك والردة^(٩).

(١) جاءت في ط و ت (وكذلك).

(٢) هكذا في س و (استقل = مضى وارتحل) ويكون المعنى ارتحل في أعقاب الناس لتواضعه، وكره التصدر والتقدم طلباً للصيت والشهرة.

(٣) هكذا في النسخ الثلاث أما في ط فقد جاءت بدون الف، وأعقاب جمع عقب وهي هنا تعرب ظرف زمان فيكون المعنى كما جاء في الهامش السابق أن العارف يؤثر السير خلف الناس تخفياً وانكساراً، حتى يظل دائماً مستشعراً الخمول في كنف إرادة مولاه.

(٤) مشتبهة في ط و واضحة في بقية النسخ.

(٥) سقطت (أحكام) في س ووردت في بقية النسخ، والسياق يتطلب إثباتها.

(٦) مشتبهة في ط و واضحة في بقية النسخ.

(٧) في س (الاختيارات) بالباء والصحيح كما أثبتناها وكما وردت في بقية النسخ لأن المقصود هو سقوط اختيار العبد وتقويض الأمر كله لله، فلا يكون للعبد من نفسه في نفسه إرادة أو (اختيار).

(٨) هكذا في النسخ الثلاث ولكنها في ت (انتماء) والأصوب (ابتغاء) لأن المقصود ألا يلتمس العبد الترخيص بل يلجأ إلى الأشق. وذلك واحد من أصول مذهب الشيخ رضوان الله عليه.

(٩) ربما تبدو الكلمتان (الشرك والردة) مثيرتين للفرع ها هنا، ولكن هذا. كما ذكرنا في الهامش السابق. أصل عند الشيخ في كل مصنفاته.

انظر مثلاً الرسالة ص ٢٠٢ (فإن نقض العهد في طريق الإرادة كالردة عن الدين لأهل الظاهر) و (ومن لجأ إلى الرخص فقد فسخ عقده مع الله).

(١٠) بفتح الباء. (..) بفتح القاف وسكون الدال وكسر الراء.

(...) بضم المهم وفتح النون.

فصل [٧] :

وجوه البناء فى النحو ^(١) أربعة: الضمة والفتحة والكسرة والسكون،
وللبواطن على لسان أهل الحقائق هذه الأقسام:

فضم الأسرار صونها عن الأغيار، وفتحة القلوب تنقيتها ^(٢) من الكروب
بمفاتيحات ^(٣) الفيوب، وكسرة القلوب سجودها عند بفتة الشهود
ومفاجآت ^(٤) الالتقاء، وسكون البواطن سكونها ^(٥) إلى الحق بنعت
الاستئناس ^(٥) على وصف الدوام فى عموم الأحوال.

وفى المعرب والمبنى إشارات آخر ^(٦):

فالمعرب يتغير آخره باختلاف العوامل.

والمبنى ما يكون على صيغة ^(٧) واحدة.. وكذلك صفات العبد منها ما
يقبل التغير والتأثير ^(٨). وهى ما كان مجموعا ^(٩) بتصرفه ^(١٠) وتكلفه ^(١١).
ومنها ما لا يقبل التحويل والتبديل وهى موضوعات الحق . سبحانه . فيه
من أخلاقه، ويكون ذلك بحسب ما سبق له من أرزاقه، وكذلك من

(١) (فى النحو) موجودة فى س وغير موجودة فى النسخ الثلاث ولا ضرر من إثباتها حتى يتضح
التظهير بين نحو الظاهر ونحو الباطن.

(٢) فى س (تنقيتها) وهى مرفوضة فى السياق.

(٣) هكذا فى س و ط وهى فى ك (بفاتيحات) وفى ت (بمفاتيح).

(٤) فى ك (بمفاجأة) وهى س (ومقاساة). (٥) يضم النون.

(٥) فى ك (الإيأس) وربما كانت الإيئاس، وهى بهذا الاحتمال الأخير مقبولة فى السياق أيضاً.

(٦) سقطت (آخر) من ت.

(٧) فى ت (صفة) وهى مقبولة فى السياق. وإن كانت (صيغة) أكثر دقة فى وصف المبنى.

(٨) فى ت (والتلاشى) وهى غير مرفوضة فى السياق إذا ناظرنا بين ما يستطيع المرء (حذفه) من
الأخلاق الرديئة وبين (حذف) حرف العلة . فتكلاهما يحدث الخلاص منه (وانتلاشى) له.

(٩) وردت (مجموعات) فى ط و ك.

(١٠) بتشديد الراء وكسر الفاء.

(١١) بتشديد اللام وكسر الفاء.

أحكامه فيما وجب له من سابق أقسامه، فمن شقى نفذ^(١) بالرد^(٢) قضاؤه، ولم ينفعه كده^(٣) وعناؤه، ومن سعد مضى بالقبول حكمه، فلم يخرجه عن محكوم السعادة جرمه^(٤).

ومن أقسام البناء ما يبني على الكسر، فصاحبه أبداً مكسور لا ينجبر^(٥) كسره، ولا يتغير فقره، ولا يزول ضره، ولا يصلح قط أمره، صباحه بلاء، ورواحه شقاء^(٦)، وجده منكوس، وحظه مبخوس، ونجمه منحوس^(٧)، وقصده معكوس.. إن ورد نهراً غيض ماؤه، وإن وجد دراً^(٨) قرب فقده.

ومن ذلك ما بنى على الفتح فصاحبه لا يزول نعيمه، ولا يبرح مقيم، يسطح من البعد نسيمه، ويسعد على القرب نديمه، ولا يتكدر بغيبته^(٩) مشربه، ولا يتغير. بطول حجبته^(١٠) مذهبه.

النصير له فرغ وإن أبطأ في حضوره، والشمس ظلام عند تلالئ نوره^(١١)، والبدر يخجل^(١٢) لفجأة^(١٣) ظهوره.

(١) مشتبه في ط و واضحة في بقية النسخ.

(٢) في ت (بالوعد) وهي غير مقبولة في السياق، لأن الشقى مردود لا موعود. وهي بتشديد الدال.

(٣) هكذا في النسخ الثلاث وهي في ط (لا يجبر) وهي مقبولة أيضاً.

(٤) هكذا في النسخ الثلاث ولكنها في ك (سعاء) بدون نقط.

(٥) (وحظه منجوس ونجمه منجوس) ساقطة في س.

(٦) في ت (لغيبته).

(٧) في ك (حجته) وهي مرفوضة في السياق لأن المقصود هو احتجاب أنوار الكشف بعض الوقت.

(٨) هكذا في النسخ ما عدا ت فهي (خجل) والسياق لا يرفضها إذ تتسجم عبارة (البدر خجل) مع (الشمس ظلام) التي سبقت.

(٩) مشتبه في ط لأن الرسم فيها بدون نقط، والفجأة اصطلاح صوفي (انظر باب ألفاظ تدور بين هذه الطائفة بالرسالة القشيرية).

(١٠) بتشديد الدال.

(١١) بضم الميم.

(١٢) بكسر الراء.

(١٣) بضم الدال وتشديد الراء.

ومن ذلك ما بنى على الضم^(١)، فصاحبه مرفوع عنه كلفة الاختيار^(٢)، غير^(٣) معاتب على اختلاف الأطوار، ولا متلون الحكم عند تفاوت الآثار، فالعتب^(٤) عنه^(٥) مرفوع، والعذر^(٦) عنه موضوع، فلا له عقل فيلزمه تكليف، ولا له أو منه . فى الشرع^(٧) . فعل فيتوجه عليه نضيف... هؤلاء بأسر^(٨) القدرة، مشكل بين الورى حديثهم^(٩)، ملتبس على الكافة أمرهم.

ومن ذلك ما بنى على السكون فصاحبه على مكانه موقوف، وعن قصده مصروف، لا يغنى عند جده^(١٠)، ولا يسعده جده^(١١)، يطول به الزمان، وتتوالى عليه الحدثان، وهو من أوله حاله إلى نهاية مآله لا يجاوز سورة الإخلاص، ولا يخرج إلى صورة^(١٢) الانتقاص.

كذلك الأحكام^(١٣): مختلفة الأقسام، متفاوتة الأدوار.

(١) هكذا فى ك وهى فى بقية النسخ على (الرفع) ونحن نرجع ما أثبتناه لأن البناء يكون على الضم، كما يتفق هذا مع السياق الذى يسير عليه المصنف حيث عرض فيما سبق للمبنى على (الكسر) وعلى (الفتح) وسيتحدث بعدئذ عن المبنى على (السكون).

(٢) فى ك (الإحسان) وهى مرفوضة لأن التكلف الإنسانى مرجعه إلى (الاختيار).

(٣) (غير) ساقطة فى ت.

(٤) فى ط (فالقيب) وهى مرفوضة.

(٥) منقطت (عنه) فى س.

(٦) فى ط (والوزن) والمعنى يرفضها.

(٧) هنا مساحة كبيرة من السقوط فى ت.

(٨) واضحة فى س ومشتبهة فى بقية النسخ والمعنى يتقبلها.

(٩) فى النسخ (سورة) ولكننا رأينا أن (صورة) البق، وربما كانت (سورة) بفتح السين وسكون الواو.

(١٠) كذلك الأحكام... إلخ تتصل بالسبب كله وهى غير موجودة فى ب.

(١١) بضم الثاء.

(١٢) بكسر الجيم وتشديد الدال.

(١٣) بفتح الجيم.

فصل [٨] :

الأسماء على ضريين: اسم معرفة، واسم نكرة.

وفى الإشارة: الخلق كذلك، فمن صاحب (١) معرفة، ومن صاحب نكرة، ولكل حد (٢) ووصف. فالاسم النكرة يصير معرفة. ولا رتبة فوق أن صار معرفة. كذلك لا رتبة (١) للعبد فوق العرفان.. قال المشايخ: ما رجع من (٣) وجع إلا من الطريق (٢)، أما من وصل فما رجع.

(١) فى ط مشتبهة وهى واضحة فى ك وس.

(٢) المقصود أن الارتداد عن الطريق يكون للمبتدئين الذين وصلوا إلى بعض أجزاء هذا الطريق، أما الذين أتاح لهم الحق سبحانه اجتياز كل عقباته، وتمرسوا بكل مقاماته، وتذوقوا جل أحواله ولاحث لهم فى مرحلة ما أنوار الوصول وكشوفات العرفان فإنهم لا يعودون ولا يرتدون.

(٣) بالكسر مع التوين.

(٢٢) بتشديد الدال مع التوين.

(٣٣) بفتح الميم.

فصل [٩] :

الاسم المفرد إذا ثنيته^(١) ألحقته^(٢) ألفا في حال الرفع، وياء في حالى
النصب والجر ونوناً بعد الألف والياء.

ونون التشية مكسورة، وهى تسقط عند الإضافة.

والإشارة من ذلك: أن الواحد لا تشيه له من لفظ الواحد، و (الاثنان) لا
واحد له من لفظه، فلا يقال من (الواحد) واحدان، ولا من (اثنين) اثنان،
وهذا محال فى التقدير^(٣).

كذلك الذى هو (واحد) فى الحقيقة^(٤) يستحيل أن تزول عنه
وحدانيته. تقديرًا ووجودًا. والذى يصح أن يكون (اثنين) فمن المحال أن
يصير فرداً لا ثانى له . تقديرًا . قال الله تعالى:

«ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون»^(٥)، (٤) الآية.

(١) فى من (الحقت به).

(٢) (وهذا محال فى التقدير) موجودة فى ط و ك وغير موجودة فى س.

(٣) المقصود هو المولى سبحانه وتعالى.

(٤) سقطت (شيء) فى س وهذا خطأ (الآية ٤٩ سورة الذاريات) أما الأخرى فهى قوله تعالى: (قلنا

أحمل فيها من كل زوجين اثنين) آية ٤٠ سورة هود.

(٥) بتشديد النون وسكون الياء.

(٥٥) بتشديد الكاف وفتحها.

فصل [١٠]:

وما دام الواحد من الأسماء واحداً فهو بصفته فى حروفه، فإذا انضم إليه غيره حتى يصير اثنين وقع فى التغير:

فمرة مرفوعاً بالألف، ومرة منصوباً أو مخفوضاً بالياء - كذلك العبد مادام بقلبه مفرداً^(١) مجرداً^(٢) فهو فى أسمى نعوته^(٣)، فإذا حصلت علاقة المواصلات^(٤) وقع فى التلوين فمرة ومرة.

ونون التثنية أبداً مكسورة، كذلك صاحب العلاقات مكسور الجناح يطرح نفسه كل مطرح.

ونون التثنية تسقط عند الإضافة، لأنها بدل من التنوين فى الواحد، والتنوين والإضافة أمارتان للمعرفة فلا يجتمعان كذلك صفة العارف إذا غلبت عليه صفة من صفات المعرفة فالصفة التى فى مقابلتها تكون مغمورة مستورة - فإذا كان الغالب عليه القبض فبسطه مستور، وإذا كان الغالب عليه البسط فقبضه مغمور، وإذا كان الغالب عليه^(٢) الأنس^(١) فالهيبة كالمقابل^(٤)، وإذا كان غالبه الهيبة فالأنس كالزائل^(٥)... وعلى هذا النحو جميع أوصافه.

(١) فى ط (نحواء) وربما كانت (نجواء) ويكون المعنى أن تكون نجواء تقيداً وتجريداً للحق سبحانه.

(٢) بتشديد الراء وكسرهما.

(٣) لأن الأصل فى التجريد والتفريد إسقاط العلاقات والعائقات فهى آفات الطريق وإذا وجد شيئاً من ذلك فهو نقص فى التوحيد، فلا اتينية فى التوحيد، لأن التوحيد إسقاط السوى.

(٤) مكررة مرتين فى س.

(٥) بضم الهمزة.

(٦) فى س (كالقالب) والمعنى قد لا يتقبلها لأن المقصود أن تكون الهيبة كالمقابل أى كالمقلوب عندما يكون الأنس غالباً.

(٧) فى س (كالزائل) وفى ك والياء بدون نقط وفى ط توجد واو براس صغيرة جداً.

فصل [١١]:

الجمع بين ضربين: جمع سلامة وجمع تكسير^(١)..

وفى الإشارة كذلك: ما يسميه^(٢) القوم^(٣) الجمع على قسمين: جمع سلم صاحبه، وهو ما حفظ عليه الشرع فى وقت غلبات الجمع.

وجمع صاحبه مكسور^(٤) الصحة، وهو ما لا يحفظ^(٥) على مدعيه^(٦) آداب^(٧) العلم.

والفرق بين جمع أقسام النحو فى الخطاب وأقسام جمع نحو القلوب: أن كلا الجمعين^(٨) فى الخطاب - فى مسائل النحو - صحيح، أما فى نحو القلوب فأحدهما صواب والثانى غير صواب.

الإشارة: جمع السلامة ما يسلم فيه لفظ الواحد كذلك جمع سلامة هذا الطريق ما يسلم العقل فيه من الشبهة، والفعل من البدعة، والنفس من الشهوة، والقلب من الغفلة والغيبة، والسر^(٩) من الحجة.

وجمع التكسير ما تكسر فيه لفظ الواحد: كذلك المدخول^(١٠) من جمع القوم ما ينول^(١١) عن عقود الحقيقة، ويزيغ عن حدود^(١٢) الشريعة.

(١) هكذا فى ط و ك ولكنها فى س (جمع تكسير وجمع سلامة) ولكن النسق الذى سارت عليه الفقرة فيما بعد يقتضى ما أثبتناه.

(٢) مشتبه فى ط.

(٣) سقطت (القوم) فى ط والمقصود الصوفية.

(٤) فى ط (مكسور) والخطأ واضح.

(٥) بفتح الهاء.

(٦) بتشديد الدال.

(٧) فى ط (أذن) وفى س (آداب) وهى وإن كانت مقبولة إلا أننا رجحنا (آداب) الموجودة فى ك للتشابه فى عدد الحروف بينها وبين (أذن) مما يجعلنا نقرب من الأصل.

(٨) هكذا فى س ولكنها فى ك (إن كل الجمع).

(٩) أى الذى فيه (دخل) أى شبهة وارتباب على أية صورة.

(١٠) فى ط (يدول) والتصحيح واضح.

(١١) فى ك (معنود) والأرجح استعمال (حدود الشريعة) كما جرت عادة الشيخ.

(١٢) بتشديد السين مع كسرهما.

فصل [١٢]:

إذا جمعت اسماً مذكراً جمع السلامة فيما يعقل^(١) ألحقت بآخره واواً في حال الرفع، وياء في حالي النصب والخفض، ونوناً بعد الواو أو الباء - وهي مفتوحة، وتسقط عند الإضافة.

والإشارة: إذا صار الاسم إلى حال الجمع وقع في كل هذا التلوين والتغيير^(٢).. فمرة ومرة، من زيادة ونقصان، وتبديل وتحويل - كذلك صاحب الجمع زال^(٣) حكمه عن نفسه، فمرة يظهره الحق في وديان^(٤) التقريب، ومرة ينصبه في نعت الإبعاد.. وهو محو عن الاختيار «وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود»^(٥).

خرج الشلبي يوماً في زى رث^(٦) فقليل له في ذلك فقال:

فيوماً ترانا في الحرير نجره^(٧) ويوماً ترانا في الحديد عوابسا
ويوماً ترانا والثريد نلته^(٨) ويوماً ترانا ناكل الخبز يابسا^(٩)

وكان النبي ﷺ يقول مرة:

«إنى لست كأحدكم. إنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقيني»^(١٠).

وقال مرة: «أنا ابن امرأة تأكل القديد»^(١١).

(١) فى س (يفعل) وهى غير صحيحة إذ المقصود أن الجمع اسالم للعقلاء أو لوصف العقلاء.
(٢) فى س (والتغير) وهى مقبولة وقد سبقت فى فصل سابق ولكننا هنا أثرنا ما جاء فى بقية النسخ (التغيير) لتسجم مع (التلوين).
(٣) فى ك (وجدان) وفى ط (واحدان).
(٤) فى ك (نحو) وهى خطأ.
(٥) آية ١٨ سورة الكهف.
(٦) انظر: حياة الشلبي فى كتب الطبقات.
(٧) رواه مالك والشيخان وانترمذى عن أنس.
(٨) (كانت تأكل) رواه الحاكم من حديث جرير، وقال: صحيح على شرط الشيخين.
(٩) بتشديد الراء.
(١٠) بتشديد الراء والتاء.

ومرة حكم لعشرة بالجنة، ومرة يقول: «إيه ليفان على قلبى»^(١).

وجمع السلامة له قياس^(٢)، وجمع التكسير كثير الفنون مختلف القياس شكل^(٣) المبانى^(٤).

كذلك من حفظ^(٥) بوصف العلم فهو - مقاماً - سيد^(٦) وقته وإمام زمانه. والذي هو فى هذه الطريقة جمع تكسير فصاحب بلاء لا يهتدى إليه أحد، مردود عند من لا نصيب له من الطريقة، لكنه مستور فى الحقيقة أمره، وهو فى عين التشريف. ومن هو على جانب من هذا الحديث^(٧) يظنه من أهل التكليف.

ألوانها شتى الفنون وإنما تسقى^(٨) بماء واحد من منهل

فصاحب هذه الحال مشكل الحال، ملتبس الوقت، لا تهجم على محله جوامع^(٩) القياس، ولا تشرف^(١٠) على غوامض نعتة ثواقب التقدير^(١١).

(١) عن أغر مزينة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إنه ليفان على قلبى حتى استنظر الله فى اليوم والتيلة مائة مرة. أخرجه مسلم وأبو داود والنسائى وهى روية لمسلم: «توبوا إلى ربكم، هو الله إني لأتوب إلى ربى تبارك وتعالى فى اليوم مائة مرة».

(٢) فى ط (ليس) له قياس وهذه الزيادة خطأ من الناسخ.

(٣) فى ك و ط (مشكل) بضم الميم وسكون الشين وهى صواب أيضاً: فهى مثل (شكل) فى المعنى، بفتح الشين وكسر الكاف.

(٤) هكذا فى ك و ط وهى فى س (مجوزات) القياس. والكلمتان وإن اختلفتا فى الرسم إلا أن الفهم الدقيق لأحوال جمع التكسير وصوره المتعددة التى تستعصى فى بعض الأحيان على القياس.

(٥) يقصد بـ (من هو على جانب من هذا الحديث) أى الذى له صلة بهذا العلم، علم التصوف بمقاماته وأحواله وكشوفاته ومعارفه.. إلخ.

(٦) بضم الحاء وكسر الفاء. (٧) بضم الدال. (٨) بضم التاء. (٩) بضم التاء.

(١٠) كذا فى ط و ك وهى فى س (التدبير) ومع أنه كان من الواجب أن نختارها على أساس أن المتصوفة يرون التقدير لله والتدبير للمبدإ إلا أننا أثرنّا هنا اختيار (التقدير) فى صيغة تذكير للعبارة أن المقصود هو: إعطاء الناس (قدرًا) لمثل صاحب هذه الحال لا يكون صائبًا - لجهلهم بشأنه - مهما كانت (تقديراتهم) ثاقبة. (١١) بضم التاء.

(٧) (والتقدير) فى هذا المجال اصطلاح نحوى مقبول ووارد. فإن تعريف جمع التكسير كما يذكره النحاة: هو الاسم الدال على أكثر من اثنين بتغيير ظاهر أو (مقدر) .. وربما كان هذا التنظير الدقيق من مرامى الشيخ.

فصل [١٣]:

من الأسماء أسماء مخصوصة أفردت عن أشكالها بجعل رفعها بالواو، ونصبها بالأنف، وكسرها بالباء، وهي ستة أسماء: أبوك وأخوك وهنوك وحموك وفوك وذو مال.

الإشارة: كذلك من الناس من خص^(١) عن أمثاله، وأفرد بالأحكام من بين أضرابه وأشكاله:

قال أحدهم: ليس كل بشر بشراً^(١).

أى بأين حكمه حكم من سواه، وانفرد عنهم فى معناه^(٢).

فصل [١٤]:

الأفعال على ضربين: لازم ومتعد^{(٣)(٠)}.

وفى الإشارة كذلك: أفعال العبد على قسمين: لازم ومتعد، فاللازم ما تكون بركاته على صاحبه مقصورة، والمتعدى ما تتعدى خيراته إلى الغير.

والفعل المتعدى على أقسام: منها ما يتعدى^(٠٠) إلى مفعول واحد، ومنها ما يتعدى إلى مفعولين، ومنها ما يتعدى إلى ثلاثة مفاعيل.

(١) بشر - الأولى بفتح الباء والشين. والثانية بكسر الباء وسكون الشين والمقصود (ببشر) هنا هو (بشر الحافى) بكسر فسكون فقد وردت هذه العبارة عنه فى بعض التراجم التى تحدثت عنه وانظر: ترجمة بشر الحافى فى الرسالة القشيرية ط: الحلبي.

(٢) (بأين حكمه... إلخ) هذا السطر غير موجود فى ط و ك وجاء فى س، وهو يضيف أو يوضح المعنى أن بشراً وإن استوى مع بقية أقرانه من البشر إلا أنه مختلف عنهم فى جوهره، ومباين لهم فى الحظوة والمكانة.

(٠) بضم الخاء.

(٢) فى ط (متعد ولازم) ونسق الكلام بعد ذلك يقتضى البدء باللازم.

(٠) بتشديد الدال وكسرها.

(٠٠) بتشديد الدال وفتحها.

والإشارة: كذلك العبد قد تتعدى بركاته^(١) إلى عالم من الناس حتى قال الشيوخ: لو أن ولياً من أولياء الله اجتاز ببلد لغفر الله لأهل هذا البلد. وفي الأثر: لو أن محزوناً^(٢) بكى في أمة^(٣) لرحم الله تلك الأمة^(٣).

فصل [١٥]:

خمسة أمثلة من الأفعال رفعها بالنون، ونصبها وجزمها^(٤) بسقوط النون وهي: يفعلان وتفعلان ويفعلون وتفعلون وأنت^(٥) تفعلين.

وفي الإشارة كذلك: من الأفعال ما يكون مخصوصاً، ولا تقبل إلا بزيادة تقترب بها، فيؤتى بها بشرط قران^(٦) ينضم إليها^(٦): كرمى الجمار مثلاً: لا يكون طاعة إلا في الحج، كما أن السعى بين الصفا والمروة لا يكون عبادة إلا في الحج والعمرة، فمن قيض^(٧) لأجل شيخ من الشيوخ أو عارف أو ولي لنفع له منه حتى إذا مضى وقت ذلك الشيخ فلا قدر^(٨) لذلك الشخص^(٧).

(١) في ط (أفعاله).

(٢) ك تشبه أن تكون (مجدوباً) وليس في مصنفات القشيري - في حدود علمنا - استعمال لهذه اللفظة.

(٣) في س يقع ترتيب الأثر قبل مقولة الشيوخ، وفي ب يوجد الأثر ولا توجد مقولة الشيوخ.

وعلى كل حال فالمقولة «لو أن محزوناً...» لسفيان بن عيينة. الرسالة القشيرية ص ٧١.

(٤) بضم الهمزة وتشديد الميم.

(٥) في ك (وحذفها) وهي خطأ من الناسخ ومصححه في الهامش تصحيح مراجعة.

(٦) ورد ضمير المخاطبة في ط و ل ولم يرد في س.

(٧) ي س (فهو يؤتى بها لأصول تنضم إليها) ويمكن تقبلها على أساس أن الفعل أصل. وأما ثبوت النون أو حذفها فزيادة، وقارنته قرأنا أي صاحبه، وقرن بين الحج والعمرة يقرن قرأنا أي جمع بينهما والمقصود من (شرط القرآن) هنا شرط مصاحبه الألف والواو والياء فهذا هو الأصل في تركيب الأمثلة الخمسة التي هي موضوع الفصل.

(٨) ابتداء من (فمن قيض إلى نهاية الفصل) ساقط في ك و ط و ب وثابت في س.

(٩) بكسر القاف.

(١٠) بضم القاف وتشديد الهاء.

(١١) بفتح القاف وسكون الدال.

فصل [١٦]:

الأفعال على أقسام: صحيح ومعتل ومضاعف^(١).

الإشارة: كذلك أفعال المكلفين على أقسام^(٢): صحيح ومعتل، وكما أن الصحيح من الأفعال ما سلم من حروف العلة فالصحيح من أفعال العباد ما سلم من صنوف العلة. وحروف العلة ثلاثة:

الواو والألف والياء، وصنوف العلة الرياء والإعجاب والمساكنة^(٣).

وبعض حروف العلة أضعف وبعضها أقوى، كذلك فإن بعض صنوف علل^(٤) الأفعال العطف^(٥) وبعضها أبدى^(٦).

ومن الأفعال ما يكون حرف العلة في أوله وهو المثال، كذلك من أفعال العبد ما كانت العلة في أوله وهو ألا يكون الدخول فيه على حد الإخلاص^(٧).

ومنها ما هو أجوف.. وهو الذي حشود حرف علة، كذلك من أفعال العبد ما هو أجوف وهو الذي داخله زلة كالغيبة والغفلة^(٨).

(١) (ومضاعف) موجودة في س و ب وغير موجودة في بقية النسخ وهي مقبولة بل ضرورية إذ أن القشيري يتحدث بعد ذلك عن الصحيح والمعتل.

(٢) هكذا في س وهي في بقية النسخ (قسمين).

(٣) في ك (والساكن) وهي خطأ من الناسخ.

(٤) في س (على) وهي خطأ من الناسخ.

(٥) أي أخفى.

(٦) في ط و ك (أجلى) وكلاهما بمعنى.

(٧) (ومن الأفعال.... الإخلاص) موجود في ب بعد المضعف وغير موجود في النسخ الأخرى، وقد آثرنا وضعهما هنا في المقدمة حسب الترتيب المؤلف في كتب النحو.

(٨) (كالغيبة والغفلة) موجودتان في ب وغير موجودتين في بقية النسخ.

(٩) يسكون الباء وفتح الدال.

ومنها ما هو ناقص وهو الذى يكون فى آخره حرف علة، كذلك من أفعال العبد ما هو ناقص وهو الذى تعمبه آفة، فإن قبول القرب^(١) موقوف على وفاء العواقب.

ومن الأفعال ما هو لفيف، وهو الذى اجتمع فيه حرفان من حروف العلة إما مقترنين أو مفترقين^(٢)، كذلك من الأفعال ما تتوالى عليه الآفات، فصاحبه يعتريه الرياء ويلحقه الاعجاب.

ومن الأفعال ما هو مضعف^(٣)، وذلك ما اجتمع فيه حرفان متجانسان^(٤) فأدغم أحدهما فى الآخر. كذلك من أفعال العبد ما ضوعف لصاحبه أجره، أو ضوعف عليه وزره، وذلك ما اجتمع فيه حق^(٥) الحق وحق الخلق فضوعف حكمه فى الأجر والوزر^(٦).

فصل [١٧]:

الإدغام الإخفاء، فالحرفان فى التقدير موجودان وإن كنا على اللسان بوصف الانفراد. وفى هذا إشارة إلى ما يقوله القوم فى وصف الجمع وجمع الجمع^(٧).

والمدغم من الحروف قد يكون له حال بروز^(٨) فى بعض أحوال التصريف^(٩).. كذلك صاحب الجمع له رجوع ورد^(١٠) فى بعض الأحيان إلى عين الفرق.

(١) فى ك (العدل) وهى خطأ من النسخ، وربما كانت (العسل) لأن الأعمال بخواتيمها كما يريد السياق، والقرب، بضم القاف.

(٢) فى ك (مقرنتين ومفترقتين) وتاء التأنيث فىهما زائدة لأن الكلام عن الحرفين.
(٣) بتشديد العين.

(٤) مشتبهة فى ط وواضحة فى بقية النسخ.

(٥) بتشديد القاف.

(٦) بكسر الواو وسكون الزاى.

(٧) فى ك (وعين جمع الجمع) انظر القسم الثالث من هذا الكتاب.

(٨) فى ط (بروز) بدون نقط ولكنها واضحة فى ك و س.

(٩) فى ك و ط (فى بعض الأحوال) فقط.

(١٠) بتشديد الدال.

ومن أقسام الفعل المهموز (٠٠) .. والهمزة مد (١)(٠٠٠) في الحلق (٠٠٠٠) ..
كذلك قد يصعد بعض الأفعال زيادة على ما يصعد غيره من حيث القبول.

فصل [١٨]:

الاسم المبتدأ شرطه أن يكون مصدراً (٢) للإخبار عنه، مجرداً عن
العوامل اللفظية.

وإنما يكون الاسم مبتدأ إذا لم يعمل فيه عامل ظاهر، فإذا سلم من
العوامل الظاهرة سلم له صدر الخطاب. فكذلك من سلم من تأثير
الأطماع فيه، ولم تعمل فيه الشهوات والإرادات سلم له التقدم، ومن
أسرته (٠) المنى والمطالبات تسفل (٠٠) في الأعقاب، ووقع في صف
النعال (٣).

فصل [١٩]:

العوامل على قسمين: لفظي ومعنوي، فالاسم المبتدأ: العامل فيه
معنى الابتداء، وهو غير لفظي، وإنما هو وقوعه مبتدأ.

(١) هكذا في ك و ط وهي في س (أثر) وفي ب (نبر) وكلاهما مقبول في السياق ولكننا آثرنا (مد)
فالمدة زيادة وعندئذ يقوى الانسجام في التنظير بين النحو والإشارة.

(٠٠) بضم الزاي.

(٠٠٠) بتشديد الدال من التثوين.

(٠٠٠٠) بسكون اللام.

(٢) بتشديد الدال. في ط (مرصداً) ولا معنى لها، فإن المبتدأ حقه التصدير، وكذلك بدليل ما سيأتي
(سلم له صدر الخطاب).

(٣) مشتبهة في ط و ك، وهي هنا تعطي معنى انحدار قيمة العبد إلى مرتبة (النعال) التي تخلع قبل
الدخول على بساط القرب على عتبات الأبواب (للشعيرى تصور لدرجات الداخلين يتضح في
الشروح من هذا الكتاب).

(٠) بسكون التاء وضم الهاء.

(٠٠) بتشديد الفاء.

كذلك فى الإشارة: العامل فى العبد^(١) نوعان: ظاهر يهتدى إليه كل أحد، ومستور لا يظهر إلا بعد مدة، قال الجنيد^(٢) رحمه الله: «من أراد أن يضع سرّاً^(٣) عند أحد فليضعه عند رويم^(٤)، فإنه صحبنا كذا وكذا سنة^(٥) وفى قلبه حب^(٦) إلينا^(٧) ولم نبصره فيه».

فصل [٢٠]:

ومن فصول باب الابتداء أنه خص المبتدأ بالرفع - وهو أقوى الحركات - لمصادفته حل لجام التكلم^(٨) كذلك فى الإشارة من تخلص من تأثير المطالبات فيه، وتحرر من الإرادات قوى فى حاله فخص^(٩) بأقوى الأثقال^(١٠)، وحمل^(١١) أثقل الأمور لأنه يحمله بقوة، فأقواهم حالاً يخص بأثقل الأمور، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: «إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً»^(١٢).

(١) فى العبد غير مذكورة فى ط و ك.

(٢) الجنيد هو أبو القاسم الجنيد بن محمد سيد هذه الطائفة وأمامهم، أصله من نهاوند ومنشؤه ومولده بالمراق، وكان أبوه زجاجاً ولذا قيل له القواديرى، وكان فقيهاً على مذهب أبى ثور صاحب السرى السقطى والحارث المحاسبى والقصاب ومات سنة سبع وتسعين ومائتين من الهجرة.

(٣) هو أبو محمد رويم بن أحمد بغدادى النشأة وكان فقيهاً على مذهب داود توفى سنة ٣٠٢ هـ.

(٤) فى س (كذا سنة) فقط.

(٥) فى ب و س (الدنيا) وهى خطأ فى النسخ لأن السياق يتطلب أنه أحب الجنيد ومجلس علمه حباً مكتوماً، وقد سبق الشاهد دليلاً على العامل الخفى.

(٦) راجع قصبة الإفصاح والكتمان عند الصوفية فى كتاب نشأة التصوف الإسلامى ط دار المعارف لإبراهيم بسيونى).

(٧) بتشديد الراء.

(٨) بتشديد الباء.

(٩) (حل لجام التكلم) واضحة فى س ومشتبهة فى بقية النسخ.

(١٠) ابتداء من (كذلك فى الإشارة... حتى الأثقال) موجود فى س وغير موجود فى بقية النسخ.

(١١) آية ٥ سورة المزمل.

(١٢) بضم الخاء وتشديد الصاد.

(١٣) بضم الحاء وتشديد وكسر الميم.

وقال ﷺ: «الناس كإبل (هائمة)»^(١) لا تكاد تجد فيها راحلة»^(٢).
وكان الشبلي يقول: «أشعر»^(٣)؛ أنى مأخوذ^(٤) بجرائم الخلق»^(٥).

فصل [٢١]:

لابد للمبتدأ من الخبر^(٦).. والخير ما تتم به فائدة الخطاب، فإذا حصل الابتداء فلا بد مما تتم به فائدة الخطاب وإلا كان لغواً^(٧).

كذلك الابتداء في العرفان، فلا بد مما تتم به الفائدة وهو استدامته إلى حال الانتهاء، فإذا حصل الابتداء بالطاعات فلا بد من تمامها: قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «الأمور بخواتيمها»^(٨).

وكذلك على لسان الجمع: إذا حصل منه (سبحانه)^(٩) ابتداء القسمة^(١٠)

إن الكريم إذا حباك بوده^(١) ستر القبيح وأظهر^(٩) الإحسانا
وكذا الملول إذا أراد فطيمة ستر المليح وقال كان وكانا^(١٠)

(١) بياض في س.

(٢) والحديث غير موجود في بقية النسخ أي أنه في س وحدها وبعده إضافة: الراحلة هي الناقة التي يحمل عليها ما يعجز عنها كل إبل.

ورواية الشيخان والترمذي: «إنما الناس كإبل هائمة، لا تكاد تجد فيها راحلة».

(٣) هكذا في ك و ط و هي في س (المؤخذ).

(٤) يسكون الشين وضم السين وانراء.

(٥) بفتح الخاء وسكون اللام

(٦) وفي ط (لابد للمبتدأ في الأسماء من الأخبار) والمعنى واحد.

(٧) (والا كان لغواً) موجودة في س وغير موجودة في بقية النسخ والسياق يتدعم بها.

(٨) ولهذا جرت عادة الألسنة بقولها «واختم لنا بخاتمة السعادة أجمعين».

(٩) (سبحانه) زيادة من عندنا وجدناها ضرورية لتوضيح المقصود.

(١٠) في ك (القسَم) ويمكن قبلها بشرط كسر القاف حتى تكون صيغة جمع.

(٩) هكذا في ط و هي في ك و س (واكمل) وقد رشحا (وأظهر) لتقابل (ستر).

(١٠) البيت الثاني غير موجود إلا في ب وإن كانت (المليح) قد وردت خطأ (القبيح).

(٠) بتشديد الدال وكسرهما.

بالرحمة فلا بد في الانتهاء والمآل من المنة والنعمة، وإذا سبق منه الابتداء بالولاء فلا محالة ينعم بحفظه في الانتهاء، ولذلك قيل:

فصل [٢٢]:

خبر^(١) المبتدأ على أقسام وبالك^(٢) تحصل فائدة الخطاب.

كذلك لو سلكت للحق طريقاً، أو ابتدأت بأمر فلا تنصرف ما لم تتم ذلك سواء كان سلوكك سبيل العبادة، أو طريق الإرادة^(٣)، أو طريق العلم، أو طريق الزهد فإن قدر^{(٤)(٥)} الأمور بالاستقامة فيها، فإذا ابتدأت بأمر فاعلم أنه لا تتم الفائدة^(٥) إلا بإتمامه.

تجرد^(٦) إلى الدنيا فإنك إنما سقطت إلى الدنيا وانت مجرد^{(٦)(٧)}

فصل [٢٣]:

خبر المبتدأ قد يكون مثل المبتدأ كقولك: زيد^(٨) منطلق. ويكون جملة إما فعلاً وفاعلاً، أو شريطاً وجزاء^(٩)، أو ظرفاً.. وبجميع ذلك تحصل فائدة الخطاب.

(١) من هنا تبدأ النسخة ت بعد المساحة الساقطة منها.

(٢) هكذا في النسخ الأربع وهي في س (وبالجميع).

(٣) (أو طريق الإرادة) غير موجودة في ط وموجودة في بقية النسخ وهي ضرورية حسبما جرت عادة القشيري في هذا المجال.

(٤) في ط زعفت الدال على الراء فأصبح الرسم (قلد) ولا معنى لها، أما في ك فهي (قلة) والخطأ واضح من النسخ أما في ت فهي (قلب) أي هناك نقطة تحت المد.. ومن كل ذلك رشحت (قدر) الواضحة في س لأنها ملائمة للمقصود في نظرنا.

(٥) سقطت (الفائدة) في ت.

(٦) هذا البيت موجود في ب وغير موجود في بقية النسخ، ومع أنه يحتمل أن يكون زيادة من عند الناسخ لتوضيح الأمر لنفسه إلا أن السياق لا يرغضه، ويقوى ذلك كلامه عن (التجرد) في الفصل القادم.

(٧) بسكون الدال.

(٨) بتشديد الراء وفتحها.

(٩) برفع المبتدأ والخبر.

(١٠) واضحة في س و ك و ت و ب ومشتبهة في (ط).

كذلك إذا ابتدأت بأمر فيكون تمامه بتجردك لذلك الأمر كما ابتدأت به، فتكون اليوم فيه كما كنت بالأمس^(١). وقد^(٢) لا تحصل الفائدة إلا بجملة من الأفعال والصفات تزيد على حالتك الأولى، إذ لو لم تضيفها^(٣) إلى ما سبق منك بالأمس لا تحصل الفائدة.

فصل [٢٤]:

الفاعل مرفوع^(٢)، وقيل: علة الرفع مشابهته للمبتدأ، وقيل: لقوة حاله خص^(٣) بأقوى الحركات.

وقيل: للفرق بينه وبين المفعول - والرفع^(٤) أقوى الحركات.

وفي الإشارة: استحقاق الرفع والعلو للحق سبحانه وتعالى، لأنه الفاعل على الحقيقة، وليس لغيره قدرة على الاختراع. ولأن الابتداء في الأمور منه فهو الأول السابق، واستحقاق الرفع^(٥) والعظمة له.

فصل [٢٥]:

المفعول منصوب، والنصب أخف من الرفع، والمفعول أنقص رتبة من الفاعل فخص^(٣) بما هو الأخف من الحركات.

(١) أي من حيث التجرد لذلك الأمر، ولكن تبقى بعد ذلك إضافات جديدة لكي يستمر الطموح إلى الاتمام.

(٢) هكذا في النسخ الأربع وهي في ت (وهنا لا تحصل).

(٣) بضم التاء.

(٢) في ت و س (رفع). بضم الراء وكسر الفاء.

(٤) (والرفع أقوى الحركات) زيادة في س.

(٥) في س (الرتبة) وفي بقية النسخ (الرفع) وهي ألحق بالسياق إذ الكلام يدور حول الرفع.

(٣) بضم الخاء وتشديد الصاد.

كذلك الخلق هم المفعولون، فلهم حالة العجز والنقص، لأنهم في أسر القدرة وتصريف القبضة.

وقيل:

فاصبر لمر^(٠٠) العناء فقد خلقت^(٠٠٠) ممر^(٠٠٠٠) القضاء^(١)

فصل [٢٦]:

المفعول على أقسام: مفعول مطلق، ومفعول به، ومفعول له، ومفعول فيه، ومفعول معه.

كذلك المفعولات على أقسام: فالجمادات مفعولات على الإطلاق، والحيوانات مفعول بها، تجري عليها أحكامه - سبحانه - في النفع والضرر. والمكلفون مفعول لهم، خلق^(٢) لأجلهم الجنة والنار. وأحوال^(٣) المكلفين مفعول فيها لأنهم يعملون بالمعاصي والطاعات فيها. والبلاء مفعول معه لأن بني آدم خلقوا^(٤) والبلاء والعناء معهم. قال الله تعالى: «لقد خلقنا الإنسان في كبد»^(٥).

ويصح أن يقال: الأرزاق مفعول معه لأنها لازمة لأوليائه، فلا يكون لله ولي^(٦) إلا وهو مكفى^(٠٠) الشغل، قال الله تعالى:

(١) هذا البيت غير موجود إلا في ب.

(٠٠) بكسر اللام وضم الميم وتشديد الراء.

(٠٠٠) بضم الخاء وسكون القاف.

(٠٠٠٠) بفتح الميم وتشديد الراء.

(٢) بفتح الخاء واللام، سقطت (خلق) من ط وهي موجودة في بقية النسخ، ومن الضروري إثباتها حيث ترتبط بقضية كلامية مهمة هي (هل الجنة والنار حادثتان أم غير حادثتين؟).

(٣) هي في س (أفعال) ونرجع ما اثبتنا لقريها إلى السياق.

(٤) هذه العبارة موجودة في ط هكذا: (والبلاء مفعول معه لأبناء آدم، تلقوا العناء والبلاء معهم).

(٥) آية ٤ سورة البلد.

(٠) بفتح الواو وكسر اللام.

(٠٠) بفتح الميم وسكون الكاف.

«وهو يتولى» (٠٠٠) الصالحين» (١).

فصل [٢٧]:

ما لم يسم فاعله مرفوع، لأنه لم يذكر فاعله فأقيم المفعول مقام الفاعل، فأعرب إعراب الفاعل، لأن الفعل لا بد له من فاعل، فيقال: ضرب (٠) زيد.

الإشارة: إذا التبس إثبات الصانع على أهل الغفلة نسبوا (٠٠) الأفعال إلى المفعولين فتوهموا للمفعول استحقاق رتبة (٢) الفاعل فيضيفون الكائنات إليهم. لأن العلم - بأن هذه الحوادث لا بد لها من محدث على الجملة - ضرورة.

فإذ (٣) لم يثبتوا الصانع توهموا الفعل من المفعولين، فواحد أقام الطبع مقام الفاعل في التوهم، وآخر النجم، وآخر الفلك، وآخر الجد (٠٠٠) والبخت (٠٠٠٠)، وآخر الدولة (٤) وآخر (٥) الدهر وآخر زيدا، وآخر عمروا...

فكما أن إعراب الرفع للذي لم يسم فاعله ليس بحقيقة كذلك توهم (٠٠٠٠٠) أن الحادثات من المفعولات والمفعولين لا حقيقة له.

(٠٠٠) بتشديد "لام المفتوحة.

(١) آية ١٩٦ سورة الأعراف.

(٢) في ط (زينة).

(٣) في ط (فإذا) وانصواب ما ألتناه لأنها بمعنى (فحيث).

(٤) سقطت في ط وموجودة في بقية النسخ (بتشديد الدال وضمها وفتح الواو).

(٥) غير مذكورة في ب وتوجد واو العطف فقط قبل لفظة (الدهر).

(٠) بضم الصاد وكسر الراء.

(٠٠) بفتح النون.

(٠٠٠) بفتح الجيم.

(٠٠٠٠) بسكون الخاء.

(٠٠٠٠٠) بضم التاء وتشديد الهاء وكسرهما.

فصل [٢٨]:

المضاف إليه له الخفض، تقول: دار زيد^(١).

والإشارة: أن الخفض أضعف الحركات: عندما كان الاسم مفرداً، كان له أقوى الحركات، فلما جاءت الإضافة صارت له أضعف الحركات. كذلك العبد مادام مجرداً غله أقوى الحالات، فإذا جاءت العلاقة صار إلى أضعف الحالات^(١).

فصل [٢٩]:

كان وصار... إلى آخر هذه الأفعال الفاظ ترفع الأسماء وتنصب الأخبار، تقول: كان زيد قائماً...

فهذه مشبهة^(١) بأفعال وليست بأفعال محضة. والإشارة: أنها لما ضارعت الأفعال أجريت مجرى الأفعال الحقيقية، فكما أن الفاعل رفع والمفعول به نصب فكذلك اسم كان مرفوع وخبره منصوب، ولكن ينادى^(٢) عليها^(٢) أنها^(٣) ليست بأفعال محضة، فكذلك من تشبه يقوم يجرى مجراهم، ويحكم له - في الظاهر - بحكمهم ولكن ينادى عليه بأنه متشبه^(٤) بهم وليس منهم حقاً.

(١) في س (إلى أضعف الحركات والحالات) ونظن أن الحركات هنا زائدة، وهي غير موجودة في بقية النسخ، وقد آثرنا الاكتفاء (بالحالات) لأن انتقال الشيخ إلى الإشارة يتطلب التنويه بما في الطريق من (أحوال)، ويتعبر آخر نؤثر أن تبقى (الحركات) لنحو الظاهر وتبقى (الحالات) لنحو القلوب.
(٢) بتووين الدال بالكسر.

(٢) في ت (ولكن ينادى عليه).

(٢) (فيقال ليست بأفعال محضة) هكذا في ت، ولا خلاف في المعنى.

(٢) بضم المهم وفتح الشين وتشديد الباء وفتحها.

(٢٢) بضم الهاء.

(٢٢٢) بتشديد الباء وكسرهما.

قال الشاعر في هذا المعنى:

إذا انسكبت دموع في خدود

تبين (٠٠٠٠) من بكى ممن تباكى (١)

فصل [٣٠]:

الحروف التي تنصب الأسماء وترفع الأخبار معدودة محصورة (٢) وهي:
إن وأن وكان ولكن وليت ولعل.

وعمل هذه الحروف - في الحقيقة - في الأسماء دون الأخبار (٣)، لأن
الأخبار باقية على ما كانت عليه، وإنما تساهل النحويون فيه، فهذه
الحروف أشبهت كان وأخواتها التي تعمل في الاسم والخبر جميعاً، ولما
كانت هذه الحروف مشبهة (٤) بالمشبه ضعفت عنه في العمل فعملت في
الاسم دون الخبر (٥).

كذلك كلما كان العبد أبعد من التحقيق (٥) وأقرب من التلزيق والتلفيق
كان أضعف في التأثير، وأخس (٦) في المقدار.

(١) في س (اشتبكت دموع)، وجاء الشطر الأول للبيت في ك على هذا النحو (إذا غرقت عيون في دموع..).

(٠٠٠٠) بتشديد الياء وفتحها.

(٢) (معدودة محصورة) هكذا في س، وفي ط و ك (محصورة) فقط ولم ترد (معدودة) ولا (محصورة) في ت.

(٣) (دون الأخبار) سقطت في ك ولكن جاء بها (لأن الأخبار) ويبدو أنه اشتبه على الناسخ رسم (دون) فظن هناك تكراراً، ولكن السياق يتطلب الإلتهاء على نحو ما جاء في بقية النسخ، إذ يقصد القشيري إلى أن عمل الحروف الناسخة أقل قوة من عمل الأفعال الناسخة، وهذا ركن أساسي في استنباط الإشارة (انظر الشرح والدراسة في هذا الكتاب).

(٤) وقع تكرار في بعض النسخ في هذه العبارة مما جعلها منبهما وقد قومناها على نحو مفهوم.

(٥) في ك (الحق) ثم حدث تصويب لها.

(٦) في ك (أحسن) وهي خطأ من الناسخ، وهي في س (أخف) وربما يتقبلها السياق.

(٠) بتشديد الياء وفتحها.

فصل [٣١]:

الفعل الماضى مبنى على الفتح نحو: ضرب، والفتح أخف الحركات، فلما كان الماضى بمضيه^(١) له أضعف الحالات خص^(٢) بأضعف الحركات. والإشارة: أضعفهم استحقاقاً أبخسهم نصيباً.

قال الشيوخ: «إن لله عبادة لم يرهم أهلاً لمعرفته فشغلهم بنوع من عبادته»^(٣).

فصل [٣٢]:

الفعل المضارع مرفوع لمضارعه الاسم، فصل استحقاق الإعراب للاسم.

والإشارة: من^(٤) تشبه بقوم فهو منهم، ومن^(٥) أحب قوماً حشر معهم. وقال الشيوخ: هم القوم لا يشقى بهم جليس^(٦). وقالوا: من^(٧) تحقق بحاله (لم يمل)^(٨) عنه حاضروه.

فصل [٣٣]:

الحروف التى تجزم الفعل المستقبل معلومة^(٩) وهى:

لم ولما وأخواتهما. والتى تنصبه معلومة وهى:

(١) مشتبهة فى ك وواضحة فى بقية النسخ. (بتشديد الهاء وكسرها).

(٢) غير واضحة فى ط.

(٣) بضم الخاء.

(٤) (ومن أحب قوماً حشر معهم) موجودة فى ب وغير موجودة فى بقية النسخ.

(٥) هكذا فى ب وهى فى بقية النسخ (لا يشقى جليسهم) والمعنى واحد.

(٦) حال إلى مكان آخر يحول حولا وحولا بكسر الحاء وفتح الواو أى تحول، وهى فى س (لم يمل) بالميم.

(٧) بفتح الميم.

(٨) بضم الهاء وفتح الحاء وسكون اللام.

(٩) مذكورة عند أرباب العلوم تقديماً للكلام فى ذلك عند أرباب القلوب.

أن ولن وكى وإذن.

والإشارة منه: أن الفعل المضارع مادام منفرداً كان له أقوى الحركات، فإذا عملت فيه العوامل تغير عن استحقاق أقوى الحركات، وآل^(١) إلى حال الضعف.

وكذلك العبد عند تجرده^(٢) فهو بنعت استقلاله وقوته، فإذا عملت فيه الواردات من الرغبة والرغبة وغيرها رد إلى الضعف، فبعدما كان بالله مستقلاً^(٣) صار أسير حظ وصريع^(٤) نصيب^(٥)، ثم... بعض العوامل فيه تنصبه فتعرضه لكل قاصد، وبعض العوامل فيه تجزئه فتقطع عنه الفوائد.

فصل [٣٤]:

الأمر مبنى على السكون، نحو قولهم: اذهب. والنهى مجزوم نحو: لا تفعل.

والإشارة: السكون يشير إلى الدوام، كما أن الحركة تعنى^(٦) الزوال، فالأمر على الوجوب واللزوم، والنهى مجزوم إذ النهى عن الشيء يقطع عنك مرادك لتكون كما أمرت^(٧) به. وتقف عما نهيت عنه.

(١) فى س تشبه (قال) وهى خطأ من النسخ.

(٢) فى ت (تجره) بسقوط الدال، والدال واضحة فى بقية النسخ وهذا هو الصواب.

(٣) فى ت (مشتقلاً) والمعنى وإن كان يتقبلها، إلا أن الكلام عن (الاستقلال) بالله عن (الغير والسوى).

(٤) فى ك و ت (سريع) بالسين وهى خطأ.

(٥) بعد (نصيب) حدث سقوط هائل فى ك امتد إلى منتصف الفصل الثامن والثلاثين عند قوله:

(استشهدوا بهذا البيت:

عجبت لسمى الدهر....)

ومن حسن الحظ أن يكتمل النقص فى بقية النسخ.

(٦) فى س و ت (عين) وهى فى ط (تعنى).

(٧) بضم الهمزة وكسر الميم.

وجواب الأمر وجواب النهى مجزومان، إذ ليس للمأمور ولا للمنهى لسان الاعتراض، وما شأنهما إلا الاستسلام والتزام مقتضى الأمر أو النهى، فنعت المعارضة من المأمور والمنهى مجزوم. وغير^(١) الانقياد والخضوع منهما معدوم.

فصل [٣٥]:

النعت تابع للاسم، فإن كان الاسم مرفوعاً فالنعت مرفوع، وإن كان منصوباً أو مخفوضاً فالنعت مثله^(٢).

والإشارة من الاسم إلى السر^(٣)، ومن النعت إلى الوصف^(٤)، وإن ما^(٥) يلوح على الظاهر ما يلقي به عن^(٦) السر، سألوا: من^(٧) العارف؟ فقال: «لون الماء من لون إنائه»^(٧).

وأنشدوا:

كيفما دارت الزجاجة درنا^(٨)

يحسب الجاهلون أنا جننا^(٩)

(١) هكذا في س ولكنها في ت و ط (وعن) والمعنى يرفضها ويتقبل (غير بناء على خبر المشتأ (معدوم) فيكون المعنى أنه لا حياة للمأمور أو المنهى فيما أمر به أو نهى (٨٨) عنه، وينعدم منهما أى شيء غير الامتثال.

(٢) في س (كمثل) وربما كانت (كمثله).

(٣) في ت (الشيء) وهى خطأ من الناسخ بدليل ما بعدها.

(٤) في س (النفى) وهى مرفوضة إذ المطلوب (وصف) السر والوصف يتبع الاسم، انظر آخر الفقرة. (حكم كل تابع إنما هو حكم متبوعه).

(٥) في س (وإنما) وقد آثرنا أن نجعلها (إن ما) لأن ذلك يظهر المقصود ويقويه.

(٦) كذا في ت و ط وهى في س (من) والمعنى لا يرفضها، فالمهم فى الأمر أن الظواهر تنم عن السرائر.

(٧) هذه العبارة للجنيد (انظر رسالة القشيري ص ١٥٦).

(٨) بفتح المهم.

(٩) بضم الدال.

(١٠) بضم الجيم وكسر النون الأولى.

ولما كان النعت تابعاً كان حكمه حكم متبوعه، وهكذا حكم كل تابع إنما هو حكم متبوعه.

فصل [٣٦]:

الشرط والجزاء مجزومان، وللشرط والجزاء حروف نحو: إن^(١) ومن^(٢)... وما أشبههما نحو قولك: إن تضرب أضرب.

والإشارة: الجزاء لا^(٣) يستحق إلا بحصول الشرط سواء بسواء كذلك في الشرع علق أشياء من أفضاله على أشياء من أفعالك، فإن وفيت^(٤) بالشرط استوجبت الجزاء، لذا قالوا^(٥):

إن وجدنا لما ادعيت شهوداً

لم تجد عندنا لحق جحوداً

وقال الله عز وجل: «وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم»^(٦).

فصل [٣٧]:

حروف العطف عشرة: الفاء والواو وثم وأخواتها. وحكم المعطوف في الإعراب حكم المعطوف عليه.

(١) لا يوجد في ب بعد (قالوا) هذا البيت الشعري ولا الآية الكريمة إنما يوجد بيتان آخران هما:
يقدر الكد تكتسب المعالي ومن طلب الملا سهر الليالي
تنام الليل ثم تروم عزاً يفرس البحر من طلب اللالي
وربما كان البيتان في الأصل، أو هما زيادة من الناسخ لتذكير نفسه بالمقصود.

(٢) آية ٤٠ سورة البقرة.

(٣) بكسر الهمزة وسكون النون.

(٤) بفتح الميم.

(٥) بضم الهاء.

(٦) بفتح الفاء وسكون الهاء.

الإشارة: لما اشتركا فى المعنى تشاكلاً فى صورة الإعراب كذلك: من صحب قوماً، ووافقهم^(١)، وانخرط فى سلكهم، وعد^(٢) من زمرتهم فما استقبلهم استقبله^(٣)، وما يفتح لهم به يفرد^(٤) له منه نصيب.

وفى الأثر: «جلساؤكم شركاؤكم».

فصل [٣٨]:

همزة الوصل تلحق بالأسماء والأفعال فى أحوال مخصوصة، ولكنها إنما تلحق ما تلحق بنية الحذف عند الاستغناء عنها.

والإشارة منه: أن العبد ينصب^(٥) لمقام - والمقصود^(٦) غيره، فإذا زال ذلك المعنى، وحصل ذلك المقصود رد هذا المنصوب إلى ما يستحقه، وهذه محنة للأكياد مفتتة^(٧)، وفى معناه استشهدوا^(٨) بهذا البيت:

عجبت لسمى الدهر بينى وبينها

فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

وقال غيره:

سكنوا فى ديارهم ثم قالوا مالك - اليوم - عندنا من جواب
اطعمونا حتى إذا ما طعمنا وجرت بيننا عرى الأسباب^(٩)

(١) هكذا فى ت و س وهى فى ط (ووافقهم) ولا ضير منها فى السياق أيضاً.

(٢) يوجد بعدها فى س و ت زيادة هى (وما استعملهم استعمله) وربما كانت فى الأصل على معنى: وما

أثر فيهم من (عامل) يمتد تأثيره إليه بوصفه مشاركاً لهم فى السراء والضراء.

(٣) فى ت (يفوز) ونرجع أنها ربما كانت (يفرز) أى يستخلص له - مما رزقوا - نصيب.

(٤) بضم العين وتشديد الدال وفتحها.

(٥) بضم الهاء.

(٦) فى س (والمراد) ولا بأس بها فى المعنى.

(٧) من هنا تعود النسخة ك بعد السقوط الهائل الذى بدأ فى الفصل (٣٢) هامش رقم (٦).

(٨) فى ط يأتى الشطر الثانى هكذا: (وجرى فى نفوسنا الأسباب).

(٩) بضم الهاء.

(١٠) بضم الميم وفتح الفاء وتشديد التاء وكسرهما.

وقد يمتحنون^(١) بالتغافل عنهم، فبعد طول انغية ينشدون:

أدرجت^(٢٠٠) في أثواب نسيانكم حتى كأننى ألف الوصل

ولما لم تكن ألف الوصل^(٢) أصلية لم تبق على دوام الأوقات، كذلك من لم تسبق قسمته بالجميل^(٣) فإلى محتوم^(٤) الأزل يؤول^(٥) أمره.

فصل [٣٩]:

الحروف التى تخفض الأسماء^(٦) محصورة نحو: من وإلى وفى والباء الزائدة والكاف الزائدة.. وأخواتها، وهذه الحروف تدخل على الأسماء وعملها الخفض.

كذلك: من الأسباب^(٧) الداخلة على العبد ما يعمل فيه الكسر والخضوع والوضع، فمن^(٨) داخله الطمع والحرص والتمنى والشهوة وأمثالها من الخصال المذمومة والأحلاق الدنيئة أوجبت^(٩) له ضعة^(٨) الحال ونقصان الرتبة وخساسة المنزلة.

(١) سقطت فى ت.

(٢٠٠) بضم الهمزة وسكون الجيم.

(٢) فى ك (ضعة) ألف الوصل وهى خطأ من الناسخ، وهى ط ألف (الوصل) وفى ط (صاحبه) وكلاهما خطأ أيضاً.

(٣) فى ت (بالجهل) وهى خطأ من الناسخ.

(٤) فى س (المحكوم).

(٥) فى ط (يصير) وتحتها (يؤول) فهى زيادة تفسيرية من الناسخ.

(٦) هناك فى س و ت زيادة بعدها وهى (وترفع الأخبار) وهى خطأ من الناسخ.

(٧) وهى فى س هكذا ولكنها فى بقية النسخ (الأسماء) ولكن بناء على تذوقنا لأسلوب القشيري نؤثر (الأسباب).

(٨) هى هكذا فى ك وهى أيضاً هكذا فى ط وإن كان يقابلها فى الهامش (صفر) ويمكن أن تترا بكسر الصاد وفتح الغين، أما فى ت فهى (ضعف) وهى مقبولة فى السياق ولكننا أثرنا (ضعة) لتتمشى مع ما بعدها من (النقصان) و (الخساسة).

(٩) بفتح الميم.

(٢٠٠) بفتح الهمزة وسكون التاء.

فصل [٤٠]:

ومن الحروف ما يدخل على الاسم المبتدأ ولا يغير معناه، ولا يوجب له تغير الإعراب وهي مثل: إنما، وكأنما وليتما، ولعلما وغيرها.

والإشارة: أن من الناس من لا تؤثر فيه الواردات بحال، فهو في حال ما دخل عليه مثله في حال تجرده عنها.

دخل أحدهم على بعض المشايخ وبالقرب منه ملاء^(١) فتوهم هذا الداخل أنه متغير بما يجرى ولكنه رآه لا يؤثر فيه شيء من ذلك، ولا يشغله ما يجرى عما كان به من الوقت^(٢) فقال: «فديت^(٣)» من لا تؤثر فيه الجبال والرواسي!

فقال ذلك الشيخ: «يا فلان، إنا قد جردنا^(٤) عن رق^(٥) الأشياء في الأزل».

فصل [٤١]:

جواب الأمر والنهي والدعاء والاستفهام والجحد والعرض^(٥) والتمنى -
بالفاء منصوب، ويجزم عند حذف الفاء^(٦).

(١) مشتبهة في ط و هي في ك و ت (ماء اسن) وهي في س (ملاء) وهي التي أثبتناها لأن السياق يقتضيها. فضلاً عن أن القصة وأردة بكاملها هي الرسالة (ص ٢٥) والشيخ في القصة هو أبو بكر النحطى وكان ابنه هو الذي (يتعاطى ما يتعاطاه الشباب مع أقرانه).

(٢) (من الوقت) سقطت في ط و ك و ت. ومثبتة في س. وقد أوردناها في المتن تمشيهاً مع أسلوب القشيري في هذا الصدد (انظر اصطلاح الوقت في رسالته) وانظر أيضاً قسم الشرح والدراسة من هذا الكتاب.

(٣) مشتبهة في ط وهي في ك (قدمت).

(٤) هكذا في ك، وهي في ت (حررنا) وفي ط (تحررنا) وهما مقبولان في السياق.. فالتحرر والتجرد هنا بمعنى واحد.. خاصة وأن (التحرر) بفتح (الرق) ولكننا في النهاية أثروا التجرد اعتماداً على حرف الجر (عن)، أما التحرر فكان يتطلب (من).

(٥) بفتح الميم وتوين الهاء المكسورة.

(٥٥) بفتح الفاء وضم التاء.

(٥٥٥) بتشديد القاف وكسرهما.

(٥) والعرض بفتح العين وسكون الراء ثم ترد في (ط) ووردت في بقية النسخ وهي لازمة.

(٦) اخطأ الناسخ في س فقال (ويحذف الفاء منصوب) لأن الجواب في هذه الأحوال حقه الجزم.

الإشارة: لما حصلت الفاء واسطة بين الجواب وهذه الأشياء أخرج^(١) الجواب عن واجب استحقاقه إلى^(٢) صفة أخرى^(٣). فكذلك شرط الواسطة: تغير^(٤) حكم المدخول^(٥) عليه. فمن عاش مع الله تعالى بواسطة المعلوم تغير عليه حكم ما وجب له عند التجرد عن المعلوم.

أما^(٦) العيش مع الله بلا علاقة فيبقى^(٧) العبد على ما يجب^(٨) - من تحقيق الوصل - في الأصل.

فصل [٤٢]:

المنادى على أقسام: فـ للمفرد المعرفة وصف، وللمضاف وصف، وللنكرة وصف.

كذلك من كان من العباد مفرداً ينادى^(٩) على وصف غير وصف ما ينادى^(١٠) وهو مضاف.

وكذلك من كان بوصف النكرة. والمفرد المعرفة من الأسماء مبنى على

(١) في ط (الا) وهي خطأ من النسخ.

(٢) سقطت (أخرى) في ت.

(٣) هكذا في ت و هي في ط (المدلول) وفي م (الدخول) والصواب ما أثبتناه.

(٤) أضفنا (أما) من عندنا لئتماسك المعنى ويزيد وضوحاً.

(٥) هكذا في النسخ جميعها ما عدا م فهي مشتبهة فضلاً عن أنها ذات نقطة تحت الجيم (يجب).

وهي على هذا تكون مرفوضة لأن مذهب القشيري الأشعري يرى أنه لا (وجوب) على الله سبحانه.

(٦) بضم الهمزة.

(٧) بفتح التاء والفاء وتشديد الهاء وضمها.

(٨) بضم الهاء وكسر القاف.

(٩) بفتح الدال.

(١٠) بضم الهاء وفتح الدال.

الضمة - والضمة أقوى الحركات.. وكذلك من كان أبداً بنعت التفريد كان في^(١) أعلى الحالات وأقوى الصفات^(٢).

والمنادى المضاف منصوب، وكذلك من أضيفت إليه العلائق فهو في أضعف الحالات - كما أن النصب أضعف الحركات.

والنكرة من الأسماء خص^(٣) بعلم آخر، كذلك صاحب النكرة وسم^(٤) برقم آخر.

فصل [٤٣]:

ويقع في النداء الترخيم، وهو حذف بعض الاسم^(٥) من آخره على جهة الإيجاز، ولذلك في مسائل النحو شرح.

الإشارة: إلى أنه قد يكون في نحو القلب ترخيم المنادى، وهو أن ينادى^(٦) بالإشارة، فيحذف^(٧) بعض^(٨) التفسير^(٩) ويقتصر على ما هو المعلوم بين الأحباب.. قال عز وجل لنبيه:

«يس»^(١٠)، جاء في بعض التفاسير أن معناه: ياسيد، وذلك على سنتهم في الحذف^(١١) والاختصار كما قال قائلهم:

(١) في س (على) أعلى.

(٢) (أقوى الصفات) سقطت في ك و ت.

(٣) بضم الخاء وتشديد الصاد.

(٤) بضم النواو وكسر الميم.

(٥) في س (الأمم) وهي خطأ في النسخ.

(٦) يقصد هنا الإيضاح.

(٧) لم يرد الاستشهاد بالآية الكريمة إلا في النسخة س.

(٨) في ط (الستر) وهي مقبولة في السياق أيضاً، لأن المقصود (بالحذف والاختصار) حسب رأى الشيخ

هو التخاطب بين الأحباب بلغة يفهمونها دون سواهم إمعاناً في كتم الأسرار. ويؤيد ذلك ما يقوله

في لطائف الإشارات في السياق نفسه «على سنة الأحباب في (ستر) الحال وإخفاء الأمر على

الأجنبي من القصة» لطائف الإشارات ج ١ ص ٦٦.

(٩) بفتح الدال

(١٠) بضم الهاء والفاء

(١١) بضم الضاد

قلت لها: قفى فقالت: قاف^(١):

والاقتصار - على شطر^(٢) الكلام - فى مذهب الأحباب أبلغ من الإتمام.. ولهذا قال بعضهم:

ليس من الظرف^(٣) امتحان^(٤) الحبيب بالوصف.

فصل [٤٤]:

من الأفعال ما ليس^(٥) يتصرف تصرفاً تاماً مثل:

نعم^(٦) وبئس وعسى ولذلك أبواب فى النحو وأحكام.

والإشارة منه: أن من الأفعال ما ليس بتمام، فلا يتمكن العبد من التصرف فيه على حسب ما أراد، وبعضها به وإليه، فمن ذلك فتح^(٧) الجفن، والإصغاء^(٨)، إذ الإدراك - وهو البصر^(٩) والسمع - ليس بمكتسب للعبد، فإذا أتى بالإصغاء وفتح الجفن خلق الله الإدراك على مجرى العادة... فذاك فعل ناقص التصرف فيه، فيرد^(١٠) به الأمر والنهى، ويحصل عليه الثواب والعقاب.

فصل [٤٥]:

ومن الألفاظ ما تكون صيغته واحدة ولها معان كثيرة كقولهم: «ما»

(١) قالت قاف - أى انى واقفة، غاستغنى بالحرف عن الجملة. وغى س (لى قاف).

(٢) فى ك (شرط) وهى خطأ فى النسخ.

(٣) الحاء تبدو فى س كأنهاء وربما كان القصد أن الخروج على هذه القاعدة (امتحان).

(٤) بتشديد الظاء وفتحها.

(٥) فى س (ما لا يتصرف) وهى صحيحة أيضاً.

(٦) فى ك وط (النظر والاستماع) وفى ت (النطق والاستماع) وهناك، خطأ من الناسخ فى (النطق) لأن

نسق الكلام يسير حتى فى النسخة ذاتها على (الرؤية والاستماع).

(٧) فى ك (النظر) وهى مقبولة أيضاً.

(٨) بكسر النون وسكون العين.

(٩) بفتح الفاء وضم الحاء.

(١٠) بفتح الياء وكسر الراء وضم الدال.

فيكون صلة ويكون للنفي ويكون بمعنى الذي، وبمعنى من^(١).. وغيره.
 ويكون مشبهاً^(٢) بالمشبه بالفعل^(٣) فيقولون ما زيد قائماً. إذ يشبهونه
 بليس. وقوم يرفعون خبره، وقوم ينصبونه.
 ويتبين الفرق بين «ما» «وليس» في تقديم الخبر وذلك لنقصان «ما» عن
 «ليس».. كذلك الملتحق بالملتحق لا يبلغ شأو^(٤) الملتحق^(٥).
 أما الخيام فإنها كخيامهم
 وأرى نساء الحى غير نساؤها
 وفى قريب منه^(٦) قالوا:

فذر^(٧) عينيك وشأنيهما
 أصبحت مشغولاً بمشغول
 والمشغول بالمشغول أشدهم محنة، كذلك المتشبه^(٨) بالمتشبه
 أضعفهم حالة.

فصل [٤٦]:

الاسم المنفى بـ (لا) مبنى على الفتح^(٩)، لأن «لا» نقيض^(١٠) «إن»، فلما
 كانت «إن» - التى للتحقيق - تنصب الاسم فالمنفى بـ «لا» يبنى على

(١) المشبه بالفعل هو كان وأخواتها والمراد هنا (ليس) على وجه التحديد.
 (٢) فى ط (لا يبلغ شيئاً كالمحقق) ولكن الذى اخترناه أكثر دقة للوفاء بالمراد.
 (٣) ابتداء من (وفى قريب منه) إلى آخر الفصل ورد فى س وحدها دون بقية النسخ.
 (٤) بفتح المهم.
 (٥) بتشديد الباء وفتحها.
 (٦) بفتح الشين وسكون الهمزة وفتح الواو.
 (٧) بسكون الراء.
 (٨) بتشديد الباء وكسرها وضم الهاء.
 (٩) فى س و ك و ت على (الفتحة).
 (١٠) فى س (نقيضة).

الفتح.... وهذا باب فى النحو يجرى^(١) على المعنى^(٢) حكم نقيضه.

والإشارة أنه يوجد فى الأحوال ذلك: فإن غاية الحزن توجب الضحك، ونهاية السرور توجب البكاء، وغاية الهجر تكون بترك العتاب، وحقيقة الود^(٣) تكون بالتجنى وكثرة العتاب.. وأنشدوا:

ترك^(٤) العتاب - إذا استحق^(٥) أخ

منك العتاب - ذريعة^(٦) الهجر

وأنشدوا:

ولما غدت عيسهم للنوى وظلت بأحداجها تترك^(٧) (٤)
ضحكت من البين مستعجبا وشر الشدائد ما يضحك

وقيل: إن يعقوب عليه السلام لما رأى يوسف عليه السلام بكى، فقيل له فى ذلك، فقال: ذاك بكاء الحزن وهذا بكاء السرور.

فصل [٤٧]:

ومن الألفاظ التى تقع على معان مختلفة: «كم»، فإنه يكون بمعنى

(١) فى ب (المبنى) والصواب (المعنى) لأن القاعدة يراد لها العموم فى النحو.

(٢) وحقيقة الود... العتاب) مذكور فى س و ت وحدهما، وهى فى ت وحدها (وحقيقة المحنة)، وربما كانت (المحبة).

(٣) فى ط (استخراج) وهى خطأ من الناسخ.

(٤) البيت الأول ساقط فى س.

والحدج بكسر الحاء وسكون الدال: الحمل. ومن مراكب النساء يشبه المحفة، والجمع أحداج وحدوج. والراتكة من النوق التى تمشى وكان برجليها قيداً وتضرب يديها، فإذا لاحظتها وجدت فى مسيرتها اهتزازاً.

(٥) بضم الياء.

(٦) بسكون الراء وضم الكاف.

(٧) بضم التاء.

(٨) بفتح التاء وسكون الراء وكسر التاء وضم الكاف.

الاستفهام فينصب^(١). ويكون بمعنى «رب» فيخفض. والفرق^(٢) بين «كم» و«رب» اختصاص «كم» بالتكثير «ورب» بالتقليل، ويتميز أحدهما عن الآخر بالقرينة والعلامة^(٣).

والإشارة: كذلك من الناس من هو في صورة غيره، ولكن بالقرينة والأمانة تتميز^(٤) المقادير، فالزاهد في صورة الواجد، لكن^(٥) هذا قصده - من الحق - عطاؤه، وهذا موجب استقلاله بقاؤه^(٥).

وقد يجمع الطريق^(٦) سالكين^(٧) ولكن بالمقصد تتفاوت المقادير، فواحد يرجع إلى قصر^(٨) مملوك له، وآخر إلى حجرة بكراء^(٩).

فصل [٤٨]:

حروف القسم تجر المقسم به بإضمار فعل، فقول القائل: بالله أى يميني^(٧) بالله أو حلفت بالله^(٨).

وبعض هذه الحروف أكثر تعرفاً وأعم دخولاً^(٩) كالباء، وبعضها أقل كالتاء والواو، وواسطة بين القليل والكثير... والكل حروف للقسم.

(١) (فينصب) موجودة في س وغير موجودة في ط و ت و ك.

(٢) (والفرق.... بالتقليل) هيكت في س.

(٣) في ط (والعلاقة) والصواب (والعلامة) بالميم لأن المقصود علامة الإعراب في الاستعمالين.

(٤) في ط (تتمايز) وربما كانت (تتمايز) أو (تتمايز).

(٥) في ط (نقاؤه) وربما قبلت في السياق على أساس أنه (النقاء) من طلب الأعواض و (العطاء).

(٦) يقصد الطريق الصوفي.

(٧) بتشديد النون.

(٨) بسكون الباء.

(٩) بفتح القاف وسكون الصاد.

(١٠) بكسر الباء والكاف.

(١١) في ط (مينى) وفي ك (يمنع) وكلاهما خطأ في النسخ.

(١٢) (أو حلفت بالله) موجودة في س وت وهي ضرورية لتوضيح قوله فيما سبق (بإضمار فعل).

(١٣) في ط وك و ت (فعل) وقد أثرتنا (دخولاً) لأن السياق أكثر قبولاً لها حيث إن التنظير يراعى فيما

بعد مراتب القوم وهم (يدخلون) الدار.

والإشارة: الجميع من جملة الخدم، ولكن منهم من^(١) يدخل الدار ويتمكن في الصدر، ومنهم من حده^(٢) أن يحضر الباب ويقف من البعد، قال تعالى: ﴿قد علم كل أناس مشربهم﴾^(٣).

فصل [٤٩]:

الظروف على ضربين^(٤): ظرف زمان وظرف مكان، وكلاهما منصوب. لأنهما مفعول فيهما.

وفي نحو القلب: الظرف أيضاً على ضربين: ظرف الزمان وظرف المكان، فالزمان هو الوقت، والوقت ما أنت فيه، ولكن ظرف الزمان في نحو القلب مختلف باختلاف^(٥) ما فيه، فإن كان الذي في الوقت وفاق^(٦) الأمر فظرف صاحبه على الضمة، لأن الضمة أقوى الحركات.

وإن كان الذي في الوقت خلاف الأمر فظرف صاحبه مكسور - لأن الكسر أرق^(٧) الحركات. وإن^(٨) كان الذي في الوقت المباحات^(٩) فظرف صاحبه مفتوح - لأن الفتحة أخف الحركات، والمباح أخف الحالات.

وأما ظرف المكان: فإن كان الحق - سبحانه - بنعت الرضا عن صاحبه فظرفه مرفوع أو منصوب، وإن كان صاحبه برقم^(١٠) الحظ^(١١) فظرفه مكسور. فإن لون الماء لون^(١٢) إنائه^(١٣).

(١) بفتح الميم.

(٢) بفتح الحاء وتشديد الدال وضمة.

(٣) آية ٦٠ البقرة، ١٦٠ الأعراف.

(٤) في س (على قسمين).

(٥) في س (لأن الكسر ماديون الحركات).

(٦) (وإن كان الذي في الوقت المباحات..... الحالات) وردت في س ولم ترد في بقية النسخ، ونرجح وجودها في الأصل لكي تتم أنواع الظرف.

(٧) هكذا في النسخ ما عدا س فهي (بنعت).

(٨) بحظوظ نفسه وليس بحقوق مولا.

(٩) بفتح القاف. (١٠) بضم التاء.

(١١) بفتح اللام وسكون الواو وضم النون.

(١٢) سقطت عبارة (فإن لون الماء.....) من س وهي شاهد قوي بوضع المعنى جداً.

هذا هو الفرق بين ظرف نحو الخطاب وظرف نحو القلب.

فصل [٥٠]:

من أبواب النحو^(١) الاستثناء، وهو إخراج بعض ما تناوله اللفظ -
بدليل^(٢) متصل - منه^(٣).

نحو: جاء القوم إلا زيداً، وغير ذلك.

فلو لم يعقب^(٤) لفظ الاستثناء لكان اللفظ المتقدم يقتضى للمستثنى
دخوله فى جملة الأشياء المخبر عنها.

والإشارة: أنه قد يجمع الوقت^(٥) والطريقة قومًا لو لم يتعقب ما
يميز^(٦) البعض^(٧) لاشتراك الجميع فى الحال، ولكن جاء الحكم فأخرج
البعض من الكل:

إن الأحبة شمرؤا^(٨) وبقينا^(٩).

كذلك قال الشيوخ: إن فى كل عصر ووقت^(١٠) يدخل فى هذه الطريقة
من لا نهاية لهم، ثم يخرج الأكثرون عند حصول الابتلاء والامتحان،
ويبقى^(١١) القليل منهم، ولقد قال الشيوخ: هم الأكثرون - وإن قلوا، ومواضع
الأنس^(١٢) حيث حلوا^(١٣).

(١) لم ترد (من أبواب النحو) فى س. (٢) فى س (بلفظ) بدلاً من (بدليل).

(٣) فى ط (فيه) والأصوب ما اثبتناه على أساس أن الاستثناء (إخراج من...).

(٤) ابتداء من (البعض) إلى (الحكم) ساقط فى س وموجود فى بقية النسخ وسلامة السياق تقتضيه.

(٥) كتبناها منفردة لأنها شطر من بيت، وربما كانت بيتاً كاملاً. (٦) سقطت (ووقت) فى س.

(٧) مشتبهة فى س.

(٨) بضم الهاء وتشديد القاف وفتحها.

(٩) بضم التاء.

(١٠) بتشديد الهاء وكسرها.

(١١) بتشديد الميم وفتحها.

(١٢) بضم الهمز.

(١٣) بضم اللام وتشديدها.

وينقسم الاستثناء إلى قسمين: استثناء الشيء من غير جنسه، ويقال له الاستثناء المنقطع.

واستثناء من جنسه.

وفى الإشارة: من كان ضدًا^(١) غير مجانس فلا بأس بسقوطه، ولا مبالاة بخروجه.

ومن كان محرماً^(٢) للقوم.. فإن نفى^(٣) عنهم، وأخرج من بين جملتهم فالحسرة أشد، والحياة أصعب^(٤).

فصل [٥١]:

من الحروف ما يلحق بغيره، والمقصود منه تمييز ذلك الغير مما سواه. كالواو الملحقة بعمر في الخط لتكون فرقاً بين عمرو وعمر^(٥).. وهذا الإلحاق لا يدوم عند الاستغناء عنه - وهو مثل همزة الوصل فيما ذكرنا من قبل.

والإشارة: أن من الناس من^(٦) يلحق بالطريق^(٧) لأجل الغير، ثم يطرح^(٨).

(١) بضم الميم وكسر الراء. أى يشعر (بالحرمة) والتجلة لهم وربما كاذت (محترماً) يقول القشيري في ذلك: (ومن شرط المريد إذا زار شيخاً أن يدخل عليه بالحرمة وينظر إليه بالحشمة) الرسالة ص ٢٠١.

(٢) القشيري هنا متأثر بما حدث له وللإمام البيهقي من نفى وتشريد على يدى الكندري، فأصابهما ولغيف من الأثمة بمحنة عظيمة.

(٣) انظر الشرح، وانظر سيرة القشيري عند بسيونى فى الإمام القشيري وآثاره وتصوفه ط مجمع البحوث الإسلامية).

(٤) فى س (فالمحنة أصعب والحسرة أشد) وهى مقبولة أيضاً.

(٥) بتشديد الدال وفتحها.

(٦) بضم النون وكسر الفاء.

(٧) فى ت (بالطريقة) وهى صحيحة أيضاً والمقصود الطريق الصوفى.

(٨) بضم الميم وفتح الميم.

(٩) بفتح الميم.

(١٠) بسكون الطاء وفتح الراء.

وقد قال الشيوخ: إن الله قيض لهؤلاء القوم أحد رجلين: إما مؤمناً موافقاً^(١) وإما منافقاً مسخراً^(٢).

وأنشدوا:

أيها المدعى سليمى هواها لست منها ولا قلامة ظفر
إنما أنت فى هواها كواو ألحقت^(٣) فى الهجاء ظلماً بعمرو

فصل [٥٢]:

الأسماء على ضربين: منها ما ينصرف - وهو الاسم المتمكن، فالذى ينصرف يجرى بوجوه الإعراب، وما لا ينصرف ناقص النصيب من الإعراب.

الإشارة: كذلك الخلق^(٤)، منهم من^(٥) هو محدود^(٦) فى القسمة، يحظى بكل النعم^(٧)، من إقبال ووصال، وتحقيق آمال، وزكاء أفعال، وصفاء أحوال، بالنهار له توفيق، وبالليل لوصله تحقيق. يجرّون على البساط كما يريدون: «ولا يرهق وجوههم»^(٨) قتر ولا ذلة^(٩).

ومنهم من هو منحوس الحظ، إن قبل بالنهار أذيق^(١٠) بالليل طعم الرد، وإن وافى بالليل لحكم^(١١) الاتفاق تجرع^(١٢) بالغد كأس الصد.

(١) فى س بعدها (موافقاً موثقاً).

(٢) بتشديد الخاء وفتحها.

(٣) بضم الهمز.

(٤) فى ك (محدود) والصحيح ما أثبتناه.

(٥) هكذا فى ط وهى فى س (نعيم).

(٦) آية ٢٦ سورة يونس.

(٧) مشتبهة فى ط.

(٨) فى ك (بحكم) والمعنى يتقبلها، وربما كانت العبارة كلها فى الأصل (وإن وافى بالليل حكم الاتفاق.... إلخ).

(٩) بفتح الميم.

(١٠) بفتح الخاء وسكون اللام.

(١١) بتشديد الراء وفتحها.

(١٢) بفتح الهاء الأولى وضم الثانية.

فصل [٥٣]:

إذا صغرت^(١) اسماً ثلاثياً زدت ياء فيه وضممت أوله، فتقول في تصغير حجر حجير. كذلك إذا أراد الحق تحقير عبد في الرتبة زاد له شاعلاً^(٢)، فيتوهمه ذلك البائس نعمة وفضلاً ورفعة على أشكاله^(٣)، وهو في الحقيقة إذلال له، ونقصان لحاله ... وعلى هذا النحو تقاس أقسام التصغير.

(١) في ط و ت (أشكالاً به) والمعنى يتقبلها حيث إن النعم الممنوحة له في هذه الحالة من قبيل الامتحان والابتلاء.

(٢) بتشديد الفين وفتحها. (٣٠) بضم الشين.

فصل [٥٤]:

يقال في التعجب: ما أحسن زيداً!

وأحسن بزيد!

وزيد ما أحسنه!

فتنصب الاسم إذا تعجبت من صفته فتقول:

ما أحسن زيداً ! أي: أي شيء حسن ^(١) زيداً.

والإشارة: النصب أضعف الحركات، فإذا ^(١) دخل التعجب على الاسم خص بالفتح الذي هو أضعف الحركات، كذلك إذا دخل الإعجاب على المراء آل إلى أضعف ^(٢) الحالات، فإن الإعجاب أشد ^(٣) (..) الألفات.

(١) (فإذا دخل التعجب.... الحركات) مستدركة في هامش ت.

(٢) في ك (ضعف) وهي خطأ من الناسخ.

(٣) في ك (ابتداء) وفي بقية النسخ (أشد) وهذه هي الأقرب.

(.) بتشديد السين.

(..) بتشديد الدال وضمها.

فصل [٥٥]:

الحال منصوب.. تقول: جاء زيد فرحاً، ففرحاً نصب على الحال، واستحق^(١) النصب لأنه مفعول. والحال تأتي بعد تمام الكلام، فلما أتى بعد تمام الكلام^(٢) صار كالمستغنى^(٣) عنه، فنصب^(٤).

والإشارة المستغنى عنه له أضعف الحركات، وأقل نصيب من الاستحقاق، ولهذا قيل: علامة المخلوق أوصاف النقص. لأن المخلوق مستغنى^(٥) عنه، قال تعالى:

«والله الغنى وانتم الفقراء»،^(٦).

وأنشدوا ويعين مفتقر^(٧) إليك نظرتي فحقرتني ورميت بي من حائق
والحال لا يكون إلا نكرة. (ولذلك)^(٨) فإن صاحب الحال من القول
يجب ألا ينظر^(٩).

أحاله، لأنه إذا عرف حاله لا حظها، وإذا لاحظها أعجب بها، وإذا
أعجب بها تلاشت. وكان الأستاذ أبو علي الدقاق^(١٠) يقول: «أخص
الأحوال^(١١) ما استترت^(١٢) عن صاحبها».

(١) هي ت (واستحسن) وهي خطأ من الناسخ.

(٢) (فلما أتى بعد تمام الكلام) زيادة هي ت وهي مقبولة.

(٣) آية ٢٨ سورة محمد.

(٤) زيادة من عندنا لتمامك السياق.

(٥) أبو علي الدقاق شيخ القشيري وصهره: كان لسان وقته وأمام عصره أخذ عن النصر أباذي، وله
كرامات ظاهرة (الكواكب البرية للمناوي).

(٦) هي س (الأوقات) والسياق يتقبل (الأحوال ليتضح).

(٧) هي ك مشبهة وربما كانت (سترت).

(٨) بفتح النون. (..) بضم النون وكسر الصاد.

(٩) بتوين النون. (....) بتوين الراء وكسرهما.

(١٠) بفتح الباء. (.....)

فصل [٥٦]:

التمييز^(١) يوجب النصب، تقول: عشرون درهما .. تشبيها بالمفعول
حيث^(٢) أتى بعد تمام الكلام.
والإشارة: أن المفعول - لنقصانه عن الفاعل - خص^(٣) بالنصب لضعف
المفعول وضعف الفتحة.

(١) سقطت (التمييز) من ك.
(٢) هي من (متى) وهي مقبولة أيضاً.
(٣) بضم الخاء وتشديد الصاد.

فصل [٥٧]:

الهاء تلحق بعدد المذكر فيما دون العشرة، وتحذف من عدد المؤنث..
تقول: ثلاثة رجال، وخمس نسوة، وتضيف العدد هاهنا إلى المعدود.

واعتبر هذا نوعاً من المعادلة^(١)، فلما كان المؤنث أثقل من المذكر حذفت العلامة من لفظ عدده، ولما كان المذكر أخف من المؤنث زیدت الهاء في لفظ عدده فقالوا: ثلاثة رجال - والإنصاف في كل شيء عزيز^(٢)، فإن كان في أحد ضعف يجب أن يقوى^(٣) بغيره، وإن كان شيء قوة^(٤) حمل^(٥) ما يحتمله، ولهذا أمر في الشريعة بمواساة الفقراء، وكذلك تحميل العاقلة في الدية^(٦).

وقد^(٧) يفسر العدد بالمعدود نحو قولهم أحد عشر رجلاً، والتفسير يأتي بعد تمام الكلام فأشبه ما ذكرنا (من المفعول)^(٨).

(١) في ت (المتادات) وفي ك (المعاداة) وهما لا معنى لهما في السياق إذ انصرف السياق إلى (الإنصاف) في (المعادلة).

(٢) في ك (عشرون) (وربما كانت (عشر) ثم ضم إليها في الكتاب الواو والنون اللتين في (وإن) بعدها).
(٣) أرجع إلى كتاب المقول ص ١٨١ في موطن مالك ج٢ ومن أمثلة ما يمكن إيرادها هنا قوله: الكبير والصغير إذا قتل رجلاً جميعاً عمداً، أن على الكبير أن يقتل وعلى الصغير نصف الدية.

(٤) (وقد يفسر .. ذكرنا) سقط هذا في س وموجود في بقية النسخ.

(٥) (من المفعول) زيادة من عندنا تعريجاً على ما ذكرناه في الأبواب السابقة.

(٦) بتشديد الواو وفتحها. (..) بتوین التاء المرفوعة.

(٧) بضم الحاء وتشديد الميم المكسورة.

فصل [٥٨]:

من الأسماء ما هو اسم موصول^(١) لا تتم الفائدة إلا بصلته نحو: ما ومن^(٢) والذي واى.

والإشارة: كذلك من الناس من لا^(٣) يستقل بتدبيره، ولا يكون له بد^(٤) من غيره، ثم إن أراد الله^(٥) به خيراً سد^(٦) عليه طريق المخلوقين، وفتح عليه طريق^(٧) شهود الحق - سبحانه. وإن أراد به سوءاً فالحال^(٨) بالضد^(٩) (٧) (٨).

(١) وردت (موصوف) فى ب وهى خطأ من الناسخ.

(٢) سقطت (لا) فى س والسياق يتطلبها.

(٣) فى ط (بد) بالياء وهى مرفوضة.

(٤) فى ك (عز وجل) بدلا من لفظ الجلالة.

(٥) سقطت طريق من ت.

(٦) فى ك (فالمال) ونرجح أنها (المال) بالمد، وعندئذ فهى مقبولة.

(٧) فى ك (بالضد) أى غير كاملة الرسم، وهى فى ت (الضد) بدون الباء، وهى مقبولة.

(٨) السطران الأخيران بكاملهما ساقطان فى ب. وبدونهما لا تكتمل الإشارة المستبطة.

(٩) بفتح المهم. (..) بضم الباء وتشديد الدال مع التتوين.

(...) بفتح السين وتشديد الدال.

فصل [٥٩]:

إذا نسبت اسماً إلى اسم زدت في آخره ياء مشددة وأقر^(١)(^٢) الأول بحاله، تقول في النسب إلى جعفر جعفرى، وإلى عمر عمرى ... وكذلك حروفه وأقسامه.

والمنسوب يختص بالمنسوب إليه، وقيمة كل منسوب ما ينسب إليه، وإنما ينسب الشيء إلى الشيء إذا كان بينهما اختصاص.

والإشارة: يجب أن يطالع كل إلى ماذا ينسب^(٣)؟ إن كان رجل ينسب إلى الدنيا يقال له^(٢) دنياوى^(٣) فقيمه الدنيا^(٤).

وإن كان الغالب عليه حديث^(٥) الآخر نسب إلى الآخرة، فقيمه الآخرة.

كذلك جميع ما هو الغالب عليه، فليُنظر^(٦) كل^(٦) غالبه^(٧) يعرف^(٨) قدره^(٩).

(١) أى (وأبقى) أو (وأبقى) وهى فى ك (وأمر).

(٢) فى س (يقال فلان دنياوى).

(٣) فى س (دنياوى).

(٤) (فقيمه الدنيا) فى س وليست موجودة فى بقية النسخ.

(٥) سقطت (حديث) فى س.

(٦) سقطت (كل) فى ت.

(٧) هى فى س (عالمه) بفتح اللام. وهى مقبولة على أساس أن الحديث عن الدنيا والآخرة، ولكننا

رشدنا (غالبه) على أساس أن الكلام عما (يغالب) على المرء.

(٨) بضم الهمز وكسر القاف وتشديد الراء.

(٩) بضم الهاء.

(١٠) بسكون الراء.

(١١) بسكون الفاء.

(١٢) بسكون الدال وفتح الراء.

فصل [٦٠]:

الجموع مختلفة، فمن جمع هو أقل الجمع، ومن جمع هو جمع الكثير،
واقسام الجمع تكثر^(١). كذلك احكامه.

والجمع إنما يكون لأشكال تزوج^(٢)، وأمثال تجتمع، ثم يخبر^(٣) عن
المجتمعات باسم واحد.

والإشارة: الإنسان^(٤) اسم شامل^(٥) لجملة مخصوصة لها بنية^(٦)
مشهورة. فمن^(٧) كانت صفاته وخصاله وضيعة فجمعه جمع القليل،
ومن^(٨) كانت خصاله شريفة فجمعه جمع الكثير، وباختلاف احكامه،
اختلاف مقداره ومقامه.

والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، فهذه فصول في نحو القلوب
انشأناها على وجه الإيجاز، وبالله توفيق الخلق أجمعين، وعليه التكلان،
والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه
وسلم^(٩).

(١) في ط (تكسر) وربما كانت (تكسير) فالفصل كله يتحدث عن جمع التكسير.
(٢) في ط وحدها (تزدري) ولا معنى لها، وربما قصد من (تزدوج) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ومن كل
جملة زوجين اثنين﴾ بداية للتكاثر والتناسل.
(٣) واضحة في س ومشتبهة في بقية النسخ، وقد رجحنا (الإنسان) فهما تعددت الأشكال والألوان
فماهي الإنسانية تجمعها.
(٤) (اسم شامل) سقطت في س وموجودة في بقية النسخ وهي مهمة في توضيح السياق.
(٥) في ت (وان) وهي مقبولة أيضاً.
(٦) تنتهي س عند (والمآب)، وتنتهي ط بهذه النهاية كلها أي ابتداء من (فهذه فصول وسلم) أمات
فتتلى بسطر مشطوب وتتوقف عند كلمة (ومقامه) أماب فيؤرخ النسخ لعمله (بشعبان المبارك -
دامت بركة - لسنة ثمان وسبعمائة من الهجرة.

(.) بضم الهاء وفتح الباء.

(..) بكسر الباء وسكون النون.

(...) بفتح الفاء والميم.

القسم الثانى
شرح الكتاب ودراسته
تمهيد
بسم الله الرحمن الرحيم

فصل [١]:

النحو بين الظاهر والباطن

(الحمد لله رب العالمين، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

قال الأستاذ أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري - رحمه الله:

النحو (فى اللغة) هو القصد إلى صواب الكلام، يقال:

نحو تنحوه، أى قصدت قصده.

(وهذا النوع فى العربية يسمى نحواً لأنه القصد إلى صواب الكلام).

وأما نحو القلب فهو: القصد إلى حميد القول بالقلب، وحميد القول مخاطبة الحق بلسان القلب، وينقسم ذلك إلى:

المناداة والمناجاة: فالمناداة صفة العابدين، والمناجاة نعت الواجدین،
المناداة على الباب، والمناجاة على بساط القرب).

التعريف عند أهل العبارة

كثيراً ما تزخر مطولات النحو في بداياتها بتعريفات شتى للنحو تعبر عن اهتمام أصحابها بشيء أو بأشياء دون غيرها، فيبقى التعريف غالباً قاصراً عن بلوغ وصفه بالجامع المانع. ومع أن الشيخ لا يريد إضافة كتاب جديد في نحو أهل الظاهر إلا أنه أفاد فائدة عظيمة حين اختار هنا تعريفاً انتقائياً يكفي للدلالة على المهمة الأساس من ناحية، ويكفى - رغم اختصاره - ليكون مدخلاً للإشارات التي يستنبطها الشيخ في كنفه. ولكي ندرك اتجاهه في هذه الخصوص نرانا مضطرين إلى فتح الباب أمام بعض التعريفات المشهورة لنتبين أن الشيخ قد اختار من جملة الآراء المعتمدة هناك الركيزة الثابتة المحددة المعالم التي رآها كافية لتحديد ماهية هذا العلم من ناحية، وتستلزم في الوقت ذاته الانطلاق منها إلى معارف في علوم (أخرى) لها طابعها الخاص ولكنها تتكامل ضرورياً لخدمة السياق - من ناحية أخرى. وهذا التصور لعلم النحو يمنع من التداخلات .. كما أنه يكفي لإطلاق الإشارة - للفرض المنشود من وضع هذا الكتاب.

ولكي نوضح الأمر .. فإن التعريف بـ (صواب الكلام) يدعو على الفور إلى سؤال: وهل كل صواب الكلام يحقق المقاصد؟ والجواب لا بد أن يكون هذا الكلام الصائب موافقاً لمقتضى الحال - وهنا يبرز دور علم البلاغة؟ هل استوفى هذا الكلام الصواب المقاييس الفنية الدلالية والصوتية؟ وهنا يبرز دور العلوم النقدية ... وهكذا.

نعود فنقول: في الوقت الحاضر يكفي الشيخ أن يختار مادة كافية للتظير. فصواب الكلام في نحو الظاهر قضية يحكمها العقل والمنطق اللذان يشرعان قواعد ضابطة تتحكم في أواخر الألفاظ .. من هنا يصح له أن ينطلق نحو الإشارة ليبدأ حواراً وتظيره.

ولنتوقف قليلا مع نحو الظاهر في المطولات، ولنلاحظ قصور بعض التعريفات عن إدراك القاسم المشترك الأعظم للتعريف بالماهية.

يرى الجرجاني: «أن النحو علم بقوانين تعرف بها أحوال التراكيب العربية من الإعراب والبناء وغيرهما. فهو علم بأصول تعرف بها صحة الكلام وفساده»^(١).

أما ابن دريد فيذهب إلى : «نحوت الشيء أنحوه إذا قصدته»^(٢).

على حين يذهب صاحب اللسان إلى أن: نحأ الشيء ينحوه إذا حرفه. والنحو يسمى كذلك لأنه يحرف الكلام إلى وجوه الإعراب»^(٣).

ويقول ابن سيده : «الانتحاء اعتماد الإبل في سيرها على الجانب الأيسر، ثم صار الانتحاء الميل والاعتماد في كل وجه»^(٤).

ويتجه ابن جنى إلى أن «النحو انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره، كالتثنية والجمع، والتحقيق والتكثير والإضافة والنسب.. إلى غيره».

وفي شرح الأشموني على الألفية يقول: «إن النحو: هو العلم المستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب الموصلة إلى أحكام أجزائه التي ائتلف منها»^(٥).

ويعلق الصبان على الأشموني بأنه «علم يبحث فيه عن أحوال آخر الكلمة».

(١) التعريفات ص ٢١٤.

(٢) الجمهرة ج٢ ص ١٩٧.

(٣) اللسان مادة ن ح و.

(٤) الخصائص ج١ ص ٣٤ ط دار الكتب.

(٥) الأشموني ج١ ص ١٥.

ونتهى هذا الموضوع برأى للسكاكى حيث يقول: «النحو هو أن تنحو معرفة كيفية التركيب فيما بين الكلمة»^(٦).

التعريف عند أهل الإشارة

هو القصد إلى حميد القول بالقلب فى المناداة والمناجاة ونتوقف عند كل لفظ فى التعريف لنلقى الضوء على المرامى البعيدة للشيخ من هذا العلم، ومن التنظير وبين نحو العبارة.

حميد القول بالقلب: ونبدأ بملاحظات لها أهميتها فى الصياغة:

١ - حميد هنا يقابلها صواب هناك.

٢ - استخدام القشيري هنا لفظ «انقول» وتجنب لفظ «الكلام».

٣ - القلب هنا يناظره اللسان هناك.

معنى هذا أننا أمام متناظرين : صواب الكلام باللسان هناك، وحميد القول بالقلب هنا .. وهذا تنظير دقيق، لأنه إذا كان الأول علماً مكتسباً وضعياً يقعد القواعد الضابطة لحفظ الكلام - مفرداً ومركباً - من الخطأ والوقوع فى الفساد، فإن الثانى نطق بالقلب غايته ذكر الله سبحانه بالقول الحميد من خلال المناداة والمناجاة.

فإذا كان «اللسان» فى نحو الظاهر هو عمدة الأمر، ومناطق الأمل. فإنه فى نحو القلب يأتى فى درجة أدنى من ملكات أخرى هى القلب والروح^(٧) وسر السر .. على نحو ما نفصل فى مواضع مختلفة من الشروح. وآية ذلك ما يقوله الشبلى:

(٦) مفتاح العلوم ص ٤١.

(٧) بتشديد الراء.

ذكرتك - لا أنى نسيتك لحظة

واضعف ما فى الذكر ذكر لسانى

ويقول الجنيد: «التوحيد قول القلب»:

وينظر الشيخ زكريا الأنصارى إلى ما يجرى على اللسان عنده هذه الصائفة بأنه من قبيل المجاز، أما الحقيقة فهي لهذا الكلام النفسى الذى ينطق به القلب. ولماذا نذهب بعيداً والدين يرشدنا إلى أن «الأعمال بالنيات» والنيات - بطبيعة الحال - موضعها القلب، وهى إذا انعقدت على شئ دفعت بالبدن كله إلى ممارسة الفعل .. فهى الأسبق وهى الأخطر.

لماذا تجنب الشيخ استخدام لفظ «الكلام» فى نحو القلب؟

هذا سؤال يطرح نفسه..

القشيري عالم من علماء الكلام، وهو يدرك أن «الكلام» على الحقيقة صفة إلهية قديمة قدم الذات كالوحدانية والسمع والبصر والإرادة والعلم والحياة.

ونحن لو تتبعنا دوران مادة (ك ل م) فى القرآن الكريم لوجدناها تتحدث فى غالبية المواضع التى وصلت إلى الخمسين موضعاً إما عن الله سبحانه أو عن إنسان فى موقف غير عادى مألوف، أو أن يكون مأذوناً به من الرب سبحانه، أو للموتى .. ونحو ذلك من المواقف غير المألوفة فى الطبيعة. لأجل هذا احترز القشيري فى استخدامه لفظ البديل واختار قول القلب أو نطق القلب.. ولا ضير على أهل النحو التقليدى أن يستعملوا اللفظ كما جرت أعرافهم .. أما هنا فالدقة واجبة.. لأن اتوجه هنا نحو المولى سبحانه، وظاهرة انتقاء الكلمات هنا بعناية فائقة ملمح من ملامح التأليف فى هذا الكتاب .. لأن الاحتشام مطلوب فى مقام الملوك!

هنا .. فى كثير من الأحيان يكون الصمت أولى من الكلام، بل تكون العبادة تأملاً مديداً فى أرجاء الكون - يقول الحلاج:

فلما رأتى الوجد أنك حاضرى

شهدتك موجوداً بكل مكان

فخاطبت موجود بغير تكلم

ولاحظت معلوماً بغير عيان^(٧)

ويقول القشيري: «إذا ورد كشف خرسات العبارات عند ذلك، وإنما يؤثر أرباب المجاهدات السكوت .. لأنهم علموا ما فى الكلام من الآفات وحظ النفس، والميل إلى التميز عن الأشكال»^(٨).

والفصاحة هنا مخبأة، وليست مكشوفة يزهو بها اللسان:

سر الفصاحة كامن فى المعدن

لخصائص الأرواح لا للألسن^(٩)

الميل عن القصد فى الحالين:

اشترك النحوان فى لفظ «القصد»، وأوضحنا ذلك وشرائطه فيما سبق.. والآن نبحث مدى ما يحدث إذا أصيب كل منهما بما يبتعد به عن القصد.

الميل عن القصد فى نحو الظاهر يؤدى إلى اللحن ... وهو خطأ، أما فيما يختص بنحو القلوب .. فهو خطيئة، لأن المسألة هنا تتصل بأذكار للمولى سبحانه، استمع مثلاً إلى قول القشيري عند الآية الكريمة:

(٧) تاريخ بغداد المجلد ١٤ ص ٣٩٠.

(٨) الرسالة ص ٦٣.

(٩) قوانين حكم الإشراف ط الشروق.

«ولله الأسماء الحسنی فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه
سيجزون ما كانوا يعملون».

(سبحان من تعرف إلى أوليائه بنعوته وأسمائه فعرفهم^(٩) أنه هو وبأى
وصف هو، وما الواجب في وصفه وما الجائز في نعته وما الممتع في حقه
وحكمه، فإن العقول محجوبة عند الهجوم بذواتها لما يصح إطلاقه في
وصفه.. وأما قوله: «الذين يلحدون» فالإلحاد الميل عن القصد وذلك إما
بالزيادة أو بالنقصان، فأهل التمثيل زادوا فألحدوا وأهل التعطيل نقصوا
فألحدوا^(١٠)).

والقشيري يقصد أن المثلة والمشبهة فسروا القرآن على ظاهره
فتصوروا لله أيد وأرجلا ووجها وعيوناً .. إلخ لذلك قبحهم الله.

وأما المعطلة فهم الذين جردوا الذات من الصفات - إشارة إلى بعض
المعتزلة - حتى لا تكون هناك إلا الذات زاعمين أن ذلك هو التوحيد
المطلوب في حقه تعالى.

بين المناداة والمناجاة:

قبل أن نفهم معانيهما الاصطلاحية نوضح الجانب اللفوي لهما فإن
هناك ارتباطاً وثيقاً بين الاصطلاح واللف.

المناداة من النداء .. وهو رفع الصوت وظهوره. وأصل النداء من الندى
أي الرطوبة. ويقال صوت ندى أي رفيع.
وناداه مناداة أي صاح به.

والمنتدى مجلس القوم وموضع حديثهم.

(٩) بتشديد الراء.

(١٠) لطائف الإشارات تحقيق د. بسيوني ج ١ ص ٥٩١.

أما المناجاة: فهي واحدة من النجوي أي الحديث الخفى، وناحيته أى ساررته، وأصله أن تخلو به في نجوة من الأرض، ومن النجاة أى تعاونه على ما فيه خلاصه.

وتتجو بسرك من أن يطلع عليه أحد.

قال تعالى:

﴿ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم...﴾

فالنجو السر بين اثنين، وكذا ناجيته.

أما فى الاصطلاح:

فالمناداة: الصلاة المطلوبة من كافة المسلمين، فهى فى جوهرها تبدأ بالنداء (الأذان) وينادى المصلى ربه طوال قيامه وركوعه وسجوده. فإذا زدنا الاصطلاح تحديداً وجدنا أن المقصود بها هنا «المقامات». فالتصوف مقامات وأحوال.

المقامات هي تلك الجهود الكسبية التى يمارسها العبد فى المراحل الأولى من الرحلة الصوفية كالتوبة والزهد والورع والتوكل والصبر والرضا. وإذا كانت (المقامات) كلها من الجهود فإن (الأحوال) من عين الجود، أى من فضل الله وبه.. وسنتحدث عنهما كثيراً جداً فى هذا الكتاب.. ولهذا نكتفى هنا بهذا القدر.

فنسمح لأنفسنا أن نقول إن الشيخ هنا يريد أن يحدد تعريف النحو بقوله: «وحميد القول مخاطبة الحق بلسان القلب بالمناداة والمناجاة».

وهذه هي القاعدة الأساس للوصول إلى التوحيد - كما سنرى، ذلك لأن المناجاة تبدأ من طرف العبد ثم يأتى وقت يكون الرضا الإلهى قد وصل إليه، فتجرى الأمور فى المناجاة على شكل خطاب وجواب، أى من

إلهية تنثال على عبده من الرجاء والخوف والأنس و الهيبة والبسط والقبض .. إلخ.

ويجب أن يلتزم العبد أدب (السكون) والصمت عندما تتجلى (الهيبة) فلا يكون منه أو فيه حس ولا خبر^(١١). لأزه لم يعد هناك إلا (واحد).

وإذا كانت المناداة محددة بمواقيت ومنازل ومراتب، فإن المناجاة لا تخضع لشيء من ذلك لأنها مرتبهة بأفضال الله في البداية وفي الإيقاف وفي الاستمرار .. وأحياناً - وهذه نكبة عظمى على أصحابها - يصدر الأمر بزوالها فترة تطول وقد تقصر .. وقد تتلاشى!

ومع أننا سنعود إلى حديث «المناداة والمناجاة» في فصل قادم إلا أننا نشعر بضرورة الإفاضة هنا في هذا الموضوع حتى يكتمل فهم الفصول التالية مباشرة.

وقد اجتمعت المناداة والمناجاة في قوله تعالى حاكياً عن موسى عليه السلام: «وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً».

ويفسرها القشيري هكذا: «لنجدى مزية على النداء، وجمع لموسى الوصفين، النداء في بدايته، والنجدى والسماع في نهايته، فوقفه الحق وناداه، وفي جميع الحالين تولاه»^(١٢).

ومن العبارة الأخيرة يتضح صواب ما استنبطناه من إشارة الشيخ هنا في هذا الفصل: فالمقصود بالمناداة والمناجاة: المقامات والأحوال.

والأحوال تعنى أن العبد في كنف مولاه، هو الذى يسبغ عليه بمقدار استحقاقه، فعلى قدر الجهود يكون الجود.

(١١) ترتب السلوك للإمام القشيري تحقيق بسببوني.

(١٢) اللطائف ج ٢ ص ٤٢٢.

والمناجاة وسيلة الصادقين إذا اشتدت بهم؛ البلوى فهم يفزعون إلى الوقوف عند محلها على نحو ما يفصل العلاج واصفاً هذا الحضور الدائم.

والله ما طلعت شمس ولا غربت

إلا وحبك مقرون بأنفاسي

ولاهممت بشرب الماء من عطش

إلا رأيت خيالا منك في الكاس

ولا خلوت إلى قوم أحدثهم

إلا وانت حديثي بين جلاسي^(١٣)

هذه الملازمة أصبحت مبعث راحتهم ومناط آمالهم بل هي شفاؤهم وعلاجهم.

إذا ما تمنى الناس روحاً^(١٤) وراحة

تمنيت أن أشكو إليك فتسمعا

وهم في سبيل تحقق هذه المناجاة يجتهدون غاية الاجتهاد، ويستفرغون نهاية الوسع، وتراهم - رغم علو أقدارهم - ينزلون في السؤال والدعاء منزلة العصاة، ويقفون موقف المعتذر، ويخاطبون بلسان الاستغفار والتتصل:

وما رمت^(١٥) الدخول عليه حتى

حلت محله العبد الذليل

(١٣) ديوان العلاج المقطعة رقم ٢١.

(١٤) يسكون الواو.

(١٥) بضم التاء.

وهذه رابعة - بعد أن ملأت الليل كله بالدعاء والاستغفار - يعلو صراخها قائلة: «ما أحوج استغفاري إلى استغفار» ذلك لأنها قد تشعر في بعض الأوقات بدبيب خفى يتسرب إلى أعطافها فيجعلها تشعر أن عملها هو الذى أوصلها إلى شيء ما، فهي تسرع لكي تطارد هذا الدبيب الخفى، وتسقط عن نفسها التدبير، وتمتلئ بحقائق وأفضال التنوير. فالفضل الإلهي - وحده - هو مناط الرجاء في الوصول، وعمل الإنسان - وإن كان مطلوباً وضرورياً - إلا أنه أهل المناجاة ليس ذا بال. لا يكفي عمل العبد، بل لأن الحبيب هناك ينتظر الوجوه الناضرة التي ستبقى إلى ربها ناظرة. تقول ريحانة - وهي زاهدة عظيمة الشأن عاصرت إبراهيم بن أدهم:

بوجهك لا تمذبني فإني

أؤمل أن أفوز بخير دار

وانت مجاور الأبرار فيها

ولولا أنت ما طاب المزار^(١٠)

فإذا ما سارت المناجاة في طريقها على هذا النحو ضمنت للعبد ألا يتسرب إليه - وهو يحث خطاء - نسيان أو طغيان، أو تنتابه غفلة أو عصيان، ويكون المنتهى كما قلنا منذ قليل الوصول إلى التوحيد: «فإذا كوشف العبد بالتوحيد شهد أن القائم عليه والمجرى عليه والممسك له والمتقل^(١١) إياه من وصف إلى وصف - واحد لا يشاركه قسيم ولا يضارعه نديم. ومن علم أنه بالله علم أنه لله، فإذا علم أنه لله لم يبق فيه نصيب لغير الله، فهو مستسلم لحكم الله، لا معترض على تقدير الله، ولا معارض لاختيار الله، ولا معرض عن اعتناق أمر الله»^(١٢).

(١٠) بسكون الراء.

(١١) بضم المهم وتشديد القاف وكسرهما.

(١٢) اللطائف المجلد الثاني.

وليكن بعد ذلك ما يكون، فإذا كانت المثوبة فيها، وإلا فمرحى بعقوبة
المحبيب لحبيبه:

أريد، لا أريدك للشباب

ولكنى أريدك للعقاب

فكل ما أرى قد نلت منها

سوى ملذوذ وجدى بالعذاب

الوجد والواجد:

يفرق الشيخ في رسالته بين (التواجد والوجد والوجود) فالتواجد
استدعاء الوجد بضرب اختيار، وليس لصاحبه كمال الوجد، إذ لو كان
لكان واجداً. وباب (تفاعل) أكثره على إظهار الصفة والتكلف.

أما (الوجد) فهو يصادف قلبك، ويرد عليك من حزن أو طرب بلا تعمد
أو تكلف. والمواجيد ثمرات الأوراد، فكل من ازدادت وظائفه ازدادت من
الله تعالى لطائفه (والمواجيد جمع وجد على غير قياس كما يرى الشيخ
زكريا في هامش الرسالة) عند الموضع ذاته.

أما (الوجود) فهو الارتقاء عن الوجد، إذ لا يكون (وجود) الحق إلا بعد
خمود البشرية كما يخمد ضوء العين في ضوء الشمس، ولا تكون الغلبة
إلا لضوء الشمس كذلك تخمد البشرية عند ظهور سلطان الحقيقة^(١٥).

فالتواجد بداية، والوجد واسطة والوجود نهاية. وترتيبها كمن شهد
البحر ثم ركب البحر ثم غرق في البحر.. اللهم اجعلنا من الفارقين!

فالمسألة على الترتيب التالي: قصود ثم ورود ثم شهود. ويحسن أن

(١٥) الرسالة من ٣٦.

نضيف هنا رأى الكلاباذى فى الوجد: الوجد بشارات الحق بالترقى إلى مقامات المشاهدة، ونحس ذلك عن قرب من قول الجنيد (والحظ^(٠) المناجاة والوجد فى النص):

وتحققـتـك فى سـرى

(فـنـاجـاك) لـسـانى

فـاجـتـمـعـنـا لـمـعـان

وافـتـرـقـنـا لـمـعـانى

إن يـكـن غـيـبـك^(٠٠) التـمـ

ظـيـم عن لـحـظ عـيـانى

فـلـقـد صـيـرك^(٠٠٠) الـوـجـد

مـن الأـحـشـاء دانى^(١٦)

وقبل أن نغادر هذا الموقع علينا أن ننبه إلى:

مقصود الشيخ بالباب والبساط كما جاء فى المتن، فنقول إن ممارستا الطويلة لأسلوبه فى مصنفاة تكشف عن تصويره أن مراحل الدخول والتمكين تتدرج من الباب إلى البساط إلى العقوة أو الساحة ثم السدة^(٠٠٠٠) (انظر مثلا لطائف الإشارات^(١٧)) وهو تصور يراد به إفهام المريدين والمتذوقين.. لا أكثر حتى يعرف كل منهم موقعه فى الخدمة، فلا ينبهر ولا يتجاوز.. بل يتأدب ويقف عند حده.

(٠) يسكون اللام وفتح الحاء.

(٠٠) بتشديد الهاء وفتحها.

(٠٠٠) بتشديد الهاء وفتحها.

(١٦) التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذى ص ١٢٥.

(١٧) لطائف الإشارات المجلد الثانى ص ١٥.

(٠٠٠٠) بضم السين وتشديد هاء.

فصل [٢]:

أقسام الكلام - اسم - فعل - حرف

(الكلام اسم، وفعل، وحرف جاء لمعنى:

وفى نحو (القلوب): الاسم هو الله والفعل ما كان من الله، والحرف إما يختص بالاسم فيوجب له حكماً، أو يختص بالفعل فيقتضى له نسبة، وكما أن الحرف إذا دخل على الاسم أوجب له إما حكم النصب أو الخفض أو غيره، فالوصف الذى هو العلم يوجب لله حكم العالم (٠) .. وكذلك القدرة والحياة وسائر صفات الذات.

وكما أن من الحروف ما يوجب للفعل حكم النصب والجزم فوقوع أفعال الحق على أوصاف يوجب له نعت الاسم فى الخلق).

ربما يشعر القارئ غير المتمرس بأسلوب القشيري بشيء من عسر الفهم لهذا الفصل، وقد يسرع فيتهم الشيخ بالإلفاظ، والحقيقة تخالف ذلك، فالشيخ هنا يضع دستوراً للذكر الصوفي وأبعاده إذا ارتبط بالتفكير في الأسماء والصفات الحسنی .. على النحو التالي:

١- (الله) هو اسم الذات، وهو للتعليق دون التخلق، أى ليس لأحد من المخلوقين أن يتسمى به، وكذلك (الرحمن) «قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن».

٢- صفات الذات، وهى تلك الصفات القديمة التى قامت بها الذات الإلهية منذ الأزل وهى: القدم والقدرة والإرادة والعلم والحياة والكلام والسمع والبصر.

٣- صفات الفعل، وهى تلك الصفات المعبرة عن فعله سبحانه فى الكون: كخالق الوهاب والرزاق والمحى والمميت والهادى والمنعم .. ونحوها، فهى تتجلى فى الكون والعباد، وتنعكس آثار التجليات حسبما تقتضى الصفة من المعانى، فليس فى الكون والطبيعة إلا مخلوق بيد الخالق، مرزوق من قبل الرازق، حى^(١) أحياء المحيى .. إلخ.

وما دام الفاعل فى الكون هو (الله) وحده، فإن الاسم - على الحقيقة - اسمه، قال تعالى معلماً نبيه ﷺ كيفية الذكر: «واذكر اسم ربك»، وقال تعالى مذكراً نبيه ﷺ رد^(٢) كل فعل لفاعله الأصيل. «وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى» وقال: «فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم».

وقد اجتمع اسم الذات واسم الفعل فى أول آية نزلت من القرآن الكريم: «اقرأ باسم ربك ... الذى خلق» الأولى عن الذات، والثانية عن الصفات، وهكذا فإنه إذا كان الاسم - على الحقيقة - هو (الله) فإن

(١) بتشديد الهاء.

(٢) بتشديد الدال وفتحها.

الفاعل على الحقيقة هو سبحانه والفعل على الحقيقة له سبحانه، فإذا صرفنا إلى الإنسان فعلاً في الكون فهذا من قبيل التسمية النسبية باعتبار الإنسان العلة القريبة أو السبب القريب، أما لو تغاضينا عن هذه النسبية لأرجعنا الأمر كله الله، «فكل شيء له وبه ومنه وإليه» - كما يقول القشيري. وأرجو القارئ أن يعيد قراءة هذه الجملة الأخيرة ليتضح له كيف تقوم (الحروف) بدور (الرباطات) كي تؤدي المعنى المراد الذي ينبغي استحضاره في كل لحظة. والمتصوفة بطبعهم يتذوقون هذا جيداً فتراهم لا يحثون المريدين على القول: هذه لى أو منى أو بى.. ونحوها، لأنها في نظرهم تشير إلى دعوى النفس وأن العبد يأتي منه شيء، والمفروض أن يتخلص أحدهم من كل دعوى وادعاء، لأن الدعوى والادعاء في نظرهم من قبيل الشرك الخفى^(١)، فالمريد - على الحقيقة - من ليس له إرادة، لأن: الإرادة بالكلية لله وحده، ولهذا فإن لفظ «الحق» أكثر الأوصاف جريانا على السنة الطائفة. وبهذا التوضيح تظهر لنا أهمية الرؤية الصوفية للموضوع من كل جوانبه، وهم يحرصون على هذه الرؤية في سلوكهم ونصائحهم ووصاياهم لأنفسهم وفي تفسيراتهم الإشارية لكتاب الله الكريم.

ونشعر أن هذه النظرة الخاصة التي يتفرد بها الصوفية عن غيرهم من المفكرين كالمتكلمين والفلاسفة مثلاً بحاجة إلى متابعة وتأصيل. ففي رأينا أن ذلك من أجل^(٢) الإضافات التي تقدمها الحقيقة للشريعة كي يتدعما في نهاية الأمر، على عكس ما يظن البعض بدافع الجهل أو الفرض أو المرض من وجود تنافر بينهما، وذلك الاتهام الموجه للصوفية زور وبهتان.

ولنبداً بتوضيح ذلك فيما يختص (بالذكر الصوفى): أطواره ومذاقاته - وعندئذ سيصبح معنى الفقرة واضحاً. إذا ما خلا الصوفى إلى ربه، ولزم

(١) انظر (التحبير في التذكير) تحقيق بسيونى. طبعة عالم الفكر.

(٢) بتشديد اللام وكسرهما.

الصمت، وبدأ التأمل المديد والتفكير والتدبر.. انطلق بلا حدود فى سياحة لا نهائية، وأخذ يقفز ببصيرته متفلاً فى أرجاء الكون وانطبيعة والإنسان، يتابع عظمة الخالق المدبر الوهاب المنعم.. فيما خلق ودبر ووهب وأنعم...، وهنا تكون الطبيعة أقرب إليه مما بعد الطبيعة، والمتاح أقرب من البعيد المنال. معنى هذا بكلمات أخرى تتفق مع كتابنا هنا: أن العبد يبدأ بمتابعة تجليات صفات (الفعل) الإلهى للفاعل (الحق) سبحانه.

ولكن التركيز ينتهى بهذه السياحة التأملية عند (صفة) واحدة فقط ولتكن (صفة) (المنعم) مثلاً، وهنا تنحصر الدائرة فى : إنعام الله.. ما أكثر نعم الله على عباده فى السماء وفى الفضاء وفى الماء وعلى الأرض وتحت الأرض.. أشياء لا تقع تحت حصر ولا حد .. ثم إنعام المنعم على الإنسان نفسه.. أفضال متلاحقة مع كل نفس يتردد فى الصدر، بل إن هذا النفس فى حد ذاته نعمة كبرى لأنه الحياة نفسها، بل هناك نعم أخرى تغيب عن وعى الكثيرين، وليست من قبيل المنح بل من قبيل المنع، ولو تفكر الإنسان نعرف أن نعم المنع أكثر عدداً من نعم المنح، فمثلاً: أنا هنا فى هذا المكان، وكنت أزمع أن أصل إلى المكان الفلانى، ولكن شيئاً ما صعب على الانتقال إلى هناك، فأصابنى الجزع والضيق، ثم ما لبثت حتى جاءت الأخبار بوقوع حادثة هناك أو فى الطريق إلى هناك.. حمداً لله.. لقد نجوت من انكارثة! إن الإنسان بطبعه يفرح لما يصيبه من نعمة المنع.. كالصحة والولد والمال ولكنه قليلاً ما يفطن إلى ما جنبه ربه من ويلات.. وإذا فينبغى عند أهل الصفة الشكر لله فى كل حال مهما كانت الحال: منحاً أو منعاً.

ونعود إلى هذا العبد الذاكر فنجد قد مضى فى الدروب إلى نقطة أبعد، إنه يتذكر (مصدر) هذه النعم، إنه (المنعم)، (ذاته)، ويتلبث وقتاً طويلاً غارقاً فى هذا (الوصف). ويبقى كذلك ما شاء له الله أن يبقى فى الذكر والتأمل والتفكير .. ما معنى هذا كله؟

معناه أن (صفات الفعل) تؤخذ هنا لا كما تؤخذ عند الفلاسفة أو المتكلمين حيث يثيرون جدلاً نظرياً فيه مهارات العقل ولكن فيه برودة الرخام، مناهج من التفكير لا تجدى فى إنعاش الوجدان وتدفئة العاطفة. إنها هنا أسلوب حياة، فالجماليات تؤدي إلى (الجميل) سبحانه، والجلاليات توصل إلى (الجليل) سبحانه، والأرزاق تنتهى إلى (الرازق) سبحانه، والبدائع التى لا حصر لها تتصل (بالبديع) سبحانه .. وهكذا يرتبط الذكر بالسلوك. فإذا تحقق ذلك على وجوه تتضمنها تعاليم الصوفية وأورادهم انثالت الأنوار على خاطر المتأمل الذاكر المتفكر، وانفتحت له المغاليق، وحملته أجنحة نورانية إلى عوالم شفيفة لا قبل له بها، وسمع وأبصر من وراء الغيب ما لم يخطر على قلبى أو أذن أو عين، وعلى الجملة أصبح كل شيء (للحق)، وأصبح (الفاعل) الحقيقى (لفعل) هذا الإنسان الواصل المتصل هو (الحق)، هو السند وهو الوكيل، وهو القائم وهو المتصرف، لقد ذابت الإرادة الإنسانية فى الإرادة الإلهية، ولم يعد هناك إلا واحد .. له الأمر كل الأمر. وعندما يصل الذاكر إلى هذا الموقع «يجد له حلاوة فى فيه وفى حلقه، ويجد منبع هذه الحلاوة فى أصول أسنانه فيطبق فاه على هذا الشراب وهو حينئذ لا يخاف إلا من حائل يحول بينه وبين هذا الشراب الذى يمتد إلى كل الجوارح»^(٢).

نماذج للذكر ومبناه:

يقول النورى متذكراً وذاكراً (قدرة القادر):

تأمل بعين الحق إن كنت ناظراً

إلى (صفة) فيها بدائع فاطر

ولا تعط حظ النفس منها لما بها

وكن ناظراً بالحق قدرة قادر^(٣)

(٢) ترتيب السلوك فى طريق الله تعالى، تحقيق بسيونى ص ٢٥.

(٣) طبقات السلمى ص ١٥٥.

ويتحدث ذو النون المصرى عن استحضارهم الدائم (لصفة الفعل) فيقول: «ما هممت بمعصية فذكرت (جلال) الله إلا استحييت منه»^(٤).

وقالوا: «الشكر هو الغيبة عن الشكر برؤية (المنعم)»^(٥).

ويقول القشيري عند قوله تعالى: «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون»: «إن كنت لا تصل إلى البر إلا بإنفاق محبوبك وهو المال فمتى تصل إلى (البر) وأنت تؤثر حظوظك؟»^(٦).

وتتضح أهمية احتلال قضية (الذات وصفات الذات وصفات الفعل) في تفسيرهم الإشارى على نحو أخذ في منهج القشيري في «لطائفه».

فيقول: «خوف»^(٧) العوام بأفعاله فقال (واتقوا يوماً) و (اتقوا النار) موصولتين بوصفى العزيز ذى الانتقام، وخوف الخواص بصفاته: (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله) وقال: (وما تكون فى شأن ... إلا كنا عليكم شهوداً)، وأما خاص الخاص فخوفهم بنفسه (ويحذركم الله نفسه).

ويكاد القشيري فى أحد المواضع يضع صياغة لورد من أوراد الصوفية ينبى على ترديد (الاسم) الذى هو (الله) بصورة تهز مجامع القلب، وترتفع بالخواطر إلى آفاق بعيدة كل البعد، سامية كل السمو .. استمع إليه فى كنف بسملة (آل عمران):

و(الله) لفظ لو قرع أسمع أهل المعرفة لم تذهب (فهومهم)^(٨) ولا علومهم إلى معنى غير وجوده سبحانه وحقه، وحق هذه القالة أن تكون مقرونة بشهود القلب، فإذا قال بلسانه (الله) أو سمع بأذانه شهد بقلبه

(٤) التعرف للكلاباذى ص ٨٢.

(٥) التعرف للكلاباذى ص ١١٩.

(٦) اللطائف ج ١ ص ٢٧٠.

(٧) بفتح الخاء وتشديد الواو وفتحها.

(٨) بضم الفاء والميم.

(الله). وكما لا تدل هذه (الكلمة) على معنى سوى (الله) لا يكون مشهود قائلها إلا (الله)، فيقول بلسانه: (الله) ويعلم بفؤاده (الله)، ويعرف بقلبه (الله)، ويحب بروحه (الله)، ويشهد بسره (الله)، ويتعلق بظاهره بين يدي (الله) ويتحقق بسره (الله) ويخلو بأحواله (الله) وفى لله، فلا يكون فيه نصيب لغير (الله)، وإذا أشرف على أن يصير محوفاً فى (الله) (لله) (بالله) تداركه الحق سبحانه برحمته فيكاشفه بقول (الرحمن الرحيم) استبقاء لمهجتهم أن تتلف، وإرادة^(٧) فى قلوبهم أن تتقى، فالتلطف سنة منه سبحانه لئلا يفنى أولياؤه بالكلية»^(٧).

فإذا تم انشغال الذاكر باسم الله الأعظم دون سواه على هذا النحو أفاء الله عليه من أنواره وخيراته ففى حديث قدسى «من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين»^(٨).

ونتابع القشيري وهو يؤصل - تحت ظلال القرآن الكريم - هذه القاعدة الأساسية فى (دستور الذكر) فتجده عند قوله تعالى.

«ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون».

يقول: «رزق الأشباح والظواهر من طيبات الغذاء، ورزق الأرواح والسرائر من صنوف الضياء، وحقيقة الشكر على هذه النعم تكون بالغيبة عنها بالاستغراق فى شهود المنعم».

وعند تفسير لفظة (السائحون) التى جاءت فى سورة التوبة يقول: «السائحون الذين يسبحون فى الأرض على جهة الاعتبار طلباً للاستبصار،

(٧) بسملة آل عمران اللطائف ج ١ ص ٢٢٩ ومعنى (المحو) فى الله حسب المنهج القشيري المحو فى إرادة الله فقد جلت الصمدية عن أن ينمحي أحد فيها وسنعود لتوضيح هذا المعنى فى مواضع كثيرة

من شروحنا هنا.

(٠) بفتحيتين على التاء.

(٨) التعرف ص ١٢٤.

ويسبحون بقلوبهم فى مشارق الأرض ومغاربها بالتفكر فى جوانبها ومناكبها، والاستدلال بتغيرها على منشئها، والتحقق بحكمة خالقها بما يرون من الآيات فيها، ويسبحون بأسرارهم فى الملكوت فيجدون روح^(١) الوصال، ويعيشون بنسيم الأنس، والتحقق بشهود الحق^(٢) وهو يرتب درجات أهل الذكر فى الوصول إلى الله على هذا النحو:

«الترقى من شهود آياته إلى إثبات ذاته - سبحانه، فالتحقق بالآيات التى هى (أفعاله) ومراعاة ذلك وهى الأولى، ثم إثبات صفاته وهى الثانية، ثم التحقق بوجوده وذاته وذلك غاية الوصول» وهو يتناول المعنى نفسه من حيث (المدد) الإلهى المنثال على الذاكرين طبقاً لمراتبهم فيقول: «تعرف سبحانه إلى الخلق بآياته الظاهرة على قدرته وأفعاله، وتعرف إلى الخواص منهم بآياته الدالة على نصرته التى هى أفضاله وإقباله، وظهر لأسرار خواص الخواص بنعوته الذاتية التى هى جماله وجلاله فستان بين قوم وقوم» بل نراه وهو يستخرج لطائفه من معجزات الأنبياء عليهم السلام يطبق المنهج ذاته، فهو يتدرج مع معجزة موسى عليه السلام مثلاً بحيث يجعلنا نلاحظ أن ما حدث لعصاه سبق ما حدث ليدى وهى تخرج من جيبه بيضاء من غير سوء، «لأن العصا - وإن كانت معه من زمن - إلا أن يده أخص^(٣) به لأنها عضو له، فكاشفه أولاً برسم من رسمه، ثم أشهده من ذاته فى ذاته ما عرف أنه أولى به منه، فلما رأى انقلاب وصف^(٤) فى يده علم^(٥) أنه ليس بشيء من أمره بيده».

وهنا نلاحظ كيف تتصل المكاشفة أولاً بالصفات ثم بالذات، ونلاحظ ثانياً التأديب الإلهى لنبيه حتى لا يصيبه الغرور، وأنه ينبغى عليه أن يرد

(١) اللطائف المجلد الثانى ص ٦٧.

(٢) بسكون الواو.

(٣) بتشديد الصاد وضمها.

(٤) بتثوين الفاء وكسرها.

(٥) بفتح العين وكسر اللام.

كل شيء سبحانه. ونلاحظ أخيراً التدرج من الفرق إلى الجمع - حسب المنهج الصوفي في الأحوال. دقة في الفهم والتدرج نلاحظها على المستوى العام في كل مصنفات شيخنا - رضوان الله عليه.

فصل [٢]:

تتمة في

الاسم والفعل والحرف

(والاسم في نحو القلب ما يكون مخبراً عنه في مخاطبة الحق، والفعل ما كان خبراً في مخاطبة العبد مع الحق.
والحروف رباطات تتم بها فوائد نطق القلب).

* * *

فصل [٤]:

الكلام المفيد

(والكلام المفيد ما كان اسماً واسماً، أو فعلاً واسماً وما عداه من الأقسام غير مفيد.

كذلك في نحو القلب مفيد وغير مفيد، فغير المفيد ما ليس لله، والمفيد ما يسمع من الحق أو يخاطب^(١) به الحق، وما سواه فلفو.

ويقال^(٢): إن المفيد إما دل على الذات، أو أشار إلى الصفات، أو كان عبارة عن المصنوعات .. هذا هو التقسيم الحاوي لجميع المعاني، لا يشذ عنه قسم من أقسام الخطاب الذي هو مفيد).

رأينا أن نضم الفصلين حتى يكتمل المراد، ويتضح ما قد يبدو في أولهما من غموض في ضوء ثانيهما.

ولنبداً - كالعادة - برأى أصحاب نحو العبارة في معنى كل قسم من أقسام الكلام، ثم نشرح القصد عندهم من (الكلام المفيد) وبعدئذ نفرغ

(١) بفتح الطاء.

(٢) هذه عادة القشهرى عندما يسوق رأياً جديداً، وليس معناها بالضرورة إيراد رأى الآخرين.

لرأى شيخنا فى مذهبہ الإشارى المستنبط من ذلك، ولهذا فإننا لن ندخل فى تفاصيل كثيرة بل سنكثف الاهتمام على ما هو مهم فى استنباط الإشارة.

فالاسم ما دل على معنى فى نفسه، غير مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة، وهو ينقسم إلى اسم عين أى ذات: (الله) أو اسم معنى (القدرة) والاسم أصل لأنه يستغنى بنفسه عن الفعل، والفعل فرع عن الاسم. والاسم أخف من الفعل، فهو أى الاسم يستتر فى الفعل، والفعل لا يستتر فى الاسم، ولهذا نجد صاحب الإنصاف يجعل المصدر أصلاً لأن المصدر اسم (مستغن بنفسه ولا يفتقر إلى غيره، وما هو كذلك يكون أصلاً لما لا يقوم بنفسه ويفتقر إلى غيره)^(٢).

أما الفعل (فهو ما دل على معنى فى نفسه مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة، وهو لا بد من الاسم والا لم يكن كلاماً)^(٣).

وأخيراً.. فإن الحرف ما دل على معنى فى غيره. فإذا اختص بالأسماء عمل فيها الجر، وسمت بحروف الجر لأنها تجر معانى الأفعال إلى الأسماء أى تضيفها وتوصل إليها. وذهب الكوفيون إلى تسميتها بحروف الإضافة، وهذا العمل يناظره فى نحو القلب قول الشيخ (إن الحروف رياطات) وقد أوضحنا بعض هذا المراد فيما سبق وسنزيد الأمر إيضاحاً بعد قليل.

وننتقل إلى الإشارة:

فغير خاف مدى التوفيق الذى ناله القشيرى وهو يصرف (الاسم) من البداية إلى (الله) سبحانه. فهو بهذا قد جعله أصلاً لا فرعاً.

(٢) الإنصاف ١/٢٣٧.

(٣) الكتاب لسبويه ١/٦.

وهو غير مشتق من شيء سبقه^(٤) لأنه لم يسبق بما يشتق منه، وهو قد جعله متحرراً من الزمانية بل فوق الزمانية، وبهذا ازداد اقتناعنا بتصوره لأسبقية (الاسم). ولم يكتف بذلك بل جعلنا نثير قضية استتار الاسم في الفعل.. وهذه في الحقيقة ذات دلالات عميقة، (فالله) خارج عن الكون بذاته لأن المطلق متسام عن التداخل في النسبى ولكنه داخل فيه بصفاته أى بتجلياته في الخلق والنعمة والرحمة والجمال والجلال والإحياء والإماتة - .. إلخ كما سبق أن شرحنا.

أما (الفعل) فهو تعبير عن الكون وما في الكون أى عن الخلوقات، وما يجرى عليها من تصارييف إلهية مرتبهة بأزمان ومرتبهة بمقادير ومرتبهة قبل ذلك كله بعلم أزلى قديم يقدره (الاسم) بحكمته، فالملك ملكه، وله أن (يفعل) فيه ما يشاء (وقتاً) يشاء، وهذا هو ارتباط (الفعل) بالزمانية، وإن شئت الدقة بالزمنية.

ومما سبق نفهم قول النحاة (الاسم يستتر في الفعل) فالحق خارج عن الكون بذاته متصل فيه بصفاته ... الخالقية والإبداع والرازقية والإحياء والإماتة والهداية.. إلخ.

أما الحروف فهي (رباطات تتم بها فوائد نطق القلب) فإذا قال الله سبحانه: منى ولى وبى.. تحققت الفائدة لأن الربط هنا على الأصل، لأن الإضافة منسوبة - حقاً وحقيقة - إلى من^(٥) يجب أن تضاف إليه^(٥).

أما إذا قال العبد: منى ولى وبى لم تتحقق الفائدة لأن الربط هنا على غير أصله، بل هنا بلغة الصوفية دعوى نفس، أى ادعاء نسبة. فلا فاعل

(٤) انظر كتابنا (البسمة بين أهل العبارة وأهل الإشارة). ط الدار القومية.

(٥) بفتح الميم.

(٥) انظر: نحو القلوب الصغير. للقشيري ص ٨٧ و١٣٨ تحقيق: أحمد علم الدين الجندى.

فى الكون غير الله، وليس لآى غير أو سوى حق فى الفاعلية أو الملكية.. إن فى ذلك عدواناً، فهو بهذا (لغو وليس فيه فائدة عن نحاة القلوب. ولو طلب إلينا أن نجمع كل هذه المعانى التى يريدھا الشيخ من وراء الأقسام الثلاثة لقلنا فى كلمة واحدة: التوحيد، هو الهدف البعيد المرجو تحقيقه، وأما وسيلته فهى المناذاة والمناجاة، ويكون الشيخ فى فصول كتابه الأولى قد حدد (٠) الإطار العام الذى يعمل فيه نحو الإشارة (توحيد المحبوب)..

وينتقل الشيخ بعدئذ إلى الجملة فيقول: (والكلام المفيد ما كان اسماً واسماً أو فعلاً واسماً، وما عداه من الأقسام غير مفيد).

أى هناك نوعان للجملة: جملة اسمية من مبتدأ وخبر

وجملة فعلية من فعل وفاعل

وتتحقق الفائدة من الإسناد الحاصل بين طرفى كل منهما.

ويختلف النحاة فيما بينهم فى أسبقية كل منهم عن الأخرى، وإذن القضية تطرح بشكل آخر أيهما أسبق الاسم أم الفعل، ويشتد الخلاف بينهم لشغل مساحات كبيرة من مصنفاتهم.

وفى رأينا هذا الخلاف يمكن أن ينفذ لو أدخلنا فى الاعتبار المتكلم ورغبته، فهو وحده الذى يعرف ما يريد إبرازه، فلو كان قاصداً للثبات واللزوم استخدم الجملة الاسمية لخلو الاسم من الزمن، ولو كان قاصداً إلى التحول والتغير استخدم الجملة الفعلية لتحمل الفعل للزمن.. ولسوف نعود إلى معالجة هذا الموضوع فى فصول قادمة من الكتاب إن شاء الله.

وحيثما تنقل القضية إلى نحو القلوب فإنها تتكيف بحسب المناخ الصوفى وتصبح (الفائدة) و (اللغو) و (مقتضى الحال أو المناسبة) ذات دلالات سلوكية ومعرفية لخصها الشيخ فى:

(٠) بفتح الأول وتشديد الثانى.

(نحو القلوب فيه مفيد وغير مفيد، فغير المفيد ما ليس لله) وبهذا التلخيص يكون الشيخ قد أرسى في حزم قاطع القواعد الأساسية للموضوع كنه.. وبهذا فتح لنا الباب للشرح والدراسة:

يميز الصوفية بين شيئين: حقوق الله، وحظوظ العبد. فلو أراد العبد أن يتحقق له (الفائدة) في هذه الرحلة السنية، وأن يخطو أول خطوة في (القصد) إلى الله على نحو سديد فإن عليه أن يرفع هذا الشعار نصب عينيه من أول الطريق إلى منتهاه: مراعاة حقوق الله بأقصى ما في استطاعته، والتجافى عن حظوظ النفس والدنيا والهوى بأقصى ما في استطاعته. وأى تحيف^(١) في هذا ينذر بخراب كل شيء، وكل غفلة عنه ينبغي تداركها على الفور، وإلا ولج الشيطان من أضيق المنافذ، وبدد كل محصول. ولم تعد هناك (فائدة) ترجى حتى على مرأى العين!

إن النفس - في اصطلاح القوم مركز المعلولات : كالحسد والكذب واثرياء والخيانة والإعجاب والمساكنة والكبر.. ونحو ذلك . والقلب مركز المحمودات المنجيات من كل ذلك. والصراع من البداية قائم بين الطرفين قصداً إلى تنقية القلب - خلال المقامات - من كل الكدورات وتنقية قطاع الطريق وتجنب آفات العلائق .. وهكذا يستشرف القلب المنيب السليم من مرحلة (الروح) التي هي مركز المحبة، لأنها جبلت منذ يوم الميثاق على الاعتراف بربوبية الرب «أست بربكم؟ قالوا: بلى»، وعلى حبه، وعلى العودة إليه مبرأة من كل كدر. وهذه (الروح) بدورها تنقى خلال الأحوال: كترجاء و خوف، والأنس والهيبة، والبسط والقبض، والفناء والبقاء... إلخ لتستعد للاستشراف من منطقة أعظم ارتفاعاً في المعراج الروحي هي (السر) ثم (سر السر) حيث البصيرة الكاشفة، وحيث الأنوار المتتالية، وحيث المشاهدة والعرفان.. وأخيراً فوق قمة القمم: التوحيد. وهكذا نعود

(١) بتشديد الياء وضمها.

إلى التوحيد مرة أخرى حتى يزداد القارئ تمكناً من إدراك غاية الغايات عند أهل الصفاء.

هذه في اختصار علامات على الطريق نضعها في بداية شروحنا، ولنا إليها عودات كثيرات في ثنايا الكتاب حسبما تقتضيه الأحوال. وبهذا نستطيع الآن أن نميز بين (المفيد) و(غير المفيد) في نحو القوم. ولكي يكون موقفنا سليماً نبداً من البداية الصحيحة، فإذا استعرنا لغة أهل نحو الظاهر فإن (الابتداء) هنا هو (بالله).

إنها بداية تختلف بالقطع عن سائر العلوم، فعلى حين تحتاج تلك العلوم إلى مهارات عقلية أو رياضية أو فنية أو لغوية... إلى آخر ما نعرف من الاستعدادات الإنسانية المعينة على التخصص في لون من ألوان المعرفة - فإن البداية هنا هي بهذا (الاسم) الكريم .. ونحن نبني تصورنا للبداية على هذا النحو على أساس موضوعي علمي مستمد من طبيعة العلوم الصوفية في أصولها ووسائلها وغاياتها.

ف (الله) هو الذي يجتبي العبد المراد لكي يشق الطريق إليه، و (الله) هو الكفيل - حتى في المقامات التي هي جهود كسبية كالتوبة والصبر والتوكل - بتوفيق التائب إلى توبته والصابر على صبره والمتوكل في توكله. فالله في البداية هو الوسيلة .. وفي النهاية هو الغاية.

و (الله) هو صاحب الأمر في تقليب قلب العبد في (الأحوال). تلك الثنائيات التي لا تكاد تحصر، بل هي كما يرى أبو عبد الله الانصاري الهروي بعدد أنفاس الخلق^(١).

و(الله) هو الحفيظ لعبده حتى وهو في أعلى درجات الوصول، فهو الذي يرده مثلاً إلى حال (الفرق الثاني) وهو في قمة الجمع وجمع الجمع

(١) بفتح الأول وسكون الثاني.

كى يؤدى الفرائض التى تتطلبها الشريعة، لأن الحقيقة ما جاءت لتتال من الشريعة، بل هى مؤيدة لها، عاصمة لها، ناصرة لها. ذلكم هو (الكلام المفيد) فى عرف أرباب القلوب.

ذلكم هو (خبر المبتدأ) الذى يحقق (الفائدة) عند أصحاب المواجهيد. وهى عندهم ليست نزهة لينة بل هى معركة شاقة مضنية ربما استغرقت العمر كله.. ولكن أو ليست الآمال الكبيرة فى حاجة إلى قلوب كبيرة وهمم كبيرة! وأى غاية أعظم وأروع من انتصار الإنسان على نفسه، ودنوه من الأنوار الكاشفة لبصيرته، وصعوده إلى زمان فوق الزمان، ومكان فوق المكان!

ولكن: أحقاً يستطيع القلب الإنسانى خوض هذه المعركة، وتحقيق هذه (الفوائد) الجليلة؟

قلنا من قبل إن القلب مناط الأمل فى الانتصار على النفس، ونضيف هنا شيئاً آخر.. إن القلب وريث (العقل) فى المعرفة، ذلك لأن العقل بطبيعة اتصاله بالحواس والمادة وتحقيق المعرفة عن طريقهما سيجد نفسه فى لحظة ما لا يستطيع الخوض فى غيب بعد غيب، وهذه طبيعة تختلف عن طبيعته. فالحصان ليس مخلوقاً ليركض فوق ثبج الماء، والسفينة ليست مصنوعة لتمخر فوق اليابسة - كما يقول الصوفى الفارسى جلال الدين الرومى.

القلب مزود بطاقات الذوق والعاطفة والاستشفاف والتركيز فى (الواحد)، وهذه أمور لا قبل للعقل بها، ونكتفى هنا بذلك، ونورد بعض أقوال الشيوخ فيما نحن بصدد.

فابن القيم يعبر عن استطاعة لقلب إغاثة العبد بأخذ ما هو (مفيد) وطرح ما هو (غير مفيد) فيقول:

«فى القلب قوتان: قوة العلم والتميز، وقوة الإرادة والحب، ولهذا كان (الكمال) والصالح باستعمال هاتين القوتين فيما (ينفعه) ويعود بصلاحه وسعادته، فكما له باستعمال قوة العلم فى إدراك الحق ومعرفته والتميز بينه وبين الباطل. واستعمال قوة الإرادة والمحبة فى طلب الحق ومحبته وإيثاره على الباطل»^(٦).

ويبدأ القلب رحلته بالتيقظ، والاعتزام على نبذ الماضى والفرار من دواعى الدنيا والشيطان - كما أوضحنا. «فإذا صدق فراره منهما - كالصبي الذى يفزع مما يفزع منه الصبيان، فلا يهتدى إلى غير أمه، فإذا أتى إليها آوته إلى نفسها، وضمته إلى نحرها وألصقت خده بخدها - كذلك العبد إذا صدق فى ابتهاله إلى الله ورجوعه إليه عن مخالفته آواه إلى كنف قريبته، وتداركه بحسن لطفه»^(٧).

ويعبر سمنون المحب - وهو من أجلة شيوخ الصوفية عن هذه اللحظات.. لحظات بداية التعلق بمحبوبه الأسنى فيقول:

وكن فؤادى خالياً قبل حبكم

وكان بذكر الخلق^(٨) يلهو ويمرح

فلما دعا قلبى هواك أجابه

فلمست آراه عن فنائك يبرح

وإن كان شئ فى البلاد بأسرها

إذا غبت عن عينى بعينى يملح

فإن شئت واصلنى وإن شئت لا تصل

فلمست أرى قلبى لغيرك يصلح^(٩)

(٦) إغاثة اللفان لابن القيم ص ١٢.

(٧) اللطائف ص ٣١٠.

(٨) تاريخ بغداد المجلد التاسع ص ٢٢٧.

(٩) بسكون اللام.

بقى أن نوضح الرأي فيما هو (غير مفيد): السهو والحشو واللفو والبعد والكفر: وقد وردت كلها بمعانيها عند شيخنا في تفسيره لقوله تعالى: «والذين هم عن اللغو معرضون»

فيقول: «ما يشغل عن الله تعالى فهو سهو، وما ليس لله فهو حشو، وما ليس بمسموع من الله. أو بمعقول مع الله فهو لفو، وما هو غير الحق سبحانه فهو كفر، وما ليس بتقريظ الله ومدحه من كلام خلقه والتعريض على شيء مما سبق ذكره فهو بعد»^(١٠) وهجر»^(٩).

الخلاصة عن تمام (الفائدة) وحصول (المفيد):

كما أنه في نحو الظاهر تتم (الفائدة) بإسناد الخبر إلى المبتدأ أو (إسناد) الفعل إلى فعل يتقدمه.. هنا أيضاً تبني الطريقة على أسس مفيدة، وتضر^(١٠) بها وبصاحبها أشياء غير مفيدة، وكلها تدور حول (الذكر) الذي هو عماد هذا الطريق من بدايته وفي وسطه وعند غايته. (فالمناداة ونسجاة) تأتلف من أذكار وأدعية، ومقامات وأحوال موضوعها جميعاً (الاسم) الأعلى وصفات (الذات) وصفات (الفعل) ولا ينبغي أن تخرج عن هذا بحال من الأحوال فالإسناد كله لله.

(الله) سبحانه هو المبتدأ وهو الخبر وهو الفاعل. وتجلياته في الكون هي (أفعاله) وأفضاله، والعلاقة به يجب أن ترتبط على أساس أنه (الحق الواحد المحبوب). ولنضرب من أقوال الشيخ ونظرائه أمثلة للتطبيق ننهي بها هذا الفصل.

(١٠) بضم الباء وسكون العين.

(٩) اللطائف المجلد الثاني ص ٥٦٧.

(١٠) بفتح التاء وضم الضاد.

الخطاب والجواب «إذا (خاطب) العبد الحق سبحانه بلسان (نجواه) إما سائلاً أو داعياً أو مثنياً أو شاكراً أو متنصلاً»^(١٠) أو مبتهلاً قام في محل (التفرقة). وإذا أصفى بسرّه إلى ما (يناجيه) به مولاه، واستمع بقلبه ما يخاطبه به فيما ناداه أو ناجاه أو عرفه^(١١) معناه، أو لوح لقلبه وأراه، فهو يشاهد الجمع»^(١٢).

وعند هذه اللحظات النادرة يكون الحال «اقترب (حال الهيبة) وعنده يلزم العبد السكون التام ولا يأتي منه شيء كي تتحقق الفوائد»^(١٣).

وليس هناك أوضح من وصف المناجاة وما تحتويه من خطاب وجواب من ذلك.

ولكنها حال نفيسة لا تتاح إلا (لمن يخرجون من ضيق رسوم الزمانية إلى سعة فناء السرمدية)^(١٤).

وهي في الواقع إشارة: (وعلمة صدق الواصل أن يسمع من الحق بسرّه ثم ينطق - أي العبد - بلفظة^(١٥) وآية هذا الصدق في التوجه أن يحفظ الله (لسانه) عن كل ما ينال منه، وهل تعرف لغة الأحباب غير ذلك؟

أما القشيري ذلك المفسر الإشاري فيجد في قصة يوسف ما يماثل هذا الموقف فعند قوله تعالى: «ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب» وإثر هذا التمدح نوّدى في سرّه: «ولا حين هممت!» (فأجاب) على الفور: «وما أبرئ نفسي»^(١٦) وهذا نمط في الهمس لا يعرفه إلا المحبون.

(١٠) بضم الميم. (١١) بتشديد الراء.

(١٢) الرسالة حال الجمع.

(١٣) ترتب السلوك في طريق الله تعالى ص ٦١.

(١٤) اللمع للسراج ص ٤٩.

(١٥) اللطائف ج ٢ ص ٢٨٢.

(١٦) اللطائف ج ٢ ص ١٩٠.

فصل [٥]:

الإعراب والبناء

يقول الشيخ عن نحو الظاهر :

(الكلام ينقسم إلى معرب ومبنى، والإعراب تغير آخر الكلمة لاختلاف العامل إما بحركة أو سكون أو حذف.

والبناء أن يلزم آخر اللفظة إما حركة أو سكون).

ويستكمل الشيخ حديثه عن نحو الظاهر في بداية الفصل السادس فيقول:

(وجوه الإعراب أربعة: الرفع والنصب والخفض والجزم).

فى الإعراب والبناء

عند نحاة الظاهر

تمهيد:

تقتضى سلامة المنهج أن نفضل الكلام فى الإعراب والبناء فى نحو العبارة على حدة إذا فرغنا من ذلك دخلنا إلى نحو الإشارة. وقد اتبعنا هذا المنهج حتى يصبح هذا الملحق بمثابة مرجع لكل بقية فصول الكتاب فنتحاشى بقدر الإمكان الوقوع فى التكرار، لأن هذه الفصول تعتمد فى الأساس على البناء والإعراب.

والواقع أننا نستمد من دراسة أعدت فى عام ١٩٧١ لتكون بين أيدي طلاب بكالوريوس اللغة العربية. لم نكن نتصور أن نجدها تطل برأسها مرة أخرى فى كتاب عن التصوف، وهذا إن دل على شىء فإنما يثبت هذه النظرية التى ننادى بها دائماً فى الجامعة وفى المؤتمرات وفى الصحف وأدوات الإعلام أن التصوف فى صميمه لغة وأدب وفن.. هكذا يجب أن يؤخذ، وهكذا عليه أن تترعرع الدراسات اللغوية والأدبية والنقدية فى كنف التصوف والمتصوفة.

ونعاهد القارئ أن نبسط له الموضوع تبسيطاً يجمع بين الوفاء العلمى بأطراف الموضوع المهمة وبين التيسير المتجنب للتعقيدات والتفريعات.. وبكلمة أخرى الحصول على قدر ثقافى ضرورى لا غنى عنه للقارئ الذى يحتاج إلى ذلك.

* * *

(الإعراب) فى اللغة الإظهار والإبانة، وفى اصطلاح النحاة هو هذا التغير الحادث فى أواخر الكلمة تبعاً لاختلاف العوامل الداخلية عليها لفظاً أو تقديراً. وبهذا يكون الإعراب إعراباً أى تبييناً للمعانى المختلفة

التي يقصدها المتكلم، وهذا مأخوذ من قولهم: أعرب الرجل عن مراده أى أوضحه وبينه. ومن قوله ﷺ: «الثيب تعرب عن عصبها» أى تبين وتوضح. وارتباط التغير بالإعراب يجيئ من قولهم: عريت معدة الناقة أى تغيرت^(١).

أما البناء لغة فهو وضع الشيء على جهة يراد بها الثبات وال لزوم. واصطلاحاً: لزوم آخر الكلمة حالة واحدة لغير عامل ولا اعتلال. ولالإعراب والبناء علامات أو ألقاب. وقد أثر الشيخ أن يسميها (وجوهاً).

فالمعرب من أقسام الكلام هو الاسم، ومن الأفعال الفعل المضارع. والمبنى هو قلة من الأسماء، والفعالان الماضى والأمر. وكذلك الحروف.

والحق أن (الإعراب ضرورة تقتضيها أغراض المتكلمين والتمييز بين المعانى. فلو قال قائل: ما أحسن زيداً غير معرب أو ضرب عمر زيد غير معرب فإننا لا نستطيع أن نقف على مراده.

أما إذا قال ما أحسن زيد^(٢)، أو ما أحسن زيد^(٣)، أو ما أحسن زيداً أبان الإعراب عن المعنى الذى يريده.

وللمعرب فى ذلك ما ليس لغيرها، فهم يفرقون بالحركات وغيرها عن المعانى^(١).

(وهذا الإعراب يفيد فى الأدلة على المعانى ويجعلهم يتسمعون فى كلامهم، ويتصرفون بالتقديم أو بالتأخير عن احتياجاتهم^(٢)).

(١) الصحابى لابن فارس (ط المؤيد سنة ١٢٢٨) ص ١٦١.

(٢) بتشديد الهاء وبالفتح.

(٣) بتووين الدال مع الضم.

(٤) بتووين الدال والكسر.

(٥) الإيضاح فى علل النحو للزجاجى ص ٦٩ وما بعدها.

- ١- وعلامات الرفع أربع الضمة (وهي الأصل) والواو والألف والنون.
 - ٢- وعلامات النصب خمس هي الفتحة (وهي الأصل) والألف والياء والكسرة وحذف النون.
 - ٣- وعلامات الجر ثلاث هي الكسرة (وهي الأصل) والياء والفتحة.
 - ٤- وعلامات الجزم ثلاث هي السكون (وهو الأصل) وحذف الآخر وحذف النون.
- والفعل المعرب يتغير آخره بالرفع والنصب، والجزم بالسكون أو بحذف حرف العلة أو بحذف النون في الأفعال الخمسة جزمًا ونصبًا.
- والاسم المعرب يتغير آخره بالرفع والنصب والجر.
- وتتقسم هذه الوجوه إلى ثلاثة أقسام:
- ١- قسم تشترك فيه الأسماء والأفعال: وهو الرفع والنصب.
 - ٢- وقسم تختص به الأسماء وهو الجر.
 - ٣- وقسم تختص به الأفعال وهو الجزم.
- وقد استعمل شيخنا مصطلح «الخفض» - وهو مصطلح كوفي - بدل الجر عند البصريين وهو حين لجأ إلى هذا المصطلح لم يفعل ذلك مجازة للكوفيين، وإنما قصد - كما نظن - ليقابل به المخفوض قدرًا في نحو الإشارة - على نحو ما سنرى في موضعه.
- يقول الشيخ في المتن: (والمبنى أن يلزم آخر اللفظة إما حركة أو سكون) فآخر المبنى على حالة واحدة لا تتغير مهما غيرت العوامل المتقدمة عليه.
- وعلامات البناء الأصلية هي الكسر (هؤلاء) والضم (حيث وكتبوا) والفتح (كتب وأين) والسكون (اكتب ولم).

وهناك علامات فرعية تتوب عن الأصلية.

وهناك ملحوظة لها أهميتها في الإشارة بعد قليل: أن المعرب والمبنى يشتركان في ظاهرة واحدة أنهما يتعلقان بآخر اللفظة لا بصدرها أو أحشائها.

الحركات بين دلالات الصوت والمعنى:

كرس الشيخ رحمه الله نصيباً كبيراً من عنايته عند وضع هذا الكتاب على الربط بين صوتيات الحركات والوظائف المعنوية التي تؤديها في نحو الظاهر، ثم الانطلاق بعدئذ إلى التنظير بينها وبما يقابلها في نحو الباطن.

ويمكن استخدام هذه المحاولة في تفسير ظواهر لغوية ونحوية كانت العادة تجرى على قبولها بلا إمعان في مناقشتها، وإنما يغلب أن يعاد بها إلى السماع عن العرب، ولكن البحوث الحديثة تحاول إخضاعها للتفسير على طريقتها الخاصة.. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الشيخ حين التفت في كتابه هذا إلى هذا الجانب فإنما يعد رائداً في خوض مجال غير مطروق اللهم إلا على استحياء، وليس هذا بمستغرب على متذوق إشاري، له تفسير ضخم يعتمد فيما يعتمد عند استنباط الإشارة على ما بين الجرس والمعنى... وقد أبدينا إعجابنا به في مواضع جمة من «لطائف» ومن كتابه (نحو^(١) القلوب الصغير)، ونبهننا إلى ضرورة الالتفات إلى ذلك عند معالجة النص الأدبي وتحسس المواضع الفنية فيه.

وننبه إلى بعض الالتفاتات الصوتية المهمة ذات الأثر البعيد:-

١- الضم والكسر ثقيلان، والضم أثقل لأنه في حاجة إلى جهد عضلي

(١) حققه وعلق عليه ونشره: د. أحمد علم الدين الجندى ط تونس ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

أكثر من الكسر إذ يتم بتحريك أقصى اللسان بينما يتم الكسر بتحريك أدنى اللسان - وهو أيسر.

٢- السكون - وهو الأصل - ويسمى وقفاً فيه خفة لأنه يدل على توقف الحركة بين الاتجاه إلى أعلى والاتجاه إلى أسفل فكأنه اللاحركة.

أو أن السكون يدل على القطع أى قطع الصوت، ويتجلى هذا القطع بوضوح عند حذف حرف العلة وقطع الاستمرار الصوتي: لم يدع لم يسع، لم يجر.

٣- والألف التى هى الاستمرار الصوتي الممتد للفتحة - أخف الحروف.

ويستنتج سيبويه أن (الفتحة والألف كانتا أخف عليهما، ألا تراهم يفرون إلى الألف من الياء والواو إذا كانت العين قبل واحدة منهما مفتوحة، وفروا إليها فى قولهم قد رضى^(١) ونهى^(٢)).

ولخفة الفتحة أعطيت لما هو كثير فى الاسم، وأعطيت الضمة لما هو قليل. فالفعل لا يحتاج إلى أكثر من فاعل واحد بينما يتطلب مفعولا وأحيانا اثنين أو ثلاثة.

ويمكن أن يقال إن الرفع أعطى لما هو عمدة فى الكلام، والعمد ما كان أحد ركنى الإسناد كالمبتدأ وخبره والفاعل ونائبه. وعلى هذا يمكن القول إن الضمة علم الإسناد، ويؤسس بعض النجاة على ذلك أن الرفع أول الإعراب^(٤).

(٣) الكتاب لسبويه ٢ / ٢٩٠ .

(١) بضم الأول وفتح الثانى.

(٤) الإيضاح ١٢٤ .

أما الجر فهو لا يخرج عن نطاق الإضافة، ولهذا يمكن أن يكون علماً لها. أما النصب فعلاقة على كون الكلمة فضلة، والفضلة ما ليس أحد ركني الإسناد كالمفاعيل والحال والتمييز والمستثنى، ولهذا فالفتحة علم مالم يس بإسناد ولا إضافة.

والى شيء من ذلك يذهب إبراهيم مصطفى^(٥) في استقراءاته مذهباً بعيداً حيث يقصر الحركة على اثنتين فقط هي الضمة بوصفها علم الإسناد والكسرة بوصفها علم الإضافة، أما الفتحة فيجعلها علامة استراحة واسترخاء، ففي رأيه أن العرب كانوا يستريحون بها كما نفع نحن في لهجتنا المصرية حين نستريح بالسكون: رحت له^(٦)، وجيت من الجامعة^(٧).

ولو تابعنا القشيري في مصنفاته لأدهشنا أن نجده يوظف التقلب بين الحركات للحرف الواحد في الكلمة نحو آفاق عجيبة. انظر مثلاً:

(العزیز من صفاته سبحانه وهو إما من عز^(٨) يعز أو من يعز أو يعز أى بكسر العين أو فتحها أو ضمها.. ويترتب على فهم كل واحدة آداب وسلوك فإن قلنا إنه من يعز بكسر فالمعنى)^(٩).

(٥) إحياء النحو لإبراهيم مصطفى.

(٦) التعبير في التذكير للقشيري تحقيق د. بسيوني. طبعة عالم الفكر.

(٧) بتشديد الزاي.

(٨) يسكون الهاء.

(٩) يسكون الهاء.

كيف تمت معرفة المعربات ومعرفة المبنيات؟

هذا سؤال يفرض نفسه، وله أهمية خاصة في نحو القلوب أيضاً الشيء البدهى أن العرب اضطرت إلى الإعراب لأن ذلك ضرورة فرضها العجز عن الوقوف بالساكن على أواخر الكلمات، ولهذا استعانت بالصوت لتمييز معانى الكلمات وأدوارها في سياق التحدث والخطاب، ثم تطور الأمر ونضج، وأخذت المسألة شكلها الأخير عبر عصور طويلة. أما بالنسبة لنا فقد أصبح (السماع) عن العرب هو الفيصل في التمييز بين المعربات والمبنيات، وليس لنا الحق في تبديل أى قرار في هذا السماع. وهذه نقطة لها أهميتها في الإشارة كما سيتضح.

ولكن هذا لم يمنع الباحثين نتيجة الاستقراء من التماس تفاسير لهذه الظواهر.

فالاسم معظمه معرب، وذلك لكثرة دورانه في الاستعمال في مواقع مختلفة من الجملة، وفي معان متنوعة ليست في قدرة الفعل، وعلى هذا يمكن أن يقال دون حرج إن الاسم معرب على الأصل ومن هنا لسنا بحاجة إلى أن نتساءل عن علة إعرابه.

أما الفعل فهو - من هذا الناحية - أولى بالبناء، ولهذا بنى الماضى والأمر، وفيما يتصل بالمضارع فهو كما يتضح من اسمه يضارع الاسم، إذ يتنقل في حرية لا حدود لها عبر الزمن بماضيه وحاضره ومستقبله، فلم يكن هناك مفر من إعرابه لتوضيح أبعاد هذه الحركة الطليقة. وأما الحرف فهو مبنى دائماً، وهذا بدهى، لأن الحرف لا يعتوره من المعانى ما يحتاج معه إلى إعراب، بل إن مشابهة الاسم للحرف كافية في رأى ابن مالك لبنائه:

والاسم منه معرب ومبنى لشبه من الحروف مدنى

كالشبه الوضعى فى اسمى (جئت) والمعنوى فى متى وفى هنا

فإذا عدنا إلى الموضوع فالنظر إليه بمنظار جديد: وهو مدى نصيب كل من الاسم والفعل من الثقل والخفة . وهى رؤية لا تخلو من أهمية فى استنباط الإشارة . لرأينا الزجاجى يعلل لثقل الفعل ولخفة الاسم على النحو التالى:

«إذا ذكر الاسم دل على مسمى تحته نحو: رجل وفرس... ولا يطول فكر السامع فيه، أما الفعل فإذا ذكر لم يكن بد من الفكر فى فاعله لأنه لا ينفك منه، ويستحيل وجوده من غير فاعل. وقال آخرون: إنما خف الاسم لأنه لا يدل إلا على مسمى تحته، وثقل الفعل لدلالته على الفاعل والمفعول والمفعولين والثلاثة والمصدر والظرفين من الزمان والمكان.

وقال الكسائى والفراء: الاسم أخف من الفعل لأن الاسم يستتر فى الفعل والفعل لا يستتر فى الاسم»^(٧).

وقال أكثر الكوفيين: «لم تخفض الأفعال لثقلها. ولم تجزم الأسماء لخفتها ليعتدل الكلام»^(٨).

معنى هذا فى تصورنا: أننا بإزاء مجتمع حى^(٩) يتألف من الأسماء والأفعال والحروف، وأن لكل منها دوراً يؤديه من نطاق هذا المجتمع. وهنا يكتسب أهميته من كثرة دورانه فى الاستعمال أو توسطه أو ندرته، فتعلو قيمته كلما مست^(١٠) الحاجة إليه، وكلما تبوأ فى الجملة العربية لا مكاناً فقط بل مكانة أيضاً، وكما تخيل أفلاطون مدينته من طبقات: أعلاها فى القمة المفكرون (وهم من عنصر الذهب) والجيش وهم (من الحديد)

(٧) الإيضاح للزجاج ص ١٠٠ . ١٠١ .

(٨) المرجع السابق ص ١٠٦ .

(٩) بتشديد الياء والتوين .

(١٠) بتشديد السين .

وهكذا إلى أن نصل إلى الرقيق (وهم من المعادن الخسيسة) لأنهم خدام المجتمع يمكن أن نتخيل في ضوء هذا الفهم الأفلاطوني مجتمع الألفاظ العربية، فمن الأسماء ما هو عمدة كما ذكرنا، وذلك حين يكون عضواً في التركيب الإسنادي فهذا حقه (الرفع) ومنها ما لا يقوم بذاته بل يسبقه الحرف وهذا نصيبه (الخفض) أما الفضلة الذي يمكن الاستغناء عنه دون حدوث ارتباك ملحوظ فهذا حقه (النصب).

وسنرى بعد قليل.. كيف استخدم الشيخ رضوان الله عليه هذه النظرة في مواقف السلوك والعرفان حسب الطريق الصوفي، ثم توظيف ذلك في مدارج السالكين الذاكرين إلى أن يصل إلى مراتب الموحدين المحبين.

بقيت في خاتمة هذا الملمح عن الإعراب والبناء حاشية موجزة لا تخلو أيضاً من ملحظ في الإشارة عند الشيخ:

وهي أن الإعراب على ثلاثة أقسام:

١. لفظي وهو أثر ظاهر. وهذا هو الأصل.

٢. تقديرى وهو أثر غير ظاهر، وتكون الحركة مقدرة لأنها غير ملحوظة ويكون في الاسم المقصور مثل (ليلي) وفي المنقوص مثل (القاضي)، وفي المضاف لياء المتكلم، وفي المضارع المعتل الآخر.

٣. محلى وذلك حين يقع أحد المبنيات موقع المرفوع أو المنصوب أو المجرور أو المجزوم فيكون رفعه أو نصبه أو جره اعتبارياً، ويسمى الإعراب المحلى مثل: فاز من (...) توكل على الله: من: فاعل مبنى على السكون في محل رفع.

والآن..

(.. انظر: نحو القلوب الصغير للقشيري، تحقيق. أحمد علم الدين الجندى ص ٧٩ فما بعدها، ص ١٢٧ - ١٢٠. الدار العربية للكتاب.

(...) بفتح الميم.

نعود إلى الفصلين الخامس والسادس.. لنحدث هذه المرة عن الإشارة:
يقول الشيخ في الفصل الخامس:

(ونطق القلب إما بلفظ يراعى فيه توقيف الحق، أو حالة أذن فيها الحق
تصريف الخلق، فالأول ما تسمع بقلبك فتقف عند ذلك بلا تكلف منك،
والثاني ما تتاجى به مولاك على مقتضى ما تجد فيه من إشارة البسط،
فأحدهما حال جمع والثاني حال فرق).

نطق القلب في نحو الإشارة يناظر (الكلام المفيد) في نحو العبارة.
وكما أن هناك عند العباريين متكلماً وكلاماً فعند الإشاريين السالك
والطريق.. فلنتناول الثلاثة بالإيضاح والدراسة:

أولاً - الصوفي السالك:

وضح مما سبق أن استقراء كلمات العربية يشير إلى أن هذه الكلمات لا
تخضع جميعها بدرجة متساوية لنظام إعرابي واحد، بل منها ما يخضع
ويسمى معرباً. ومنها ما لا يخضع ويسمى مبنياً.

ثم إن المعربات تلتقي في داخل النظام الإعرابي على هيئة فصائل لها
إعرابها الخاص. وهكذا أيضاً يلتقي المريدون حول الشيوخ حسب مناهج
وطرق.

وكما أن النحاة يرون أنفسهم في مواطن كثيرة وقد توقفوا أمام، آحاد
من الألفاظ يلزم لدراستها وضع نظام مستقل بكل منها بينما ينحاز عن
بقية الأتراب (مثلاً: باب المنصوبات فصل ظرف الزمان وظرف المكان)
كذلك أن السالكين لطريق التصوف.. فهم جميعاً سائرون على درب الرحلة
إلى الحق، ولكنهم ليسوا في لحظة واحدة على درجة متساوية في
الاستعداد الفطري ولا في التخليق ولا في التذوق ولا في التحقق، ولا في
مدى تذويب الإرادة الإنسانية في الإرادة العليا، ولا مدى الصبر والمثابرة

على البلاء والفقد، ولا فى الجنوح إلى التخفى أو الظهور ولا فى الاستمسك بالطاعة أو التواضع، ولا فى التوبة أو الزهد.. والخلاصة أنهم . كاية مجموعة بشرية تمارس نشاطاً ما . مختلفون فيما بينهم. ومع ذلك فهم يلتقون مثنى وثلاث ورباع وخماس . كما تلتقى فصول المعريات أو المبنيات فى نحو الظاهر فى تجمعات تكثر أو تقل.

ولهذا يجب على الشيوخ بادئ ذى بدء أن يتفهموا هذه الفروق الفردية حينما يكلفون الجماعة بواجب أو حفظ ورد (.) ونحو ذلك، كما ينبغى مراعاة العدل فى الإثابة والعقوبة، فمنهم من يصلحه الإشفاق ومنهم من لا يصلحه إلا التعنيف، ومنهم من يأتى منه شئ إذا قرب (..) بعبارة مشجعة... وأخيراً منهم من يلزم إبعاده (وحذفه) على الفور. وبكلمات أخرى منهم (المرفوع) و (المنصوب) و (المخفوض).. لأنه إذا صح ذلك فى (الألفاظ) فهو فى مجتمع (الإنسان) أولى.

ثانياً . الطريق الصوفى ذاته:

إذ كان (الكلام المفيد) فى نحو العبارة لا تتحقق منه نتائج إلا إذا استوقف (أواخر) ألفاظه النهايات الصحيحة والسليمة فكذلك الطريق الصوفى، فإن المرید لن تتحقق له (فائدة) إلا إذا سلك سبيله مرحلة بعد مرحلة خلال المقامات والأحوال، ولا يتسنى له الانتقال نقلة جديدة إلا إذا استوفى شرائط ما هو عليه فى (الآن) أو على حد تعبيرهم فى (الوقت) فالصوفى ابن وقته، معنى هذا أنه كما لا تتحقق فائدة من الكلام إلا إذا كان كله صحيحاً، وأن الفائدة المحققة مرجأة إلى الوصول إلى (تمام) الكلام. كذلك فإن العبرة فى الطريق (بالخواتيم)؛ لأن أى خلل فى جزئية

(.) بكسر الأول وسكون الثانى.

(..) بضم الأول وتشديد وكسر الثانى.

ولو هينة قد ينسف الجهد كله، ويفسد مجمل النظام، مثال ذلك ما يراه القشيري في لجوء المرید إلى الرخصة، لأن الرخصة للكافة والمستضعفين، أما القوم فليس لهم شغل إلا مولاہم.

- فمن استرخص فقد فسخ عقده مع الله - على حد تعبيره في «الرسالة».

ثالثاً. نطق القلب:

عندما يصل العبد الواجد إلى مرتبة (الوجود) التي هي حسب مصطلحه أعلى قدرًا من حالتی التواجد ثم الوجد تكون الإرادة الإنسانية قد ذابت بالكلية في الإرادة الإلهية. وهنا تتتالي الأنوار من طوابع إلى متوابع النهار وتشرق شمس الشمس، وهذه حالة لها من الانبهار ما قد يوقع في أخطار. لأن (القلب إذا نطق) عندئذ بما يسمع وبما يشاهد فقد يتجاوز (اللسان) حدود (نطق القلب). ولكن رحمة الله بعبدہ تحفظه من الوقوع في الاستشكال. ومن كان صادقًا في توجهه حفظه الله بمقدار صدقه عن الوقوع في المظنة، وهذا هو ما عناء الشيخ في المتن بقوله «بلفظ يراعى فيه توقيف الحق» وبقوله: «فتقف عند ذلك بلا تكلف منك». وهذه الحالة تعرف عند أرباب الطريق بحال الجمع ويناظر القشيري بينها وبين (المبنى) وبين (المبنى) في نحو الظاهر.

ولكن العبد قد يرد^(١) من الجمع إلى (الفرق) فيسمح له بأن يعبر عن الوجد الذي يغمره بكلمات تجري على لسانه قصدًا للمناجاة والدعاء والابتهاال والتنصل والاستغفار، ويكون في هذه الحالة أشبه (بالمعرب).

(١) بضم الأول وفتح الثاني.

فما هو بتوقيف الحق يشبه (المبنى) وما هو مأذون به من لدن الحق يشبه (لمعرب). وكما تختلف المبنيات والمعربات بحسب أواخرها نتيجة مواقعها فى التركيب اللفظى تختلف أحوال الواجدین بحسب أنصبتهم وبحسب جهودهم وصدقهم، وبالتالي تختلف (خواتيم الرحلة بين عبد وعبد وسيقوم القشيري بشرح ذلك كله من الفصول التالية).

ونكتفى هنا بالوقوف مع القارئ عند حدود المناجاة المسموح بها، وبضرب أمثلة مفيدة ومقتضبة لها، وسبيلنا إلى ذلك تعقب الموضوع خلال مصنفاته، يقول فى لطائفه (ومن آداب المناجاة أن تعلم وأنت بين يدي مولاك من أنت؟ ومن تتاجى؟ ومن الرقيب عليك؟ ومن القريب منك؟^(٩)).

ثم استمع إليه وهو يقول فى كنز:

«ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء».

«أى بما شاء من معلوماته، والمعنى تقاصرت العلوم عن الإحاطة بمعلوماته إلا بإذنه، فأى طمع فى الإحاطة بذاته وحقه سبحانه؟ وأنى تجوز الإحاطة عليه وهو لا يقطعه فى عزه أحد، ولا يدركه أحد»^(١٠).

وهذا كلام مهم جداً وواضح جداً، لأنه يخرس كل المزاعم ويحذف كل التجاوزات، ويفلق الباب على من يتطاول فى حق الصمدانية تحت أى ادعاء، وهو أخيراً يدافع عن الصوفية أمام أعدائهم، لأنه يرسم الحدود لمنتهى طموحاتهم.

وقد حفظت لنا المصادر أمثلة كثيرة من المناجاة، ولكننا نكتفى هنا بمثلين فقط:

(٩) اللطائف المجلد الثانى ص ٥٥٠.

(١٠) اللطائف الجزء الأول ص ٢٠٩.

الأولى: فى حلية الأولياء^(١١) تستغرق نحو خمس صفحات، وهى لعون ابن عبدالله بن عتبة (تابعى)، ونكتفى هنا ببعض سطورها:

. ويحى^(١٠) إن حجبت^(١٠) يوم القيامة عن ربى فلم يزكنى ولم ينظر إلى^(١٠) ولم يكلمنى، فأعوذ بنور ربى من خطيئتى.

. يا نفس لم تكرهين الموت؟ لم لا تذعنين وتحبين الحياة؟ لم لا تصنعين؟ تقولين فى الدنيا قول الزاهدين وتعلمين فيها عمل الراغبين!

. ويحى.. كيف أغفل ولا يغفل عني؟! ويحى.. وهل أضرت غفلتى أحداً سوى، ويحى، كأنه قد تصرم^(١٠٠٠) أجلى ثم أعاد ربى خلقى^(١٠٠٠٠) كما بدانى.

. بأى وجه القاك؟ وبأى قدم أقف بين يديك؟ وبأى لسان أناطك؟ وبأى عين أنظر إليك؟ فامنن على^(١٠٠٠٠) بطاعتك وبترك معاصيك.. أبداً ما أبقىتنى.. سبحانه فاقبل توبتى واستجب ودعوتى...

. رب لا تسلطها على.. رب إن نفسى لم ترحمنى فأرحمنى رب إنى أعذرهما ولا تعذرنى.. إنه إن يك خيراً أخذلها ولا تخذلنى، وإن يك شراً أحبها وتحبنى، رب.. فعافنى منها وعافها منى حتى لا أظلمها ولا تظلمنى، وأصلحنى لها وأصلحها لى فلا أهلكها ولا تهلكنى، ولا تكلنى إليها ولا تكلها إلى..

وإذا صح أن تكون هذه المناجاة لأرباب المقامات، فلنستمع إلى مناجاة أليق بأرباب الأحوال، وهى لشهيدة الحب الإلهى رابعة العدوية:

(١١) حلية الأولياء . لأبى نعيم الأصفهاني ج٤ ص ٢٥٥ - ٢٨٠.

(١٠) يسكون الياء.

(١٠٠) بضم الأول والتاء.

(١٠٠٠) بتشديد الياء.

(١٠٠٠٠) بتشديد الراء وفتحها.

(١٠٠٠٠٠) بتسكين اللام.

(١٠٠٠٠٠٠) بتشديد الياء.

إلهى.. أغرقنى فى حبك حتى لا يشغلنى شئ عنك.

إلهى.. أنارت النجوم ونامت العيون وغلقت الملوك أبوابها، وخلا كل حبيب بحبيبه.. وهذا مقامى بين يديك.

إلهى.. هذا الليل قد أدبر، وهذا النهار قد أسفر.. فليت شعرى أقبلت^(٠) منى ليلتى فأهناً؟ أم رددتها على فأعزى^(٠٠).. فوعزتك هذا دأبى ما أحييتنى وأعنتنى، وعزتك لو طردتنى عن بابك ما برحت عنه لما وقع فى قلبى من محبتك.

إلهى.. اجعل الجنة لأحبائك والنار لأعدائك أما أنا فحسبى أنت!

والآن. وبعد التنظير بين المبنيات والمعربات فى كلا النحوين نتوقف عند بعض آراء القشيري فى بقية مصنفاته لنعرف مدى التغيرات الطارئة على العبد السالك. ومن الذى يقوم بها على الحقيقة، ونترك للقارئ أن يناظر بين الموقف العبارى والموقف الإشارى وهو يقرأ هذه الآراء:

« العبد مادام فى الترقى فصاحب تلوين، يصح فى نعتة الزيادة والنقص فى الأحوال، فإذا وصل إلى (الحق) بانحناس البشرية مكنه الحق بآلا يرده إلى معولات النفس فهو متمكن فى حالة على حسب (محلّه) واستحقاقه، ثم ما يتحفه الحق سبحانه فى كل نفس^(٠٠٠) فلاحد لمقدوراته فهو فى الزيادات متلون بل ملون^(٠٠) وفى أصل حاله متمكن^(١٢) ».

ويقول فى موضع آخر: «ما يكون كسباً للعبد فى إقامة العبودية وما يليق بأحوال البشرية فهو فرق، وما يكون من قبل^(٠٠٠٠) الحق من إبداء معان وإسداء لطف وإحسان (على مقتضى ما يجد فيه من البسط) فهو جمع،

(٠) بفتح التاء.

(٠٠) بتشديد الزاى وفتحها.

(٠٠٠) بفتح الأول والثانى.

(١٢) الرسالة ص ٤٥.

(٠٠٠٠) بكسر الأول وفتح الثانى

فإثبات الخلق من باب التفرقة، وإثبات الحق من نعت الجمع. ولا بد للعبد من الجمع والفرق، فإن من لا تفرقه (١٠) له لا عبودية له، ومن لا جمع له لا معرفة له».

ويحرص الصوفية . مع كل ذلك التقسيم بين ما للرب وما للعبد . أن ينسبوا كل شيء لله سبحانه، فهو وحده سبحانه القائم بالفضل حتى في الجهود الكسبية، وهو وحده الذى (ينطق (١٠٠) قلبه) بما يقتضيه (الوقت) .. ولنستمع إلى ذلك:

يقول يحيى بن معاذ:

«اللهم إني أتقرب إليك، وبك أدل عليك» (١٢).

يقول ذو النون:

«عرفت ربى برى . ولولا ربى ما عرفت ربى» (١٤).

ويقول أبو يزيد: «إنى لا أفهم عنك إلا بك».

ويقول الكلاباذى:

«لا يعرف الله سبحانه إلا من تعرف الله إليه» (١٥).

وهذا بالضبط ما عناه الشيخ فى المتن: «إلا بإذن من الحق».

وقوله: «وأن تسمع بقلبك وتقف عند ذلك بتكلف منك» فكل شيء منه وبه وله . وسبحانه، وهذه هى جبرية الحب، وما أروعها من جبرية! إنها كل السعادة.

(١٢) اللمع للسراج ص ٣٣١.

(١٤) الرسالة ص ١٥٦.

(١٠) بضم الأول وفتح الثانى وتشديد الثالث وفتحه.

(١٠٠) بضم الهاء وكسر الطاء.

(١٥) التعرف للكلاباذى ص ٣٧.

فإذا انتقلنا إلى نحو الإشارة في الفصل السادس نجد:
(وجوه الإعراب أربعة: الرفع والنصب والخفض والجزم. وللقلوب هذه الأقسام.
فرفع القلوب قد يكون بأن ترفع قلبك عن الدنيا. وهو نعت الزهاد....).

أقسام الإعراب في نحو القلوب

أولاً - الرفع

ملاحظة على المنهج:

تستوقفنا قبل الدخول في الشرح والدراسة ملحوظتان مهمتان في
تعبير الشيخ:

١ - أنه استعمل لفظة «وجوه» بالنسبة لنحو العبارة واستعمل لفظة «أقسام» في نحو الإشارة، وفي رأينا أنه كان موفقاً إلى حد بعيد، لأن كلمة أقسام مرتبطة بالقسمة، والقسمة مرتبطة باجتباء الله سبحانه وهذه بداية ينبغى أن يتفهمها كل من له صلة بالتصوف العلمي، فإن البداية هنا تختلف عن بقية العلوم، إن لله عبادة يختارهم من بين خلقه لكي يكونوا أحبائه، ويسر لهم سبيله، ويوفقهم في أعمالهم، ويسدد كل خطاهم.. إنهم مرادون لا يريدون.

٢ - إن الشيخ تجاوز نهائياً عن كل حديث عن «النفس» دخل بنا إلى (رفع القلب) مرة واحدة، وهذا توفيق في التعبير نحمده له، لأن (النفس) مركز المعلومات و(القلب) مركز المعلومات، ولو كانت النفس قد انتصرت لما كان هناك صوفي ولا تصوف ولا بداية لطريق بأي شكل من الأشكال، إنما

هو يفترض هنا أن (القلب) قد انتصر في معركته مع النفس، وبدأ الكلام في (رفع) هذا القلب.

ويمكن تلخيص الهدف الأول من هذه الفقرة في أنه يطالب العبد بالوقوف إلى جانب قلبه، ومؤازرته بعد هذا النصر، لأن الشيخ وهو الخبير المجرب يعلم أن هذا النصر محفوف بالخطر في مراحل البداية، فالإنسان بشر، والحنين إلى الماضي وما تركه وراء ظهره من أعراض الدنيا ومتاعها قد يتجاذبه من حين إلى حين، فالمطلوب الآن معاونة (رفع) القلب في مقامات الزهد والتواضع والصبر والتوكل والرضا، لأجل اقتلاع كل بقايا النفس من جذورها، ولعل القارئ يحس بالارتباط القوى بين ما تكلمنا عنه من (ثقل الرفع) في نحو العبارة بين (ثقل الرفع) في نحو الإشارة، فالمعركة هنا ضارية مستمرة، والطريق وعر، والنضال متوقد.. إن البداية الصحيحة تؤدي إلى النتائج الصحيحة، ولهذا.. فإن اليقظة في (رفع) القلب لا بد أن تبلغ حدتها على الدوام، لتأخذ بالعبد نحو المنجيات وبعيداً بعيداً عن المهلكات.

وكما استحق الفاعل والمبتدأ والخبر وكل منها (عمدة) في الجملة مرتبة (الرفع) استحق المريد هنا أثقل (الحركات)، لأن المهام الكبيرة تحتاج إلى الكبار، هذا هو المريد قد تهيأ للرحلة.. فماذا يطلب منه الشيخ؟

(أن ترفع قلبك عن الدنيا . وهو نعت الزهاد)

يفطن الشيخ إلى أن الزهد أوسط المقامات، فطبقاً لأكثر الآراء ذيوماً في البحوث الصوفية فإن بدايتها مقام التوبة ثم الورع ثم الزهد، ويأتي بعد الزهد: الصبر والتوكل والرضا.. معنى هذا أن الإنسان حينما يكون زاهداً فإنه قد تجاوز منتصف الطريق، واستعد لنصفه الثاني، فهو قد

تمرس بالتجربة، وعرف مقاساتها ومكابدتها، وهو يستعد الآن للمزيد، ولكن.. ما هذا الزهد؟

إذا كان الزهد فى الحرام واجباً بحكم الشريعة، فإن الزهد هنا ينصرف إلى معظم الحلال.

يقول القشيري: «الحلال ما كان مأذونا فيه. والحلال الطيب أن تعلم أن ذلك من قبل الله فضلاً وليس استحقاقاً، والحلال الصافى ما لم ينس^(١) الله فيه وهو الذى لا يكون صاحبه عن شهود ربه . عند أخذه . غافلاً»^(١٦).

وهذا توضيح مهم، لأن الباحث عن السلام الداخلى فى أعماقه ينظر نظرة اشتباه إلى معظم حلال هذه الدنيا، وإذا كان الله سبحانه قد سمى الدنيا بأسرها متاعاً قليلاً.. فأى زهد يكون فى هذا القليل؟ لابد إذاً من التشدد، ومن الجدية فى تمييز الأشياء، يروى عن الحارث المحاسبى أنه «كان إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة ضرب على رأس إصبعه عرق»^(١٧) والحارث هذا «تنازل عن ثلاثين ألف دينار هى ميراثه من أبيه لأنه غير مطمئن إلى كل هذا المال»^(١٨).

ولندع القشيري وشيوخ الطريق يزيدون هذا المعنى تأكيداً:

«فإن الأكل على الغفلة حرام فى شريعة الإرادة»^(١٩).

ويسأل الشبلى فى زهد الدنيا فيجيب «ويلكم.. أى مقدار لأقل من جناح بعوضة حتى يزهد^(٢٠) فيها»^(٢٠).

(١٦) اللطائف المجلد الأول ص ٦٢٩.

(١٧) الرسالة ص ٥٩.

(١٨) التعرف ص ١٧٥.

(١٩) اللطائف المجلد الأول ص ٤٤٤.

(٢٠) بضم الهاء.

(٢٠) مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية المجلد الثالث ص ٨١.

(٢٠) بضم الهاء وفتح الهاء.

ويبين مالك بن دينار أثر قوة هذا الزهد في طرد الشيطان فيقول:
 «إن سرك أن تحيا وتبلغ علم اليقين فاحتل^(١) في كل حين أن تغلب
 شهوات الدنيا، فإن من يغلب شهوات الدنيا يفرق^(٢) الشيطان من ظله».
 ولا نريد أن نفرق القارئ في هذا البحر الزاخر من أسانيد الشيوخ
 ولكننا نكتفى هنا بالقول بأن الحلال ليس هو ما لا يعصى^(٣) الله فيه
 وحسب بل هو ما لا ينسى الله فيه قط.. أو ليس الزهد بعد كل ذلك (رفع
 وارتفاع)^(٤)؟

«وقد يكون بأن ترفع قلبك عن اتباع الشهوات والمنى . وهو نعت العباد
 وأصحاب الأوراد والاجتهاد» .

العبادة من العبودية، وبمقدار شعور العبد بعبوديته يتعالى الرب في
 ألوهيته، وليس أشرف لمقام العبودية من أن النبي صلوات الله وسلامه قد
 وصف بها وهو في أعلى مقام له من هذه الدنيا، وكل ذلك ليلة الإسراء.
 «سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام..».

وقوله تعالى: «فأوحى إلى عبده ما أوحى».

ولو أتيح لرضيع ينطق وهو ما زال في المهد صبيًا لنطق كما نطق
 عيسى عليه السلام: «إني عبد الله».

وفي سبيل تنمية هذا الشعور بالعبودية يقع عبء جسيم على كاهل
 العبد، «فهو لا يفتر عن عبادته آناء الليل والنهار، وإنه في الظاهر بنعت

(١) يسكون الحاء .

(٢) بفتح الهاء وكسر الراء .

(٣) بضم الهاء

المجاهدات، وفي الباطن بوصف المكابدات، ويتحمل المصاعب ويركب المتاعب».

فإذا كانت الصلوات المفروضة والعبادات المطلوبة واجبة على مستوى الكافة فإن قيام الليل والناس نيام، وقراءة الأوراد والأدعية، والذكر الدائم بالقلب، وتأمل الفكر العميق في جنبات هذا الكون.. كل أولئك ونحوه (رفع وارتفاع).

إن توديع المنى والشهوات في معارك التخلية والتحلية ينبغى أن يأخذ شكل الاستدامة، بحيث لا تكون هناك رجعة ألبته إلى أيسر شيء من مغريات الدنيا، إن القلب (بارتفاعه) يمتلئ بالله، حتى لقد رأوا أن أي دبيب خفى يساوره بعدئذ هو من قبيل الشرك.. أرايت؟ لماذا؟ لأنه يكون قد اتخذ من هواه إلهاً!

وعندما يصل القلب إلى هذه الدرجة من التشبع تتلون الحياة بعاطفة الحب الجياشة، وهذه بشرى خير وفير، استمع إلى يحيى بن معاذ وهو يفرد بلفظة «الحب» خمس مرات في أربعة أبيات، لتشعر أنه أصبح في خفة طائر يحلق نشيطاً في الآفاق العليا:

طرب الحب على الحب	مع الحب يـدوم
عجباً ممن رأينا	ه على الحب يـدوم
حول حب الله ما عـش	ت مع الشوق أحـوم
وبه أقعد ما عـش	ت حياتي وأقوم ^(٢١)

(٢١) حلية الأولياء ج ١ ص ٦١.

(وقد يكون بأن ترفع قلبك عنك وتعتقد أنه لا يجيء منك شيء . وهذا نعت أصحاب الانكسار، وأرباب الخضوع والافتقار).

صحيح إن عمل الإنسان شيء مهم وأساسى.. ولكن التعويل ينبغى أن يكون دائماً على الفضل الإلهى فإله هو الكفيل الوكيل الهادى الناصر.

فعليك أن تكون بين يدى الله كالميت بين يدى الغاسل . كما عبر سهل التستري، وعليك أن تعتقد فى رسوخ أنه لا توبة إلا إذا تاب عليك، ولا هدى إلا إذا هداك.. وهكذا، أسقط^(١) نفسك من حسابك، وأسلم إلى المولى كل قيادك، فالمريد . على الحقيقة . من ليست له إرادة، ومن نظر إلى نفسه باستحسان شيء منها فقد هلك، وبمقدار الشعور بالانكسار والخضوع والافتقار (يرتفع) السالك إلى منزلة يعبر عنها إبراهيم بن أدهم بقوله:

«لو علم أبناء الملوك ما نحن فيه من عز لجالدونا عليه».

والواقع أن هذه النظرة إلى النفس منحتهم شجاعة أدبية فى مواجهة كل ظلم اجتماعى، لأن ما هم فيه من عز فى جنب الله صغر^(٢) له شأن الدنيا بأسرها، وساعدهم على قولة الحق فى وجه السلطان الجائر، استمع مثلاً إلى قول الزاهد عمرو بن عبيد لجعفر المنصور:

«اعلم أن هذا الأمر الذى صار إليك إنما كان فى يد من كان قبلك ثم أفضى إليك، وكذلك يخرج منك إلى من هو بعدك، وإنى أحذرك ليلة تتمخض صيحتها عن يوم القيامة.. إن الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك منه ببعضها، واتق الله فإن من وراء بابك نيراناً تأجج^(٣) من الجور، ما يعمل^(٤) فيها بكتاب الله ولا بسنة رسوله»^(٢٢).

(١) بفتح الهمزة وكسر القاف.

(٢) بتشديد الفين وفتحها.

(٣) بتشديد الجيم الأولى وفتحها.

(٢٢) العقد الفريد ج ١ ص ٣٠٧.

وقد أهلتهم هذه البسالة الناجمة عن تهوين شأن الدنيا إلى أن يكونوا بحق أشبه بضمير الأمة اليقظ.

وفى سبيل إماتة دعاوى النفس وكسر شوكتها والاعتماد أنه لا يجيء منها شيء نرى مدرسة فكرية تظهر فى نيسابور - مدينة القشيري - فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى تعرف «بأهل الملامة» أو الملامتية، وتتخلص دعوتها فى إماتة كل ادعاء للنفس، ووضعها موضع التأنيب، وجلب الانتقاد والمذمة بدلا من استجلاب المدح والزهو.. ودون أن تقع فى شيء يخل بأدب العقيدة والشريعة بطبيعة الحال، وقد تأثر القشيري إلى حد كبير بتعاليمها، وبخاصة عند تكوين رأيه فى «النفس»، فروى عن كثير من شيوخها أمثال أبى حفص والواسطى وغيرهما..

وتروى المراجع الصوفية فى باب كسر النفس وقتل دعاواها نماذج كثيرة نكتفى منها بالقصة المعروفة: حين عيّر^(١) أبو ذر بلالا بالسواد، فشكاه إلى المصطفى صلوات الله عليه وسلامه فقال: يا أبا ذر.. إنه بقى فى قلبك من كبر الجاهلية شيء.

فحلف أبو ذر ألا يرفع رأسه حتى يطأ بلال خده بقدمه.

ومن شبيه ذلك ما حدث للكثانى حين طلب إلى رجل كان يستثقله أن يضع رجله على خده، وألا يرفعها إلا أن يزول عنه هذا الشعور.

(وقد يكون برفع القلب إلى الحق، وتصفيته عن شهود الخلق).

ما كان لنفسك فهو من الحظوظ، وما كان لله تعالى فهو من الحقوق.

(١) بتشديد الهماء.

ومطلوب منك لكى تفلح فى (رفع) قلبك أن تكون (مبتدئاً) بالتنازل عن حظوظك، وهذا (الابتداء) لا (تتم الفائدة منه) إلا (بالخبر) وهو المراعاة الدائمة لحقوق الله، وقد وضع الحارث المحاسبى كتاباً بهذا المعنى أوضح فيه كيفية هذه المراعاة.

ومنطقى أن الذى يتخلى عن حظوظ نفسه لابد أن يمثل لتعريف التصوف الذى تبدأ به معظم مصنفاته وهو: «قطع العلائق واليأس مما فى أيدي الخلائق». إن الارتقاء فى أحضان الدنيا يستتبع تمرغ الكرامة، وفى هذا مهانة لا يقبلها من أراد (الارتفاع) بشخصيته عن المنصب والمال والجاه.. فكلها أعراض زائلة، أما من يتوكل على الله فهو حسبه، وهو شرف له ما بعده شرف، وهو أولاً علامة الإيمان: «وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين» والعبد إذا تعلق بالمنهج الصوفى الأصيل عاش متأملاً وعاملاً بالآداب المستتبطة من أوصاف الفعل الإلهى: الوكيل والرازق والعليم.. وما فى معناها، وعندئذ يفرغ قلبه لحقوق الله، وتكون عودته فى كل أموره وما يشكل عليه إلى هذه الآداب عودة سهلة ميسرة لا عناء فيها، وكما يعود الطفل إلى ثدى أمه فى دعة واطمئنان، ويعبر الجنيد عن ذلك بعبارة دقيقة: «إذا كان العبد لله كما لم يكن . أى بحظوظه . كان الله له كما لم يزل» أى وكيلاً ووهاباً ورزاقاً ومنعماً..

ويتدرج شيخنا بالعبد فى هذه التربية السامية على خطوات فى (الرفع): .

(أن ترفع يدك عن الحرام،

ثم ترفع ما تضره من إثبات الأنام،

ثم ترفع يدك إلى الله بسؤال الحاجات،

ثم ترفع الحاجات عند إحكام المحبة حتى تكون بالله لله، تمحو ما سوى الله).

تعبير المراحل الأربع الأولى عن (الابتداء) في الرفع، وتأتي الخامسة لتكون (الإخبار) المتمم للفائدة، وبتعبير آخر إذا كانت البدايات سلوكية من لدن العبد على النحو السابق فإن النتائج من لدن الحق تأتي بمثابة تتويج لهذه الجهود، وهكذا الطريق الصوفي: استيفاء في (الحال) لكل متطلبات الوقت وثمار في (الاستقبال) تأتي من عين الجود. والشيخ هنا يوضح طريقة التخلي عن الحظوظ الذي ذكره آنفا. بل أكثر من ذلك.. فإن الحظوظ لم تعد قاصرة على التعلق بالحياة الدنيا وإنما امتدت لتشمل كل حظوظ الدارين، أو بالتعبير الإشاري خلع النعلين، فلم تعد الهمة موجهة إلى خوف من النار أو طمع في الجنة، وإنما ارتقى الهدف وسما أعظم ما يكون الارتقاء والسمو.. ففى هذه الدنيا لم يعد الشغل الشاغل للمحب سوى محبوبه الأسنى.. كما يقول الحلاج:

مكانك من قلبى هو القلب كله فليس لخلق^(١) فى مكانك موضع
وحطتك^(٢) روحى بين جلدى وأعظمى فكيف ترانى إن فقدتك أصنع^(٣)
أما فى الآخرة فيكفيك أن تسمع قول المصطفى صلوات الله عليه:
«... وأسألك لذة النظر إليك»^(٤).

(٢٣) ديوان الحلاج المقطعة ٣٥.

(١) بفتح الخاء وسكون اللام.

(٢) بتشديد الطاء وفتحها.

(٣) وردت فى دعاء طويل رواه النسائي فى سننه والحاكم فى مستدركه عن عمار بن ياسر.

هذا هو التجرد في الحب الذي عناه الشيخ بقوله في المتن:

(ثم ترفع الحاجات عند إحكام المحبة حتى تكون بالله).

إن (تجرد) العبد من كل الأغراض والأعواض نتيجة (الرفع)، ويمكن أن نناظر بين هذه الحالة وبين الفعل المضارع الوحيد المعرب . كما قلنا . الذي يستحق (الرفع) عند (تجرده) من المناصب أو الجازم.

(ولولا حظ العبد أن أفضال الله سبحانه معلولة بالحركات والسكنات التي يمارسها لعد^(١) ذلك من قبيل ملاحظة النفس التي هي شرك^(٢) خفي^(٣)).

ويقول يحيى بن معاذ في هذا التجرد الخالص:

إن ذا الحب لمن يـفـنـى له

لا لدار ذات لهـو وطرف^(٤)

لا ولا الفردوس . لا يـألفها

لا ولا الحوراء من فوق غرف^(٥)

وإذا فمن علامات (إحكام المحبة) إسقاط كل مطمع، وترك الأمر كله لله، فهو وحده الذي يختار لعبده. ولن يكون إلا الخير، وهكذا تكون:

ليسلى على دين قيس

فحيث مال تميل

(٢٥) اللطائف ص ١١٧ .

(٢٦) مصارع العشاق ص ٢٤٧ .

(٠) بضم العين وتشديد الدال .

(٠٠) بكسر الشين .

(٠٠٠) بضم الطاء وفتح الراء .

وكل ما سر قيساً

فمعد ليلى جميل

خلاصة القول: إن كل ذريعة فى الوصلة قد سقطت بل سقط كل السوى، ومن بين هذه السوى نفس الإنسان وإرادته، كل شيء أصابه (المحو) ولم يبق إلا الله.

هذا هو الفناء وهذا هو البقاء.

فالمحب قد شرب من كأس المحبوب حتى فنى فى شهود أنوار من يحب، ونسرع فنوضح ذلك حتى لا ينبرى أعداء التصوف بقذف اتهاماتهم، المسألة فى غاية البساطة: إنه فناء إرادة المتوكل فى إرادة الوكيل، إنه سقوط كل الأوصاف البشرية المذمومة والبقاء بالأوصاف المحمودة. ليس هنا مثلاً.. حلول أو اتحاد... فقد جلت الصمدانية عن كل ذلك. ليس هنا فناء طبيعى على نحو ما نجد فى الفناء الهندى.

إن المعادلة هنا تتركب فى بساطة من وصول الإرادة الإنسانية والأخلاق الذميمة إلى درجة الصفر، فتكون كل الحركات بالإرادة الإلهية وبالأخلاق الفاضلة.. وهذه هى التى لخصها المتن بقوله:

(بالله لله).

هذا هو حال (الرفع) والارتفاع الذى تطمح إليه كل سطور بل كل كلمة فى هذا الفصل من الكتاب:

ومن المناسب أن أنقل هنا تجربة صادقة دافئة.. نتابع من خلالها تدرج (الارتفاع) حسب انثيال الأنوار الإلهية الكاشفة للبصيرة: إنها تجربة سيدنا إبراهيم عليه السلام أنقلها كما وردت فى تفسير الشيخ:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) ﴿ (الأنعام ٧٦ - ٧٩).

يقول الشيخ: «أحاطت بإبراهيم عليه السلام سجوف الطلب ولم يتجل له بعد صباح الوجود، فطلع (نجم) العقول فشاهد الحق بسره بنور البرهان قال هذا ربى. ثم يزيد فى ضيائه، فطلع له (قمر) العلم فطالعه بشرط البيان فقال هذا ربى، ثم أسفر الصبح ومتع (النهار) فطلعت شمس العرفان من برج شرفها، فلم يبق للطلب مكان ولا للتجويز حكم ولا للتهمة قرار (يا قوم إنى برىء مما تشركون) إذ ليس بعد العيان ريب، ولا عقب الظهور ستر، فهو حين شاهد الكواكب والشمس والقمر لاحظ الآثار والأغيار بالله، ثم رأى الأشياء لله ومن الله. ثم طالع الأغيار محوًا فقال: «إنى وجهت...» أى أفردت قصدى لله وطهرت عقدى من غير الله، وحفظت عهدي فى الله لله، وخلصت وجدى بالله، فإنى لله لله بل محو فى الله الله الله» (٢٧).

وهكذا يلحظ معنا القارئ أننا ونحن نشرح مذهب الشيخ فى المرفوعات.

أنا كنا نستحضر فى الذهن:

- ١ . المبتدأ وخبره وكيف تتم الفائدة.
- ٢ . المضارع المتجرد من الناصب والجازم.
- ٣ . وانتهينا إلى «الفاعل» ذلك العبد البادئ باجتياز الطريق، الذى ينتهى به الأمر . على الحقيقة . إلى أن يتخلى عن فاعليته ويسلم القياد إلى ربه،

(٢٧) اللطائف المجلد الأول ص ٤٨٥.

حيث لا تصريف إلا تصريفه «فالصوفي مقهور بتصريف الربوبية، مستور بتصريف العبودية، وهو لا يتغير ولا يتكرر»^(٢٨).

وربما التفتنا إلى شيء من ذلك ونحن ندرس المجاز العقلي في علم البلاغة، حيث تعتبر من قبيل هذا المجاز قولنا: أنبت الربيع البقل ثم نشرح ذلك بقولنا: إن الإنبات لله، ولكن التعبير هنا عن زمن الإنبات فلا فاعلية للربيع ولا للزارع. على الحقيقة، ونسب الفعل إلى الربيع بعلاقة الزمانية فقط.

ثانياً. النصب

(وأما نصب القلوب فيكون بانتصاب البدن على بساط الوفاق، ثم بانتصاب القلب في محل الشهود بحسن الإطراق، ثم بانتصاب السر بوصف الانفراد، والتنقي عن دقائق الافتراق، وقد يكون العبد منصوباً لجريان حكم المقادير من غير أن يكون له اختيار، ولا له فيما هو به إيثار.....).

إذا كان النصب في نحو الظاهر ليس للعمدة في الكلام بل للفضلة فيه، وإذا كان النصب هنالك علامة الاستثناس والراحة في بعض الآراء لأنه حركة ولا حركة حيث هو وسط بين طرفين.. فإنه هنا يؤدي الدور نفسه، وينتجه إلى الغاية نفسها.

ونحن نتساءل: ماذا يملك (المفعول به) أمام (الفاعل) إلا الامتثال والاستجابة؟ ماذا يملك العبد أمام سيده ومولاه إلا الطاعة والوفاق وحسن الإطراق؟

(٢٨) الرسالة ص ١٤٠.

أرأيت إلى أم موسى حينما أوحى إليها أن تقذف بالتابوت إلى اليم
رضيعها، فامتثلت (منتصبة) تحقق إرادة مولاها؟ كانت النتيجة أن كبر
موسى وكان من أمره ما كان.

وأى أب يمتثل (منتصباً) لتنفيذ أمر ربه فيمسك بإحدى يديه برقبة ابنه
وبالأخرى السكين ليبدأ ذبح فلذة كبده.. مثلما فعل إبراهيم؟

ثم هذا هو المصطفى صلوات الله عليه يمتثل لأمر ربه ويظل في مكة
ثلاث عشرة سنة يحتمل فيها ما لا تحتمله قوة بشرية بسبب العنت
والسخرية والهذيان والإيذاء حتى جاء يوم ارتفعت فيه كلمة الحق..

وهكذا نجد الأسماء الباقيات على الزمان (نصبها) الحق لإعلاء إرادته،
وتمت من بعدئذ الراحة والسكينة والقرار حينما جاء الفرج من (فتحة)
الغيوب.

ولنعد إلى المتن.. فقد أصبح من اليسير تناوله بعد هذه المقدمة: سبق
أن ذكرنا في بداية شرح هذا الكتاب أن المناجاة على بساط القرب تكون
بداية التحقق، وألفينا الشيخ ينبه إلى أنه غير مسموح للعبد أن يتفوه عند
البسط إلا بما يأذن به الحق - سبحانه. وأن يلتزم (الموافقة) فيما ينبس به
قلبه قبل أن يندفع شيء من ذلك إلى لسانه، ولهذا ينبغي توخى جانب
الحذر، و(حسن الإطراق) لأن المقام مقام سماع لا مقام كلام، وهذا
السلوك مفيد للمخالطين حتى لا تحدث فتنة، ومفيد للعبد نفسه حتى لا
يصل به الأمر إلى الادعاء والتكبر.. وفي ذلك كل امتثال مريح يعبر عنه ذو
النون بقوله:

إذا ارتحل الكرام إليك يوماً

ليلتمسوك حالاً بعد حال

فإن رحالنا حطت رضاء
بحكمك عن حلول وارتحال
أنخنا في فنائك يا إلهي
رليك مفوضين بلا اعتلال
فسسنا^(٢٩) كيف شئت ولا تكلنا
إلى تدبيرنا يا ذا المعالي^(٣٠)

وإذا كنا قد طالبنا هنالك . في كنف الشيخ . بالتركيز والاستغراق في صفات الفعل الإلهي، وضرينا مثلاً هنالك بصفة المنعم، فنزيد الأمر توضيحاً بالحديث عن صفة (الجمال) حتى نوضح ثمار (الوفاق وحسن الإطراق).

إن الإنسان لكي يدرك الجمال المعنوي الكامن وراء الجمال الحسي لأبد أن يكون هو نفسه جميلاً، بمعنى أن يكون خالياً من الشوائب والكدورات وتعقدات الدنيا، وأن يستعد بصفاء وصدق لتقبل ما يفاء عليه إنه ساعات تأمله المديد... سيجد أن هذا الكون الواسع الفسيح حافل بالتناسق والنظام والجمال على نحو ينتهي به إلى نقطة مريحة، وهي أن من خلف كل ذلك صانعاً مبدعاً جميلاً، تنطق الجمادات والأحياء بجمال صنعه وروعة إبداعه، وعند ذلك سيسمع من الطبيعة لغة عجيبة ولكنها مفهومة لديه، ويستطيع تذوقها، والتصاعد مع ارتفاعاتها شيئاً فشيئاً، فالأفعال الجميلة من ورائها الأفكار الجميلة، وتتجمع هذه الأفكار في الفكرة الجمالية الكلية التي تنبثق في كل حنايا الكون.

(٢٩) اللمع للسراج ص ٣١٨.

«ثم بانتصاب السر بوصف الانفراد والتنقي عن دقائق الافتراق».

والسر عند أهل التصوف: «لطيفة مودعة في القلب كالأرواح، وأصولهم تقتضى أنها محل المشاهدة كما أن الأرواح محل المحبة، والقلوب محل المعارف. ومقتضى أصولهم السر الطف من الروح، والروح أشرف من القلب»^(٣٠).

ويضيف القشيري إلى السر سر السر أو عين السر، وأيا ما كان فإن السر وديعة الحق لدى الخلق، إنه العدسة الكاشفة التي تتلقى الأنوار المشرقة على الحنايا. وكل الرحلة مكرسة لتنقية السر من كل الأغيار، وأن تشرق فيه شمس التفريد والتوحيد، فإذا كان العبد فانيا . ومرة أخرى ننبه وسنظل ننبه إلى أنه فناء إرادة . فإن البقاء لله وحده. فالعبد كان بائن، وكائن من حيث هو شخص، بائن من حيث جوهره وبصيرته، هذا هو معنى التوحيد هنا فالنطق بالشاهدة توحيد قالة. ونطق الكون بوحدانية الخالق توحيد دلالة.. وهنا يصبح العبد العارف بالله الواصل المتصل الفانى عن نفسه الباقي بإرادة ربه موحدًا توحيد حالة. متنقيًا عن كل غير وسوى^(١) قد زالت عنه كل التناقضات. وانعكس ذلك على سلوكه وعلاقاته، ويبقى على هذه الحال (منصوبًا) لجريان حكم المقادير الإلهية، لا يبغى عنها حولا، وهكذا تحدث له (الراحة) التامة من كل مشاغل الحاضر والمستقبل، وتستقر كل ذرة فيه عند الثقة المطلقة في الله وحده، فلا يستعجل شيئًا لأن كل شيء بحكمة وبقدر^(٢) وبميقات: «لأن الفقير إذا تطلع إلى المستقبل وتجاوز ما هو عليه في الوقت لا يجيء منه شيء»^(٣). تلکم هي خصائص أهل الله وأوليائه:

(٣٠) الرسالة ص ٤٨.

(١) بتشديد الراء.

(٣١) الرسالة ص ٢٠٣.

(ينصّبهم الحق لحقه لا لحظهم، فهم غياث^(١) الخلق، قائمون للحق بالحق).

لقد سقطت حظوظهم في الدنيا والآخرة، وتركزت همّتهم في مراعاة حقوق الله سبحانه، وعندئذ يكون للناس بمثابة البصائر الكاشفة، وتمتد بركاتهم إلى من حولهم في المكان والزمان، وتلك هي الكرامات التي يسبغها الله على الصفة من عباده لأجل عباده، فهم وسائل توصيل الخير إلى الكافة، ذلك لأن كرامة الولي فرع على معجزة النبي الذي يتبعه هذا الولي، لأنه لم يصل إلى ما وصل إليه إلا بعد أن (توالت) طاعاته حسبما اقتضت شريعة النبي، وتفترق هذه الكرامة عن المعجزة في أنها غير مضادة لطبائع الأشياء فهي مثلاً من قبيل «إجابة دعوة، أو إظهار طعام في أوان فاقة، أو حصول على ماء في زمن عطش، أو تسهيل قطع مسافة في مدة قريبة، أو تخليص من عدو، أو سماع خطاب من هاتف ونحو ذلك»^(٢٢).

وهم على ذلك أشبه (بمفاعيل) تجري عليها أفعال (الفاعل) سبحانه، لأنهم قائمون له وبه، (منصوبون) بكل همّتهم لطاعاته، ولتوصيل الخير للناس، والله أعلم حيث يضع رسالاته، ورب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره، والله سبحانه وتعالى أكرم الكرماء.

ثالثاً - الخفض

(وأما خفض القلوب فيكون باستشعار الخجل، واستدامة الوجل، ولزوم الذل، وإيثار الخمول، وملازمة الخشوع، وإلقاء النفس في ذبائح الجهاد).

(١) بكسر الغين.

(٢٢) الرسالة ص ١٧٥.

ليس أسوأ من أن يتحول (المرفوع) إلى (مخفوض)!

فهذا الذى ينبه إليه شيخنا تذكرة للذين قطعوا فى الرحلة إلى الحق - سبحانه - أشواطاً، ثم جد فى مسعاهم شىء من الوهن أو الغفلة أو الزلة فانجرفوا إلى (خفض) فى المنزلة بعد (ارتفاع)، وهذا آية على أن عبادتهم كانت على (حرف)، وما أسرع ما (جر) هذا الحرف عليهم موقفاً نكداً، وأدوات الجر هنا تتحصر فى النفس والهوس والشيطان.. فكل واحد منها متربص بالعبد كى (يعمل) فيه بأسلوبه الخاص.. ولنستمع إلى شىء من ذلك بإمعان شديد «من قارف الزلة فهو من خطئه على يقين، فإذا تاب فإنه من القبول على شك، ولا سيما إذا كان من شرطه وحقه أن يكون مستحقاً لمحبة الحق، وإلى أن يبلغ العاصى محلاً يجد فى أوصافه أمانة محبة الله إياه إلى مسافة بعيدة فالواجب إذن على العبد إذا علم أنه ارتكب ما تجب منه التوبة دوام الانكسار، وملازمة الاتصال والاستغفار وقد قالوا: استشعار الوجل إلى الأجل»^(٣٣).

ويقول الشيخ فى رسالته فى موضع آخر «سئل المشايخ عن الإسلام فقالوا: ذبح النفس بسيوف المخالفة»^(٣٤).

قلنا من قبل إن النفس عند القوم مركز المعلولات، وإن القلب مركز الحمودات. فإذا انتصرت النفس من البداية فلا أمل فى شىء، أما إذا انتصر القلب فالمعركة لا تنتهى بانسجام، بل تبقى دواعى الخوف على هذا القلب محتدمة، لأن ارتداده عما صار إليه من (رفع وارتفاع) محتمل فى أية لحظة.

(٣٣) الرسالة ص ٥٢.

(٣٤) الرسالة ص ٧٧.

فالخوف من (الخفض) عمل إيجابى، لأنه بمثابة سهر على وليد محتاج إلى الرعاية والعناية، ويكون ذلك بالخجل والوجل والذل لله والخمول والخشوع.. وقد تبدو هذه الكلمات مجموعة من السلبيات فى عرف الناس ولكنها هنا لأنها فى جنب الله، ومكرسة للدفاع، فهى حصن الأمان والمنعة من التالوث البغيض: النفس والهوى والشيطان، وهى كفيلة بالسباحة ضد التيار الشديد المعاكس المتلون بألوان شتى.. فلو استبسل الصوفى فى الدفاع فإن رحمة الله منه قريبة على الدوام. معنى هذا بعبارة أخرى أن ذل القلب فى كنف الله عز، واستشعار الخجل صمود، واستدامة الوجل أمان، وإيثار الخمول كرامة، وملازمة الخشوع أنس.. وأخيراً.. فإن إلقاء النفس فى ذبائح الجهاد بداية النجاة والخلاص.

(وقد يكون بخفض الجناح. لكل من طالبك بشيء. ليس فى الشرع له نكر^(١). من غير رد ولا نزاع. ولا إبرام واستكراه).

يمكن أن تتصرف الفقرة بكاملها نحو:

(أ) اتجاه عام يمس التربية الصوفية عموماً.

(ب) اتجاه خاص يمس علاقة المريد بشيخه.

فإذا صرفناها فى الاتجاه الأول فإن المطلوب أن يكون الصوفى لين الجانب، مستعداً للصفح عن العثرات، فهو كما يصفونه أشبه بالأرض يطرح^(٢) عليها كل قبيح ومع ذلك لا تنتج^(٣) إلا كل مريح.

أو كما يصفه الجنيد: لا يكون العارف عارفاً حتى يكون كالأرض يطؤها البار والفاجر، أو كالسحاب يظل كل شيء، أو كالمطر يسقى ما يحب وما لا يحب.

(١) بضم النون وسكون الكاف.

(٢) بضم الياء.

(٣) بضم الأول.

ويصفه أبو تراب النخشبى: العارف لا يكدره شيء ويصفو به كل شيء. وهكذا تلتقى نصائح الشيوخ عند كلمة لها فى العرف الصوفى عطر أخاذ وهى كلمة «الفتوة». وهى فى نظرنا أفضل النماذج للخلق الإسلامى الأصيل.

ومن آيات (الفتوة) (١) التى تتفق وما جاء فى المتن هنا: ألا يملك الصوفى شيئاً لنفسه يحسبه عن إخوانه، بل يبذل لهم بل لجميع الناس بمقدار ما فى وسعه، وألا يجادل أو يناقش فى مطلب طالما لم يكن مما ينكره الشرع، وأن يتفاضل عن العدو والصديق فى سخاء مهما شق عليه الأمر، وبذلك لا يكن خصماً لأحد، ولا يرى لنفسه فضلاً على أحد، وألا يدخر أو يعتذر.. كل ذلك من غير تبرم أو كراهية بل عن طواعية وسعادة. وعلى الجملة فهى نموذج للتربية ينبى لى الإيثار، وعلى التنازل، وعلى العطاء.. قال تعالى:

«يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة».

وقال ﷺ:

«السخى قريب من الله تعالى قريب من الناس قريب من الجنة».

أما إذا صرفنا الفقرة فى الاتجاه الثانى: أى عن علاقة المريد بشيخه، فإنها تقصد ألا يحاول المريد مجادلة شيخه، «لأن من قال لشيخه لم؟ لا يفلح» بل واجبه الامتثال للأمر طالما أن هذا الأمر تتضح موافقته لأحكام الشرع. وعندئذ ينبغى ترك الاعتراض على الشيوخ، وحمل ما يبدر منهم أو يبدو فيهم على وجه جميل، وتلقى أحوالهم بالإيمان من غير رد ولا نزاع،

(١) انظر ما جاء عن (الفتوة) فى كتاب: نحو القلوب الصغير للإمام القشيرى، تحقيق: أحمد علم الدين الجندى.

ولا تبرم أو ضيق، فإذا كانت للمريد عينان فلتكن إحداهما ناظرة إلى الشيخ بالود والأخرى ناظرة إلى نفسه هو بالاتهام، وهكذا يكون خفض الجناح و(خفض) النفس وخفض (الأنف) من وسائل تربية المريدين وصقل إرادتهم.

ومن طريف ما يروى في هذا السياق ما يذكره القشيري عن صلته إبان كان مريداً لشيخه أبي على الدقاق: «لم أدخل على الأستاذ أبي على في وقت بدايتي إلا صائماً، وكنت أغتسل قلبه، وكنت أحضر باب مدرسته غير مرة فأرجع من الباب احتشاماً منه أن أدخل عليه، فإذا تجاسرت مرة ودخلت كنت إذا بلغت وسط المدرسة يصحبني شبه خدر حتى لو غرز في إبرة مثلاً لعلى كنت لا أحس بها، ثم إذا قعدت نواقعة وقعت لى لم أحتج أن أسأله بلساني عن المسألة لأنه كلما كنت أجلس كان يبتدئ بشرح واقعتي، وغير مرة رأيت منه هذا عياناً، ولا أذكر أنى في طول اختلافي إلى مجلسه ثم كوني معه بعد حصول الوصلة أن جرى في قلبي أو خطر ببالي عليه قط اعتراض إلى أن خرج رحمة الله تعالى عليه من الدنيا»^(٣٥).

(وهكذا العارف يستقبل أعقاب^(١) الكاف مستحقراً لقدره^(٢) مستقذراً لنفسه وفعله في عاجله وآجله).

إذا كان (الجر) في نحو الظاهر ينتج عن (الإضافة)، فإن إضافة أى فضل هنا لنفسك هو دعوى وادعاء يرفضهما التصوف رفضاً تاماً، لأن المطلوب كما قلنا وكما سنقول: التجرد من كل علائق النفس وكبح جماحها حتى «تسقط كل الياءات»: لى وبى ومنى.. إلخ و«إن ملاك المجاهدة فطم

(٣٥) الرسالة ص ١٤٧.

(١) بفتح الباء.

(٢) بفتح القاف وسكون الدال وكسر الراء.

النفس من مألوفاتها، وحملها على خلاف هواها في عموم الأوقات، فإذا استحلّت^(١) شراب الرعونة فضاقت إلا عن إظهار مناقبها، والتزين لمن ينظر إليها ويلاحقها فمن الواجب (كسر) ذلك عليها، وإحلالها بعقوبة الذل بما يذكرها بحقارة قدرها، وخساسة أصلها، وقذارة فعلها فهي سفير الشيطان في كيان الإنسان».

وفي إحدى الوصايا يقول الشيخ للمريدين: «إذا خطر ببال المريد أن له في الدنيا والآخرة قدراً أو قيمة أو على بسيط الأرض أحداً دونه لم يصح له في الإرادة قدم، لأنه يجب أن يجتهد ليعرف ربه ليحصل لنفسه قدراً، وفرق بين من يريد الله تعالى ومن يريد جاه نفسه إما في عاجله وإما في آجله».

على المريد إذا ألا يفتعل لنفسه تقدماً أو تصوراً بل عليه أن يلزم التواضع والانكسار واتهام النفس.

عمل إبراهيم بن أدهم بعد أن طلق إمارة (بلخ) بستانياً بل حارساً لبستان، وكان صاحب البستان يضربه على رأسه فكان يزيد في انحناء رأسه ويقول له: اضرب.. اضرب رأساً طاماً عصي الله! وترك الحارث المحاسبى ثلاثين ألف دينار ورثها عن أبيه ليحيا حياة الافتقار إلى الله والتوكل عليه^(٣٦).

فإذا تم «الافتقار إلى الله على هذا، وتم الصبر في الله على مقاساة الذل وضع الله على رأس الفقير قلنسوة العرفان»^(٣٧).

ذلكم أخيراً.. هو التجرد التام عن كل (إضافة) في نحو القلوب.

(١) يسكون الحاء.

(٣٦) التعرف ص ١٧٥.

(٣٧) اللطائف ج ٢ ص ٥٦١.

رابعاً - الجزم

(وأما جزم القلوب، فالجزم القطع، ويكون بحذف العلائق، والسكون تحت جريان أحكام الحقيقة من غير إخلال بشيء من آداب الشريعة).

الجزم فى نحو الظاهر (قطع) الحركة عن الكلمة، ثم جعل منه ما كان (بحذف) حرف العلة أو نون الأفعال الخمسة، وهكذا يجمع الحذف بين حذف الحركة وحذف الحرف.

ويقول المازنى: «الجزم قطع الإعراب، فمعنى جزم الفعل المستقبل قطع الإعراب عنه، وذلك لأن الفعل المستقبل إنما يعرب إذا وقع موقع اسم....، ولكنك إذا قلت: زيد لم يقم، فقد وقع الفعل موقعاً لا يقع فيه الاسم فرجع إلى أصله وهو البناء»^(٣٨).

هذه المعانى فى نحو الظاهر - واضحة والتنظير هنا فى نحو القلوب - تمام الوضوح. فالحقضية هنا - لحسن الحظ - محصورة فى الفعل المضارع فقط.

وهذا الفعل المضارع قوى.. أولاً لأنه أقرب الأفعال إلى الاسم، وثانياً لأنه سائح فى الزمنية، فهو يعبر عن الحال والاستقبال فى صورته العادية. أى عند التجرد من النواصب والجوازم، وهو أيضاً يعبر عن الزمن الماضى إذا دخلت عليه (لم)، فهو بكل هذه الأوصاف أفضل الأفعال للتعبير عن حالات العبد السالك المريد الزاهد العارف الواصل المتصل، والموقف هنا.. هو موقف (الجزم)، والشيخ لا يضيع وقتاً بل يدخل بنا مباشرة إلى القطع، والحذف.. ثم إلى السكون.

ونتحدث عن (القطع والحذف) فى نحو القلب، فهو قطع العلائق واليأس مما فى أيدي الخلائق. وهذا هو تعاريف معروف الكرخى

(٣٨) الايضاح للزجاجى ٩٢ . ٩٤.

(ت ٢٠٠) للتصوف، وفي تقديرنا أن هذا التعريف المبني على قضية القطع والحذف يجمع في جوهره عدة تعريفات للتصوف كما اعتادت المصنفات أن تبسطها في مقدماتها، فأنت تستطيع دون عناء كبير أن تعيد صياغة التعريفات التالية باستعمال لفظتي (القطع والحذف).

يقول سهل بن عبد الله التستري: «الصوفي من صفا من الكدر، وانقطع إلى الله من البشر، واستوى عنده الذهب والمدر»^(٣٩).

ويقول أبو الحسين النوري (ت ٢٩٥):

«الصوفية قوم صفت قلوبهم من كدورات البشرية وآفات النفس، وتحرروا من شهواتهم حتى صاروا في الصف الأول والدرجة العليا مع الحق، فلما تركوا ما سوى الله صاروا لا مالكين ولا مملوكين».

ويقول أيضاً:

«التصوف ترك نصيب النفس جملة ليكون الحق نصيبها».

ويقول الجنيد (ت ٢٩٧):

«التصوف تصفية القلوب حتى لا يعاودها ضعفها الذاتي، ومفارقة أخلاق الطبيعة، وإخماد صفات البشرية، ومجانبة نزوات النفس».

ويقول أيضاً:

«هو أن تكون مع الله بلا علاقة أي بلا علاقة دنيوية أو ظلمانية».

ويقول الحريري:

«التصوف هو الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دني».

(٣٩) الرسالة (تعريفات التصوف).

ويقول الشبلى: «الصوفى (منقطع) عن الخلق متصل بالحق».

وهكذا نتمثل الفعل المضارع ونحن نرقب هذا العبد الذى يصفه عند تجرده من كل (العوامل) بأنه: لا يكدره شيء ويصفو به كل شيء . يقصد الصوفى. وما هذا السكون هنا فى نحو القلب؟

استمع إلى النورى: نعت الصوفى السكون عند العدم والإيثار عند الوجود (العدم والوجود معناه هنا الفقر والغنى).

ويعبر الشبلى بصدق مقنع عن هذا (السكون) فيقول:

«التصوف هو الجلوس مع الله بلاهم، فالصوفى لا يتبعه طلب ولا يزعجه سبب».

وهو . فى رأى الروزبارى . «الإناخة على باب الحبيب وإن طرد عنه» ولكن.. لماذا يحترز الشيخ فى وصف هذا (السكون تحت جريان أحكام الحقيقة من غير إخلال بشيء من آداب الشريعة) كما جاء فى المتن؟

هنا نستشعر من تحذير الشيخ ألا يحدث إخلال بآداب الشريعة عن طريق (السكون) وبكلمات أخرى نرانا ملتزمين بعرض قضية مهمة من قضايا التصوف لها شأن فى داخل بيئتهم وفى خارجها، بل كثيراً ما امتد الحديث عنها طوال العصور.

فبداية.. إن من علامات الامتثال لطاعة الله ألا يخرج العبد قيد أنملة عما تريده الشريعة من الاحترام والاحتشام فلا تصدر عنه كلمة أو كلمات فيها رائحة المروق والخروج عن الجادة، ولا يصدر عنه فعل أو أفعال فيها تحيف . ولو ضئيل . على أدب من آداب الشريعة، فى الحالين يجب (السكون) عند الحدود الضامنة لحفظ القول والفعل فى نطاق المقبول فى

شريعة الله، ومن الظلم للتصوف والصوفية الخروج عن هذا (السكون)...
وكمثال على ذلك يطالعنا القشيري في مستهل رسالته بعض أوصاف
أولئك المنحرفين (ادعوا أنهم تحرروا عن رق الأغلال، وتحققوا بحقائق
الوصال. وأنهم قائمون بالحق تجرى عليهم أحكامه وهم محو، وليس لله
عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم، وأنهم كوشفوا بأسرار
الأحدية، واختطفوا عنهم بالكلية، وزالت عنهم أحكام البشرية....
فاستهانوا بالصوم والصلاة، وركضوا في ميدان الغفلات، وقلعة المبالاة
بتعاطى المحظورات)^(٤٠).

معنى هذا أن الإمام القشيري قد استفاد من فكرة (السكون) عند
النحاة لكى (يتوقف) هؤلاء الأعداء الدخلاء عند حدودهم، ونقوله للذين لا
يحلو لهم عندما يشنون الحرب على التصوف وأهله إلا أن يلتقطوا هذه
النماذج المريضة فيجعلوا من ضربها له ولهم وقود هذه الحرب الزائفة!

ويتصل بذلك بطريق مباشر ما يعرف في مجالس الصوفية بمجالس
«السماع» حيث ينشد القوالون أشعاراً ومدائح، ويتلى القرآن الكريم وتعلوا
الأصوات بالأذكار والأوراد.. إلخ.

والصوفية بطباعهم ذوو رهافة في الحس، فكأنهم أشبه بعدسات
مفتوحة في جهاز للتصوير أو للصوت المسموع، وسرعان ما يصاب البعض
بانقلاب نفسى أو تغير عضوى فيطرب ويهتز وقد يرقص ثم يبكى ثم
يتشنج وأخيراً قد يزعق ويشهق، ويرغى ويزيد.. وفى بعض الأحيان يقع
مغشياً عليه وقد تذهب روحه فى نوبة من تلك النوبات..

سمع سمنون المحب شيئاً فى مجلس السماع فأنشد:

(٤٠) مفتاح «الرسالة» القشيرية.

إن كان يرجو سواك قلبى فكيفما شئت فاخترنى
فليس لى فى سواك حظ لانت^(١) سؤلى ولا التمنى
وسريعاً ما أصابه على الفور احتباس البول ومرض^(٢).

وهنا نجد كبار القوم يلزمون (السكون) لأن أقدامهم راسخة وأفئدتهم
ثابتة مع أن فى أعماق أعماقهم جيشان لا يعلم مقداره إلا العليم الخبير....
المحبوب. ولقد سئل الجنيد عن سبب هذا (السكون) وعن قلة اضطرابه
عند السماع فقال:

وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر^(٣) السحاب^(٤).

ويعلق السراج على ذلك قائلاً: «ألا ترى أحدهم يكون (ساكنًا) فيتحرك
ويظهر منه الزفير والشهيق، وقد يكون من هو أقوى منه (ساكنًا) فى وجده
لا يظهر منه شيء من ذلك».

وفى رأينا أن المسألة كلها مسألة صدق وإخلاص، وليست من قبيل
الدعوى والادعاء، فالرب سبحانه عليم بكل خلجة فى كل خلية من خلايا
أبدان مخلوقاته، فإذا علم المحب أن تعامله مع الخالق لا مع المخلوقين
التزم حدوده التى (يقف) عندها دون زيادة أو نقصان.

ويرتبط بهذا كله ارتباطاً وثيقاً ما يعرف فى التصوف بظاهرة «الشطح»
فالشطح يظهر فى النهر إذا زاد ماؤه عن حوض مجراه، فيفيض على
جانبه، والصوفى الواجد يمتلئ قلبه بحب مولاه امتلاء لا يتسع له الصدر
ولا الحنايا.. فهل يفصح أو يكتم؟

(١) بضم التاء.

(٢) طبقات الصوفية ص ٤٥ نشر الشرياصى.

(٣) اللمع للسراج ص ١٢٨.

(٤) بفتح الأول وتشديد الثانى.

اختلف الصوفية - حتى أكابرهم - فى الإجابة عن هذا السؤال الذى يشبه المعادلة الصعبة.

والمحافظون منهم - خوفاً على شيوخ الادعاء الكاذب كما أسلفنا - يعتبرون هذه الأشياء من قبيل الأسرار فيصرحون:

«أسرارنا بكر لا يفضها وهم^(١) وأهم».

وينصحون «لا تفش على أحد ما تحب أن يكون مستوراً منك». ويحذرون «الناس جميعاً ليسوا مؤتمنين على حفظ السر بدرجات متساوية، وليس كل المؤتمنين على درجة واحدة من الفهم والوعى والإدراك... فالخير فى (السكون) وعدم الشطح».

أما غير هؤلاء من الشيوخ فإنهم يرون أن هذا الحب الكبير أجل وأعظم من أن تتسع له طاقة البشر، فالتعبير أو الإفصاح نوع من الإقرار بالضعف البشرى أمام الطوفان الإلهى الجارف الذى يهدم كل السدود... فما حيلة العبد؟

أما غير هؤلاء وأولئك فقد ذهب فى الموضوع إلى حد أبعد.. هو ستر الحب بادعاء الجنون! فعرفت البلاد الإسلامية منذ أواخر القرن الثانى الهجرى أحاداً من الناس كثيرة الجولان والتطواف، لا يقر لهم قرار، سائحين هائمين، وسجلت لهم المصادر - أقوالاً وأشعاراً وحكايات غاية فى الطرافة والجمال وغاية فى الدفء والروعة.

ومن الناس من رأى ستر ذلك بفعل ما يوجب الملامة.. وقد تحدثنا عنهم آنفاً حديثاً مقتضباً.

(١) بفتح الأول وسكون الثانى.

وفى النهاية.. فإن الشيخ قد وضع لنا مقياساً لضبط به كل ذلك وهو «من غير إخلال بأداب الشريعة».

ولو رفع هذا الشعار لانحسنت كل المواقف، فذلكم هو المقياس الذى يتوجه . أو ينبغى أن يتوجه . به وفى ضوءه كل (سكون) وكل (حركة).

«ويكون جزم القلوب قسطها عن خطرات المني^(١) فإن الأمانى والمعانى متضادة، فيقطع أعناق المطالبات والإدارات والاختيارات بسيوف اليأس، ثم ليسكن بالله لله مع الله، فإن رجع إلى ابتغاء الرخص شهدت عليه الطريقة بالشرك والردة».

يمكن أن نطلق على هذه الفقرة اصطلاح:

«جزئية من علم الفقه الصوفى، وهى النظرة إلى الرخصة».

فمن المعلوم أن التصوف مشغل أساساً بالإرادة، وأن هذه الإرادة تدخل فى امتحان بعد امتحان كى تنصقل وتتهذب حتى تصبح جديدة بالذوب فى إرادة المولى، بمعنى الخروج من علائق الدنيا، ومن كل المطالبات والاختيارات والمنى، والترفع عن الأعراض والأغراض.. كل ذلك وسيلة وهذا العبد لتحقيق الهدف الأسمى والأسنى، وإن أى شغل يبتعد بالوسيلة عن الهدف هو التناقض المرفوض، لأن معناه أن العبد ما زال بنفسه، وأن قلبه ليس فارغاً، وهنا يكون التضاد بين المبانى والمعانى، ولا يمكن الجمع بين شقيقتين على حد تعبير على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى وصفه لمن يطلب الدنيا والآخرة فى آن واحد.

إن غاية الأمر هنا ألا يكون فى القلب إلا واحد . سبحانه، ذلكم هو الفرق بين المعرفة العقلية والعرفان القلبى، فالمعرفة العقلية ربما كان من أسس بداياتها الثنائية فى التفكير فى معظم الأحيان فأنت حينما تتحدث

(١) بضم الميم وفتح النون.

عن «الصدق» مثلاً تستحضر «الكذب» على الفور كي تميز الشيء، عن ضده.. وهكذا، أما هذه العلاقة الثنائية في العرفان القلبي فهي موقوتة بالمقامات، ولكن عند الدخول في الأحوال: الحب والفناء.. فالتوحيد مهم جداً، ومن آيات اكتمال هذا التوحيد في السلوك إبعاد كل غير (١) حتى لا يبقى إلا واحد.. وهذا الواحد سبحانه هو الذي يقوم في عبده بكل التصريف وبكل أحكام القدرة، فالمرید في الحقيقة من ليس له إرادة! وعلامة ذلك بقاء العبد ساكناً بالله مع الله.

ولا نتوقع من عباد الله الذين اصطفاهم أن تكون نظرتهم إلى ممارسة الشريعة - التي هي للكافة - بنفس الدرجة وبنفس الرؤية وبنفس الجهود، فالصلاة بعدها صلاة، والصوم بعده صوم، والنوافل تؤدي وزيادة.. بمعنى أن هناك ارتقاء وتشدداً، أينما وكيفما وجد المرء إلى ذلك سبيلاً.

فهل نتوقع منه أن يسترخص، أو أن يجنح إلى الأسهل؟

لنستمع إلى شيخنا وهو يجيب عن هذا التساؤل:.

«إذا أحكم المرید بينه وبين الله تعالى عقده فيجب أن يحصل من علم الشريعة - إما بالتحقيق وإما بالسؤال عن الأئمة - ما يؤدي به فرضه، وإن اختلف عليه فتاوى الفقهاء يأخذ بالأحوط، ويقصد أبداً الخروج من الخلاف، فإن الرخص في الشريعة للمستضعفين وأصحاب الحوائج والأشغال، وهؤلاء الطائفة ليس لهم شغل سوى القيام بحقه سبحانه، ولهذا قيل:

«إذا انحط الفقير عن درجة الحقيقة إلى رخصة الشريعة فقد فسخ عقده مع الله تعالى، ونقض عهده فيما بينه وبين الله تعالى» (٤٢).

(١) بالتوین.

(٤٢) الرسالة من ١٩٨، ١٩٩.

بل إن الشيخ هنا - فى نحو القلوب الكبير - يعتبر هذا الفاسخ لهذا العقد مشركًا ومرتدًا!!

ذلك فى نظرنا لأنه يعود إلى هواء، ومعنى ذلك امتلاء القلب بغير الله، وهذه الغيرية فى نظرهم هى الشرك بعينه، والتماسه التسهيل على نفسه عن طريق الرخصة - هى فى نظرهم - انتكاسة وارتداد عن الاتجاه الذى اختاروه، وسنوا له رياضيات شاقة تفوق التدين العادى.

والعلاج.. هو (قطع) كل دبيب للأمانى من بداية الرحلة إلى منتهاها، و(حذف كل علة) تصيب الإرادة الصاعدة المتنامية.

ونختتم هذا الموضوع بتممة من (لطائف الإشارات) حتى نوضح أن هذه النقطة شغلت الشيخ عبر كل مصنفاته مما يدل على أهميتها فى مذهبها يقول فى اللطائف: (.. ومن ذلك إرسال القلب فى أودية المنى بعد إمساكه على أوصاف الإرادة، ومن ذلك الرجوع إلى الحظوظ بعد القيام بالحقوق، ومن ذلك استشعار محبة المخلوق بعد تأكيد العقد معه بألا تحب سواه، ومن ذلك الجنوح إلى الرخص، فى طريق الطلب بعد حمل النفس على ملازمة الأولى والأشق».. كل ذلك عند الشيخ يأتى إشارة من قوله تعالى: «ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها».

ولا ينسى الشيخ فى موضع آخر من «اللطائف» أن يعايش ويشجع الذى استرخى ذات مرة: فيأخذ بيده حتى لا يدفعه الإحباط إلى مزيد من التنازلات فيهمس فى أذنه قائلاً فى سماحة «المربى الواعى».. فبالجنوح إلى الاستعاذة والاستغفار يتلقى العبد التائب من ربه الاغتفار، والعودة إلى التنصل تبيع التفضل، وفى معناه قالوا:

أناس أَرْضُوا عَنَّا

بِلا جَرَمٍ وَلَا مَعْنَى

أساءوا ظنهم فينا
 فهلا أحسنوا الظننا
 فإنم كانوا لنا كنا^(٠)
 وإن عادوا لنا^(٠٠) عدنا
 وإن كانوا قد استغفروا^(٠٠٠)
 فإننا عنهم أغنى

فصل [٧]

وجوه البناء

«وجوه البناء في النحو أربعة: الضمة والفتحة والكسرة والسكون.

والبواطن على لسان أهل الحقائق هذه الأقسام.

فضم الأسرار صونها عن الأغيار، وفتحة القلوب تنقيتها من الكروب
 بمفاتحات الغيوب، وكسرة القلوب سجودها عند بغتة الشهود ومفاجآت
 الالتقاء، وسكون البواطن سكونها^(٠٠٠٠) إلى الحق بنعت الاستئناس على
 وصف الدوام في عموم الأحوال».

وضع الشيخ أيدينا في هذه الفقرة عند تمامها على المنطقة التي يجدر
 أن تكون موضع اهتمامنا في الدراسة ونعني بها منطقة «الأحوال».

والأحوال - كما قلنا من قبل - هي هذه الثنائيات الوهبية التي تتثال على
 العبد من لدن الحق بعدما اجتاز منطقة «المقامات» أي الجهود الذاتية

(٠) بضم الكاف وتشديد النون.

(٠٠) بسكون الواو.

(٠٠٠) بضم العين.

(٠٠٠٠) بضم النون.

الكسبية فيصبح مستحقا للمكافآت على ما قام به. وأوضحنا في مواضع سابقة أن أقرب الأشياء إلى مفهوم المقامات هي «المعريات» في نحو الظاهر: الاسم، والفعل المضارع لأنها تتغير وتتلون، وتزيد وتنقص.. إلخ وبلغة الصوفية: المعريات في مراحل التلوين. أما (المبنى) فهو أقرب إلى مراحل التمكين، لأنه موقوف بأوامر الله، وبالأحكام الخارجة عن أنيته حيث يصل إلى حال السكون تحت مجارى القضاء آنساً راضياً بما يصار إليه بواسطة الإرادة الإلهية.. تماماً كما يلزم (المبنى) شكلاً واحداً لآخره لا يريم عنه. فهو في يد القبضنة لا يملك لنفسه في نفسه شيئاً، ولا حول ولا قوة إلا بالله والله ومن الله.

ونحن نعلم أن القلب بعد تصفيته من دوراته إبان معركته مع النفس يصعد في المعراج العرفانى إلى (الروح) وهذه بدورها تتصاعد إلى (السر).

الروح موطن المحبة، والسر محل المشاهدة. وليس لغير الحق عليه اطلاع ف (ضم الأسرار صونها عن الأغيار) ذلك لأن الله سبحانه إذا رضى عن عبده حرس سره أن يسنح فيه خاطر غير ما يتفضل به الحق، وأبعد عنه كل ما يعكر الصفو حتى يتم الصفاء فتكون المرآة مجلوة ومستعدة للمشاهدة والكشف، وهذه المشهودات المكشوفات تراها عين البصيرة شفيفة لطيفة.. فى حال (الجمع) حيث (تضم) (٠) الإرادة الإنسانية لتذوب بالكلية فى الإرادة الإلهية وعندئذ لا يكون - على الحقيقة - متصرف ولا مريد سوى الله.

وتحدث عند هذا (الضم) و(فتحة) و(كسرة) بفعل المشيئة الإلهية، وعلى هذا يكون العبد أشبه باللفظ (المبنى) الذى لا حول له فى نفسه.

(٠) بضم الأول وفتح الثانى

وأما (فتحة القلوب بتنقيتها من الكروب بمفاتحات الغيوب) (الفتحة) .
كما ذكرنا . علامة الاستواء والراحة وهى هنا بتلك الفتوحات الإلهية التى
يفتح الله بها على هذا العبد .

أجل .. فإن هذا العبد الذى كان إبان الطلب (مضارعاً معرباً) يتلون
ويتغير فإنه مازال ينمو ويصاعد^(٠) فوق الدرج الروحي أياماً وشهوراً
وأعواماً يتقلب بين الوجد والفقد والرجاء والخوف، والهيبة والأنس حتى
يصبح (مراداً) يبسط الله لقلبه من الدقائق والرقائق ما لم يكن يخطر له
ببال .. والنتيجة أن تتجلبب كروبه، ويصفو مشربه، وتنطرح عنه كل هموم
السوى^(٠٠) ويسعد بالسلام فى أعماقه، وتزداد عليه المنح والفتوحات كلما
أقبل مقرباً^(٠٠٠) من هذا العالم اللانهائى الذى تسطع فى سماواته شمس
الشموس!

وما أن تحل عليه (بغته الشهود ومفاجآت الالتقاء) . إن كانت فيه بقية
.. إلا أن يخر ساجداً، لأنه قد أصيب بالانحناء و(الانكسار) فى قلبه أمام
مشهوداته، وهذه الحال الشريفة تصل فى أرقى صورها إلى ما أصاب
رسولنا المصطفى صلوات الله عليه وسلامه ليلة أسرائه، فمنه تعلمنا هذا
الدرس فى (الانكسار) أمام الملائكة الأعلى!

وسيظل (انكسار) القلب الإنسانى والبدن البشرى جوهر الاتصال
المجيد بين الأرض والسماء، بين الإنسان وعظمة العظمة .. إلى أن يرث الله
الأرض ومن عليها . فأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد . وستظل
رحلة روح الإنسان إلى غيب الغيوب باقية فى أصلاب هؤلاء الصفوة
المتأزنين من أتباع محمد .. فكلهم منه مقتبس، وهم يتوارثون هذه القطعة

(٠) بتشديد الصاد وفتحها .

(٠٠) بتشديد السين .

(٠٠٠) بضم الميم .

النورانية فيظهر الله في كل عصر (آحاداً) يقتدى بهم في الصلاح والورع.. هم غياث الأرض والناس والحياة.

تتمة

(وفي المعرب والمبنى إشارات آخر).

فالمعرب يتغير آخره باختلاف العوامل، والمبنى ما يكون على صيغة واحدة، وكذلك صفات العبد، منها ما يقبل التغيير والتأثير: وهي ما كان مجموعاً بتصرفه^(٠) وتكلفه^(٠٠) ومنها ما لا يقبل التحويل والتبديل وهي موضوعات الحق. سبحانه فيه.. من أخلاقه. ويكون ذلك بحسب ما سبق له من أرزاقه، وكذلك من أحكامه فيما وجب له من سابق أقسامه، فمن شقى نفذ بالرد قضاؤه^(٠٠٠) ولم ينفعه كده وعناؤه. ومن سعد مضى بالقبول حكمه فلكم يخرج عن محكوم السعادة جرمه..

الواقع أن هذه الفقرة متصلة اتصالاً وثيقاً بموضوعات علم الكلام، وقد جرى بها هنا لتوضيح أموراً تؤرق بعض الناس في البيئة العامة، ومن الممكن أن يمتد أثرها إلى لفيف من المبتدئين والمريدين السالكين طريق المتصوف فتشغل بالهم. ولو إلى حين.

وجد الشيخ المربي أن يلتمس الطريق إلى ذلك بوصفه متكلماً حتى يصحح بدايات الإيمان لدى هذه الطائفة بحيث لا يبقى العقل فيما بعد موزعاً تنقسمه سوانح مشتتة، الأمر الذي قد يعوق المسيرة.

يؤمن القشيري بحرية الإنسان وبياراته في التصرف لأن الحساب في الآخرة يرتبط بذلك، ذلكم هو (المعرب) من (الأسماء) و(الأفعال) في عمر

(٠) بتشديد الراء وكسر الفاء.

(٠٠) بتشديد اللام وكسر الفاء.

(٠٠٠) بضم الهمزة.

الإنسان على هذه الأرض، وتحدث له التغيرات بحسب (العوامل) التي تطرأ على قلبه.. هذا شيء.

والشيء الثانى . وهنا يعود القشيري المتكلم إلى أشعريته التي لا تعرف حرية الإنسان المطلقة في التصرف على نحو ما يراها أهل الاعتزال . فيصرح أن هذه الحرية مرتبطة بأصول تتبفى معرفتها، وهى أن الإنسان ليس فاعلاً ثانياً في الكون وإلا تعدد الفاعلون، فالفاعل على الحقيقة هو الله وحده، والله سبحانه بوصفه (العليم) قد خطط في سابق الأزل لكل امرئ حظه ومساره الذى سيسلكه في كل ثانية من عمره مما طال هذا العمر أو قصر، وتلك هى (أقسام) قسمت^(١)، وأرزاق وضعت و(مبان) شيدت، لا قبل للعبد أن ينصرف عنها أو يحيد لأنها (لا تقبل التحويل والتبديل) ذلك لأن الملك ملكه والمالك والملك^(٢) أن يفعل في ملكه ما يشاء، وأحكامه فيه لا تخضع لعله.. ولا يمكن لعقولنا القاصرة أن تحيط بتعليل لكل حكم إلهي.. وبالتالي فهو لا يسأل عما يفعل.. فهو «يضل من يشاء ويهدى من يشاء» ولهذا: «فمن شقى نفذ بالرد قضاؤه ولم ينفعه كده وعناؤه، ومن سعد مضى بالقبول حكمه فلم يخرجه عن محكوم السعادة جرمه».

وقد تسبب لنا هذه النقطة بعض الحيرة لبعض الوقت، لأننا قد جررنا على أن نتوقع المكافأة حينما نصنع الجميل والنافع لغيرنا في علاقاتنا العادية، ولكن هنا يطرح سؤال نفسه: هل طاعة العبد تلحق الإله زينة^(٣)، وهل معصيته تلحقه شيئاً؟

لا هذا ولا ذاك..

(١) بضم القاف وكسر السين.

(٢) بفتح الميم وكسر اللام.

(٣) بفتح الأول وسكون الثانى.

ثم.. هل يصح من الناحية الأخلاقية أن نستخدم لفظ (يجب) على الله أن يثيب المطيع وأن يعاقب العاصي؟ من ذا الذى (يوجب) على الله؟ أنا أو أنت أم الناس جميعاً، كل ذلك مرفوض شكلاً وموضوعاً لأنه عندئذ لن يكون إلهاً، حاشا لله.. الحق أنه (لا يسأل عما يفعل) و(هم يسألون).

إن حرية الإنسان تبقى مكفولة.. ولكن فى داخل دائرة من القيود.

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ (٣٣) ﴿يَبَايُ الْأَمْرَ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ﴾ (٣٤) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظُ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (٣٥) ﴿يَبَايُ الْأَمْرَ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ﴾ (٣٦) (الرحمن: ٢٢).

وعمل الإنسان وجده واجتهاده، وكده وعناؤه.. كل أولئك مطلوب ومأمور به. ولكن إذا لم يرتبط ذلك كله بالشعور الجارف المقتنع أولاً بفضل الله، وأن هذا الفضل هو كل المأمول من عمل الإنسان، وبدون هذا الفضل لا يتحقق شيئاً حتى لو ملأ العبد حياته بالأعمال الصالحة مقدار ماء البحر، ولو تسرب دبيب خفى إلى القلب يوهم بأن الإنسان قد بلغ بعمله وحده شأواً يستحق عليه الشكر.. فقد انهار كل شيء.

وإذا فإن (الحسنات لا تغير الأقسام من الشقاوة والسعادة)^(١).

والخلاصة: إننا نظلم أنفسنا إذا قسنا العلاقة بين العبد والرب على العلاقة بين العبد والعبد، لأنه حتى العمل الخير الذى ينهض به العبد ما كان يمكن أن يتم لولا توفيق الله وتسديده (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى)^(٢) أى كان منك الرمى ولكن كان منّا تسديد الإصابة.. التى هى جدوى الفعل وجوهر العمل.. إن فضل الله . فى الواقع . وسيلة بمقدار ما هو غاية، وذلك هو الفرق الكبير بين علاقتنا بالله وعلاقتنا مع أنفسنا، ومن الخطأ إجراء المقايسة بين العلاقتين.. وإلا وقعنا فى خطأ جسيم.

(١) الرسالة ص ١٤٨.

(٢) بفتح الميم.

استمع إلى سيد الأنام وهو يقول فيما روى عنه صلوات الله عليه: «ما منكم من أحد ينجيه عمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا.. إلا أن يتغمدني الله برحمته».

وهو. صلوات الله عليه. قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ومع ذلك يقول: «لا أدري ما يفعل بي ولا بكم» ولا كان جائزاً له أن يقول في وصف نفسه ما نعلم لقال: أعلم أنني رسول الله، وأني معصوم، وأن ربي أدبني فأحسن تأديبي، وأن خلقى القرآن، وأن.. وأن.. وهو لا محالة يغفر لي، ولكنه قال:

«وما أدري ما يفعل بي ولا بكم» ليعلم أن الأمر أمره، والحكم حكمه، وله أن يفعل بعباده ما يريد.

وإذا كان القشيري يعالج الموضوع هنا في حسم قاطع في ضوء (أشعريته) فهو في موضع آخر في لطائف الإشارات يعرضها في سماحة (صوفيته) فيفتح أبواب الآمال على مصاريعها، ويجذب القلوب والعقول إلى الرحب والسعة، استمع إليه وهو يستخرج الإشارة من قوله تعالى: «ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم»: هذه الآية توجب حسن الرجاء وقوة الأمل لأنه جعل من أمارات الأمان من العقوبة شيئين اثنين: الشكر والإيمان وهما خصلتان يسيرتان خفيفتان، فالشكر حالة والإيمان حالة فهون^(١) بهما السبيل على العبد كي يصل إلى مرفأ النجاة.

ويقول عند قوله تعالى: ﴿فَسَاكُتُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٦).

الجنة للأتقياء من هذه الأمة معدة لهم، والرحمة للعصاة من المسلمين مدخرة لهم، الجنة لطف من الله تعالى، والرحمة وصف لله تعالى، الجنة إذا كانت في عرض السموات والأرض فالرحمة أكبر لأنها وسعت كل شيء.

(١) بتشديد الواو وفتحها.

على أن هذا الموضوع برمته سيظل بوجهه في ثايا الكتاب مرات كثيرة إحساساً من المصنف بأنه يشغل البال من حين إلى حين.

ومن أقسام البناء ما بنى على الكسر، فصاحبه أبداً مكسور لا ينجبر كسره، ولا يتغير فقره، ولا يزول ضره، ولا يصلح قط امره. صباحه بلاء، ورواحه شقاء، وجده منكوس وحظه، منجوس ونجمه منحوس، وقصده معكوس. إن ورد نهراً غيضى ماؤه، وإن وجد دراً قرب فقده.

نذكر هنا مما سبق أن شرحناه في موضوع البناء، وكيف أنه في نحو الظاهر يراد به وضع الشيء على جهة يراد بها الثبوت، واللزوم، وعلامة ذلك المعنى ثبات آخر الكلمة على حال واحدة لا تتغير. فكأنها أصل وملازمة للأصل.

ويقول أهل اللغة: إنه سماع عن العرب منذ نطقوا به، وبرؤية صوفية هذا حظه ونصيبه في الوجود. وهذه (القسمة) له بدورها ذات (أقسام): مبنى على الكسر أو على الفتح أو على الضم أو على السكون.

وهذا هو صنيع الشيخ: الربط بين المبنيات وبين الأحكام السابقة في المشيئة الإلهية منذ الأزل.

وبدا بالمبنى على الكسر، فاضطلعت ببسط حالة فقره تعبر عن ذلك المسكين المردود المرفوض، فهو مستبعد من دائرة القبول، مشئوم في بدايته ونهايته، خسر الدنيا والآخرة..

لقد علم^(١) من الأزل أنه سيكون من أتباع الهوى والشيطان، وكما أن إبليس اللعين سيظل ملعونا إلى الأبد فقد وقعت اللعنة على أتباعه إلى يوم البعث وغير خاف أن وضع آدم عليه السلام مختلف تماماً، لأنه حينما تاب

(١) بضم العين وكسر اللام.

وصلحت توبته اجتباه ربه وقبله، وكذلك أبناء آدم الذين يتوبون يقبل الله توبتهم..

وهكذا اتضح الفرق بين من هو من النار، فينطفئ إذا وقع الماء عليه، وبين من هو من الطين الذي يجبر كسره إذا نزل عليه ماء العناية . وهكذا تسقط الحجة التي تذرع^(١٠٠) بها اللعين عند لجاجة رفضه الأمر بالسجود.

ليس أدق . نحويًا . من وضع هذا المسكين الملعون في إطار (المبنى على الكسر) فهذا الوضع المائل سيستمر لاحقًا فيتجمد ويتداعى حتى يهوى كما هو في قرار سحيق! ولن تفيده أنوار الهداية أو تقلل عثرته. فالنور عنده والظلام سيان... هكذا (قسمه) و(قسمته).

وما انتفاع أخى الدنيا بمقلته إذا استوت عنده الأنوار والظلم^(١٠١)

«ومن ذلك ما بنى على الفتح، فصاحبه لا يزول نعيمه^(١٠٢)، ولا يبرح من الخير مقيم، ويسطع من البعد نسيمه، ويسعد على القرب نديمه، لا يتكرر بغيبته مشربه، ولا يتغير . بطول حجيته . مذهبه.

الصدر له فارغ وإن أبطأ في حضوره. الشمس ظلام عند تلالى نوره، والبدر يخجل لفجأة ظهوره».

هذه الفقرة تحتاج منا إلى رقفه أطول.. فهنا مناظر الأمل في رحلة العرفان.

وبصفة إجمالية نقول إنها مختصة بمن هو مغمور في أنوار الأحدية بالكشوفات، ولكى نقدر هذه الأنوار حق قدرها . نتابعها من بداية أمرها خلال معظم مصنفات شيخنا حتى نكتشف رؤيته في نظرية المعرفة وسعادة العارفين.

(١٠٠) بتشديد الراء.

(١٠١) بضم الظاء وفتح اللام.

(١٠٢) بضم الميم.

العقل عنده هو أساس البداية ومهمته صحيح الإيمان بكل الوسائل المتاحة من علوم الظاهر، وكل ما فى حوزة العقل من الأدلة والبراهين.. وهو قبل الالتحاق بعلوم التصوف يناط به الخوض فى رحلة المعرفة، أما هنا عند الصوفية فوظيفته فى مرحلة البداية فقط، ثم يحجم^(٠) وضعه فيما تلا ذلك من مراحل الصعود، بمعنى أنهم . أى الصوفية . لا ينكرون دوره ولكنهم يضعونه فى حجم لا يزيد عنه، لأنه ليس جديراً بالاستمرار فى المراحل اللاحقة الصاعدة.. لماذا؟

لأن العقل بطبيعة وظيفته يعتمد كثيراً على الحس والحواس، على حين أن الموضوع الذى نحن بصدده كله غيب فى غيب.

المنهج العقلى يبدأ من المشاهد إلى الغائب، والمنهج العرفانى لا غائب هنا ولا هناك فهو مشهود وحاضر عند القوم.

العقل عاجز والعاجز لا يدل إلا على عاجز مثله.

العقل آلة العبودية وليس للإشراف على الربوبية.

العقل يعتمد على الفروض والتجويات والاحتمالات والموضوع الذى نحن بصدده هو اليقين.. كل اليقين.. إنه عين اليقين.

العقل قد يصاب بالتقليد أو بالتأويل المفروض للمنفعة، وهذه من أسباب الحيرة والضلال.

وهكذا فإن طبيعة العقل ووظيفته لا تسمحان له بالخوض فى وسط مخالف لطبيعته ووظيفته.. فأنى^(٠) للسفينة أن تمخر فوق اليابسة! وأنى^(٠٠) للحصان أن يركض فوق الماء! كما سبق القول.

(٠) بضم الأول وتشديد الثالث وفتحها.

(٠٠) بتشديد النون وفتحها.

إن الإنسان بعقله وحده لا يستطيع أن يدرك كل شيء عن كيانه فأنى
إله أن يدرك الملكوت الأعلى.. أو كما يقول أبو عبدالله الجلاء (ت ٣٠٦):

كيفية المرء ليس المرء يدركها

فكيف كيفية الجبار فى القدم^(٢)

هو الذى أحدث الأشياء مبتدعاً

فكيف يدركه مستحدث النسم؟

وينتهى المتصوفة إلى أن العقل فى حساب الأنوار يشبه الشمعة،
والشمعة لا قيمة لها إذا استضاء المصباح والمصباح لا قيمة له عندما يطلع
النجم. والنجم لا فائدة منه إذا هل القمر، والقمر لا جدوى منه إذا طلعت
الشمس و(الشمس ظلام عند تالئ) شمس شمس التوحيد.

وهذه الشمس العظمى لا تظهر للعبد طفرة واحدة بل تسبقها لوائح
وطوابع ولوامع.. يوضحها الشيخ بقوله:

«هذه أفاضل متقاربة المعنى، وهى من صفات أصحاب البدايات
الصاعدين فى الترقى بالقلب.

إذا أظلمت سماء القلوب بسحاب الحظوظ سنع لهم فيها لوائح المشف
وتلألأت لوامع القرب.. فهم فى زمان سترهم يرقبون فجأة اللوائح كما قال
قائلهم:

يأيها البرق الذى يلمح

من أى أكناف السما تسطع

(٢) شذرات الذهب ج ٢ ص ٢٤٩ لابن العماد الحنبلى.
(مكتبة القدس ١٣٥٠هـ).

فتكون أولا لوائح ثم لوامع ثم طوالع.

اللوائح كالبروق ما تظهر حتى تختفى، واللوامع أظهر منها وليس زوالها بتلك السرعة، والطوالع أبقي وقتا وأقوى سلطاناً وأنفى للتهمة لكنها موقوفة على خطر الأفول، وأحوال أفولها طويلة الأذيال.

ومن ذلك أيضا (البواده والهجوم)، فالبواده ما (يفجأ) قلبك من الغيب على سبيل الوهلة، إما موجب فرح أو موجب ترح، والهجوم ما يرد على القلب بقوة الوقت من غير تصنع منك، ويختلف في الأنواع حسب قوة الوارد وضعفه، فمنهم من تغيره البواده وتصرفه الهواجم.

(ومنهم من يكون فوق ما يفجؤه حالا وقوة أولئك سادات الوقت)

وقيل:

لا تهتدى نوب^(١) الزمان إليهم

ولهم على الخطب^(٢) الجليل لجام^(٣)

وتتم المشاهدة إذا صحت سماء السر عن غيوم الستر، فشمس الشهود مشرقة عن برج الشرف، وتتألى أنوار التجلى على القلب من غير أن يتخللها ستر أو انقطاع:

ليلى بوجهك مشرق

وظلامه فى السناس سارى

والسناس فى سدف الظلا

م ونسجن فى ضوء النهار

(١) بضم الأول وفتح الثانى.

(٢) بفتح الخاء وسكون الطاء.

(٣) الرسالة من ٤٢، ٤٤.

وينهى الشيخ الفقرة المتصلة بظاهرة البناء على (الفتح) فى نحو الظاهر، وأنها تناظر (الفتوحات الإلهية) فى نحو الباطن، وكيف يعيش العارفون فى سعادة لا مثيل لها، سعادة تفرهم وتمتد إلى كل من يتصل بهم، فالعارف سيد وقته، بعيد عن كل ما ينقص عليه حياته، لأنه بعيد عن كل (العوامل) التى تقلق (راحته وأنسه).

ومن ذلك ما بنى على الضم وصاحبه مرفوع عنه كلفة الاختيار، غير معاتب على اختلاف الأطوار، ولا متلون الحكم عند تفاوت الآثار.

إذا كان الضم فى المعرب - كما قلنا من قبل - هو أثقل الحركات، فما بالك بمن يلزم الضم مدى عمره بسبب (البناء) عليه؟ وحتى إذا غابت الضمة فإن شيئاً ما ينوب عنها ويقوم مقامها (كما فى حالة المنادى العلم المفرد الذى يكون مثى أو جمع مذكر سالم).

وهنا فى نحو القلوب اختار الشيخ لمن يمثل هذه الحالة ذلك المحب المأخوذ المصطلم الذى ذابت إرادته فى إرادة مولاه تماماً، ولم تعد منه بقية ولا تكلف ولا اختيار، فهو متمكن غير متلون (المتلون هو المعرب) تجرى من حوله الدنيا صاعدة هابطة ولا شأن له بها، وتقع عليه الأحوال من وصل ومن فصل، وقرب وبعد، وبسط وقبض. وفرق وجمع... وهو هو... لا يبدو عليه شيء ولا يبدر منه شيء، لأن قوة الواردات عليه لاتدع له - مهما اختلفت الأطوار - أية فرصة للآثار ثابت كالجبل الأشم، «لقد وصل فاتصل، وأمارة أنه اتصل أنه عن نفسه بالكلية

ما زلت انزل فى وداذك منزلاً

تحير^(٠) الألباب دون نزوله

(٠) بتشديد الهاء وفتحها

هذا منزل اختير له وأحل (١) فيه، ولم يعد يملك عنه فكাকা.. إنه حالة توحيد، فالتوحيد هنا (ضم) لاتفرقة فيه إنه حال (جمع الجمع). وتوضحها رسالة القشيري:

«من أثبت نفسه وأثبت الخلق (٢) ولكن شاهد الكل قائماً بالحق فهذا جمع، وإذا كان مختطفاً عن شهود الخلق، مصطليماً عن نفسه، مأخوذاً بالكلية عن الإحساس بكل غير بما ظهر واستولى من سلطان الحقيقة فذاك جمع الجمع» (٣).

«فالعتب عنه مرفوع، والعذر عنه موضوع، فلا له عقل فيلزمه تكليف، ولا له أو منه. في الشرع. فعل فيتوجه عليه تعنيف».

هؤلاء يأسر (٤) القدرة، مشكل بين الوري حديثهم، ملتبس. على الكافة. أمرهم».

مرة أخرى ما زال الحديث يستطرد حول (المبنى على الضم)، هذا الذي هو بأسر القدرة.. ما حيلته - وقد فقد كل حيلة؟ ما مسئوليته وقد تلاشت إرادته؟ ماذا ينتظر منه وعقله غائب وذائب فيما يشهد من الأنوار الغالبة عليه؟

إنها حقاً المعادلة الصعبة!

ومن أمثلتها العملية ما حدث للشيخ أبي الخير الأقطع (ت سنة نيف وأربعين وثلثمائة) حينما وقع مريضاً وقد أصابت ساقه (غرغرينا)، ورأى الطبيب ضرورة قطعها فوراً، فأشار تلاميذه عليه أن يقوم بذلك عندما

(١) بضم الهمزة وكسر الحاء.

(٢) بسكون اللام.

(٣) الرسالة ص ٩٢.

(٤) بسكون السين.

يكون شيخهم في حال المحو، وتمت العملية الجراحية دون أن تظهر على المريض العظيم دلائل الجزع أو تصدر عنه آهة التوجع.

وقد نبهنا القشيري إلى هذه المعادلة الصعبة بعباراته الدقيقة (مشكل بين الوري حديثهم) ^(١).

هذا عبد بدا كمن يسير بجوار البحر ثم سبح في البحر ثم غرق في البحر، وهو في هذه الحالة الأخيرة في كنف الرحمة الإلهية، لا يملك لنفسه شيئاً، وهو غائب فيما يشهد من التجليات، وهو في ذات الوقت لم يفقد وسيلته التعبيرية الإنسانية المعروفة.. (اللسان)، فما الأمر في خروج أشياء عن هذا العبد لتجرى على اللسان قسراً ودون إرادة، وطبعاً أن هذا الذي سيجرى على اللسان سيكون صادراً عن وجود يختلف عن الوجود العادي: وجود (الوري) و (الكافة).. وليس الأمر أمر تعبيرات جارفة قد تكون مخالفة بل ربما صدرت عنه أيضاً وهو في هذه الحال تصرفات وسلوكيات على نفس القدر من الغرابة.. أرأيت إلى العبد الصالح المرافق لموسى عليه السلام في سورة الكهف: من خرق للسفينة، وإقامة لذلك الجدار المنقض، وقتل للفلام!.

تلك أفعال بدت لموسى - مع جلال قدره - غير مقبولة ، لأنها لا تستقيم مع المنطق الظاهري.. حتى جاء الوقت الذي عرف فيه موسى علل هذا كله حسب منطق آخر.. بعيد عن عالم الظواهر والمظاهر.

وأحاديثهم هنا كما وصفها الشيخ (مشكلة) و (ملتبسة) - على الناس العاديين. هذا حق.. وهو ما يعرف «بالشطح» ومع أننا قد سبق أن تناولنا ذلك في مواضع مختلفة إلا أننا مضطرون هنا إلى مزيد من الضوء على المسألة. ونكتفي بما أورده السراج في «اللمع» تعريفاً لهذا الشطح:

(١) بضم الثاء.

«إنه كلام ظاهره مستثنع وباطنه سليم».

وهو تعبير عن أزمة يمر بها الوالهيون، لأنهم في لقاء من نوع فريد، الحق والخلق^(١) واللفة لم تحسب حساب هذا الموقف، ولم تضع له مفرداته وتراكيبه، والعبد بشر لم ينسلخ عن بشريته مهما قيل في وصفه فالتوقع أن تصدر عنه كلمات مبهمة بلا قصد، وربما مسرفة بلا عمد.. ولكنها في عرف أهل الجواهر متناغمة ومنسجمة مع الباطن المحتدم!

تلك مسألة تقتضى فهماً للموقف وتذوقاً لتعبير وحسن نية في التماس المعاذير. وقل في الناس من هو مستعد لكل ذلك حيال هؤلاء الذاهبين. وهذا بالضبط ما حدا الصوفية إلى اتخاذ بعض المواقف الإجرائية، فنادوا بأنهم من الخواص، ونادوا بأن أسرارهم بكر، ونادوا بأن الدخلاء يفسدون عليهم خلواتهم.. وأخيراً حاولوا وضع تفاسير وشروح لألفاظهم.. التي ليست شيئاً آخر غير ألفاظ اللغة العادية ولكنها حين جلبت إلى بيئتهم، ووصفوا بها أحوالهم حملت من الشحنات النفسية ما جعلها ذات دلالات جديدة يفقهها أوساطهم. شأن أي بيئة ذات نشاط خاص ولفة خاصة... فهل في هذا ضير؟! أليس من المحزن أن يلقي الصوفية في بعض العصور مصارعهم حينما يكون أحدهم في حال (المبنى على الضم)

ومن الأمثلة العملية على ذلك الحسين بن منصور الحلاج الذي ما كان إلا والها مأخوذاً عند هذه الحال فاقتادوه إلى المقصلة المنصوبة له في بغداد عام ٣٠٩ ومضى نحو المقصلة يغنى:

اقتلونى يا ثقاتى إن فى قتلى حياتى

وقبل أن يقتلوه راحوا يسألون الشبلى - أحد كبار الطائفة - فى أمره فأجاب فى شجاعة: أنا وابن منصور شئ واحد ولكنه أظهر وأنا كتمت!.

(١) بسكون اللام.

ولو أعدنا صياغة عبارة الشبلى (بلغت نحو القلوب) لقلنا: أنا وابن منصور كلانا (مبنى على الضم) وأن الحلاج قد حول (المبنى إلى معرب) حين تجرأ و(اعرب) عن حاله، وتلك إحدى نهايات (المشكل) (الملتبس) كما تصورها الشيخ.

* * *

ويختتم الشيخ موضوع (البناء) قائلاً:

«ومن ذلك ما بنى على السكون فصاحبه على مكانه موقوف، ومن قصوره مصروف، لا يغنى عن جده^(١)، ولا يسعده جده^(٢)، يطول به الزمان وتوالي عليه الحدثان وهو من أول حاله إلى نهاية مآله لا يجاوز سورة الإخلاص، ولا يخرج إلى صورة الانتفاص».

هنا - فى هذه الفقرة - يعرض القشيري لذلك المبتدئ الذى فكر فى التخلّى عن العادة والدخول فى طريق العبادة تحت تأثير دوافع معينة وبذل فى ذلك بعض الجهد والوقت.. ولكنه سرعان ما تردد ثم توقف وأخيراً انتكس، وعاد إلى المحاولة من جديد مرة بعد مرة، ولكنه فى نهاية الأمر لم يفلح فى شىء.

وهكذا (وقف) فى مكانه لا يريم. فانصرف أو صرف عن القصد بعدما استبان له أخيراً أن اجتهاده من النوع الذى لا جدوى منه (فما أغناه جده^(٣))، وما أسعده جده^(٤).

والإشارة فى الفقرة إلى (عدم تجاوزه سورة الإخلاص) دقيقة جداً، فهى من ناحية تدل على أنه لم يجاوز قصار السور أى كان عند حدود البداية

(١) بكسر الجيم.

(٢) بفتح الجيم.

(٣) بكسر الجيم.

(٤) بفتح الجيم.

فقط، وهى من ناحية ثانية تشير إلى أنه مع كل ما حدث له من انتكاس إلا أنه ما زال يؤمن بالأحادية. إيماناً يبعده عن الحب فى تيار التوهم والتصور، ولم يقع فيما يقع فيه آخرون من جدل فارغ حول الكيفية بصورة توشك أن توقع فى التشبيه، وظل إيمانه لا يتزعزع بأن:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.
تعالى الله عن الأضداد، والأنداد، ليس كمثله شئ.

وكل ما يصوره الوهم فالله بخلاف ذلك.. سبحان الله.

****** هذا هو فى تقديرنا ما أراد الشيخ أن يوضحه وأن يحدده، من واقع تجربته الذاتية، وتمرسه بالطريقة وأهلها، واكتشافه عن كثب لبعض عناصر المبتدئين، كيف يقتحمون ويتحمسون.. ثم يخمدون وينصرفون.

فأراد أن يشخص هنا هذا الموقف وكيف أنه (وقفة على السكون) وجمود فى الخطوات الأولى على الدرب.

ولكن ماذا يعينه ويعيننا ومن هذه المحاولات الفجة التى لا تفيض استمراراً على الدرج العرفانى؟

الإجابة.. إن الشيخ لم ينوه بذلك عبثاً وإنما هو هادف إلى مرام بعيدة نستبسطها على النحو التالى:

١ - يريد أن يميز بين هذا الموصوف (بالبناء على السكون) وبين من (لازم) (البناء على الكسر) الذى استهل به موضوع البناء وأخرجه حتى من زمرة المهتدين والحقه بإخوان الشياطين.

٢ - يريد أن يوضح بعض المبتدئين الذين يدخلون الطريقة غير جادين، فيشيعون بين الأصحاب الكثير من الأباطيل التى قد توهن العزائم فيكونون عبثاً على القوم.. فمن الخير اجتثاثهم قبل أن يستفحل وباؤهم.

٣ - أن الجهد الإنسانى إذا لم يكن مصحوباً بالفضل، والاختيار الإلهى لا يأتى منه شىء مهما تكررت المحاولات (ومهما طال الزمان وتوالت الحدثان).

٤ - إنه يريد أن يقول للكافة من المتدينين أن هذا الطريق خاص، وليس بالضرورة أن يكون كل الناس فى كل الأزمان من الصوفية.. فكل ميسر لما خلق له.

٥ - أنه يوجه - بطريق غير مباشر - (نصيحة إلى الشيوخ وكيفية تعاملهم مع المبتدئين، وفرز آحادهم بعين دقيقة فاحصة. فمرحلة البداية خطيرة.. لأنها انتقال من العادة إلى العبادة، من الخلق^(٠) إلى الحق، فهى مليئة بالارتباطات والجواذب والصراع.. وكل ذلك فى حاجة إلى يقظة الشيوخ، وواجبهم ألا يتركوا الأمور تجرى على سجيته حتى لا تختلط الأمور.

ونسوق هنا بعض هذه النصائح التى توخى الشيخ أن يهمس بها فى آذان الشيوخ فى مثل هذه الأحوال، وأن يقرع ناقوس الخطر أمام المريدين:

«إذا مال المريد فى البداية إلى (وقفة) فعلى الشيخ أن يجريه عن طريق تلقينه ذكراً من الأذكار حسبما يراه ملائماً له، ويأمره أن يذكر ذلك الاسم بلسانه ثم يأمره أن يسوى قلبه مع لسانه، ثم يقول له: اثبت على استدامة هذا الذكر كأنك مع ربك أبداً بقلبك، ولا يجرى على لسانك غير هذا الاسم ما أمكنك، ثم يأمره أن يكون أبداً فى الظاهر على الطهارة، وألا يكون نومه إلا غلبة، وأن يقلل من غذائه على التدريج شيئاً بعد شىء حتى يقوى على ذلك. ولا يأمره أن يترك عادته بمرة فإن فى الخبر «إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى».

(٠) بفتح الميم.

(٠٠) بفتح الخاء.

ثم يأمره بإيثار الخلوة والعزلة، ويجعل اجتهاده فى هذه الحالة لا محالة فى نفي الخواطر الدنية والهواجس الشاغلة للقلب..... وعلى المريد أن يلزم موضع إراداته، وألا يسافر قبل أن تقبله الطريق، فقبل الوصول بالقلب إلى الرب فإن السفر للمريد فى غير وقته سم قاتل.

وعلى المريد أن يكون سبيله احترام الشيوخ والخدمة للأصحاب، وترك الخلاف عليهم، والجهد ألا يستوحش منه قلب شيخ.

ويجب أن يكون المريد فى صحبة الفقراء أبداً خصماً مضاداً لنفسه ونزوعه، وأن يرى لكل واحد منهم قدراً ولا يرى لنفسه واجباً على أحد^(٥).

بهذه التربية الواعية يظهر معدن المبتدئ إبان فترة الانتقال، فإن استجاب زيدت عليه مقادير من الرياضات والتوجيهات تؤدى به إلى مرحلة أرقى.. وإلا فهو (موقوف عند السكون) كما نصت الفقرة. وكان من الخير إبعاده نهائياً من زمرة القوم، لأنه سيكون عظمة فى الحلقوم، ونغمًا نشارًا وسط هذا الإيقاع الهادئ.. وسينعكس هذا بدوره على المريدين النشيطين الذين يترسمون الطاعة للشيخ، والانضباط فى الطريق.

ويختتم الشيخ هذا الباب الكبير «باب الإعراب والبناء» بهذه العبارة:

«كذلك الأحكام: مختلفة الأقسام والأقدار، متفاوتة الأدوار».

أى كما اختلفت أقسام الكلام إلى اسم وفعل وحرف فى (نحو اللسان) وكما نال كل نصيبه من التأثير والتأثر، وكما انطبع آخر كل منها بخاتم خاص يمنحه الثبات (فى البناء) أو التغير فى (الإعراب).

وكما تتفاوت الأدوار التى يؤديها كل فرد منها فى تحقيق الإبانة عن غرض المتكلم من أجل تحقيق الفائدة.

(٥) الصفحات الأخيرة من الرسالة.

وكما أن أى قصور أو نقص فى جزئية من الكلام تحول دون الفائدة المرجوة..

فكذلك فى (نطق القلب) وفى كل منطقة يكون النظير فى علم الباطن حيث نطالع نفس الأحكام والأقسام والأقدار والأدوار.. فليعلم كل (١) موقعه ودوره فى القصة بكاملها.

ولله وبالله الأمر فى كل الأحوال.

هذا..

وتبقى فى الإعراب والبناء ملاحظات أخرى تذكر فى أماكنها من الأبواب التالية، تستكمل بشروحها.. وبالله التوفيق.

* * *

(١) بالتونين.

فصل [٨]:

المعرفة والنكرة

«الأسماء على ضربين اسم معرفة واسم نكرة.

وفي الإشارة: الخلق كذلك فمن صاحب ^(١) معرفة، ومن صاحب ومن نكرة.. ولكل حد ^(٢) ووصف.

فالاسم النكرة يصير معرفة ولا رتبة فوق أن صار معرفة، كذلك لا رتبة للعبد فوق العرفان.

قال المشايخ: ما رجع ^(٣) من رجع إلا من الطريق أما من وصل فما رجع..

(١) بالكسر مع التثنية.

(٢) بتشديد الدال مع التثنية.

(٣) بفتح المهم.

النكرة - فى الظاهر - ماعبر عن شىء شائع فى جنس. وليست دالة على محدد أو معين مثل رجل و فرس، والمعرفة ما دلت على معين محدد مثل: الرجل والفرس.

يقول ابن مالك فى علامات النكرة والمعرفة:

نكرة قابل (أل) مؤثرا أو واقع موقع ما قد ذكرا
وغيره معرفة كهم وذى وهند وابنى والفلام والذى

أى أن علامات النكرة أن تقبل (أل) أو تقع موقع ما يقبلها، فالأول كرجل، والثانى ذو بمعنى صاحب - وهذه تقبلها فتقول: الصاحب.

وتكتسب النكرة التعريف أيضاً إذا أضيفت إلى معرفة وهى حسب قول ابن مالك: الضمير ، واسم الإشارة والعلم والموصول والمحلى بأل.

«ولام التعريف إذا دخلت على النكرة المنون حذفت تنوينه، وذلك لأن اللام للتعريف، والتنوين من دلائل التنكير فلما ترادفا على الكلمة تضادا فكان الحكم لطارئهما وهو اللام»^(١).

ويتجه السيوطى إلى أن (أصل الأسماء أن تكون نكرات، ولذلك كانت المعرفة ذات علامة وافتقار إلى وضع لنقلها عن الأصل)^(٢).

* * *

نعود إلى نحو القلوب عند الشيخ.. فنحس وهو يقول «فالاسم النكرة يصير معرفة، ولا رتبة فوق أن صار معرفة، كذلك لا رتبة للعبد فوق العرفان».

(١) الخصائص لابن جنى ٢ / ٦٢.

(٢) الأشباه والنظائر للسيوطى ٢ / ٢٤.

أنه منصرف بذهنه نحو العارف ورتبة المعرفة في طريق السالكين، وهما عنده قمتان في المنهج.. فالعارف الموحد^(١) هو الولي، ولا رتبة بعد الولاية، (ولا رجوع عنها). إنما الرجوع كما أوضحنا منذ قليل يكون للمبتدئين فهم المعرضون للانتكاس والعودة إلى الدنيا.. فإذا عادوا عادوا (نكرات) دون أن يرتدوا رداء (أل) فقد تم تجريدهم من هذا الوسام.

وفي اللطائف وصف مفصل لهذا العائد الذميم (إلى مألوفاته، وينحط إلى ذميم عاداته، مرتدًا عن سلوك الطريقة متردًا في ظلمة الغفلة، ويصير وقته ليلاً مظلمًا، ويتطوح في أودية التفرقة، ويوسم الطرد، ويسقى شراب الإهانة، وينخرط في سلك الهجر) أما من استمر في طريق (المعرفة) فإنه مشمول (بأنوار اليقين) التي تنفي ظلمة الشك، وبنور العلم الذي ينفي تهمة الجهل، وبنور (المعرفة) الذي ينفي أثر (النكرة) وبنور المشاهدة الذي ينفي آثار البشرية»^(٢).

لأجل هذا لا نتصور أن من مقاصد الشيخ أن تكون (أل) هي رداء الصوف أو الخرقه أو أى مظهر من المظاهر وإلا لاحتوى المبتدئين والأدعياء السابق ذكرهم.. فما أسرع ما يتحلون بهذه الشكليات دون الجواهر، وإنما نتصور أن المقصود برداء (أل) هو ذلك التغيير الشامل الكامل النافذ إلى أعماق أعماق الحياة الروحية.. وبهذا يكتسب (التعريف) فى أقوى صورة، حتى لو كان فقيرًا خاملاً، ومن أجلى صفات هذا (المعرف) أن لديه من الشجاعة الأدبية ما يقوى بها على مواجهة أعلم الأعلام فى عصره حتى لو كان سلطانًا متقلدًا سيفه.. استمع مثلاً إلى الحسن البصرى الزاهد العارف وهو يخاطب والى العراق: «يا عمر بن هبيرة.. إن تتق الله يعصمك من يزيد بن عبد الملك، ولا يعصمك يزيد من الله عز وجل».

(١) بتشديد الحاء وكسرهما.

(٢) اللطائف المجلد الثانى ص ٤٢٢ و ص ٣٩٦.

يا عمر.. لقد أدركت ناساً من صدر هذه الأمة كانوا - والله - على الدنيا وهي مقبلة أشد إقبالاً من إقبالكم عليها وهي مدبرة.

يا عمر.. إنى أخوفك مقاماً خوفك الله تعالى.

يا عمر.. إن تك مع الله في طاعته كفاك بائقة يزيد، وإن تك مع يزيد على معاصي الله وكلك إليه»^(٤).

ولكى نصف سجايا وأحوال هذا (العارف) (المعرفة) نستدعى للشهادة واحداً من خارج البيئة الصوفية.. هو ابن سينا الفيلسوف الطبيب الذي أتيح له مرة يخالطهم وأن يحاورهم، فخرج من ذلك بفكرة مختلفة عما كان يراهم بها من قبل، وأثبت في آخر كتابه العظيم (الإشارات والتنبيهات) صفحات طوالاً في وصف المعرفة والعارف.. يعترف هو نفسه بأنها أجل ما كتب، وسنسمح لأنفسنا أن نستمتع طويلاً إلى هذا الشاهد المتميز وهو يدلى بدلوه في موضوع من أخص خصائص أهل القلوب - وهو بعيد عن بيئتهم:

«المعرض عن متاع الدنيا وطيباتها يخص^(٥) باسم الزاهد، والمواظب على فعل العبادات من القيام والصيام ونحوها باسم العابد، والمنصرف بفكره إلى قدس الجبروت مستديماً لشروق نور الحق في سره يخص باسم العارف، وقد يتركب بعض هذه مع بعض.

العارف يريد الحق الأول لا لشيء غيره، ولا يؤثر شيئاً على عرفانه وتعبده له فقط، لأنه مستحق للعبادة ولأنها نسبة شريفة إليه.

إذا بلغت الإرادة بالعارف حداً ما عنت^(٦) له خلصات من اطلاع نور الحق عليه لذيذة كأنها بروق تومض إليه. ثم تخمد عنه - وهو المسمى

(٤) حلية الأولياء لأبي نعيم ج ٢ ص ١٤٩.

(٥) بضم الأول وفتح الثاني.

(٦) بتشديد النون وفتحها.

عندهم أوقاتاً. وكل وقت يكتنفه وجدان: وجد (٠) إليه ووجد عليه. ثم إنه لتكثر عليه هذه الفواشى إذا أمعن فى الارتياض حتى ليكاد يرى الحق فى كل شيء. ولعله إلى هذا الحد إنما تتسنى له هذه المعرفة أحياناً ثم يتدرج إلى أن يكون له متى شاء حتى يصير سره مرآة مجلوة محاذياً بها شطر الحق فيغيب عن نفسه ويلحظ جناب القدس فقط، وإن لحظ نفسه فمن حيث هى لحظة لا من حيث هى بزینتها... وهناك يحق الوصول».

لاحظ إصرار ابن سينا على بقاء الاثنينية (= العبد عبد والرب رب) حتى فى أعلى درجات الوصول والاتصال.. فلا تداخل ولا حلول ولا امتزاج.

ويمضى ابن سينا فى صفحاته الطوال عن ذات الموضوع فيقول:

«العارف هاش باش بسام.. يبجل (٠٠) الصغير من تواضعه مثلما يبجل الكبير، وينبسط من الخامل مثلما ينبسط من النبیه، وكيف لا يهش وهو فرحان بالحق وبكل شيء فإنه يرى فيه الحق!»

وكيف لا يسوى بين الجميع والكل عند سواسية!»

العارف له أحوال لا يحتمل فيها الهمس من الخفيف فضلاً عن سائر الشواغل الخالجة. أما إذا شغله الحق عن كل شيء فهو أهش خلق الله ببهجته».

ويردف ذلك ببعض التبيهات مثل:

تبيه: العارف لا يعنيه التجسس والتحسس، ولا يستهويه الغضب عند

(٠) بسكون الجيم.

(٠٠) بضم الهاء وفتح الباء وتشديد الجيم وكسرهما.

مشاهدة المنكر كما تعتريه الرحمة فإنه مستبصر بسر الله في القدر (٠)، وإذا أمر بالمعروف أمر برفق ناصح لا بعنف معير (٠٠).

تنبيه: العارف شجاع.. وكيف لا؟ وهو بمعزل عن تقية الموت. العارف جواد وكيف لا؟ وهو بمعزل عن محبة الباطل. صفاح.. وكيف لا؟ ونفسه أكبر من أن يجرحها زلة بشر، نساء للأحقاد.. وكيف لا؟ وذكره مشغول بالحق.

ويختتم ابن سينا هذه التنبيهات الروائع بإشارة لها مقاصد بعيدة:

«إشارة: جل جناب الحق عن أن يكون شريعة لكل وارد، أو أن يطلع عليه إلا واحد بعد واحد.. ولذلك فإن ما يشتمل عليه هذا الفن ضحكة للمغفل (٠٠٠) وعبرة للمحصل.. فمن سمعه فاشمأز عنه فليتهم نفسه لعلها لا تناسبه.. وكل ميسر لما خلق له» (٥).

* * *

ولو أتحنا لأنفسنا هنا أن نختار أحد أنواع (المعرفة) وهو «الضمير»، ولو أجزنا لأنفسنا أن نتأثر منهج الشيخ في استنباط الإشارات لأحسننا بغبطة ونحن نقارن في الواعية بين أوصاف «الضمير» في نحو الظاهر وأوصاف نظيره في نحو الباطن.. استمع وتأمل الكلمات: ضمير (مستتر) و (منفصل) و (متصل) و (مخاطب) و (غائب)..

ثم إن هذا «الضمير» وهو من أعرف المعارف ونحوها. مأخوذ لغوياً من قولهم: أضمرت الشيء في نفسي إذا سترته وأخفيته، أو من قولهم قوس

(٠) بفتح القاف والذال.

(٠٠) بتشديد الياء وكسرهما.

(٠٠٠) بضم المهم وتشديد الفاء وفتحها.

(٥) آخر كتاب الإشارات والتنبيهات لابن سينا. (فصل المعرفة والعارف).

ضامر.. فالضمور النحافة والهزال.. «وضمير» نحو الظاهر غالباً ما يكون قليل الحروف، والمتصل منه أحضر من المنفصل مثل: نعبدك مقارناً بـ (إياك) نعبد. ويعبر عنه بالكناية أو المكنى لأنه يكنى به (أى يرمز به) عن الظاهر اختصاراً لأن اللبس مأمون مع الضمير. والضمير المتصل هو الذى لا يصح أن يبدأ به الكلام، ولا يقع بعد «إلا» فى الاختيار. والضمير المنفصل هو ما يصح أن تبدأ به الكلام ويصح أن يقع بعد إلا. وتاء المتكلم خصت بالضم فأعطيت أقوى الحركات لأن أكثر ما يخبر به الإنسان عن نفسه، وللتفرقة أعطوا المخاطب التاء ذات الفتحة وأخذت الأنثى التاء ذات الكسرة.. فى الكسر رقة (٦).

(٦) توسعنا فى «الضمير» دون غيره من المعارف لأن القشيري لم يفرد له حديثاً خاصاً، فأردنا أن نكمل باجتهادنا المتواضع شيئاً فى الموضوع حتى نتمم الفائدة.

فصل [٩] :

المفرد والمثنى

(أ) الاسم المفرد إذا ثنيت^(١) ألحقته ألفا فى حال الرفع، وياء فى حالى النصب والجر، ونوناً بعد الألف والياء.

ونون التثنية مكسورة وهى تسقط عند الإضافة.

(ب) والإشارة منه: أن الواحد لا تثنية له من لفظ الواحد. والاثنان لا واحد له من لفظه، فلا يقال من الواحد واحدان، ولا من اثنين اثن... فهذا محال فى التقدير.

(ج) كذلك الذى هو «واحد» فى الحقيقة يستحيل أن تزول عنه وحدانيته تقديراً ووجوباً.

والذى يصح أن يكون اثنين فمن المحال أن يصير فرداً لا ثانى له. تقديرأ قال الله تعالى:

«ومن كل^(٢) خلقنا زوجين اثنين».

(١) بتشديد النون وسكون الياء.

(٢) بتشديد اللام مع التوين.

القاعدة (أ) بسيطة جداً (ألف ونون للمثنى فى حال الرفع وياء ونون مكسورة فى حالى النصب والجر) وبالنسبة لجمع المذكر السالم واو ونون مفتوحة فى حال الرفع، وياء ونون مفتوحة فى حال النصب والجر.

ويفسر بعض النحاة ذلك على أساس أن المفرد هو الأصل فتم إعرابه بالأصل وهو الحركة. أما المثنى والجمع ففرعان على الأصل فأعربا بالفروع التى هى الحروف.

ويرجع بعضهم كسرة النون فى المثنى إلى أن المثنى خفيف والكسر ثقيل فلا مانع من اجتماع الثقيل مع الخفيف لإحداث التعادل.

والجمع السالم ثقيل والنون المفتوحة خفيفة فيحدث التعادل^(١).

وفى جميع الأحوال يبقى المفرد من حيث بنيته التركيبية على حالها دون أن تمس، ثم تأتى الزيادات الدالة على المثنى أو جمع المذكر السالم بلا إصابة تعتور المفرد.

فإذا انتقلنا إلى (ب) فإننا نواجه الإشارة المستتبطة من مجمل القواعد السابقة، فالشيخ يلفت نظرنا إلى ظاهرة طريفة حقاً، فهو يستحضر فى ذهنه وحدانية الله سبحانه، ويريد أن ينزهها عن الشريك بطريقة فيها حبكة شديدة فى التنظير بين العبارة والإشارة، ومن هذا المنطلق فكأنى به يقول:

الله واحد:

فإذا أردت أن تضيف إليه شريكاً مثله ويطابقه فى كل شئ لعجزت تماماً عن ذلك، لأنك بمقاييس اللغة لا تستطيع أن تثنى (واحد) إلى (واحدان) فمرفوض إذاً أن يكون هناك (واحد) آخر يشابه أو يماثل

(١) حديث التعادل سيماد طريقه فى باب تمييز العدد بهذا الكتاب بتفصيل.

(الواحد) الأول.. وبهذا تقتضى الندية والمثابرة والقدم عن الواحد المجلوب (الثانى). وإذا فالأديان والمذاهب التى تأسست على (الثنوية) فى الألوية كالزرادشتية والمأنوية والمزدكية مرفوضة.. وأولى من ذلك تلك التى تتأسس على التثليث.

ومع ذلك فلنتمش مع الفرض أنهما فى التثنوية: واحد - اثنان فهيا نستخرج من هذه الأخيرة مفردا حسب السياق المطرد: (اثنان) تصير (اثن) بعد حذف علامات التثنية.. (اثن) هذه لا وجود لها فى اللغة ولا فى النحو ولا فى القاموس ولا فى كلام العرب، إذا فقيامها وحدها مستحيل، وإذا فوجودها باطل فى أساسه، ولا يمكن أن نقرأها ذات معنى إلا داخله فى تركيب (اثنان).

وتلك هى الأشياء الكونية المخلوقة ومعنى قوله تعالى:

«ومن كل^(١) خلقنا زوجين اثنين» فعلى حين ترفض (اثنان) فى (الخالقية) فإنها ضرورة للحياة والنظام الكونى فى (المخلوقية). وبنفس المقدار تقبل (واحد) فى الخالقية بينما ترفض (واحدان) فيها. ولا انتظام للثنائية إلا إذا (توحدت) الأولى.. وسبحان الله فى علائه وتوحيده، ليس كمثله شئ.. تفرد بالملك فلا شريك يساميه وتوحد بالجلال فلا نظير يقياسه، فهو الواحد بلا قسم فى ذاته، ولا شريك فى مخلوقاته، ولا شبيه فى حقه وصفاته.

ويعود القشيري إلى هذه المعانى كثيراً فى مواضع مختلفة من مصنفاته، لأن التوحيد هو قضية الإسلام الأولى - كما نعلم، فالقرآن ألح عليها إلحاحاً قوياً.

(١) بتشديد اللام والتثوين.

ومن أمثلة ذلك قوله في اللطائف (لو كان له شريك لوجب أن يكون له ند^(١) مضاه^(٢))، وفي جميع الأحوال له مواز، ولم يجد^(٣) التمييز بين فعليهما.

وكذلك لو كان له ند فإن إثباتهما شيئين اثنين يوجب اشتراكهما في استحقاق كل وصف، وأن يكون أحدهما كصاحبه مستحقاً له.. وهذا يؤدي إلى ألا يعرف^(٤) المحل.. وذلك محال^(٥). ويقول في موضع آخر (إثبات الواحد ضرورة، وقدرة الاثنين محصورة)^(٦).

(١) بكسر النون وتشديد الدال.

(٢) بتووين الهاء وكسرهما.

(٣) بضم الياء وسكون الجيم.

(٤) بضم الأول وفتح الراء.

(٥) اللطائف المجلد الثاني ص ٢٢٢.

(٦) اللطائف المجلد الثاني ص ٣٠١.

فصل [١٠] :

تتمة فى المفرد والمثنى

«وما دام الواحد من الأسماء واحداً فهو بصفته فى حروفه، فإذا انضم إليه غيره حتى يصير اثنين وقع فى التغير، فمرة مرفوعاً بالألف، ومرة منصوباً أو مخفوضاً بالياء . كذلك العبد ما دام بقلبه مفرداً ^(١) مجرداً ^(٢) فهو فى أسمى نعوته، فإذا حصلت علاقة المواصلات وقع فى التلوين فمرة ومرة..

(١) بتشديد الراء.

قلنا فى شرح الفقرة السابقة أن المفرد أصل والمثنى فرع.

وأن المفرد يعرب بالأصول (الحركات) والمثنى يعرب بفروع لهذه الحركات أى (بالحروف).

وكذا المنفرد ببنيته الأصلية محافظ على كيانه، فإذا ما أدخل^(١) فى عالمه الانفرادى قوى خارجية فإنها تتجاذبه يمناً ويسرة، وربما تفقده انفراديته الشريفة المستقلة بالله، وتوقعه فى صراعات النفس والهوى والشيطان والخلائق.. كل ذلك نتيجة (الاثنية) وما يصاحبها من تغيرات وتوجهات. ولو سارت الأمور على طبيعتها السليمة فإن هذه التوجهات لو كانت لله سبحانه كان المقام (الرفع)، أما إذا مالت أو جنحت إلى ما هو غير الحق أصيب العبد (بالخفض) أو (النصب) وكلاهما بانياء أى بحرف يميل نحو التسفل، ولا أمان بعد ذلك من مظاهر (التلوين) والبعد عن (التمكين).

معنى ذلك فى كلمات قصار: أن (القلب المفرد المجرد مرفوع) وأن (القلب الموزع بين العلاقات مشئت حائر) لا أمامه ولا تحت أقدامه دليل إنه أشبه بالغريب الذى يتطوح فى مطارح الشتات^١.

ولعل حال المنافقين من أكثر النماذج ملاءمة لحال التوزع هذه، فهم لا يستطيعون الجمع بين صحبة المسلمين وعشرة الكفار، فهم يقولون لكل فريق نحن بجانبكم، فيعيشون فى وقت واحد بين إضمار وإظهار.

وهذا وحده مدعاة لصراع باطنى محتدم لا يجلب الراحة أو القرار فضلاً عن أنه ميفوض عند الله من البداية وعند الناس أو أن انبلاج الحقيقة وافتضاحهم، فينفون عن هؤلاء، وأولئك. ويلحق القشيري بهم المترددين بين العادة والعبادة فى الطريق فيقول فى لطائفه عند قوله تعالى:

(١) بفتح الهمزة.

«مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء».

(كذلك من رام الجمع بين طريق الإرادة وطريق أهل العادة فإن ذلك لا يلتئم. فالضدان لا يجتمعان، و«المكاتب عبد مابقى عليه درهم» وإذا أدلهم الليل من ههنا أدبر النهار من هاهنا. فمن كان له فى كل ناحية خليط، وفى زاوية من قلبه ربيط كان نهباً للطوارق ينتابه كل قوم، فقلبه أبداً خراب، لا يهنأ بعيش، ولا له - فى التحقيق (رزق من قلبه، قال قائلهم: -

أراك بقية من قوم موسى فهم لا يصبرون على طعام

ويؤكد المعنى نفسه فى موضع «ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون^(١)» فيقول: (لا تتوهموا أن يلتئم لكم جمع الضدين، والكون - فى حالة واحدة فى محلين. فالعبد إما مبسوط بحق أو مربوط بحظ، وأما حصول الأمرين فمحال)^(٢).

ولهذا كله يقول شيخنا «نون التثنية أبداً مكسورة، كذلك صاحب العلاقات مكسور الجناح يطرح نفسه كل مطرح».

هذه النون فى نهاية المثنى (مكسورة) أشبه بالجناح (المكسور) على الدوام.. بل إنه من العجيب أن هذا الجناح المكسور ربما يصاب بالبتير (الحذف) عند الإضافة أى عند مزيد من العلاقات المتراكمة.. فهى «تسقط عند الإضافة لأنه بدل التنوين فى الواحد. والتنوين والإضافة أمارتان للمعرفة فلا يجتمعان. كذلك صفة العارف إذا غلبت عليه صفة من صفات المعرفة. فالصفة التى فى مقابلتها تكون مغمورة مستورة، فإذا كان الغالب عليه القبض فبسطه مستور، وإذا كان الغالب عليه البسط

(١) اللطائف المجلد الأول ص ٧٦.

(٢) اللطائف المجلد الأول ص ٩٧ والحقوق للحق سبعمائة والحظوظ من قبل العيد.

(٠) البقرة ٤٢.

فقبضه مغمور، وإذا كان الغالب عليه الأنس^(١) فالهيبة كالمقابل، وإذا كان غالبه الهيبة فالأنس كالزائل وعلى هذا النحو جميع أوصافه..

نقل الشيخ إشاراتِه إلى أحوال العرفان.

والقلب بين إصبعين من أصابع الرحمن، يقلبه كيفما شاء وعلى العبد الامتثال.

وفى تلك الأحوال تكتسح الحال اللاحقة الحال السابقة وتحل محلها وتبقى الغلبة لها.. وهكذا، والعبد ينزل على حكم الوقت وإلا ناكده وتحول عليه إلى مقت.

كذلك فى نحو الظاهر يجرف شئ شيئاً آخر: (كالإضافة) حينما تزيج (التتوين) فهما لا يجتمعان.

وضرب الشيخ مثالين للأحوال، كالقبض يزيج البسط والعكس، والأنس يزيج الهيبة والعكس.. ونتريث قليلاً عندهما لزيادة تفهم المقصود: القبض والبسط تسبقهما فى السلم^(٢) العرفانى حالتا: الخوف والرجاء.

وهما مرتبطتان بالمستقبل كالخوف من فوت محبوب أو هجوم محذور، وكالرجاء بتأميل محبوب أو بتطلع إلى روال محذور أو كفاية مكروه قد يقع.

أما القبض والبسط فهما متصلان بواردات الوقت، فعندما يرد وارد من عتاب أو رمز لاستحقاق تأديب مثلاً ينقبض القلب لا محالة.

وعندما يكون الوارد إشارة إلى تقريب أو إقبال أو ترحيب ينبسط القلب لا محالة.

(١) بضم الهمزة.

(٢) بتشديد السين وضعها.

والعارف لا يسىء الأدب فى الحالين، بل يستسلم لحكم الوقت لأنه بحكم تجربته يعرف أن البسط يأتى على حسب القبض، والقبض يأتى على حسب البسط..

ونختار قطعة من النثر الصوفى الرائع المعبر عن هذه المعانى ما يقوله الجنيد: «الخوف من الله يقبضنى، والرجاء منه يبسطنى، والحقيقة تجمعنى، والحق يفرقنى.

إذا قبضنى بالخوف أفنانى عنى، وإذا بسطنى بالرجاء رددنى على^(١)، وإذا جمعنى بالحقيقة أحضرنى، وإذا فرقنى بالحق أشهدنى غيرى ففطانى عنه، فهو تعالى فى ذلك كله محركى غير ممسكى، وموحشى غير مؤنسى.. فأنا بحضورى أذوق طعم وجودى... فليته أفنانى عنى فمتعنى، أو غيبنى عنى فروحنى!»

الهيبة والأنس وهما فوق القبض والبسط فى السلم العرفانى فالهيبة أعلى من القبض، والأنس أتم من البسط. وحق الهيبة الغيبة فكل هائب غائب، وحق الأنس صحو فكل مستأنس صاح.. فمثلاً قد تبدأ المناجاة فى هاتين الحالين: أنا الرب لا إله إلا أنا..

... وأنا عبدك خاشع متذل بين يديك هكذا.. وعلى هذا المنوال تسرى لغة الحب حتى إذا تتالت الأنوار وتجلى الحق بالهيبة سكن العبد سكوناً تاماً، وامتلأ السر بهيبة المولى سبحانه ولم يعد هناك من العبد لنفسه فى نفسه.

ولكون هذه الأحوال مرتبطة بالتغيرات النفسية المتعاقبة، والتي تتثال بمقادير دقيقة فإنها فى ذات الوقت إثراء للغة القاموسية، لأنها اكتسبت طابع المصطلحات المتفق عليها بين القوم، وتلك إحدى جلائل المعطيات، التي أفرزتها علوم الصوفية، وعادت بالنفع على الأدب واللغة بعامة.

(٣) الرسالة.

(١) بتشديد الهاء.

فصل [١١]:

الجمع

«الجمع على ضربين: جمع سلامة وجمع تكسير».

وفى الإشارة كذلك: ما يسميه القوم «الجمع، على قسمين: . جمع سلم صاحبه وهو ما حفظ عليه الشرع فى وقت غلبات الجمع. وجمع صاحبه مكسور الصحة وهو ما لا يحفظ^(٠) على مدعية^(٠٠) آداب العلم.

والفرق بين جمع أقسام النحو فى الخطاب وبين أقسام جمع نحو القلوب أن: كل الجمع فى الخطاب . أى فى مسائل النحو . صحيح . وفى نحو القلوب أحدهما صواب والثانى غير صواب.

والإشارة: جمع السلامة ما يسلم فيه لفظ الواحد، وكذلك جمع سلامة هذا الطريق ما يسلم العقل فيه من الشبهة، والفعل من البدعة، والنفس من الشهوة، والقلب من الغفلة والغيبة، والسر^(٠٠٠) من الحجة.

وجمع التكسير ما تكسر^(٠٠٠٠) فيه لفظ الواحد.. كذلك المدخول من جمع القوم ما يزول عن عقود الحقيقة، ويزيغ عن حدود الشريعة.

(٠) بضم الياء.

(٠٠) بتشديد الدال.

(٠٠٠) بتشديد السين مع كسرها.

(٠٠٠٠) بتشديد السين وفتحها.

يتركز نظر الشيخ في كلا الجمعين: السالم والتكسير على مصير المفرد، فالمفرد يبقى على حاله دون أن تعتور بنيته تغييرات، وما عليك إلا زيادة الواو والنون أو الياء والنون في حال المذكر، والألف والتاء المفتوحة في حال المؤنث.

أما عند جمع التكسير فإن تكسيرات تحدث غالب الأحيان في بنية المفرد. وقبل أن نتناول بالشرح وقع الإشارة عند شيخنا في هذا الخصوص نقف قليلاً في مجال نحو الظاهر لنستفيد بعض الفوائد لعلها تكون ذات قيمة في تذوق إشارته الآن وفيما بعد.

ليس كل مفرد قابلاً لأن يجمع جمع سلامة، بل لابد أن يكون هذا المفرد في حال جمع المذكر السالم علماً، أو وصفاً لعاقل. فإذا كان علماً ينبغي أن يكون مذكراً عاقلاً خالياً من تاء التانيث. غير مركب تركيباً إسنادياً ولا مزجياً. وألا يكون من باب أفعل الذي مؤنثه فعلاء، ولا فعلان الذي مؤنثه فعلى. ولا مما يستوى فيه المذكر والمؤنث (كصبور وجريح) ولا وصفاً لمؤنث.

أما جمع المؤنث السالم فإنه لأعلام الإناث، وما لا يعقل من مصغر^(١) المذكر. وأوصاف المذكر لغير العاقل.

وعندئذ يحق لنا أن نقول إن الله قد ميز العقلاء على سائر المخلوقات فخصهم بالجمع السالم. وقد يحق لنا - وبتحفظ شديد - أن نقول على استحياء إن قاعدة جمع المؤنث لا تنطرد مع قاعدة جمع المذكر السالمين لأنه ربما - في الإشارة - النسوان مبعديات عن جماعات الذكور «انظر وصية الشيخ في ذلك»^(٢) والقصد طبعاً اتقاء الفتنة ومنعاً للأقاويل المشوشة.

(١) الرسالة ص ٢٠٣.

(٢) بضم الميم وتشديد الفين وفتحها.

وأما جمع التكسير فهو مكسر^(١) للصحة البنيوية للمفرد، وسيوضح بيان ذلك بعد قليل، وسيفرد له الشيخ الباب الأخير من هذا الكتاب.

نظن الآن أن الإشارة أصبحت على مرأى العين..

ففى طريق القوم يوجد من يسلك الرحلة من البداية إلى النهاية وهو ثابت كالطود لا يتأثر رغم الزيادات الطارئة عليه، والدالة على انتقاله من التفرقة (حال الأفراد) إلى الجمع (حالى الجمع وجمع الجمع).

ويفترض أن تكون المحافظة على أمور معينة من ألزم اللوازم فى هذا السياق ويأتى فى مقدمتها - كما ألقنا وراء الشيخ غير مرة - حفظ آداب الشريعة.

ونص الشيخ على حال الفرق الثانى فى وسط حال الجمع من أجل العودة إلى التكليف والقيام بالفرائض فى أوقاتها المعلومة..

فعندما يخرج بعض المرضى والأدعياء والنهازون عن هذا الخط (السليم) ويمارسون الرذائل بدعوى أنهم مأخوذون بما هم فيه من (جمع) فهذا الشيخ خروج عن (السلامة) بل هو من قبيل (انخطأ) و(الخطيئة). وكم يعلق على مشجب الحقيقة من أباطيل وترهات عددها الشيخ فى الفقرة: شبهات العقل، والبدعة، والشهوة، والغفلة، والحجبة.

ووزعها على الجوارح الباطنية توزيعاً يصلح أساساً لدراسة أعماق النفس الإنسانية حيث شخص العلة، ومكانها.. وأدواءها عند قوله:

«وجمع السلامة فى هذا الطريق ما يسلم فيه العقل من الشبهة والفعل من البدعة والنفس من الشهوة، والقلب من الغفلة والغيبة، والسر من الحجبة».

(١) بضم الميم وتشديد السين وكسرهما.

وهنا ننبيه إلى أن الغزالي قد خصص القسمين الثالث والرابع من «إحيائه» للمهلكات والمنجيات، فلمن يريد التفصيل في ذلك أن يعود إليه.

ونكتفى هنا بتلخيص مذهب شيخنا في هذا الخصوص - كما ورد في الفقرة - في سطور مهمة: -

١ - الأصل أن العقل ملكة وهبها الله للإنسان، ومطلوب منها أن تقوم بكل ما في الاستطاعة لأجل تصحيح الإيمان وتدعيم اليقين، حتى إذا سلم العقل من كل (شبهة) انسحب إلى الوراثة بعيداً بعد أداء دوره، وأسلم الراية للقلب كي يبدأ دوره العاطفي التدوقي الوجداني في رحلة الصعود، ولن يظهر العقل بعد ذلك أبداً.. لأنه لحظتئذ يكون قاطع طريق!! أما عن (البدعة) فيصفها الشيخ في كتاب آخر له ^(٢) بأنها «قول أو فعل لم يسبق إليه قائله أو فاعله. وهي كل ما نيس له أصل في الكتاب والسنة وإجماع الأمة، وعلاجها الاقتداء برسول الله ﷺ في كل قول وفعل، قال عليه السلام: «من مشى إلى صاحب بدعة ليوقره فقد أعان على هدم الإسلام».

ويحذر ابن عباس قائلًا: «ما يأتي على الناس عام إلا أحدثوا فيه بدعة وأماتوا فيه سنة حتى تحيا البدعة وتموت السنة».

وإذا كان الابتداع خارج بيئة التصوف مرفوضاً فهو هنا أولى بالرفض لأنه هنا أشد خطورة، ذلك لأن المريد - سواء أراد أم لم يرد - يعيش حياة كلها تقليد لمن سبقوه من السالكين والشيخوخ، ولهذا فإن وزير صاحب البدعة مضاعف، ففي عنقه وزير ابتداعه ووزير من وقع في اتباعه.

أما (شهوة النفس) فتعود إلى ما سبق أن ذكرناه في أكثر من موضع بأن النفس مركز المعلولات وأنها الأمانة بالسوء، ونسوق هنا سطوراً للشيخ

(٢) التعبير في التذكير للتشيري ص ٩٢ و ٩٣ تحقيق د. بسيوني. طبعة عالم الفكر.

تصلح أن تساق مثالا للنثر الفنى عند المتصوفة... يقول فى «لطائفه» فى مواضع مختلفة «إن من وطن النفس على الدنيا وبهجتها غرته بأمانيتها، وخدعته بالأطماع فيها، وهى تخفى الصاب فى شرابها، والحنظل فى عسلها، تعد ولا تقى بوعودها. وتوفى (٠٠) آفاتها على خيراتها، نعمها مشوبة بنقمها، وبؤسها مصحوب بأنسها، وبلاؤها فى ضمن عطائها، والمغرور من اغتر بها».

ولهذا.. فإن أول قدم فى القصد إلى الله الخروج عن النفس، ولا يكون قتلها إلا بالتبرى عن حولها وقوتها أو شهود شىء منها. ورد دعاواها إليها، وتشويش تدبيرها، وتسليم الأمور إلى الحق - سبحانه - بجملتها، وانسلاخها عن اختيارها وإرادتها، وامتحاء آثار البشرية.

وينبغى على العبد إذا ظفر بنفسه ألا يبقى (٠٠٠) فى انتفاش شوكتها بقية. فالحية إن بقيت فيها بقية من الحياة فمن وضع إصبعه عليها بثت سمه فيه.

ومن علامات من ماتت نفسه زوال آفاته، وسقوط شهواته، وقيامه بحقوق ربه وما فيه رضاه، وتباعده عما فيه حظوظ نفسه ومناه، فيعيش مع الحق بالصدق ومع الخلق بحسن الخلق.

أما الغفلة والغيبة فهما متصلتان بالقلب بعد أن يتحرر من رق النفس. فهو يستيقظ فى وطنه الجديد سليماً منياً مستعداً للامتلاء بإرادة المولى ولاستقبال الأنوار.. ولكنه يبقى مهدداً على الدوام من جانب عدوه الأصيل «النفس» فهى سرعان ما تناوشه من جديد، وتنقض عليه غير مرة. ويحدث ذلك عند ظهور أول بادرة من بوادر الغفلة أو الغيبة للقلب، ومثال

(٠) بتشديد الطاء.

(٠٠) بضم التاء وتشديد الفاء وكسرهما.

(٠٠٠) بضم الياء.

ذلك أن يتسرب إليه ببطيئاً شعور بإحباط عن تحقيق المطلوب لبعده النائي، أو أن يحدث له نوع من القلق العارض، أو يصيبه العجز عن الاستمرار في المجهودات المطلوبة، أو يشوش عليه بعض المستضعفين الذين كشفنا - مع الشيخ - ما يحدثونه من أزمات.. كل ذلك يدعو إلى (غفلة) ! وعليه عندئذ أن يهب من فوره لينقذ البناء من التداعى، ويتسلح بالثقة في الله لإعانتة في هذه الوثبة المخلصة الخالصة، وسرعان ما تنثال المن وتتهال العطايا.. وتشرق الأنوار من جديد.

ومرة أخرى نسوق نموذجاً لنثر الشيخ في هذا الخصوص.. ففيه من الدقة والمتعة ما يخفف عنا الغناء:

«قد تقع لنسالك فترة، ونمر يد وقفة وتعارف (حجة) وللمحب فرقة.. وتلك محن عظيمة ومصائب شحيعة. فما هو إلا أن تكسف شمسهم، وينطفئ في الليلة الظلماء سراجهم^(١). ويتشتت من السماء ضياء نجومهم، ويصيب أزهار نسهم وربيع وصلهم، يحصر فيه بلاء شديد، وعذاب أليم.. ذلك لأن آثار سخط الملوك موحمة، وقصة إعراض السلطان موحشة.. هنالك تسكب العبرات، وتشق الجيوب، وتلطم الخدود، وتعطل العشار، وتخرّب المنازل وتسد الأبواب، وينوح النائح :

واتى الرسول فأخبر
مرأنهم رحلوا قريباً

رجعوا إلى أوطانهم
فجرى لهم دمعى صبيبا

وتركن ناراً فى الضلوع
وزرعن فى رأسى مشيباً^(٢)

أما (الحضور) فيكون العبد حاضراً بالحق بمقدار ما يغيب عن الخلق لاستيلاء ذكر الحق عليه.

(٢) اللطائف المجلد الثانى ص ٧١٢.

(١) يضم الحيه.

وينهى القشيري الفقرة بالتنظير بين (جمع التكسير)^(١٠٠) وبين «المدخول من جمع القوم»... والمدخول من الدخل بسكون الخاء وفتحها أى العيب والريبة، ومن أمثلة ذلك الناقض لأحكام انشريعة، أو اللاجئ للرخصة.. ونحو ذلك «ممن يسيئون الأدب على البساط فيردون إلى الباب، ومن لم يحكم الأساس فى بنيانه سقط السقف عليه بجدرانه».

(١٠٠) بسكون الكاف

فصل [١٢]:

تابع (الجمع)

«إذا جمعت اسماً مذكراً جمع السلامة فيما يعقل ألحقت بآخره واوا في حال الرفع، وياء في حالي النصب والخفض، وثوناً بعد الواو والياء. وهي مفتوحة. وتسقط عند الإضافة.

والإشارة: إذا صار الاسم إلى حال الجمع وقع في كل هذا التلوين والتغيير فمرة ومرة من زيادة ونقصان، وتبديل وتحويل.

كذلك صاحب الجمع زال حكمه عن نفسه، فمرة يظهره الحق في صورة التقريب. ومرة ينصبه في نعت الأبعاد..

.. وهو محو الاختيار، وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود،.

خرج الشبلى يوماً في زى رث^(١) فقيل له في ذلك فقال :

فيوما ترانا في الحديد نجره ويوما ترانا في الحرير عوابسا

ويوما ترانا والثريد نلت^(٢)ه ويوما ترانا ناكل الخبز يابسا

* قال عليه السلام مرة :

«إني لست كأحدكم إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني».

ومرة أخرى قال: «أنا ابن امرأة تأكل القديد».

* وحكم مرة لعشرة بالجنة:

ومرة أخرى قال: «إنه ليفان^(٣) على قلبي».

(١) بتشديد الاء.

(٢) بتشديد الاء.

(٣) انظر: صحيح مسلم (باب استحباب الاستغفار من ٢٠٧٥ ومسند أحمد ٤ / ٢١١).

مرة أخرى يعرض المصنف . رَحِمَهُ اللهُ . للتغيرات التي تحدث (للمفرد) أى للصوفي السالك طريقه فى الرحلة إلى الله، وهى هنا فكرة مكررة، وبالتالي فلن نكلف أنفسنا أو القارئ مشقة التكرار.. ومع ذلك فلن نحرم أنفسنا من انطباعات عما هو جديد هنا:

١ - لأول مرة فى الكتاب يطالعنا قدر كبير نسبياً من الأسانيد عن رسولنا صلوات الله عليه وعن الشيوخ فضلاً عن الاستشهاد بأى الذكر الحكيم..

وهذه واحدة فى الإشارة بما تكون مقصودة: أى أن التصوف مستند إلى كل هذه الأصول أولاً وأخيراً... حتى لا ينسى القارئ هذه النقطة فى منهج الشيخ.

٢ - ما يذكره الشيخ من أحوال نبينا صلوات الله عليه (فيما يتلون) منها يمكن أن تكون وسيلة إقناع بما يحدث للعارفين. فالنبي ﷺ فى حال من (البسط) بحيث يقول إنه يبیت عند ربه يطعمه ويسقيه، ثم هو فى حال أخرى من (القبض) بحيث لا يرى نفسه أكثر من ابن امرأة من قريش تأكل القديد.

وهو يبدو فى حال من (التمكين) حين يبشر عشرة من الرجال بالجنة. بينما نراه فى حال من (التلون) حينما يقول: إنه ليغان على قلبى فأستغفر الله فى اليوم سبعين مرة (١).

ألا نقتنع بعد أن للعارفين أسوة فى المصطفى صلوات الله عليه فيما يقع لهم من (التغير) فى الأحوال بين (الإفراد) و (الجمع) ؟

وهكذا يمكن أن نعالج الفقرة التالية فى ضوء هذا الفهم :

«كذلك صاحب الجمع زال حكمه عن نفسه، فمرة.....»

فكما أن الجمع - فى نحو الظاهر - خاضع (المرفع والمنصب)، متأثر فيهما بعوامل خارجية، وكما يلحقه نتيجة لذلك بعض التغير.. كذلك

(١) انظر: نحو القلوب الصغير ١٧٠ للإمام القشيري. حققه - أحمد عبد الحى الحسى، ط: تونس.

العبد (المجموع) بكليته فى قبضة الحق يكون بين تقريب (رفع) وبين إبعاد (نصب وخفض).

وكما تسقط (نون الجمع) فى النحو الظاهرى عند (الإضافة) كذلك تسقط عن هذا العبد (المجموع) فى النحو الإشارى صلاته ^(١) بنفسه وأمانيه، فلا يأخذ وضعه الحقيقى إلا (مجردا) من كل الدوافع الذاتية دلالة على حق بلا خلق، واستهلاك بالكلية فى مشهوده لأنه آنئذ (محو عن الاختيار) ولنتوقف قليلا عند هذا (المحو) الذى هو صميم عمل هذا (النحو) !!

المحو والإثبات :

«المحو (رفع) أوصاف العادة، والإثبات إقامة أحكام العباداة، فمن نفى عن أحواله الخصال الذميمة، وأتى بدلها بالأفعال والأحوال الحميدة فهو صاحب محو وإثبات» ^(١).

ثم يزيد الشيخ المسألة إيضاحاً بعد إيضاح فيقول :

«وينقسم إلى : محو الزلة عند الظواهر. ومحو الغفلة عن الضمائر ومحو العلة عن السرائر.

وأما حقيقة المحو والإثبات فهى أنهما صادران عن القدرة، فالمحو ما ستره الحق ونفاه، والإثبات ما أظهره الحق وأبداه. فهما مقصوران على المشيئة، قال تعالى :

«يمحو الله ما يشاء ويثبت».

يمحو الله عن قلوب العارفين ذكر ^(٢) غير الله تعالى، ويثبت على السنة المريدين ذكره.. ولكل أحد ما يليق بحاله.

(١) الرسالة ص ٤٢.

(٢) بكسر الصاد.

(٣) بفتح الراء.

قال رجل للشبلى: مالى أراك قلقاً.. أليس هو معك وأنت معه؟

فأجاب الشبلى: لو كنت أنا معه كنت أنا ولكنى محو فيما هو !

والمحق فوق المحو، لأن المحو يبقى أثراً، والمحق لا يبقى أثراً.. وغاية همه القوم أن يحققهم الحق عن شاهدهم، ثم لا يردهم إليهم بعد ما حققهم عنهم^(٢).

وبعد..

فمن هذه النقطة الأخيرة.. هل نجيز لأنفسنا تخريجاً يمر بالذهن الآن.. أن على الذين يجادلون حول استحالة اجتماع الأضداد فى شخصية واحدة لأنه يعنى اضطراباً فى ذاتية الموصوف.. فنقول إن لكل حال وصفاً يطلق بحسب الغالب فى (الآن).. وبكلمات أوضح.. قد نرى ذلك رداً ضمناً على من يتجادلون حول الأوصاف الإلهية فى المباحث الكلامية: كالغفار والمنتقم، والقابض والباسط، والمانع، والمأنح، والمحى والمميت.. ونحوها (راجع تمييز الجرجاني بين الصفة والنعى فصل ٣٥).

فما بالك بأهل الاعتزال.. الذين ينفون الأوصاف الإلهية أصلاً؟!

«وجمع السلامة له قياس، وأما جمع التكسير فكثير الضنون، يختلف القياس، شكل^(١) المبانى..

كذلك من حفظ^(٢) بوصف العلم فهو مقاماً سيد^(٣) وقته، وإمام زمانه. والذى هو فى هذه الطريقة جمع تكسير هو صاحب بلاء، لا يهتدى إليه أحد، مردود عند من لا نصيب له من الطريقة، لكنه مستور. فى الحقيقة. أمره. وهو فى عين التشريف.

(٢) الرسالة ص ٤٢.

(١) بفتح الشين وكسر الكاف.

(٢) بضم الدال.

(٣) بضم التاء.

ومن هو على جانب من هذا الحديث يظنه من أهل التكليف :

ألوانها شتى الفنون وإنما تسقى^(١) بماء واحد من منهل

فصاحب هذه الحالة مشكل الحال، ملتبس الوقت، لا تهجم على محله زوائد القياس، ولا تشرف على غوامض نعتة ثواقب التقدير.

لا مشكلة فى جمع السالم، إنما المشكلة الضخمة فى جمع التكسير، فهو متعدد الصيغ المسموعة والقياسية، يقبل مفردة تغييرات بعضها ظاهر وبعضها مقدر (انظر الباب الأخير من الكتاب)، وهى تغييرات لناموس.. ولهذا فهو باب فى النحو صعب المزاج عسر التناول.. وقد أحسن الشيخ فى وصفه بأنه (مختلف القياس شكل المبانى).

والإشارة من هذا كله أننا لو تصورنا مريدين^(٢) عابدين (يجمعهما) طريق واحد من البداية، فهما على العتبات الأولى فى رحلة الإرادة (فرد) و(فرد) ، وهما يخطوان الخطوات الأولى متماثلين أو قريبين من انتمائل، وهما يتجشمان نفس القدر من الجهود الكسبية التى ربما يأمر بها شيخ واحد، وما أن ينتقلا إلى منطقة الأحوال التى هى وهبية من لدن الحق إلا نلاحظ تغييرات تصيب أحدهما حتى لا تطراً بنفس القدر أو الدرجة على الآخر، فأحدهما يعب من شراب المحبة، ويلقى الأنس والحبور، ويعايش تجربة الصيام الروحى على نحو ما، والآخر لا يتم له ذلك على نحو مماثل.

وهنا يبرز عنصر مهم قل أن يلتفت إليه أحد.. ذلكم هو الفضل الإلهى - وهو أهم أسرار هذا الطريق.. فهذا الفضل السابق على كل شئ يختار الله من خلقه عباداً مخصوصين له منذ الأزل :

(١) بضم التاء.

(٢) بسكون الهاء فيهما.

ولله خصائص يكلفون بحبه اختارهم فى سالف الأزمان

اختارهم من قبل فطرة خلقه (١) بودائع وفوائد وبيان (٢)

إن الذى (كجمع السالم) واضح أمره للناس، لا يلتبس حاله على أحد،
والحكم عليه من الخارج سهل ميسور.

أما الذى (كجمع التكسير) فصاحب بلاء، فالحكم عليه مضطرب لا
مطرد، فأنت لو حكمت العين المجردة التى لا تستطيع فى الجوهر نفاذاً
لعجزت عن رصد أحواله، وسبر أغواره، والحكم عليه.

ربما كان فى داخله يغلى كالمرجل.. ثم تأتى وتستكثر عليه كلمة
شاطحة.. ظاهرها مستثنع دون أن تدرى أن باطنها سليم.. وهكذا يعيش
هذا العبد بين من يعرفه ومن لا يعرفه... غير مفهوم! (وحديثه مشكل).

وذلكم هو سر بلائه بين الورى، فالذين يفقهونه يحاسبون على أدنى
تقصير فى الشريعة والحقيقة.. هم له بالمرصاد، والذى يجهلونه سرعان
ما يحيطونه بالتخرصات والأباطيل.. بل يرمونه بالتجديف أو الهلوسة..
إنه فى عين (التشريف) بينما يطالب أن يكون دائماً فى إसार (التكليف).

وفى رأينا أن هذه هى مأساة هذا الحب الكبير، فكل حب كبير يقاس
بمقدار عنصر الصراع والمأساة فيه.

فهذا (المجموع) المستهلك (٣) فيما سواه، الفارق فى الأنوار المحدقة به
من كل جانب (يتكسر) فى داخله، وينهد كيانه.. ولا يعلم حقيقة أمره
إلا عين (التشريف) ! لأنها العين الوحيدة التى تعرف حقيقة الدواخل.

(٣) حلية الأولياء لأبى نعيم ج ١٠ ص ٧٩.

(١) بفتح الأول وسكون الثانى.

(٢) بفتح اللام.

ذلك شأنه مع زملائه (فى القياس) وفيما يصدر عنه من (السمع) !
وكما أنه لا حيلة لنا فى (جمع التكسير) إلا الحافظة التى تسمى (الأقيسة
والسمع) كذلك ليس لنا إزاء هذا العبد هنا إلا تذوق حاله.. وقل (٠) فى
الناس من يتمتع بهذه الخاصية.

فصل [١٣]:

الأسماء الستة

« من الأسماء أسماء مخصوصة أفردت عن أشكالها بجعل رفعها بالتواو، ونصبها بالألف، وكسرهما بالياء. وهي ستة أسماء: أبوك وأخوك وحموك وهنوك وفوك وذو مال.

الإشارة: كذلك من الناس من خص^(١) عن أمثاله، وأفرد بالأحكام من بين أضرابه وأشكاله.

قال ذاك الرجل: ليس كل بشر بشراً^(٢)، باين حكمه حكم من سواه، وانفرد عنهم في معناه.

(١) الأولى بفتح الباء والشين والثانية بكسر الباء وسكون الشين.
(٢) بضم الخاء.

ملاحظة على المنهج :.

اختار الشيخ رأى البصريين: وهو إعراب هذه الأسماء من مكان واحد، وهى هذه الحروف الإعرابية: الواو والألف والياء.

ويرى بعض النحاة أن الإعراب بحركات مقدرة على هذه الحروف تتلاءم معها. أما الكوفيون فيذهبون إلى أن الإعراب من مكانين: الضمة والواو جميعاً علامة الرفع، والفتحة والألف جميعاً علامة النصب، والكسرة والياء جميعاً علامة الجر.

ونحن نميل إلى رأى القائل بأنها حركات مشبعة، فالضمة صارت واواً، والفتحة صارت ألفاً، والكسرة صارت ياء.

ويبقى أنها أسماء مخصوصة بهذا الطراز الإعرابى تحت شروط معينة:

١ - أن تكون مضافة.. وأن تكون هذه الإضافة لغير ياء المتكلم من اسم ظاهر أو ضمير.

٢ - أن تكون مفردة.. أى غير مثناة أو مجموعة.

٣ - أن تكون غير مصفرة.

وإن فقدت شرطاً واحداً من هذه الشروط زالت عنها هذه (الخصوصية).

بقيت مسألتان هامشتان: بالنسبة لـ (ذو) فهى ملازمة للإضافة لغير الياء فلا حاجة لاشتراط ذلك ويجب أن تكون (ذو) بمعنى صاحب وليست اسم موصول.

والفم إذا فارقتة الميم.

والإشارة: من هذا كله كما يرى شيخنا مستمدة من هذه (الخصوصية) التى تميز هذه المرة لا فرداً - بل مجموعة من الأفراد كأنهم قبيل واحد -

بسمات خاصة، لهم أحكام خاصة لاتنسحب على غيرهم وإن سقوط وصف واحد من هذه السمات أو الأحكام يخرج بالفرد من نطاق هذا القبيل (المخصوص) إلى المستوى العام العادى.

مع ملاحظة أن هناك فروقاً فردية ضئيلة - شأن المجاميع البشرية بين بعض أفراد هذا القبيل الصغير، إلا أن الإطار الخاص يظل يحيط بهذا المجتمع المتميز.

على أن الشيخ وهو يستنبط الإشارة لجأ إلى حكم عام فلم يحدد فى (الخصوصية) شيئاً معيناً، ولذا فمن حقنا أن نتصور - مع القارئ - عدة توجهات يمكن أن تتصرف إليها المعانى :

١ - يحتمل أن يكون ذلك متصلاً بتوزيع الأرزاق على البشر، فهم لا يتساوون جميعاً فى المال أو فى الولد أو فى الصحة.. وغير ذلك من النعم.

٢ - يحتمل أن يكون مقصده : الشريعة للعموم، والحقيقة للخصوص.

٣ - وترتيباً على ذلك يمكن أن يكون فى داخل مجتمع «الحقيقة» نفسه آحاد متميزون عن سواهم.. وتلك اجتناءات إلهية لا دخل لأحد فيها.

٤ - يمكن أن يكون الكلام خاصاً بطرق صوفية، تشبه كل طريقة (أسرة) خاصة ترتبط بروابط متميزة عن غيرها.. والهدف العام واحد.. ولكن كل ميسر لما خلق له.

٥ - يمكن أن ينصرف الكلام إلى مجموعات (الصحية والأصحاب) فى داخل النظام التربوى الواحد التابع لشيخ واحد، ونحن نعلم أن القشيري مهتم بهذا الموضوع، وعقد له فصلاً ممتازاً فى رسالته يعد من أفضل كتاباته. ومع كل ذلك فإننا بعد كل هذه الاحتمالات نرجح أنه يقصد (العارفين) - فهم مجموعة من الشامخين تجمعهم آصرة واحدة تميزهم عن سواهم (المعرفة بالله) ولكن تبقى فروق بينهم طبقاً لدرجة

الوصول والاتصال. أو قل تجمعهم بالعامّة ارتباطات الشريعة ولكن تبقى لهم خصوصياتهم التي يندر أن يتطامن إليها فرد عادي، أو قل إن العارف يخالط البشر ويؤاكلهم ويشاربهم.. ولكنه في واقع الأمر كائن بائن، أي كائن بين الناس، ومفترق عنهم بعلاقاته الخاصة، ومعاملاته الباطنة «وليس من نصب (٠) بالباب من حيث الخدمة كمن مكن (٠٠) من البساط من حيث القرية، وليس نعت من تكلف نفاقا كوصف من تحقق وفاقاً، بينهما لون بعيد».

وخير من يحدثنا عن هذه الخصوصية تلك القصة الممتعة التي (٠٠٠) نؤثر أن نختم بها هذه الفقرة..

كان ذو النون المصري يسير في أحد طرق الشام فلقى امرأة صالحة عرفها بسيماها فسألها :

- من أين أقبلت؟

- من عند أقوام تتجافى جنوبهم عن المضاجع.

- وإلى أين ؟

- إلى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله.

- أيمكن أن تصفيهم ؟

- قوم همومهم بالله قد علقت

فما لهم هم تسموا إلى أحد

(٠) بضم النون .

(٠٠) بضم الميم وتشديد الكاف مع كسرهما .

(٠٠٠) بكسر التاء.

فمطلب القوم مولا هم وسيدهم
يا حسن مطلبهم للواحد الصمد
ما إن تنازعهم دنيا ولا شرف
من المطاعم واللذات والسولد
فهم رهائن غدران وأودية
وفي الشوامخ تلقاهم مع العدد^(٢)

(٢) عوارف المعارف للسهروردي ص ٤٤.
ومن البيت الأخير نلاحظ كيف أن الصوفية فرسان النهار ورهبان الليل.

فصل [١٤]:

اللازم والمتعدى

«الأفعال على ضربين: لازم ومتعد»^(٠).

والإشارة : كذلك أفعال على قسمين: لازم ومتعد، فاللازم ما تكون بركاته على صاحبه مقصورة، والمتعدى^(٠٠) ما تتعدى خيراته على الغير.

والفعل المتعدى على أقسام :

منها ما يتعدى إلى مفعول واحد، ومنها ما يتعدى إلى مفعولين، ومنها ما يتعدى إلى ثلاثة مفاعيل.

والإشارة: كذلك العبد قد تتعدى بركاته إلى عالم من الناس، حتى قال الشيوخ : «لو أن ولياً اجتاز ببلدة لغفر الله لأهل تلك البلدة».

وفى الأثر «لو أن محزوناً بكى فى أمة»^(٠٠٠) لرحم الله تلك الأمة ببكائه.

(٠) بتشديد الدال وكسرها.

(٠٠) بتشديد الدال وفتحها.

(٠٠٠) بضم الهمزة وتشديد الميم.

الفعل ثلاثة أنواع :

- ١ - ما لا يوصف بتعد ولا لزوم وهو كان وأخواتها.
- ٢ - وهو ما تجاوز حدثه الفاعل إلى المفعول به ويسمى أيضاً (الفعل الواقع) أى الواقع على المفعول به وهو على أربعة أقسام:
 - (أ) قسم ينصب مفعولاً واحداً - وهو كثير مثل: لبس محمد الثوب.
 - (ب) قسم ينصب مفعولين ليس أصلهما مبتدأ وخبر كأعطى وسأل.
 - (ج) قسم ينصب مفعولين أصلهما مبتدأ وخبر وهو ظن وأخواتها.
 - (د) قسم ينصب ثلاثة مفاعيل وهو أرى وأعلم^(١) وأنبأ^(٢) ونبأ^(٣) وأخبره.

٢ - أما الفعل اللازم فهو ما لا يتعدى أثره^(٤) فاعله^(٥)، ولا يتجاوز به إلى المفعول به بل يبقى فى نفس ويسمى (الفعل القاصر) لقصوره عن المفعول به، كما يسمى (الفعل غير الواقع) أو (الفعل غير المجاوز) لأنه لا يجاوز فاعله. مثل ذهب وفرح الطفل.

ويعير اللازم متعدياً إذا أدخلت عليه همزة التعدية نحو: أذهبتم طبيباتكم أو إذا ضعف ثانية نحو - فرحت المجتهد.

أو دل على مفاعلة مثل : جالس محمد العلماء.

أو كان على وزن استفعل (العلاجية وليست الصيرورية) مثل استخرج

(١) بفتح الهمزة والراء.

(٢) بفتح الهمزة وسكون العين وفتح اللام.

(٣) بفتح الهمزة وسكون الباء وفتح الألف المهموزة.

(٤) بضم الراء

(٥) بفتح اللام.

العمال الذهب أو سقط مع حرف الجر توسعاً مثل تمرّون الديار أى تمرّون بالديار.

وتلك هى أهم نقاط النحو العبارى توسعنا فيها شيئاً ما للفائدة أولاً، ولأنها تسهل فهم الإشارة ثانياً.

وفى رأينا أن المنطقة التى تشع الإشارة لا تخرج عن واحد من ثلاث:

(أ) ضرورة التأدب بشيخ فى هذه الطريقة.

(ب) باب الولاية.

(ج) باب الكرامة.

ذلك لأنها تحوى التزامات خاصة بصاحب الشأن، وامتدادات (تتعداه) إلى أسرته التى هو كبيرها.. ونعنى بالأسرة مريديه ومحبيه وسالكي طريقته، وربما قومه وأهل بلده.

فبالنسبة لموضوع (الشيخ) فى الطريقة فإنه يمثل الهيمنة العليا التى لها الطاعة. ومن (اللازم) للشيخ أن يقدر وضعه على هذا النحو تمام التقدير، فيكون قدوة فى الصغيرة والكبيرة. وأى خطأ يحتمل أن يهمل به ربما يمتد على الفور إلى المحيطين به، ووزره مضاعف: وزر الابتداع ووزر الاتباع.. وأهم الأشياء فى هذا المجال عدم التفريط فى الشريعة أو المساس بأدنى قاعدة من قواعدها، وواجبه ألا يسترخص، وأن يكون شعاره الدائم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وواجبه أيضاً ألا يعطى علمه أو فضله بأجر.. فإن العلماء ورثة الأنبياء - والأنبياء لا يؤجرون على أداء رسالتهم.

وواجبه كذلك ألا يعتقد فى نفسه العصمة.

والأ يتزلف لمخلوق.

والأ يتقرب من سلطان.. بل على العكس يكون في الأمة أشبه بضميرها الحى اليقظ، تؤرقه مشاكل الناس وهمومهم، ويلقى^(١) بالكلمة القويمة الرشيدة غير هياب.. على ألا يكون في ملأ.. لأن النصيحة على الملأ فضيحة، ويكون رقيق الأسلوب مهذب اللفظ بعيداً عن العنف والاعتساف.

وفيما بينه وبين مريديه عليه أن يلحظ أن هناك فروقاً فردية داخل جماعة، فيكلف كل واحد أو اثنين أو أكثر حسبما يرى التكليف (اللازم) بما يعود بالجدوى.. وتصبح هذه (الأفعال اللازمة) بداية لما هو أرقى وأعمق.. ويأتى وقت (تتعدى) فيه هذه الأفعال نطاق الفرد إلى ما هو أكثر..

مع ملاحظة أن (التعدى) لا يكون بالمفيد فقط بل قد يكون (بالضار) إذا كان ثمة خطأ ما.. وهذا هو الخطير في رسالة الشيخ تجاه مريديه، ويمتد ذلك طوال حياته إلى ما بعد مماته كما قيل:

فتى عيش^(٢) فى معروفه بعد موته كما كان بعد السيل مجراه مرتعا

إنهم يأخذون عنه (مباشرة) أو (بواسطة) كما يتعدى الفعل مباشرة أو بواسطة، وترتبط الأجيال جيلا بعد جيل بأقواله وأفعاله بطريق الإسناد إليه والرجوع عليه.

حقاً.. إنها مهمة شاقة تحتاج إلى فائق التقوى وجلد^(٣) الفؤاد وكشف البصيرة! وبهذه أيضاً ينماز التصوف عن بقية العلوم في كونه تربية مستمرة تنبنى على اكتساب فوائد في كل وقت، وعند كل موقف، وما أسرع ما تتغير الأوقات على السالكين، وما أشد ما تتكون المواقف!

فإذا انتقلنا إلى دائرة أوسع حيث: الولي والكرامة فإننا نجد أول شيء من قبيل (اللزوم) هو المحافظة على الشريعة، ويقال دائماً إن أعظم كرامة

(١) يضم الياء وسكون اللام.

(٢) بكسر العين فالفعل مبنى للمجهول للمجهول من (عاش).

(٣) بفتح الجيم والdal.

للولى هى انتصاره على نفسه، وإذا سمعتم أن فلانا يطير فى الهواء أو يمشى فوق الماء.. فاسألوا أولاً.. أين مقامه من الشريعة؟ ويقول القشيري فى لطائفه «أفضل الأعمال ما كانت بركاته (متعدية) عن صاحبه إلى غيره.. فمن الفتوة أن يكون سعيك لغيرك».

وتستطيع أن تدرك اتساع الدائرة التى يحدث فيها (التعدى) على أوسع نطاق حينما تسمع نصاً مثل «كرامة الولى فرع على معجزة النبى».

فالنبى وصلت أفضاله إلى الولى، لأنه ما وصل إلى ما وصل إليه إلا باتباع النبى. والولى (تتعدى) بركاته إلى الشيوخ، والشيوخ (تتعدى) بركاتهم إلى المريدين... وهكذا.

وتتطوع أن تتصور كم (تعدت) بركات سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو فى المدينة ينادى «سارية» فى نهاوند أن يلزم: (الجبل الجبل) هو وجيشه.. وكان ذلك من أسباب الانتصار تحقيقاً لكرامة عمر.. فسارية والجيش ينعمون بالظفر على الأعداء يذكرون صيحة عمر.. الآتية عبر الشفافية الأثيرية لتقودهم نحو هذه النهاية العظيمة.

أما من واقع حياة القشيري نفسه.. فإننا نذكر كيف اختاره أهل خراسان والمشرق وهم فى منفاهم حول الحرم الشريف ليكون خطيبهم وناصحهم إبان محنتهم، وقد طالب غيبتهم عن أوطانهم، فصعد المنبر ودعا الله دعاء استجيب فى ساعته.. حينما صاح قائلاً: يا أهل خراسان بلادكم بلادكم والله إنى لأرى عدوكم الآن: الكندرى اللعين وهو يقطع إرباً إرباً، ويرسل كل عضو منه إلى كل مكان! وتحقق ذلك فى نفس اللحظة - كما يقول الإمام السبكي ^(١) وتلك بركات شيخنا (تعدت) إلى مئات المنفيين، فعادوا إلى أوطانهم معززين مكرمين.

(١) طبقات الشافعية للسبكي ترجمة القشيري، وارجع إلى سيرته فى هذا الكتاب.

فصل [١٥]:

الأفعال الخمسة

«خمسـة أمثلة من الأفعال رفعها بالنون ونصبها وجزمها بسقوط النون وهى: فعـلان وتفعـلان، ويفعلون وتفعـلون، وانت تفعـلين. والإشارة : كذلك من الأفعال ما يكون مخصوصاً، ولا تقبل إلا بزيادة تقترن بها، فهى يؤتى بها بشرط قران^(٠) ينضم إليها. كرمى الجمار مثلاً، لا يكون طاعة إلا فى الحج. والسعى بين الصفا والمروة لا يكون عبادة إلا فى الحج والعمرة. ومن قيضه^(٠٠) لأجل شيخ من الشيوخ أو عارف أو ولى لنفع له منه.. فإذا مضى وقت ذلك الشيخ فلا قدر^(٠٠٠) لذلك الشخص.

(٠) بكسر القاف.

(٠٠) بضم القاف وتشديد الباء.

(٠٠٠) بضم القاف وسكون الدال.

على عادتنا في الشروح نريد أولاً أن نعرف: من أين تنطلق إشارة الشيخ؟ ثم نجرى عملية التنظير بما يفتح به الله علينا.

وبإمكاننا هنا أن نستببط الإشارة على النحو التالي :

١ - معلوم أن الفعل هو حدث في زمن.

٢ - القشيري هنا يضيف بعداً ثالثاً هو الظروف المحيطة بالفعل عند حدوثه.

٣ - فليس يكفي أن نقول إن الفعل المضارع يعرب على نمط واحد، هو الرفع بالضمة والنصب بالفتحة والجزم بسكون أو حذفه.. لأن هناك أفعالاً مضارعة لا يجرى إعرابها على هذا النسق، بل هناك ظروف خاصة - كاتصاله بألف الاثنين أو واو الجماعة أو ياء المخاطبة - تجعله يخرج عن النمط العادي في الإعراب، فهو يتم بالحرف، ثبوت النون في حالة الرفع وحذفها في حالي النصب والجزم.. وهذه الخصوصية لطائفة معينة من الأفعال تذكرنا بما شهدناه في فصل سابق عن الأسماء الستة.

فالمعادلة الجديدة هنا هي : فعل خاص = حدث + زمن + ظروف خاصة. ومن هذه الخصوصية في الفعل تنطلق الإشارة.

ولكى يكون حديث القشيري مفيداً في أوسع درجات الإفادة ضرب أمثلة على ما يقول من الشريعة حتى يكون أكثر إقناعاً للسامعين والقارئین : فرمى الجمار لا يكون طاعة إلا عند أداء الحج أى أنه في غير أوقات الحج لا يحسب له حساب. والسعى بين الصفا والمروة شعيرتان من خصائص الحج وخصائص العمرة.. وفي غير ذلك لا حساب. والاستشهاد بالمسائل الفقهية والكلامية كان ميزة للكتابة النحوية في العهد الأولى (انظر مثلاً خصائص ابن جنى وغيره).

وأنت تستطيع أن تضرب للقاعدة عد ذلك مئات الأمثلة في يسر،

فصوم رمضان لا يكون فى شوال، وزكاة الفطر (مقترنة) بموعد،
والصلوات الخمس لها شروط (قران) زمنى ميقاتى.. وهكذا.

فإذا ما اتضحت الرؤية أمامنا بالنسبة للشريعة سهل علينا أن ندخل
بعد ذلك فى أمور تتصل بالحقيقة.. وهى بطبيعة الحال أخفى.. لأنها
تتصل بالبوطن والجواهر.. وربما بالأسرار.

ولنضرب هنا مثلاً ... (الدعاء).

فالدعاء مطلوب فى كل وقت، ولكن الشيوخ «يرون أن الأوقات مختلفة،
ففى بعضها يكون الدعاء بالتلفظ أفضل من السكوت - وهو الأدب، وفى
بعض الأحوال يكون السكوت أفضل من التلفظ وهو الأدب، والعارف يقدر
ذلك حسبما يشار إليه، فإذا وجد إشارة إلى الدعاء المنطوق فهو له
أولى^(١)، وإن وجد إشارة إلى السكوت فالسكوت له أتم، ويتضح ذلك
بمراعاة الحال من حيث البسط والقبض، فعند البسط يكون الدعاء، فإن
عاد إلى قلبه شبه زجر وقبض فالأولى له ترك الدعاء فليس هذا وقته. أما
إذا لم يجد فى قلبه زيادة بسط ولا حصول زجر.. فالدعاء وترك الدعاء
ها هنا سياتان»^(٢).

والخلاصة أن يكون العبد خاضعاً للوقت (تذكر فى الفقرة وقت الحج
والعمرة والصلاة، والسعى بين الصفا والمروة..)

ولو أريد منا أن نذكر أهم كلمات القاموس الصوفى لقلنا إنها لفظة
«الوقت» فهى أهم المصطلحات فى عرفهم. ولأجل هذا افتتح القشيري بها
باب مصطلحه فى «الرسالة»، ولأجل هذا جاءت بعض التعاريف للتصوف
والصوفى على هذا النحو المقتضب الدال: «الصوفى ابن وقته».

(١) بفتح الألف وسكون الواو.

(٢) الرسالة ص ١٢١.

وهذه العبارة القصيرة تعنى الشيء الكثير فى كل (٠) من التربية والمعرفة عند القوم. إنها تعنى استرسال القلب مع الله تعالى على ما يريد، والانقياد الكامل لكل تصريح، وعدم التطلع إلى المستقبل.. هذا الاطمئنان الدال على الرضا هو فى قمته آية من آيات الولاية.

«ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون».

فالوقت إذا بهذه المعانى يكاد يطابق ما قلناه بأسلوبنا فى مستهل الشرح لهذه الفقرة «مراعاة الظروف التى يحدث فيها الفعل».

وبهذا الفهم فإن على العبد أن يلتزم بمراعاة المقام الذى هو عنده، فإذا رزق حالا من الأحوال عليه ألا يجاوز إطار هذا الحال إلى ما هو أرقى.. وإلا وضع الشيء فيغير محله على حد تعبير المتنبى: وضع السيف فى موضع الندى أو وضع الندى فى موضع السيف.. ففى الحالين إخلال وسوء أدب.

والشيخ المربى يضع علاجاً لمثل هذه الحالة التى يعلم بخبرته الشخصية - سواء مع نفسه أو مع مريديه - أنها قابلة للحصول ذات مرة أو مرات فيقول: (إن سنع فى باطنك من الوسوس أمر فاستعذ بالله يدركك بحسن التوفيق، وإن هجس فى صدرك من الحظوظ خاطر فاستعذ بالله يدركك بإزالة كل نصيب، وإن لحقتك فى بذل المجهود فترة فاستعذ بالله يدركك بإدامة آلائه، وإن اعترتك فى الترقى إلى محل الوصول وقفة فاستعذ بالله يدركك بإدامة التحقيق، وإن تقاصر عنك شيء من خصائص القرب - صيانة لك عن شهود المحل - فاستعذ بالله يثبتك له بدلا من لك بك).

(٠) بفتح الكاف وكسر اللام المنونة.

هذه هي حدود الدعاء ومواضع حدوثه وصيغته المحدودة «بالاستعاذة بالله» وغير ذلك وفوق ذلك فغير مسموح به.
(فلكل فعل ظروفه الخاصة جداً).

* * *

وينهى الشيخ الفقرة بنموذج لعلاقة خاصة ولكنها مرببة أى ليست خالصة، ذلك هو الإنسان النهاز النفعى الذى يقترب من أحد المشايخ أو أحد الأولياء.. لا على سبيل الاستفادة أو التبرك أو سلوك طريقة بل لتحقيق مأرب دنيوى، فيحسب^(١) على الشيخ أو الولي ويرتبط باسمه حتى لتكاد تجمعهما (ألف الاثنين)، وهما على الحقيقة متناقضان، لكل منهما (فعله) الخاص ونمطه الخاص.. وليس أدل على ذلك من أنه بعد مرور الأيام، وغياب الشيخ أو الولي ينكشف أمر ذلك النهاز الدنى فيعرف الناس بعد انكشاف غطاء الزيف عنه أنه دعى^(٢) لا قيمة له.. فالأصل فى المحبة «ألا تكون لغرض، إذا زال الغرض زالت المحبة» كما يقول الجنيد.

وكأنى بالشيخ يريد أن يقول إن (ألف الاثنين) و (واو الجماعة) ينبغى ألا يلقب بهما إلا أشكال متماثلة.. حتى يتم لفعلهما أن يقع فى دائرة الخصوص.

(١) بضم الباء وفتح السين.

(٢) بفتح الدال وكسر الميم.

فصل [١٦]:

الصحيح والمعتل والمضاعف

«الأفعال على أقسام: صحيح ومعتل ومضاعف».

الإشارة: كذلك من أفعال العباد ما سلم من صنوف العلة.

وحروف العلة ثلاثة : الواو والألف والياء.

وصنوف العلة الرياء والإعجاب والمساكنة.

وبعض حروف العلة أضعف وبعضها أقوى.

كذلك فإن بعض صنوف علل الأفعال الطف وبعضها أبدى^(١).

(١) بسكون الباء وفتح الدال.

وضع الشيخ هذا الأصل الثلاثي لبنية الفعل العريى (ف ع ل) نصب عينيه وهو يستخرج الإشارة، فكما أن أفعالا مثل: فهم وعبد سليمة الأصول، وأفعالا مثل: وجد وقال وسمى تعتل فى البداية أو الوسط أو النهاية.. كذلك من أفعال العبد ما هو سليم من بدايته إلى نهايته، ومنها ما تعتوره علة فى مرحلة من مراحل الطريق، فيصاب العبد بالتوقف فترة تطول أو تقصر، وربما تكون العلة قاتلة فيحدث التوقف التام. ومن الطبيعى أن يقع ذلك نتيجة المخالفات .. يقول فى لطائفه عند قوله تعالى:

«إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا».

(من استعمل جوارحه فى الطاعات وصانها عن استعمالها فى صنوف المخالفات فقد سلم الأمانة على وصف (السلامة) واستحق المدح والكرامة.

ومن دنسها بالمخالفات فقد ظهرت عليه الخيانة واستوجب الملامة)^(١). وقد سبق أن ذكرنا شيئا عن الألف والواو والياء عند إشباع حركات الفتحة والضمة والكسرة.. ولكن ذلك كان فى نطاق الدور الإعرابى، أما هنا فهى أصول فى بنية اللفظة، وبالتالى فهى أدخل فى صميم (فعل) العبد فى مراحل الطريق، وليست زائدة عليه.

ومن هنا اختلفت إشارات الشيخ فى الموضعين، لأجل ذلك نراها تستحق اهتماماً أكبر وبخاصة من الناحية الصوتية مستفيدين من علم الأصوات فى القديم والحديث بمقدار ما يسمح المقام ولا يثقل على القارئ، ورائدنا فى النهاية فهم التنظير فى الإشارة: -

(١) اللطائف المجلد الثانى ص ٢٤٨.

فالواو حركة ضيقة خلفية تحتاج إلى جهد عضلى أكبر من زميلتيها، لأنها تتكون بتحريك أقصى اللسان فى حين أن الكسر حركة ضيقة أمامية لأنها تتكون بتحريك أدنى اللسان، وتحرك أدنى اللسان أيسر من تحريك أقصى اللسان.

والألف ضعيف فى غاية اللين، ولا يجد هذا الصوت عائقاً يعوقه فى زوايا الفم حيث يكاد اللسان يكون مستويًا فى قاع الفم مع ارتفاع خفيف فى وسطه، كأنما ينطلق على هواه.. فإن الفم والحلق منفتحان تمامًا.

أيمكن بعد ذلك أن نناظر بين الواو و(الرياء)، وبين الألف و(الإعجاب) وبين الياء و(المساكنة)؟

وقبل أن نزيد التنظير إيضاحًا وتأكيدًا نلتفت إلى أن الشيخ تجنب حركات أخرى تعرفها العربية كالأحالة إلى الكسر أو الضم والتفخيم والترقيق.. إلخ، وبدلنا هذا على أن الشيخ تجنب ما يتصل باللهجات واكتفى بما تعرفه الفصحى، لأن (نحو) الفصحى هو الأغلب الأعم.. وهو منهجيًا موضوع التنظير فى هذا الكتاب.

ولنتحدث بشيء من تفصيل عن آفات النفس الثلاث التى ذكرها فى الفقرة:

١ - الرياء:

وردت مادته فى القرآن الكريم فى خمسة مواضع: -

• الذين هم يراءون (الماعون).

• يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلًا (النساء)

• ﴿لَا تُبْطِلُوا صِدْقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾

(البقرة: ٢٦٤).

﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا يَأْتِيهِمُ الْآخِرُ﴾
(النساء: ٢٨)

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ (الأنفال: ٤٧).

إذا كانت (الواو) كما أوضحنا الآن أثقل من زميلتيها جهداً وصوتاً فإن الرياء - كما أوضحت النصوص القرآنية المذكورة - يبدو أثقل وزراً من الإعجاب والمساكنة، فالمرائي لا يجعل طاعة الله سبحانه في المحل الأول بل يجعل استجلاب اطلاع الناس عليه في المحل الأول، وتلك لعمر الحق شنيعة الشنائع. روى أحمد بن حنبل عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك»^(١) الأصغر، عز وجل للمرائين - إذا جزى الناس بأعمالهم - اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء».

وإذا مسح ذلك في البيئة الدينية العامة فإنه هنا في الطريق الصوفي أشد هؤلاء وأعظم نكالا، فالصدق عماد الأمر هنا من البداية وفي الوسط وإلى النهاية، ولا يستطيع أى سالك في مرحلة أن يشم شيئاً من الخير فيه إذا داهن نفسه أو غيره، في السر أو في العلن. وهم لهول ما يفعل الصدق بهم تقوم قيامتهم في اليوم مرة ومرة بينما «يستطيع المرائي أن يثبت على حال واحدة أربعين سنة»^(٢) - كما يقول الجنيد.

وبهذا المعيار يخرج من الطائفة كل من ارتدى الصوف أو الخرقة ليأخذ سمت الصوفية - وهو غير صادق فيما يفعل، فسرعان ما ينكشف أمره، ويفتضح ستره.

ويخرج كذلك من ادعى (المحو) واقترف مخالفات الشريعة بدعوى أنه

(١) بكسر الشين المشددة.

(٢) الرسالة ص ١٠٦.

فإن عن نفسه، وقد تناول الشيوخ هذه الموضوعات وأضربها في مواضع كثيرة.. يقول الجنيد:

«ليس الاعتبار بالخرقة إنما الاعتبار بالخرقة»^(٣).

بل يمتد ذلك إلى شعراء خارج البيئة الصوفية حيث يقول محمود الوراق (من شعراء القرن الثالث الهجري) في رجل لبس الصوف ابتغاء التستر:

تصوف كي يقال له أمين وما يعنى التصوف والأمانة

ولم يرد الإله به ولكن أراد به الطريق إلى الخيانة^(٤)

ويقول أبو سفيان الثوري: «لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء»^(٥).

ويحذر ابن السماك أمثال هؤلاء المرائين قائلاً: «والله لئن كان لباسكم وقتاً لسرائركم لقد أحببتهم أن يطلع الناس عليها ، ولئن كان مخالفاً لقد هلكتم»^(٦).

وقد وصلت موجة الرياء حداً مستطيراً حينما دخل التصوف غير قليلاً من أعداء الإسلام الذين عجزوا عن ضربه في وضع النهار فراحوا يتسترون خلف أردية الصوف وانحشروا في زمر الصوفية كي يحققوا مآربهم خلف الأستار المسدلة!

٢ - الإعجاب:

إذا كان المرائي ينظر إلى أبناء جنسه فإن المعجب ينظر إلى نفسه، تراه

(٣) تذكرة العطار ج٢ ص ١٠.

(٤) العقد الفريد ج٦ ص ٢٢٦.

(٥) اللمع للسراج ص ٤٢.

(٦) العقد الفريد ج٦ ص ٢٢٦.

يمشى كأنما يريد أن يخرق الأرض أو يبلغ الجبال طولاً!! كأنه (الألف) المنتصب!! وأولى من ذلك ترك الاختيال والافتخار يقول تعالى: «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا»، وكان عمر بن الخطاب يسرع في مشيته لأن ذلك يبتعد بها عن الزهو، وبلغ به التواضع أن حمل على عاتقه قربة ماء فلما قيل له: لا ينبغي لك ذلك أجاب: لما جاعتنى الوفود سامعة طائفة دخلت في نفسي نخوة فأحببت أن أكسرها.

وبلغ عمراً بن عبدالعزيز أن ابنه اشترى فصاً بألف درهم فكتب إليه عمر: «إذا أتاك كتابي هذا فبع الخاتم وأشبع ألف بطن واتخذ خاتماً من درهمين واجعل فصه حديداً واكتب عليه رحم الله امرأاً عرف قدر نفسه». يعرف الصوفية هذه السمات في أسلافهم من الصحابة والتابعين، ويلحون على الاتصاف بالتواضع، والتذلل في جنب الله «فمن اعتز بذى العز فذو العز له عز».

ويقول ابن أدهم:

«لو علم أبناء الملوك ما نحن فيه من عز لجالدونا عليه».

ويقول ابن المبارك:

«العز في التواضع فمن طلبه في الكبر (١) لم يجده».

ويلتفت القشيري إلى إشار في قوله تعالى: «مختلاً فخوراً» فيربط بين ذلك وبين الفخور من الإبل وهو الذي سدت أخلافه ليتجمع فيها الدر (٢) (اللبن الغزير) فيتوهم المشتري أن تلك حالة على الدوام... وما هو كذلك (٣).

(١) بكسر الكاف وسكون الباء.

(٢) يفتح الدال المشددة.

(٣) لطائف الإشارات المجلد الأول ص ٢٢٢.

٣ - المساكنة:

فى المساكنة ما فى (ألياء) من الخفض والاستنامة، وفيها ما فيها من الاسترخاء والميل.

يبدأ ذلك كله عادة (بميل) الإنسان إلى نفسه فيلاحظها بإعجاب وحب، ثم ينتقل ذلك إلى مخلوق آخر.. وتكون النتيجة أن ينسى العبد ما كان قد وطد العزم عليه.. وهو أن يحب المحبوب الأسنى دون سواه.

فهى إذا - فى هذا الطريق - من أعظم العلل بكل مقاييس هذا الطريق تلك العلل التى تتفاوت خفاء وظهوراً كما يقول الشيخ فى الفقرة (بعض صنوف علل الأفعال الطف وبعضها أبدى)(٨).

ويذهب القشيري فى ذلك أن بعض الأولياء - وقد سما قدرهم - لايسلمون من المساكنة «حين يلحظ الولي كرامة بدت عليه فيلاحظها»(٩).

ويقول عند قوله تعالى: «وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم».

«ومن ذلك.. أنه إذا جاء الحق بكشف أو تجل أو إقبال، فمن حقهم ألا يلاحظوها فضلاً عن أن (يساكنوها) لأنهم إذا لم يرتقوا عن ملاحظة أحوالهم إلى الغيبة بشهود الحق مكر الله بهم بأن شتتهم فى تلك الأحوال من غير ترق عنها أو وجود زيادة عليها»(١٠).

فالخطر هو الاستمرار فى (المساكنة) بعد ظهور بوادرها الأولى، لأن تبسيط الأمور وتهوينها بعد الردع الأول لا يؤدي إلى الخير(١١).

«ومن الأفعال ما أوله حرف عله.. وهو المثال.

(٨) الرسالة ص ١٧٤.

(٩) بفتح الألف وسكون الباء.

(١٠) لطائف الاشارات ج ٣ ص ٨٧.

(١١) وانظر كتاب «ترتيب السلوك فى طريق الله تعالى» للقشيري تحقيق د. بسيونى فصل «حينما يقتحم الشيطان حصن أرياب الأحوال».

كذلك: من أفعال العبد ما كان الدخول فيه ما لا يكون على حد الإخلاص للحق سبحانه وتعالى.

ومن الأفعال ما هو أجوف، وهو الذى حشوه حرف علة.

كذلك من أفعال العبد ما هو أجوف وهو الذى داخله زلة كالغيبة والفضلة.

ومن الأفعال ما هو ناقص وهو الذى يكون فى آخره حرف علة.

كذلك من أفعال العبد ما هو أجوف وهو الذى داخله زلة كالغيبة والفضلة.

ومن الأفعال ما هو ناقص وهو الذى يكون فى آخره حرف علة.

كذلك من أفعال العبد ما هو ناقص وهو الذى تعقبه آفة،، فإن قبول القرب (.) موقوف على وفاء العواقب.

ومن الأفعال ما هو لفيف، وهو الذى اجتمع فيه حرفان من حروف العلة إما مقترنين أو مفترقين.

كذلك من الأفعال ما تتوالى عليه الآفات، فصاحبه يعتريه الرياء ويلحقه الإعجاب.

الصيغة الثلاثية الأصلية للفعل هى على الترتيب (ف ع ل) فالمثال ما اعتلت فاؤه نحو عد ويبس، وإنما سمي بذلك لأنه يماثل الصحيح فى خلو آخر من الإعلال.

والأجوف ما اعتلت عينه نحو قال وباع وخاف، وسمى بذلك تشبيهاً بالشئ الذى أخذ ما فى جوفه فيبقى أجوف، وذلك لذهاب عينه كثيراً
نحو:

(.) بضم القاف.

قلت، وبعث، ولم يقل ولم يبع. وألف الأجوف لا تكون أصلية أبداً بل تكون منقلبة عن واو أو ياء مثل قال وباع.

وفى الإشارة أنه كما تصاب (العين) فى الوجه بالرمد أو العمى كذلك قد تصاب عين القلب بهما نتيجة فعل أو أفعال رديئة دنية. ومن أصيب عين قلبه لا يستبصر طريقه.

يقول فى اللطائف:

«والذى سد (١) بصره أنى ينفعه طلوع الشمس والنجوم، وكذلك الذى سدت بصيرته أنى تنفعه شواهد العلوم ودلائل الفهوم، وقالوا فى معناه:

وما انتفاع أخى الدنيا بمقلته إذا استوت عنده الأنوار والظلم (١١)

أما الناقص فلامه حرف علة. وهى تنقص بالحذف فى بعض التصاريح مثل سمت وغزوا. وألف الناقص لا تكون أصلية أبداً بل هى منقلبة عن ياء فى رمى وعن واو فى غزا.

واللفيف قسمان: مفروق وهو اعتلت فاؤه ولامه نحو ولى، وعى فالحرف الصحيح فارق بين حرفى علة.

ومقرون وهو ما اعتنت عينه ولامه نحو: رمى، عوى، قوى. وسمى بذلك لاقتران حرفى العلة أحدهما بالآخر.

والإشارة بعد الشروح السابقة تبدو على مرأى العين، والخلاصة أنه إذا (سلم) العبد من الزلات والآفات من بداية الطريق وفى وسطها وعند بلوغ غايتها وصل (١٠) (صحيح) الجوارح والجواهر «فإن قبول القرب موقوف

(١١) لطائف الاشارات المجلد الثانى ص ٦١٨.

(١٠) بضم السين وتشديد الدال المفتوحة.

(٠٠) بفتح الواو والصاد واللام.

على وفاء العواقب»، فإذا عرف العبد أن العبرة بالخواتيم لزم الحذر من أول خطوة إلى منتهى الخطوات. والصدق والإخلاص هما الوقود الأساسى لكل مراحل الحياة الروحية، فبدونهما ينهار كل شيء مهما كانت الجهود السابقة المبذولة بالفئة أقصى الحدود، بنفس السرعة التى (ينحذف) بها (حرف العلة) من الفعل عند حدوث طارئ على (الفعل) متصل (كالمقرون) أو منقطع (كالمفروق).

وليعلم العبد أن أقوى أعدائه الشيطان، ولكن لو تأمل لعرف أن (الشيطان) ليس له كل هذه السطوة، فهو لا يؤثر (٠) إلا من كان عنده استعداد للسقوط، ولا يقرب عبادة للرحمن يعرفونه ويعرفون كيف يقرعونه «إن عبادى ليس لك عليهم سلطان» وهو كما يصفه القشيري عاجز تماماً لأنه لو ملك قدرة على الإضلال لاستطاع أن يملك قوة على الهداية.. هداية نفسه أولاً، فالملك يملك القدرة على نقيضه.

ويأتى (الذكر) المستديم لله بالقلب وباللسان بل بالسر ليكون هو العلاج الأمثل فى مثل هذه المواقف، فالذكر كفيل باستدامة الحضور، وطرد (الفلة) (والغيبة). بهذا الذكر يكون العبد محارباً شجاعاً فى ميادين النفس والهوى والشيطان، وبذا يخرج من معركة الجهود سالماً من كل العلل فى البداية: (المثال) وفى اتخاذ الوسيلة (الأجوف) وعندهم الختام: (الناقص)، ذلكم هو الفعل المقبول، المهيئ إن شاء الله للقرب والوصول و(السلامة).

«ومن الأفعال ما هو مضعف (٠٠)، وذلك ما اجتمع فيه حرفان متجانسان فادغم أحدهما فى الآخر.

(٠) بكسر التاء..

(٠٠) بتشديد العين.

كذلك: من أفعال العبد ما ضوعف لصاحبه أجره أو ضوعف عليه وزوه، وذلك ما اجتمع فيه حق (..) الحق وحق الخلق فضوعف حكمه فى الأجر وفى الوزر (....).

المضعف الثلاثى مثلى: مد ومزیده: استمد.

والمضعف الرباعى مثل: زلزل ومزیده: تزلزل.

وقد ركز الشيخ نظرتة فى المضعف على إدغام حرف ساكن فى حرف مجانس له ولكنه متحرك، والنتيجة أن صار الاثنان واحداً، ينطق به اللسان نطقاً واحداً..

وسيفرد الشيخ لهذا الإدغام الفصل التالى مباشرة.

وفى الإشارة: أننا نجد فى أفعال العبد هذه المماثلة:

ففى معركة التخلية والتحلية التى يجتازها العبد تتنازعه قوتان أحدهما تجنح به نحو حظوظه وأمانيه والأخرى تشده إلى حقوق الله والتزامات الرحلة عليه، وبكلمات أخرى يحدث صراع بين إرادته الخاصة وإرادة مولاه، وتتوقف الخطوات التالية على حسم هذا الصراع، واختيار أحد الجانبين - يقول الحارث المحاسبى فى كتابه العظيم: «الرعاية لحقوق الله»: «إذا بدأ العبد بحظ نفسه فأسقطه، وأحل محله حق الله كان له الأجر، أما إذا بدأ بحق الحق وانتهى بحظ نفسه فقد خسر كل شيء».

ومن النماذج القرآنية لهذا لموقف قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُزَوِّجَكُ إِن كُنْتَ تُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنْتُهَا فَتَعَالَيْنِ أُمَتِّعْكُنَّ وَأَسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِيدُنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)﴾ (الأحزاب: ٢٨، ٢٩).

ونختم فقرة المضعفات بمقتبسات من آراء الشيخ فى هذا الشأن كما

جاءت فى لطائفه يقول: (وعلى قدر تضعيفه فى طاعاته فإن سعيه مشكور ومقبول، ومع القبول يكون (انتضعيف) والتكثير، فكما أن الصدقة يربّيها^(١٠) كذلك طاعات العبد يكثرها الله سبحانه وينميها^(١٢)).

وقوله «يربّيها» إشارة إلى قوله تعالى «ويربى الصدقات».

والى قوله تعالى: «والله يضاعف لمن يشاء».

ويوضح هذا المعنى فى موضع آخر بقوله:

«وإذا علم الله صدق قلب عبد أمدّه بحسن الأمجاد وأكرمه بجميل الامتداد، ويسر عليه العسير من الأمور، وحفظه من الشرور، وعطف عليه قلوب الجمهور»^(١٣).

(١٢) اللطائف المجلد الثانى ص ٣٤٢.

(١٠) بضم الياء وسكون الراء وكسر الباء.

(١٣) اللطائف المجلد الثانى ص ٣٤٤.

فصل [١٧]:

الإدغام

«الإدغام الإخفاء، فالحرفان في التقدير موجودان . وإن كانا على اللسان بوصف الانفراد.

وفي هذا إشارة إلى ما يقوله القوم في وصف الجمع وجمع الجمع. والمدغم من الحروف قد يكون له حال بروز في بعض أحوال التصريف. كذلك صاحب الجمع له رجوع ورد^(١) في بعض الأحايين إلى عين الفرق».

(١) بفتح الراء وتشديد الدال المضمومة المنونة.

الإدغام فى اللغة الإدخال.. تقول أدغمت اللجام فى فم الدابة أى أدخلته فى فيها (ابن يعيش: باب الإدغام).

وفى الاصطلاح: إدغام حرف فى حرف آخر من جنسه بحيث يصيران حرفاً واحداً مشدداً، وينطلق بهما اللسان نطقاً واحداً.

والإدغام ثلاثة أقسام:

- ١ - ممتع وذلك إذا تحرك أول المثليين وسكن ثانيهما مثل: حلت.
- ٢ - جائز أى يجوز الإدغام والفك. وذلك تحرك المثليان فى كلمتين: مثل جعل لكم، أو كانا تاعين فى افتعل مثل استتر واستر.
- ٣ - واجب وهو الذى تحدث عنه الشيخ فى الفقرة، وهو ما سكن الأول وتحرك الثانى فى كلمة واحدة مثل: مد (أصلها مدد) ويمد مداً والهدف من الإدغام تخفيف النطق، ويرجع ذلك إلى تأثير الأصوات المتجاورة بعضها فى بعض مما يؤدى إلى (فناء) صوت فى صوت آخر فيكون ذلك يسيراً فى النطق.

ومن هنا تأتى - فى رأينا - إشارة الشيخ: موجود (يفنى) فى موجود فيكون الناتج بوصف بوصف (الانفراد) على اللسان. وإذا كان الحرف الأول - فى نحو الظاهر ساكناً والثانى متحرك فهذا هو بالضبط ما يحدث فى نحو القلوب، إذ ينبغى أن يكون العبد ساكناً عند حدوث (الهيبة). يقول فى كتابه «ترتيب السلوك»

(وتكون المناجاة بين العبد والرب فإذا تجلى الحق بالهيبة (سكن) العبد سكوناً تاماً. وعندئذ يمتلئ السر بهيبة المولى عز وجل، وتتوقف كل حركة العبد ونطقه) ^(١). إن العبد ها هنا فى درجة (الصفرة) من حيث الإرادة

(١) ترتيب السلوك شرح بسيونى ص ٦١

والحركة والكلام.. ولم يعد هناك إلا (واحد) بعد هذا المصير. ويشبه الشيخ هذا السكون (بالكائن الحى وقد حومت خوله الطيور الجوارح، فهي لاتسقط عليه وفيه حركة) (٢).

وحالة التوحيد هذه تختلف عن انوحدة فى التصوفات الأخرى، إنها فى بساطة شديدة فناء إرادة فى إرادة، وليس فيها شىء من حلول أو امتزاج أو تقمص.. ونحو ذلك.

ويعبر الموحدون العظام فى التصوف الإسلامى عنها بأقوال بعضها سائغ لدى الفكر العادى وبعضها لايتذوقه إلا العالمون ببواطن الأمور.

يقول فريد الدين العطار: (قلت (٠) هانذا قد فنيت.. قال: كذلك منحتك البقاء، حين ترى نفسك عدماً أهبك وجوداً لايتصور (٠٠) (٢).

أما الحلاج فيعبر عن حالة (الإدغام) الروحى التى انتهى إليها بقوله هذه القولة المشهورة «أنا الحق».

وهى لاتستحق - فى رأينا - كل ما قيل عنها فى عصره وبعد عصره من ضجة، وما كان ينبغى - لو أحسن (٠٠٠) فهمها - إلا أن تمر فى هدوء.

فقوله «أنا الحق» معناها فى بساطة أنا الحسين بن منصور الحلاج لست الحق، فقد ذهبت كل مشاهر (الأنا) المفكرة و(الأنا) الفاعلة، وحين نطق - نطق بالحق، أى أن الذى ينطق عنه وفيه هو الحق.. وربما لاتعجب عبارتنا الأخيرة بعض المتسرعن، ولكن الذى نريده أن كل الكائنات.. من حيوان ونبات وطيور ناطقة بالوحدانية، لأنها دلالة على الواحد.. فكيف

(٢) ترتيب السلوك شرح بسيونى ص ٤١.

(٣) تذكرة الأولياء لفريد الدين العطار انظره منقولا عند عزام فى كتابه «التصوف وفريد الدين العطار» ص ١١٤.

(٠) بضم التاء.

(٠٠) بضم الهاء.

(٠٠٠) بضم الألف.

نستغرب أن يكون ذلك شاملاً أيضاً لهذا العبد المحب الواله الذي أسقط كل أرادة وفعل وتصريف عن ذاته (وإدغم) كل شيء في الهيمنة العليا، فهي التي تنطق عن نفسها فيه كما تنطق في الشجرة مثل يقول الحلاج في ذلك:

أقلبي قلبي في سواك فلا أرى سوى وحشتي منه ومنك به انسى^(١)
فهانا في حب الحياة (مجمع)^(٢) من الأفس فأقبضني إليك من الحبس
ويقول:

بينى وبينك انى يزاحمنى فإرفع بإنيك انى من البين^(٣)
لقد ارتفع الحلاج إلى مرتبة (الجمع وجمع الجمع) ونتحدث عن ذلك بعد لحظات.

والمدغم من الحروف قد يكون له حال بروز في بعض احوال التصريف. كذلك صاحب الجمع له رجوع ورد^(٤) في بعض الأحياء إلى عين الفرق. ويكون البروز عند فك الإدغام، ومن الطريف أن نجد لذلك شاهداً صوفياً يقول الخواص (ت ٢٩١):

إذا ما (مددت) الكف التمس الفنى إلى غير من قال أسألونى.. فشلت^(٥)
سأصبر نفسى إن فى الصبر عزة وأرضى بدنيائى - وإن هى قلت^(٦)
وكأنهما بعد (الإدغام) وصيرورتهما واحداً فى الكتابة يمكن أن يعودا مرة أخرى فى ظرف معين إلى (الانفكاك).

(١) شخصيات قلقة للدكتور عبدالرحمن بدوى ص ١٢٤.

(٢) بضم الألف.

(٣) بفتح الجيم وتشديد الميم المفتوحة.

(٤) بضم الشين.

(٥) بفتح القاف وتشديد اللام.

وحال (الجمع) لا تكون إلا بعد فناء الآثار والأغيار والبقاء بالحق.
 وأما حال (جمع الجمع) فهو فوق هذا، ومعناه الاختطاف كلية بالقبضة
 الإلهية والفناء تماماً عما سوى الله سبحانه.
 ثم تأتي خلال ذلك حال الفرق الثاني (وهى بالضبط تشبه حالة فك
 الإدغام) «حيث يرد العبد إلى الصحو عند أوقات الفرائض كى لاتفوته»
 وما أن ينتهى العبد عن ممارسة العبادات المفروضة عليه فى مواقبتها دون
 إخلال حتى يعاد مرة أخرى إلى ما كان عليه من (جمع)..
 وكل هذه التصرفات فيه هى من لدن الحق وحده، أما هو: «فقد ذهب
 فى الداهيين» كمات يقول البسطامى.

المهموز

«ومن أقسام الفعل المهموز (٠) والهمزة مدة (٠٠) فى الحلق. كذلك قد
 يصعد بعض الأفعال زيادة على ما يصعد غيره من حيث القبول».
 المهموز ما كان أحد أصوله همزة نحو: أمر، ألف، رؤس (٠٠٠) (أى صار
 رئيساً) وسأل وقرأ وهنىء.

ويمكن أن يكون الفعل مهموزاً ومعتلاً مثل رأى، ويمكن أن يكون مضعفاً
 ومهموزاً مثل نبأ (٠٠٠٠) .. والمسألة اعتبارية مخصصة.. ولهذا لم يجعل الشيخ
 «للمهموز» فصلاً مستقلاً. وإنما أتى به فى معرض معالجته «للفعل» فى
 نحو الظاهر عموماً حتى يناظر له فى نحو الباطن. فبعد أن تحدث عن
 (العلل) التى تصيب الفعل، وعن (ادغام) الذى يحدث فى بعض حروفه
 يطرق هنا موضوع (الهمزة) فى حرف من حروف هذا الفعل.

(٠) يضم الزاى.

(٠٠) بتشديد الدال مع التوين.

(٠٠٠) بفتح الراء وضم الهمزة التالية.

(٠٠٠٠) بفتح النون وتشديد الباء المفتوحة.

ومن المعلوم فى الأصوات أن الهمزة أكثر الأصوات الساكنة شدة، وأن النطق بها شاق أعظم ما تكون المشقة، حتى أن بعض اللهجات تسقطها أو تمدّها تسهيلاً (أى تحولها إلى حرف مد)، وقرّيش تخففها.

فإذا كان للهمزة هذه القوة الصوتية التى تفوقها على ماعداها من الأصوات فكذلك فإن بعض الأعمال التى يقوم بها العبد قد تكون مرشحة للقبول أكثر من غيرها.

وقول الشيخ فى الفقرة «قد يصعد» يفيد ذلك، ولكنه دقيق التعبير، إذ أن أحداً لا يملك أن يحكم على الأفعال الإنسانية بالقبول أو الرفض فهذا مردّه إلى علام الغيوب، وبلغ الشيخ الدقة باستعمال «قد» التى تفيد - كما نعلم - التحقيق والتأكيد كما تفيد التكثير - وهى أيضاً تفيد التقليل، وكلها محتملة.

المهم.. أن الشيخ يقصد إلى أن يعزّز المرء أعماله، فبدلاً من أن يردفها بما يضعفها يردفها بما يقويها حتى (تصعد مقبولة).. والأمثلة على ذلك كثيرة.. فالنوافل تدعم الفرائض، واستدامة الذكر آناء الليل وأطراف النهار زيادة مستحبة. والخلو، وعدم الجنوح إلى الرخص (٠)، والأخذ بالأحوط، واتباع الأشق دون الأسهل، والذهاب إلى الحج رغبة فى رؤية رب البيت دون الاكتفاء بشكليات الشعائر، وانفاق المال - الذى هو مال الله على صاحب حق فيه دون أن تدرى الشمال بما بذلت اليمين.. كل ذلك وأمثاله دواع (تصعد) بالفعل، وهى كما ترى نقيض للدواعى التى (تهبط) به: كان الواسطى (بأمر تلاميذه لا بالتزام الطاعات ولا حتى برؤية التقصير فيها مهما زادت وحسنت بل كان يأمرهم بالفناء عنها والبقاء بمنشئها ومجريها).

(٠) بضم الراء المشددة وبفتح الخاء.

لأجل هذا نستطيع أن نصرح بدون تحفظ بأن الصوفية كانوا من أشد البيئات الدينية نفاذاً في جوهر العبادات، ومنحها نظرة خاصة مبنية على تفهم جواهرها. وتفقّه الأغراض البعيدة منها، وتتحية المظاهر عنها، حتى أصبحت الصلاة والصوم والحج والزكاة وكأنها ذات دلالات أعمق مما يعرفه سائر الناس.

وفي هذا رد ضمنى على من يتهمون الصوفية بإهمال الشريعة!).

مقال في النحو الظاهر

عن الفصول القادمة والعامل

(١٨)، (١٩)، (٢٠)

المبتدأ والعامل في رفعه

بعد ما انتهى شيخنا من دراسة الفعل بدأ يدرس الاسم وبدأ الاسم بالمرفوعات، وبدأ المرفوعات بالمبتدأ. ومن البدهى أن لهذا الترتيب ارتكازه الفكرى عنده، وسيتضح ذلك من المتون والشروح القادمة. ونلاحظ أيضاً أنه في باب الابتداء وما تلاه يردد كثيراً لفظ (العامل).. وهذه تذكرنا بقضية مهمة شغلت نحاة المشرق والمغرب بل امتدت إلى عصرنا الحديث.

فما العامل في رفع المبتدأ ورفع الخبر ورفع الفاعل؟

وأيضاً ما العامل في نصب المفعول به؟

ما الذى يجعل الفعل المضارع المتجرد من العوامل يرفع (٠)؟

بادئ ذي بدء.. فإن العامل عند النحاة هو ذلك الذى يحدث (٠) المعنى ويترتب عليه الإعراب، وقد جرت أعراف النحاة على تقسيم العوامل إلى

(٠) بضم الياء وفتح الفاء.

(٠٠) بضم الياء وكسر الدال.

لفظية ومعنوية فالعامل اللفظي يكون له أثر في التركيب بحيث لو افترضت إزالته أو كفه لتغير التركيب شكلاً ومعنى، وذلك مثل كان وأخواتها، وإن أخواتها، وحروف الجر، وأدوات الجزم.

أما العامل المعنوي فهو: كالابتداء، ووقوع المضارع موقع الاسم - وهو التجرد. وقد اختلف في العامل من نواح: -

فيرى بعضهم - كسيبويه - أنها فلسفية^(١). بينما يرى ابن مضاء القرطبي أنها توقيفية (أي من فعل الله تعالى).

(الرد على النحاة لابن مضاء ٨٧)

ويهاجم القائلين بعمل العوامل قائلًا: «هذا قول لا يقبله عاقل، فهذه العوامل لا تعمل بالفاظها ولا بمعانيها لأنها لاتفعل بإرادة ولا بطبع».

ويشتد هجومه على القول بالعوامل المحزوفة ويرفض تقديراتهم لأنها تتصل بلغة التنزيل، ولغة التنزيل منزهة عن هذه التقديرات.. «ومن بنى الزيادة في القرآن بلفظ أو معنى عن ظن باطل فقد تبين بطلانه، وقال في القرآن بغير علم، وتوجه الوعيد إليه» (ابن مضاء ص ٩٢ وما بعدها).

وليس من شك في أن ابن مضاء في حملته هذه متأثر نزعة الظاهرية في الفقه، تلك النزعة التي كانت سائدة في الأندلس.

وقد تكون مخالفة أهل المغرب لأهل المشرق في بعض مسائل اللغة والنحو والأدب والتفسير والفقه والكلام من قبيل المخالفة التي تود تأسيس الشخصية العلمية المستقلة، وربما حركت كل هذه الكوامن عوامل سياسية.. وربما.. فليس هذا موضوعنا هنا.

(١) الكتاب ٢/١.

أما ابن جنى فيردها إلى المتكلم نفسه يقول (.. وأما في الحقيقة ومحصول الحديث فالعمل من الرفع والنصب والجر والجزم إنما هو للمتكلم لا لشيء غيره، وإنما قالوا: لفظي ومعنوي لما ظهرت آثار فعل المتكلم بمضامة اللفظ، أو باشتمال المعنى على اللفظ، وهذا واضح) الخصائص ١٠٩/١ وعالج ابن الأنباري الموضوع نفسه عند بحثه عن رافع المبتدأ ورافع الخبر (الإنصاف المسألة الخامسة).

وذهب الكوفيون إلى أن نصب المفعول يعود إلى الفعل والفاعل جميعاً، ومنهم من ذهب إلى أنه الفاعل وحده. ويذهب خلف الأحمر (وهو كوفي) إلى أن العامل في المفعول معنى المفعولية. والعامل في الفاعل معنى الفاعلية.

أما البصريون فيرون أن الفعل وحده يعمل في الفاعل والمفعول جميعاً. معنى هذا أن كلا من المدرستين: البصرة والكوفة تأخذ بالعامل ولكنها تختلف في تعيينه.

وقد اختلف في العامل في المبتدأ:

فذهب سيبويه وجمهور البصريين إلى أن العامل في رفعه هو الابتداء، وأن الخبر مرفوع بالمبتدأ، فكان العامل في المبتدأ معنوي، وهو كون الاسم مجرداً عن العوامل اللفظية غير الزائدة. أما العامل في الخبر فهو لفظي (المبتدأ).

ومن النحاة من يقول إن الابتداء هو العامل في المبتدأ والخبر معاً.

ومن يقول: المبتدأ مرفوع بالابتداء والخبر مرفوع بالابتداء والمبتدأ.

ومن يقول: ترافعا.. يقول ابن مالك:

ورفعوا مبتدأ بالابتداء كذاك رفع خبر بالمبتدأ

أما فى العصر الحديث فيذهب المشتغلون بالنحو إلى أنه ليس فى اللغة عامل كما تصور النحاة، وإنما هى من عمل اللغة نفسها، وارتضى العرف أن تأتى على هذه الأنماط، وأن توزع الوظائف والقيم فى اللغة.

هذا هو مجمل الآراء الحديثة.. وهو أمر لا يستطيع المرء أن يتقبله دون أن تكون له وجهة نظر فيما ذهبوا إليه..

لأن اللغة ليست إحدى العناصر الطبيعية التى جاءتنا هكذا.. لها درجة انصهار ودرجة غليان ووزن نوعى ووزن جزيئى وذرى... إلخ، وعلينا أن نتعامل معها كما هى.. إنما اللغة صناعة بشرية، قامت بها أجيال من البشر لتحقيق أغراضاً حياتية متنوعة تحتاج إلى أساليب فى التعبير تابعة لكل غرض، وحيث إن الأغراض متنوعة ووسائل التعبير متنوعة.. فإن ذلك كله بحاجة إلى تفسيرات تتعدى كثيراً فهمنا (لخواص المادة) إنها منطق وعقل باعتراف هذه الآراء، ومن حق العقل أن (يفسر) هذه الأوضاع وأن يرجع كل وضع إلى سببه العميق فى عقول المتكلمين باللغة وفى أذواقهم وفى أعرافهم.

على كل حال.. ليس هذا موضوعنا هنا.. فلنا معه لقاء آخر فى كتاب لنا خاص بالموضوع سيكون عنوانه بإذن الله «رأى خاص فى بعض مسائل الخلاف بين النحاة» ولا داعى لأن نقحم أنفسنا هنا فنحول بين الشيخ وقرائه.

فصل [١٨]:

«الاسم المبتدأ شرطه أن يكون مصدراً (٠) للإخبار عنه، وإنما يكون الاسم مبتدأ إذا لم يعمل فيه عامل ظاهر، فإذا سلم من العوامل الظاهرة يسلم له صدر الخطاب، كذلك:

من سلم من تأثير الأطماع فيه، ولم تعمل فيه الشهوات والإرادات سلم له التقدم. ومن أسرته (٠٠) المنى والمطالبات تسفل (٠٠٠) للأعتاب ووقع في صف النعال» (٠٠٠٠).

(٠) بتشديد الدال المفتوحة.

(٠٠) بفتح الألف والسين والراء وسكون التاء وضم الهاء.

(٠٠٠) بتشديد الفاء.

(٠٠٠٠) بتشديد النون المكسورة.

فصل [١٩]:

العوامل على قسمين: لفظي ومعنوي: فالاسم المبتدأ العامل فيه معنى الابتداء. وهو غير لفظي، وإنما هو وقوعه مبتدأ.

كذلك في الإشارة: العامل في العبد نوعان، ظاهر يهتدى إليه كل أحد، ومستور لا يظهر إلا بعد مدة. قال الجنيد رحمه الله: «من أراد أن يضع سرّاً^(١) عند أحد فليضعه عند رويم. فإنه صحبتنا كذا وكذا سنة وفي قلبه حب^(٢) إلينا ولم نبصره فيه».

(١) بتشديد الراء.

(٢) بتشديد الياء وضعها.

فصل [٢٠]:

«ومن فصول باب الابتداء أنه خص المبتدأ بالرفع . وهو أقوى الحركات . لصادفته حل لجام التكلم.

كذلك في الإشارة: من تخلص من تأثير المطالبات فيه، وتحرر من الإرادات قوى في حالة فخص (٠) بأقوى الأثقال، وحمل (٠٠) أثقل الأمور لأنه يحمله بقوة، فاقواهم حالا يخص بأثقل الأمور، قال الله لنبيه ﷺ: «إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا».

وقال ﷺ: «الناس كإبل هائمة لا تكاد تجد فيها راحلة، قيل: الراحلة هي الناقة التي يحمل (٠٠٠) عليها ما يعجز عنها كل إبل».

وكان الشبلي يقول: «أشعر (٠٠٠٠) أنى مأخوذ بجرائم الخلق (٠٠٠٠٠)».

(٠) بضم الخاء وتشديد الصاد.

(٠٠) بضم الحاء وتشديد وكسر الميم .

(٠٠٠) بضم الهاء وفتح الميم.

(٠٠٠٠) بسكون الشين وضم العين والراء.

(٠٠٠٠٠) بفتح الخاء وسكون اللام.

ضممنا هذه الفصول بعضها إلى بعض لأن السياق يتطلب أن تقرأ مجتمعة في صعيد واحد دون تشتيت، وهى من حيث جوهرها تدور على ثلاثة محاور:-

١ - معنى المبتدأ .

٢ - العامل اللفظى والعامل المعنوى فى المبتدأ .

٣ - لماذا خص المبتدأ بالرفع .

ونشهد أن أسلوب الشيخ واضح لاغموض فيه، والإشارة تنبعث من العبارة فى سلاسة ملحوظة... الأمر الذى يسهل علينا عملية الشروح. المبتدأ اسم مصدر (١)، مجرد من العوامل اللفظية. مخبر (٢) عنه، مسند إليه. وكونه له الصدارة هذا حق له من حيث اللقب والموقع والإسناد.

(١) وحتى حين يتقدم عليه الخبر فإنما يتم ذلك لدواعى نحوية أو بلاغية، أى فى حالات خاصة لاتخل بالقاعدة الأساس.

ونحو عندي درهم ولى وطر (٣) ملتزم فيه تقدم الخبر

كذا إذا عاد عليه مضمراً (٤) مما به عنه مبيناً يخبر

أما الدواعى البلاغية فتتلخص فى إضفاء قدر كبير من اهتمام المتكلم بالخبر فيؤثر أن يبدأ الكلام به، لأنه يعلم أن السامع تواق إلى ذلك أيضاً، فهو يقدم له ما يهمه أو يشغله.. فلا ضير عندئذ أن يتأخر المبتدأ، والبلاغة فى صميمها - كما نعلم - هى مراعاة مقتضى الحال، وهذا

(١) بضم الميم وفتح الصاد وتشديد الدال المفتوحة

(٢) بفتح الباء.

(٣) بسكونها فى القافية كذلك.

(٤) بضم الراء، ويضمها فى القافية كذلك.

تحكمه ظروف القائل والمتلقى معاً . وتبقى الحسنة للغة .. فهذا الذى يحدث بحسب لها لا عليها، إنها طواعية اللغة للذين يتكلمونها والذين يسمعونها .. ولاشئ غير.

ومع ذلك نجد فى انسألة التاسعة من «الإنصاف» إصرار الكوفيين على عدم جواز تقديم خبر المبتدأ عليه مفرداً كان أو جملة محتجين بأنه لايجوز تقديم الضمير الذى فى الوصف أو فى الجملة على الاسم المعاد عليه هذا الضمير.

أما البصريون فأجازوا ذلك للسمع عن العرب، وحكى سيبويه عنهم: تميمى أنا.

(٢) ويستتبع كون المبتدأ مصدراً أن من أحكامه فى الأصل أن يكون معرفة أو نكرة مخصوصة لأن الأصل أن المبتدأ محكوم عليه وأن الخبر حكم - والحكم على المجهول لايفيد.

أما النكرة المخصوصة فلها أحكام (انظر فى ذلك كتب النحو) وخلاصتها أن تكون نكرة مفيدة.

٢ - وكون المبتدأ مجرداً من العوامل اللفظية مثل: كان وأخوتها، وأن وأخواتها، وظن وأخواتها يرشحه (لرفع) بالضممة أو ما ينوب عنها فذلك لأن (الرفع) أثقل الحركات، والمبتدأ عمدة فى الإسناد، وما بعده جاء لأجل خدمته والتحدث عنه .. وذلك هو العامل اللفظى فى (رفع) شأنه.

أما الإسناد فهو مؤهل بعامل معنوى هو (الابتداء) به ، وهذه خطوة أساس ترشح (لرفع) أيضاً (راجع فى قيمة الرفع وأهميته فصول هذا الكتاب) لتعرف رأى الشيخ.

والإشارة:

ونحسب أن الإشارة الآن أصبحت قريبة المنال.

يبدأ (المبتدئ) فى طريق القوم بأول مقام من المقامات وهو «التوبة» ونلاحظ أنها استحققت من الشيخ اهتماماً كبيراً.. ولهذا نتوقف عندها:

الحياة أقصر من أن نؤجل التوبة، فالبدار إليها أولى من التأخير والحياة أمامنا تمتلئ بالعجب العجاب «فكم ناسج ينسج كفته وهو لا يدري، وكم بان يبني لأعدائه - وهو يجهل ذاك، وكم زارع لا يحصد ما زرع.. هيات، الكباش يعتلف.. والقصاب مستعد له»^(١).

ويحدث قبيل (٠) التوبة نوع من (التيقظ) الواعى المدرك (٠٠) يؤدي إلى وقفة مع النفس حادة وجادة، ويتطلع المرء إلى الشاطئ الآخر حيث النجاة، ويود لو تخلص من كل ما اجترحه من سيئات دفعه واحدة ثم قفز إلى هناك، هناك حيث يسلم (ابتداؤه) من كل أدران الماضى (وعوامل) الخطيئة (الظاهر) منها و (الخفى).

وبذا (يسلم من الأطماع والشهوات والإرادات فيسلم له التقدم) لأن أية بقية من هذه تبقية فى (وصف النعال) دون أن يحظى بشرف التقدم خطوة على البساط «بساط ملك الملوك»

فلا له مكان فى صفوف الأعقاب أو فى الصدارة، بل هو مرتبط مرتين بالأعتاب و (النعال) .. فأى هوان وخزى!

وعلى نفس المنوال - فى نحو الظاهر - يفقد (المبتدأ) كل صلاحياته ومزاياه التى أهلتها (لرفع والرفعة) إذا ما أقبلت عليه هواجم (كان وأخواتها، وإن وأخواتها، وظن وأخواتها).

بل إن ظن وأخواتها تتسفل به إلى (المفعولية) فيهبط دركات دنيا إلى مرتبة الخدم.

(١) لطائف الإشارات المجلد الأول ص ٥٩٢.

(٠) بضم القاف وفتح الباء.

(٠٠) بكسر الراء .

ولابد (للمبتدئ) في دنيا القوم من عامل خفى (هو القسمة) أو الاجتباء الإلهي، ومن عامل (ظاهر) هو فعله الدعوى في درجات التطهر فإن توافقا فعلى بركة الله.. وله (الرفع).. وإلا.. فكل شيء إلى زوال.

ويضرب المثل (٠) على أدب من آداب البداية هو كتمان السر. فمحمد ابن رويم تتلمذ على الجنيد، ولم يحدث أن أفضى بأحد أسرار طوال حياته إلى أن قبضه الموت.. درس للمبتدئين فضلا عن عشرات الوصايا التي تحدثنا عنها سابقاً.

(٠) بفتح المهم والثاء واللام.

فصل [٢١]:

الخبر وأقسامه

«لا بد للمبتدأ من الخبر، والخبر ما تتم به فائدة الخطاب، فإذا حصل الابتداء فلا بد مما تتم به فائدة الخطاب.. وإلا كان لغوًا.

كذلك: الابتداء في العرفان فلا بد مما تتم به الفائدة وهو استدامته إلى حال الانتهاء.

فإذا حصل بالابتداء بالطاعات فلا بد من تمامها - قال ﷺ: «الأمور بتمامها».

وكذلك على لسان الجمع إذا حصل منه (سبحانه) ابتداء القسمة بالرحمة فلا بد^(٠) في الانتهاء والمآل من المنّة والنعمة.

ورذا سبق منه الابتداء بالولاية فلا محالة ينعم بحفظه في الانتهاء، ولذا قيل:

إن الكريم إذا حباك - بورده^(٠٠) ستر القبيح وأظهر الإحسانا

وكذا الملول^(٠٠٠) إذا أراد قطيعة ستر المليح وقال كان وكانا

(٠) بفتح الدال المشددة.

(٠٠) بكسر الدال المشددة.

(٠٠٠) بفتح الميم وضم اللام.

فصل [٢٢]:

«خبر المبتدأ على أقسام - وبالكمل تحصل فائدة الخطاب.

كذلك : لو سلكت للحق طريقاً، أو ابتدأت بأمر فلا تتصرف ما لم تتم ذلك.. سواء كان سلوكك سبيل العبادة أو طريق الإرادة أو طريق العلم أو طريق الزهد - فإن قدر (٠) الأمور بالاستقامة فيها... فإذا ابتدأت بأمر فاعلم أنه لا تتم الفائدة به إلا بإتمامه:

تجرد من الدنيا فإنك إنما سقطت إلى الدنيا وأنت مجرد

(٠) بفتح القاف وتسكين الدال وفتح الراء.

فصل [٢٣]:

خبر المبتدأ قد يكون مثل المبتدأ كقولك: زيد منطلق (٠) ويكون جملة: إما فعلاً وفاعلاً، أو شرطاً وجزاء أو ظرفاً وبجميع ذلك تحصل فائدة الخطاب.

كذلك إذا ابتدأت بأمر فيكون تمامه بتجريدك لذلك الأمر كما ابتدأت به، فتكون اليوم (٠٠) كما كنت فيه بالأمس.

وقد لا تحصل الفائدة إلا بجملة من الأفعال والصفات تزيد على حالتك الأولى، إذ لو لم تضيفها (٠٠٠) إلى ما سبق منك بالأمس لا تحصل الفائدة.

(٠) برفع المبتدأ والخبر.

(٠٠) بفتح الميم.

(٠٠٠) بضم التاء.

تتحدث هذه الفصول الثلاثة عن ثلاثة أمور:

١ - تعريف الخبر. ٢ - وظيفته. ٣ - أقسامه.

١ - تعريف الخبر:

لفظ مجرد من العوامل اللفظية مسند إلى المبتدأ ليتم الفائدة.

يقول ابن مالك:

والخبر الجزء المتم الفائدة كالله بر والأيدى شاهدة

فيخرج من التعريف مرفوع الوصف المكتفى به مثل:

أطائر العصفوران؟ فهو لا يسمى خبراً بل هو فاعل سد مسد الخبر.

٢ - فوظيفة الخبر: إتمام الفائدة التي جىء بالمبتدأ لأجلها.

٣ - أقسام الخبر:

١ - المفرد - ٢ - الجملة بنوعيهما ٢ - شبه الجملة الظرفى والحرفى

أولاً - الخبر المفرد: وهو نوعان:

الجامد: وهو نوعان:

(أ) يمكن تأويله بمشتق مثل: زيد أسد (أى شجاع)، هذا مصرى (أى منسوب إلى مصر)، وجهها قمير (أى قمر صغير).

ومثل هذا الخبر يتحمل الضمير على أساس ما يتضمنه من معنى المشتق.

(ب) لا يمكن تأويله بمشتق مثل: هذا أسد (تقصد الحيوان المعروف نفسه)، هذا محمود (علم على الشخص الذى اسمه هكذا) فإنه يكون فارغاً أى غير محتمل للضمير لبعده^(١) عن الوصفية والفعلية.

(١) بضم الباء وسكون العين.

ومن هذا النوع الأخير اسم الآلة (هذا مفتاح)، واسم الزمان (الامتحان موعده المجدين) واسم المكان (هذا مجلس زيد) - فهي وإن كانت من قبيل المشتقات إلا أنها لاتدل على وصف ولاعلى صاحب وصف.

المشتق:

ما أخذت صيغته من المصدر للدلالة على متصف به، وهو يؤدي معنى الفعل، ولهذا يتحمل ضميراً مستتراً فيه يعود على المبتدأ مثل الذى قاله الشيخ فى الفقرة: (زيد منطلق) فهي فى المعنى تساوى (زيد انطلق هو).

ثانياً - الخبر الجملة:

(أ) اسمية مثل: الطريق مقاماته متدرجة.

(ب) فعلية مثل: الطريق يسلكه المرید.

وقد يكون جملة شرط (وقد ذكرها الشيخ فى المتن) مثل:

المرید إن يسترخض فقد فسخ عقده مع الله.

وقد أحسن الشيخ إذ ذكر (فعل الشرط والجزاء) خلافاً للقول المعتاد (فعل الشرط وجوابه)، فالتعبير هنا أليق باستنباط الإشارة كما سيأتى ويمكن أن يضاف إلى مجموع مصطلحات النحو عنده.. وهو تعبير دقيق جميل.

ونلاحظ وجود ضمير رابط فى جملة الخبر بنوعيتها يكون أشبه بصلة عضوية تربط بين أجزاء الجملة الكبرى.

أما عندما تكون جملة الخبر هى المبتدأ فى المعنى فإنها تستغنى عما يربطها بالمبتدأ مثل:

١. نطقى الله حسبى

م. أول م. ثانى خبر الثانى

٢. قل هو الله أحد

م. أول م. ثان خبر الثانى

وقد آثرنا أن نجرى هذا التحليل للمثال الثانى بخاصة لأن فحواه:

(هو = الله أحد)، فالطرف الأول هو نفسه الطرف الثانى، وكلا الطرفين مفيد تام، فكأن (هو) وحدها تساوى جملة مفيدة، وهذا ما ذكره الشيخ فعلا فى كتاب «التحبير فى التذكير» ونوهنا به فى باب المبتدا.

«وقد لا تحصل الفائدة إلا بجملة من الأفعال والصفات... إلخ».

إذا أراد المتكلم التعبير عن ثبات الخبر استعمل الجملة الإسمية لخلوها من الحدث المرتبط بالزمن، أما إذا أدخل فى حسابه التحديد الزمنى استعمل الجملة الفعلية أو الصفات التى فى معنى الأفعال، وسنوضح فى الإشارة.

وتركيز الشيخ على الأفعال والصفات هو ما حدا به ألا يذكر «شبه الجملة» كنوع من أنواع الخبر، فضلا عن أسباب أخرى سنذكرها بعد قليل.

ثالثا. الخبر شبه الجملة:

وشبه الجملة إما ظرفى أو حرفى، وكلاهما يتعلق بمحذوف واجب الحذف، وهو كون عام يفهم^(١) بدون ذكره على تقدير (مستقر أو كائن أو استقر) يقول ابن مالك:

وأخبروا بظرف أو بحرف جر ناوين معنى كائن أو استقر

مثل: التوبة قبل الورع، المرید عند شيخه.

ومثل الخشية فى القلب.

(١) بضم الهاء وفتح الهاء.

أما الكون الخاص فلا يجوز حذفه مثل: زيد نائم في الدار أو جالس عندك.

وهناك كلام كثير في كتب النحو عن ظرفي الزمان والمكان، وعن متعلقات الكون العام والكون الخاص.. وربما وجد الشيخ أن هذا الموضوع بخلافاته لا يفيد شيئاً هنا فلم ينوه (٠) به بتاتاً، هذا فضلاً عن تركيز اهتمامه بالأفعال والصفات فهي التي تعينه في (الطريق) الصوفي.

إشارات من الخبر

العابد تائب - الزاهد يعزف عن الدنيا - العارف في الفرق الثاني يؤدي الفرائض - الولي عند مرتبة الكرامة لا يلاحظ نفسه.

أردنا أن نصوغ فوائد الخبر في عبارات صوفية تلخص فكرة الشيخ حول وظيفة الخبر، فهو في الواقع قد جيء به لبيان (صفات وأفعال) تحقق فائدة في الجملة.

يرى الشيخ أن الرحلة ذات مراحل، وكل مرحلة تتطلب عند (الابتداء) بها مزيداً من (الصفات والأفعال)، فالخبر يفيد في تجدد السلوك الذي يلتزم به (البادئ) الذي يدخل في منزلة من المنازل (سواء كان سلوكك سبيل العبادة أو طريق الإرادة أو طريق العلم أو طريق الزهد) و(كلها صفات وأفعال تريو).

هي إذا معركة قتالية تحتاج إلى خطة بعيدة الهدف، وتحتاج إلى خطة مرحلية تتغير بحسب المرحلة، ويتكامل هذا وذاك يتم النصر. وعلى العبد أن يفهم أن الخطر على الدوام كامن، وأن الأعداء - النفس والهوى والشیطان والدنيا - يتربصون به في كل ثانية، وأنها تختبئ في جيوب على جوانب الدرب، وأنها مفتحة العيون كي تنقض على العبد فرادى أو

(٠) بضم الهاء وتشديد الواو مع كسرهما.

مجتمعة.. فبدون مضاعفة (الفوائد) وتجدها يضعف المرء، وتفتر همته،
ويجد العبد نفسه - لو استسلم لعدو منها - أنه كان كمن يحترق في البحر!
في هذا الميلاد الروحي النبيل تنتعش الإرادة وتزدهر الروح ويتألق
السر ولكن.. لا أمان، فبدون هذه (الفوائد) في كل منزلة يجهض هذا
المولود وينتهي كل شيء.

وللحقيقة فإن الشيخ حين ألف «رسالته» الشهيرة قد وضع كل هذه
الاعتبارات في ذهنه، فأفاض في عرض الرحلة من بدايتها إلى نهايتها،
وأبان علل الطريق، وشخص (٠) الدواء لكل علة فلم تبق حجة لدى أحد
يتذرع بها لأنه إذا (صح الابتداء صح الانتهاء، وتحققت الفائدة).

والشيخ بتجربته الواسعة، وباتصاله بأعداد كبيرة من المريدين
والخلطاء لهم يعرف أشياء ربما يجهلها غيره.. استمع إليه مثلاً وهو
يعالج آفة الإحباط حينما تصيب المبتدئين.. كيف عالجها؟

«من قارف الزلة (٠٠) فهو من خطئه على يقين، فإذا تغلب على ذلك
بالتوبة فهو من القبول في شك، فواجبه الانكسار، وملازمة التنصل
والاستغفار، واستشعار الوجل إلى الأجل».

ولكى يأخذ بيده بعد تشخيص (الصفات والأفعال اللازمة لتحقيق
الفائدة) يعود بهذا المحبط إلى سيرة المصطفى صلوات الله وسلامه لكي
يقدم له الأسوة الحسنة والنموذج الأمثل.. كان صلوات الله عليه ﷺ - وقد
غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر - يقوم الليل حتى تتورم قدماء.. وحين
يسأل (٠٠٠) في ذلك يقول: «أفلا أكون عبداً شكوراً»

(٠) بتشديد الخاء مع فتحها.

(٠٠) بتشديد الزاي وتشديد اللام مع فتحهما.

(٠٠٠) بضم الهاء وفتح الهمزة.

ومع ذلك فإن هذا العظيم كان يقول أحياناً «إنه ليفان على قلبي
فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة».

نظن أن في ذلك كله ما يشفى من كل إحباط!

ليس هذا فقط بل إنه يضع في يد المريد مقياساً ضابطاً لحصول
(الفائدة) في كل مرحلة فهو يقول مثلاً عند الظفر في مقام التوبة
(وعلامة ذلك أن يجد الحلاوة في المستأنف عوضاً عن المرارة في
السالف).

وأخيراً.. فإنه إذا كان (الابتداء بالقسمة بالرحمة فلا بد في الانتهاء
والمآل من المنّة والنعمة) وأيضاً (إذا كان الابتداء بالولاء فلا محالة ينعم
بحفظه في الانتهاء).

ومنى هذا أن (الابتداء الصحيح يؤدي إلى (الانتهاء) الصحيح، وتحدث
(السلامة) في (الجملة)، فالمقدمات الصحيحة في أي شيء تعطى النتائج
الصحيحة.

ولقد قلنا من قبل إن التصوف ينماز عن سائر المعارف بأن هناك
عنصراً أولياً في الطريق هو (القسمة) (٠)، هو (الاجتباء) الإلهي فالله
سبحانه يصطفى من خلقه بشراً يكونون له خاصة.

وبدون ذلك .. لا فائدة.

أما عن (الانتهاء) فعلمة الصحة والسلامة أن (يحفظ) الله العارف
وهو في حال الجمع أوجع الجمع فيرزقه حال (الفرق الثاني) كي يؤدي
الفرائض في مواقيتها، فلا يكون عليه أو منه تقصير في حقوق الشريعة.

وهل هناك (منّة أو نعمة) أعظم من أن يجمع العارف بين الحقيقة
والشريعة في آن واحد؟ لأنه إذا صح الولاء في البداية صح الانتهاء).

(٠) بكسر القاف وسكون السين.

وهكذا نلاحظ كيف أن القشيري - وكبار الشيوخ - لا يعملون (٥) من تكرار القول إن الشريعة والحقيقة وجهان لحقيقة واحدة، فكل منهما تمنح الأخرى طاقة الازدهار والانتعاش في قلب العارف ووجدانه.

(٥) بفتح الياء والميم وتشديد اللام المضمومة.

فصل [٢٤]:

الفاعل

«الفاعل مرفوع وقيل: علة الرفع مشابهته للمبتدأ .
وقيل: لقوة حاله خص (٠) بأقوى الحركات .
وقيل: للفرق بينه وبين المفعول - والرفع أقوى الحركات .
وفى الإشارة: استحقاق الرفع والعلو للحق سبحانه وتعالى - لأنه
الفاعل على الحقيقة، وليس لغيره قدرة على الاختراع .
ولأن الابتداء فى الأمور منه فهو الأول السابق، واستحقاق الرفع
والعظمة له» .

(٠) بضم الخاء وتشديد الصاد .

تعريف الفاعل:

الفاعل اسم مرفوع قبله فعل مسند إليه على جهة قيامه بهذا الفعل أو قيام الفعل به.

تحليل هذا التعريف:

على طريقة أسلافنا في الشرح نتوقف عند كلمات التعريف السابق مراعين أن نتجنب التطويل اللهم إلا إذا اقتضى فهم الإشارة - وهذا هو المهم - ذلك.

فهو (اسم) صريح: مثل: نصركم ربكم (٠) على أعدائكم.

أو مؤول مثل: أو لم يكفهم أنا (٠٠) أنزلنا.. أي إنزالنا.

(مرفوع) رفعاً ظاهراً مثل: يزهد الزاهدون في الحياة الدنيا. أو على المحل مثل:

(أ) إضافة المصدر إلى فاعله مثل: يسرني عطاء (٠٠٠) الغنى (٠٠٠٠) للفقير.

(ب) كونه مجروراً بمن أو اللام أو الباء الزوائد مثل: ما جاعنا من بشير، هيهات هيهات لما توعدون، وكفى بالله شهيداً.

(قبله فعل) الأصل في الفاعل أن يلي الفعل لأنه كالجاء منه، فالفعل لابد له من فاعل بعده فإن ظهر فيها وإلا قدر ضمير مستتر، يقول ابن مالك:

ويعد فاعل فاعل فإن ظهر فهو وإلا فضمير استتر

(٠) بضم الباء المشددة.

(٠٠) بتشديد النون المفتوحة.

(٠٠٠) بضم الهمزة.

(٠٠٠٠) بتشديد الباء المكسورة.

ذلك لأن الفاعل عمدة لايجوز حذفه، فهو جزء أساسى فى الجملة، ولو أن بعض النحاة يوجبون حذفه أو يجوزونه فى بضعة مواضع، ولكن هذه المواضع من الندرة بحيث لاتخل بالقاعدة الأساس.

ينبغى أن يكون الفاعل مع فعل مبنى للمعلوم حتى نخرج نائب الفاعل الذى يكون مع الفعل المبنى للمجهول.

ولندع جانباً رأى الكوفيين فى جواز تقديم الفاعل على الفعل فهو رأى يثير البلبلة، ويوقع فى اللبس^(١)، والقاعدة النحوية ينبغى أن تريح لا أن تحير. ويميل شيخنا إلى رأى البصريين فى الحكم بتأخر الفاعل عن رافعه.

(مسند إليه) الواقع أننا ونحن نصوغ تعريف الفاعل السابق تأثرنا موقف البلاغيين فى فكرة الإسناد، فزدناها كى يكون التعريف جامعاً مانعاً.... وعلاقة الإسناد تشمل النوعين من العلاقات: علاقة قيام الفاعل بالفعل مثل: كسرت الريح^(٢) الزجاج^(٣). وعلاقة قيام الفعل به مثل: انكسر الزجاج، ومثل سقط السقف، ومات الرجل.. ففى هذه الأمثلة لم يقم الفاعل بالفعل وإنما قام الفعل به. وهذه العلاقة المنبهمة تدخل فى نطاق الإسناد على نحو ما تدخل العلاقة الواضحة الأولى.

بقيت فى الموضوع أشياء هى من البدهيات النحوية التقليدية مثل: الإعراب المحلى والتقديرى، فالمعرب يظهر عليه الرفع، والمبنيات تبنى على ما ترفع به فى محل رفع، ومثل قيام ما ينوب عن الفعل مقام الفعل مثل: اسم الفعل والمصدر، واسم الفاعل، والصفة المشبهة، وأفعل التفضيل، والجامد المؤول بمشتق مثل: (أسد بمعنى شجاع، ونمر بمعنى غادر.. إلخ).

(١) بفتح اللام المشددة.

(٢) بضم الحاء.

(٣) بفتح الجيم الأخيرة.

سبب الرفع:

يقول الشيخ: «لمشابهته المبتدأ»، وهذا ما يذهب إليه فريق من النحاة على أساس أن الفاعل كالمبتدأ يتطلب الرفع الظاهر أو المقدر في الأسماء المعربة، والرفع على المحل في المبنيات، وهو لا يتحول عن هذا الرفع بحال.. فكان المبتدأ هو أصل المرفوعات، والفاعل لا يحدد عن هذه المرتبة حتى لو سبق (٠) بحرف جر زائد.

ويرى الشيخ أيضاً أنه «رفع لقوة حاله فخص بأقوى الحركات» وهذه مسألة سبق أن شرحها في المرفوعات فلا داعي لإعادتها هنا. ويضيف الشيخ أسباباً أخرى:

«ليس لغير الفاعل قدرة على الاختراع.

الابتداء في الأمور منه فهو الأول السابق.

استحق الرفعة والعلو لأنه الفاعل على الحقيقة.

توهم (٠٠) أن الحادثات من المفعولات والمفعولين لا حقيقة له..

واضح جداً أن الذات الإلهية (الفاعلة) في الكون بمشبهة مطلقة حاضرة في ذهن الشيخ وهو يتحدث عن (الفاعل).

والإشارات هنا نافعة في إمكان حل الخصومات النحوية التي كثيراً ما تتشعب وتتفرع إلى تفاصيل لا جدوى منها، وهي تثقل على الناس وبخاصة الناشئة - درس النحو، في حين تبقى الحقائق الضرورية الكافية بسيطة وناصعة لاتقبل الدوران حولها.

وتلك مائدة من مآثر هذا الكتاب - لو أحسن فقها.

(٠) بضم السين.

(٠٠) بفتح التاء وفتح الواو وتشديد الهاء المضمومة.

فصل [٢٥]:

«المفعول»

«المفعول منصوب. والنصب أخف من الرفع، والمفعول انقص رتبة من الفاعل، فخص (٠) بما هو الأخف من الحركات.

كذلك: الخلق هم المفعولون، فلهم حالة المجز والنقص لأنهم في أسر القدرة وتصريف القبض.

وقيل:

فأصبح لمر (..) السمناء

فقد خلقت (٠٠٠) ممر (٠٠٠٠) القضاء

(٠) بضم الخاء وتشديد الصاد المفتوحة.

(٠٠) بكسر اللام وضم الميم وتشديد الراء.

(٠٠٠) بضم الخاء وكسر اللام وسكون القاف

(٠٠٠٠) بفتح الميم وتشديد الراء.

فصل [٢٦]:

أقسام المفعول

«المفعول على أقسام: مفعول مطلق، مفعول به، ومفعول له، ومفعول فيه، ومفعول معه.

كذلك: المفعولات على أقسام، فالجمادات مفعولات على الإطلاق، والحيوانات مفعولات بها تجرى عليها أحكامه . سبحانه . في النفع والضرر.

والمكلفون مفعول لهم: خلق لأجلهم الجنة والنار.

وأحوال المكلفين مفعول فيها لأنهم يعملون بالمعاصي والطاعات فيها.

والبلاء مفعول معه لأن بنى آدم خلقوا والبلاء والمعناء معهم، قال تعالى: «لقد خلقنا الإنسان في كبد».

ويصح أن يقال: الأرزاق مفعول معه لأنه خلق الرزق مع المرزوق.

ويصح أن يقال: كفاية الله مفعول معه لأنها لازمة لأوليائه، فلا يكون لله ولى (٠) إلا وهو مكفى (٠٠) الشغل، قال تعالى:

«والله (٠٠٠) يتولى الصالحين».

(٠) بفتح الميم وسكون الكاف.

(٠٠) بفتح الواو وكسر اللام.

(٠٠٠) بتشديد اللام المفتوحة.

جاء الفصل الخامس والعشرون ليكون تمهيداً عاماً يتناول المفعولات كلها، ويشتمل على خصائص عامة تنطبق على كل المفاعيل.

فالمفعول فضلة (لأنه انقص رتبة من الفاعل) وهو (منصوب لأن النصب اخف من الرفع) ولأنه يقع متأثراً بالفعل (فله حالة المعجز والنقص) وتستوقفنا هنا بضعة أمور:

أن النصب استحقاق للكلمة حين تخرج عن نطاق الإسناد أو الإضافة. وبناء على ذلك يكون (الرفع) أسبق من النصب، فالمبتدأ والفاعل أسبق من المفعول (نتذكر هنا ما قاله الشيخ في بابي المبتدأ والفاعل) مستحضراً (العظمة الإلهية بوجودها المبدئي الأزلي المطلق) و(بفاعليتها في الكون).

ولابن عربي كتاب صغير الحجم جليل القدر اسمه (شجرة الكون) جاء فيه أن الله سبحانه حينما أراد خلق الكون بذراً^(١) حبة (كن) .

«إنما أمرنا إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون».

ولهذا - في رأى ابن عربي - فإن (كن) تحوى في رحمها^(٢) كل تناقضات الكون فالكاف للكمال وللکفر، والنون للنعمة والنقمة. ونستطيع نحن أن نربط بين هذه النظرة هنا وبين دوران لفظة (أمر) في القرآن الكريم فنربط بين الآية السابقة وبين «حتى يقضى الله أمراً كان (مفعولاً)».

وبلغة الفلسفة نستطيع أن نقول إن الله سبحانه واجب الوجود. أما المخلوقات (بعد كن) فهي من الممكن الوجود وبالتالي فكلها من المرجحات أو المفاعيل، فكلها جاءت (بأسر القبضنة وتصريف القدرة) وكانت عدماً تفتقر إلى من يوجدها، ثم هي بعد وجودها لاتستغنى عن مبدعها أى الذى

(١) بفتح الباء والذال والراء.

(٢) بفتح الراء وكسر الحاء.

خلقها لا على مثال سابق، ولا فى زمن يذكر، وهى على حد تعبير ابن سينا تحتاج إلى (عناية) الصانع.. وللعلم فإن (دليل العناية) إضافة سينوية إلى مذهب أرسطو فى الوجود الإلهى.

وفى رأينا أن الشيخ لا يطمح من عملية التنظير هنا إلى مجرد توافقات لفظية بين نحو الظاهر ونحو الباطن، بل يطمح إلى ما هو أعمق... إلى الفرض الأساس من الكتاب: وهو توسيع آفاق المعرفة لدى (الذاكرين).. ولنوضح الأمر نعيد هنا شيئاً كنا قد ذكرناه آنفاً:

فيفترض (٠) أن (التأمل) وهو حجر الزاوية فى (الذكر) يبدأ بالتأمل فى عظمة (الذات الإلهية) التى يمثلها (المبتدأ أو الفاعل) ثم يطوف (٠٠) التأمل فى جنبات الكون وما فيه (المفعولات) هنا حيث تتجلى (الصفات) الإلهية من وهاب ورزاق، ومحى ومميت ومنعم ولطيف، وقابض وباسط.... فالبدء بالذات والانسياح مع الصفات... إلخ حلقات فى سلسلة (الذكر) وتنتهى التأملات إلى أن:

فى كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

الكون كله يسبح (٠٠٠) بتوحيد الله وبشكره، وبعظمته، وإبداعه فى خلقه، وهذا الشمول الذاكر، فى الألوهية ثم فى الكون والطبيعة والإنسان هو المقابل الموضوعى للفلسفة، فليست الفلسفة فى الواقع إلا: ميتافيزيقا وفيزيقا وإنسان.

وبدهى أن الخلاف شاسع جداً بين المعرفتين.. ولا مجال هنا لبيانها، وإنما أردنا فقط أن نخرج مع إشارات الشيخ إلى دائرة أوسع من المناظرات اللفظية بين الكلمات فى هذا النحو وذلك.. والنقطة التى وصلنا

(٠) بضم الياء وسكون الفاء.

(٠٠) بكسر الواو المشددة.

(٠٠٠) بكسر الباء المشددة.

إليها هي ذات النقطة التي انتهى إليها ابن سينا حين قال لأحد شيوخ الصوفية بعد أن استمع إليه طويلاً: أنت ترى ما أعرف!

وسنحاول في السطور القادمة أن نتخير من نصوص القشيري في مصنفاته المختلفة ما يفيد في إبراز فكرتنا عن أن المقصود بالباب - بل بالكتاب كله - شحذ همة (الذاكرين) نحو تأمل جاد ومستنير - لا كما يحسب بعض الناس أن حلقات (الذكر) ليست إلا مجرد حركات أقرب إلى الهستيريا والادعاء والجهالة.

ومن أمثلة التأمل في (الذات) قوله:

«سألهم هل في الدار، وهل للكون - في التحقيق عند الحق مقدار؟

فإن بقوا عن جواب يشفى فقل: (اللّه) في الربوبية يكفي»^(١) ثم نتابع النصوص المتصلة بالكون والطبيعة والحيوان والإنسان فيما بقى من (المفعولات) .. فكلها جىء بها لبيان الفرض الذي سقناه. والتأمل في الطبيعة: «تجانست أجزاء الأرض وتوافقت أقطار الكون وتباين النبات في اللون والطعم واختلفت الأشياء، ودل كل مخلوق بلسان فصيح وبيان صريح أنه بنفسه غير مستقل»^(٢) وفي الحيوان:

واللّه سبحانه خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ... إلخ» «يريد خلق كل حيوان من ماء من صلب الأب وتربة الأم.. ثم أجزاء الماء متساوية متماثلة ثم ينقسم إلى جوارح في الظاهر وجوارح في الباطن فيختص كل عضو وينفرد كل شلو بنوع من الهيئة والصورة، وضرب من الشكل والبنية، ثم اختلاف هيئات الحيوانات في الريش والصوف والوبر والظفر والحافر والمخلب، ثم في القامة والمنظر، ثم انقسام كل ذلك إلى لحم وشحم وجلد وعظم وسن ومخ وعصب وعرق وشعر».

(١) لطائف الإشارات المجلد الأول ص ٤٦٣.

(٢) لطائف الإشارات المجلد الأول ص ٤٩٢.

«إن النظر في هذا . مع العبرة به يوجب سجود البصيرة وقوة التحصيل».

هذا السطر الأخير في النص السابق هو تأييد لما ذهب إليه عن الغاية المقصودة من كل باب المفاعيل، والنصوص المبعثرة على أقسام المفاعيل - كما سيأتى - تضيف تأكيداً جديداً إلى ذلك.

والآن..

ندخل في بيان هذه الأقسام مستريحين عند استتباط الإشارات:

أولاً . المفعول المطلق:

أحسن الشيخ إذ قدمه على سائر المفعولات بينما هو يتأخر عنها في كتب النحو الظاهري.. وربما ترجع رؤية الشيخ إلى خصائص ينماز بها هذا المفعول.

فهو إذا كان حسب التعريف - مصدراً منصباً يؤكد فعله أو يبين نوعه أو عدده مثل: أنعم الله على عبده إنعاماً وقيماً.

أو تخلق المريد تخلق الشيخ في الصلابة

أو تدور الأرض دورة واحدة كل يوم

فإن هذه المصادر المنصوبة أسماء للأحداث الجارية على الفعل، وهي تكاد تكون من حيث البنية نفس بنية الفعل، ولاتنقص في حروفها عنه، وهي تدل على وقوع الحدث مطلقاً، وعلى وقوع الفعل عليها حقيقة، فهي بكل هذه الأوصاف المفعولات الحقيقية لمن قام بالفعل. بمعنى أنه إذا بحثنا عن صلة وثيقة بين الفاعل وفعله فإن المفعول المطلق أوثق الصلات بين الطرفين من حيث الصياغة ومن حيث الواقع: فقولك: قام المريض قياماً معناه أن المريض قد أوجد من نفسه هذا القيام، وأحدثه حقاً وواقعاً بعد

أن لم يكن.. بخلاف باقى المفعولات فإن الفاعل لم يوجد لها، فلها وجود خارجى خاص. وإنما سميت بحسب نسب^(٠) اعتبارية يقوم فيها حرف الجر بدور ذى مغزى مثل المفعول (به) و(له) و(فيه) وزاد السيرافى (منه) مثل قولك واختار موسى قومه سبعين رجلاً (أى من قومه).

وسمى الجوهرى المستثنى مفعولاً (دونه): «القطر لابن هشام باب المفعول به».

هذه الصلة الضرورية ذات المغزى لا نجد لها فى المفعول المطلق، فهو بهذا (متحرر) من كل قيد... وبذا تتأكد عراقته فى المفعولية.. يقول ابن هشام فى أوضح المسالك عند تعريفه للمفعول المطلق «هو الذى يصدق عليه قولنا (مفعول) صدقاً غير مقيد بالجار بخلاف المفاعيل الأخرى».

ميزة أخيرة.. أن هذا المفعول يحمل الحدث (الخالى من الزمن) وهذه ميزة أخرى لانجدها فى غيره.

وإذا كانت الجملة بركنيها الأساسيين تستطيع الإفادة، وكان ما يأتى بعدها (لتكملة) هذه الإفادة فليس أعظم لأداء هذا الدور من مفعول يستمد مادته الخام من الفعل ذاته ليؤكد له أو يبين نوعه أو عدد مرات وقوعه.

* * *

وينطلق التنظير عند الشيخ بين المفعول المطلق وبين الجمادات. ومع أن الجمادات لا عقل لها إلا أنها تؤلف نسبة كبيرة من مكونات الوجود الطبيعى فهى مسرح (التأمل) المديد طلباً للعظة والاعتبار، وقد وردت هذه المظاهر الطبيعية فى القرآن الكريم فى مواضع شتى لأجل هذه الغاية،

(٠) بكسر النون وفتح السين.

حتى لكأن النظر إليها نوع من التعبد والتفكر المستمد من الواقع الخارجى.. بل إن القرآن يضعها فى بعض الأحيان موضع الذى يشعر ويتحرك وتتأثر.

«لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيت حاشعاً متصدعاً..»

و«ثم قست قلوبهم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله».

وبسط الأرض ودحاها، والجبال أرساها، وفجر عيونها، وصنف أزهارها وثمارها، وأنبت أشجارها، وأجرى أنهارها، وجنس بحارها، وكور عليها ليلها ونهارها.. ذلك تقدير العزيز العليم.

ولعل القشيري وهو فان (١) فى بعض تأملاته قد عايش هذه الحظاظ التأملية فى الطبيعة فنقل هذا المعنى عندما تحدث عن (الأوتاد والأبدال والقطب) فى طرائق الصوفية.. يقول مثلاً:

«وكما تمسك الأرض بالجبال تمسك بالأبدال فهؤلاء السادة فى الحقيقة أوتاد العالم» (٢).

والخلاصة: أن هذه الجمادات - التى لاتملك عقلاً أو إرادة - لاتكليف عليها وإنما هى (مفعولات) مطلقة تكثر فى (العدد) و(تنوع) فى المظاهر كأنها (منصوبة) لدور آخر هو العظة والاعتبار.

ثانياً - المفعول به

هو اسم دل على ما وقع عليه فعل الفاعل إيجاباً وسلباً ولم تغير لأجله صورة الفعل مثل: يحب الله المتقن (٣) لعمله.

(١) بالنون المنونة المكسورة.

(٢) لطائف الإشارات ص ٣٩٩.

(٣) بفتح النون.

وما أطعت النفس (٠).

ويكون ظاهراً كما في المثالين السابقين.

ويكون ضميراً متصلاً مثل: أرشده الشيخ إلى طريقة السماع. أو
ضميراً منفصلاً مثل: إياك نعبد.

ويشترك المفعول به مع بقية المفاعيل في أنه فضلة وكونه منصوباً،
ولكنه يمتاز عنها بأنه لا ينصبه إلا الفعل المتعدي أما غيره فينصبه اللازم
والمتعدي. وهو ينصب على الاشتغال وعلى الاختصاص وعلى الإغراء وعلى
التحزير، فكلها مفاعيل حذف (٠٠) عاملها.

والمفعول به يتأثر تأثراً مباشراً بفعل الفاعل أما بقية المفعولات فهي إما
(الأجله) أو (فيها) أو (معها) أي بوسيلة وسيطة.

* * *

(٠) بفتح السين.

(٠٠) بضم الحاء وكسر الذال.

ونأتى إلى الإشارة..

صرف الشيخ هذا النوع إلى الحيوانات، حيث لا تستطيع أن تزعم أن لها إرادة أو اختياراً، وأنها في الغالب لا تتحكم في اختيار أنماط الحياة التي تحياها، فهي مسخرة بأيدٍ^(٢٠) فوقها، تعمل فيها عملها.. صحيح إنها ربما استخدمت غرائزها في بعض الأحيان في القبول أو الرفض ولكنها في الأغلب الأعم ليس لها إلا الإذعان.. يقول القشيري عند قوله تعالى:

«أولئك كالأنعام بل هم أضل»:

الأنعام رفع عنها التكليف (أى وفاق الشرع أو خلافه)، وهى لا يهمها إلا الاعتلاف، وما تدعو إليه الحيلة من مباشرة الجنس.. وكذلك من أقيم بشواهد نفسه، وكان مربوطاً بأحكام النفس وفى معناه أنشدوا:

نهارك يا مفرور سهو وغفلة

وليلك نوم والردى لك لازم

وسعيك فيها سوف تكره غبه

كذلك فى الدنيا تعيش البهائم^(٢١)

والإشارة تتداعى منها إلى ذهن القارئ على الفور صورة الكافر الضال من بنى الإنسان - فهو أولاً وأخيراً من الحيوان - ولكنه منع^(٢٢) العقل والإرادة ولم يهتد بل ضل حتى أصبح فعلاً كالأنعام (بل هم أضل).

وصورة الإنسان - الذى يقع فى تصنيف الكائنات من الحيوان أيضاً - لكنه أحسن استخدام عقله وإرادته الممنوحتين فضلاً من الله، فعرف كيف

(٢٠) بكسر الدال المنونة.

(٢١) لطائف الإشارات المجلد الأول ص ٥٩٠.

(٢٢) بضم الميم وكسر النون.

يختار طريقه، ويوجه في رشاد إرادته، واستطاع بذلك أن يرقى من مستوى البهيمية إلى مستوى الأدمية المكرمة^(٠).

وهكذا يدخل بنا الشيخ إلى الإطار الإنساني الذي يحوى سائر المفعولات التالية.. فكلها للإنسان وحول الإنسان.

ثالثاً . المفعول له أو لأجله

هو اسم يذكر لبيان سبب الفعل، وينبغى لنصبه أن يكون مصدراً مفيداً للتعليل، متحداً مع المعلن به فى الوقت وفى الفاعل.

فإن فقد شرطاً من هذه الشروط وجب جره بحرف ملائم كاللام أو من أو فى أو الباء ويخرج بذلك عن إطار المفعول لأجله.

ومثال المستوفى لكل هذه الشروط: لا تقتلوا أولادكم خشية إملاق.

ومن أمثلة ما لا يستوفى: والأرض وضعها للأنام: لفقد المصدرية.

أدبتك لتأديبك: لأن الشئ لا يعلى بنفسه.

جئتكم اليوم للإكرام غداً: لعدم اتحاد الوقت.

أقم الصلاة لدلوك الشمس: الزمانان مختلفان،

واختلاف الفاعل فهو فى الصلاة غيره فى الدلوك.

والمراد منه أن هذا المفعول قد فعل لأجله فعل آخر.

والإشارة يطلقها الشيخ نحو «المكلفين».

فهم الذين «خلق الله سبحانه لأجلهم الجنة والنار».

(٠) بفتح الراء المشددة.

وهذا فرق بينهم وبين الجمادات (المفعول المطلق) وبين الحيوانات الذين يفعل^(٠) بهم الفعل ولا يطالبون بتكليف (المفعول به = الجمادات) فكأن مشقة التكليف تشريف، فهي لا تقصد^(٠٠) لذاتها لأن الله لا تلحقه من الطاعة زين ولا يناله من المعصية شين؛ إنما التكليف في جوهره علامة تمييز وترق.. لكى يصبح «المكلف» هو المعنى^(٠٠٠) حقاً بالخلافة في الأرض، والمعنى حقاً بقوله تعالى: «إلا ليعبدون».

يجب إذا أن تكون الأمور واضحة..

يقول في اللطائف «قيمة كل امرئ على حسب همته، فإذا كانت الهمة مقصورة على الأكل والتمتع بالصفة البهيمية لا يحاسب، وعلى العقل لا يطالب، فالتكليف يتبعه التشريف.. وغداً سوف يعلمون».

فلا تبتئس - أيها المكلف - بمشقات الشريعة أو الحقيقة، وابذل قصارك في عبور الجسر الواصل بين الدارين وأنت في مأمن..

(فلأجلك) أعدت المكافأة الكبرى.. لو سلم العبور وسلمت. وتصل الأمور إلى ذروتها عند الواصلين، فمكافأتهم ليست مؤجلة، إنها في هذه الحياة الوسطى التي يحيونها «فالقيامة عندهم تقوم كل يوم غير مرة بالهجر والنوى والفراق والجنة بالوصل والقرب واللقاء» يقول ذو النون المصري:

«خوف النار إذا قيس إلى خوف القطع عن المحبوب كقطرة الماء تقذف في أعظم المحيطات».

ويقول الشيخ في تحبيره:

(٠) بضم الهاء وفتح العين.

(٠٠) بضم التاء وفتح الصاد.

(٠٠٠) بضم الهاء المشددة.

«جهنم الفراق أشد هولاً من جهنم الاحتراق».

فهم - أهل الحقيقة - أرقى درجات «المكلفين».. (ولأجلهم)^(٠) الزيادة التي جاءت في الآية الكريمة «الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ» (يونس: ٢٦) حيث يفسرها الإشاريون بأنها رؤية الله عياناً في الآخرة.

وأخيراً ففي النص إشارة إلى (خلق)^(٠٠) الجنة والنار، أي أنهما حادثان، وقابلتان للفناء على خلاف من يذهب غير ذلك.

رابعاً - المفعول فيه

ويسمى ظرفاً. وعرفه ابن عقيل بأنه زمان أو مكان ضمن^(٠٠٠) معنى (في) باطراد.

والأصيل أن الظرف هو الوعاء للشيء، وتسمى الأواني ظروفًا لأنها أوعية لما يجعل فيها. ولهذا سميت الأمكنة والأزمنة ظروفًا، لأن الأفعال تحصل (فيها).

والإشارة من ذلك إلى هذا الاصطلاح الصوفي الدقيق «الوقت»، والوقت بالمعنى الصوفي تحمل البعدين^(٠٠٠٠): الزمان والمكان. ولنشرح ذلك..

التصوف مقامات وأحوال - كما نعلم.

فإذا كنت مجتهداً ووصلت بجهودك إلى مقام الزهد، فهذا (وقت) الزهد أي (زمن) قيامك بمتطلباته، فقد فرغت من مقام الورع وبت^(٠٠٠٠٠)

(٠) بفتح الألف وسكون الجيم.

(٠٠) بفتح الخاء وسكون اللام.

(٠٠٠) بضم الضاد وتشديد الميم المكسورة.

(٠٠٠٠) بضم الباء وسكون العين.

(٠٠٠٠٠) بكسر الباء وتشديد التاء المفتوحة.

فى مقام الزهد وتستعد إلى مقام التوكل، هذا أيضاً بالتحديد (مكانك) .. ومن آداب الوقت أن تمتثل لكل دوائيه وألا تتعجل، بل تأدب^(٠) والتزم. والشئ نفسه فى الأحوال .. التى هى فيوضات من المولى سبحانه فإذا حصل أن وصلت إلى حال (القيض) فترث فى هذا (المكان) وهذا (الزمان) اللذين يحتويانك حتى يقضى الله فيك أمراً، وكل تجاوز للمكانية والزمانية لا خير فيه ..

وهكذا تصبح (منصوباً)، وتستحق المكافأة .. وهى قادمة إن شاء الله عندما تلوح على البعد بواذر (البسط) أى الحال التالية .. وهكذا. وهذا يتفق وما نعرف فى الجواهر الخمسة أن الزمان والمكان مرتبطان (بالحركة) فيهما (راجع فى فلسفة الكندى، الهيدولى والصورة والزمان والمكان والحركة).

خامساً . المفعول معه

عرفه ابن هشام فى «أوضح المسالك» بأنه: اسم فضلة تال لواو بمعنى (مع)، تالية لجملة ذات فعل، أو اسم فيه معنى الفعل وحروفه، مذكور لبيان ما فعل الفعل بمقارنته نحو:

اترك المغتر والدهر.

أنا سائر والنيل.

ولا يجوز تقدمه على عامله فلا تقول: والنيل سرت.

(انظر كتب النحو فى بعض الإيضاحات عن الفروق بين واو المعية وواو العطف).

وتنبئنى إشارة شيخنا على فكرة (الملازمة) التى هى من خصائص (المعية) وقد أخذت عنده ثلاثة اتجاهات:

(٠) يسكون الباء.

١ - المفعول معه هو البلاء والعناء، فإن بنى آدم خلقوا وهما (معهم).

٢ - خلق الله الرزق (مع) المرزوق.

٣ - الله سبحانه بالكفاية (مع) أوليائه.

ونتحدث بإيجاز عن كل اتجاه.. فبالنسبة للاتجاه الأول: فالأصل أن الله لا يريد شقاء عباده لأنه لا يعود عليه شيء من ذلك فضلاً عن أنه الرحمن الرحيم، إنما جعل (البلاء) من أجل سبر أغوار النفوس البشرية، وتصفيتها.. تماماً كما يدخل المعدن إلى التنور كي يصفو من كدوراته، ويخرج منه على درجة من النفاضة أو الخساسة حسب الأصل.. وهذا درس لجميع الناس وبصفة خاصة للمبتدئين - في هذه الطريقة - الذين يحتملون المشقات الأولى بجزع وقلق.

وإذا كانت القسمة الأولى قد جرت بالبلاء والعناء فإن الشيخ قد أرففها بنوعين آخرين هما: أنه بلطفه ونعمائه قد كفل الرزق لعباده، وتولى أمر أوليائه.

وهذه المعادلة بين العناء والبلاء من ناحية وبين كفالة الأرزاق للعامة والخاصة هي (المعية) الإلهية الرحيمة.. لأنه اللطيف الخبير. وترد كلمة (المعية) صريحة في موضع من اللطائف يوضح هذه المعاني:

«يسقط الرزق للأغنياء ويطالبهم بالشكر، ويضيق على الفقراء ويطالبهم بالصبر. وعد الزيادة للساكرين، ووعد (المعية) للصابرين، لأن الله (مع) الصابرين».

أما كفالته لأوليائه فلندع توضيحها للصورة المنقولة عن مريم ابنة عمران كما أشار إليها القرآن، فهي نموذج لما تصنع (المعية) الإلهية بعبد اختير من لدن الله كي يكون ضمن أوليائه.

مرت مريم بمرحلتين: المرحلة الأولى حينما كانت (متجردة) لله، ليس لها من علاقة خارج نطاق التعبد والتطهر، والتقرب إلى الله.. وفي هذه الأثناء كان زكريا كلما دخل عليها محرابها «وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا»، وكان يتعجب فيما بينه وبين نفسه كيف يتم ذلك؟.

أما المرحلة الثانية فقد بدأت حينما اختيرت لتكون (ذات علاقة) كأول أنثى تلد ولدًا من غير أب.. ولنتصور مبلغ الضعف الذي وصلت إليه مريم، فهي أنثى فيها ضعف الأنثى، حامل، على وشك الميلاد، لا تعرف ماذا تقول لأهلها وللناس عن هذا السر الذي دخلت فيه ولا تدري كنهه.. اللهم إلا بعد ما بشرت^(١) بهذا الميلاد النبيل، وأن من^(٢) سينزل من أحشائها بعد قليل سيكون له شأن عظيم.. ولكن يتبقى أمر الناس.. ماذا ستقول هي؟ ماذا سيقولون؟.

وفي وسط هذا الجو الذي يملؤه الخوف جاءت (المعية) (لتتولى) هذه العابدة العظيمة فأمرت بأن تهز النخلة ليتساقط عليها (الرزق) جنياً، لتأكل ولتقر عينها ولا تحزن، ولتعلم أن الذي (يرزقها) القوة وهي في أشد حالات ضعف الأنوثة والمرض هو الذي يستطيع أن (يرزقها) الولد على نحو غير طبيعي.. من غير أب!!.

- فكان هدف الشيخ البعيد من (المعية) ومن (المفعول معه) هو منح المريدين والسالكين.. دروساً في (التوكل).. وهل التوكل في جوهره إلا أن تكون (مع) الله ليكون الله (معك)؟!

(١) بضم الباء وتشديد الشين المكسورة.

(٢) بفتح الميم وسكون النون.

فصل [٢٧]:

ما لم يسم فاعله

«ما لم يسم فاعله مرفوع لأنه لم يذكر فاعله وأقيم المفعول مقام الفاعل وأعراب إعراب الفاعل، لأن الفعل لا بد له من فاعل، فيقال: ضرب^(٠) زيد.

والإشارة: إذا التبس إثبات الصانع على أهل الغفلة نسبوا^(٠٠) الأفعال إلى المفعولين فتوهموا للمفعول استحقاق رتبة الفاعل، فيضيفون الكائنات إليهم، لأن العلم بأن هذه الحوادث لا بد لها من محدث على الجملة - ضرورة. فإذا لم يثبتوا الصانع توهموا الفعل من المفعولين.

فواحد أقام الطبع مقام الفاعل - في التوهم.

وآخر: النجم، وآخر: الفلك

وآخر: الجد^(٠٠٠) أو البخت^(٠٠٠٠) وآخر الدولة^(٠٠٠٠٠) والدهر.

وآخر: زيداً وآخر: عمرو

وكما أن إعراب الرفع للذي لم يسم فاعله ليس بحقيقة كذلك توهم^(٠٠٠٠٠٠) أن الحادثات من المفعولات والمفعولين لا حقيقة له..

(٠) بضم الضاد وكسر الراء.

(٠٠) بفتح النون.

(٠٠٠) بفتح الجيم.

(٠٠٠٠) بسكون الخاء.

(٠٠٠٠٠) بتشديد الدال وضمها وفتح الواو.

(٠٠٠٠٠٠) بتشديد الهاء وكسرهما.

هو اسم مرفوع أسند إليه فعل مبنى للمجهول.

وهو يستخدم في مواضع يرى المتكلم عندها أنه لا داعي لذكر الفاعل صراحة، وعندئذ يطرأ على الجملة بعض التغير، فصيغة الفعل ينالها ضم في الأول وكسر ما قبل الآخر مثل سرق متاعنا، وفي المضارع فتح ما قبل الآخر مثل تستحب الصدقات في رمضان.

ويتحول المفعول إلى عمدة، فيقوم مقام الفاعل، ويرفع بسبب ذلك، إنه الآن ضروري في الجملة ولا يمكن الاستغناء عنه.

ويسرى ذلك على اسم المفعول مثل:

أمقطوف الورد^(٠) - فالورد نائب فاعل سد مسد الخبر.

والأصل في النيابة هو المفعول به، ولكن يمكن نيابة الظرف المتصرف المختص مثل: صيم رمضان، وسهرت الليلة، وجلس^(٠٠) أمام القبلة. فإن لم يتصرف مثل: عند، ومعك، وثم^(٠٠٠) فتمتتع نيابته.

كما يمكن نيابة المجرور بحرف الجر مثل: ما كتب من شيء.

ويصلح المصدر أيضاً للنيابة بشرطين:

١ - أن يكون متصرفاً (بمعنى أن يقبل إعرابات شتى).

٢ - وأن يكون مختصاً (أي يتلوه شيء يوضح معناه).

مثل علم^(٠٠٠٠) علم نافع.

(٠) بضم الدال.

(٠٠) بضم الجيم وكسر اللام وفتح الميم المشددة.

(٠٠٠) بفتح الثاء.

(٠٠٠٠) بضم العين وكسر اللام.

وفهم فهم العباقرة.

وللموضوع فى النحو تفصيلات كثيرة، ولكننا اكتفينا هنا بما هو لازم لتذوق إشارات الشيخ.

ونحن نحمد للشيخ هنا اتخاذ بعض المواقف التى تجمع بين الفطنة والدقة فضلاً عن انسجامها مع منهجه الفكرى، ومقاصده البعيدة والقريبة. آية ذلك أنه وضع هذا الباب عقب المنصوبات، وقد جرت عادة كتب النحو أن تضعه مع المرفوعات.. ولكن الشيخ يرى أنه ولو كان مرتدياً ثوب (الرفع) على الظاهر إلا أنه على الحقيقة مازال فى دائرة (النصب)!! فالعبرة بالأصول.

أن تسميته للباب «ما لم يسم فاعله» فيها جمع بين المقصود وبين ضرب مثال له فى آن واحد، بدليل أن الفعل فى العنوان مبنى للمجهول.. وزيادة على ذلك فإنه عنوان أخصر وأدق من عناوين النحاة.. الذين يوردونه على هذا النحو (المفعول الذى لم يسم فاعله)، وقد رأينا منذ قليل أن النيابة قد تكون لغير المفعول.. كالمصدر، والظرف، والجار والمجرور.

وغير خاف أن التسمية تجنبت تماماً وصفه بأنه (نائب فاعل)، لأنه يشعر - كما تتضح الإشارة - بأنه وإن كان مرفوعاً وأنه عومل معاملة الفاعل إلا أن هذه رتبة لا يستحقها فى الواقع وفى المضنون.. وأنه ليس من الفاعلية فى شىء! إن هذه التغيرات التى أصابته وأصابت الفعل لأجله ما هى إلا محاولات فيها من التكلف والصنعة من أجل إقامة فاعل زائف!

وعند هذه النقطة تنطلق إشاراته كالسهم القاتلة نحو الطبائعين والدهريين وعبد النجوم والأفلاك والقائلين بالحظ والبخت... وغير

أولئك ممن يبعدون عن الحقيقة، وهى نسبة الأمر لصاحب الأمر، والخلق للخالق.. ومن يملك فى قبضته كل (الفاعلية) الحقّة.

المسألة فى بساطة.. أن الله سبحانه هو القديم وهو واجب الوجود. وكل الكون - الذين تحارون فى نسبته إني (فاعله) - كان عدماً، والله البديع هو الذى (أحدثه)، فالمحدثات فى أسر القدرة (القديمة) والممكن الوجود فى يد واجب الوجود، بداية ونهاية وبين الاثنيتين عناية.. الكون كله مرجح^(٠) الوجود، والمرجح يحتاج إلى مرجح^(٠٠).

ولو أرجعتم شيئاً إلى (فاعل) آخر فإنه سيكون (نائباً) لا حقيقياً، لأن تسلسل المحدثات لابد أن ينتهى، وإلا دخلنا فى الدور والتسلسل، وتكون النهاية حتماً (للفاعل) الأول، والمحرك الأول، والعلّة الأولى. هو الخالق وهو المنظم.. وما عداه ممن تنسبون إليهم ذرة من ذلك زائف، وقضيته فى التحقيق لا تثبت على المحك.

ويترتب على ذلك ومن ذلك ما يصرح به الشيخ فى لطائفه: - «الكل واقفون على التجويز، غير حاصلين بوثيقة، ينتظرون ما سيبدو فى المستأنف. إلا أن أرباب التفرقة ينتظرون ما سيبدو مما يقتضيه حكم الأفلاك، وما الذى توجبه الطبائع والنجوم. أما المسلمون فينتظرون ما يبدو من المقادير، فهم فى روح^(٠٠٠) التوحيد، والباقون فى ظلمات الشرك^(١)».

ونرى فى النص غمزتين:

(٠) بفتح الجيم وتشديدها.

(٠٠) بكسر الجيم وتشديدها.

(٠٠٠) بفتح الراء وسكون الواو.

(١) لطائف الإشارات المجلد الثانى ص ٤٩٠.

الأولى توجه إلى أهل الاعتزال الذين ينادون بحرية مطلقة للإنسان (زيد وعمرو). بينما يرى خصمهم أبو الحسن الأشعري أن هذه الحرية المطلقة إذا نسبت إلى الإنسان فمعناه أن أكثر من (فاعل) يفعل في الكون وبذا يتعدد (الفاعلون) .. والفعل - على الحقيقة - الذي يجرى في الكون ينبغى أن يعود لخالق الكون، لأن الأشياء تعود وتتسبب لصاحبها الأصيل.

أما الفمزة الثانية فربما توجهت إلى هذه (النيابة) الزائفة التي يزعمها بعض الأدعياء، والذين كشفنا أمرهم أكثر من مرة في هذه الشروح.

إنهم يدعون^(١) أنهم محو، وأن التكاليف قد سقطت عنهم، وأن البشرية قد زالت وأن (القائم عنهم هو الحق) «وأن (النائب عنهم) سواهم فيما تصرفوا بل صرفوا»^(٢).

وهي دعوى زائفة لا يقرها أهل هذه الطريقة والحراس عليها.

(١) بفتح الدال وتشديدها.

(٢) الرسالة ص ٢ وهي بضم الصاد وكسر الراء.

فصل [٢٨]:

المضاف إليه

«المضاف إليه له الخفض، تقول: دار زيد^(١).

والإشارة: أن الخفض أضعف الحركات، ولما كان الاسم مفرداً كان له أقوى الحركات فلما جاءت الإضافة صارت له أضعف الحركات:

كذلك العبد مادام مجرداً فله أقوى الحالات، فإذا جاءت العلاقة صار إلى أضعف الحالات».

الإضافة ضم كلمة إلى أخرى بتزليل الثانية منزلة التتوين من الأولى في تمام الكلمة، وكشف ما بينهما من علاقة، ويسمى الأول مضافاً والثاني مضافاً إليه.

والمضاف يأخذ إعرابه العادى حسب موقعه في الجملة، أما المضاف إليه فيكون مجروراً أو (مخفوضاً) حسب تعبير الشيخ. على أن المضاف يتجرد عند إحداث هذه العلاقة من أشياء، كالتتوين الظاهر أو المقدر مثل: ثوب على^(٢) ودراهمه.

ويتجرد من النون إذا كان مثى أو جمعاً مثل: «تبت يدا أبا لهب وتب»
: وخرج قاصدو مكة.

وفي معظم الأحوال يتجرد المضاف أيضاً من (أل) التعريفية حيث لا يتبقى إلا في أحوال تبلغ أصابع اليد الواحدة ذكرها النحاة: مثل مسجد الجامع أى المسجد الجامع وقد جاءت في أحد نصوص القشيري ومعها واحدة أخرى:

(١) بتتوين الدال بالكسر.

(٢) بكسر الهمزة الشدة المنزلة.

(صراط الحميد: الإضافة فيه كالإضافة عند قولهم مسجد الجامع أى المسجد الجامع، فالصراط الحميد هو الطريق المرضى وهو ما شهدت له الشريعة بالصحة وليس للحقيقة عليه نكير)^(١).

والقصد من الإضافة واحد من ثلاثة:

١ - التعريف أى تعريف السابق باللاحق مثل: نور القمر^(٢). فالإضافة إلى معرفة.

٢ - أو التخصيص: إن كان المضاف نكرة: نور مصباح.

٣ - أو التخفيف مثل: أكل التفاح.

ويعزو النحاة الجر الذى يحدث للمضاف إليه إلى وجود حرف جر مقدر ففى مثال الشيخ: دار زيد ومعناها دار لزيد.

وتقدير اللام هو الغالب، وقد يكون (من) مثل جبة صوف وباب خشب - وضابطه أن يصح إطلاق اسم المضاف إليه على المضاف فتقول: هذه الجبة صوف، وهذا الباب خشب.

وعلى كل حال فالمضاف إليه (مخفض) بسبب هذه العلاقة، على خلاف بين سيبويه - الذى يرى أن العامل هو المضاف - وبين الزجاج الذى يرجعه إلى حرف الجر المقدر.

* * *

(١) بكسر الراء.

(٢) اللطائف المجلد الثانى ٥٣٧.

والإشارة:

يستحق الاسم وهو متجرد ورئيس وعمدة أقوى الحركات وهو الرفع كما أسلفنا، فإذا دخل في علاقة مع اسم آخر يربطه به حرف جر مقدر فقد ضعف حاله، ونزل عن كل ما كان يتمتع به من مزايا خاصة ثمناً لهذه العلاقة. كذلك العبد إذا خرج عن (قطع العلائق واليأس مما في أيدي الخلائق - حسب أحد تعريفات التصوف الشهيرة) فإنه يفقد تحرره واستقلاله، ويصبح في أسر^(١) ما أضاف أو أضيف إليه.. وهكذا كل انتماء للغير والسوى، أما النسبة الحقيقية التي تؤمن^(٢) الطريق فهي لله وحده.

وكما يحدث (الخفض) (للمضاف إليه) حينما يكون في قبضة (المضاف) الذي بدوره يصبح تحت وطأة قوتين: إعرابه الأول في الجملة وإعرابه الثاني: (كونه مضافاً) تحدث بليلة في (الطريق) كله - تنذر بأوخم العواقب.

وينذر الشيخ حين يدق ناقوس الخطر بأن شيئاً مهماً وخطيراً مهدد بهذه (الإضافة) ألا وهو توحيد أهل الحقيقة:

(فالتوحيد التجريد، وعلامة صحته سقوط «الإضافات» بأسرها)^(٣) ولسنا في حاجة إلى أن نذكر بأن العلاقة المستحدثة ستكون بين العبد وبين الهوى أو النفس أو الشيطان أو الدنيا، فهؤلاء هم الأعداء الأيقاظ الذين لا يألون جهداً في جذب العبد إليهم في (إضافات) مزينة^(٤) تسرع به إلى (الخفض)!

(١) بفتح الألف وسكون السين.

(٢) بتشديد الميم وكسرهما.

(٣) اللطائف المجلد الثاني ص ٤٥١.

(٤) بضم الميم وفتح الزاي وتشديد الهاء.

بقى أن ننبه إلى أن القشيري في مصنفاته كثيراً ما يستخدم «النسبة بدلاً من (الإضافة)». نقول هذا لكي نضيف هذه اللفظة إلى مصطلحه النحوي - لمن يريد متابعة ذلك.

وتستطيع أن تعيد قراءة النص والشرح في ضوء (النسبة) (والانتساب) دون أن تشعر بفروق في المعنى.

فصل [٢٩]:

كان وأخواتها

«كان وصار... إلى آخر هذه الأفعال الفاظ ترفع الأسماء وتنصب الأخبار، تقول: كان زيد قائماً.

فهذه مشتبهة^(٠) بأفعال، وليست بأفعال محضة.

والإشارة:

أنها لما ضارعت الأفعال أجريت مجرى الأفعال الحقيقية، فكما أن الفاعل رفع والمفعول نصب فكذلك اسم كان مرفوع وخبره منصوب.. ولكن ينادى^(٠٠) عليها بأنها ليست بأفعال محضة.

فكذلك من تشبه يقوم يجرى مجراهم، ويحكم له. في الظاهر. بحكمهم، ولكن ينادى عليه بأنه متشبه بهم وليس منهم حقاً، قال الشاعر في هذا المعنى:

إذا انسكبت دموع في خدود

تبين^(٠٠٠) من بكى ممن تباكي،.

(٠) بضم الميم وفتح الشين وتشديد الباء وفتحها.

(٠٠) بضم الهاء.

(٠٠٠) بتشديد الهاء وفتحها.

فصل [٣٠]:

إن وأخواتها

«الحروف التي تنصب الأسماء وترفع الأخبار معدودة محصورة وهي: إن (٠) وأن (٠٠) ولكن (٠٠٠) وليت ولعل.

وعمل هذه الحروف . في الحقيقة . في الأسماء دون الأخبار، لأن الأخبار باقية على ما كانت عليه، وإنما تساهل النحويون في هذه الحروف، فأشبهت كان وأخواتها . التي تعمل في الاسم والخبر جميعاً.

ولما كانت هذه الحروف مشبهة (٠٠٠٠) بالمشبه ضعفت عنه في العمل فعملت في الاسم دون الخبر..

كذلك كلما كان العبد أبعد من التحقيق، وأقرب من التلزيق والتلفيق كان اضعف في التأثير واخس في المقدار.

ضممنا البابين بعضهما إلى بعض لأن منطلق الإشارة فيهما واحد، ومن الخير أن نعالجهما على أنهما وحدة متكاملة منعاً للتكرار وتحديدًا للمسائل.

ونبدأ بعناصر النحو الظاهري الضرورية في استنباط الإشارة.

(أ) كان وأخواتها:

أفعال ناقصة فهي تحمل من عناصر الفعل (الزمن) فقط، وليس فيها (الحدث)، (لأجل هذا كان عملها في الجملة الاسمية رفع المبتدأ (تشبيهاً بالمرفوع بعد الفعل التام) ونصب الخبر (تشبيهاً بالمفعول به في هيكل الجملة البادئة بالفعل التام) وهذه عدالة في التوزيع.

(٠) بكسر الألف وتشديد النون مع فتحها.

(٠٠) بفتح الألف وتشديد النون مع فتحها.

(٠٠٠) بتشديد النون مع فتحها.

(٠٠٠٠) بتشديد الباء وفتحها.

ومن حيث التصرف.. فمن هذه الأفعال الناقصة ما لا يتصرف أصلاً
مثل: ليس ودام، ومنها ما يتصرف تصرفاً ناقصاً وهو زال وأخواتها (فلا
يأتى منها أمر أو مصدر) والباقي يتصرف تصرفاً كاملاً مثل كان:

كان الطريق وعراً، ولم أك بغيّاً - كونوا حجارة.

- لقد أعجبني كونك مصرّاً على سلوك هذا الطريق،

وما كل من يبدي البشاشة كائنًا

أخاك إذا لم تلقه^(٠) لك منجدا

واضح من كلام الشيخ أنه يعتقد بأن هذه الأفعال الناقصة تعمل عملها
فى المبتدأ والخبر - وهذا أيضاً رأى البصريين.

أما الكوفة: إنها لا تعمل فى المبتدأ لأنه ظل^(٠٠) على حال الرفع كما كان.
ونحن نميل إلى الاتجاه الأول، لأن المبتدأ قد فقد صدارته للجمله،
فضلاً عن أنه فقد لقبه وأصبح: اسم كان وأخواتها.

فإذا ضممنا إلى هذه الأخيرة ما طرأ على الخبر من تغير فى الإعراب
وفى اللقب فإننا نستريح إلى أنها عاملة فى الاثنين معاً.

(ب) إن وأخواتها:

إن وأن : لتوكيد النسبة ونفى الشك: إن الحق واضح.

لكن : للاستدراك، وهو تعقيب الكلام بنفى ما يتوهم ثبوته: على شجاع
لكنه بخيل.

كان : تفيد التشبيه المؤكد لأنها تتكون من الكاف التى للتشبيه ومن أن
التى للتوكيد:

(٠) بفتح التاء وسكون اللام وفتح القاف.

(٠٠) بفتح الظاء وتشديد اللام مع فتحها.

كأن النـنـيـل ذو لب

لما يبـدى من الـيـمن^(٠)

فيأتى حين حاجتنا

ويمضى حين نستفنى

ليت : وتفيد التمنى، وهو طلب ما فيه عسر أو قرب استحالة: ليت الشباب يعود .

لعل : وتفيد الترجى أى توقع أمر ممكن محبة له: لعلكم تفلحون أو إشفافاً منه: لعل الساعة قريب.

لا : النافية للجنس. وسيأتى الكلام عنها (الفصل ٤٦ من هذا الكتاب) وتحدث هنا عملية أشبه (بالتلزيق والتلفيق) اللذين وردا فى تنظير الشيخ: فيقال: صحيح إن هذه حروف، ولكنها فى الواقع تحمل (سعالى) الفعل دون لفظه.

فمعنى إن وأن: حققت^(٠٠).

ومعنى كأن: شبهت.

ومعنى لكن: استدركت... إلخ.

وإذا فقد وجب أن يكون لها مرفوع لأنها تحمل رائحة الفعل، كما ينبغى أن يكون لها منصوب لذلك أيضاً.. وتلاحظ أنها قد تحقق لها هذا وذاك ولكن على نحو^(٠٠٠) غير نمطى، فالمنصوب (المبتدأ) يقع فى الترتيب قبل المرفوع (الخبر) ويسمى الأول اسمها ويسمى الثانى خبرها.

(٠) بضم الهماء وسكون الميم.

(٠٠) بفتح الهماء وتشديد القاف الأولى وسكون القاف الثانية.

(٠٠٠) بكسر الواو وتوينها.

والبصريون يرون أنها عاملة في الجزأين - وهذا عند شيخنا نوع من (التساهل).

أما الكوفيون فلا عمل لها في الخبر لأنه باق على حاله قبل دخولها - وإلى هذا يميل الشيخ.. والخلاصة..

أن الأصل.. هو الفعل التام، وأن كان وأخواتها مشبهة به، وأن إن وأخواتها مشبهة بالمشبهة به..

وتحصل^(٠) لدينا من ذلك ثلاث مراتب من حيث اكتمال المعاني، والتأثير.. وكل على درجة استحقاقه.

فليس الفعل التام كالفعل الناقص كالحرف الذي يحمل من بعيد معنى الفعل وجاء الترتيب على النحو التالي:

فعل تام + مرفوع (فاعل) + منصوب (مفعول به): الأصل.

فعل ناقص + مرفوع (اسمها) + منصوب (خبرها): مشبه بالأصل.

حرف ناسخ + منصوب (اسمها) + مرفوع (خبرها): مشبه بالمشبه بالأصل.

الإشارة...

الجو الصحي لهذه الطريقة (التصوف) الذي تهب عليه نسائم القرب هينة لينة، وينعم فيه أفراد بالسعادة في الدنيا والآخرة يتمثل في ذلك (القطب) أو (الشيخ) الذي يراعى الحقيقة والشرعية، ومن حوله المترسمون طريقه، يقلدونه ويتبعونه في كل ما هو (تام) ومفيد.

والمبتدئون الخالصاء ينضمون إلى هذا الجو آحاداً بعد آحاد، فينهجون النهج نفسه.. والقافلة تسير.

(٠) بتشديد الصاد مع فتحها.

ولكن.. يحدث أن ينضم إلى هؤلاء بعض الأفراد الذين يتشبهون بهم، ولكن ليس إلى درجة الكمال، وإنما (ينقصهم) شيء أو أشياء، فقد يصابون بالعجز أو بالملل أو بالإحباط فيمارسون (أفعالهم)، ولكن تحت ضغط أو مؤثرات خارجية أو داخلية فتصدر عنهم سواء أرادوا أو لم يريدوا أمور لا ترضى^(١) قدامى السالكين: (أفعال ناقصة) تكون موضع الملاحظة ثم النقد ثم التوجيه، فإما أن ينصلح حالهم إذا كانوا من المحظوظين، أو يميلوا كل الميل.. وتكون النتيجة أنهم لو أهملوا وظلوا محسوبين على (القطب) أو (الشيخ) كانوا وبالا على الجميع.. لأن من الناس من لا ينظر إلى القطيع إلا من خلال الشياه السوداء فتبدأ الاتهامات الموجهة لا إلى هؤلاء وحدهم بل إلى الطريقة وأهلها جميعاً.. وهنا مكن الداء الناجم عن (التساهل).

وليت الأمر يقتصر على هذا الحد، فسرعان ما يدخل إلى القوم جماعة أخس قدراً، (وبالتلزيق والتلفيق) ينحشرون في زمرة القوم فتزداد النار شراً، وتفوح الروائح الرديئة.. ويبلغ السيل الزبي، ويصل الأمر إلى حد لا ينبغى السكوت عليه، لأن هؤلاء المتشبهين الأواخر بالمتشبهين الأوائل يكونون معاً وصمة في جبين القوم يجب أن تزال، وأعشاباً ضارة يجب أن تجتث... وإلا تداعى كل البنيان..

حدث هذا.. ويحدث، فالشيخ القشيري بتجربته الواسعة يريد أن يميز هنا بين الأصيل والزائف، بين المقبول والمرفوض..

فكأنى به من خلال هذين البابين يستصرخ الشيوخ أن يحموا أنفسهم وطرائقهم من الدخلاء والأدعياء، وذوى الأغراض والأمراض، فعدوى الردى تمتد إلى الأردأ عند ازدياد (التساهل).

(١) بضم التاء.

كأنى به ينبههم إلى الظواهر والبواطن.. فلا خداع أو انخداع، بل نغاد لجواهر الناس، وأحكام حاسمة تفرض نفسها فى حسم وقوة كأنى به يحذر من آفات (العقل الجمعى)^(٠) الذى تذوب فيه المسئولية الفردية فى المسئولية الجماعية، وتلتصق أفراد الأقلية بخطاياهم وأخطائهم بالأكثرية النقية الصالحة مهما (تشابهت) البذور أو اقتربت من التشابه.. فاليقظة مطلوبة والحذر أوجب.

لأجل هذا حرصت كل المراجع الصوفية الموثوقة على فرز هذه الطوائف، وتحجيم أدوارها، ولفت^(٠٠) الأنظار إليها.. فكم من الخبائث يجرى تحت أردية الصوف والخرق^(٠٠٠)

(٠) بفتح الجيم وسكون الميم.

(٠٠) بفتح اللام وسكون الفاء.

(٠٠٠) بكسر الخاء وفتح الراء.

فصل [٣١]:

الفعل الماضى

«الفعل الماضى مبنى على الفتح نحو: ضرب . والفتح اخف الحركات، فلما كان الماضى بمضيه^(٠) له اضعف الحالات خمس^(٠٠) بأضعف الحركات. الإشارة: اضعفهم حالاً أبخسهم نصيباً.

قال الشيوخ:

«إن لله عباداً لم يرهم أهلاً لمعرفته فشغلهم بنوع من عبادته..»

ملاحظة على النهج:

نريد قبل أن نتحدث عن الفعل التام بأقسامه: الماضى والمضارع والأمر أن نسجل هنا ملاحظة على منهج الشيخ فى تبويب كتابه.. فليس من شك فى أنه يتبع طريقة غير نمطية فى ذلك، فهو إنما يسير على نسق إشارى. ذلك أنه قبل أن يتحدث عن الفعل بعامة تحدث فيما سبق عن «باب كان» وهى أفعال ناقصة ثم «باب إن» وهى حروف شبهت بالأفعال الناقصة - على نحو ما سبق توضيحه.. فكأنه أولاً يبدأ بتتقية الجو الصوفى الخالص بما ليس منه - فى الحقيقة - من أهل الإبداع والمقلدين والأدعياء والمنافقين.. وبكلمات أخرى يتحدث عن الأعداء قبل الأصدقاء، لأنه يرى أن كشف دور الخصوم واستبعاد أدوارهم يخلئ^(٠٠٠) له الجووى يصف معالم الطريق الخالص. وهذا النسق فى العرض اتبعه الإمام الغزالى بعده بنصف قرن، فقبل أن يتحدث عن التصوف - تمشياً مع رحلته الروحية كان

(٠) بتشديد الهاء وكسرها.

(٠٠) بضم الخاء.

(٠٠٠) بضم الهاء وسكون اللام.

قد تحدث عن الفلسفة والفلاسفة وأبان «التهافت» في هذا المنهج، حتى إذا فرغ من هذه الحرب كان قد أعد الميدان لشيء جديد بديل هو الفراغ للتصوف وأهله.

والشيء نفسه فعله مع الباطنية.. فبعدما كشف دعاوهم وأباطيلهم شرع يتحدث عن أهل الباطن من علية القوم.

فكان القشيري واضح منهج في الفكر كان أسوة لمن بعده.
هذا شيء أردنا أن نقدمه لمن يلتفت إلى ترتيب أبواب النحو في هذا الكتاب.
ونعود إلى الفعل الماضي..

فبالنسبة لنحو الظاهر.. فإن الماضي يبنى^(١) على الفتح الظاهر:

- ١ - إذا لم يتصل بآخره شيء: الله نزل أحسن الحديث.
 - ٢ - أو اتصلت به تاء التانيث: امتثلت أم موسى لأمر ربها.
 - ٣ - أو اتصلت به ألف الاثنين: الشاهدان نطقا بالحق.
- ويبنى على الفتحة المقدرة: سعى المنافق بالفساد بين المريدين.
- ويبنى على الضمة إذا أسند إلى واو الجماعة، وعلى السكون إذا اتصل بتاء الفاعل أو (نا) الدالة على الفاعل، أو نون النسوة.
- ومعنى هذا أنه ملازم للبناء على الفتحة في حالته العادية الغالبة.

والماضي - رغم اتساع الزمن الماضي - إلا أنه قاصر عن الدلالة على شيء أكثر من ذلك، أما المضارع فهو صالح للحال والاستقبال فحركته أكثر.. لهذا استحق الأول البناء واستحق الثاني الإعراب، ولهذا أيضاً نال

(١) بضم الياء وسكون الباء

الماضى الفتح باعتباره كما قلنا من قبل أضعف الحركات، بل هو فى رأى بعض النحاة علامة استراحة واسترخاء.. ولكنه حظاً^(١٠) - وإن كان قليلاً - ملائم لدرجة استحقاقه.. وتتضح أهمية ذلك فى الإشارة كما سيأتى.

ونأتى إلى الإشارة:

ونقدم لذلك باقتطاف من لطائف الإشارات يحدد بها نظرتة إلى الفعل الماضى حيث يقول: «الأيام والشهور والأعوام والدهور بعد (مضيها) فى حكم اللحظة لمن تفكر فيها.. ولكن متى يكون لها أثر بعد تقضيها؟ والآتى من الوقت قريب فكأن قدر^(١١) (الماضى) من الدهر لم يعهد^(١٢)».

هذا كلام رقيق جميل يعبر عن تحجيمه لـ (الماضى) فى المنزلة الدنيا بينما يفوق^(١٣) عليه الحاضر والمستقبل.. لأن ما أصيب بالفوات غير ما هو آت.

وقد رأى الشيخ أن يخلع هذه المرتبة المحدودة على جماهير الكافة من المتدينين الذين لا تربطهم صلة وثيقة بالطريقة وأهلها، فهم وإن تعاطفوا معهم، ولم يسببوا لهم ضيقاً.. إلا أنهم لم ينضموا إلى صفوفهم، وإنما شغلوا بنوع من العبادة، يرقى بهم عن مستوى أهل العادة، فهى درجة استحقاق لا تضعهم فى إطار المرفوضين من القوم بالكلية.. إنما استحقاق على كل حال^(١٤).

وهنا تبرز هذه النظرة المولعة بالتقسيمات عند الشيخ بل عند جميع كتاب^(١٥) التصوف.

والتقسيم فى أغلبه ثلاثى: فبعد أهل العادة يأتى:

(١٠) بفتح الحاء وضم الظاء المشددة المنونة.

(١١) بفتح القاف وسكون الدال.

(١٢) اللطائف المجلد الثانى ص ٩٨.

(١٣) بتشديد الواو المكسورة.

(١٤) بضم الكاف وتشديد التاء المفتوحة.

العباد والزهاد والعازفون

وتحت كل طائفة مجموعات تتصاعد في القيمة حتى تترابط الحلقات، فليس من يعيش بحكم العادة كمن يعيش بالإرادة، وليس من يعيش بإرادته كمن يعيش بإرادة مولاه - وحسنات الأبرار سيئات المقربين، فكلهم خير، ولكن هذا الخير على درجات، وإذا أردنا أن نضرب أمثلة على هذه المنازل.. فلن ننتهى.. فلنكتف بالقليل كي نوضح الترقى في النظرة والممارسة للعبادة الواحدة.

١ - «الزهد للعامة قرية وللمريد ضرورة وللخاصة خشية».

٢ - «الصبر أوله تصبر وهو تكلف الصبر ثم الصبر وهو سهولة حمل ما يستقبله من فنون القضاء ثم بعده الاصطبار ويكون بأن يألف الضر دون مشقة فليس له روح^(١) وله راحة».

٣ - «توبة العوام من الذنوب وتوبة الخواص من الغفلة».

٤ - «ذكر العامة باللسان وذكر الخاصة بالقلب أما خواص الخواص فذكرهم يكون بفنائهم عن ذكرهم».

(١) يسكون الواو.

فصل [٣٢]: وفصل [٣٣]:

الفعل المضارع وإعرابه

فصل [٣٢]:

الفعل المضارع مرفوع لمضارعتة الاسم، فأصل استحقاق الإعراب للاسم.

والإشارة: من^(٠) تشبه بقوم فهو منهم، ومن أحب قوماً حشر^(٠٠) معهم... هم القوم لا يشقى بهم جليس.

وقال الشيوخ: من^(٠٠٠) تحقق بحاله لم يحل^(٠٠٠٠) عنه حاضروه.

فصل [٣٣]

الحروف التي تجزم الفعل المستقبل معلومة وهي:

لم ولما وأخواتهما

والى تنصبه معلومة وهي: أن^(٠٠٠٠٠) ولن وكى وإذن.

والإشارة منه: أن الفعل المضارع مادام منفرداً كان له أقوى الحركات، فإذا عملت فيه العوامل تغير عن استحقاق أقوى الحركات.. فال إلى حال الضعف.

وكذلك: العبد عند تجرده فهو بنعت استقلاله وقوته، فإذا عملت فيه

(٠) بفتح الميم وسكون النون.

(٠٠) بضم الحاء وكسر الشين.

(٠٠٠) بفتح الميم وسكون النون.

(٠٠٠٠) بفتح الهاء وضم الحاء وسكون اللام.

(٠٠٠٠٠) بفتح الألف وسكون النون.

الواردات من الرغبة والرغبة وغيرهما رد^(٠) إلى الضعف فبعدها كان بالله مستقلاً صار أسير حظ^(٠٠)، وصريع نصيب.

ثم .. بعض العوامل فيه تنصبه لكل قاصد،

وبعض العوامل تجزمه (فتقطع) عنه الفوائد.

■ المضارع من الأفعال هو القسم المعرب، واللفظة من (ضارع) أى شابه، والمشابهة واقعة بينه وبين صاحب الأصل فى الإعراب وهو (الاسم). فعلى حين يلزم آخر الماضى الفتح، وآخر الأمر السكون وهما مبنيان على هذا الأساس - فإن آخر المضارع يتغير تغيرات شتى. وهو يشبه الاسم أيضاً بدخول لام الابتداء عليه كقولك:

إن زيداً ليخرج - مثل قولك إن زيداً لخارج.

ويرى الشيخ أن المضارع حينما شابه الاسم أخذ منه بعض الاستحقاقات التى (رفعت) شأنه، فقيامه مقام الاسم عامل معنوى يشبه (الابتداء الذى يوجب الرفع) فيكون ذلك أيضاً حال ما يشبهه، وترتب على ذلك أنه حمل ما يحمل الاسم وهو الرفع الذى هو علامة على القوة بل على أقوى الحركات جميعاً.

■ وهو ينال هذه المرتبة عندما يكون على الأصل، أى الدلالة على الحال والاستقبال والتجرد من كل العوامل السابقة عليه تلك التى تنال من هذه الأصالة فتصرفه فى أزمنة مختلفة أو تحدد إطاره الزمانى فى الحال فقط أو الاستقبال فقط.. بمعنى أنه طالما لم تمس^(٠٠٠) هيئته العريقة فى المضارعة له الإجلال و(الرفع)، فإذا دخلت عليه العوامل أثرت^(٠٠٠٠) فيه ونالت من هذه (الرفعة).. لأن هذا الخضوع (للعوامل) له ثمنه.

(٠) بضم الراء وتشديد الهمزة المفتوحة.

(٠٠) بتووين الظاء المكسورة.

(٠٠٠) بضم التاء وفتح الميم.

(٠٠٠٠) بفتح الألف وتشديد التاء مع فتحها وسكون التاء.

■ ومن علامات قوة هذا (المضارع) أيضاً أنه يحمل فى بنيته الأساس دلالة على المسند إليه، وهى:

(أ) التى يقال إنها بقية من (أنا) أو ما يشبهه.

(ن) أصلها نحن أو ما يشبهه.

(ى) أصلها ضمير بطل استعماله.

(ت) أصلها أنت.

وهى قاعدة مطردة ما عدا فى (تكتب) فهى صالحة للمفرد المخاطب وللمفردة الغائبة، وهذه مسألة يحددها سياق الكلام.

■ ويكاد المضارع يجد له مكاناً عبر الأزمنة كلها، فهو يتحرك فيها بناء على العوامل الداخلة عليه الأمر الذى يعرض آخره للتأثر المتباين فى كثير من الأحيان.

فمثلاً (لم) تنقله إلى الزمن الماضى وتجزمه.

و(لما)^(٠) تحمله إلى زمن التكلم وتجزمه.

و(لن) تخصصه للمستقبل وتنصبه.

و(لا) تنفيه ولا تؤثر فيه لأنه يبقى صالحاً للحال والاستقبال كما هو.

و(لام الأمر) تكسبه معنى الأمر فتجزمه.

و(لا الناهية) تجعله أمراً سلبياً فتجزمه أيضاً.

و(إن الشرطية وأخواتها) تعطيه معنى الشرط فتجزمه وتجزم جوابه معه.

و(السين وسوف) أى حرفاً للتفيس أى التوسيع..

(٠) بفتح اللام وتشديد المهم المفتوحة.

فتخرج به من الحال إلى الاستقبال فقط.. والزمن المستقبل متسع، وإن كانت (سوف) تفيد التوسيع أكثر من (السين).

■ ومرونة المضارع وانسياحه في الزمن ليسا وقفًا على دخول هذه الأدوات عليه، بل هو بذاته قد يلعب هذا الدور لتعطى الجملة معنى ومذاقًا خاصًا فالمضارع الحكائي مثل: المرید يبدأ أمس خلوة طويلة.

والمضارع التعودي مثل: إني أذهب لرؤية شيخى كل مساء.

ومضارع الظواهر الطبيعية: يسقط المطر حيث تكثر السحب.

والمضارع المسند للذات الإلهية.

والدال على الاستمرار: مثل: يقلب الله الليل والنهار.

ويفيد الاستمرار في الماضي فقط.

إذا سبق^(٠) بالكينونة في الماضي مثل: العرب في الجاهلية كانوا يقتلون البنت خوف العار.

ويفيد نسبية الزمن مثل: خرج العمال بينون الأهرامات.

فالثاني مستقبل بالنسبة للأول.

للدلالة أن أمرين حدثا في الماضي من فاعل واحد مثل:

جاءوا أباهم عشاء يكون.

* * *

(٠) بضم السين وكسر الباء.

والإشارة:

تطلق الإشارة من كون المضارع يفقد (استقلاليته وقوته) حينما تدخل عليه (العوامل) فتؤثر في (رفعه)، أو تحدد إطاره الزمني، أو المعنوي.. وهكذا العبد (القوى) ينبغي ألا تؤثر فيه العلائق أو المنى أو التطلعات، فلا ينظر إلى (ماضى) ولا يطمح إلى (مستقبل) ولهذا فإن أقرب الأزمنة إلى اصطلاح المتصوفة (الوقت) هو (المضارع الدال على الحال). وقد حدده القشيري في رسالته تحديداً تاماً حين قال: (الوقت ما بين الزمانين الماضى والمستقبل)^(١)، ويترتب على الفهم الدقيق لهذا المعنى نتائج سلوكية وعرفانية خطيرة. وهذا الكلام الموجز يلخص مذهب القشيري في موضوع طويل يكتنف كل مصنفاته. يقول في التعبير (العارف ابن وقته لا يفكر في الطريق ولا في العواقب بل يشتغل بمراعاة (الوقت) ولهذا قيل: الصوفى من لا ماضى له ولا مستقبل)^(٢)، فإذا أردت (التوبة) مثلاً فهيا (الآن) فأنت لا تملك (المستقبل). كما ينبغي أن تتجرد عبادتك من كل غرض يتصل بالجنة أو النار (الرغبة والرغبة) بل تكون خالصة مخصصة للرب سبحانه تاركاً هذه الأشياء المستقبلية لصاحب الأمر.

وهو لا يستعجل هجوم الوارد عليه (لأنه مطروح في أسر الحكم لا يتحرك منه عرق)^(٣) تطلعاً إلى أية خطوة قادمة.

(١) الرسالة ص ٣٤.

(٢) التعبير في التذكير ص ٢٩.

(٣) اللطائف المجلد الثانى ص ٩٩ و«عرق» بكسر العين وسكون الراء.

فصل [٣٤]

فعل الأمر

«الأمر مبني على السكون نحو قولهم: اذهب^(٠)».

والنهي مجزوم نحو لا تذهب^(١)

والإشارة: يشير السكون إلى الدوام، كما أن الحركة تعني الزوال.

فالأمر على الوجوب واللزوم، والنهي مجزوم، إذ النهي عن الشيء يقطع عنك مرادك لتكون كما أمرت^(٢) به، وتقف عما نهيت عنه.

وجوب الأمر وجواب النهي مجزومان، إذ ليس للمأمور ولا للمنهى لسان الاعتراض؟ وما شأنهما إلا الاستسلام والتزام مقتضى الأمر والنهي.

فنعت المعارض^(٣) والمنهى^(٤) مجزوم، وغير الانقياد والخضوع منهما معدوم.

■ يبنى فعل الأمر على:

١ - السكون مثل: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً.

٢ - على حذف العلة مثل: إرض، وألق، وادع.

٣ - على حذف النون مثل: اذهبوا إلى فرعون، كلوا من طيبات ما رزقناكم، فكلوا واشربوا وقرى عينا.

(٠) بسكون الباء.

(١) بضم الألف وكسر الميم.

(٢) بضم الميم وكسر الراء.

(٣) بفتح الميم وتشديد الهاء.

٤ - ويبنى على الفتح إذا اتصلت به نون التوكيد مثل: ساعدن^(٠) وطنك بالعمل.

■ والأمر معناه طلب فعل شيء، وهو على الأصل صادر من جهة عليا إلى جهة أقل، وقد تخرج عن هذا إلى معان بلاغية كالنصح والاستمالة والدعاء.. ولكن تبقى صيغته واحدة.

أما النهي فهو طلب الكف عن شيء وتركه وله أداة واحدة هي «لا» الناهية. والنهي مضارع مجزوم، فالجزم العلاقة الإعرابية المقابلة للسكون (الأمر) في البناء. فقولك: لا تكذب^(٠٠) معناه: أصدق^(٠٠٠).

■ أما قول الشيخ: «وجوب الأمر وجواب النهي مجزومان، فإن هذا ينسحب إلى مضارع يقع جواباً بعد (الطلب)، وهذا الطلب يكون:

١ - بالأمر مثل: اجتهد تتجح.

٢ - بالنهي مثل: لا تقنط من رحمة الله تسعد.

٣ - بالعرض مثل: ألا تزورنا تكن مسروراً.

٤ - بالتحضيض مثل: هلا تجتهد تمل خيراً.

٥ - بالتمنى مثل: ليتنى اجتهدت أكن مسروراً.

٦ - بالترجى مثل: لعلك تطيع الله تقز برضاه.

وجزم الجواب يعود إلى الأسلوب الطلبى السابق عليه والمتضمن معنى الأمر أو ما يشبهه من دعاء أو التماس أو نصح.. إلخ.

(٠) بكسر العين وتشديد النون المفتوحة.

(٠٠) بسكون الباء.

(٠٠٠) بسكون القاف.

ومن النجاة من يرى أن السبب هو كون الأسلوب كله أصبح شبيهاً
بأسلوب الشرط: بأداته وفعله وجوابه.. فهو على منوال:

اجتهد^(١) تتجح^(٢) = إن تجتهد^(١) تتجح^(٢).

ملحوظة: يرفع جواب النهى والأمر إذا لم يكن فيه معنى الجزاء في المستقبل.

مثل: لا تكذبوا تهانون - فإن الشخص لا يهان على عدم الكذب. بينما

تقول: لا تكذبوا تحترموا - لأن الاحترام جزاء عدم الكذب.

ومثله: ذرهم في خوضهم يلعبون.. فاللعب ليس جزاء وليس مستقبلاً

وإنما هو تعبير عن واقع يحدث.

* * *

والإشارة من كل هذا:

الإنسان في حاجة ماسة إلى مجموعات من (الأوامر والنواهي كي لا
تتحول الحياة إلى متاهات يعجز هو وحده عن تبين الطريق الصحيح بينها،
وقد تنبهم الرؤية، وتشعب الطرق، وتغيب شمس الحقيقة فتطمس هذه
الظلمات تفكير المرء، وتشل تصرفه.. إنه وحده لا يستطيع أن يهتدى إلى
ماذا يفعل؟ وماذا يختار؟ وماذا يسلك؟

لأجل هذا يصبح من العسير عليه أن يفكر وحده، ولأجل هذا كان لابد
من معاونة خارجية تأتي من (سلطة عليا).. ومع أن الله سبحانه قد قيض
للإنسان عقلاً فطرياً كافياً - لو أحسن توجيهه - أن يتجنب مأساة الشك
والتذبذب والتخبط فإنه سبحانه برحمته قد بعث الأنبياء والرسل والكتب
كي يكونوا رحمة له، وهداية لبصيرته بمجموعات من (الأوامر والنواهي)،
التي يجب عندها أن (يتوقف) وأن يمتثل.. هذا التوقف يقتضى أسلوب

(١) بسكون الدال وسكون الحاء.

(السكون) و(القطع) و(الجزم) - ما دامت (الأوامر والنواهي) آتية من هيمنة عليا كأوامر الله بحبائه ونواهيها، وما جاء به الأنبياء والرسل.. و(البت) القاطع يقتضى الاستجابة دون محاجة^(١) أو لجاجة... ومن الأزل انبرى إبليس ليناقش (أمر) السجود لآدم فكان من أمره، وأصبح لعينا ينتظر اليوم الآخر هو ومن تبعه.

فإذا كان ذلك على المستوى الدينى العام فإن الشيخ هنا يبسط قضية (الشيخ) وكيف يلزم أن تكون لهم على مرديهم الكلمة العليا، (فالمريد إذا قال لشيخه بعد أمر: لم^(٢) .. لا يفلح أبداً).

الشيخ رمز السلطة الكبرى، وهو الذى يتولى بهمة صقل إرادة العبد، تلك الإرادة التى يفترض أن تذوب فى الإرادة العليا كي يتحقق هذا العبد بالحققة.

هذا هو المراد بقول الشيخ: «جواب الأمر والنهى مجزومان، أى عندهما يجب الانقياد والاستسلام و(السكون) فلا خلاف ولا مناقشة ولا رد، فإن (الأمر) القاطع يحتاج إلى (الإجابة) القاطعة.

ثم لماذا نذهب بعيداً والأصل فى كلمة «الإسلام» الانقياد لله والطاعة (لأوامره ونواهيها)^٥.

إن الإنسان لو أصاب النظر لترك لريان السفينة أن يتولى أمرها، وما دام الله خيراً محضاً فكل شئ منه - مهما بدا للوهلة الأولى فيه المشقة - هو خير فى الدارين لو أحسن المرء التبصر.

يقول القشيري فيمن (لا يسكن) عند هذه الحدود «أيها الإنسان.. إن الطينة إذا ادعت^(٣) ما ليس لها فإن فى ذلك وبالا عليها»، ويقول فى

(١) بتشديد الجيم وفتحها.

(٢) بكسر اللام وفتح الميم.

(٣) بتشديد الدال مع فتحها.

لطائفه: «ليس انتعاشكم ولا نظام معاشكم ولا قدركم في الدنيا والعقبى إلا بمراعاة (الأمر والنهي) والمحافظة على أحكام الشرع»^(١) قد تكون في هذا الامتثال جبرية... ولكنها من المحبوب.. فمرحى بجبرية الحب!.

فصل [٣٥]

النعى

« لنعى تابع للاسم، فإن كان الاسم مرفوعاً فالنعى مرفوع، وإن كان منصوباً أو مخفوضاً فالنعى مثله.

والإشارة من الاسم إلى السر، ومن النعى إلى الوصف، وإن ما يلوح على الظاهر ما يلحق به عن السر، سألوا: من^(٢) العارف؟ فقال: لئن الماء من لئن إنائه.

وانشدوا:

كيفما دارت الزجاجة درنا^(٣)

يحسب الجاهلون أنا جننا^(٤)

ولما كان النعى تابعاً كان حكمه حكم متبوعه، وهكذا حكم كل تابع إنما هو حكم متبوعه..

ملاحظة على المنهج:

بعد أن تحدث الشيخ عن الاسم والفعل بدأ يتحدث عن التوابع للاسم، وهو في كتابه هذا لم يتناول كل توابع الاسم بل اكتفى هنا بالنعى، وفي

(١) اللطائف المجلد الأول ص ٤٣٩.

(٢) بفتح الميم.

(٣) بضم الدال.

(٤) بضم الجيم وكسر النون الأولى.

فصل ٢٧ بالعطف، أى أنه لم يكتب عن: التوكيد والبدل وعطف البيان وعطف النسق.

والنعت: هو التابع الذى يكمل متبوعه بدلالته على معنى فيه أو فيما له تعلق به.

الأول: الحقيقى مثل جاء المريد^(٠) الوفى^(٠٠).

الثانى: السببى مثل جاء على التاجر^(٠٠٠) أبوه.

وهما هنا يفيدان توضيحاً للمعرفة، ويتبع المنعوت فى الإعراب وفى كل شىء.

أما قولك جاعنى رجل نساج، وجاعنى رجل نساج أبوه فالفائدة فيهما تخصيص النكرة، ويفيد النعت أيضاً فى المدح والذم... إلخ.

ونريد أن نفرق بين لفظى الصفة والنعت لنوضح سبب اختيار الشيخ عنوان الباب.

يقول ابن عربى: الصفة تعطى معنى بذاتها، ولا يستلزم استيفاء الموصوف عكسها مثل: العالم، تعطى وصف العلم، ولا تعطى بالضرورة استيفاء الموصوف بالعلم للجهل، وكذلك: القادر والسميع والبصير لا تعطى أضدادها، لأن الذات لا تقوم بأضدادها.

النعت يراد به النسبة، بمعنى احتمال المنعوت لتقبل عكس النعت، (فالأول) لا يمنع أن يكون المنعوت هو (الآخر)^(٠٠٠٠) وكذلك الظاهر والمعز والمضل.. فكلها نعوت^(١).

(٠) بضم الدال.

(٠٠) بضم الياء مع تشديدها.

(٠٠٠) برفع الراء.

(٠٠٠٠) بكسر الخاء.

(١) اصطلاحات الصوفية - فى الفتوحات المكية لابن عربى الحلبي سنة ١٩٣٨.

والإشارة تنطلق من: «حكم كل تابع إنما هو حكم متبوعه». واتخذ الشيخ «السر» اسماً واتخذ حال العبد من حيث الظاهر (نعتاً).

والسر ملكه^(١) (باطنة) فوق (الروح)، والنعت هنا (ما يظهر) على العبد طبقاً لأحوال السر. وبعبارة أوضح يريد القول إن (ظاهر) المرء تعبير عن (باطنه) فهو (تابع) له، فلا انفصام - أو هكذا ينبغي - بين ظاهر المرء وباطنه.

فإذا كانت النعوت في نحو الظاهر توظف للتوضيح أو التخصيص.. إلخ فإنها هنا وبنفس الكيفية والقدر تلعب نفس الدور. تابع لمتبوع، وكشف لمغطى^(٢)، والشاهد الذي اختاره الشيخ يعبر عن ذلك.

وأصله: «سئل الجنيد عن العارف فأجاب: لون الماء لون إنائه»^(٣) ومعنى هذا أنه إذا كان الوعاء الداخلى صادقاً خالصاً ظهر الصدق والإخلاص فيما يبدو على العبد من حركات، وما ينطق به من كلمات، بل حتى ما يومى به من إيماءات، وهنا تكمن القدة في اختياره لفظ (النعت) لاحتمال أن يحدث العكس إذا كان الباطن ممزوجاً بالدخل أو الزيف فيظهر على العبد أثر ذلك مهما حاول الإخفاء، ويفتضح أمره، ويعرض للانتقاص والمذمة، (فالزجاجة) إذا كانت لخمير شفيفة فهي لا تدير الرعوس، أما إذا كانت خميرها كثيفة أطاحت بصاحبها.. وأصبح كمن به مس^(٤)، ولون الخارج هو لون الشراب في الداخل.

واضح أن الإشارة هنا موظفة لبيان حال^(٥) تحدثنا عنها من قبل.. وهى عندما يمتلئ (السر) بلواعج الحب وشجونه، وتحاول الكأس الداهقة

(٢) الرسالة ص ١٥٦.

(١) بفتح الميم واللام والكاف.

(٢٠) بضم الميم وفتح الطاء.

(٣٠٠) بفتح الميم.

(٣٠٠٠) بكسر اللام وتووينها

أن تفيض أو لا تفيض إلى الخارج (الظاهر).. حسمها القشيري هنا بقوله (بالتبعية) فهو خبير وعليم بأن الصب تفضحه عيونه، وعليم بأن السكون أليق.. فأرجع^(١) الموضوع كله إلى (التوافق) الصادق بين الظاهر والباطن.. وكل إنسان على قدره.. ولا عبرة بما يقوله (الجاهلون) بحقيقة حاله.

فصل [٣٦]

الشرط والجزاء

«الشرط والجزاء مجزومان. وللشرط والجزاء حروف نحو:

إن^(٢) وما من^(٣) وما أشبهها نحو قولك: إن تضرب^(٤) أضرب^(٥).
والإشارة: الجزاء لا يستحق^(٦) إلا بحصول الشرط سواء بسواء،
كذلك في الشرع علق أشياء من أفضاله على أشياء من أفعالك، فإن
وفيت^(٧) بالشرط استوجبت الجزاء.. لذا قالوا:

إن وجدنا لما ادعيت شهوداً

لم تجد عندنا لحق جحوداً

وقال الله تعالى: «وأوفوا بعهدى أوف بعهديكم».

• ملاحظة على المنهج:

١ - نهاية الفقرة ليست أسلوب شرط ولكنه (أي الآية الكريمة) فعل أمر
وجوابه أو جزاؤه مما يدل على أن الشيخ يقيس هذا الباب على

(١) بفتح الجيم.

(٢) بكسر الألف وسكون النون.

(٣) بفتح الميم.

(٤) بسكون الباء في الحالين.

(٥) بضم الياء.

(٦) بفتح الفاء وسكون الياء.

- الأسلوب المذكور وهذا شيء مفهوم لأن قولك: اقفل الباب لا يدخل الريح يساوى: إن تقفل الباب لا يدخل الريح.
- ٢ - أنه أطلق على أدوات الشرط كلها لقب «حروف» مع أن النحاة يميزون بين حروف وأسماء كما سيتضح بعد قليل.
- ٣ - أنه اختار في العنوان لفظ «الجزاء» بدلاً من جواب الشرط وهذا استعمال خلاق بمن يعالج موضوعاً دينياً وأخلاقياً كهذا الكتاب.
- ٤ - أنه تجنب الإشارة إلى أدوات الشرط غير الجازمة مثل: إذا ولو... إلخ.
- ٥ - أنه تجنب الإشارة إلى بعض مواضع يأتى فيها (الجزاء) مرفوعاً أى غير مجزوم - كما سنرى.
- وعلى كل حال.. فإن قوام منهج الشيخ فى الباب هو أخذه بالأغلب المنتشر.

■ يتألف أسلوب الشرط من:

- ١ - أداة الشرط ٢ - فعل الشرط ٣ - جواب الشرط أو جزاؤه.
- وأدوات الشرط الجازمة للضعل والجواب هى:
- إن^(١) - وهى حرف باتفاق.
- وإذ ما - وقد ذهب المبرد وابن السراج والفارسي إلى أنها اسم، ولكن أصح الأقوال فيها إنها حرف.
- من وما ومتى وأى وأين وأيان وأنى وحيثما وكيفما - وهى أسماء مثل: إن تكتم الأسرار يثق فيك الناس.

(١) بكسر الألف وسكون النون.

ما تفعل^(٠) من خير يعلمه^(٠٠) الله.

وهناك أدوات الشرط غير جازمة مثل: إذا ولما ولو وأما ولولا.

وقد يأتى جواب الشرط - بعد الأدوات الجازمة - مرفوعاً كأن يكون هذا الجواب مسبوقاً بماض مثل قول زهير:

وان أتاه خليل يوم مسغبة

يقول لا غائب مالى ولا حرم^(٠٠٠)

أو مسبوقاً بمضارع منفى مثل: إن لم يقم أقوم.

ورفع الجواب فى غير هاتين الحالتين ضعيف.

* * *

وتنبثق إشارة الشيخ من هذه العبارة التى صاغها عامداً فى أسلوبى شرط معبر عن الباب كله: «إن وفيت بالشرط استوجبت الجزاء»، وكلها «من أفضاله».

إن الشرط والجزاء ضروريان لانتظام أى نشاط إنسانى، فهو مبدأ حضارى تحكمه ضوابط كالأعراف أو القوانين، ومن قبل ذلك وبعده الدين، حيث يحفل - كما قلنا - بالأوامر الحائثة على المعروف، والنواهى المنفرة من المنكر، وبالتالي - تأتى مراحل الجزاء إما فى الدنيا أو فى العقبى أو فى كليهما، والدين أوسع دائرة من القانون فى الثواب والعقاب، فالقانون لا يعاقب على الحسد أو البخل أو نقص المروءة... ونحو ذلك... بينما تستوجب هذه فى الدين عقاباً من نوع معين.

(٠) بسكون اللام.

(٠٠) بسكون الميم.

(٠٠٠) بفتح الحاء والراء.

والجزم للفعل وجزاؤه قياس على أسلوب الأمر والنهي وجوابهما وقد سبق ذلك في هذا الكتاب.

والله سبحانه وتعالى حين يمنح (الجزاء) فإنما يمنحه من أفضاله، وهذه غمزة بالمعتزلة الذين يرون القضية بشكل آخر هو أنه (يجب) على الله أن يثيب المطيع وأن يعاقب العاصي، فالقشيري يريد أن يلمح في لفظة ذكية بأن عبارة (يجب على الله) مرفوضة، فضلاً عما في التعبير من سوء أدب فالسؤال المطروح.. ومن ذا الذي يوجب عليه سبحانه؟ إنه ذو الإرادة الكاملة الشاملة في منح (الجزاء) كيفما شاء.

ولو علم أولئك أن من الخير أن يعول^(١) الأمر^(٢) كله على الله لوجدوا الخير كل الخير، لأن الله سبحانه من صفاته الرحمة، التي وسعت كل شيء، وإذا كان يوضح لنا أن من ضمن (الجزاء) العذاب وجهنم والانتقام.. إلخ فإنه قبل كل شيء رحيم رحيم.. والصوفية من أسعد الناس أملاً في هذه الرحمة يقول قائلهم:

حاسبونا فـدققوا

ثم مننوا^(٣) فأعتسقوا

وفي موضع آخر ينشد قائلهم:

قوم إذا ظفـفـروا بنا

جادوا بمـتق رقابنا^(٤)

(١) بضم الهاء وفتح الواو مع تشديدها.

(٢) بضم الراء.

(٣) بفتح الميم وتشديد النون المضمومة.

(٤) اللطائف ج ١ ص ٦٠.

فصل [٣٧]

حروف العطف

«حروف العطف عشرة»:

الفاء والواو وثم.. وأخواتها. وحكم المعطوف في الإعراب حكم المعطوف عليه.
والإشارة: لما اشتركا في المعنى تشاكلا في صورة الإعراب، كذلك من
صحب قوماً ووافقهم، وانخرط في سلكهم، وعد^(١) من زمرتهم فما
استقبلهم استقبله، وما يفتح لهم به يفرد له منه نصيبه.

وفي الأثر: «جلساؤكم شركاؤكم».

حروف العطف عشرة وهي:

١ - الواو: لمطلق العطف دون ترتيب أو تعقيب، وللاستئناف.

٢ - الفاء: للترتيب مع التعقيب.

٣ - ثم: للتراخي (أي هناك فسحة من الزمن).

٤ - أو: للتخيير.

٥ - أم: للتقسيم.

٦ - بل: للإضراب والإبطال.

٧ - إما: للتعين.

٨ - لا: للنفي.

٩ - لكن: (المخففة) للاستدراك.

١٠ - حتى: الوصول إلى الغاية.

(١) بضم العين وتشديد الدال وفتحها.

فإن عطفت بها على مرفوع رفعت، أو على منصوب نصبت أو على مخفوض خفضت أو على مجزوم جزمت.

والإشارة:

عنوان الباب (العطف) ومعانى الحروف كما أوضحناها تمنحنا الإشارات فى سلاسة، ويزداد الاتضاح إذا عرفنا أن (المعطوف) شريك للمعطوف عليه فى أحواله، فهو يجانسه فى الإعراب، وفى سريان الحكم عليهما.

بقى أن نتصور انطباق ذلك فى مجموعة بشرية يعمل أفرادها فى نشاط واحد، ولهم وسائلهم وأهدافهم المشتركة، وحقوقهم وواجباتهم نحو العمل من ناحية وفيما بينهم من ناحية أخرى.. وينبغى أولاً أن يسود (العطف) فيما بينهم فى هذه البيئة صغرت أو كبرت، لأنهم أسرة واحدة يربطها التكافل والتراحم، (فعطف) الكبير على الصغير رحمة به، ووفاق الصغير للكبير رغبة^(٠) فى المسيرة وهكذا تصبح الإشارة أشبه بقبس من ضياء يبدد الظلام وينير الدروب نحو سيادة علاقة إنسانية راقية. وتستطيع أن تستوفى جوانب هذا الموضوع القيم بالرجوع إلى أبواب فى مراجع التصوف تتصل اتصالاً مباشراً به مثل (باب الصعوبة) و(باب الفتوة) و(باب الوصايا) و(باب الجود والسخاء) - كما جاءت فى الرسالة القشيرية.

وتجدها عند السراج فى اللمع فى «آداب المشايخ ورفقهم بالأصحاب وعطفهم عليهم» اللمع ص ٢٧٣ وما بعدها.

فإذا رجعت إلى «عوارف المعارف» للسهروردي ص ١٠٩ وما بعدها وجدت هنالك قضية «ذكر من يأكل من الفتوح» تلك التى مسها الشيخ هنا مساً هيناً وعلى استحياء. «ما يفتح لهم به يفرد له منه، وهذه نقطة قد

(٠) بفتح التاء المربوطة وتوئنها.

تبدو للبعض غير ذات أهمية، ولكنها فى نظرنا من أجمل آيات (العطف)، فالواجب أن يقتسم الفريق ما يفتح الله به حتى لو كان كسرات خبز جافة، حفظاً من إراقة ماء الوجه عند الاضطرار إلى المسألة - وما أشد نفورهم منها! وقل مثل ذلك فى كل العلاقات المعنوية والمساندات الروحية وما يتطلبه ذلك من البذل والتنازل والصفح والمواساة وعيادة المريض والأخذ بيد العاجز.. إلخ من الوشائج التى تسود المجتمعات السوية المتحضرة.

ويمكن أن يكون قول الشيخ فى الرسالة (صحبة من^(١) دونك)^(٢) تقضى على (المتبوع) بالشفقة والرحمة وعلى (التابع) بالوفاق^(٣).

والقشيري يحسن تذوق (حروف العطف) فى النص القرآنى، ويستلهمها إشارات ممتعة مثال ذلك:

عند قوله تعالى فى قصة أيوب: ﴿أَنِّي مَسْنِي الضُّرِّ.. فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾ (الأنبياء ٨٢ ، ٨٤) يقول: «والفاء تقتضى التعقيب فكأنه قال: فعافيناه فى الوقت، بمعنى: يا أيوب لو طلبت^(٤) العافية قبل هذا لاستجبنا لك»^(٥) وعند قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ (طه: ٨٢) «ثم للتراخى: أى أنه آمن فى الحال ثم اهتدى فى المآل».

وقل مثل ذلك فى بقية حروف (العطف) فهو يهتم بمعانيها فى مواقعها عند استخراج الإشارة بصورة تلفت النظر.

(١) بفتح الميم وسكون النون.

(٢) بفتح النون.

(٣) الرسالة ص ٤٥.

(٤) بفتح التاء.

(٥) اللطائف المجلد الثانى ص ٥١٥.

فصل [٣٨]

همزة الوصل

«تلحق همزة الوصل بالأسماء والأفعال في أحوال مخصوصة، ولكنها إنما تلحق ما تلحق بنية الحذف عند الاستغناء عنها.

والإشارة منه: أن العبد ينصب^(١) لمقامه والمقصود غيره، فإذا زال ذلك المعنى وصل ذلك المقصود رد هذا المنصوب إلى ما يستحقه.. وهذه محنة للأكباد مفتتة^(٢)، وفي معناه أنشدوا:

عجبت لسعى الدهر بينى وبينها
فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

وغیره:

أطعمونا حتى إذا ما طعمنا
وجرت بيننا عرى الأسباب
سكنوا في ديارهم ثم قالوا
مالك اليوم عندنا من جواب
وقد يمتحنون بالتغافل عنهم، فبعد طول الفرية ينشدون:
أدرجت^(٣) في أثواب نسيانكم

حتى كأننى الف الوصل

ولما لم تكن صحبة الف الوصل أصلية لم تبق على دوام الأوقات..
كذلك: من لم تسبق قسمته بالجميل فإلى مختوم الأزل ينول أمره..

(١) بضم الهاء.

(٢) بضم الميم وفتح الفاء وتشديد التاء وكسرهما.

(٣) بضم الهمزة وسكون الجيم.

الهمزة على قسمين:

(أ) همزة الوصل: وهي الثابتة ابتداء الساقطة في درج الكلام، وسميت وصلًا لأنها تصل ما قبلها بما بعدها ولا تقطعه عنه كما يفعل غيرها من الحروف.

وقيل: لأنها يتوصل بها إلى النطق بالساكن مثل: اكتب وانطلق.

(ب) همزة قطع: وهي ثابتة ابتداءً ووسطًا وآخرًا مثل: أبى^(٠)، ويأبى، وأجلسته.

إثبات همزة الوصل وسقوطها:

١ - تحذف مما صغر^(٠٠) وكان أوله همزة مثل قولك: بنى^(٠٠٠) في ابن، وسمى^(٠٠٠٠) في اسم.

٢ - تحذف لفظًا وخطًا في (ابن) مسبوقًا بعلم وبعده علم بشرط كونه وصفًا للأول والثاني أبا له ما لم يقع في أول السطر.

٣ - تحذف لفظًا لا خطًا إن سبقت بكلام.

٤ - تحذف في «بسم الله الرحمن الرحيم» بشرط أن تذكر كلها وألا يذكر معها متعلق. فتذكر في قولك مثلاً: باسم لله أبداً حديثي وفي «بسم الله مجراها ومرساها» لك الإثبات والحذف.

٥ - تحذف مع كل معرف بالالف واللام:

إذا دخلت عليه اللام جارة مثل: للقوم.

أو ابتدائية مثل: وللآخرة خير لك من الأولى.

(٠) بفتح الألف والباء.

(٠٠) بضم الصاد وكسر الفين مع تشديدهما.

(٠٠٠) بضم الباء وفتح النون وتشديد الباء.

(٠٠٠٠) بضم السين وفتح الميم وتشديد الباء.

٦ - تحذف مع همزة الاستفهام الرجل في الدار؟

فهي كما ترى قابلة للحذف والإثبات.

والواقع أن الحرف الحقيقي المعد من حروف الهجاء هو (الهمزة) وهذه بدورها تخفف خصوصاً عند أهل الحجاز ولا سيما قريش.

وعن موسى بن عبيدة مرفوعاً إلى ابن عمر قال: ما همز رسول الله ﷺ، ولا أبو بكر ولا عمر ولا الخلفاء، وإنما الهمزة بدعة ابتدعوها من بعدهم.

* * *

وفي الإشارة:

أحكام الله الى لا تخضع لعله، فمحاولة تعليل أفعال الله ضرب من الخطأ في الأساس، لأن العقل الإنساني مهما نما وكبر لا يستطيع أن يجب في دائرة غير دائرته، فالإنسان مهما ارتقى عقله فهو متناه والله سبحانه غير متناه.

هذا الكلام سليم وصحيح بالنسبة لأفعال الله في كونه، هنا وفي الآخرة. وهو سليم وصحيح بالنسبة لما يصنعه في هذا العبد السالك طريق القوم - فيجب تقبله برضا واقتناع..

ومن المعلوم أن (أحوال) هذا الطريق أفضل إلهية تنثال على العبد في ثنائيات متقابلة كي يتقلب القلب بين نقيضين لتجلو مرآته، ويدرك السالك أنه مرتين بمشيئة مولاه في كل لحظات الرحلة، ولكن..

قد يحدث أن يكون الحال مقتضاه (الفصل) أو (القبض) وفجأة تأتي (البوادة والهواجم) بحال (الوصل) أو (البسط) فينسى العبد أنه في موقف ابتلاء، وتصيبه البهجة وربما ينتابه شيء من الإعجاب بالنفس.. وعلى

الضور يحدث النقيض.. تلك هي التربية الإلهية التي تتطلب عندئذ الاستغفار والندم، والعهد الجديد بمراعاة (الوقت) والتسليم.. بأن الأشياء مردها لله، وأنه لا خضوع في أوامر الله لعله. ذلك هو بالضبط الموقع الذي تصدر عنه إشارة الشيخ في هذه الفقرة لو أحسن قياس حال (همزة الوصل) القابلة للإثبات والحذف، وأنها جئ بها للتوصل فقط وليس لأهمية في كيانها.. إلخ ولنزيد الأمور إيضاحاً نضرب مثلين مطابقين من اللطائف:

يقول الشيخ عند بسملة سورة الحجر: «تسقط ألف الوصل من كتابة بسم الله وليس لإسقاطها علة، وزيد في شكل الباء من بسم الله وليس لزيادتها علة.. ليعلم^(١) أن الإثبات والسقوط بلا علة، فلم يقبل من قبل لاستحقاق علة، ولا رد من رد لاستيجاب علة». ويستمر الشيخ في نفس الموضع مثلاً:

«فإن قيل: العلة في إسقاط الألف من بسم الله كثرة الاستعمال في كتابتها أشكال بأن الباء من بسم الله زيد في كتابتها وكثرة الاستعمال موجودة. فإن قيل: العلة في زيادة شكل الباء بركة أفضالها باسم الله أشكال بحذف (ألف الوصل) لأن الاتصال فيها موجود، فلم يبق إلا أن الإثبات والنفي ليس لهما علة، يرفع ما يشاء ويمنع ما يشاء»^(١).

وفي موضع آخر يقول عن عبد واقع تحت تأثير حال (القبض):

«... فإذا استسلم لحكم الوقت فعن قريب يزول القبض. وقد يكون بسط يرد بفترة، ويصادف صاحبه فلتة لا يعرف له سبباً، يهز صاحبه ويستفزه.. فسبيل صاحبه السكون ومراعاة الأدب، فإن له في هذا الوقت

(١) بضم الهاء وفتح اللام الثانية.

(١) اللطائف المجلد الأول ص ٢٢٦.

خطراً عظيماً، وليحذر صاحبه مكرّاً خفياً.. ولهذا قالوا: قف على البساط.. وإياك والانبساط»^(٢). ويتضح من هذا كله أن الشيخ يقصد إلى هدف بعيد.

إن عملك وحدك غير كاف لنجاحك، ولهذا فكل توقعاتك في اللحظة التي أنت عليها لا ضمان لها، إن المعول عليه دائماً هو الفضل الإلهي، فارتعن به بلا تفسير أو تعليل، وبدون هذا الفضل الإلهي لا أمل في عمل ولا في مستقبل، وإنما هي (همزة وصل) قابلة للحذف والإثبات، فلا لها أصالة، ولا لها في ذاتها تصريف، وهكذا:

«من لم تسبق قسمته بالجميل فإلى مختوم الأزل يثول أمره».

وما أجمل قول علي بن أبي طالب كرم الله وجهه:

إذا لم يكن عون من الله للفتى

فأول ما يجنى عليه اجتهاده.

(٢) الرسالة ص ٣٥، ٣٦.

فصل [٣٩]

حروف الخفض

«الحروف التي تخفض الأسماء محصورة نحو:

من وإلى وفي، والباء والكاف الزائدة وأخواتها.

وهذه الحروف تدخل على الأسماء، وعملها الخفض.

كذلك: من الأسباب الداخلة على العبد ما يعمل فيه الكسر، والخفض والوضع. فمن^(١) داخله الطمع والحرص والتمنى والشهوة وأمثالها من الخصال المذمومة والأخلاق الدنيئة أوجب^(٢) له ضعة الحال، ونقصان الرتبة، وخساسة المنزلة».

ملاحظات المنهج:

تبلغ حروف الجر نحو عشرين حرفاً. والجر تسمية بصرية وعند الكوفيين تسمى حروف (الإضافة).

وقد اختار الشيخ (الخفض) للدلالة على معاني هذه الحروف، وهي كلمة ذات مفزى في علم له قواعد (ترفع) المرء، ويحذر من دواع (تخفضه) و(تكسره) - كما جاء في النص، (فالخفض) أولى بعلم محوره السلوك والقيم، و(الخفض) علم^(٣) الإضافة، وتدل الكسرة على أن ما لحقته مضاف إليه أو تابع له فحيثما وجد الارتباط بين كلمتين بنسبة لا تعبر عن فكرة تامة (كالارتباط بين المبتدأ والخبر مثلاً) فإننا نجد (الخفض). ويذهب النحاة إلى أن ذلك أثر لحرف جر (راجع باب الإضافة الذي سبق).

(١) بفتح الميم.

(٢) بفتح الهمزة وسكون التاء،

(٣) بفتح العين واللام.

وفى حالة وجود فعل فإن معنى الإضافة هنا يكون على أساس أنك
تضيف معانى الأفعال قبلها إلى الأسماء بعدها عندما لا تقوى الأفعال
على اتخاذ مفعول به لها.. مثل: سافرت من العاصمة إلى القرية. فانت
تقوى معنى الفعل كى يصل إلى الاسم الذى بعده بواسطة الحرف.

ويرى البصريون أن لكل حرف معنى خاصاً محدداً، ولهذا لا يقولون
بنيابة حرف عن حرف.. على حين نجد القشيري يقول بالإنباء.. وذلك:
كقوله عند الآية الكريمة «وما ينطق عن الهوى».

يقول (أى بالهوى فالباء تقوم مقام عن)^(١).

وقوله عند (فاسأل به خبيراً): أى «فسل عنه خبيراً»^(٢) وقد يأتى حرف
الجر زائداً فيفيد توكيد المعنى فى الجملة كلها مثل:

الباء: كفى بالله شهيداً.

ومن: هل من خالق غير الله.

والكاف: ليس كمثله شيء.

ويجب أن يكون للجار متعلق وهو فعل أو ما يشبهه أو مؤول بما يشبهه.
فإن لم يكن شيء من ذلك قدرنا^(٣) كوناً مطلقاً (بمعنى الوجود).

ويدقق القشيري فى تفاسيره فى معانى (الخوافض) وأثر ذلك فى
السياق مثل قوله تعالى عند «فَاجْتَنِبُوا الرُّجُسَ مِنَ الْأَوْثَانِ» (الحج: ٣٠).

«من ههنا للجنس لا للتبعيض، وهوى كل من اتبعه معبوده، وصنم كل
أحد نفسه»^(٤).

(١) كتاب المراج للقشيري ص ١٢١.

(٢) اللطائف - المجلد الثانى ص ٥٤١.

(٣) بتشديد الدال وفتحها.

(٤) الرسالة ص ٦٢.

والإشارة من هذا..

نقدم لذلك ببعض مقتطفات ملائمة من كتبه المختلفة:

١ - فهو يورد شاهداً شعرياً في الرسالة ذا مغزى هنا:

فكم من (حروف تجر) الحتوف

ومن ناطق ود أن لو سكت^(٤)

٢ - وهو يلتقط إشارياً معنى لفظ (الحرف) عندما يسمع الآية الكريمة:
﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ (الحج: ١١)

فيقول: يعنى يكون على جانب غير مخلص.. لا استجابة توجب الوفاق ولا جحداً يبين الشقاق، فإن أصابه أمن وخير ولين اطمأن به وسكن إليه، وإن أصابه فتنة أو نالته محنة ارتد على غقبه ناكساً، وصار لما أظهر من وفاقه عاكساً.

ومن كانت هذه صفته خسر في الدارين، وأخفق في المنزلتين^(٥).

فيأياها المرید:

حدد هدفك من البداية.. إما أن تبقى بحكم العادة (فأضف) نفسك إلى الدنيا ودواعي النفس والهوى.. أو قم^(٦) بحكم العبادة (فتجرد) لتبقى (مرفوعاً). أما أن تكون بين بين فإنك ستكون على (حرف) في تنقلاتك القادمة، وستكون نهياً للصراع.. فإذا ما اخترت^(٧) طريق الحق فتجرد بكل الهمة لكي تصنع^(٨) صناعة إلهية كما فعل ربك بموسى.. ذلك

(٤) اللطائف المجلد الثاني ص ٥٣٢.

(٥) اللطائف المجلد الثاني ص ٥٣٢.

(٦) بضم القاف وسكون المهم

(٧) بفتح التاء.

(٨) بضم التاء وفتح النون.

الرضيع الذى لا إرادة له، والذى أخرج من اليم ليكون من أمره ما كان..
تحرر من كل الأطماع والأغلال فكل ذلك من نتائجه (الجر) و (الكسر)
و(الخفض) وما شاكل ذلك من عوامل الانحدار والتسفل..

فصل [٤٠]

كف إن وأخواتها عن العمل

«ومن الحروف ما يدخل على الاسم المبتدا ولا يغير معناه، ويوجب له تغيير الإعراب وهي مثل: إنما وكأنما، وليتما ولعلما وغيرها.

الإشارة: أن من الناس من لا يؤثر فيه الواردات بحال، فهو في حال ما دخل عليه مثله في حال تجرده عنها.

دخل بعضهم على بعض المشايخ وبالقرب منه ملاء^(١)، فتوهم هذا الداخل أنه متغير بما يجرى، فراه لا يؤثر فيه ذلك، ولا يشغله ما يجرى عما كان به من الوقت فقال.

هديت^(٢) من لا تؤثر فيه الجبال الرواسي!

فقال ذلك الشيخ: «يا فلان، إنا قد جردنا عن رق^(٣) الآثار».

تتصل (ما) الزائدة بإن وأخواتها من الحروف الناسخة فتكفها عن العمل، وحينئذ تفقد اختصاصها في الدخول على الجمل الاسمية وتصبح صالحة للدخول على الجمل الفعلية، ويسرى هذا على الجميع ما عدا (ليت): مثل: «كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ». (الأنفال: ٦).

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَى﴾. (الأنبياء: ١٠٨)

ويقول امرؤ القيس:

ولكنما أسمى لمجد مؤثّل وقد يدرك المجد المؤثّل أمثالي

ومثله:

أعد نظراً يا عبد قيس لعلماء أضاعت لك النار الحمار المقيدا

(١) بفتح المهم وتوين الهاء المكسورة.

(٢) بفتح الفاء وضم التاء.

(٣) بكسر الراء وتشديد القاف وكسرها.

أما (ليت) فتبقى على اختصاصها بالجمل الاسمية، ويجوز إعمالها على الأصل أو كفها عن العمل وإلى هذا أشار ابن مالك:

ووصل (ما) بنى الحرف مبطل إعمالها وقد يبقى العمل

أما (ما) الموصلة فإنها إذا دخلت على هذه النواسخ فلا تبطل عملها، والأفضل أن تكتب منفردة للتمييز بينها وبين الحرف (ما) مثل: «إن ما صنعوا كيد ساحر» أى أن الذى...

وتدور هذه الفقرة حول (المصطلم)^(٠) عن نفسه أى المأخوذ فى معارفه، فهو (كائن بائن) أى موجود بين الناس ببدنه مفترق عنهم بروحه وسره ومعارفه وشواهده.

مثل هذا الإنسان لا تؤثر فيه عوامل من خارج، لأن أعماقه وداخله لا تدع فرصة لتأثير (وارد) ينال منها. وأصل القصة التى استشهد بها الشيخ هنا هو أن الشيخ أبا على الدقاق - شيخه وصهره روى له:

أن بعض الناس «دخلوا على أبى بكر القحطى وكان له ابن يتعاطى ما يتعاطاه الشباب، وكان يمر الداخلين على هذا الابن، فوجد الابن مع أقرانه يشتغلون ببطالتهم.. فرقت القلوب وتأملت للأب. وقال أحدهم: مسكين هذا الشيخ! كيف ابتلى بمقاساة هذا الابن؟! ولما دخل عليه وجده كأنه لا خبر له بما يجرى من الملاحى فتعجب وسأله: فدبت من لا تؤثر فيه الجبال الرواسى! فقال القحطى:

«إنا قد حررنا عن رق»^(٠٠) الأشياء فى الأزل»^(١).

ويريد القشيري أن يتحدث عن المناعة الذاتية التى تحفظ على العارف

(٠) بضم الميم وسكون الصاد وفتح اللام.

(١) الرسالة واللمع.

(٠٠) بكسر الراء وكسر القاف المشددة.

عرفانه بحيث لا تزعجه تيارات تهب خارج ذاته، بل يبقى مصاناً محفوظاً
كان شيئاً لا يحدث من حوله.

هذا الموقف يناظر في نحو الظاهر ما يحدث لجملة (مفيدة) تتركب من
(مرفوعين)، والإسناد بينهما محكوم بهذا الحاجز (ما) الذي يمنع إن
وأخواتها عن أداء أدوارها المعروفة في تغيير المبتدأ والخبر، فيظلان على
حالهما من القوة والثبات، ولا يعتريهما (المألوف) من (نسخ) النواسخ.

وإذا كان القشيري من قبل ذلك قد تحفظ في الواردات التي تحدث في
مجالس السماع ويترتب عليها فقدان التوازن عند بعض المريدين، وإذا كان
قد أرجعها إلى الصدق في التأثير وفي التعبير عن هذا التأثير فهو هنا يبلغ
بالأمر ذروته حين يجعل المؤثرات (ملاء محرمة) بالقطع فالنأى التام هنا
أولى^(٠)، لأنها حرام في ذاتها ومشتتة في أثرها.

والخلاصة أن العارف المتحقق له من معرفته وتحققه ما (يكف) عنه أي
إضرار.. لأنه في كنف الله الحفيظ، وإذا ما تذكرنا ما سبق. أن (إن
وأخواتها) مشبهات بالمشبهات بالفعل (كان وأخواتها) في التأثير، فإننا
نستطيع أن نتصور أي تضئيل لشأنها أكثر وأكثر بعد أن (كفها)^(٠٠) حرف
ضئيل، فذهب بها وبكل نفوذها أدراج الرياح! وهذا شأن كل المؤثرات
الواهنة عند أرباب القوة والعزم.

(٠) بفتح الألف وسكون الواو.

(٠٠) بفتح الكاف وتشديد الفاء المفتوحة.

فصل [٤١]

الفاء في جواب الطلب

«جواب الأمر والنهي والدعاء والاستفهام والجحد والعرض^(١) والتمنى بالفاء منصوب، ويجزم عند حذف الفاء.

والإشارة: لما حصلت الفاء واسطة بين الجواب وهذه الأشياء أخرج الجواب عن واجبه استحقاقه إلى صفة أخرى.

فكذلك شرط الواسطة، تغير^(٢) حكم المدخول عليه، فمن عاش مع الله تعالى بواسطة المعلوم تغير حكم ما وجب له عند التجرد عن المعلوم.

أما العيش مع الله تعالى بلا علاقة فيبقى^(٣) العبد على ما يجب - من تحقيق الوصل - في الأصل.

ملاحظة على المنهج:

يجعل شيخنا (جزم) جواب الأمر والنهي.... إلخ هو الأصل، ويجعل النصب بعد اقتران هذا الجواب بالفاء هو الفرع أو (هو خروج عن الاستحقاق الواجب).

والنصب عند الشيخ حدث بالفاء وهو عند المصريين بأن المضمرة بعدها.

أمثلة للفاء الناصبة عقب أنماط مختلفة من الطلب:

١. بعد الأمر: اقتد بشيخك فتتال^(٤) رضاه.

٢. بعد النهي: لا تتبع الشيطان فيضلك^(٥) عن السبيل.

٣. بعد الدعاء: ربنا آتنا من لدنك رحمة فنسعد^(٦) في الدارين.

٤. بعد الاستفهام: هل تفعل خيراً فتؤجر^(٧).

(١) بفتح العين وسكون الراء. (٢) بضم التاء وفتح الفين وكسر الهاء مع تشديدها.
(٣) بضم الهاء وكسر القاف. (٤) بفتح اللام.
(٥) بفتح الدال. (٦) بفتح الراء.

٥ . بعد الجحد: ما كان للمريد أن يفسخ عقده مع الله فيسترخص.

٦ . بعد العرض: هلا تقوم الليل فتفوز.

٧ . بعد التمنى: ليتك تشمر عن ساعد الجد فتعوض ما فاتك.

٨ . بعد الترجى: لعلك تساعدنى فأخرج من هذه المحنة.

ومن الملاحظ أن الفاء هنا سببية ولا تدل على الاستئناف ولا على العطف، لأن صدر الكلام (طلب)، وبذا يتباين ما سبق الفاء عما لحقها، كما أن اللاحق نتيجة للسابق.

وتنطلق إشارة الشيخ من أن (توسط) الفاء بين الطلب وجوابه أخرج هذا الجواب عن الأصل (الجزم) وأحله محلاً جديداً (النصب)، فالخروج جاء بسبب الواسطة «والواسطة تغير حكم المدخول عليه».

وإذا ما المرجو (أصلاً)؟ إنه الدخول إلى طريق الله (بلا علاقة) وهذا بالضبط تعريف الجنيد (سيد الطائفة) للتصوف: «إنه العيش مع الله بلا علاقة».

قطع العلائق إذاً هو المطلوب، ويكون ذلك سارياً على كل (الوسائط) التى تحول بين العبد وربّه.. «إلى أن يصير عن الخلق أجنبياً، ومن آفات نفسه برياً، ومن المساكنات والملاحظات نقياً.. وبالجمله فبمقدار أجنبية عن نفسه تحصل معرفته بريّه عز وجل» الرسالة.

وهذه المواد الأساس فى دستور هؤلاء العارفين هى الضمان الأكيد لتحقيق الهدف الأسمى وهو «التوحيد»، ومن هنا كانت (الواسطة) وكان الانجراف إلى شيء (ثان) عقبات فى سبيل حصول (التوحيد).

فالنفس والهوى والشيطان والدنيا والناس علائق ووسائط يلزم أن يتغلى - العبد الزاهد العارف الموحد - عنها نهائياً وبصورة (جازمة)

قاطعة. أما أن يسلك جزءاً من الطريق ثم تحدث نفسه (باقتران) علاقة ما من قريب أو بعيد.. بطريق مباشر أو غير مباشر فهذه (اثينية) لابد من سقوطها.

وهناك مثال قد يحدث في بعض الأحيان.. ربما كان الشيخ يغمز إليه من بعيد.. وهو ذلك الانتفاعى الذى يدخل تحت تأثير الطمع إلى دنيا القوم رجاء الحصول على نصيب مما يوزعونه على أنفسهم من أرزاق يتبلغون بها، فكأن الحصول على هذا النصيب هو كل غايته. مثل هذا الدخيل يجب إبعاده وكشف أمره، لأنه صاحب أغراض حقيرة، وسيملؤ الجو - إن لم يحصل على غرضه - سموماً لا قبل^(٢) لغيره - من المخلصين الأصلاء بها.

إنه كالأجير السوء إذا أعطى^(١) شكر وإذا منع^(٢) كفر. ويمكن أن تقاس عليه عبادات قوم (مقترنة) بمطالب في الدنيا أو في الآخرة. فالشيخ يريد أن يبرئ الطريقة من أية (واسطة) تقترن بالتعب، لأن التعب الصحيح عند القوم هو الخالص المخلص لوجه الله تعالى دون انتظار أو ترقب لمكافأة أو جزع من عقوبة. وإلا خرج المرء من النطاق الخالص، إلى النطاق الذى هو فيه (مقترن) بالوسائل، أى رد^(٣) من حكم العبادة والزهادة والإرادة إلى أحكام العادة.. مثلما يحدث (الجواب الطلب إذا اقترن بالفاء)، فهو خروج (عن الأصل).

(٢) بكسر القاف وفتح الباء.

(١) بضم الهمزة وكسر الطاء.

(٢) بضم الميم وكسر النون.

(٣) بضم الراء وفتح الدال مع تشديدها.

فصل [٤٢]

المنادى

«المنادى على أقسام: فللمفرد المعرفة وصف، وللمضاف وصف، وللنكرة وصف.

كذلك: من كان من العباد مفرداً ينادى^(٠) على وصف غير وصف، ما ينادى^(٠٠) وهو مضاف.

وكذلك: من كان بوصف المفرد: فالمفرد المعرفة من الأسماء مبنى على الضمة - والضمة أقوى الحركات.

ومن كان أبداً بنعت التفريد كان فى أعلى الحالات وأقوى الصفات.

والمنادى المضاف منصوب.

وكذلك: من أضيفت إليه العلائق، فهو فى أضعف الحالات لأن النصب أضعف الحركات.

والنكرة من الأسماء خص^(٠٠٠) بعلم آخر:

كذلك صاحب النكرة وسم^(٠٠٠٠) برقم آخر.

النداء هو طلب الإقبال من المخاطب بحرف من أدواته، وأشهر هذه الحروف: «يا» و «أيا» و «هيا» والهمزة.

ويجوز حذف «يا» أحياناً مثل: «يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا» (يوسف: ٢٩).

(٠) بفتح الدال.

(٠٠) بضم الياء وفتح الدال.

(٠٠٠) بضم الخاء وتشديد الصاد.

(٠٠٠٠) بضم الواو وكسر السين.

أقسام المنادى:

(أ) العلم^(٠) المفرد، وهو ما اجتمع فيه أمران: التعريف والإفراد. والإفراد فى باب المنادى وفى باب (لا النافية للجنس فصل ٤٦ من هذا الكتاب) معناه ألا يكون مضافاً فهو معرف^(٠٠) أصلاً.

وذلك مثل: يا على^(٠٠٠).

(ب) النكرة المقصودة مثل: يا غلام.

وهى نكرة يراد بها معيناً، فالتعريف هنا عارض سببه قصدك أن يقبل^(٠٠٠٠).

ومثلها يا سيدان، يا منصفون، يا رجال، يا سيدات.

وهذان القسمان يتم فيهما: البناء على ما يرفع به - لو كان معرباً فى الأصل - أو يقدر الضم - لو كان مبنياً فى الأصل - وذلك مثل:

يا سيبويه الفاضل^(١) (لاحظ ظهور أثر الضم المقدر على المنادى المبنى على آخر تابعه المعرب).

(ج) ما يجب نصبه وهو ثلاثة:

١ - المضاف: ربنا اغفر لنا.

٢ - الشبيه بالمضاف (وهو ما اتصل به معمول له يوضح شيئاً من معناه).

(٠) بفتح العين واللام.

(٠٠) بضم الميم وفتح الراء مع تشديدها.

(٠٠٠) بتشديد الهاء وضمها.

(٠٠٠٠) بضم الهاء وكسر الباء.

(١) بكسر الهاء فى سيبويه وضم اللام فى (الفاضل).

مثل: يا سامعاً دعاء المظلوم.

يا آخذاً بيد الضعيف.

يا زكياً أصله.

٣ - النكرة غير المقصودة (أى التى يراد بها التعميم لا واحداً مخصوصاً).

مثل: يا مؤمناً لا تعتمد على غير مولاك.

ومثل قول رجل أعمى: يا رجلاً خذ بيدى.

وتدخل «يا» على ما ليس فيه (أل)، وتدخل (أيها) على ما فيه (أل) ويتسع لفظ الجلالة لقبول الجمع بين «يا» و «أل».

فتقول بهمزة القطع: يا الله^(١).

وبهمزة الوصل: يا لله^(٢).

وتتطلق إشارة الشيخ من أن هذه الأقسام للمنادى فى نحو الظاهر - على تنوعها فى الشكل واستحقاق الإعراب - تجتمع كلها تحت لقب واحد هو: المنادى.

فكذلك «الإنسان» لقب لكل بنى البشر على اختلاف أفراد الإنسان فرداً عن فرد، وجماعة... فكل مشربه ووسائله وأهدافه.

كذلك هناك العوام والخواص

وبين الخواص هناك العباد^(٣) والزهاد والعارفون والموحدون والأولياء.. إلخ. والحق.. إنها إحدى لوازم التأليف فى منهج الشيخ: أن ينظر نظرة عامة ثم يفصل تحت العموم أصنافاً، وتحت الأصناف فروعاً... وهو حين

(١) بضم الهاء.

(٢) بضم العين وتشديد الباء المفتوحة.

يفعل ذلك يترتب آداباً لكل طائفة ويفصل حقوقاً وواجبات، وهذه سمة فى التأليف نراها ضرورية لكى يميز المبتدئون والسالكون بين مقام ومقام وبين حال وحال، وبين سائر على الدرب فى بدايته أو وسطه أو قرب غاياته أو عند منتهاه، وبالتالي يكون التمييز فى داخل التجمع الصوفى على أساس السبق فى الفضل والوصول والاتصال. فإذا عدنا إلى باب المنادى ألفيناه بمنح «المنادى العلم المفرد المبنى على الضمة أو ما ينوب عنها، درجة الامتياز، فهو - فى نظره أقوى حالات المنادى. ولنضرب مثلين على ذلك، ولنبدأ بأقوى الأقوى: فقولك «يا الله^(١)»: لفظ الجلالة - علم - مفرد (أى غير مضاف) مبنى (والبناء يفيد الثبات والدوام) على الضم (والضمة أقوى الحركات).

أضف إلى هذا - ما قلناه من قبل من أنه هكذا كلام مفيد فى حد ذاته، وفى غنى عن المزيد، ثم إنك لو مددت فى (ندائك) هذه الهاء الأخيرة لانتهيت إلى (هو) اسم الله الأعظم.. وأنت عند ذلك فى مفتتح حلقة من حلقات (الذكر) تبدأ كلها - فى الأغلب - على هذا النحو..

فهذا فى رأينا هو (النداء) المبارك، إنه أقوى نداء.. إنه الذكر الحقيقى وتستطيع واضعاً فى اعتبارك الفروق بين المطلق والنسبى أن تقول إن (يا مريد) أو (يا زاهد) أو (يا عارف).. وأمثالها هى من قبيل (المنادى) القوى.. لأنها أعلام مفردة (غير مضافة) مبنية.. إلخ. أما إذا (أضفت) هذا المنادى إلى شىء آخر فقد هبطت بدرجة المنادى إلى درجة أقل، لأن الإضافة نسبة، فبعد أن كان المنادى منفرداً بذاته وكان له (استقلاله) كان علماً وكان مبنياً وكان مستقلاً، وحين اعتورته الإضافة نقص حاله مثل: يا مريد الدنيا.

(١) بضم الهاء.

وهنا تغير حكم الإعراب فأصبح (منصوباً) و (النصب أضعف الحركات).

ويلحق بذلك الشبيه بالمضاف مثل: يا ملبياً نداء النفس والهوى كفاك ما أنت غارق فيه!

أما النكرة غير المقصودة فيندرج فيها العوام أو أهل العادة أو الكافة - فى تقسيمات الشيخ المعهودة.

ونأتى إلى النكرة المقصودة: (نكرة من الأسماء، خص بعلم آخر كذلك صاحب النكرة وسم برقم آخر) وهى كما رأينا ملحقة بالعلم المفرد القوى الشأن، وهى تنال مثله درجة (البناء على الضم).

إنها فى نظرنا لقب على صنف من رواد هذا الطريق..

فالواحد من هؤلاء ليس علماً أى ليس مشتهراً، بل إنه على العكس يبدو وكأنه بعيد، وهو عند الناس غير مقدر^(٠) التقدير الواجب..

إنهم الذين عناهم الحديث الشريف «رب^(٠٠) أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره» هم يحفلون بالجواهر ولا يهتمون بالمظاهر، ولنضرب أمثلة قليلة على ذلك:

١ - أويس القرنى:

تابعى ضارب بذقنه إلى صدره، رام بذقنه إلى موضع سجوده، واضع يمينه على شماله، يتلو القرآن، يبكى على نفسه، ذو طمرين، لا يأبه له، متزر بإزار صوف وبرداء صوف، مجهول فى الأرض، معروف فى السماء، لو أقسم على الله لأبر قسمه: فإذا كان يوم القيامة قيل للعباد: ادخلوا

(٠) بضم المهم وفتح الدال مع تشديدها.

(٠٠) بضم الراء وتشديد الباء المفتوحة.

الجنة ويقال لأويس: قف فيشفعه الله عز وجل في مثل عدد ربعة ومضر»^(٢).

إن هذا الدرويش الذى يبدو ذابلاً خاملاً (كأنه نكرة من النكرات) هو نفسه (ذلك المجاهد المقاتل إلى جانب على فى صفين والذى قتل فيها)^(٣).

وما زلنا حتى هذا العصر نشهد بعض أمثلة لأويس، يمشون فى الأرض على التوكل، يعاملهم الناس كأنهم (مجاهيل)، يسيحون فى كل مكان، تعرفهم على الفور أو بعد لآى^(٤) بعلامات خاصة أهمها أنهم لا يسألون الناس إلحافاً، تبدو على وجوههم علامات الرضا والقناعة.. والإجهد من قيام الليل.

٢. شيبان الراعى:

راع يلتحف برداء نسجه من صوف أغنامه، أمى لا يقرأ ولا يكتب، وما أن يدخل المسجد حتى يهرع الناس إليه، يلتمسون منه كلاماً، ولكنه عزوف عن ذلك، ومع ذلك فإنه إذا تكلم تحلق الناس من حوله.. فيسمعون منه كلاماً لا قبل^(٥) لهم به.

يراه أحمد بن حنبل فيهمس فى أذن الشافعى: أريد يا أبا عبد الله أن أنبه هذا على نقصان علمه كى يشتغل بالتحصيل. وينصحه الشافعى ألا يفعل، فلا يقنع، ويسأل شيبان:

— ما تقول يا شيبان فيمن نسى صلاة من خمس صلوات فى اليوم واليلة ولا يدري أى صلاة نسيها.. ما الواجب عليه؟

(٢) حلية الأولياء لأبى نعيم ج ٢ ص ٨١.

(٣) الإصابة ج ١ ص ١٢٠.

(٤) بفتح اللام وسكون الهمزة.

(٥) بكسر القاف وفتح الباء.

فيرد شيبان: يا أحمد.. هذا قلب غفل عن الله تعالى فالواجب أن
يؤدب حتى لا يفضل عن مولاه بعدا

فغشى على ابن حنبل فلما أفاق قال له الشافعى:

ألم أقل لك لا تحرك هذا؟

ويعلق القشيري فى رسالته على هذه القصة قائلاً: وكان شيبان راعياً
فما ظنك بالأئمة»^(٤).

٣ - الملامتية:

أولئك الذين ظهروا فى نيسابور فى النصف الثانى من القرن الثالث
الهجرى. وتتلخص أفكارهم فى التستر، بل فى اللجوء إلى بعض تصرفات
- لا يحاسب عليها الشرع - توجب الملامة، ملامة لا يعرفون أنهم
يعمدون إلى أن يكونوا (نكرات) بين الخلائق إمعاناً فى كتمان أسرار
محبتهم، وهم على الحقيقة من (الأعلام).

(٤) الرسالة ص ١٩٨.

فصل [٤٣]

الترخيم

«ويقع في النداء الترخيم؛ وهو حذف بعض الاسم من آخره على جهة الإيجاز ولذلك في مسائل النحو شرح.

والإشارة: إلى أنه قد يكون في نحو القلب ترخيم المنادى، وهو أن ينادى^(١) بالإشارة، فيحذف^(٢) بعض التفسير، ويقتصر^(٣) على ما هو المعلوم بين الأحباب قال عز وجل لنبيه: «يس»، وجاء في بعض التفاسير أن معناه: يا سيد.

وذلك على سنتهم في الحذف والاختصار، كما قال قائلهم:

قلت لها قفى فقالت لى قاف

والاقتصار على شطر الكلام في مذهب الأحباب أبلغ من الإتمام ولهذا قال بعضهم:

ليس من الظرف^(٤) امتحان الحبيب بالوصف.

الترخيم في اللفه ترقيق الصوت وتليينه.

وفي اصطلاح النحاة حذف آخر الكلمة في النداء أو عند الضرورة أو عند التصغير، وأكثره في النداء.. ولهذا ركز الشيخ عليه واكتفى به.

والقصد من الترخيم التخفيف أو التلميح أو الإيماء.

(١) بفتح الدال.

(٢) بضم الياء الفاء.

(٣) بفتح الصاد.

(٤) بتشديد الظاء وفتحها.

(أ) ترخيم النداء:

فقد يكون المنادى مختوماً بتاء التانيث: علماً أو غير علم مثل: يا عائش
فى يا عائشة، ويا ثق فى ثقة.

أو يكون علماً لمذكر أو مؤنث بشرط أن يكون غير مركب وأن يزيد على
ثلاثة أحرف مثل: يا جعف - ويا سعا فى جعفر وسعاد.

ومنه قراءة ابن مسعود «ونادوا يا مال^(٠)» أى يا مالك.

(ب) الترخيم عند الضرورة الشعرية:

وهو مقصور على غير المنادى، ولكنه صالح للنداء كقول امرئ القيس:

لنعم الفتى تمشوا إلى ناره

طريف بن مال^(٠٠) ليلة الجوع والخصر^(٠٠٠)

أى طريف بن مالك:

أما حركة آخر المرخم ففيها رأيان: إما أن تتوى المحذوف فلا تغير ما
بقى، لأن المحذوف فى نية الملفوظ وتسمى هذه لغة من ينتظر فتقول: يا
جعف (بالفتح) ويا حاد (بالكسر)، ويا منص (بالضم) فى منصور ويجوز ألا
تتوى المحذوف فتبنى على الضم كأنه آخر الاسم وتسمى لغة من لا ينتظر.

* * *

وضع الشيخ أمام ناظره كل هذا الذى يحدث فى باب الترخيم،
واستفاد من المعطيات الناجمة عن ذلك من تغيرات وحذف وتخفيف
واختلاف فى إعراب الأواخر ورجوع إلى السياق لفهم المراد، وخرج من

(٠) بكسر اللام.

(٠٠) بكسر اللام وتوينها.

(٠٠٠) بفتح الخاء والصاد.

ذلك بإشارات نرى من اللازم أن ننقب في العلم الصوفي مع الشيخ بحثاً عن نظائر لا تقتصر على باب النداء وحده.

ونرى أن هذا البحث يمكن أن ينشعب نحو ثلاث جهات، وسنعرض لها بإيجار تاركين التفاصيل.

١. الحروف المقطعة في بدايات السور:

إذا كان هذا الموضوع قد شغل جمهور المفسرين، وذهبوا فيه مذاهب كثيرة.. فهو خليق أن يلقي درجة أكبر من الاهتمام عند القشيري.. ذلك المفسر الإشاري الجليل.

فهذه الحروف في أوائل السور عنده إشارات الأسرار بين الحبيب والحبيب..

ففي المثال الذي ضربه هنا بعد أن ذكر ما يقوله العباريون عن «يس» بأنها تعنى «يا سيد» نجده في اللطائف يقول: «والياء تشير إلى يوم الميثاق (والسين) تشير إلى سره مع الأحباب.. فيكون المعنى: بحق يوم الميثاق وسرى مع الأحباب وبالقراءان الكريم: إنك لمن المرسلين وإنك لعلی صراط مستقيم»^(١).

و (حم) أول سورة فصلت «بحقى وحياتى، ومجدى فى صفاتى وذاتى.. هذا تنزيل من الرحمن الرحيم»^(٢).

و (طس) أول سورة النمل: «بطهارة قدسى وسناء عزى لا أخيب أمل من أمل لطفى. بوجود برى تطيب قلوب أوليائى، وبشهود وجهى تغيب أسرار أصفيايى. طلب القاصدين مقابل بلطفى، وسعى العاملين مشكور بعطفى».

(١) اللطائف ج ٥ ص ٢١١.

(٢) اللطائف ج ٥ ص ٢١٩.

والقارئ لا بد أن يحس تردد الحروف في ثنايا التفسير كأنه يريد أن يضع بصائرنا على أسرار في تلك الحروف!

وربما كان النص التالي عن (الر) في أول سورة يوسف من أكثر المواقف إفصاحاً عن موقفه في هذه القضية كلها.. حيث يقول:

«التخاطب بالحروف المتفرقة غير المنظومة سنة الأحياء في ستر المحاب، فالقرآن - وإن كان المقصود منه الإفصاح والبيان - ففيه تلويح وتصريح، ومفصل ومجمل، قال قائلهم:

أبكى إلى الشرق إن كانت منازلكم

مما يلي الغرب خوف القيل والقال

ويقال: وقفت فهوم الخلق عن الوقوف على أسرارهم فيما خاطب به حبيبه - ﷺ فهم تعبدوا به وآمنوا به على الجملة، ولكنه أفرد الحبيب بفهمه، فهو سر الحبيب بحيث لا يطلع عليه الرقيب - يقول قائلهم:

بين المحبين سر^(١) ليس يفشيه

قول ولا قلم للخلق يحكيه

وفي إنزال هذه الحروف المقطعة إشارة: وهي أن من كان بالعقل والصحو استببط من اللفظ اليسير كثيراً من المعاني (تذكر اختصار صيغة المرخم)^(١٠).

ومن كان بالغيبة والمحو يسمع الكثير فلا يفهم منه اليسير، ذلك لكمال عقله وهذا لتمام وصله».

(١) بتشديد الراء.

(١٠) بفتح الخاء وتشديد هاء.

٢ - الإشارات الخفية بين الأحباب:

عند الصوفية ذوق لماح^(١)، وفيهم ظرف^(٢)، يغنيهم التلميح عن التصريح، فهم أحياناً يتخاطبون فيما بينهم بلغة لها من الخصوصية مالا يفقهها غيرهم..

استمع مثلاً إلى هذه القصة:

تواجد أحد المريدين في مجلس الجنيد، وصدرت عنه حركات وزعقات.. فلم يكن من الجنيد إلا أن قال: «والذى يراك حين تقوم»! فكانت أشبه ببرقية ذات (شفرة) فهمها المريد من فوره فلزم الصمت والسكون، وجلس كأنما أصابته صدمة!

وسمع بعضهم منادياً ينادى «الخيار بدرهم» فزعق زعقة هائلة وهو يصرخ: ويلي.. إذا كان الخيار بدرهم فكم يساوى الأشرار!

وسمع آخر يقول: يا سعترى برى..

فالتقطتها لا واعيته على أنها: اسع تر برى^(٣).

ويعلل القشيري لهذه الرهافة في الحس عندما يسمع أحدهم هذه الإشارات الملفزة ويتأثر بها بقوله: «هذا شأن الأحباب في ستر الحال وإخفاء الأمر على الأجنبي قال شاعرهم:

قلت لها قفى قالت قاف

لا تحسبى أنا ... لا يخاف

(١) بتشديد الميم مع فتحها.

(٢) بفتح الظاء وسكون الراء.

(٣) بكسر الباء وتشديد الراء المكسورة.

ولم يقل وقفاً سترًا على الرقيب. فالعبارة للعموم والرمز للخصوص.
قال عليه السلام: «أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً».
وقال بعضهم:

قال لي مولاي: ما هذا الدنف؟

قلت: تهواني؟ قال لام ألف..

والموضوع طريف.. ويرى بعض دراسى الأدب أن المتنبي شاعر العربية
الكبير قد تأثر الصوفية فى هذا الخصوص، فكأن يلجأ أحياناً إلى الرمز
البعيد.

٣ - المصطلح الصوفى:

وتكبر هذه الفكرة ويصبح للصوفية لغة اصطلاحية تتميز
بالخصوصية.. وهذا موضوع كبير يحتاج إلى مجلدات ولكنه نابع أساساً
من هذه الأفكار التى أومأنا إليها فى هذه الشروح.

فصل [٤٤]

الأفعال الجامدة

«من الأفعال ما ليس يتصرف تصرفاً تاماً مثل: نعم^(٠) وبئس وعسى..
ولذلك أبواب فى النحو وأحكام..

والإشارة منه أنه من الأفعال ما ليس بتام، فلا يتمكن العبد من
التصرف فيه على حسب ما أراده، وبعضها به وإليه.

فمن ذلك: فتح^(٠٠) الجفن، والإصغاء، إذ الإدراك - وهو البصر والسمع
- ليس بمكتسب للعبد: فإذا أتى بالإصغاء وفتح الجفن - خلق الله الإدراك
على مجرى العادة. فذلك فعل ناقص التصرف فيه فيرد^(٠٠٠) به الأمر
والنهي، ويحصل عليه الثواب والعقاب.

ينقسم الفعل إلى جامد ومتصرف، فالجامد ما لازم صورة واحدة،
والمتصرف: إما تام التصرف وهو الذى تأتى منه الأفعال الثلاثة: الماضى
والمضارع والأمر - وهو كثير وغالب نحو: حفظ وشرب وانطلق وتدحرج..
إلخ.

وأما ناقص التصرف فهو ما ليس كذلك ومنه:

١ - أفعال الاستمرار (مازال وأخواتها).

٢ - كاد وأوشك.

٣ - كلمتا (يدع ويذر)^(٠٠٠٠) لأن ماضيهما قد أميت^(٠٠٠٠٠) وترك.

(٠) بكسر النون وسكون العين.

(٠٠) بفتح الفاء وضم الحاء.

(٠٠٠) بفتح الهاء وكسر الراء وضم الدال.

(٠٠٠٠) بفتح الهاء والدال والذال.

(٠٠٠٠٠) بضم الهمزة وكسر الميم.

والفعل الجامد أكثره ملازم للماضى مثل: نعم وبئس وعسى (وهى التى ضرب بها الشيخ هنا المثال) - ويضاف إليها حبذا ولا حبذا، وفعلا التعجب (ما أفعله، وأفعل به)، وأفعال الاستثناء (خلا وعدا وحاشا)، وليس (من أخوات كان) وحرى واخلولق وأنشأ وأخذ (من أفعال المقاربة).

وتستعمل نعم للمدح مثل قولك: نعم الخليفة أبو بكر.

وبئس للذم مثل قولك: بئس الرجل أبو لهب.

وإعرابها: نعم فعل جامد يفيد المدح - والخليفة فاعله - وأبوبكر مخصص بالمدح مبتدأ - والجملة قبله خبر مقدم.

أما عسى فهى من أفعال الرجاء، وهى ترفع الاسم وتتصب الخبر ويكثر أن يقترن خبرها بأن^(١) مثل: عسى الكرب أن ينفرج.

وتنطلق الإشارة: من استحقاق بعض الأفعال للتصرف التام، على حين تجمد الأخرى عن التصرف التام.

ويحاول القشيري أن يوظف هذه الظاهرة لأجل قضية كبيرة أساسها هذا السؤال: هل الفعل الإنسانى إنسانى محض أم أن هناك تدخلاً فيه من جانب الله سبحانه؟

ويمكن صياغة السؤال نفسه بطريقة أخرى: إلى أى مدى تصل حرية الإنسان؟

هل هو حر (فى تصرفاته) حرية تامة؟ هل هى حرية ناقصة؟ أم هو مجبور تماماً على أن يفعل ما يفعل؟

والمشكلة كبيرة جداً، وقد بدأت فى تاريخ الفكر الإسلامى منذ عهد مبكر، وكان القدرية بزعامة (معبد الجهنى) أول من أثارها حين نادوا بأن

(١) بفتح الهمزة وسكون النون.

الإنسان (يقدر)^(٠) أعمال نفسه بعمله، ويتوجه إليها بإرادته ثم يوجدها (بقدرته).

وتصدى لهم فى الجانب الآخر فرقة (الجبرية بزعامة جهم بن صفوان)، ونادوا بأن الله سبحانه هو الذى قدر فى الأزل أفعال العباد، وأوجدها على يد العبد بقدرته وحده، فقدرة الإنسان معطلة تمام التعطل.

ثم جاء (المعتزلة والأشاعرة) من بعد ذلك، وتلفقوا هذا الموضوع، وزادت هوة الخلاف بينهما، وظهرت مسائل بعد مسائل تتصل بهذا الأصل، ونشأت مدارس ووضعت مصنفات ضخمة.. بل أريق دماء وثار فتن، وذهبت كل فرقة تلتمس من القرآن الكريم نصوصاً تؤيد بها مواقفها وتدحض آراء معارضيها..

ولأن الموضوع كبير.. فنؤثر^(٠٠) أن ننبه إليه هنا فحسب تاركين التفاصيل فيه إلى مواضعه فى علم الكلام ومطولاته.

ونختصر الآراء فى سطور: يرى المعتزلة أن الله عادل ولذا ينبغى أن يكون الإنسان حراً حرة تامة حتى يمكن أن يحاسب^(٠٠٠) يوم القيامة على (تصرفه).

ويذهب الأشاعرة ومنهم القشيري إلى تقليص هذه الحرية عن طريق إدخال الفاعلية الإلهية فى (تصرف) الإنسان، لأن الله خالق الإنسان وصاحب الكون.. فلا يمكن أن يجرى فى ملكه فعل بدون مشيئته، وإلا تعدد الفاعلون.. وهم يخشون من التعدد.

(٠) بضم الياء وفتح القاف وتشديد الدال المكسورة.

(٠٠) بكسر الثاء.

(٠٠٠) بضم الياء وفتح السين.

وقد عرفنا من ترجمة القشيري كيف تعذب بسبب أشعريته، وكيف كان جزاؤه النفي والتشريد.. وهو هنا يريد أن يمس مساً هينا هذه القضية، ونستطيع - مرتبطين بالنص - أن نجد ثلاثة أشياء فيه:

- ١ - بالنظر إلى الأفعال الإنسانية نجد أن «بعضها به وإليه».
- ٢ - بعضها «ليس بمكتسب للعبد كالإدراك بطريق السمع والبصر».
- ٣ - ويعلق «الثواب والعقاب» على ما يكون من (تصرف) العبد.. وإذا فتحنا أمام عمل مركب.

من فتح الجفن أو إغلاقه عمل إنساني،
وإدراك البصر من خلق الله.

والشيء نفسه يقال في: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ (الأنفال: ١٧)
يقول القشيري: منك الرمي ومنا تسديد الإصابة.

وقوله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ (الواقعة: ٦٤) فالعلة الأولى مردودة لله تعالى والعلة القريبة هي الزارع^(١٠) - إذا استعرنا فكرة (العلة) من الفلسفة.

وهكذا.. يتضح أن هناك جزءاً من الفعل يصنعه الإنسان (بتصرفه).
وهناك جزء مكمل وهو العناية الإلهية التي تساعد الإنسان في الضطلاع بما يختص به.

هذا الجزء المختص بالإنسان هو الذي سيحاسب^(١١) عليه، وهو مناط الثواب والعقاب. ولنضرب على ذلك مثلاً واحداً يتصل بالفقرة في المتن.

(١٠) بضم الزاي وتشديد الراء مع فتحها.
(١١) بضم الياء وفتح الحاء.

لِلرَّسُولِ ﷺ حَدِيثٌ يَقَعُ فِيهِ هَذَا النَّصُّ «وَالْعَيْنُ تَزْنِي» فَاللَّهُ خَالِقُ
لِإِدْرَاكِ الْبَصَرِ لَكِنِ الْإِنْسَانُ مُحَاسِبٌ عَلَى فَتْحِ الْجَفْنِ عَامِداً - أَوْ غَيْرِ
عَامِدٍ - لَامْرَأَةٍ^(١٠) غَيْرِ مُحَرَّمَةٍ عَلَيْهِ بِقَصْدِ اشْتِهَاءٍ أَوْ بِدُونِ قَصْدٍ. وَفِي
حُدُودِ هَذِهِ الظُّرُوفِ يَتَحَدَّدُ الْمَوْقِفُ وَيَكُونُ الثَّوَابُ أَوْ الْعِقَابُ.

وَنَتَبَهْ إِلَى أَنَّ الْقَشِيرِيَّ عَالِجَ الْمَوْضُوعِ هُنَا بِوَصْفِهِ مُتَكَلِّماً. أَمَّا لَوْ سَأَلْتَهُ
بِوَصْفِهِ صُوفِيّاً لَحَدَّثَكَ عَنِ الْحَرِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ حَدِيثاً أَلَمْنَا بِبَعْضِ أَطْرَافِهِ
فِي مَوَاضِعٍ مُتَفَرِّقَةٍ مِنْ هَذِهِ الشُّرُوحِ، وَهُوَ «جَبَرِيَّةُ الْحُبِّ» بِمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ
مُحَبَّبٌ وَالْإِنْسَانُ مُحِبٌّ^(١١)، وَالْمُحِبُّ يَرَى أَنَّ يَعْوَلُ كُلَّ شَيْءٍ عَلَى اللَّهِ، وَأَنْ
يَعُودَ - حَتَّى بِمَا يَصْنَعُهُ مِنْ أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ - إِلَى أَفْضَالِ اللَّهِ، فَلَا تَوْبَةَ إِلَّا
إِذَا تَابَ عَلَيْكَ أَوَّلًا.. وَهَكَذَا بَقِيَّةُ الْمَقَامَاتِ.

وَتَعْبِرُ رَابِعَةُ الْعَدْوِيَّةِ فِي أَشْعَارٍ مَشْهُورَةٍ عَنْ حُبِّهَا لِلَّهِ، وَتَتَنَصَّلُ فِي
الْبَدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ مِنْ أَيِّ فَضْلٍ لَهَا: «وَلَكِنْ لَكَ الْحَمْدُ فِي ذَا وَذَاكَ».

(١٠) بِكَسْرِ الْبَاءِ الْمَرْبُوطَةِ وَتَوِينِهَا.

(١١) بِضَمِّ الْمِيمِ وَكَسْرِ الْحَاءِ.

فصل [٤٥]

المعاني المختلفة لـ (ما)

«ومن الألفاظ ما تكون صيغته واحدة ولها معان كثيرة: كقولهم «ما»: يكون صلة، ويكون للنفي، وبمعنى الذى، وبمعنى من^(١).. وغيره.

ويكون مشبهاً^(٢) بالمشبه بالفعل فيقولون: ما زيد قائماً فيشبهونه بـ «اليس».. فقوم يرفعون خبره وقوم ينصبونه.

ويتبين الفرق بين «ما» و «ليس» فى تقديم الخبر، وذلك لنقصان «ما» عن «ليس».

كذلك: الملتحق بالملتحق لا يبلغ شأواً^(٣) المتحقق.

أما الخيام.. فإنها كخيامهم وأرى نساء الحى غير نساها
وكما أن المشغول بالمشغول أشدهم محنة كذلك المتشبه بالمتشبه
أضعفهم حالة..»

ملاحظات على المنهج:

• هذا فصل ممتع، وهو من الفصول التى تابع الشيخ فيها التفاصيل الدقيقة، والفروق الاستخدامية - فى نحو الظاهر - للشيء الواحد الذى هو هنا «ما».

• وجاءت عملية التنظير بين نحو الظاهر ونحو القلوب مقنعة أشد ما يكون الإقناع، لأنها تتم عن فطنة ودراية بين النمطين.

(١) بفتح الميم.

(٢) بتشديد الباء وفتحها.

(٣) بفتح الشين وسكون الهمزة وفتح الواو.

- يستخدم فى المصطلح كلمة «صلة» بمعنى (زائدة)، كما سنرى.
- يقتضينا ذلك كله أن نطيل نفسنا فى عرض مسائل النحو الظاهر حتى نجلو منطلقات الإشارة، ونذكر احتمالاتها.

* * *

«ما» من الأدوات التى تطالعك بوجهها فى أبواب كثيرة العدد فى نحو الظاهر، فأنت ستجدها فى باب النفى، وباب الاستفهام، والموصول، والشرط، وكان وأخواتها، وباب التعجب. وإن وأخواتها. وستجدها مرة حرفاً ومرة اسماً، ومرة مصدرية ظرفية.. وقد تجدها كافة.. وغير ذلك..

وقد أراد الشيخ فى هذا الفصل أن يوظف هذا الاتساع فى الاستعمال لـ (ما)، وأن يجعل ذلك وسيلة - كعهد نابه - إلى مقاصد بعيدة.

(أ) ومن أمثلة استخدامها:

١. صلة (= زائدة) غير كافة مثل «مما خطيئاتهم أغرقوا» ولبيان أن الشيخ يستخدم «صلة» التى جاءت فى النص بمعنى «زائدة» نسمعه عند قوله تعالى: «فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبياً» (كان ههنا فى اللفظ صلة، وحملوا ذلك منها على الاستهانة بفعلتها).

وفى موضع آخر عند «وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابت الجب وأوحينا إليه» أى (فلما ذهبوا به وألقوه فى غيابة الجب أوحينا إليهم فتكون الواو صلة والإشارة: أنه لما حلت بهم البلوى عجلنا لهم التعريف بما ذكرنا من البشرى).

٢ - زائدة كافة: إنما الحياة الدنيا لهو ولعب.

٣ - نافية: ما علمت النبأ إلا الآن.

٤ - مصدرية ظرفية: اتق الله ما استطعت.

وهي في المواضع السابقة حرف.

(ب) أما في الأمثلة التالية فهي:

١ - تقع موصولة للدلالة على غير العاقل.

مثل: أعطيت السائل كل ما في جيبى.

٢ - وقد تأتي (بمعنى من^(١)) التي للعاقل كما جاء في المتن مثل:

﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ (النساء: ٣).

٣ - وتأتي استفهامية بمعنى من^(٢) للعاقل.

﴿قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ (الفرقان: ٦٠)

٤ - وتأتي استفهامية لغير العاقل:

ما بيدك؟

٥ - وتأتي شرطية لغير العاقل: ما تفعل^(٣) من خير يكتبه^(٤) لك الله.

وهي في هذه المواضع اسم.

«ما، التي بمعنى ليس:

ركز الشيخ نظرته عليها كثيراً ولذا تستحق وحدها وقفة متمهلة في الشروح.

«ما» هذه حرف نفى يدخل على المبتدأ والخبر فتعمل عمل (ليس) عند أهل الحجاز مثل قوله تعالى: «ما هذا بشراً».

ولكن بنى تميم يهملونها أى لا يعطونها عمل ليس.

(١) بفتح الميم وسكون النون.

(٢) بسكون اللام.

(٣) بسكون الباء.

ولاحظ الشيخ وهو يقارن بينهما أن: (خبر ليس) يمكن أن يتقدم على اسمها جرياً على ما يحدث بالنسبة لكان وأخواتها: (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) ومثل «نَيْسَ الْبِرِّ» (١٠) أَنْ تُؤْتُوا ..» (البقرة: ١٧٧) في قراءة حمزة وحفص...

بينما لا يجوز تقديم (خبر ما) على اسمها فلا تقل:

ما قائماً زيد.

تتمة للفائدة وذات أهمية في الإشارة:

قلنا من قبل إن كان ومعموليه (يشبهان) جملة الفعل التام في ترتيب العناصر:

الفعل التام + مرفوع + منصوب

وتتجلى المشابهة فتقول: كان وأخواتها + مرفوع + منصوب

ويمتد هذا (الشبه) إلى شيء آخر هو جواز تقديم خبر كان وأخواتها عليها (ماعداً ليس).

فتقول صائماً كان زيد ولا تقول: صائماً ليس زيد.

ولا صائماً مازال زيد لأن تصريف (ليس) و (مازال) ناقص وإذا فإن (ليس) أقل حظاً في هذا (الشبه).

فإذا انتقلنا إلى (ما التي تشبه ليس) ولا يطرد هذا الشبه (لأننا نعلم الفرق بين لغة الحجاز ولغة تميم - كما ذكرنا) فهي ضعيفة في (الالتحاق) لأنها أدنى منزلة من (ليس) ولذا فإنها من باب أولى لا يجوز أن يتقدمها خبرها عليها، فضلاً عن أنه كما أسلفنا منذ قليل لا يجوز أن يتقدم خبرها على اسمها.. فهي أبلغ في الضعف من (ليس).

(١٠) بفتح الراء وتشديد ها.

وهكذا تنقص (ليس) على أخواتها رتبة، وتنقص (ما) عن ليس رتبة، ويتحصل من ذلك كله ناتج كان له القيمة الكبرى في نظرة الشيخ الإشارية:

أن الأصل هو جملة الفعل التام (المرتبة العليا).

وأن المشبه هو جملة كان وأخواتها (ما عدا ليس) في موضع فهو ينقص في الرتبة.

وأن المشبه بهذه الأخيرة - أى «ما» - ينقص عنها بدورها رتبة. وهذا التدانى الذى أصاب (ما) ناتج عن أنها (ملتحقة بالملتحق) وأن (ليس) (مشبهة بالمشبه)، فيكون المجموع تنازلياً أربع مراتب.

* * *

يمكن الآن فهم إشارات الشيخ في الفصل كله، وكيف تدور حول هذا العبد التعس المناظر^(١) لـ (ما).. وأمامنا احتمالات لصرف المراد فمن حيث:

(١) الانتماء: فكأنى بالشيخ يريد أن يوضح أن عبداً فيه صفات (ما) له عدة وجوه، فهو في كل مكان، ومع أى شيخ، وفي أى محفل، إنه عديم الأصل، منقطع السند..

وتجده لذلك يطرق كل الأبواب كما تدخل (ما أبواب النحو) فالنصيحة إذاً موجهة المريد.. أن يبحث عن شيخ ثقة يأخذ عنه طريقته، ويركز كل همته في هذا الشيخ الذى اختاره، وآمن بحسن سيرته من الناس، وألا يحيد عن ذلك البتة، ويلزم أن يكون انتقاء الشيخ من بين الذين يتصلون بنسب إلى سند قوى، كما يتسلسل تابع التابعى عن الصحابى عن الرسول

(١) بكسر الظاء.

صلوات الله عليه وسلامه.. ينبغي أن تنتهى الأسانيد الصوفية إليه أو إلى أحد صحابته العظماء وكلهم من رسول الله ﷺ مقتبس.

أما إذا انجرف المريد فى سلسلة لا أصل لها، فهو بمرور الوقت يفقد قيمته شيئاً فشيئاً كما يحدث فى حالة (ما) التى (التحقت) بأصل ضعيف.

(ب) تركيز الجهود: بمقدار ما تتركز الجهود فى غاية واحدة يكون الوصول...

أما بعثرة هذه الجهود، وتشتيت الرؤية، والوقوع تحت تأثير الشد والجذب بين الحظوظ والحقوق، فإن هذا يضعف الشأن كما توزعت (ما) بين أبواب النحو، فأصبحت أشبه بكائن غير محدد المعالم والقسمات.. فأصابها ما أصابها من وهن وضعف!

وليعلم المريد أن الدنيا والآخرة شقيقتان ولا يصح الجمع بين شقيقتين - على حد تعبير على بن أبى طالب.

(ج) البدعة: ربما يهدف الشيخ من بعيد إلى أن أسباب انتشار البدعة هو (التشبه) الذى حدث لأول مرة بمشبه به صدر عنه الخطأ، وجاء ثالث و (تشبه) بالثانى.. وهكذا.. كلما بعد المرء عن الأصول الأصلية التى تتخذ السنة الشريفة منهجاً.. يتلاحق الخطأ فى واحد إثر واحد.. حتى يأتى وقت يكون البعد عن (الحقيقة) قد هبط بصاحبه إلى الحضيض.

(د) الحب الحقيقى أساسه المبادلة:

إن قصة هؤلاء القوم فى صميمها قصة حب كبير، وكل حب كبير يقاس بعنصر المأساة فيه، فمنهم من تتقطع كبده من الحزن لفراق محبوبه، أو هجره أو فصله، ويقضى الليل والنهار فى (قبض) متصل حتى تلوح على البعد تباشير (البسط)، وهكذا يقضى عمره بين (وجد) و (فقد).

ومنهم من (يتشبهه) بالمشبه.. وهذه الطوائف وأمثالها ليس لها من الحب إلا الاسم، فهي عند أول بادرة ابتلاء تتبدد كالفراشات عند الضياء...

على أن القضية لا تقف عند هذا الحد، فأهم شيء في هذا الصنف من الحب.. هو من^(١) (المقسوم) له أصلاً أن يكون المرید... (المراد)؟ فليس مهما أن تحب أنت ولكن المهم من الذي تحبه ليلى، وبمن هي (مشغولة)؟ فلربما صدق قول الشاعر:

وكل يدعى وصلاً بليلى وليلى لا تطيق لهم وصلاً

وقد يكون الجواب. أنك (مشغول بمشغول) وعندئذ (تكون المحنة الشديدة).. فأنت لست الحبيب المراد المختار، فتصبح:

إنما أنت في هواها كواو ألحقت^(٢) في الهجاء ظلماً بعمرو

أنت مستعد لأن تدفع ثمن هذا الحب العظيم من وقتك وجهدك وصبرك وانتظارك وأشجانك.... إلى أن ينحل بدنك... ولكن قل^(٣) أن تصل! يقول السقطي:

ولما ادعيت الحب قالت كذبتني فمالى أرى الأعضاء منك كواسيا

وفي هذه المعاني ينشدون كثيراً بعض أشعار العذريين مثل:

جننا بليلى وهي جنت بغيرنا وأخرى بنا مجنونة لا نريدها
ومثل:

خليلى، لا والله لا أملك الذي قضى الله في ليل ولا ما قضى ليا

قضاه لغيرى وابتلانى بحبها فهلا بشيء غير ليلي ابتلانيا

* * *

(١) بفتح الميم وسكون النون.

(٢) بضم الهمزة وسكون اللام.

(٣) بفتح القاف وتشديد اللام مع فتحها.

فمنهم من هو على درجة (التمام) في هذا الحب، وآية ذلك هذه «المبادلة» التي بينه وبين ليله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (المائدة: ٥٤)، ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (المائدة: ١١٩)، ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ (البقرة: ١٥٢)

هؤلاء يناظرون (الفضل التام) وما دون ذلك يتفاوتون بين مشبه ومشبه بالمشبه.. درجات تنازلية في هذا الحب حتى يكون اسماً على غير مسمى! ومسمى بغير طائل!

وهكذا نجد الشيخ بإثارته لموضوعات (التشبه) و (الالتحاق) و (الانشغال) قد وضعنا أمام احتمالات كثيرة.. رأينا أن (ما) تثيرها وتنعشها جميعاً.

فصل [٤٦]

لا النافية للجنس

«الاسم المنفى بلا مبنى على الفتح، لأن «لا» نقيض «إن»، فلما كانت «إن» التي للتحقيق تنصب الاسم فالمنفى بـ «لا» يبنى على الفتح... وهذا باب في النحو يجرى^(٠) على المعنى حكم نقيضه.

والإشارة: أنه يوجد في الأحوال ذلك، فإن غاية الحزن توجب الضحك، ونهاية السرور توجب البكاء، وغاية الهجر بترك العتاب، وحقيقة الود تكون بالتجنى وكثرة العتاب.. أشدوا:

ترك^(٠٠) العتاب إذا استحق أخ

منك العتاب - ذريعة^(٠٠٠) الهجر

وأنشدو:

ولما غدت عيسهم للنوى

ضحكت من البنين مستعجبا

وظلت بأحداجها تترك^(٠٠٠٠)

وشر الشدائد ما يضحك

وقيل: إن يعقوب عليه السلام لما رأى يوسف بكى، فقيل له في ذلك فقال:

ذاك بكاء الحزن وهذا بكاء السرور

* * *

(٠) بضم الياء

(٠٠) يسكون الراء وضم الكاف.

(٠٠٠) بضم التاء المربوطة.

(٠٠٠٠) بفتح التاء وسكون الراء وكسر التاء وضم الكاف.

يبنى اسم «لا» النافية للجنس على ما ينصب به إذا كان مفرداً (ومعنى الأفراد هنا كمعناه فى باب النداء أى غير مضاف ولا شبيه بالمضاف - راجع فصل النداء ٤٢ من هذا الكتاب) أى يبنى على الفتح فى حالى المفرد وجمع التكسير مثل:

لا طالب^(٠) فى المدرسة.

لا طلاب^(٠) فى المدرسة.

ويبنى على الكسرة فى حال جمع المؤنث السالم، وعلى الياء فى حالى المثنى وجمع المذكر السالم.

وعرب اسمها إذا كان غير مفرد (أى مضافاً أو شبيهاً بالمضاف) ويكون عندئذ منصوباً.

مثل: لا ناصر^(٠٠) حق مخذول - لا كريماً عنصره سفيه

لا حافظاً عهداً منسى - لا واثقاً بالله ضائع

وقد قيس «لا» على «إن» فى عملها لأن هذه الأخيرة تفيد تأكيد الإثبات (وهو الذى سماه الشيخ (التحقيق)).

أما (لا) فتفيد تأكيد (النفى)

وهذا يفسر قول الشيخ: «حمل الشئ على نقيضه».

ومن هذه النقطة الأخيرة تنطلق إشارات الشيخ.. وهو يريد - من بعيد - أن يقنعنا باحتمال قلب المحب (للأحوال) المتناقضة، فالرب سبحانه وهو يربى عبده تربية إلهية يخضعه لهذه الثنائيات: الرجاء والخوف، الأنىس والهيبة، الوجد والفقد، الوصل والفصل، القبض والبسط، البقاء والفناء... إلخ مما ذكرناه ونوهنا بتفاصيله فى مواضع شتى من هذه الشروح.

(٠) بفتح الباء.

(٠٠) بفتح الراء.

هذه الأحوال كما هو واضح خلاصتها حمل الشيء ونقيضه. فكما يحدث في نحو الظاهر ذلك يتم في نحو الباطن أيضاً.

والواقع أنه حتى في الحب البشرى في كل العصور فإن معاناته تعرف هذا التناقض. العذاب العذب، والشقاء الشيق، وهنا مكن الصراع فيه. فما بالك بالحب الأسنى الذى غايته أن يظل هذا القلب المحب يتقلب بين إصبعين من أصابع الرحمن حتى يتم النقاء والصفاء، ويتجرد القلب من كل الغير والسوى، ويمتحن بالسراء والضراء كي يذوب في نهاية الأمر في الإدارة والتصاريف الإلهية ويصبح مرآة مجلوة من كل كدر.

ديدن هذا الحب إذاً هو اجتماع الشيء ونقيضه، فهو مثلاً في أقصى درجات التنعم بالوصال تنتابه مشاعر القلق والاضطراب، فهو يعلم أن كل شيء إلى زوال.. وعما قريب تتسحب كل نسائم هذا القرب لتحل محلها هواجم الفراق ونذر البعاد.. إنه ابتلاء مضمن لا تحتمله وتصبر عليه وتتجو منه إلا قلوب الأفذاذ (العارفة) بأسرارهم ومراميه.

عن هذه التربية يحدثنا القشيري في واحدة من وصاياه للمريدين. «واعلم أن أضر الأشياء بالمريد استثناسه بما يلقي^(١) إليه في سره من تقريبات الحق سبحانه له ومنته عليه، فيظن أنه متفرد عن أشكاله ومختص بهذا»^(٢).

ولقد رأينا أن أصدق وسيلة لنقل هذه المشاعر المتناقضة في دنيا المحبين هي أن نترك للشعر المنشأ^(٣) والمنشد^(٤) أن ينقل هذه الخلجات، ونقصد بذلك أن نخرج عن النمطية التي جرت عليها الشروح، وأن نذهب

(١) الرسالة ص ٢٠١.

(٢) بضم الياء وفتح القاف.

(٣) بضم المهم مع فتح الشين هنا وهناك.

بالسأم الذي قد يصيب القارئ نتيجة لذلك، كما أننا نريد أن نلفت بطريق غير مباشر إلى أهمية دور الشعر الصوفي في احتواء تجربة هؤلاء القوم، وأن إهماله جريرة لا تفتقر.. ونحن على ثقة أن القارئ لهذه النماذج التي اخترناها بعناية - يوطد عزيمته على البحث الجاد والاستزادة من هذا الشعر، والعناية به.. إنه يكاد يكون شعراً معاصراً!

* * *

* يقول جعفر الخلدي «تفكرى فى مرارة البين يمنعنى من التمتع بحلاوة الوصل، وتكره عينى أن تقر»^(١) بقريك مخافة أن تسخن ببعدك، فلى عند الاجتماع كبد ترجف وعند التئامى مقلة تكفكف، وأقول كما قال الشاعر:

وما فى الدهر أشقى من محب	وإن وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكياً فى كل حين	مخافة فرقة أو لاشتياق
فيبكى إن نأوا شوقاً إليهم	ويبكى إن دنوا خوف الفراق
فتسخن عينه عند التئامى	وتسخن عينه عند التلاقى ^(٢)

* وفى «لطائفه» وهو يفسر بالإشارة مأساة آدم وحواء يقول: «حين تمت أسباب الوصلة، ووطنا نفوسهما على دوام القرية بدا الفراق من مكانه، فأباد من شملهما ما انتظم... كما قيل:

حين تم الهوى وقلنا سررنا	وحسبنا من الفراق أمنا ^(٣)
بعث البين رسله فى خفاء	فأبادوا من شملنا ما جمعنا ^(٤)

(٢) اللمع ص ٣٠٩.

(٣) اللطائف ج ٢ ص ٥٢٤.

(١) بفتح التاء والقاف مع تشديد الراء المفتوحة.

(٢) بفتح الهمزة وكسر المهم.

* ويستشهد فى موضوع ثالث بقوله:

فبت^(١) بخير - والدنى^(٢) مطمئنة
واصبحت يوماً والزمان تقلباً
ويقول:

وكان سراج الوصل أزهر بيننا
فهبت به ريح من البين فانطفأ^(٣)
ويقول صاحب اللمع مستشهداً:

وفكر الوجد فى معناه صحو
وصحو الوجد شكر فى الوصال^(٤)
وينقل عن أبى العباس بن عطاء قوله:

جمعت شيئين فى قلبى له خطر
نوعين ضدين: تبريد وتلهيب
نار تقلقنى والشوق يضره
فكيف يجتمعا: روح وتعذيب^(٥)

ملحوظة: لنفتقر هنا بعض الضرورات الشعرية فربما كانت لحظات
غيوبتهم تبعدهم عن دقة الصنعة.. فهم ليسوا من الشعراء المحترفين.

أما القشيري فى «الرسالة» فهو لا يحرمنا من حين لآخر من هذا
الشعر الجميل الذى يخفف مؤونة الأسانيد والأحكام والسرد. الأمر
الذى جعل «الرسالة» ذات طعم خاص.. فلنستمع ولنتأمل (الشئ
ونقيضه):

* كان شيخى أبوعلى على الدقاق رحمه الله ينشد كثيراً:

ودادكم هجر وحبكم قلى^(٦) وقريكم بعد وسلمكم حرب

(٤) اللطائف مجلد ٢ ص ٦.

(٥) اللمع ص ٢٨٢.

(٦) اللمع ص ٣٢٤.

(١) بفتح الفاء وكسر الباء وتشديد التاء المفتوحة.

(٢) بضم الدال المشددة.

(٣) بكسر القاف وفتح اللام.

* وينشدون:

* مَحَنَّتِي فِيكَ أَنْنِي	لَا أَبَالِي بِمَحَنَّتِي
نَارَ قَرِيبِكُمْ مِثْلَ بَعْدِكُمْ	فَمَتَمَى وَقْتُ رَاحَتِي
* افترقنا حولا فلما التقينا	كان تسليمه علي ^(١) وداعا
* وليس لي في سواك حظ	فكيفما شئت فاخترني
* وأبرح ما يكون الشوق يوما	إذا دنت الخيام من الخيام
* أبكى.. وهل تدرين ما يبكيني؟	أبكى حنرا أن تفارقيني
وتقطعي وصلي وتهجريني	
* أموت إذا ذكرتك ثم أحيأ	ولولا حسن ظني ما حييت
فأحيأ بالمني وأموت شوقا	فكم أحيأ عليك وكم أموت!
* كم من مغبوط في أحواله انعكست عليه الحال، فبدل بالأنس وحشة، وبالحضور غيبة.. وأنشد شيخى الدقاق رحمه الله:	
أحسنْتَ ظَنكَ بِالْأَيَّامِ إِذْ حَسَنْتَ	
وَلَمْ تَخَفْ سُوءَ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ ^(٢)	
وسألتك الليالى فاعترت بها	
وعند صفو الليالى يحدث الكدر	
تراعت لي بالغيب حتى كأنما	تبشرني بالغيب أنك في الكف
وتحيى محبا أنت في الحب حتفه	وذا عجب كون الحياة مع الحنف

(١) بتشديد الياء وفتحها.

(٢) بفتح الدال.

فصل [٤٧]

كم الاستفهامية وكم الخبرية

«ومن الألفاظ التي تقع على معان مختلفة «كم» فإنه يكون بمعنى الاستفهام فينصب ويكون بمعنى «رب» فيخفض.

والفرق بين كم و «رب» اختصاص «كم» بالتكثير، ورب بالتقليل ويتميز أحدهما عن الآخر بالقرينة والعلامة.

والإشارة: كذلك من الناس من هو في صورة غيره، ولكن بالقرينة والأمانة تتمير المقادير، فالزاهد في صورة الواحد ولكن^(١) هذا قصده من الحق عطاؤه وهذا موجب استقلاله نقاؤه.

وقد يجمع الطريق سالكين^(٢) ولكن بالمقصد تتفاوت المقادير، فواحد يرجع إلى قصر^(٣) مملوك له..

وآخر إلى حجرة بكراء^(٤)..

تستخدم «كم» التي هي (لفظ واحد) استخدامين مختلفين لكل منهما معنى ولكل معنى أثر في إعراب ما بعده.

فإذا استفهمت بها عن عدد يراد تعيينه قلت. كم مشتركاً في المسابقة؟ أما إذا أردت الدلالة على التكثير قلت: كم ليال سهرت!

ويكون معناها ما أكثر الليالي التي سهرت.. وطبيعي أن تتغير نغمة الصوت في كل حالة عن الأخرى فصوت الاستفهام مختلف عن صوت التعجب، كما أنك تلاحظ بعض الاختلافات الإعرابية في كل من الكلمتين بعد (كم)..

(١) بتشديد النون.

(٢) بسكون الباء.

(٣) بفتح القاف وسكون الصاد.

(٤) بكسر الباء والكاف.

وجوه الاتفاق بينهما:

- ١ - كل منهما اسم بدليل دخول (من) (٠) وغيرها عليهما مثل:
من كم لاعب يتكون الفريق؟ (استفهامية).
على كم روايات أخذت (٠٠) عيوب فنية! (خبرية)
 - ٢ - مبنى على السكون.
 - ٣ - مبهم يحتاج إلى تمييز.
 - ٤ - يتصدر الكلام ولا يسبقه إلا حرف كما سبق أو المضاف مثل:
ملابس كم جندياً هذه؟ (استفهامية).
أسعاركم صنف (٠٠٠) ارتفعت! (خبرية)
- ### وجوه الاختلاف بينهما:

كم الاستفهامية: يستفهم بها عن العدد فهي من حيث البلاغة تتصدر أسلوباً إنشائياً، وتمييزها مفرد دائماً ومنصوب دائماً - وتدخل على الماضي والمستقبل.

كم الخبرية: كما أن «رب» حرف جر يفيد التقليل فإن كم تجر أيضاً، ولا تفيد الاستفهام وإنما تفيد التكثير.. وهذا أيضاً باب في النحو يحمل فيه الشيء على نقيضه.

وأسلوبها من حيث البلاغة خبري.

وأما تمييزها فهو دائماً مجرور وهو إما مفرد أو جمع، والإفراد أكثر وأبلغ.

(٠) بكسر الميم وسكون النون.

(٠٠) بضم الألف وكسر الخاء.

(٠٠٠) بكسر الفاء وتوينها.

وهى تختص بالماضى فلا تقول: كم دور سأبنيها.
ويبقى أخيراً.. أن معنى السياق، وصفات الاسم الواقع بعد «كم»..
ملامح كافية للتمييز بين النوعين.

* * *

والإشارة تأتي من هذا الملحظ عند الشيخ:
إنها فكرة الظواهر والبواطن فى هذا الطريق، فلفظ «كم» واحد فى
حالتين مختلفتين، وينجم الاختلاف عن السياق والمعنى ثم إعراب الاسم
بعدها..

خذ مثلاً رداء الصوف.. الذى يلبسه شخصان، فهما من حيث
(الظاهر) متفقان تمام الاتفاق.. فإذا حكمت^(١) (الباطن) ألفيتهما جد
مختلفين.. فليس الاعتبار بالخرق^(٢) إنما الاعتبار بالخرق^(٣).. فهما
عند بوادى الامتحان، أو ممارسة الصبر والتوكل والرضا.. ونحو ذلك
يفترقان فى الإخلاص وفى طريق الممارسة وفى الطموح.. وفى كل شئ،
ويأتى وقت يفتضح أمر كل منهما، فأما أحدهما فظاهره كباطنه، ووجهه
كقلبه، ولون مائه من لون إنائه - كما قال الشيخ فى موضع مماثل سبق
ذكره.

ولأجل هذا نجد الشيخ فى باب «التصوف» فى الرسالة بعد أن أثبت أن
النسبة إلى الصوف سليمة فى الصياغة اللفوية: «فيقال تصوف إذا لبس
الصوف كتقمش إذا لبس القماش وتقمص إذا لبس القميص» فتحس أنه
ارتضى هذه النسبة، ولكنك ما تلبث بعد أن تقرأ بقية الباب أن تدرك أنه
ارتضى بالنسبة إلى «الصفاء».. فهو محمود بكل لسان. ويكون معنى هذا..

(١) بفتح الحاء وتشديد الكاف المفتوحة.

(٢) بكسر الخاء.

(٣) بضم الحاء.

أنه ثر السلامة (القلبية) على السلامة (اللغوية)، وبكلمات أخرى أرجع النسبة إلى (الباطن) ولم يحفل (بالظاهر)، ووجد خيراً أن ينتسب المرء إلى (معان) داخلية ونوايا خفية لا يعلمها إلا علام الغيوب بدلاً من (ثياب) يراعى في انتقائها تعريف الناس به، ولفت أنظارهم إليه، فالعبرة بالسر لا بالعلن.

وكما يتضح معنى «كم» التى هى لفظ واحد فى «الخبر والاستفهام» بالسياق وبالإعراب يتضح (جوهر) كل متشاركين فى مظهر واحد عند العمل والممارسة، فهذا - فى نظر الشيخ - هو المحك الحقيقى لإظهار معادن الرجال.

وما ينطبق على هذه الحال ينطبق على كل ما يحفل به الطريق من سلوك يتصل بالظاهر والباطن، فالتسمية بعابد أو سالك أو مريد.. أو عارف لا يترتب عليها بالضرورة تساوى الأفراد الذين يتسمون بها فى درجات الوصول ولا فى غاياته.. ولذا فإن منهم من يتوقف ويرتد، ومنهم من يستمر ويتعثر.. ومنهم من يصل ثم يتصل.. والمثل على ذلك كما يذكره فى المتن: «الزاهد فى صورة الواجد.. لكن هذا قصده من الحق عطاؤه، وهذا موجب استقلاله نقاؤه».

فكلاهما يأخذ سمت الواجد.. ولكن بالبحث وبالتجربة وبمرور الوقت يتضح أن أحدهما يعبد الله، وقد يقطع مراحل من الطريق لا بأس بها.. ثم يظهر فيما بعد أن ذلك لأغراض وأغراض (وعطاء) فى الدنيا أو فى الآخرة، على حين أن الآخر لا تهمه هذه الأمور لأنه يريد وجه الله المحبوب فقط بكل (نقاء) القلب والروح والسر، وفى هذا المعنى أنشدوا:

كلهم يعبدون من خوف نار ويرون النجاة حظاً جزيلاً
ليس لى فى الجنان والنار رأى أنا لا أبتغى بحبى بديلاً^(١)

(١) صفة الصفوة ج ٤ ص ٢٩٥.

ويروى الحلاج قصة - أوردها القشيري في كتابه «المعراج» - ذات مغزى:

«لما دنا السفير الأعلى من الحق في المسرى - أي الرسول ليلة الإسراء - أيده فقال: سل^(١) تعط^(٢) فقال:

ماذا أسأل وقد أعطيت؟ ماذا أبتغي وقد كفيت؟

فنودي: «إنك لعلی خلق عظيم.. حيث نزهت بساطنا عن طلب الحوائج»^(٣).

ويمكن أن تسرى الفكرة ذاتها على شخصين عند «التواجد» فكل منهما يصاب بتغيرات عضوية ونفسية حادة عند غلبة الوجد.. ولكن التغفل في أعماق (البواطن) يكشف بعد قليل أن هذا صادق والآخر مدع^(٤).. هذا يبكى والآخر يتباكى.. وقل مثل ذلك في كثير من المواقف التي يعرفها الشيوخ حق المعرفة.

(٢) المعراج للقشيري ص ١٠٨.

(١) بفتح السين وسكون اللام.

(٢) بضم التاء وفتح الطاء.

(٣) بضم الميم وتشديد الدال مع فتحها.

فصل [٤٨]

حروف القسم

«حروف القسم تجر المقسم به بإضمار فعل، فقول القائل: بالله أى يعينى بالله أو حلفت بالله.

وبعض هذه الحروف أكثر تعرفاً وأعم دخولاً كالباء.

وبعضها أقل كالتاء والواو،

وواسطة بين القليل والكثير - والكل حروف القسم.

والإشارة: الجميع من جملة الخدم، ولكن منهم من^(٠) يدخل الدار ويتمكن فى الصدر. ومنهم من حده^(٠٠) أن يحضر الباب ويقف من البعد.. قال تعالى: «وقد علم كل أناس مشربهم».

حروف القسم هى الباء والواو والتاء.

والباء أكثرها شهرة، والتاء أقلها، والواو واسطة فى الاستعمال، وهى تجر ما بعدها.

فأما الباء فهى الأصل، وهى تدخل على الظاهر مثل:

بالله لأكافحن حتى يعلى الله كلمته.

وتدخل على المضمر مثل: بك لأحاربن حتى ترتفع كلمتك. ويجوز ذكر فعل القسم معها ويجوز حذفه فتقول:
أقسم بالله... أو بالله لأفعلن^(٠٠٠)..

(٠) بفتح الميم.

(٠٠) بفتح الحاء وتشديد الدال وضمة.

(٠٠٠) نون عليها فتحة ومشددة.

أما الواو والتاء فمثل قوله تعالى:

«والفجر وليال عشر».

و «تالله لأكيدن»^(١) أصنامكم».

ويحذف فعل القسم (وجوباً). ويختلفان في (المدخول) عليه، فالواو تدخل على المظهر^(٢) دون المضمّر^(٣).

أما التاء فتختص بلفظ الجلالة.. ومن تعليلات النحاة لذلك: (فإن قيل فلم^(٤) اختصت التاء باسم واحد وهو اسم الله تعالى قيل: لأنها لما كانت فرعاً للواو التي هي فرع للباء ولأن الواو تدخل على المظهر دون المضمّر لأنها فرع انحطت عن درجة الواو لأنها فرع الفرع فاختصت باسم واحد.. وهو اسم الله تعالى) (أسرار العربية ص ٢٧٧).

* * *

والإشارة:

نتذوق بإحساس دقيق كلمات في النص مغزى عميق اختارها الشيخ بفطنة كي تهدينا إلى مكان من إشارات مثله:

أكثر «تعرفاً» و «أعم دخولاً». والكل حرف «قسم» و«الجميع من جملة الخدم».

فهذه الإيماءات لو ضمت بعضها إلى بعض لعاونت في رسم الإطار العام للصورة المراد إبرازها إشارياً.

وهي في الإجمال تعبر كما عبرت نصوص سبقت عن درجة «التفاوت» بين المراتب.

(١) نون عليها فتحة ومشددة.

(٢) بضم الميم في كليهما.

(٣) بكسر اللام وفتح الميم.

فكما تختلف حروف القسم فى درجة الاشتهار، وتتفاوت فى حظها بالنسبة للمدخل عليه كما أوضحنا - يختلف المنتمون إلى هذه الطريقة ويتفاوتون.

وإذا كان النحاة يلتمسون التعليل لهذا التفاوت فإن الشيخ هنا يضع «قسمة المقسوم، المأخوذة من رحم الكلمة «ق س م» بفتح كل حرف من الحروف الثلاثة التى هى عنوان الباب - على اختلاف فى ضبط بنية الثلاثى - منطلقاً للإشارة. ويقصد - حسب مذهبه - الرجوع بالأمر كله إلى أمر صاحب الأمر، وإلى اجتباؤه واختياره.. فهو الذى يريد من أصحاب الإرادة ما يريد، وهو الكفيل بوصولهم إلى ما يصلون إليه.. وكل ميسر لما خلق له.. «﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ﴾»^(١).

وتكون نتيجة ذلك كله أن يتوقف بعضهم عند «باب الدار، فهذا حده وجهده «وقسمته»، ومنهم من يمكن أن يتمكن من الدخول وينتهى به الأمر إلى أن يقف على «البساط»، ومنهم من يمكن أن يتمكن من الوصول إلى «الصدر». وهكذا ليس كل من «يقصد» ملك الملوك بمستطيع الوصول حسبما يريد، وليس كل (خدم) القصر على خط متساو فى القرب من صاحب القصر!

والقشيري فى موضع آخر حينما يريد التمييز بين هذه المراتب يقول: «ليس من مشى على ساحل البحر كمن سبح فى البحر كمن غرق فى البحر - فهؤلاء لهم لآلئ التوحيد والتفريد».

هى إذا فى النهاية محاولة لكشف طبقات هذه المملكة الروحية، وكيف أنها تخضع لمقاييس وضوابط وحدود.. فلتتوقف الدعاءات الكاذبة، فلا جدوى من التجاوزات المصطنعة، والقفز على الحبال!

(١) البقرة/ ٦٠ وانظر: نحو القلوب الصغير ص ٢١٠ للإمام القشيري تحقيق: علم الدين الجندى ط. تونس.

فصل [٤٩]

الظرف

الظرف على ضربين: ظرف زمان وظرف مكان، وكلاهما منصوب.. لأنه مفعول فيهما.

وفى نحو القلب: الظرف أيضاً على ضربين: ظرف الزمان وظرف المكان.

فالزمان هو الوقت: والوقت ما أنت فيه، ولكن ظرف الزمان فى نحو القلوب مختلف باختلاف ما فيه، فإن كان الذى فى الوقت وفاق^(٠) الأمر فظرف صاحبه على الضمة. لأن الضمة أقوى الحركات.

وإن كان الذى فى الوقت خلاف الأمر فظرف صاحبه مكسور، لأن الكسر أرق الحركات.

وإن كان الذى فى الوقت المباحات^(٠٠) فظرف صاحبه مفتوح، لأن الفتحة أخف الحركات، والمباح أخف الحالات.

وأما ظرف المكان. فإن كان الحق سبحانه بنعت الرضا عن صاحبه فظرفه مرفوع أو منصوب وإن كان صاحبه برقم الحظ فظرفه مكسور «ولون المائلون^(٠٠٠) إنائه»

هذا هو الفرق بين ظرف نحو الخطاب وظرف نحو القلب.

* * *

(٠) بضم القاف.

(٠٠) بضم التاء.

(٠٠٠) بفتح اللام وسكون الواو وضم النون.

الظرف اسم منصوب يدل على زمان أو مكان ويضمن معنى «فى»
باطراد.. فإذا فقد شرطاً من ذلك فلا يكون ظرفاً بل يكون حسب موقعه
من الإعراب مثل:

يومنا يوم طيب (مبتدأ وخبر).

أقبل يوم اللقاء (فاعل).

لاتضيع أيام^(١) شبابك فى الغواية (مفعول به).

وإذا تخلص الظرف بنوعيه عن النصب إلى حال أخرى مثل انجراره
به «فى» فقد ظرفيته حتى لو دل على الزمان أو المكان مثل:

فى الصباح. فى الدار

فالأصل هو نصب الظرف مثل: عند وصباحاً، فإن جاء مبنياً على
الضم مثل (حيث) أو السكون (لدى)، أو الكسر (أمس) فى لغة أهل الحجاز
فيكون فى محل نصب.

وظرف الزمان قد يكون مبهماً إذا دل على قدر معين من الزمان مثل:

حين، وقت، زمان

وقد يكون محدوداً إذا دل على قدر معين من الوقت مثل:

ساعة، سنة

أما ظرف المكان فقد يكون مبهماً إذا دل على مكان غير معين

كالجهات الست

وقد يكون من الأضداد مثل (وراء) فهى ترد بمعنى أمام وخلف: مثل
قوله: تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ (الكهف: ٧٩) ونجد ذلك فى تفسير

(١) بنصب الميم.

القشيري في اللطائف عند قوله تعالى: «ومن ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد» يقول الشيخ: (ويقع لفظ وراء على مابين يديه وعلى ماخلفه، فالوراء ماتواري عليك أى استتر. يريد أن هذا الكافر يأتية العذاب فيما بين يديه من الزمان وعلى ماخلفه، أى لأجل ما سلف من الماضى من قبيح أفعاله).

وقد بالغ النحاة في بحث موضوع الظرف في مطولاتهم حتى أفردوا لكل ظرف حديثاً خاصاً. وقد ركز شيخنا هنا على المسائل الأساس التي ليس عليها خلاف.

* * *

ونفضل قبل أن نشرح الإشارات أن نعيد جدولة النص على النحو التالي:

الظروف الطيبة (المرفوعة والمنصوبة):

(أ) العبد في الوقت وفاق الأمر (هو ظرف الزمان).

الحق مقبل عليه بنعت الرضا (هو ظرف المكان).

فالوقت هنا يستحق الضم . والضم أقوى الحركات.

(ب) العبد في الوقت مباح له (وهو ظرف زمانه).

الحق مقبل عليه بنعت الرضا (وهذا ظرف مكانه).

فالوقت هنا منصوب . والنصب علامة الراحة والانفتاح لأن الفتح أخف الحركات.

الظروف الرديئة (المكسورة):

العبد بخلاف الأمر، لأنه ليس بحقوق الله ولكن ب (حظ) نفسه .

فالحق تاركه لنفسه . فظرفه مكسور.

ويتضح من الجدول السابق أن النص يتحدث عن ظروف «الأحوال» من جهة العبد وبالنسبة للمولى في آن واحد، وهذه هي العناصر الأساس في اصطلاح «الوقت» كما تحدثنا عنه في مواضع كثيرة. ويمكن أن يتلخص الموضوع كله في عباراتهم:

«من (١) حالفه الوقت فالوقت له وقت، ومن ناكده الوقت فالوقت عليه مقت» الرسالة «مصطلح الوقت» فمن حالفه فظرفه يستحق الضم، والضم أقوى الحركات، أو يستحق النصب. والنصب علامة الاستراحة.

أما من ليس له شأن في الوقت فقد (ناكده) الظرف وهو التعيس! فالعبرة في الزمن بالأفعال التي تجرى فيه يقول الشيخ في لطائفه: (الليل والنهار ظرفا الفعل، والناس في الأفعال مختلفون.. فموفق ومخذول، فالموفق يجرى وقته في طاعة ربه، والمخذول يجرى وقته في متابعة هواه) (١).

وفي إلحاحه على اغتنام كل فرصة ممكنة للعمل الصالح طوال عمر المرء يقول: (الأيام ثلاثة: يوم مفقود وهو أمس ليس بيدك منه شيء، ويوم مقصود وهو غد لا تدري أتدركه أم لا؟

ويوم مشهود وهو اليوم الذي أنت فيه، فالمفقود لا يرجع، والمقصود ربما لا تبلغه، والمشهود (وقتك) وهو معرض للزوال فاجعله فيما ينفع) (٢).

وعن الاستراحة «سئل سهل بن عبد الله: متى يستريح الفقير؟

فقال: إذا لم ير لنفسه غير الوقت الذي هو فيه» (٣).

(١) بفتح الميم وسكون النون.

(٢) اللطائف مجلد ٢ ص ٢٨٨.

(٣) اللطائف مجلد ٢ ص ١٥٧.

(٤) الرسالة ص ١٣٧.

ذلك هو الظرف المنصوب، وعلامته أن يسمح^(٠) له إن كان في حال القرب أو الأنس أو الوصل.. بشيء (مباح) من البهجة والسعادة في حدود (الوقت) المسموح به، بحيث لا يصل أو يفكر في (الحظ) من محظوظ نفسه، بل يحرص دائماً على (البقاء) بحقوق ربه. وهكذا.. تعود القيادة.. حتى عند لحظات الوجد.. إلى الرب سبحانه كي يصون عبده عن الزلل.. وهذا منتهى سعادتهم.. وحيرتهم!

«يا دليل المتحيرين زدني تحيراً» ويقول ذو النون عن أول درجات العارفين فقال:

«التحير ثم الافتقاد ثم الاتصال ثم التحير» وينشد:

أست^(٠٠) دليل الركب إن هم تحيروا ومنقذ من أشفى على جرف هار

أما الشبلى فيقول:

ومن أين لي أين؟ وإنى كما ترى أعيش بلا قلب وأسعى بلا قصد^(٤)

(٠) بضم الياء وفتح الميم.

(٠٠) بفتح التاء.

(٤) طبقات السلمي ص ٢٥٤.

فصل [٥٠]

الاستثناء

«من أبواب النحو الاستثناء - وهو إخراج بعض ما تناوله اللفظ - بدليل متصل - منه.

نحو: جاء القوم إلا زيداً.. وغير ذلك. فلو لم يعقب (٠) بلفظ الاستثناء لكان اللفظ المتقدم يقضى للمستثنى دخوله فى جملة الأشياء المخبر عنها. والإشارة: أنه قد يجمع الوقت (٠٠) والطريقة قوما لو لم يتعقب ما يميز (٠٠٠) البعض لاشتراك الجميع فى الحال... ولكن جاء الحكم فأخرج البعض من الكل:

إن الأحبة شمروا (٠٠٠٠) وبقينا.

كذلك قال الشيوخ: إن فى كل عصر ووقت يدخل فى هذه الطريقة من لانهاية لهم، ثم يخرج الأكثرون عند حصول الابتلاء والامتحان ويبقى القليل منهم، ولقد قال الشيوخ:

هم الأكثرون - وإن قلوا، ومواضع الأنس (٠٠٠٠) حيث حلوا (٠٠٠٠٠).

وينقسم الاستثناء إلى قسمين:

استثناء الشيء من جنسه - ويقال له الاستثناء المنقطع، واستثناء من غير

جنسه.

(٠) بضم الهاء وتشديد القاف وفتحها.

(٠٠) بضم التاء.

(٠٠٠) بتشديد الهاء وكسرهما.

(٠٠٠٠) بتشديد الميم وفتحها.

(٠٠٠٠٠) بضم الهمزة.

(٠٠٠٠٠٠) بضم اللام وتشديدها.

وفى الإشارة: من كان ضدًا^(٠) غير مجانس فلا بأس بسقوطه، ولا مبالاة بخروجه.

ومن كان محرماً^(٠٠) للقوم . فإن نفي^(٠٠٠) عنهم وأخرج من بين جملتهم.. فالمحنة أصعب والحسرة أشد.

الاستثناء إخراج ما بعد (إلا) أو إحدى أخواتها من عموم الحكم السابق عليها مثل: قدم^(٠٠٠٠) القوم إلا زيداً.

وأدوات الاستثناء هي: إلا وغير وسوى وخلا وعدا وحاشا.

واختلفوا فى عامل النصب فى المستثنى، فمنهم من يرى ذلك نتيجة (إخراج) ما بعد إلا عما سبق عليها.

ومنهم من يرى أن (إلا) تعنى فعلاً تقديره (استثنى) كما أن (يا) فى النداء تعنى فعلاً معناه (أدعو).. وهذا أقرب التفسير إلى الفهم.

والواقع أن الاستثناء الحقيقى هو الذى يكون من الجنس لأنه يفيد التخصيص بعد التعميم مثل: خرج الناس إلا علياً.

أما الاستثناء من غير الجنس فهو أقرب إلى الاستدراك إذ ليس فيه تخصيص.. مثل قولك: جاء المسافرون إلا أمتعته^(٠٠٠٠٠)، فلفظ المسافرين لا يحتاج إلى أداة استثناء لتخرج الأمتعة منه لأن الجنسین مختلفان، وإنما أفادت (إلا) هنا معنى (لكن) ويسمى هذا النوع الاستثناء المنقطع.. وللأسم بعد (إلا) ثلاثة أحوال:

١ - واجب النصب: إذا كان الكلام تأماً مثبتاً مثل:

-
- (٠) بتشديد الدال وفتحها.
 - (٠٠) بضم الميم وكسر الراء.
 - (٠٠٠) بضم النون وكسر الفاء.
 - (٠٠٠٠) بفتح القاف وكسر الدال.
 - (٠٠٠٠٠) بفتح العين والتاء بعدها.

فشربوا منه إلا قليلا منهم.

٢ . جازز النصب أو على البدل: حينما يكون الكلام تأما منفياً مثل.

ما قام من القوم إلا زيداً أو زيد(٠).

٢ . يعرب حسب العوامل إن كان الكلام ناقصاً ويسمى الاستثناء المفرغ مثل:

ما قام إلا زيد(٠٠) فالمعنى: قام زيد.

ما ضربت إلا زيداً فالمعنى: ضربت زيداً.

ما مررت إلا بزيد فالمعنى: مررت بزيد.

لأن استثناء النفي إثبات.

* * *

وإشارة الشيخ تعتمد على أن لكل قاعدة شواذ، ومن العموم يخرج استثناء.. ومن تجربته الواسعة يعلم أمثال المواقف التالية:

● فقد يلتقى المرید إبان عهد بدايته بنماذج من الرفاق يتزينون بزي الصوفية، ويندرجون في مسالك القوم، ويرددون شعاراتهم.. ثم تثبت له الأيام(٠٠٠) أنهم ليسوا على شيء، وأنهم تصدر عنهم أفعال تشكك في خباياهم، وتفضح طواياهم..

فالشيخ يريد أن يقول له: حذار من أن يقول له: حذار من أن تظن أن الجميع على شاكلتهم، لاتكن ظالماً بإطلاق حكم تعميمي.. إن لكل قطع شياحه السوداء، فهؤلاء متشبهون وليسوا أصلاء(٠٠٠٠)، مفرضون وليسوا

(٠) بكسر الدال مع توينها على البدل.

(٠٠) برفع الدال.

(٠٠٠) برفع الميم.

(٠٠٠٠) بضم الهمزة وفتح الصاد.

أنقياء.. لا تتسرع.. فالقاعدة أن في القوم طيبا، والاستثناء أن فيهم خبيثا، ومن الظلم أن تجعل الاستثناء قاعدة.

● هذا الطريق شاق ومضن، والعبرة بالصابر المثابر، وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان.. فسرعان ما يسقط كثير ممن دخل ويبقى القليل.. ولن يبقى إلا الصفوة الصامدون المرابطون..

وكما يلفظ الجسم الإنساني شيئا غريبا عن كيانه سوف يلفظهم الطريق إلى الخارج حتى لو كانوا قد تجاوزوا الأعتاب ودخلوا من الباب.. فلن يتمكنوا أبدا من الوصول إلى البساط أو الصدر.. والأيام كفيلة بذلك، والممارسات الشاقة والصبر عليها ستسقط^(١) الأقنعة عنهم وتفضح حقيقتهم.

فهؤلاء مختلفون «ومن كان ضدا غير مجانس فلا بأس بسقوطه، ولا مبالاة بخروجه».

فليذهبوا بعيدا دون حسرات عليهم!

* * *

هذا.. وقد أجمع معظم كتاب التصوف على الالتفاف الشديد لهذه الظاهرة كأنهم يرون أن أمثال هؤلاء الشواذ الغريباء ذوو خطر شديد على سعة الطائفة بأسرها، فوضعوا المحاذير خشية اندساسهم.

(انظر مثلا السراج في اللمع في باب:

(ذكر من غلط من المترسمين بالتصوف ومن أين يقع الغلط وكيف يواجه ذلك) من ص ٥١٦ إلى ٥٧٧ أي نحو ستين صفحة كاملة في ذات الموضوع.

كما عقد السهروردي في «عوارفه» فصلاً كبيراً عنوانه «ذكر من انتمى إلى الصوفية وليس منهم» ص ٥٦.

(١) بضم التاء وسكون السين وكسر القاف.

أما القشيري فما قامت رسالته إلا لبيان:

١ . تصحيح القواعد والأسانيد .

٢ . (الشيوخ الذين بهم اقتداء) .

٣ . كشف فضائح (المجانين للأئمة) .

فأصبح لدينا (استثناء) مهمته أن يضبط المعايير قبل أن ينفلت الأمر، وكأني بهذه الفصول التي يكتبها الشيوخ في هذا المضمار تركز كلها على مابعد (إلا) في دنيا التصوف لإخراج ما ليس (مجانساً) .

● غير أن الشيخ في فقرته يذكرنا بشيء من واقع تجربته (انظر سيرته) وذلك حينما تأتي قوة غاشمة من خارج البيئة والطريقة ثم تنتقى أحاداً من صفوة القوم، وتطردهم وتنفيهم وتشردهم . كما حدث له شخصياً على أيدي طغرل بك ووزير الكندي... هذا (الاستثناء المنقطع) الفاشم الذي لا مبرر له هو الذي يجعل (المحنة أصعب والحسرة أشد) لأن المخرجين^(١) من القوم هم صفوة المجائس، وهم الأصلاء، وهم مصابيح الهداية.. ولكن ما الحيلة؟ وتلك شيمة دولة الظلم والظلام (في كل وقت وعصر)، وليس لها من دون الله كاشفة!

(١) بضم الميم وسكون الخاء وفتح الراء .

فصل [٥١]

الإلحاق

«من الحروف ما يلحق بغيره، والمقصود منه تمييز ذلك الغير مما سواه: كالواو الملحقة بعمرو في الخط تكون فرقاً بين عمرو وعمر^(١).. وهذا الإلحاق يدوم عند الاستغناء عنه وهو همزة الوصل . فيما ذكرنا من قبل. والإشارة: أن من الناس من^(٢) يلحق بالطريق لأجل الغير ثم يطرح^(٣).. وقد قال الشيوخ: إن الله قبض هؤلاء القوم أحد رجلين إما مؤمناً موافقاً وإما منافقاً مسخراً^(٤).. وأنشدوا:

أيها المدعى سليمى هواها لست منها ولا قلامة ظفر

إنما أنت فى هواها كواو الحقت^(٥) فى الهجاء بعمرو

ملاحظة على المنهج:

هذا التلوين فى فن كتابة الموضوعات (النحوية) مألوف عند بعض النحاة الخ^(٦).. فالموضوع هنا أقرب إلى فن الخط والكتابة والإملاء» تماماً مثل موضوع همزة الوصل . التى ورد بحثها فى باب سبق من هذا الكتاب لأن الأصل فى النحو أنه علم ضبط (آخر) الكلمة. وبهذه المناسبة نذكر بصنيع أبى القاسم عبد الرحمن بن إسحق الزجاجى (ت ٣٤٠) فى كتابه «الجمال» حيث عقد أبواباً للتاريخ ولأسماء القبائل والأحياء والصور^(٧) والبلدان، كما عقد باباً للهجاء، ولأحكام الهمزة فى الخط. ولجأ السيوطى فى همع الهوامع شرح جمع الجوامع، إلى شئ من ذلك التلوين فى الكتابة النحوية.

(١) بضم العين وفتح الميم.

(٢) بفتح الميم.

(٣) بسكون الطاء وفتح الراء.

(٤) بتشديد الخاء وفتحها.

(٥) بضم الهمزة.

(٦) بضم الخاء وتشديد اللام المفتوحة.

(٧) بضم السين المشددة وفتح الواو.

ويرى هؤلاء الأعلام أنها أشياء تزيد ثقافة المتأدب بأدبهم، وتثري معلوماته على كل حال.

ونعود إلى الإلحاق: ومعناه جعل مثال على مثال أزيد ليعامل معاملته^(١) كأن تقول رباعياً جلبب من الثلاثي جلب وهكذا تقول جلبب يجلبب جلببية (كدحرج) في التصريف والاشتقاق، وسنضرب أمثلة أخرى لهذا الباب عند القشيري في ختام هذا الشرح.

وقد لجأت الفطرة العربية إلى ذلك من باب التوسع في اللغة لمواجهة ضرورات الشعر أو للتلميح أو للتهكم.. وغير ذلك من الأغراض التي ليس هنا موضع تفصيلها، وهي ظاهرة توقفت بطبيعة الحال عند عصر الاحتجاج، وليس لنا حق فيها الآن. وإن كان بعض العلماء يعطينا هذا الحق أيضاً لأن الضرورات لا تتوقف. ونحيل القارئ إلى فصل همزة الوصل (٢٨) من هذا الكتاب وكيف تكون سابقة موجودة في الابتداء ثم تفقد في الدرج، وقد ضرب القشيري هنا مثلاً بواو عمرو، فهي تثبت للتمييز بين هذا الاسم وبين عمر، ولكن ظروف الكتابة والإملاء قد تسقطها.

* * *

والإشارة تتطرق للتمييز بين علاقة أصيلة لا يعتورها التردد أو النقص أو الزوال، وبين علاقة زائفة عارضة تتداعى لسبب أو لآخر كما في المتن. وقد استشهد القشيري بنفس الشعر عن «عمرو» في موضع آخر في اللطائف، وكان السياق عن المنافقين في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَاذِبُونَ﴾ (المنافقون: ١) فقال الشيخ «من أظهر من نفسه ما لم يتحقق به افتضح عند أرباب التحقيق في الحال، وقيل: «أيها المدعى سليمى.....»^(٢).

ثم يخص في موضع آخر المنافقين في الطريقة بقوله: «مثل من خلط قصده بحظه، وشاب إرادته بهواه، يتقدم في الإرادة بقدم^(٣) ويتأخر في

(١) بفتح الدال

(٢) الهمع للسيوطي ٣٢/١ وتعريفات الجرجاني ط تونس ص ١٩ (٣) اللطائف ج ١ ص ٧٢.

الخطوط بأخرى.. فهو لا يريد صادق ولا عاقل متثبت، ومن سقمت إرادته حيل بينه وبين مواصلات القرب والمناجاة وسيعلمون عن قريب أن ذلك لن يغنى عنهم شيئاً:

سوف نرى إذا انجلى الغبار أفرس تحتك أم حمار؟

وكذلك كل من حاول أن يجمع بين طريق الإرادة وطريق أهل العادة فإن ذلك لا يلتئم، فالضدان لا يجتمعان. «والمكاتب عبد مابقى عليه درهم» «وإذا ادلهم الليل من ههنا أدبر النهار من ههنا»^(٣).

ويزيد القشيري على واو عمرو وهمزة الوصل أشياء أخرى تتجلى في إشاراته عند بسملة سورة النحل حيث يقول: (أى استحقاق لواو عمرو حتى تثبت في الخط، وأى استحقاق إلى الألف في قولهم قتلوا وفعلوا؟ وأى موجب لحذف الألف في السموات؟ طاحت العلل وليس إلا اتفاق الوضع.. كذلك الإشارة في أرباب الرد والقبول.. قال تعالى: ﴿إِنْ رِئْكَ فَعَالٌ﴾^(٤) لِمَا يُرِيدُ^(٥). (هود: ١٠٧).

ومعنى هذا أن باب الإلحاق يمكن أن ينصرف إلى فكرة في منهجه «أن أحكام الله سبحانه وتعالى لاتعلل^(٦).. وأن قسمته رهن بمشيئته فقط».

(٣) اللطائف ج ١ ص ٧٦.

(٤) اللطائف ج ٢ ص ٢٨٤.

(٥) بفتح الفاء وتشديد العين المفتوحة.

(٦) بضم التاء وفتح العين وتشديد اللام.

المنوع من الصرف

«الأسماء على ضربين: منها ما ينصرف. وهو الاسم المتمكن. ومنها ما لا ينصرف وهو الناقص التمكن، فالذي ينصرف يجرى بوجوه الإعراب، وما لا ينصرف ناقص النصيب من الإعراب.

الإشارة: كذلك الخلق^(١): منهم من^(٢) هو مجدود فى القسمة يحظى بكل النعيم: من إقبال ووصال، وتحقيق آمال، وزكاء أفعال وصفاء أحوال، بالنهار له توفيق، وبالليل لوصله تحقيق. يجرون على البساط كما يريدون «لا يرهق وجوههم»^(٣) قتر ولا ذلة.

ومنهم من هو منحوس الحظ.. إن قبل^(٤) بالنهار أذيق بالليل طعم الرد، وإن وافى بالليل لحكم الاتفاق تجرع^(٥) بالغد كأس الصد.

التنوين (أو الصرف) علامة على تمكن الاسم من الاسمىة فكلمة «مريد» مثلاً يلحقها التنوين عند خلوها من (أل) والإضافة، وإذا سبقه حرف الجر أو أضيف لحقت آخره الكسرة أو ما ينوب عنها، كما تلحقه وهو (أل) والإضافة.. وهذا النوع (متمكن فى الاسمىة) أما الاسم المبنى فغير خاف أنه ملازم لحالة واحدة فى آخره، فيبنى على ما هو عليه، ويقدر له محل الإعراب على نحو ما سبق فى موضعه. ولكن - وهذا هو الذى يعنيننا هنا - هناك أسماء ذات أوزان أو صيغ وصفية خاصة لاتنون على النحو السابق، وهى «تجرية بالفتحة ولا تجرب بالكسرة، إلا إذا لحقتها أل والإضافة (وهذا النوع غير متمكن فى الاسمىة).

(١) بفتح الخاء.

(٢) بفتح الميم.

(٣) بفتح الهاء الأولى وضم الثانية.

(٤) بضم القاف وكسر الباء.

(٥) بتشديد الراء وفتحها.

وقبل أن نبدأ فى بحث أنواع هذه المجموعة نستبعد من التنوين ما يسمى تنوين العوض مثل (جوار وغواش) فإن التنوين هنا عوض عن الياء فى جوارى وغواشى.

* * *

ونبدأ الآن فى تقسيمات ما لا ينصرف على النحو التالى:

١. الاسم الذى لا ينصرف لعلة واحدة: مثل ذكرى وصحراء ومثل وزن مفاعل (منابر ومساجد).

٢. الذى لا ينصرف لعلتين:

(أ) ١. فعلان الذى مؤنثه فعلى^(١): غضبان.

٢. وازن الفعل وهو أفعل فعلاء: أحسن^(٢).

وأفعل فعلى^(٣): أفضل.

٣. المعدول عن لفظ آخر (والعدول هو تحويل اللفظ من هيئة إلى أخرى).

(أ) مثل فعال^(٤) (ثلاث) ومفعل (مثنى)^(٥) فهي معدولة عن ثلاثة ثلاثة، اثنين اثنين.

(ب) مثل لفظ آخر (بهمزة مضمومة وخاء مفتوحة) مررت بنسوة آخر.

لأنها جمع أخرى أنثى آخر (من باب أفعل التفضيل).

إذا أطلق الوصف المنوع من الصرف على التسمية لشخص أو مكان أو... إلخ فإنه يظل على حاله من الامتناع عن الصرف لأن العملية الجديدة تحل محل الوصف القديم... وهذا مبرر للمنع.

(١) بفتح الفاء وسكون العين.

(٢) بفتح الهمزة وسكون الحاء وفتح السين.

(٣) بضم الفاء وسكون العين.

(٤) بضم الفاء وفتح العين.

(٥) بفتح الميم وسكون الناء.

(ب) العملية فى الأحوال التالية:

١. المركب تركيباً مزجياً مثل: ازدشير.
٢. العلم (بالفتح) ذو الزيادتين مثل: حسان.
٣. العلم (بالفتح) المؤنث بالتاء مثل: فاطمة.
- الزائدة على ثلاث مثل: زينب.
- الأعجمى مثل: آشك (اسم بلد).
٤. العلم (بالفتح) الأعجمى إن كانت علميته فى اللغة الأعجمية وزاد على ثلاثة مثل: إبراهيم، إسماعيل، لندن..
٥. العلم (بالفتح) الموازن للفعل مثل: إثم^(١) (موازنة للفعل إجلس).

* * *

وتنبثق إشارة الشيخ من ملاحظته أن الاسم إما (متمكن فى الاسمية) أو (غير متمكن). ومرد ذلك إلى علة واحدة هى أحكام الله سبحانه، وهذه بدورها لاتخضع لعلة. كما قلنا من قبل، ونذكر هنا بما أثبتته الشيخ فى نهاية الفصل السابع من هذا الكتاب بعد جهد جهيد فى بحث الإعراب والبناء حين قال (كذلك الأحكام. أى أحكام الرب سبحانه. مختلفة الأقسام والأقدار، متفاوتة الأدوار).

وهذا هو الفرق بين نحو الظاهر ونحو الباطن.. فالنحاة يصوغون الصيغ ويضعون القاعدة ثم تخرج أشياء وتدخل أشياء من خلال أحاديثهم الطويلة حتى أوشكت مفردات الباب. خذ مثلاً أمس^(٢). أن تشكل باباً مستقلاً. أما العلة هنا فواحدة.. تلك أقسام بإرادة الله، لأنه:

(١) بكسر الهمزة.

(٢) بكسر السين.

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجنى عليه اجتهاده

ويقول في معراجة «الأمر بالمقادير والسوابق لا بأعمال العباد واللواحق» وتستوقفنا هنا عبارته التي يصف بها الإنسان (المتمكن) وكيف أنه (مجدود في القسمة... بالنهار له توفيق وبالليل لوصله تحقيق)، ربما قصد ليل (القبض) ونهار (البسط) ونحو ذلك.

ولكننا لا نود أن نصرفها بالكلية نحو (الأحوال)، بل نريد - حسبما نعرف من مذهب الشيخ، بل من سيرته الشخصية أن نجعل (التوفيق) بالنهار لأعماله التي يتبلغ منها، أي لسعيه في الأرض بحثاً عن رزقه ورزق من لهم به علاقة كأولاده وزوجه. فإذا جاء الليل - موعد الأحباب ومناطق الخلوة والعزلة - (كان لوصله تحقيق). قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ (النبا: ١١) نقول هذا طبقاً لما نعرفه عن اتجاهات الشيخ رضوان الله عنه، فمثلاً عند تفسيره للفعل «وهزى إليك بجذع النخلة...».

يقول ما خلاصته إن فعل الأمر هنا بالسعى على الرزق، لأنها ستكون مرتبطة بعلاقة الولد القادم. أما حين كانت متجردة خالية من العلاقة فكان زكريا عليه السلام كلما دخل عليها المحراب «وجد عندها رزقاً». وإذاً يكون (التمكن) الحقيقي إن جمع العبد بين عمله الذي يحفظ عليه كرامته ويكفيه مذلة السؤال من الخلائق، وبين صحة وسلامة علاقاته بالخالق. فكرامة الإنسان ينبغي أن يكون مصانة عن المسألة.

وفي كل الأحوال ينبغي حفاظاً على (التمكين) أن يشعر العبد أنه في كل أمر من أموره (بالليل أو النهار) مصرف^(١) بيد القدر. وهنا نختم الشرح بقصة عن الإمام الشافعي - ولا ننسى أن القشيري من الشافعية.. (سأله أحدهم: يا إمام.. ماتقول فيمن خلقتي لما اختار، واستعملني فيما

(١) بضم الميم وفتح الصاد وتشديد الراء المفتوحة.

اختاره، وبعد ذلك.. إن شاء أدخلني الجنة وإن شاء أدخلني النار.. أعدل^(٠) هذا أم جار؟ فأجاب الشافعي: يا هذا.. إن كان خلقك لما تريد أنت فقد ظلمك، وإن كان خلقك لما يريد هو فلا يسأل^(٠٠) عما يفعل وهم يسألون^(١).

(٠) بفتح الهمزة والعين والداال واللام.

(٠٠) بضم الياء وسكون السين.

(١) شرح البيهقوري على الجوهرة ط الأزهر سنة ١٢٨٩ هـ ص ١٢٥.

فصل [٥٣]

التصغير

«إذا صغرت^(١) اسما ثلاثيا زدت ياء فيه وضمت أوله فتقول فى تصغير حجر حجير^(٢)».

كذلك إذا أراد الحق تحقير عبد فى الرتبة زاد له شغلا^(٣) يتوهمه ذلك البائس نعمة وفضلا، ورفعته على أشكاله، وهو فى الحقيقة إذلال له ونقصان لحاله.

وعلى هذا النحو تقاس أقسام التصغير.

التصغير فى اللغة التقليل.

وفى الاصطلاح تغيير مخصوص يحدث فى الاسم لأغراض منها: التحقير (كرجيل) وتقليل الكمية (كدرهمات) وتقريب الزمان والمكان (كقبيل المغرب أو دوين الكرسي).

وعلاماته ضم أوله وفتح ثانيه وزيادة ياء ساكنة بعده تسمى ياء ساكنة بعده تسمى ياء التصغير.

وتنطلق الإشارة متجهة نحو الذين يحكمون على الأمور بظواهرها، ويقيسون أفعال الله سبحانه على أفعال البشر، فمن المعروف عندهم أن كل زيادة فى المال أو الجاه أو الصحة أو الولد.. نعمة وأن النقص فى إحداها نقمة.. فيريد الشيخ هنا.. محتكما إلى ظاهرة نحوية.. أن يثبت عكس ذلك. فالاسم ههنا بعد مازيد فى بنيته الأساس، وأضيفت إليه

(١) بتشديد الفين وفتحها.

(٢) بضم الحاء وفتح الجيم وسكون الياء.

(٣) بضم الشين وسكون الفين.

إضافات فقد وزنه^(١)، وأصبح (أصغر) مما كان عليه.. وكان يفترض أن يكبر حجمه وتزداد قيمته ولكن الذى حدث هو العكس.

تماماً مثلما يفعل الله بعبد يرتزق من حرام.. فإنه إذا اشتد غضب الرب عليه بارك له فيه.. وينسى الغافل أن هذه الزيادة من قبيل الإمهال.. وأنه حين يأخذه فلن يفلته.

فالشيخ يريد أن يوجه نظر المريدين إلى أن الدنيا ومتعلقاتها لا تستحق قدراً أو قيمة فإذا كان الله قد وصفها بأن متاعها قليل.. فكم سيملك الطامع المرتضى فى أحضانها من هذا القليل؟ إنها سم^(٢) قاتل.. ومن الخير الحذر من إغرائها.

أرأيت إلى إبراهيم بن أدهم - أول من ترجم له الشيخ فى رسالته من الأكابر - وقد أطلق إمارة بلخ وقنع بأن يعمل حمالاً أو حارساً لبستان.. وكان يطأ طئ رأسه ليضربه صاحب البستان ويقول: اضرب رأساً طالماً عصى الله! فلا (تثقل) كاهلك حتى لا (تقلل راحتك)، فليست العبرة بزيادة المظاهر بل بنقاء الجواهر.

(١) أى وزنه الصرفى لأن صيفته تغيرت.

(٢) بضم السين وتشديد الميم المضمومة المنونة.

فصل [٥٤]

التعجب

«يقال في التعجب: ما أحسن^(٠) زيداً !

وأحسن^(٠٠) بزيد !

وزيد^(٠٠٠) ما أحسنه !

وتنصب الاسم إذا تعجبت من صفته فتقول: ما أحسن زيداً أي: أي شيء حسن^(٠٠٠٠) زيداً.

والإشارة: النصب أضعف الحركات، فإذا دخل التعجب على الاسم خص بالفتح. الذي هو أضعف الحركات.

فكذلك إذا دخل «الإعجاب، على المرء آل إلى أضعف الحالات... فإن الإعجاب أشد^(١) الآفات.

(٠) بفتح الهمزة وسكون الحاء وفتح السين.
(٠٠) بفتح الهمزة وكسر السين وسكون النون.
(٠٠٠) بضم الدال وتوينها.
(٠٠٠٠) بفتح الحاء وتشديد السين المفتوحة.
(١) بتشديد الدال وضمها.

نلجأ إلى أسلوب التعجب حينما نستعظم فعلا ظهرت فيه زيادة أو نقص.. ولا نعرف لذلك سبباً ظاهراً.

ولتعجب صيغ فعلية أوردها الشيخ، وهى التى جرى العرف على استخدامها.

ونعرض الآن تحليلاً لمكوناتها:

أجمعوا على أن (ما) فى هذا الأسلوب مبتدأ لأن فى (أحسن) ضمير يعود عليها. والابتداء والإخبار هنا يكونان أسلوباً إنشائياً عند البلاغيين لأنه مصاغ أو منشأ (.) للتعجب.

ومن النحاة من يرى (ما) نكرة تامة بمعنى (شئ) وهذا التكرير أفادها الإبهام، والشئ المبهم يحتمل بنفسها فلا تحتاج لصفة أو صلة. والجملة التى بعدها خبر لها.. قد ذهب الشيخ هذا المذهب.

بينما يرى فريق آخر أنها (ما) الاستفهامية والجملة التى بعدها خبر عنها ويكون التقدير: أى شئ أحسن زيدا؟

أما (أفعل) التعجب فالصحيح اعتباره فعلاً بدليل أن نون الوقاية تلحقه إذا أسند إلى ياء المتكلم كقولك: ما أغنانى عن الناس!

ما أفقرنى إلى رحمة ربى!

وأما (أفعل)(٠٠) فلفظه لفظ الأمر ولكنه من حيث المعنى.

بمعنى أحسن بالصدق أى صار الصدق ذا حسن(٠٠٠) كقولك أعشب السهل أى صار ذا عشب ثم غيرت الصيغة إلى الأمر به عند (إنشاء) التعجب.

* * *

(٠) بضم الميم.

(٠٠) بفتح الهمزة وسكون الفاء وكسر العين وسكون اللام.

(٠٠٠) بضم الحاء وسكون السين.

وتنطلق الإشارة هنا من الربط بين عنوان الفصل (التمجب) وبين (الإعجاب) أى النظر إلى النفس، وادعاء أن شيئاً منها يستحق أن (يتعجب) من قيمته أو من جدواه، ولهذا استحق الاسم المتعجب منه (النصب). ونحن نعلم أن (النصب أضعف الحركات). وفى لفظة (الحركات) هنا تورية، فالمعنى القريب هو الضبط الإعرابى، والمعنى البعيد هو مانعرفه فى أسلوب الشيخ من أنه يطلقها على العبادات الشكلية التى يمارسها صاحبها دون تعمق فيها، أو للزهو بها، أو دون إدراك للمقاصد البعيدة منها . وهى بهذا الوصف لاقيمة لها، بل طالما حذر الشيوخ منها. فالواسطى . وهو أبو بكر محمد بن موسى عالم كبير الشأن . خرسانى من فرغانه ت ٣٢٠هـ يسأل أصحاب مذهب الملامة بماذا كان يأمركم شيخكم؟ فقالوا: بالتزام الطاعات ورؤية التقصير فيها .

فقال: أمركم بالمجوسية المحضة.. هلا أمركم بالغيبة عنها برؤية منشيها(٠) ومجريها(٠٠)؟

ويعلق القشيري على كلام الواسطى بأنه أراد أن «يصونهم عن محل (الإعجاب) لا تعريجاً فى أوطان التقصير أو تجويزاً للإخلال بأدب من الآداب».

أى أن المقصود عدم الزهو برؤية أنفسهم وهم يطيعون، وكأنما يأتى منهم شيء.. والخير فى إعادة فضل(٠) لله حتى ما تقوم به أنت.. فمعنى أن تكون فىك بقية من نفسك تشاهدك وأنت تتعبد أن شريكاً لله فى الحساب.. وهذه مجوسية فى عرف الواسطى !

ونحيل القارئ على الفصل ١٦ من هذا الكتاب حيث كان لنا حديث طويل عن «الإعجاب».

(٠) بضم الميم.

(٠٠) بكسر اللام المنونة.

ولكننا نود هنا أن ننصح بضرورة الاستفادة من سلوك هؤلاء الصفوة لتحسين نظرتنا الاجتماعية.. فلو استفدنا من هذا النفاذ إلى الجواهر، واحتذينا في إدراكنا لشرائط الإتقان للعمل، وأقبل كل^(٠) منا على حرفته أو مهنته واع^(٠٠)، وبابتغاء مرضاة الله وحده وبمراعاة إرضاء الضمير.. لو فعلنا ذلك لتغيير وجه حياتنا المتهمة !

وهل نجادل بعد ذلك في أن الصوفية ريادة في فهم النفس والأخلاق وتربية الضمير؟

(٠) بضم اللام المشددة المنونة.

(٠٠) بكسر العين المنونة.

فصل [٥٥]

الحال

■ «الحال منصوب . تقول جاء زيد قائماً . فقائماً نصب على الحال، واستحق النصب لأنه مفعول . والحال تأتي بعد تمام الكلام، فلما أتى بعد تمام الكلام صار كالمستغنى^(٠) عنه فنصب^(٠٠) .

الإشارة: المستغنى عنه له أضعف الحركات، وأقل نصيب من الاستحقاق.

ولهذا قيل: علامة المخلوق أوصاف النقص لأن المخلوق مستغنى^(٠٠٠) عنه قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ (محمد: ٣٨).
وأنشدوا:

وبعين مفتقر^(٠٠٠٠) إليك نظرتي وحقرتني ورميت بي من حالق

■ والحال لا يكون إلا نكرة:

ولذلك فإن صاحب الحال من القوم يجب ألا ينظر^(١) إلى حاله، لأنه إذا عرف حاله لاحظها، وإذا لاحظها أعجب بها، فإذا أعجب بها تلاشت.. وكان الأستاذ أبو علي الدقاق يقول:

«أخص الأحوال ما استترت عن صاحبها».

(٠) بفتح النون.

(٠٠) بضم النون وكسر الصاد.

(٠٠٠) بتوین النون.

(٠٠٠٠) بتوین الراء وكسرهما.

(١) بفتح الياء ونصب الراء.

تعريف الحال: اسم منصوب يبين هيئة حصول الفعل وعلامته أن يصلح جواباً للسؤال .. كيف؟

ويأتى من الفاعل جاء زيد راكباً .

ويأتى من المفعول به ركبت الفرس مسرجاً^(١) .

ومن المجرور مررت بالدار خاوية^(٢) .

ويسميه سيبويه نعت الفعل .

لماذا نصب الحال؟ فى رأى الشيخ . وعند جمهور النحاة . لأنه فضلة . كالمفعول . أتى بعد تمام الكلام، فأصبح (كالمستغنى^(٣) عنه) فاستحق أضعف الحركات .

شروطه: من شروطه أن يكون (نكرة) . كما ذكر الشيخ، لأن صاحبه يشترط أن يكون معرفة، ولو عرفت^(٤) الحال لاشتبه الأمر بينها وبين الصفة المنصوبة بعد المعرفة، ولهذا إذا قلت مثلاً:

اقرأ وحدك (فهى تؤول على: منفرداً) .

ولهذا أيضاً تعرب الجمل وأشباه الجمل بعد المعارف أحوال بينما تعرب صفات بعد النكرات .

ويلاحظ صاحباً «تهذيب التوضيح» (المراغى وسالم) أن الحال فى الأغلب متقلة بمعنى، أنها لاتقع وصفاً ثابتاً إلا فى أحوال نادرة مثل: خالد أبوك رحيماً . فإن الأبوة من شأنها الرحمة .

(١) بضم الميم وسكون السين وفتح الراء .

(٢) التاء المربوطة بالفتح المنون .

(٣) بفتح النون .

(٤) بفتح العين وتشديد الراء المفتوحة .

وتدور إشارات الشيخ حول ثلاثة محاور تسيير على هذا النسق:-

«أولاً» العبد يقوم (بفعل) من أفعال الطاعات.. هذا شيء حسن ومطلوب، ثم يرزقه الله (حالا) كالأنس مثلاً فيلاحظ العبد نفسه في هذه (الحال) أى يعرفها والأصل أن يكون (نكرة) فينسبها إلى نفسه، أو يظن أنها بفضل عمله، أى أنها (مفعولة) وليست من لدن الله الغنى الحميد.. وعلى الفور تزول هذه الحال، لأنها لم توضع موضعها الصحيح، وهذا شيء طبيعي فالمتعلق بالفانى يفنى ويزول، أما المتعلق بالباقى فله البقاء إلى أن يريد المولى سبحانه.. والأصل أن الفقير يستشعر (الافتقار) وهذا درس دقيق جداً لأرباب (الأحوال): ليعلم كل (.) أحد أن الحال مرتبهة (بصاحبها)، فالنهاية بحسب البداية.

«ثانياً» أن (الحال) عموماً (فضلة) تأتى مكملة لفعل إنسانى، وهى قابلة للزوال، ولكن هناك فرق بين زوال نهائى إذا كان صاحب الحال على غير المراد، وبين زوال وقتى (لتحل) محلها (حال) أرقى إذا كان صاحبها على المراد، وملتزم بآداب الوقت كما أوضحنا أكثر من مرة..

وفى زوال الأحوال يقولون:

لو لم تحل ما سميت حالا فكل ما حال فقد زالا

«ثالثاً» إذا عرف صاحب الحال القضية بهذا الوصف فعليه . وهو مطالب بكتمان (الحال حتى عن نفسه) ألا يفضحها لتصبح نهياً لكلام الناس . وبخاصة لعواذل هذه الطريقة. والله سبحانه وتعالى يلطف بعبد الصادق فى توجهه فيحفظه، وهو يصبر على ذلك الكتمان، ويغالب صراع الحب، وينشد الشيوخ:

(.) بضم اللام المشددة.

صبرت ولم أطلع^(١) هواك على صبرى وأخفيت ما بى منك عن موضع الصبر
مخافة أن يشكو ضميرى صبابتى إلى دمعتى سرّاً فتجربى ولا أدرى
«ولو أطلع زرى على سرى لخلعته».

أما غير ذلك.. فتتضح من هذا الشعر عواقبه:

من لم يصن سر مولاه وسيده	لم يامنوه على الأسرار ما عاشا
وعاقبوه على ما كان من زلل	وأبدلوه مكان الأنس إيحاشا
وجانبوه فلم يصلح لقريهمو	لما راوه على الأسرار نباشا

(١) بضم الهمزة وسكون الطاء.

فصل (٥٦):

التمييز^(١)

(١) تمييز غير العدد:

«التمييز يوجب النصب تقول: عشرون درهماً تشبيهاً بالمفعول حيث أتى بعد تمام الكلام.

والإشارة أن المفعول . لنقصانه عن الفاعل . خص^(٢) بالنصب لضعف المفعول وضعف الفتحة.

(١) يقرأ هذا الفصل وما تلاه قراءة متصلة لما بينهما من تكامل.

(٢) بضم الخاء وتشديد الصاد.

التمييز - كما يقول ابن هشام في «القطر» - اسم فضلة، نكرة، جامد، منصوب مفسر لما انبهم من الذوات.

ويسمى: مفسراً^(٠) وتفسيراً ومبيناً وتبييناً، ومميزاً وتمييزاً.

والشيخ يقترب من كل هذه المعاني ويركز على كونه (فضلة) وأنه مكمل (كالمفعول) وأنه (منصوب) مثله، والنصب استحقاق الضعف لنقص ما يشبه المفعول (عن الفاعل).

والتمييز نوعان:

١. ملفوظ وهو للدلالة على ما انبهم من:

(أ) العدد : أحد عشر كوكبا.

(ب) الوزن: قنطأراً قطناً.

(ج) الكيل: جراماً فضة.

(د) المساحة: فدائاً قطناً.

(هـ) المقدار: ملء الإناء عسلاً.

٢. ملحوظ وهو للدلالة على النسبة مثل اشتعل الرأس شيباً فالأصل اشتعل شيب الرأس.

ويجوز جر التمييز بمن أو الإضافة وعند ذلك يفقد النصب كقولك: جرام من فضة.

وقد سبق في أبواب مختلفة ذكر العلاقة بين المنصوب والفضلة، والشبه بالمفعولية والضعف في القوة الفاعلية.. واستحقاق أضعف الحركات.. إلخ.

(٠) بكسر السين المشددة.

ونرى أن أهم قضية في باب التمييز هي التي سيثيرها الشيخ في الفصل التالي عند كلامه عن تمييز العدد ولها حديث طويل، ومع ذلك سنعود إلى هذه الموضوعات في الفصل القادم حتى يتكامل الإطار بعد إضافة تمييز العدد.

بين العدد والمعدود

(ب) تمييز العدد:

«الهاء تلحق بعدد المذكر فيما دون العشرة، وتحذف من عدد المؤنث تقول: ثلاثة رجال وخمس نسوة، وتضيف العدد هاهنا إلى المعدود. واعتبر هذا نوعاً من المعادلة، فلما كان المؤنث أثقل من المذكر حذفت العلامة من لفظ عدده، ولما كان المذكر أخف من المؤنث زيدت الهاء في لفظ عدده، فقالوا: ثلاثة رجال. والإنصاف في كل شيء عزيز، فإن كان في أحد ضعف يجب أن يقوى^(١) بغيره، وإن كان في شيء قوة^(٢) حمل^(٣) ما يحتمله.. ولهذا أمر^(٤) في الشريعة بمواساة الفقراء.

وقد يفسر العدد بالمعدود نحو قولهم: أحد عشر رجلاً، والتفسير يأتي بعد تمام الكلام فأشبهه ما ذكرناه عن المفعول.

(١) بتشديد الواو وفتحها.

(٢) بتووين التاء المرفوعة.

(٣) بضم الحاء وتشديد الميم المكسورة.

(٤) بضم الهمزة وكسر الميم وفتح الراء.

● تشبيه التمييز بالمفعول به واستحقاقه النصب وكونه فضلة.. علامات ضعف فى كيان (التمييز) عند هذه الطائفة، فالأصل أن يكون الفرد . مظهرًا وجوهراً . بعيداً عن إقحام الخلائق فى حياته الروحية الخاصة كأنما ليس عنده لهم حساب.. اللهم فى حسن الخلق وطيب العشرة.. فهو منهم على خير. أما إذا أراد أن (يتميز) بميزة تكون (علامة) له أو عليه كالخرقة^(١) أو ثوب الصوف حتى يبدو درويشاً فقيراً مفتقراً دون أن يكون وصوله فى الطريقة مأمون العواقب، غير محاط بالصعاب.. فاللجوء إلى التمييز هنا (هو الضعف) بعينه.

ومن قبل ذلك.. لماذا يحفل بعض الناس (بالتميز) عن الآخرين سواء بالثوب أو المظهر أو طريقة الكلام أو الاستعلاء فى المعاملة أو الرياء.. ونحو ذلك . والخلق كله لله، والله سبحانه لا ينظر إلى أى تمييز بيننا إلا بالعمل الطيب: فنحن سواسية كأسنان المشط، ولا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى.. وإذا (فالتميز والتمييز) أصلاً أشياء مرفوضة فى الدين لو سارت على هذا النحو المريب.. فما بالك فى الطريقة؟

● طرق الشيخ موضوعاً مهماً هو هذه (المعادلة) التى بين العدد والعدود، واستنبط منها إشارات تتصل (بالإنصاف.. والإنصاف عزيز) ونحن نتوقف هنا قليلاً لنبدى الرأى فى أن ذلك ملحوظ فى الاتجاهات التفسيرية عند بعض النحاة لمواقف شتى.

فمثلاً: يقول ابن مالك فى قضية (العدد والمعدود) من الثلاثة إلى العشرة التى طرحها الشيخ هنا «وإنما حذفت التاء من عدد المؤنث وأثبتت فى عدد المذكر فى هذا القسم لأن الثلاثة وأخواتها أسماء جماعات كزمرة وأمة وفرقة، فالأصل أن تكون بالتاء لتوافق نظائرها، فاستصحب الأصل المذكر لتقدم رتبته».

(١) بكسر الخاء وسكون الراء.

● ومن أمثلة المعادلة يجوز أن نضرب مثلاً بالفاعل الذى هو (أرفع) قيمة فى الجملة لفاعليته فأخذ أثقل الحركات، على حين نجد أن المفعول به الذى هو فضلة، وأتى بعد تمام الفائدة.. إلخ قد أخذ (النصب) وقد مر بنا ذلك بتفصيل.

● ومن أمثلة المعادلة فى مسائل النحو أيضاً ما يذكره النحاة عن كسرة النون فى المثنى وفتحها فى جمع المذكر السالم: أن المثنى خفيف والكسر ثقيل، فلا مانع من اجتماع الثقيل مع الخفيف لإحداث التعادل. أما جمع المذكر السالم فهو ثقيل والنون مفتوحة خفيفة فيحدث التعادل.

والإشارة تنصرف أولاً إلى ما ينبغى أن يكون من تكافل فى البيئة الاجتماعية العامة للمسلمين، كما حدث بين المهاجرين والانصار فى بداية الإسلام، فالقوى من واجبه مساندة الضعيف، والضعيف له حق على القوى. لأجل هذا جاءت الزكاة والصدقات وما إلى ذلك من صور التكافل والتعاون التى يريدها الإسلام لمجتمع صحى يخلو من الحقد والجريمة.

أما على المستوى الخاص فهى موجهة أولاً إلى الشيوخ الذين ينبغى عليهم بما لهم من قوة فى العلم وفى الأحوال أن يمنحوا مريديهم كل عون مناسب فى الوقت المناسب. وللقشيري فى ذلك دستور سجل^(١) معظم مواده فى نهاية «الرسالة» وغيرها من مصنفاته: «الشيوخ فى محل السفراء، والشيخ فى قومه ينبغى أن يكون كالنبي فى أمته».

«والأب يربى الابن بنعمته والشيخ يربى murid بهمته».

«الآباء للأشباح والشيوخ للأرواح».

«المريد ربيب همة شيخه، فالأقوياء من الأغنياء ينفقون على خدمتهم من نعمهم، والأصفياء من الأولياء ينفقون على مريديهم من هممهم،

(١) بفتح السين وتشديد الجيم المفتوحة.

يجبرون كسرهم، ويساعدونهم بحسن إرشادهم، ومن أهمل مريدًا وهو يعرف صدقه فقد باء من الله بسخط^(١).

إذا رجع المريد إلى شيخه بالصدق وجب على شيخه جبران تقصيره بهمته، فإن المريدين عيال على الشيوخ، فرض عليهم أن ينفقوا عليهم من قوة أحوالهم بما يكون جبراً لتقصيرهم^(٢).

أما بين الأصحاب فتمتلى أبواب «الصحبة» و«الفتوة» بنماذج هائلة لهذه (المعادلة) و (الإنصاف) بحيث يتحصل لدينا نمط في العلاقات الاجتماعية ندر أن نجد له نظيراً، وأتخيل أنه لو انتقل عشر معشار هذه القواعد إلى المجتمع العام، وعمل الناس به لانتظم حال الناس واعتدل ميزان الحياة.

ونختم هذه القضايا بطرح هذين التساؤلين اللذين يردان^(٣) على بعض الخواطر:

١. ما موقف الخواص بالنسبة لأملأهم ؟

٢. ما موقف المتصوفة من العون الذى يأتيهم من خارج ؟

ونترك شيخنا يجيب عنهما:

وهو يميز بين الأمرين: (الخواص لا يرون لأنفسهم ملكاً ينفردون به، لا من الأملاك المنقولة ولا من المساكن التى تصلح لأن تكون مدخولة، ومن فاتحهم بشيء منها فلا يكون منع ولا زجر، ولا حجب لأحد ولا حظر.. هذا فيما نيط بهم. أما فيما بغيرهم فلا يتعرضون لمن هى فى أيديهم لا باستشراف طمع ولا بطريق سؤال، ولا على وجه انبساط. فإن كان حكم

(١) اللطائف ج ٢ ص ٦٠٩.

(٢) الإمام القشبرى وآثاره تأليف بسيونى ص ٢٠٥.

(٣) بفتح الياء وكسر الراء.

الوقت يقتضى شيئاً من ذلك فالحق يلجئ من فى يده الشئ ليحمله إليه
بحكم التواضع والتقرب، والولى يأخذ ذلك بنعت التعزز^(٣).

ويعلل الكلاباذى لرفضهم العون الخارجى فى ظروف معينة (لأن الذى
فى يد الأغنياء ليس كله طيب.. والله سبحانه لا يقبل إلا طيباً.

ولأن هؤلاء مرادون بالبلاء منعهم الحق سبحانه عن العوز^(١) إلى
الأغنياء ليتم^(٢) مراده فيهم^(٤).

(٣) اللطائف ج ٢ ص ٦٠٥.

(٤) التعرف للكلاباذى ص ١١٥.

(١) بفتح العين وفتح الواو.

(٢) بضم الهاء وكسر التاء وتشديد الميم المفتوحة.

فصل (٥٨):

الاسم الموصول

«من الأسماء ما هو اسم موصول لا تتم الفائدة إلا بصلته نحو: ما ومن^(١) والذي وأى.

والإشارة: كذلك من الناس من لا يستقل بتدبيره، ولا يكون له بد^(٢) من غيره.

ثم إن أراد به الله خيراً سد^(٣) عليه طريق المخلوقين، وفتح عليه طريق شهود الحق. سبحانه.

وان أراد به سوءاً فالحال بالضد^(٤).

(١) بفتح الميم .

(٢) بضم الباء وتشديد الدال مع التوين .

(٣) بفتح السين وتشديد الدال.

(٤) بتشديد الضاد مع الكسر .

من أسماء الموصول: الذى واللذان واللذين واللتين ومنها ما هو مختص
كما سبق ومنها ما هو مشترك: وهى التى تستعمل للفرد والمثنى والجمع
بنوعيهما وهى:

من . ما . أل (الداخلية على اسم الفاعل أو اسم المفعول أو الصفة
المشبهة: جاء القائد = الذى قاد، والبحر المسجور أى الذى سجر، وحضرت
الكريمة أى التى كرمت)^(٠).

وكذلك ذو: سافر ذو كافئى (أى الذى) وأى: يعجبنى أى^(٠٠) مهذب
(فاعل مرفوع غير مضافة وصدر الصلة محذوف): أحترم أيا هو مهذب
(مفعول به . غير مضافة وصدر صلتها مذكور) وتبنى على الضم إلا إذا
أضيفت وحذف صدر صلتها مثل (الفوز لأيكـم)^(٠٠٠) مخلص. و(تفتقر
الموصلات كلها إلى جملة صلة) تتأخر عنها ولا يجوز أن نتقدمها، وجملة
الصلة مشتملة على ضمير رابط مطابق للفظ الموصول وليس لها محل من
الإعراب وشروطها أن تكون خبرية فلا تكون أمراً أو نهياً وتعجباً.

* * *

شد^(٠٠٠٠) لقب (الموصول) واحتياجه إلى (صلة) انتباه الشيخ.. إنه
يقدر^(١) احتياج المرء . سواء كان فرداً عادياً أو سالكاً لطريق الصوفية . إلى
(صلة) تربطه بمن يساعده فى (تديره).

ولكن هذه الحتمية تفرض عليه أن يلتمس العون والمدد من (الخالق) لا
من (المخلوقين)، لأن المخلوقين أنفسهم يرفعون حوائجهم إلى (الحق)

(٠) بفتح الكاف وضم الراء.

(٠٠) بتشديد الياء المضمومة مع تنوينها.

(٠٠٠) بضم الياء المشددة.

(٠٠٠٠) بفتح الشين وتشديد الدال.

(١) بضم الياء وكسر الدال المشددة.

سبحانه فهو وحده (صاحب التدبير)، ولهذا (من أراد الله به خيراً سد عليه طريق المخلوقين وفتح عليه طريق شهود الحق سبحانه) فهذا هو الأصل.

وبهذا يكون الشيخ قد أنار الطريق إلى فهم حقيقة (التوكل)، ومدى (الصلة) (بالخلق وبالحق ونفهم (اسم الموصول) الواجب الاتصال به. فالقضية أكبر من نطاق التصوف، إنها تعود إلى الفهم الإسلامى الأصيل للتوكل، الذى كثيراً ما يساء إليه.

فالأصل أن الإسلام ليس دين تقلص وانكماش، وإنما هو دين السعى والارتزاق والكدح فى مناكب الأرض بحثاً عن الرزق الحلال، فمن خلال ذلك تتضح معادن الناس. ولم يكن الرسول ﷺ استثناء من هذه القاعدة، فقد عمل تاجراً وراعياً وكان يقول: لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره له من أن يتكفف الناس ترده اللقمة واللقمتان».

ويقول: «أحل ما يأكل المؤمن من كسب يده».

كذلك لم يجيء التصوف ليتنكر بما فيه من زهد ورضاً وصبر لهذه القاعدة، وقد قلنا من قبل إن أجلة الشيوخ كانوا من أصحاب الحرف^(٠) البسيطة التى أغتتم عن المسألة، وهيات لهم التفرغ لطريق الله.

فإذا حول^(٠٠) بعض المفرضين التوكل إلى تواكل.. فهذه حالة مرضية^(٠٠٠) تدل على سقم التدين عند صاحبها.

الشيخ هنا لا ينكر حتمية (الصلة) بالناس، فهذا شيء (ليس منه بد) لأن الإنسان لا يعيش وحيداً فى الأرض بل ضمن مجتمع من البشر.. لكنه

(٠) بكسر الحاء وفتح الراء .

(٠٠) بتشديد الواو مع فتحها .

(٠٠٠) بفتح المهم والراء .

يريد ألا تصل (الصلة) بأحد على نحو ينسى الله فيه، ويوصم هذه الشبهة من يرتضى في أحضان الحكام والأغنياء وأصحاب الجاه والنفوذ، كما يوصم بها من يكسر الشص ويمتنع عن الذهاب إلى البحر (اتكالا) على الرزاق. كلاهما أخو سوء.. كلاهما على باطل.. كلاهما مضاد للروح الإسلامية.

ذلكم هو مقصد الشيخ . فى رأينا . من هذا الباب كله، ونترك للنصوص الآن أن تبرز الصورة على نحو أفضل.

فكما ينقسم الموصول إلى مبنى ومعرب، وكما تتوقف الصلة بحسب وجهتها تختلف مقادير السالكين بحسب نواياهم وتصرفاتهم وغاياتهم. يقول القشيري فى لطائفه «إذا وضع العبد قصده فى حوائجه عند المخلوقين، وعلق قلبه على الاستعانة وطلب المأمول عليهم فقد وضع الشئ فى غير موضعه.. بل هو ظلم. وعقوبة هذا الظلم خراب القلب، وهو (انسداد) طريق رجوع ذلك القلب إلى الله»^(٢).

ويقول إبراهيم بن أدهم مناجياً ربه:

مدحى لغيرك لهب نار خضتها فأجر عبيدك من دخول النار
والنار عندي كالسؤال فهل ترى ألا تكلفنى دخول النار
ويقول الخواص (ت ٢٩١):

إذا ما مددت الكف التمس الفنى إلى غير من قال اسألونى.. فشلت
سأصبر نفسى إن فى الصبر عزة وأرضى بدنيائى .. وإن هى قلت
ويقول ابن السماك محدداً قضية كثيراً ما تثار:

(٢) اللطائف ٢٦٧.

«الأصل في السؤال أن يكون لمن أمرك أن تسأله لا (من) يفر منك إذا سألته»^(٢).

ويقول سفيان الثوري:

إن كنت ترجو الله فاقنع به فعنده الفضل الكثير البشير

(من ذا الذي) تلزمه فاقة وذخره الله العلى الكبير^(٤)

ويقول أبو الأسود (أحد التابعين):

وإذا طلبت من الحوائج حاجة فادع الإله وأحسن الأعمال

إن العباد وشأنهم وأمورهم بيد الإله يقلب الأحوال^(٥)

ومن طريف ما نذكره في هذا الخصوص الإشارة التي لجأ إليها
القشيري في توجيه (اسم الموصول) في الآية الكريمة:

«يأيها النبي حسبك الله ومن أتبعك من المؤمنين»^(٦).

فيقول:

«أحسن التأويلات في هذه الآية أن تكون (من) في محل نصب أي:
ومن اتبعك من المؤمنين يكفيكم الله».

ومن التأويلات أن تكون (من) في محل الرفع أي حسبك من اتبعك من
المؤمنين. وقد علم أن استقلال الرسول ﷺ كان بالله لا بمن سوى الله.
وكل من هو سوى الله فمحتاج إلى نصره الله. كما أن الرسول هو نفسه
محتاج إلى نصره الله»^(٦).

(٢) حلية الأولياء ج ٨ ص ٢١٠.

(٤) حلية الأولياء ج ٦ ص ٢٧٢.

(٥) الأغاني ج ١ ص ١٠٢.

(٦) الأنفال ٦٤ وانظر اللطائف ٢/٢٢٢ ط أولى.

(٦) لطائف الإشارات ج ١ ص ٦٢٧.

أما في الأحوال التي قلنا إنها من لدن الحق فينبغي أن يفقه العارف صاحب الأحوال أنها مردها جميعاً إلى الله وأنها (موصلة) بمشيئته، فإذا زخرفت له نفسه أن منه هو شيء فقد أساء فهم (الصلة) وجزاؤه (سد) (١) باب الألفاف و (الرد) عن البساط.

(١) بفتح السين وتشديد الدال مع ضمها.

فصل (٥٩):

النسب

«إذا نسبت اسماً إلى اسم زدت في آخره ياء مشددة، وأقرأ (٠) الأول بحالته فتقول في النسب إلى جعفر جعفرى، وإلى عمر عمرى. وكذلك حروفه وأقسامه.

والمنسوب يختص بالمنسوب إليه، وقيمة كل منسوب ما ينسب إليه. وقيمة كل منسوب ما ينسب إليه. وإنما ينسب الشيء إلى الشيء إذا كان بينهما اختصاص.

والإشارة: يجب أن يطالع كل (١). إلى ماذا ينسب (٠)؟ إذا كان رجلاً ينسب إلى الدنيا يقال له دنياوى فقيمه الدنيا.

وان كان الغالب عليه حديث الآخرة نسب إلى الآخرة فقيمه الآخرة. كذلك جميع ما هو الغالب عليه.

فليُنظر (٠٠٠) كل غالبه يعرف (٠٠٠) قدره (٠٠٠٠).

(٠) يضم الهمزة وكسر القاف وتشديد الراء.

(١) يضم اللام وتشديدها وتوينها.

(٠٠) يضم الهاء.

(٠٠٠) بسكون الراء.

(٠٠٠٠) بسكون الفاء.

(٠٠٠٠٠) بسكون الدال وفتح الراء.

النسب، أو الإضافة المعكوسة . كما يسميه صاحبها تهذيب التوضيح .
أن تجعل المنسوب من آل المنسوب إليه، أو من أهل تلك البلد أو القبيلة:
كهاشمى ومراغى وهذلى
أى من آل هاشم ومراغة وهذيل .

وهذه الياء الصغيرة فى حجمها ذات خطر كبير لأنها أشبه بصك
الانتساب، ومعناها : احتمال (كل) أوصاف المنسوب إليه بحسناتها وسيئاتها
. وإن كان الشيخ يستعمل (الفالب) بدلا من (كل)، ووصفه أقرب إلى
الواقع .. كما سنرى .

ويعامل بعض النحاة المنسوب على أنه اسم مفعول على حين يذهب
آخرون إلى أنه كالصفة المشبهة . فالياء فى الحالة الأولى نائب فاعل وفى
الثانية فاعل .

ويكتفى الشيخ هنا بحالة النسب التى لا يصاحبها تغيير فى بنية
المنسوب إليه عند إضافة الياء أى ذلك النوع الذى (أقر الأول بحاله) .
ولكننا سنلاحظ أنه قد تنشأ بعض التغييرات عند الانتساب^(٢) على
النحو التالى : .

١. حذف تاء التانيث مثل القاهرة ومكة، قاهرى ومكى .
٢. وتقول فى ملهى ملهوى . وفى عصا عصوى .
٣. ويجب قلب الكسرة فتحة فى فعل مثل إبل (٠) إبلى (٠٠) .
٤. تحذف علامات التثنية وجمع المذكر وجمع المؤنث .. وتنسب إلى

(٢) انظر هذه التغييرات عند النسب عما قبله بما سيذكره فى الإشارة من (التزامات ثقبلة) تفرض
نفسها على العبد عند انتسابه للطريقة أو للشيخ .
(٠) بكسر الباء .
(٠٠) بفتح الباء واللام .

المفرد طالما لم تطلق الألفاظ على أعلام فتقول في عابدين عابدى وفي تمرات تمرى (بالإسكان).

أما إذا كانت أعلاما فتسبب إليها كما هي مثل: سلمان سلمانى.

٥ . تقول فى طيب طيبى.

وفى حنيفة حنفى (بحذف التاء ثم الياء ثم قلب الكسرة فتحة)

وفى صحيفة صحفى (بحذف التاء ثم الياء ثم قلب الكسرة فتحة)

حتى لا تتوالى كسرتان وياء النسب

٦. وتقول فى غنى وعلى: غنوى وعلوى.

٧. همزة الممدود حكمها فى النسب:

(أ) إن كانت للتأنيث قلبت واوًا كصحراوى وسوداوى.

(ب) إن كانت أصلا سلمت كقراء (.) وقرائى.

٨ . وتسبب إلى الصدر فى حضرموت فتقول: حضرى.

* * *

حول المنهج:

فى مواضع شتى من مصنفاته يطلق الشيخ على (الإضافة) لفظ (النسبة)، فهو مثلا فى كتابه «التحبير فى التذكير» وعند معالجته لأوصاف الفعل يتحدث عنها (بالإضافة) إلى الحق أو إلى الخلق ويقصد بالنسبة إلى أى منهما.

وقد وجدنا بعض النحاة يتجهون إلى هذا الإطلاق (انظر التوضيح وتهذيب التوضيح. ونجد ابن الأنبارى فى أسرار العربية يقول:

(.) بضم القاف وتشديد الراء مع فتحها.

«النسب فى معنى الإضافة» وأما سيبويه فيقول صراحة:

«هذا باب الإضافة وهو باب النسبة» الكتاب ٢ / ٦٩ .

والنسبة عند الشيخ بحسب (الغالب) من الصفات المشتركة بين الطرفين المنسوب والمنسوب إليه، بينما نجدها فى تعريفات النحاة (كل) الصفات.. ومذهب الشيخ أكثر دقة من ناحية الواقع.

والإشارة:

تنطلق من حيث يعرف الشيخ أن لفظة (الانتساب) تتردد كثيراً جداً فى بيئة المتصوفة، فهى تستخدم فى الدلالة على العلاقة بشيخ أو بطريقة أو سند، أو الاتجاه نحو الدنيا والآخرة، أو التعلق بالألوهية (ربانى)^(٢).. ونحو ذلك، فحاول هنا أن يستغل هذه الظاهرة فى ظلال قواعد النحو.

بل إن القضية أوسع من ذلك بكثير.. فقد لاحظ ابن خلدون وهو يؤرخ لنشأة التصوف أن أجيال الصحابة والتابعين وتابع التابعين وصلت إلى مرحلة فى التاريخ تشبه التوقف بعد موت آخر هذه الأجيال.. ولكن ظهر فيما بعد ذلك آحاد ثم جماعات (ينتسبون) إلى هذا السلف العظيم، ويحملون أمانة الاستمرار على طرائقهم فى الورع والزهد والصبر والتوكل.. وتألفت من هؤلاء البدايات الأولى للصوفية، الذين بدورهم تناسلوا عبر التاريخ هذه الأسوة الصالحة بحيث لا يخلو عصر ممن لهم (انتساب) إلى هذا الطريق، فتظهر جماعة تمثل ضمير الأمة، لاتجرفها الأطماع، ولا يسترقها الحكام بل تبقى يقظة تحرس الدين مهما أهدت الخطوب، وارتمى الناس فى أحضان الدنيا.

وعلى هذا يمكن أن تجرى إشارة الشيخ على ثلاثة محاور:

(٢) الألف والنون قبل ياء النسب بته من بقايا السامية فى اللغة العربية مثل روحانى وربانى.. ونحوهما.

١. بداية يجب أن يتذكر الإنسان حقيقة (نسبه) فهو من «سلالة من طين» وهذا التذكير بالأصل الطيني له أهمية بالغة في السلوك.. استمع إليه «عرفهم»^(١) أصلهم لئلا يعجبوا^(٢) بفعلهم، و(نسبهم)^(٣) لئلا يخرجوا عن حدهم ولا يفلطوا في نفوسهم، خلقهم من سلالة سلت^(٤) من كل بقعة فمنهم من طينة من جردة أو من سبخة، من سهل أو من وعر.. ولذلك اختلفت أخلاقهم. خلقهم من سلالة من طين ولكن القدر للتربية لا للتربة».

٢. حينما يختار العبد (ياء النسب) ليدخل بها إلى الطريقة أو يتعلق بواسطتها بشيخ فعليه أن يعلم أن (التزامات ثقيلة) قد أقيت على كاهله لأن «قيمة كل إنسان بحسب إرادته فمن كانت همته الدنيا فقيمه خسيصة حقيرة كالدنيا ومن كانت همته الآخرة فشریف خطره، ومن كانت همته (ربانية) فهو سيد وقته»^(٥).

وفي تقديرنا أن فكرة (الانتساب) هي التي فرضت نفسها بمرور التاريخ على هذه الطائفة لكي تظهر الأسانيد التي تنتهي غالباً بالنبي ﷺ فكل شيخ يريد أن (ينتسب) إلى (أستاذ) أخذ عنه الطريقة، وهذا أخذها عن فلان.. عن فلان إلى النهاية، حتى تظهر سلامة اقتدائه وانتسابه، فلا يكون كـ (ما) التي لا تعرف لها نسباً ولا متشبهاً بمتشبهه في الفعلية!

٣. حينما نهض الشيخ لتأليف «رسالته» الشهيرة كي يوجهها إلى الصوفية في جميع الأنحاء كان (الانتساب) هو القضية المحورية لكتابه،

(١) بفتح العين وتشديد الراء المفتوحة.

(٢) بضم الياء وسكون العين.

(٣) بفتح النون والسين والباء.

(٤) بضم السين وتشديد اللام مع فتحها.

(٥) اللطائف مجلد ٢ ص ٥٦٩.

لأنه يريد أن يجمع الأسانيد والمتون للشيخ (الذين بهم اقتداء)، وأن يخلص^(٠) الطريقة وأهلها من هؤلاء الأمشاج الذين لم يصح (نسبهم) في الالتحاق، بل (كانوا عاراً) عليها وعليهم بما ابتدعوه من باطل.

(٠) بضم الهاء وفتح الخاء وتشديد اللام المكسورة.

فصل (٦٠)

جموع الكثرة والقلّة

«الجموع مختلفة، فمن جمع هو أقل الجمع، ومن جمع هو جمع الكثير. وأقسام الجمع تكثر وكذلك أحكامه.

والجمع إنما يكون لأشكال تزودج، وأمثال تجتمع، ثم يخبر^(١) عن المجتمعات باسم واحد.

والإشارة:

الإنسان اسم شامل لجملة مخصومة لها بنية^(٢) مشهورة، فمن^(٣) كانت صفاته وخصاله وضيعة فجمعه جمع القليل، ومن كانت خصاله شريفة فجمعه جمع الكثير.. وباختلاف أحكامه اختلاف مقدار.

(١) بضم الياء وفتح الباء.

(٢) بكسر الباء وسكون النون.

(٣) بفتح الفاء والميم.

فى الفطىن الحادى عشر والثانى عشر من هذا الكتاب تناول الشىخ فى عجل جمع التكمسىر، وكىف أنه فى كثر من الأحيان لكى ىتخذ قوامه ىحدث فى مفردة شئ من الهدم أو التفىىر، ولا ىخضع ذلك فى الأغلب إلى قاعدة مطردة ترىح الدارس، ولهذا تعددت صىغ هذا النوع من الجموع، ونشأت اصطلاحات مثل: جمع قلة وجمع كثرة، وسماعى وقىاسى.. فى محاولات لضبط أمر^(٠) عسىر (فأقسامه تكثر وكذلك أحكامه) وهو هنا ىفصل^(٠٠) الأمر.

ولنضرب أمثلة على ذلك:

قد تحدث تغيرات فى المفرد . مسموعة أو قىاسية .

مثل: صنو وصنوان (التفىىر هنا بالزىادة).

تخمة وتخم (التفىىر هنا بالنقص).

أسد وأسد^(٠٠٠) (التفىىر هنا بتبديل الشكل).

رجل ورجال (التفىىر هنا بزىادة وتبديل الشكل).

قضىب وقضىب (التفىىر هنا بنقص وتبديل شكل).

والشىخ هذا ىركز على فكرة معينة هى قضية الكثرة والقلة فى فئات هذا الجمع.

والأول ما فوق العشرة إلى ما لا نهاية له من الصىغ، وقد نظمها بعض الظرفاء على هذا النحو محاولاً أن ىحصر السبعة عشر جمعا (المشهورة):

(٠) بكسر الراء المنونة.

(٠٠) بضم الياء وفتح الفاء.

(٠٠٠) بفتح الألف والسين، والجمع بضم الألف والسين.

فى السفن الشهب البغاة صور مرضى القلوب والبحار عبر
 غلمانهم للأشقياء عملة قطاع قضبان لأجل الفيلة
 والعقلاء شرد^(١) ومنتهى جموعهم فى السبع والعشر انتهى
 أما جموع القلة فأوزانها أربعة هى على صيغ:

١. أفعل^(١). ٢. أفعال. ٣. أفعله^(٢). ٤. فعله^(٣).

ومع كل ذلك يبقى الباب مفتوحاً أمام شذوذ محتمل عن القاعدة،
 فالباب كما قلنا صعب المراس.

والإشارة..

يتكاثر النوع (الإنسانى) - وهذا هو المهم فى نظر الشيخ - حسب
 القاعدة القرآنية «مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ» (المؤمنون: ٢٧) التى تحوى أيضاً
 كائنات أخرى غير الإنسان. نقول يتكاثر البشر ثم يبدأون فى التشرذم
 جماعات وجماعات حسب طبائع أو دوافع أو أصول أو مواقع جغرافية...
 الخ هذه الأسباب المعروفة، وتأخذ كل جماعة اسماً ووصفاً، ويتحمس
 الفرد المنصوب تحت الجماعة لأهدافها وطموحها. وإذا حكمنا الأصل قلنا
 إن الخير غاية مثلى للنظام الإنسانى، وإذا فالخيريون أكثر عدداً من
 الأشرار، وهذا يطابق النسبة النحوية لجمع التكسير فجموع القلة أربع
 صيغ أما الكثرة فثلاث وعشرون وتزيد. هذه هى النظرة الصوفية
 للموضوع. أما لو تغلفنا فى دواخل هذه المجتمعات.. ولناخذ مجتمع
 الصوفية مثلاً. وهو مناط الرؤية عند الشيخ. فإتنا نصدم بأن العكس هو
 الصحيح..

(١) بضم الشين وفتح الراء وتشديدها.

(٢) بفتح الهمزة وسكون الفاء وكسر العين.

(٣) بكسر الفاء وسكون العين وفتح اللام.

(١) بفتح الهمزة وسكون الفاء وضم العين.

بل إن رؤية القشيري للموضوع تسبق ذلك بخطوات.. استمع مثلاً إلى تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ (الأعراف: ١٠٢)

(شكا من أكثرهم لأقلهم، فالأكثر من (٠) ردتهم (٠٠) القسمة والأقلون من قبلتهم الوصلة) (٢).

وتشتد الصراحة والوضوح في كشف الحقيقة عند قوله تعالى مخاطباً نبيه: ﴿وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (الأنعام: ١١٦) ويفسرهما الشيخ هكذا: (أهل الله قليلون عدداً وإن كانوا كثيرين وزناً وخطراً، وأما الأعداء ففيهم كثرة).

فإذا كان ذلك على المستوى العام، أي بالنسبة للكافة، فإنه صحيح أيضاً بالنسبة للمجتمع الخاص من الصوفية، يدخل الطريقة أعداد وأعداد.. ثم يخرجون بعد حين، ولا يبقى إلا أقل القليل «لأن الشكل بالشكل اليق» (٣) ولأن «المؤمن للأجانب مجانب وللأقارب مقارب». وكما قيل - طير السماء على ألافها تقع» (٤).

فالانسجام المزاجي الروحي عزيز.. ولا بد لقيام أي (تجمع) من الانسجام بين أفراد.. وهنا العبرة بالقيمة لا بالكم. فكأن الشيخ في النهاية يشير على القوم بهذه النصيحة: لاتفرحوا (بالكثرة) في عموم الأحوال، وأفرزوا وغربلوا.. وليخرج من بينكم من يخرج.. غير مأسوف عليه فريما كان جرثومة في بدن (مجتمكم) تماماً كما يخرج الشاذ من القاعدة المطردة في نحو الظاهر في حالة جمع التكسير.

(٢) اللطائف ج ٢ ص ٥٥٤.

(٠) بفتح الميم.

(٠٠) بفتح الراء وتشديد الدال المفتوحة.

(٢) اللطائف ج ١ ص ٢٤٥.

(٤) اللطائف ج ١ ص ٦٤١.

ونختم الباب ببعض الأفكار عن (اجتماعات) الصوفية على نحو موجز:

١- أهل الصفة^(٥): أول صورة لمجتمع الفقراء الذين أحصروا في سبيل الله. وينسبون إلى صفة مسجد النبي ﷺ في المدينة، وكان ينضم إليهم (أمثالهم وأشكالهم) ممن لا يجدون طعاماً أو مأوى.. وكانوا يكتسبون عند إمكان الاكتساب. وكان الرسول ﷺ يبعث إليهم مما عنده.

ويشبههم السهروردي «باجتماع الصوفية قديماً وحديثاً في الزوايا والريط»^(٦).

٢- الشكفتية: نسبة إلى شكفت أي الكهف والمغارة، ولايسكنون القرى والمدن، ويسمون في الشام «الجوعية» ويضيف السهروردي قائلًا: (واسم الصوفية مشتعل في جميع المتفرق في هذه الأسماء المذكورة)^(٧).

٣- القلندرية: وهم قوم «أسكرتهم طيبة قلوبهم حتى خربوا العادات وطرجوا التقيد بآداب المخالطات والمجالسات، وقلت^(٨) أعمالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض. ولم يبالوا بتناول شيء من لذات الدنيا من كل ما كان مباحاً برخصة الشرع، ومع ذلك فهم متمسكون بترك الادخار، وترك الجمع والاستكثار، ولا يترسمون بمراسم المتقشفين والمتزهدين والمتعبدین وقنعوا بطيبة قلوبهم»^(٩).

٤- الملامتية: ظهوروا في منتصف القرن الثالث الهجري في نيسابور مدينة القشيري. وقد تحدثنا عنهم في مواضع متفرقة.

ونحمد للسراج أنه تابع أغلاط (الجماعات) الصوفية متابعة جادة

(٥) بضم الصاد المشددة وفتح الفاء المشددة.

(٦) عوارف المعارف ص ٤٧.

(٧) عوارف المعارف ص ٤٧.

(٨) بفتح القاف وتشديد اللام المفتوحة.

(٩) عوارف المعارف ص ٤٨.

وموضوعية، الأمر الذى يهدى إلى تمييز الخبيث من الطيب بينها.. ونستمع إليه فى ذلك:

توهم (جماعة) من المريدين والمبتدئين أن مخالفة النفس يكون بترك الطعام تماماً حتى يؤمن شرها وبوائقها وعوائقها، وظنوا أن ذلك «حال». وقد غاطوا فى ذلك لأن المريد يجب أن يتوقف عند حد لا يكون منه بلاء وفتنة لا يقدر على تلافيهما، فالنفس أمارة بالسوء، ومن ظن أنها تنكسر بالجوع أو قلة الطعام فقد غلط ولقد كان سهل بن عبد الله رحمه الله يأمر أصحابه أن يأكلوا اللحم فى كل جمعة مرة حتى لا يضعفوا عن العبادة» اللمع ص ٥٢٧.

(وجماعة) ظنوا أن التصوف سماع ورقص واتخاذ دعوات وطلب إرفاق.. ونحو ذلك. وهذه قلوب ملوثة بحب الدنيا، متهمة بالبطالة والغفلة.. وهى من قبيل المعلولات والتكلف».

(وجماعة) فضلوا الأولياء على الأنبياء وهذا خطأ، لأن كل ولى من الأولياء ينال من الكرامة بحسن اتباعه لنبيه ﷺ. فكيف يجوز أن يفضل التابع على المتبوع، والمقتدى^(١) على المقتدى^(٢) به. وإنما يعطى^(٣) الأولياء رشاشة مما يعطى الأنبياء عليهم السلام.

والحق إن التصوف كان قد بدأ قبيل عصر القشيري فى التمحض عن طريق كثرة زادت مع الأيام عدداً وتشعباً، وانتشرت فى بقاع العالم الإسلامى فيما بعد انتشاراً هائلاً وحملت ألقاباً أخذت طريقها إلى الاشتهار مثل: الأكبرية والقادرية والرفاعية والسهروردية والشاذلية والمولوية والنقشبندية والبدوية... الخ .

(١) بكسر الدال.

(٢) بفتح الدال.

(٣) بضم الياء وفتح الطاء.

رتحاول كل طريقة أن تثبت إسنادها وتسلسل هذا الإسناد، ومعظمها إما ينتهى بعلی بن أبى طالب أو بأبى الصديق، وكلاهما من رسول الله ﷺ مقتبس. فإذ سلم إسناد الطريقة ومتونها على نحو مقنع فخير وبركة، وإذ أصاب الإسناد أو المتن شيء من الارتباب.. فحقه الرفض.. ويمكن الاستفادة بحقائق «علم مصطلح الحديث» فى متابعة هذا الجانب متابعة علمية موثقة.

فهرس

محتويات الكتاب الثانى

رقم الصفحة

٢٧١ المدخل
٢٧٣ الاتجاه الإشارى فى منهج القشبرى
 الاتجاه الإشارى فى «نحو القلوب الكبير» والمقصود بعلم النحو
٢٧٦ الصوفى أو «نحو القلوب»
٢٨٠ خطة الشروح
٢٨٤ صاحب الكتاب
٢٨٧ توثيق الكتاب ونسخه
٢٨٨ مخطوطات نحو القلوب الصغير
٢٨٩ مخطوطات نحو القلوب الكبير
 طلعت (٢٨) ، التركية (٢٩) ، التونسية (٢٩) ، السورية (٣٠) الإسكندرية (٣٠)
٢٩٧ القسم الأول - تحقيق الكتاب
٣٥٢ القسم الثانى . شروح الكتاب ودراسته
٣٥٢ ١ - النحو بين الظاهر والباطن
٣٦٥ ٢ - أقسام الكلام: اسم وفعل وحرف
٣٧٤ ٣ - تنمة فى الاسم والفعل والحرف
٣٧٤ ٤ - الكلام المفيد
٣٨٤ ٥ - الإعراب والبناء
٤٠١ ٦ - وجوه الإعراب أربعة
٤٣٢ ٧ - وجوه البناء
٤٥٣ ٨ - المعرفة والنكرة

٤٦٠	٩ - المفرد والمثنى.....
٤٦٤	١٠ - تامة فى المفرد والمثنى.....
٤٦٩	١١ - الجمع.....
٤٧٦	١٢ - تابع الجمع.....
٤٨٣	١٣ - الأسماء الستة.....
٤٨٨	١٤ - اللازم والمتعدى.....
٤٩٣	١٥ - الأفعال الخمسة.....
٤٩٨	١٦ - الصحيح والمعتل والمضاعف.....
٥١٠	١٧ - الإدغام.....
٥٢٠	١٨ - الاسم المبتدأ.....
٥٢١	١٩ - العوامل على قسمين لفظية ومعنوية.....
٥٢٢	٢٠ - فصول باب الابتداء.....
٥٢٧	٢١ - الخبر وأقسامه.....
٥٢٨	٢٢ - خبر المبتدأ على أقسام.....
٥٢٩	٢٣ - خبر المبتدأ قد يكون مثل المبتدأ.....
٥٣٧	٢٤ - الفاعل مرفوع.....
٥٤١	٢٥ - المفعول منصوب.....
٥٤٢	٢٦ - أقسام المفعول.....
٥٥٧	٢٧ - ما لم يسم فاعله مرفوع.....
٥٦٢	٢٨ - المضاف إليه.....
٥٦٥	٢٩ - كان وأخواتها.....
٥٦٦	٣٠ - إن وأخواتها.....
٥٧٢	٣١ - الفعل الماضى.....
٥٧٦	٣٢ - الفعل المضارع وإعرابه.....
٥٧٦	٣٣ - الحروف التى تجزم الفعل.....
٥٨١	٣٤ - فعل الأمر.....
٥٨٥	٣٥ - النعت.....

٥٨٨	٢٦ - الشرط والجزاء
٥٩٢	٢٧ - حروف العطف
٥٩٥	٢٨ - همزة الوصل
٦٠٠	٢٩ - حروف الخفض
٦٠٤	٤٠ - كف إن وأخواتها عن العمل
٦٠٧	٤١ - الفاء فى جواب الطلب
٦١٠	٤٢ - المنادى
٦١٧	٤٣ - الترخيم
٦٢٣	٤٤ - الأفعال الجامدة
٦٢٨	٤٥ - المعانى المختلفة لـ (ما)
٦٣٦	٤٦ - لا النافية للجنس
٦٤٢	٤٧ - كم الاستفهامية وكم الخبرية
٦٤٧	٤٨ - حروف القسم
٦٥٠	٤٩ - الظرف
٦٥٥	٥٠ - الاستثناء
٦٦٠	٥١ - الإلحاق
٦٦٣	٥٢ - الممنوع من الصرف
٦٦٨	٥٣ - التصغير
٦٧٠	٥٤ - التعجب
٦٧٤	٥٥ - الحال
٦٧٨	٥٦ - التمييز
٦٨١	٥٧ - بين العدد والمعدود
٦٨٦	٥٨ - الاسم الموصول
٦٩٢	٥٩ - النسب
٦٩٨	٦٠ - جموع الكثرة والقلّة
٧٠٢	٦١ - الخاتمة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

ص.ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس

WWW.egyptianbook.org.eg

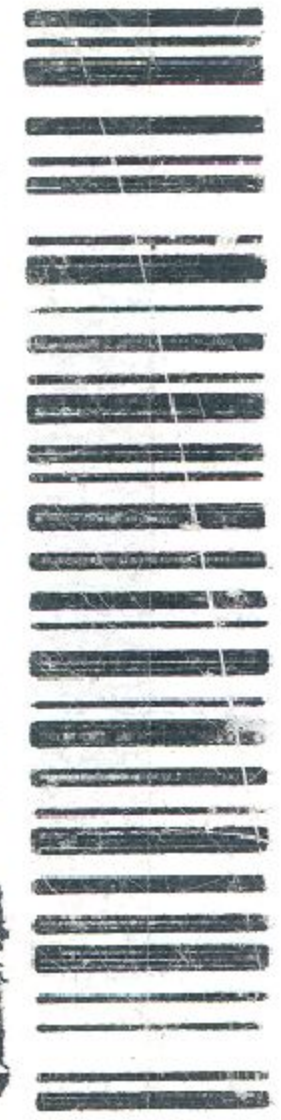
E-mail : info@egyptianbook.org.eg

يسعد الهيئة المصرية العامة للكتاب أن تقدم هذا الإصدار للقارئ العربي، والذي يجمع بين دفتيه كتابين قيمين للعالم الجليل زين الإسلام عبد الكريم القشيري.

- الكتاب الأول (نحو القلوب الصغير) : وقد بذل الدكتور أحمد علم الدين الجندي جهداً مشكوراً في دراسته وتحقيقه وشرحه.

- الكتاب الثاني (نحو القلوب الكبير) : الذي عثر الدكتور أحمد علم الدين الجندي على مخطوطته ، وكانت تحت يده عند تحقيق الكتاب الأول ، وشارك في تحقيقها الأستاذ الدكتور إبراهيم بسيوني أستاذ الأدب الصوفي بجامعة العراق وعين شمس وصدرت بمناسبة العيد الألفي للإمام القشيري.

Bibliotheca Alexandrina



0669264

١٧ جنيه

ISBN# 9789774203668



6 221149 008007